

موبى ديك

Herman Melville

فصل في الاشتقاق

اعده معلم مسلول كان يعمل

اشاء الحياة في مدرسة اعدادية

ذلك المعلم الشاحب ، مهلهل الرداء ، والقلب والجسد واللبة ، أذكره كأثني أراه . كان دائماً ينفض القبار عن معجماته وأجروميته القديمة ، بمنديل عجيب الطراز ، مزخرف - على نحو ساخر - بكل الاعلام البهيجة التي ترمز الى جميع الأمم المعروفة في العالم . وكان يروقه ان ينفض القبار ايضاً عن ا لمعلومات النحوية في ذاكرته ، فذلك امر كان يذكره - في لطف وديع - بأنه ينتمي الى أهل الفناء .

حين تعين الآخرين على أن يتعلموا ، وتلقنهم اسم الحوت في لغتنا ، مسقطاً - بطريق الجهل - من اسمه حرف «هـ» H ، وهو الحرف الذي يمنح الكلمة مفزاهاً ، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب .

(هكليت)

هويل... وفي السويدية والدنمركية : «هوال» - اسمه مأخوذ من الاستدارة أوالتكؤر ، لأن الفعل «هوال» في الدنمركية تعني « تقوس » أو « تقب » .

(قاموس وبستر)

هويل... اشتقاق مباشر من الهولندية أو الألمانية ، ففي الألمانية «ويلن» والصفة منها «ويليان» تعني «يلتوي» أو «يلتفت» .

(قاموس رتشاردسن)

بالعبرية	ح ت
باليونانية ^(١)	ق و ط س
باللاتينية ^(١)	ق ي ط س
بالانجلوسكسونية	هُوَيْل
بالدنمركية	هوالت
باليهولندية ^(١)	وال
بالسويدية	هوال
بالانجليزية	هويل
بالاسلندية	هويل
بالفرنسية	بلتين
بالاسبانية ^(١)	بلتينة
بالفيجية	بيكي - نويه - نويه
بالارومانجونية	بيهي - نويه - نويه

(١) دخلت كلمة « القاطوس » في اللغة العربية إلا أن بعض المصادر أوردتها خطأ بالقاء (أنظر مثلاً حياة الحيوان للدميري) وكذلك كلمة « البلينة » عرفها الأندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي ٢١٤٠) وقال ابن سعيد « البلينة حوت كبير يحرف بدابة البحر (المخرّب ١ ١٩٢٠) وتُعرَّب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الفال والوال والاول والافال .

مقتطفات

أعدّها مساعدٌ لخازن مكتبة مساعد

سترون ، أيها القراء ، أن هذا الحفار الثّقاب ، أن تلك الأرضة النفاذة التي أسمىها مساعد الخازن المساعد ، قد تغفل في أقبية المكتبات وسراديبها الطويلة ، ملتقطاً الاشارات المتناثرة الى الحيتان ايان وجدها ، من كتب دينية أو دنيوية . لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال ، وإن كان صحيح النسبة ، وتعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فما أبعد هذه الأقوال من ذلك! إذ أن المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة وعن الشعراء المذكورين في هذا الثبت ، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم والأجيال العديدة - ومنها جيلنا - أو تصوّرتَه أو تفتتت به - على نحو مختلط - عن « اللويثان » .

إذن وداعاً يا مساعد المساعد المسكين ، الذي أمثل أنا منه دور الشارح المعلق . إنك لتنتمي الى تلك القبيلة الشاحبة اليانسة التي لا تستطيع أية خمرة في هذا العالم أن تبعث في عروقها دفناً ، قبيلة لو وضعت إزاء شحوبها تلك المصغراء التي لا تنزل الأحزان ساحتها لبدت قائنة كأنها الفرصاد ، قبيلة يحب المرء أن يعاشرها أحياناً ويحس إحساسها بالمسكنة والتعاسة ، ويفدو مرحاً مطراباً على طعم المبررات ، ويقول لأبنائها في غلظة وجفاء ، وشؤونه دافقة وكأسه خواء ، وحزنه مشوب بشيء من الجذل والرضاء ، « دعوا عنكم هذا العناء ، يا مساعدي المساعدين! » كلما ازددتم كذاً لإرضاء هذا العالم ، زاد ما تلقونه من البخس ونكران الجميل أبداً . لتمنيت أنني أستطيع أن أوطنكم هامبتون كورت أو التويليري^(١) بعد أن

(١) في هامبتون كورت قصر ملكي زاره ملغل لي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٨ ولابد أنه مرّ في إحدى جولاته الباريسية بقصر التويليري ، وكان مذن القصران قد اتخذا متعنين في أيام ملغل ، كما أن التويليري كان مقر لويس نابوليون الذي انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٤٨ ونودي به امبراطوراً عام ١٨٥٢ .

أخيهما ممن يحلها . لكن تجرعوا عبراتكم ، وسارعوا الخطى صموداً الى العاصري الملوكي بكل ما أوتيتموه من قوة ، لأن أصدقاءكم الذين تقدموكم على الطريق أخذوا يخلون السموات السبع ويخلون لاجنين لدى الملائكة المتخمين : جبريل وميكايل ورفائيل ، ليحولوا بينكم وبين الحلول فيها . في هذا العالم تفرعون قلوباً مشقوقة بقلوب ، أما في العالم الآخر فإنكم ستفرعون كزوساً سليمة بكزوس!

فخلق الله الحيتان^(١) العظام .

(التكوين ١ : ٢١)

{ اللويثان } يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب .

(أيوب ٤١ ، ٢٢)

وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليلعب يونان .

(يونا ١ ، ١٧)

هناك تجري السفن ، لويثان هذا خلقت ليلعب فيه .

(مزايير ١٠٤ ، ٢٦)

في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لويثان ، الحية الهاربة ، لويثان ، الحية المتحوية ، ويقتل التنين الذي في البحر .

(اشعيا ٢٧ ، ١)

وأيا شيء اقترب من واقوصة^(٢) فكئي ذلك الوحش ، سواء أكان حيواناً أم قارباً أم صخرة ، انحدر في تلك «البالوعة» الويلة المنهومة ، وتلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار .

(الفقرة ٢١ من كتاب الأخلاق لفلوطارخس)

وينتج في البحر الهندي أكثر الأسماك وأكبرها ، ومن بينها الحيتان والخطارات التي تسمى البليينات ويبلغ الواحد منها في مساحته أربعة أقدنة (٦٤٠ قدماً مربعاً) أو أربعة أرفينات - والأرفين ٨٤٠ - من الفدان .

(بليني ٩/٢٠٤)

ولم تكن قد تقدمنا مسافة يومين في البحر حتى ظهر لنا عند الشروق عدد كبير من الحيتان ووحوش البحر الأخرى وكان أحد الحيتان بالغ الجسماء... انتحي نحونا ، فاغر

(١) في الترجمة العربية ، التناين .

(٢) الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاووصة) ومعناها الهوة ، وقد عرفها العرب بهذا الاسم ، وبها سمي المكان .

الشدقين وهو يرفع الموج من كل جانب ، ويخط الماء أمامه زبداً .

(التاريخ الصحيح للوقيان - الكتاب الأول)

وزار هذه البلاد أيضاً ليصيد الحيتان ، ولعظامها قيمة بالغة لما فيها من أنياب ، وجلب بعضاً منها للملك... وخير الحيتان يصاد في هذه البلاد ، وبعضها يبلغ ٤٨ ياردة في طوله وبعضها يبلغ خمسين ، وقال إنه أحد ستة صادوا ستين حوتاً في يومين .

(حديث شفوي جرى على لسان من اسمه اوثر او

أوكنر ودونه الملك ألفرد عام ٨٩٠ ب م .)

كل الأشياء حيوانات كانت أو قوارب ، إذا هي دخلت الخليج المخيف الذي يسمى فم الحوت ، غرقت في التو ، وأصبحت أثراً بعد عين إلا سمك القويون البحري فإنه يلوذ الى ذلك الكهف مطمئناً وينام فيه .

(موتين - في «دفاع عن ريموند سيند»)

لنهرب! لنهرب! حاز روجي الشيطان الرجيم إن لم يكن هذا هو اللويثان الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة أيوب الصبور .

(وابليه)

وكان كبد هذا الحوت يساوي ما تحمله عريتان .

(حوليات استو)

[اللويثان] العظيم الذي يجعل العمق يظلي كالقَدِر .

(ترجمة اللورد بيكون للمزامير^(١))

أما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان أو الأرخ^(٢) فليس لدينا شيء يقيني ، ولكنها تطبق شحماً حتى أن كمية الدهن التي تستخرج من حوت واحد تفوق حد التصديق . .

(بيكون في «تاريخ الحياة والموت»)

(١) قلت هذا ورد في سفر أيوب ٤١ ، ٣١ .

(٢) في الأصل ork وصرابها orc وهي من اللاتينية orca وتعني الحوت أو الفرموز أو ما يشبهه .

خير ما في الأرض لملاج جرح دخيل هو زيت الحوت .

(الملك هنري الرابع ، ١ ، ٣٠٧-٥٨)

كأنه حقاً حوت .

(صملت ٢/٢ ، ٢٩٩)

لم تجده شيئاً براعة الحجام ، وكان عليه
إن شاء الشفاء ، أن يعود كرة أخرى
إلى الذي سبب جرحه ، حين رماه بسهم عائر
شكاً به صدره ، وابتعث فيه الألم المبرح ،
عودة الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل .

(من قصيدة "The Fairie Queen")

لسبنسر ٦ / النشيد ١٠ / القطعة ، ٣١)

جسيم كالحيثان التي إذا تحركت أجسامها في البحر الساكن تخبط البحر بها كأنه
يظلي .

(من أقوال السير وليم دافنات في «مقدمة على جنديت»)

للناس الحق في أن يتساءلوا عن ماهية زيت الحوت ، لأن العالم أوزمان يقول دون
مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً ، «إننا لا نعرف ما هو» .

(في زيت الحوت ، وحوت المنبر)

للسير توماس براون ٢ ، ٢٦)

كأنه طالوس ذو «الفلقة»^(١) الحديثة ، الذي ذكره سبنسر ،
ينذر بالويل والشبور بذيله المهول .
وهو يحمل حرايبهم المثبتة
وعلى ظهره تبدو غاية من أسنة .

(معركة جزائر سومر لادمند والر - النشيد الثالث)

(١) الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum وتعني في الأصل «السطح» .

بقدره فنان خلق ذلك اللويثان العظيم الذي يسمى في اللغة اللاتينية Civitas (بمعنى كيان دولة) وليس هذا الكيان إلا إنساناً مصطنعاً .

(العبارة الأولى في كتاب «لويثان» لهوبز)

وابتلعها منصول [الروح الإنساني] الغبيّ دون مضع كأنها كانت سمكة صغيرة في فم

حوت .

(رحلة حاج لبيبان)

ذلك الحيوان البحري ، اللويثان

الذي جعله الله من بين مخلوقاته

أعظم ما يسبح في الماء .

(الفردوس المفقود ٧/٤١٢-٤١٦)

- هناك اللويثان

أعظم المخلوقات ، في البحار

ممتداً كأنه برزخ ، ينام أو يسبح ؛

ويبدو كأنه أرض تتحرك ،

فإذا فزع فاه تجرع بحراً ،

وإذا نفث زفيره أصدر بحراً .

(المصدر نفسه)

الحيثان الجبارة التي تعوم في بحر من ماء وفي داخلها تعوم بحار من زيت .

(الدولة الدينية والديوية لتوماس هلر)

تستلقي اللويثانات الضخمة خلف قنة بحرية

متربصة بفرائسها ،

ولا تطاردها ، وإنما تبتلع السرب

الذي يضلّ بطريقه ذاهباً خلال الأشداق المفتوحة .

(سنة الأعاجيب (١٦٦٦) للشاعر جون دريدن)

وحين يكون الحوت عائماً عند كوثة السفينة يقطعون رأسه ويجرونه بواسطة قارب

فيقربونه من الشاطئ قدر المستطاع ، ولكنه لو جرّ في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً أو ثلاثة عشر للامس الأرض .

(عشر سفرات الى سبتزبرجن لتوماس
إدج مضمّنة في رحلات بركاس)

وفي طريقهم رأوا حيتاناً كثيرة تمرح في البحر ، وهي في عبث ترسل الماء عالياً من خراطيمها ونفائثاتها التي جعلتها الطبيعة في أكثافها .

(رحلات السير توماس هوبرت في آسيا وألبريقية)

وهنا رأوا كتائب ضخمة من الحيتان حتى اضطروا الى السير بحذر بالغ لئلا تنسرب بهم سفينتهم عليها .
(التطواف السادس لثوتن)

وأبحرنا من إلب والرياح شمالية شرقية في سفينة تدعى « يونان في جوف الحوت »... بعض الناس يقولون إن الحوت لا يستطيع أن يفتح فمه ، إلا أن هذا قول خرافي... وكثيراً ما يصعدون الصواري ليروا إن كانوا يستطيعون أن يبصروا حوتاً ، لأن من سبق غيره الى رؤيته نال « دوقة » لقاء تبعه... وقد أخبروني عن حوت اصطيده قريباً من شتلند ، وأنهم وجدوا في كرشه برميلاً من سمك الرنجة... وأخبرني أحد حواتينا أنه صاد مرة حوتاً في سبتزبرجن وكان أبيض اللون .

(رحلة الى جرينلاند عام ١٦٧١ من مجموعة هاريس)

وقد أملت بهذا الشاطئ (شاطئ فايف) حيتان عديدة ؛ وفي عام ١٦٥٢ أحضر من عظم الحوت ما طوله ثمانون قدماً ، وقد خبروني أن وزن البلين بلغ ٥٠٠ وزنة عدا كمية كبيرة من الزيت ، أما الفك كان فقد اتخذها في بوابة حديقة في بتفرن .
(فايف وكنروس لسيبولد)

وقد وافقت أنا نفسي على أن أجرب السيطرة على حوت عنبر وأن أقتله لأنني لم أسمع بأن واحداً من ذلك النوع قتله إنسان ، لما هو عليه من عنف وسرعة .

(رسالة من رتشارد استافورد بمثها
من جزائر برمودا ، ١٦٦٨)

حتى الحيتان في البحار

تطبع أمر الجبار

(كتاب العطالمة الأولي)

ورأينا أيضاً الجمّاء الغفير من الحيتان الضخام ؛ فإزاء كل حوت في البحار الشمالية -
أستطيع أن أقول - هناك مائة في البحار الجنوبية .

(رحلة القبطان كاولي حول الكرة الأرضية عام ١٧٢٩)

... ويصاحب نفْسَ الحوت رائحة لا تطاق حتى أنها لتحدث خللاً في الدماغ .

(أمريكا الجنوبية لأولو)

الى خمسين حورية من ذوات المقام الرفيع

نهدد بالمسؤولية الكبرى ، وهي إلباسها الصندار ،

وقد طالما عرفنا أن تلك الدرع ذات الطاقات السبع تعجز واهنة

وإن كانت محشوة بالأطواق ، مزودة بأضلاع حوت .

(الكسندر بوب ، اغتصاب الخصلة .

النشيد الثاني ، الأبيات ١١٧-١٢٠)

إذا قارنا حيوانات البر من حيث الجسامة بالحيوانات التي تتخذ الأعماق مشابه لها

وجدنا الأولى زرية لدى المقارنة ، فالحوت دون ريب أعظم الحيوانات خلقة .

(التاريخ الطبيعي لجولد سمث)

إذا كنت تريد أن تكتب أسطورة للسّمك الصغير ، فقد تجعلها تتحدث كالحيتان العظيمة .

(من جولد سمث الى جونسون كما أوردها بوزولد)

وبعد الظهر لاح لنا ما حسبناه صخرة ثم تبيننا أنه حوت ميت قتله بعض الآسيويين

وكانوا يجرونه نحو الساحل . وبدنا لنا أنهم يحاولون أن يخفوا أنفسهم وراء الحوت لكي لا

تقع أعيننا عليهم .

(رحلات كوك)

أما الحيتان الضخمة فقلما يتجاسرون عليها بهجوم ، فهم يخشون بعضها حتى أنهم إذا كانوا في عرض البحر خافوا أن ينطقوا بأسمائها ، وهم يحملون معهم في قواربهم الروث والجير وخشب العرعر وبعض المواد الأخرى من هذا القبيل كي يخيفوها ويمنعوها من أن تدنو منهم .

(رسائل اونو فون ترويل عن رحلة

بانكس وزولاندر الى اسلندا عام ١٧٧٢)

وحوت العنبر الذي صادفه بعض الناطوكيين ، حيوان عنيف نشيط يتطلب لباقة وجرأة عظيمتين في الصيادين .

(ذكريات عن صيد الحيتان كتبها توماس جفرسن

الى الوزير الفرنسي ارمان مارك عام ١٧٧٨)

وأستيحك يا سيدي : أي شيء في العالم يضاهيه .

(من خطاب ادمند بيرك في البرلمان (٢٢ آذار ١٧٧٥)

أشار فيه الى حرفة صيد الحيتان لدى أهل نانتوكت)

اسبانيا - تلك حوت ضخم جانح على شواطئ أوروبا .

(ادمند بيرك - نسبت اسم المصدر)

وعشر الدخل العادي للملك ، وهو يعتمد على اعتباره حارساً حامياً للبحار من القراصنة واللصوص ، إنما هو حقه في السمك الملكي ، وهو الحوت والاسطرغون ، فإذا قذف الموج بهذين الصنفين على الشاطئ أو اصليدا على مقربة منه ، كانا ملكاً للملك .

(وليم بلاكستون - في تعليقات على قوانين

انجلترا ، الكتاب الأول . الفصل ٨ .)

وعلى التوّ يتحى البحارة لعبة الموت :

فيرفع ردمند فوق رأسه ، مسدداً ،

السنان المشحوذ ، ويرقب كل ناحية .

(سفينة تتحطم لفالكونر - النسخة الثاني)

وتلألأت لامعة السقوف والقباب والجريسيات
وانطلقت الصواريخ من نفسها
لتعلق نارها التي تبقى لحظة
حول قبة السماء .

ومن أجل أن لا يتفوق عنصر النار على عنصر الماء
أخذ البحر المحيط يطغى سامقاً
ينفثه في الفضاء حوت ،
ليعبر عن فرح مستحکم الطغيان .

(كوبر - قصيدة في زيارة الملكة للندن ، الأبيات ١٢-٢٠)

ويقذف هو بسرعة هائلة عشرة جالونات أو خمسة عشر من الدم من قلبه لدى ضربة واحدة .
(حديث جون هنتر عن تقطيع حوت - صغير الجرم)

إن فوهة الأبهـر (الأورطي) في الحوت أكبر سعة من فوهة الأنبوب الرئيسي في
المنشآت المائية عند جسر لندن ؛ أما الماء الهادر في مروره خلال ذلك الأنبوب فإنه أقل
زخماً وسرعة من الدم المنبثق من قلب الحوت .

(اللاهوت لبيلي)

الحوت حيوان ثديي دون رجلين خلفيتين .

(بارون كوفييه)

وعلى الدرجة الأربعين جنوباً رأينا حيتان عنبر لكننا لم نصد شيئاً منها إلا في أول أيار
(مايو) إذ كان البحر حينئذ مغطى بها .

(رحلة كولنت لتوسيع نطاق التحويت لصيد حوت العنبر)

في العنصر الطليق من دوني كانت تعوم
وتتغالب وتفوص ، عابثة أو مطاردة ، أو في عراق ،
أسماك من كل لون وشكل وصنف ،
تعجز اللغة عن تصويرها ، وما رأى مثلها الملاحون ،

من الحوت المخوف حتى ملايين الصغار التي تسكن كل موجة
وقد تجمعت في أسراب ضخمة كأنها جزر عائمة
تقودها غرائز خفية خلال ذلك اليباب المائي
الذي لا يحفظ أثراً ، وإن كان يهاجمها من كل جانب
أعداء ذوو نهم وضراوة .
حيتان وقرشان وهولات ، مسلحة في مخاطمها أو الأشداق ،
بسيوف ومناشر وقرون ملوية أو أنياب خطافية .
(العالم قبل الطوفان لمونتجومري)

أنتما أيها الرّبان ، ايو ويايان ، تفنيا
لملك الرعايا المزعفة
فليس في الأطلسي المديد
حوت أقوى من هذا الحوت
ولا يتطوف حول البحر القطبي
حوت أشد منه سمّة وترارة
(مجد الحوت لشارل لام)

في عام ١٦٩٠ كان نفر من الناس يرقبون ، من فوق ربوة عالية ، الحيتان وهي تنفث
وتتعاث ، حين قال أحدهم وهو يشير الى البحر - هناك مرج أخضر سيذهب إليه أحفادنا
طلباً للخبز .
(تاريخ ناتوكت لمبيد ماسي)

وصنعت لي ولسوزان كوخاً وجعلت الباب على شكل قنطرة قوطية ، حين نصبت هنالك
عظام فكّ الحوت .

(قصص حكيّة مرتين لهوثورن
- من حكاية « العم القمروي »)

وجاءت لتوصي ببناء نصب تذكاري لحبيبها الأول الذي كان قد قتله حوت في المحيط
الهادي منذ ما لا يقل عن أربعين سنة .
(المصدر نفسه - من حكاية « ضربات بازميل »)

فأجاب توم : « لا يا سيدي هذا حوت أئين ، لقد رأيته ينفتح ، فنصب قوسيّ قزح في الجو كأجمل ما يحلو لإنسان أن يرى . ذلك برميل زيت نادر .

(الربان لجيمس فيمور كوبر ، الفصل ، ١٧)

وجاءوا بالجراند فرأينا في « صحافة برلين » أن الحيتان قد استحضرت فوق المسرح عندهم .

(أحاديث بين أكرمان وجوته ، ٢١ كانون الثاني ١٨٢٠)

فأجبت : « رباء! ما بالنا يا سيد (تشييز)! ، لقد شقّ الحوت سفينتنا » .

(خبر عن تحطم الحوامة « اسكس » من ناصوكت وقد هاجمها حوت عنبر وحطمها تحطيماً في المحيط الهادي ، وكان الضابط الأول فيها هو اوين تشيز ، وهو الذي كتب هذا السرد ، نيويورك ١٨٢١)

جلس بحار ذات ليلة في مرقبه
والريح طليقة تنفخ نايتها
وضوء القمر الشاحب حيناً يلتمع وحيناً يخبو
ويتلألأ لهب الفوسفور في مجرّ الحوت
وهو يتوثب في الماء .

(من قصيدة البحار الفريق « الأبيات ١-٥ » لاليزابث اوكس سمث)

وكان طول العجل الذي سحب من مختلف القوارب المنهمكة في صيد الحوت يبلغ معاً ١٠٤٤٠ ياردة أو قرابة ستة أميال انجليزية... وأحياناً يهز الحوت ذنبه الرابع في الفضاء فيفرقع كأنه سوط ويتردد صدها على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة .

(سكورسي)

فإذا جن جنون حوت العنبر المستشيط غضباً بالألام التي يتلقاها من هذه الهجمات الجديدة تقلب ظهراً لبطن ، ونصب رأسه الضخم وانقض بفكيه المفتوحين ناهشاً كل شيء حوله ؛ ويندفع نحو القوارب برأسه ، فتقلب أمامه في سرعة فائقة وأحياناً تتحطم تحطماً

تاماً... ولعلّ مما يبعث الدهشة البالغة أن يغفل الناس إغفالاً تاماً التأمّل في عادات حيوان
فد ، هام (من الزاوية التجارية) - كحوت العنبر - أو أن تكون تلك العادات قد استثارت قليلاً
من الفضول لدى عديد من المتطلعين ، وفيهم عدد جمّ من ذوي الكفاية ، الذين سنحت لهم
في السنوات الأخيرة أوفر الفرص وأثراها مواتاة لمشاهدة عادات الحيتان .

(تاريخ حوت العنبر تأليف توماس بيل ١٨٢٩)

والقشلوط (حوت العنبر) ليس فحسب أحسن سلاحاً من الحوت الأثين (حوت
جرينلاندي) من حيث أن له سلاحاً مخيفاً على طرفي جسمه ، وإنما هو أيضاً بيدي - في أكثر
الأحوال - ميلاً لاستعمال أسلحته بطريق العدوان ، وعلى نحو فني جسور مؤذٍ معاً ، وهذا
يؤدي بالناس الى أن يعدوه أخطر حيوان يهاجمونه بين جميع الفصائل المعروفة من عشيرة
الحوت .

(رحلة تحويت حول الكرة الأرضية)

لفردريك دبل بنيت ١٨٤٠)

١٣ تشرين الأول (أكتوبر) : وسمعنا من يهتف من أعلى الصواري ، « هناك ينفت! »

فقال القبطان : « كم يبعد ؟ »

- $\frac{٣}{٤}$ درجة يا سيدي .

- ارفع الدفة . أثبت!

- أثبتها يا سيدي .

- أنت في رأس الصاري ، هل ترى هذا الحوت الآن ؟

- أجل . أجل سيدي! سرباً من حيتان العنبر . هناك ينفت! هناك يشب!

- اهتف . اهتف كلما رأيته!

- سمأ سيدي! هناك ينفت - هناك - هناك - هناك ينفت - ين - نننننننننن

- كم يبعد ؟

- ميلين ونصف .

- يا للبرق والرعد! أعلى هذا القرب! ادعوا الجميع!

(صور من رحلة تحويت لروس براون ١٨٤٦)

إن سفينة التحويت «جلوب» التي حدثت على ظهرها هذه الحوادث المرعبة - ونحن بسبيل سردها - تنتمي الى جزيرة ناتوكت .

(قصة التمرد على السفينة جلوب)

كتبها ورفاء لاي وهسي (١٨٢٨)

ولما أن لحق به الحوت الذي كان قد جرحه ، تجنب هجمته بعض الوقت بحرية ، ولكن الحيوان المتسخط انقض في النهاية على القارب ، ولم يحمه ويحم رفاقه منه إلا قفزهم في الماء عندما رأوا أن هجمته محتومة لا يمكن تلافيها .

(يوميات الأسفار والرحلات ، لتيرمان وينت -

بوسطن ١٨٣٢ ، المجلد الأول ، الفصل الأول)

وقال السيد ويستر : «إن ناتوكت نفسها حصة فذة خاصة من الدخل القومي ؛ سكانها عددهم ثمانية آلاف أو تسعة يعيشون هنا في البحر ، ويضيفون إضافة كبيرة كل عام الى الثروة الوطنية بحرفة تعد من أجراً الحرف وأشدها تطلباً للمثابرة والدأب .

(من خطاب دانيل ويستر في مجلس الشيوخ

الأمريكي ، ألقاه بمناسبة طلب إقامة حاجز

عند الميناء في ناتوكت ، عام ١٨٢٨)

ووقع الحوت عامداً فوقه ولعله قتله في لحظة .

(الحوت وصيادوه أو مخاطر الحوات وسيرة

الحوت ، استقاما القس هنري ت . شيفر في

رحلة المودة الى الوطن من القومودور بربيل)

فأجاب صموئيل : «إذا نامت نامة بحثت بك الى الجحيم» .

(حياة صموئيل كومستك (المتمرد) كتبها

أخوه وليم كومستك ، وهي صورة أخرى من

قصة التمرد على ظهر الحوالة «جلوب»)

إن رحلات الهولنديين والانجليز الى المحيط الشمالي ، لعلهم يكتشفون طريقاً الى الهند من خلاله ، فتحت أمامهم ، وإن أخفقوا في هدفهم الأول ، المواطن التي تأوي إليها الحيتان .

(القاموس التجاري لملك كولك)

هذه الأمور تتم في تبادل ، فالكرة ترتد لتنتظ الى الأمام مرة أخرى ؛ وها هم الحوتون بعد أن انكشفت لهم المواطن التي تأوي إليها الحيتان ، قد وقعوا - فيما يبدو - على دلائل جديدة تؤدي بهم الى ذلك الممر الشمالي الغربي الخفي .

(من «شي» لم ينشر)

من المحال أن يصادف المرء حوامة في البحر دون أن يدهشه مظهرها المألوف . فللسفينة ذات الأشرعة القصيرة التي يقف رقباًؤها على رؤوس الصواري يمعنون النظر اللهيف في البسيط الممتد من حولهم ، هيئة تختلف اختلافاً كلياً عن تلك السفن المنهمكة في رحلة منتظمة .

(التيارات والتحويت - البعثة الأمريكية)

لقد ذكر المشاة في جوار لندن وفي جهات أخرى أنهم رأوا عظاماً مقوسة قد نصبت في الأرض ، إما لتكون أقواساً في البوابات أو مداخل للمخادع ، ولعلهم أنبنوا أن هذه العظام أضلاع حيتان .

(حكايات عن حوات في المحيط المتجمد الشمالي)

ولم يدرك البيض أن سفينتهم قد حازها غضباً المتوحشون المسجلون بين الملاحين إلا حين عادت القوارب من مطاردة تلك الحيتان .

(خبر صحفي عن اغتصاب الحوامة هوبموك واستعادتها)

من المشهور المتعارف أنه قلما يرجع أحد من بحارة الحواتات (الأمريكية) في السفن التي أبحروا على ظهورها .

(رحلة في قارب تحويت لجيمس رودس)

وفجأة انفرج الماء عن كتلة هائلة انطلقت عمودياً في الفضاء وإذا بها حوت .

(مريام كوفن او صياد الحيتان لجوزف هارت)

حقاً إن الحوت يزرق بالحراب ، ولكن تدبر لنفسك كيف يمكنك أن تسوس مهراً أرنأ
لم يروض من قبل بربط حبل - محض ربط - عند عجب ذنبه .

(لصل في التصويت على الأريئات وتويجات الصواري)

وفي إحدى المرات رأيت اثنين من هذه الحيوانات الهائلة (الحيتان) وربما كانا ذكراً
وأنتى يسبحان في بطن ، متعاقبين ، على مرمى حجر أو أقل من الشاطئ: (شاطئ تراء دل
فويجو) الذي تمد فوقه شجرة الزان أغصانها .

(رحلة عالم طبيعي لدارون)

« جميعاً الى المؤخرة! » كذلك هتف الضابط حين استدار فرأى فكّي حوت عنبر
فاغرين ، قرب رأس القارب ، وهما يهددانه بخراب وشيك . « إلى المؤخرة جميعاً ، نجاةً
بأنفسكم! » .

(وارتون صياد الحوت)

تذرعوا بالبشر يا فتياي ، وبرباطة الجأش ،
حين يغرز الزراق الجسور رمحه في الحوت .

(أغنية ناتوكتية)

آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف والنكباء ،
يظل في بيته في الماء
مارداً في قوته ، حيث القوة هي عين الحق
وملكاً على البحر المديد ، الذي لا تعرف له حدود .

(أغنية الحواتين)

تباشير

قبل بضع سنوات ، لأدري عددها على وجه الدقة ، كنت أنا - وليكن اسمي الذي أعرف به هو اسماعيل - خالي الوفاض من الدراهم أو كالخالي ، ولم يعد على البرشيء يبعث المتعة في نفسي ، فخطر لي أنني قد أقضي بعض الوقت مبحراً^(١) وأرى الجزء المائي من العالم . ذلك أنني كلما أحسست بالتجهّم يرتسم حول شفتي ، كلما أحسست في روحي بشي من رطوبة تشرين ونضحه البليل ، كلما وجدت نفسي أقف ، وقفّة المأخوذ ، أمام دكان التوابيت ، وأصبح كلّ جنازة صادفتها في الطريق ، بل قلّ كلما سيطر عليّ الشعور بالمرّة السوداء، حتى أصبحت بحاجة الى وازع أخلاقي رادع يحول بيني وبين الضرب في الشوارع وتسديد اللكمات المحكمة الى رؤوس السابلة ، كلما كنت في مثل تلك الأحوال أحسبت أنه قد آن لي أن أركب البحر بأقصى ما أستطيعه من سرعة ، فذلك هو ماؤثره إن أثر غيري المسدّس والرصاص . في رباطة جأش المتفلسف ألقى كاتو^(٢) بنفسه على سيفه ، أما أنا فأبني أتوجّه نحو السفينة في هدوء . وليس في هذا ما يثير استغراباً ، فلو أنّ الناس على اختلاف درجاتهم عرفوا هذا الأمر لأصبحوا بين الحين والحين يشركونني مشاعري نحو البحر أو يكادون .

ها هي مدينة منهاتو البحرية ، يلفّها نطاق من الأرصفة كما تلتف الحواجز المرجانية حول الجزائر الهندية ، ويكللها زبد البضائع من كلّ ناحية ، وشوارعها جميعاً تفضي بك الى البحر ، يميناً جعلت وجهتك أو شمالاً ، وعند أقصاها يقع ذلك السدّ العتيّد الذي تغسله

(١) قام لفلل في الواقع بمدة رحلات بحرية . أولها رحلة من نيويورك الى ليفربول عام ١٨٢٩ .

(٢) يعني ماركوس بوركيوس كاتو (٩٥ - ٤٦ ق . م) حفيد كاتو الرقيب ، اتحر بعد مقتل بومبي لتلايق أسيراً في قبضة يوليوس قيصر وقيل إنه قضى آخر ليلة من حياته يقرأ « الفيدون » لأفلاطون .

الموجات وتنعشه النسيمات ، وإذا كنت في الطرف الآخر من المدينة لم تره لأن بينك وبينه مسيرة بضع ساعات . تأمل عند ذلك السد الحاجز جماهير المحققين في الماء .

أو إن شئت فطوف أرجاء هذه المدينة في أصيل يوم حالم قد أخذ الناس فيه الى الراحة ، توجه من «ثنية كورلير» الى «مزلقان كويتي» ومن ثم انعطف شمالاً ماراً بهوايتهول ، فماذا ترى ؟ آلفاً مؤلفة من الأحياء ، قد استبحروا في تأمل الماء ، كأنهم حراس صامتون قد انبثوا في كل الأرجاء ، بعضهم يتكئ على الأسيجة ، وبعضهم يجلس على مشارف الأرصفة ، وبعضهم يمد عينيه فوق جنبات السفن القادمة من الصين ، وآخرون قد أمعنوا في تسلق الحبال كأنهم يحاولون أن يبرزوا من عداهم في تفرس الماء . هؤلاء جميعاً أبناء البر يقضون ستة أيام في كل اسبوع سجناء خلف جدران من الخشب والطين ، مشدودين الى مكاتبهم ، مستمرين في مقاعدهم ، مقيدين عند مناظرتهم . ما السر ؟ هل اختفت من الأرض مروجها الخضراء ؟ ماذا يصنع هؤلاء الناس عند البحر ؟

انظر! ها هي أفواج أخرى عامدة الخطوات نحو الماء كأنما تريد أن تغوص فيه . يا عجباً! لا شيء يرضيهم دون الوقوف على حافة الماء ، فإما التحظر تحت المشارف الظليلة في تلك المصانع فإنه لا يرضيهم ، بل إنهم يقتربون من الماء اقتراب من يود أن يعانقه دون أن يقع فيه ، وهناك يقفون صفوفاً تبلغ الأميال أو الفراسخ طولاً . كلهم من سكان البر ، وفدوا من الزقاقات والمنعطفات ، والشوارع والطرقات ، جاءوا من جميع الجهات ، واتحدوا جميعاً عند الماء ، أتري القوة المغناطيسية في إبر البوصلات المستعملة في تلك السفن قد اجتذبتهم نحوها ؟

ثم هب أنك كنت في الريف ، في منطقة مرتفعة ذات بحيرات ، واسلك أي مسرب شئت ، وأنا على يقين أن كل مسرب يقودك الى سرارة الوادي ، وهناك تجد نفسك قد وقفت عند حوض في جدول . إن في الماء لسحراً ، وإن شئت على ذلك برهاناً فاعمد الى رجل هائمة في أحلامه غريق في مطاويها ، ثم اسنده حتى يقف على قدميه ، وادفع به حتى يمشي ، تجد أنه يقودك - دون أن يضل - الى الماء ، إن كان في تلك البقعة ماء . وإن ظلمت وأنت في الصحراء الأمريكية الكبرى فاعمد الى هذه التجربة إن كان في القافلة أستاذ سابع في غيوب الميتافيزيقا فكل الناس يعلمون أن التأمل الفكري والماء قرينان الى الأبد .
وها هو فتان يريد أن يختار للمصورة التي يرسمها منظرًا خلاباً من مناظر وادي ساكو^(١) هو أشدها إمعاناً في الحلم وأكفها ظلالاً ، وأهدأها وأكثرها سحراً وخلابةً . فما أهم عنصر

(١) نهر ساكو ، ينبع من قاعدة جبل واشنطن ويجري الى الجنوب ويمصب في الأطلسي عند مين .

يدرجه في الصورة ؟ سيرسم ، ولا بد ، شجرات جذوعها مجوفة كأن في داخلها ناسكاً يحمل صليبه ، وهناك يبسط المرحج اللغافي ، وهنا التقطع الجاثي ، ويجعل عند الطرف الأقصى كوخاً يتصاعد منه الدخان الواهي ، وتتفلفل في الغابة النائية طريق متعرجة تبلغ أنوف الرعان الفارقة في زرقة الأفق . وتظهر الصورة على هذا النحو سابحة في غيبوبة النشوة ، وشجرة الصنوبر تنشر تهدياتها فوق رأس الراعي كأنها أوراق تتساقط . إلا أنها رغم ذلك كله صورة باهتة لاهياة فيها لو لم تكن عين الراعي معلقة بالجدول السحري الذي يترقرق أمامه . اذهب في زورة الى منطقة السهوب الشاسعة (البريري)^(١) في شهر حزيران (يونيه) حيث تفرق رجلاك حتى الركبتين بين أزهار الزنابق على مدى عشرات من الأميال . لكن ما السحر الذي تمتقر اليه تلك المنطقة ؟ - هو الماء - فليس فيها قطرة منه . ترى لو كانت نياجرا شلالاً من الرمل أكنت تقطع آلاف الأميال من أجل أن تراه ؟ وحين تسلّم شاعر تنسي اليانس^(٢) قبضتين من الفضة ، لماذا تراه وقف يميل بين شراء معطف هو في أشد حاجة اليه وبين أن يستغل نقوده في رحلة الى شاملي . روكوي يقوم بها راجلاً ؟ لِمَ يكاد كل غلام جزل سليم ذي روح جزلة سليمة يتوق - بين الحين والحين - توقان المجنون للذهاب الى البحر ؟ لِمَ كان الفرس القداما يعدون البحر مقدساً^(٣) ؟ لِمَ جعل الإغريق للبحر رياً عدوه أحياناً لرب الأرباب نفسه^(٤) ؟ حتاً إن لذلك كله مغزى . وأعمق من هذا مغزى قصّة الفتى « نرجس » فإنه حين عجز عن أن يمسك خياله الوديع المتمقل أمامه في النبع ، وعذبه شعوره بعجزه ، ألقى نفسه في الماء وأثر الفرق . ونحن أنفسنا نرى ذلك الخيال في كل نهر وكل بحر ، ذلك هو خيال شبح الحياة ، الخيال الرواغ الذي لانستطيع أن نضمّ عليه جمع اليد ، وذلك هو السر في كل ما هنالك .

وإذا قلت أنّ من عادتي أن أذهب الى البحر حين أحس بدوائر من التجهّم تنعقد حول عيني ، وحين أحس بضيق في التنفس ، فليست أعني أنني أذهب الى البحر في صورة رحالة مسافر ، إذ المسافر لا بد له من كيس ، وما الكيس إلا خرقه إذا كان فارغاً لاخشخشة له ، ثم إن المسافرين يصابون بدوار البحر ، ويعتريهم التكد والتحفز للشجار ، ويأرقون ولا يجدون لأنفسهم متعاً . كلا . ولا أذهب الى البحر في صورة كومودور أو قبطان أو طبّاح ، وإن كنت أعرف شؤون الملاحة . بل أتخلّى عما في هذه الوظائف من مجدر ورفعة لمن كان

(١) في الانتقال الى الغرب في منتصف القرن التاسع عشر كان لمنطقة السهوب سحر جذاب بأسر نفوس الأمريكيين .

(٢) لأحد يدري الي من يشير لمنزل في هذه العبارة . ولعلّ المقصود هو باهارد تيلور الذي كان يكثر من الرحلة ماشياً .

(٣) ذكر هيرودس أنّ المجوس يقتسمون الفضاها والترابين للشمس والقمر والتراب والنار والماء والريح .

(٤) هو بوسيدون أخوزس في الأساطير الإغريقية .

يهواها ، ذلك أنني أمقت كل ما يعده الناس مشرفاً محترماً من ضروب الكدح والمحن والبلايا ، أيّاً كان نوعها . فأنا أحب أن أهتم بشؤون نفسي دون أن أهتم بالسفن والمركبات المثقفة الأشرعة والمثناة والشواني وهلم جرا . وأنا أقر أنّ وظيفة الطباخ ذات مجدٍ وثير ، إذ الطباخ في السفينة يشبه أن يكون ضابطاً ، ومع ذلك لم يخطر لي أبداً أن أشوي الفراخ ، مع أنّ الفرخة إذا شويت ، وأضيف إليها القدر اللازم من الزبد ، ومُلّحت وتبّلت في إحكام ، فلن تجد أحداً مثلي يستطيع أن يتحدث عنها باحترام ، إن لم أقل بتوقير وإجلال . إنّ شغف المصريين القدماء بأبيس المشويّ وبفرس الماء المحمّرة هو الذي حدا بهم الى وضع مومياءات هذين الحيوانين في مخابزهم الضخمة التي يسمونها «الأهرام» .

غير أنني حين أذهب الى البحر أختار أن أكون بخاراً بسيطاً يقف أمام الصاري ، ويسبر غور الماء أمام منارة السفينة ، ويصعد الى قمة الصاري الملكي . حقاً إنّ رؤسائي يأمروني بهذا أو ذاك ، فأقفر من دقل الى دقل كأنني جندب ينطّ في المروج الربيعية ، ومثل هذا الأمر في البدء يكون مشارعاً وكأبة ، إذ يجرح شعور المرء بالإعتزاز ، وبخاصة إنّ كان ينتمي الى إحدى العائلات العريقة^(١) كبنّي رينسلار وبنّي راندولف والمهردكانوتيين . ولعلّه أشدّ شيء مساساً بالكرامة الذاتية إن كان المرء - قبل أن يغمس يده في برميل القار - معلماً في مدرسة رفيعة ، يحرك يده الأمانة الناهية أمام طلابه ، فيجعل أطولهم قامة يقف في رهبة وخشوع . دعني أوكد لك أنّ النقلة من وظيفة معلّم الى مهنة بخار أمرٌ جادٌ مرهف لا يستطيع المرء أن يصبر بأسنانه مكشراً وهو يأخذه على عاتقه إلا إذا أثار حماسه لقبوله فيلسوفٌ مثل سنكا وسائر الرواقيين . إلا أنّ حدة هذا الشعور تتضاءل بمرور الزمن .

أيّ عار في أن يستدعيني قبطان فظّ عبوسٍ ويأمرني أن أحضر مكنسة أنظف بها ظهر السفينة ؟ ترى أيّ درجة تبلغها هذه المهانة - أعني أيّ وزن تبلغه - في ميزان الإنجيل ؟ هل ينحطّ قدري في نظر جبريل - سيّد الملائكة - لأنّي خففت بإحترام ملتياً أوامر ذلك الفظّ العبوس في ذلك الأمر عينه ؟ خبّرني أيّنا ليس خادماً ؟ اذن فهما يأمرني القبطان العجوز ، ومهما يصيبني من صفعاته ولطماته فإنّي أراني راضياً لأنّي أعلم أنه لم يأت شيئاً إداً ، ولأنّي على يقين أنّ كلّ إنسان تقدّم له الخدمة على نحو أو آخر ، أي على نحو مادي أو معنوي ، وهكذا تدور اللطمة فتصيب كلّ الوجوه ، وتنزل اللكمة على كلّ منكب ، وحين أعلم كلّ ذلك يستولي عليّ الرضى .

(١) كانت عائلة مثل نفسه عريقة ، اشتهر منها غير واحد . وكان هو نفسه معلماً ، والقطة الأولى التي جعل عنوانها «فصل في الاشتقاق» وتحدّث فيها عن المعلم الشاحب المسلول إنّما يشير فيها الى نفسه في أغلب الظن ، ولعله أراد أن يقرن نفسه بمعلمين ساروا أدباً . سمرقون مثل روسو والدكتور جونسون .

ثمّ أنا أذهب الى البحر في صورة بخار لأنّي أنقاضي أجراً عن كلّ أتعابي ، أما الذي يركب البحر مسافراً فإنه لا يقبض درهماً واحداً - فيما أعلم . بل الأمر على النقيض إذ على المسافر أن يدفع أجراً وفي هذا نفسه كلّ ما في الكون من فرق بين الدفع والقبض . وربّما كان الدفع أسوأ عاقبة انزلها بنا لصنا الجنة^(١) . أما القبض ، فهل شيء يوازيه ؟ إنّ الحيوية الوديعّة التي يبديها المرء وهو يقبض نقوداً غاية في إثارة الإعجاب ، هذا مع أننا جميعاً نعتقد مخلصين أنّ المال أصل كلّ الشرور الدنيوية ، وأنّ الفني لا يدخل باب السماء إلا حين يدخل الجمل في سمّ الخيط . ما أسرع ما نسلم أنفسنا الى التهلكة راخين مستبشرين!

ثمّ أنا أختار دائماً أن أكون بخاراً لأنّي أمارس رياضة بدنيّة مفيدة واستنشق هواءً نقيّاً عند منارة السفينة ، إذ الأمر في السفينة كالأمر في العالم الذي نساكنه ، أعني أنّ الرياح في المقدّمة أشدّ انتشاراً من الرياح في الكوئلة (هذا إذا أنت لم تنقض الحكمة الفيثاغورية الساترة)^(٢) ولذلك فإنّ البحارة عند منارة السفينة يستنشقون الهواء أولاً ثمّ يسلمونه الى الكومودور في موضعه خلف الدقل الكبير ، فيستنشقه وقد تبدّد جوهره ، وهو يظن مخطئاً أنه أوّل من يتلقّاه ، وبمثل هذه الطريقة يتحكّم المرؤوسون في رؤسائهم في شؤون أخرى ، والرؤساء غافلون عمّا يجري . لقد عبأت رثتي من هواء البحر عدّة مرّات وأنا بخار تاجر ، فما الذي أوحى اليّ أن أذهب هذه المرّة في رحلة لصيد الحيتان ؟ إنّ مصرف الأقدار المحجوب وراء الغيب الذي يرعاني في كلّ خطاي ، ويحفزني سرّاً الى عمل ما أعمل ، ويسيطر عليّ بطريقة لا أستطيع تفسيرها ، هو وحده القادر على أن يجيب عن هذا السؤال . ولاريب في أنّ رحلتي هذه لصيد الحيتان تمثّل جانباً من ذلك المخطط العظيم الذي رسمته عناية الله منذ الأزول ، فقد جاءت نوعاً من الراحة القصيرة ، نوعاً من النغم المفرد بين فصلين كبيرين من رواية . ولعلّ ما خطّ في اللوح المحفوظ إنّما كتب على النحو الآتي :

التنافس على الجولة الانتخابية الكبرى لرئاسة الجمهورية في الولايات المتّحدة^(٣)

رحلة لصيد الحيتان يقوم بها شخص يدعى اسماعيل

معركة دامية في أفغانستان^(٤)

(١) في هذا إشارة الى قصة آدم وحواء .

(٢) تصح الحكمة الفيثاغورية على الإمتناع عن أكل الفول «فذلك خير للمعدة . وهذا يجعل الرؤى في النوم أقل اضطراباً وأشدّ هدوءاً» .

(٣) لعله يشير الى انتخابات عام ١٨٤٠ قبل إبحاره على السفينة أكوهنت .

(٤) قامت في كابول ثورة عام ١٨٤١ قتل فيها عدد من الضباط الانكليز .

لماذا خصص لي مديرو المسرح ، أعني الأقدار ، هذا الدور الخسيس ، دور صيد الحيتان ؟ ولمّ قدرُوا لغيري أدواراً كبرى في تراجميات سامية ، وأدواراً قصيرة سهلة في كوميديات ظريفة ، وأدواراً مفرحة في مجونيات ضاحكة ؟ لست أعرف لذلك جواباً ملائماً ولكنني حين أستعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملابسات ، أعتقد أنني قد أتبين بصيصاً يفسح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسَلَّت اليّ مأكراً تحت شتى ضروب التنكر والتخفي ، وأغررتني بالشروع في أداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا الى أنها داهنتني فجرتني الى التوهّم بأنّ ما أدّيته إنّما اخترته بمحض إرادتي الحرة السديدة وحكمتي الرشيدة .

وأقوى هذه الدوافع فكرةً مهيمنةً عن الحوت الكبير نفسه ، فمثل هذا الوحش المهول الغامض يثير لديّ رغبة في الكشف والتطلع . ثمّ تلك البحار الموحشة النائية حيث يتدحرج الحوت بجثة كالجزيرة ضخامةً ، وأخطار الحوت ، تلك الأخطار التي لا أستطيع أن أتحدّث عنها أو أسمّيها بأسمائها ، وما يصحب ذلك من عجائب تقدّمها آلاف المرنيات والمسموعات عند محاذاة بتاغونيا ، كلّ هذه الأمور كانت عوامل تحكّمت بي لتوجّهني الى غايتي . وقد تعجز هذه الأمور نفسها على أن تغري أناساً آخرين ، أمّا أنا فإنّي امرؤ تعذّبه الحرقة الدائمة نحو الأمور النائية ، فأنا أعشق الإبحار في بحار ممنوعة والنزول على شواطئ موحشة همجية . وأستطيع ، دون أن أغفل عمّا هو خير ، أن أسرع الى إدراك الرعب ، كما أستطيع أن أكون مع الرعب على وثام - وليتهم يسمحون لي بذلك - إذ من الخير أن يكون المرء على وفاق مع كلّ ما في المكان الذي يحلّ فيه نزلاء .

لهذه الأسباب جميعاً رحبت صدرأ برحلة صيد الحيتان ، وكأنّ عالم الأعاجيب فتح أبوابه أمامي على مصاريعها . وبين الأخيلة الغريبة التي حدثني الى غايتي أخذت تحوم في آفاق روحي ، مثني مثني^(١) ، مواكبٌ مسترسلة من الحوت لاتنتهي ، وبينها جميعاً أرى شعباً عظيماً مقلّناً كأنه تلةٌ ثلجية في الفضاء .

(١) يقارن لفلّ هنا بين ازدواج الأخيلة في آفاق روحه وبين دخول الحيوانات في سفينة فرح « من كلّ زوجين اثنين » مشتبهاً روحه بالسفينة .

حقيبة من القماش

دستت قميصاً أو اثنتين في حقيبة قماشية عتيقة وطويتها تحت ذراعي ، وشرعت في رحلتي نحو رأس هورن والمحيط الهادي ، ففادرت مدينة منها تو الطيبة القديمة ووصلت نيوبدفوردي^(١) دون إبطاء ، وكانت ليلة سبت في شهر كانون الأول (ديسمبر) ، ولشدة ما كانت خيبة أملي حين علمت أن سفينة الركاب الصغيرة كانت قد أقلمت إلى ناتوكت وأن ليست هناك من وسيلة لبلوغ ذلك المكان حتى يوم الاثنين التالي .

إن معظم الشبان الذين يرشحون أنفسهم لتلقي آلام صيد الحيتان وعقوباته يقفون في نيوبدفوردي كي ينطلقوا من ثم في رحلتهم ، غير أنني لم أكن أريد ذلك ولا خطر لي في بال ، إذ كنت قد أزمعت أن أبحر في سفينة ناتوكتية ، وذلك لأن شيئاً جميلاً مثيراً يتصل بكل شيء ذي علاقة بتلك الجزيرة القديمة الشهيرة ، وكان ذلك الشيء الجميل المثير يبعث في نفسي سروراً وارتياحاً . نعم كانت نيوبدفوردي قد أخذت تدريجياً تحتكر مهنة صيد الحيتان ، حتى أصبحت ناتوكت القديمة المسكينة متخلفة عنها في هذا المضمار ، ولكن هذه الثانية هي أم الأولى - هي صور التي ولدت قرطاجة - هي المكان الذي جُرّ فيه أول حوت أمريكي قتيل إلى البر . هل تجمع الحوتون الأول - أولئك الرجال الحمر في قواربهم ليطاردوا الحوت (اللويثان) ، إلا في ناتوكت ؟ ومن أين - إلا منها - اندفعت أول سفينة مغامرة وحيدة الصاري وقد شحنت فيها حمولة من الحصى - كذلك تقول القصة - لتخذف بها الحيتان ، حتى يكتشف الصيادون مدى اقترابها فيقذفوها بالرمح المریش من محاذاة الدقل المائل الأمامي . كان عليّ أن أقضي في نيوبدفوردي ليلة ويوماً ، وليلة أخرى تتلوهما ، قبل أن أستطيع

(١) على الساحل الجنوبي من ولاية ماساشوسيت ، على الضفة الغربية من نهر أكوشتنت ، أما فيرفاين فتقع على الضفة الشرقية ، وقد زار ملغل مدينة نيوبدفوردي عام ١٨٤٠ يوم كانت أهم ميناء لزيت حوت العنبر .

الإقلاع الى الميناء المقدور ، ومن ثم وجدتني أفكر في أمر الطعام والمنام . وكانت ليلة مريبة السحنة ، لا بل قاتمة شديدة القتام والكآبة ، مكفهرّة قارسة البرد . ولم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة . وسبرت غور جيبي بأصابع قلقة كأنها الخطّاف فلم ترجع اليّ إلا بضع قطع من الفضة . ووقفت في وسط شارع مقفر ، وقد طرحت حقيقتي على عاتقي ، أقارن بين جهمة الأفق في الشمال وظلمته جهة الجنوب ، وفي وقتي قلت لنفسي : حيشما وليت وجهك يا اسماعيل ، حيشما قدرت لك حكمتك أن تأوي الى نزل في هذه الليلة ، ياعزيزي اسماعيل ، فكن على يقين من أن تسأل عن الأجر قبل أن تتورط ، ولكن لاتمعن في التدقيق .

وذرعت الشوارع بخطى مترددة وجاوزت لافتة «الرماح المتقاطعة» . ولكن كان يبدو لي المكان الذي وصلت اليه باهظ التكاليف مفرطاً في المرح . ومن أمامي كانت «حانة الحوت المسيف» ترسل من نوافذها الحمر اللامعة أشعة فياضة حتى لقد بدا لي أنها أذابت الثلج والجليد المتراكم من أمام الحان . إذ كانت كل بقعة سواها تحمل من الصقيع المتجمد طبقة يبلغ سمكها عشر بوصات وتكوّن رصيفاً صلباً كالإسفلت ، وكان ذلك نفسه يكرهني حين أنقل قدمي على التواءات الصوانية ، لأنّ الخدمات الشاقة المضنية التي أداها نعلاي جطلتهما في حالة بانسة مزرية . وخطر لي مرّة أخرى أن المكان باهظ التكاليف مفرط في المرح ، وتوقفت لحظة لأرّقب اللآء المنساب على أرض الشارع ، وأسمع قرع القوازير والأكؤس في الداخل . وأخيراً قلت لنفسي : امض بنا يا اسماعيل ، ألسّ تسمع ؟ هيا ابتعد من أمام الباب فإنّ حذاءيك المرقعين يعرقلان المرور . ومضيت ، تقودني الغريزة في الشوارع المشجّهة نحو الماء ، إذ عند الشاطى، أجد - ولا ريب - أرخص الحانات والفنادق إن لم أقل أرحبها صدرأ .

باللشوارع الخاوية! كيف من ظلمات على الجانبين لا بيوت ، وهنا وهناك ذبالة تنوس كأنها شمعة منصوبة في قبر . في تلك الساعة من الليل ، وفي آخر يوم من أيام الاسبوع بدا ذلك الحي من المدينة كأنه خراب مهجور . ولكن سرعان مابلغت ضوءاً يعلوه الدخان منبعثاً من مبنى داني السقف واسع الباحة ، بابه مفتوح على مصراعيه كأنما يرحّب بالداخلين ، وعليه سمة من الاستخفاف وعدم الإكتراث كأنما أقيم ليفيد منه الجمهور ، ودخلت ، وكان أول ما فعلت أن وقعت متعثراً بصندوق للرماد في الدهليز . وحين كادت الذرات المتطايرة تخنقني كنت أقول لنفسي : يا لهذا البلد! أترى هذا رماد عامورة التي احترقت ؟ وتذكّرت «الرماح المتعارضة» «والحوت المسيف» ، وقلت : لا بد أن تكون هذه هي «المصيدة» . ولملمت نفسي واستجمعت ناهضاً ، وتقدّمت وأنا أسمع صوتاً عالياً يصدر من الداخل وفتحت باباً داخلياً ثانياً .

وبدا لي كأنني أشهد البرلمان الأسود الكبير متقدماً في ظلمات توفه (الجحيم)^(١) ، وإن منات الوجوه تلتفت في مقاعدها تفرس في القادم ، ومن دونها ملاك المنية الأسود يرتل في كتاب فوق منبر ، كان المكان كنيسة للزنج وكان حديث الواعظ عن ظلمة الظلام وعن البكاء والعيول وتحريق الأزم هنالك . وتمت بيني وبين نفسي وأنا متردد حائر : وإها لك يا اسماعيل ، ما أتسن القرى عند لافتة « المصيدة » .

وتقدمت فبلغت أخيراً ضوءاً خافتاً غير بعيد عن أحواض السفن ، وسمعت في الفضاء صريراً بانساً ، وتطلعت الى أعلى فرأيت علامة تتأرجح فوق باب وعليها طلاء أبيض يمثل - على نحو باهت - فؤارة طويلة منتصبة ذات رذاذ ضبابي وقد كتب تحتها : « حانة التفات لصاحبها بطرس التابوتي » .

وقلت لنفسي : تابوت ؟ نفات ؟ لفظتان كريهتان في تلك الحال . غير أنهم يقولون إن كلمة التابوت اسم شائع في نانتوكت ، وأظن أن بطرس هذا هاجر منها الى هذا البلد . ولما بدا لي النور باهتاً والمكان - لأول وهلة - هادئاً ، وبدا البيت الخشبي الصغير الذي تشعث كأنما عمّر من خرائب منطقة التهمتها النيران ولما أوحى لي اللافتة المتأرجحة أن الصرير الذي ترسله إنما هو قرعة القمر والتعاسة - لما بدا كل ذلك كذلك قلت : لا بد أن تكون هذه البقعة أرخص نزل ، وخير مكان تقدم فيه قهوة الحمص .

كان نوعاً من البيوت غريباً - داراً قديمة تنتهي بجملون مفلوج من أحد جانبيه - إن صح التعبير - مائل على شقه الآخر في أسي ، وتقع الدار عند زاوية حادة كنيبة حيث تظلّ الريح العاصفة أوروكليدون^(٢) ترسل عواءً أسوأ من كلّ عواء . كانت ترسله من حول سفينة بولس المسكين . وعلى ذلك فإن أوروكليدون نسيم قوي منعش لكل من استكن في البيت ، ووضع رجله على المدفأة ليدفئهما قبيل النوم . يقول مؤلف قديم أملك أنا من كتابه النسخة الوحيدة التي استعصت على الفناء : « حين تحكم على هذه الريح العاصفة التي تسمى أوروكليدون فيجب أن تعين من أية الزاويتين تنظر إليها ، لأن الإختلاف بينهما ينشئ فرقاً مدهشاً في حكمك : أنت ترمقها من وراء الشباك الزجاجي حيث يتجمع الصقيع كله في الجانب الخارجي ، أم أنت ترقبها من خلال النافذة العارية التي لإطار لها ، حيث يتجمع الصقيع في الجانبين

(١) توفه : اسم مرتفعات في وادي ابن هنم حيث جعل الاسرائيليون الجاحدون أبناءهم يمرزون خلال النار الى العنم في موكب ضلال ووجود (ارميا ٧ : ٢١ - ٢٢) . وذكره ملتن في « الفردوس المفقود » (١ : ٣ - ٤) وقال : توفه هناك وجههم السوداء . . . ولعل ملفل رأى في نيوبدفوردي كنيسة للزنج فقد كان لهم فيها كنيسة يوم ذهب في السفينة الاكوهنت .

(٢) هي الريح التي حطمت سفينة بولس . جاء في أعمال الرسل (٢٧ : ١٤) ولكن بعد قليل هاجت عليها ريح زرعمية يقال لها أوروكليدون .

الخارجي والداخلي . وحيث يكون شخص الموت هو الزجاج الوحيد » . وحين خطرت هذه العبارة ببالي قلت في نفسي : حقاً أيها الأديب القديم إنك لذو منطقٍ سديد . نعم هاتان العينان هما النافذتان وجسدي هذا هو الدار ، ياليت الناس رأبوا هذه الصدوع وسدّوا هذه الشقوق وجعلوا هنا وهناك سطاماً أو نسالة . لكن لات حين اصلاح وترميم . فقد تكون الكون . ووضع حجر الزاوية في البناء ، وسويت الشظايا منذ مليون عام . مسكين هو لعازر يغرر أسنانه كالمنشار في صوّة من الصوى ليأخذها وسادة ، وترتجف فوقه أسماله كلما اهتز وارتعش . وقد يسدّ كلتا أذنيه بالخرق ، وقد يضع في فمه قرصة قمع ، ومع ذلك فإنّ هذا كله لن يحميه من الريح العاصفة أوروكليدون . ويقول دايفس الشيخ^(١) وهو ملقّب بمعطفه الحريري الأحمر (ومن بعد أصبح لديه معطف أشد حمرة من الأول) : أوروكليدون! أح! أح! ما أجملها من ليلة ذات صقيع! ما أشدّ لألاء الجوزاء! أيّ أنوار تجيء من الشمال ؟ دع المتحدثين يتحدثون عن المناخ في صيفهم الشرقي ذي الالهراء الخالدة وأعطني الحق في أن أصنع لنفسي صيفاً بإيقاد النار . لكن مارأي لعازر ؟ هل يستطيع أن يدق، يديه الزرقاوين بأن يرفعهما في وجه الأنوار الشمالية العظيمة ؟ ألا يؤثر لعازر أن يكون في سومطره بدلاً من أن يكون هنا ؟ ألا يؤثر أن يستلقي على خطّ الإستواء ؟ بلى أيها الأرباب! بل يؤثر أن يذهب الى قرارة السعير ليعبد عن نفسه هذا الزمهير .

فإذا قلت لك أن لعازر استلقى هناك منطرحاً ورأسه على الصوّة أمام باب دايفس فهذا أمر أشدّ إثارة للدهشة من أن تسمع بأنّ جبلاً من الجليد قد أرسى عند إحدى جزائر مالوفا^(٢) . غير أنّ دايفس نفسه يعيش كأنه قيصر روسي في قصر من الجليد^(٣) مصنوع من التهنّدات المتجمّدة . وبما أنه رئيس هيئة اجتماعيّة تحرم الخمر فإنه لا يشرب إلا العبرات الحار التي يسكبها اليتامى .

ولكنّ حسبنا بكاء فنحن ذاهبون لصيد الحوت ، ولابدّ لنا من دموع غزيرة من بعد . أمّا الآن فلنكشط الجليد عن أقدامنا المتجمّدة ، ولنحاول أن نرى أيّ نوع من المكان هو حانة « النفاث » .

(١) وردت قصة لعازر والرجل الفني في إنجيل لوقا (١٦ : ١٩ - ٢١) ولم يعين الإنجيل اسم ذلك الفني . وإنما ورد اسمه DIVES في بعض كتب الرحلات .

(٢) جزائر مالوفا أو جزائر البهار تشمل كلّ الجزر الواقعة في أرخبيل الملايو .

(٣) كان يقام في بطرسبورج قصر من الجليد كلّ عام يضوأ بالشموع والمشاعل خلال أحد الأعياد .

حانة النفاث

إذا أنت دخلت حانة النفاث التي تنتهي بجملون وجدت نفسك في مدخل فسيح متطامن مضلل ، ذي طراز عتيق من الأفاريز ، يذكر المرء بهيكل سفينة عتيقة قبيحة المنظر . وقد علق في أحد جوانبها لوحة زيتية كبيرة ، لوث الدخان صفحتها وانطمست معالمها ، حتى أنك لا تستطيع أن تستبين فكرتها وأنت تنظر إليها تحت الأضواء المتعارضة غير المتكافئة التي كشفتها لعينيك عند دخولك إلا بالنفوس المستمر والزيارات المتكررة المنظمة ومساءلة الجيران . إنها كتل من الظلال والأخيلة لامغزي لها حتى تكاد تظن أن الرسام الذي أوجدها فنان شاب طموح كان يعيش في عصر سواحر نيوانجلند وحاول أن يمثل بها صورة الفوضى الكونية حين تلمسها كف السحر . بعد قسط كبير من التأمل المخلص والتفكير المثابر المكرور ، وبعد أن تفتح النافذة الصغيرة الواقعة نحو الخلف من المدخل ، تستنتج أخيراً أن هذه الفكرة التي خطرت لك - أياً كان حظها من الغرابة - لها ما يؤيدها .

غير أن أشد ما يثيرك في الصورة ويعيبك فهمه منها إنما هو كتلة طويلة لدنة مهولة سوداد تتذبذب في وسط الصورة فوق خطوط ثلاثة زرق معشمة عمودية عانمة في زيد لا يعرف كنهه . إنها صورة بليلة موحلة نزارة طحلبية لو رآها امرؤ عصبي المزاج لتركته مشتمت الخواطر ، غير أن فيها لوناً من الروعة يعز على التحديد والتصوير الكامل ، ولا يدرك إلا بعض ادراك ، لوناً يأسرك ويوثق عينيك بها حتى لتقول : آليت على نفسي لأجدن مغزي هذا الرسم العجيب .

وتتسائل على مخيلتك توأ خواطر براءة إلا أنها - وبالأسف - خادعة : إنها صورة البحر الأسود وقد هبت عليه النسمات في منتصف الليل ، إنها الصراع الشاذ بين العناصر

الأربعة ، هي مرج أتلفه حاصب ، لعلها منظر شتائي في هيبور ، ربّما كانت صورة إنفجار نهر الزمن الذي يحتضنه الجليد على الجانبين . ثم تتراجع هذه الخيالات حسيرة أمام ذلك الشيء المهول الذي يحتل وسط الصورة ، لأنك إذا عرفت سره ، فكل ماعداه هين ميسور . على رسلك! أليس فيه شبه يسير من سمكة ضخمة بل شبه من الحوت العظيم نفسه ؟

والواقع أنني عرفت فكرة الفنان ، وكان ماتوصلت اليه نظرية حاسمة كوتتها بنفسي ، إلا أن بعضها مبني على آراء جمعتها من شيوخ كثيرين تحدثت اليهم في الأمر ، وخلاصة ما هنالك أن الصورة تمثل رجلاً من رأس هورن في عاصفة شديدة ، وقد غامت سفينة هنالك فأصبحت شبه غريقة لا يرى منها إلا صواريتها الثلاثة معطلة ، وفي الصورة حوت ساخط محنق يريد أن ينقض على السفينة ، وتكاد تقول إنه لشد تحفزه سيستسّم في وثبه رؤوس الصواري الثلاثة .

أما الجدار المواجه للمدخل فقد علقت عليه صفوف من الهراوات الضخمة والحراب ، وبعضها قد رصع بأسنان لامعة تشبه مناشير العاج ، وبعضها الآخر قد جعلت عليه جمّة من خصل شعر الإنسان ، وكانت إحداها في هيئة منجل ذي مقبض ضخّم تتأرجح يمنة ويسرة كأنها القطّاع الذي خلفه في عشب حصده حديثاً حصاد طويل الذراع . وحين يحدّق فيها الناظر تعتريه رعشة ودهشة : ترى أي متوحش مخيف أكل للحوم البشرية كان يحمل هذه الأداة المرعبة المذرّبة ليحصد بها الأرواح كأنه الموت . وبين هذه الأدوات حراب ورماح قديمة صدنة مما يستعمل في صيد الحيتان ، وكلّها مكسّر مشوّه . ولبعض هذه الأسلحة قصص وحكايات : بهذه الحربة التي كانت ذات يوم طويلة وأصبحت اليوم معقوفة على نحو غريب ، قتل ناثنان سوين^(١) ، منذ خمسين عاماً ، خمسة عشر حوتاً بين شروق الشمس وغروبها . وذلك الرمح الذي غدا اليوم مثل البريمة ، قذف في بحار جاوه ، فأصاب حوتاً ندّ به هارباً ، وبعد سنوات قتل ذلك الحوت بعيداً عن رأس بلانكو^(٢) . لقد دخل سنّ الرمح في جسمه عند الذنب ثم تسرّب فيه أربعين قدماً كاملة ، كما تتسرّب الإبرة القلقة وتتغلغل في جسم الإنسان ، وأخيراً وجد ذلك السنّ دفيناً في حردبته .

فإذا أنت عبرت هذا المدخل المعتم ومضيت في الطريق ذات الأقواس المتدنية ، ولعلها طريق تخترق ما كان في الأيام القديمة مدخنة ضخمة فوق مواقد تحيط بها من كل جانب ، فإنك تدخل الغرفة العامة ، وهذا مكان أشدّ ظلمة من الأول منخفض السقف ، قد صفت في سقفه «مورينات» خشبية ضخمة ، وفرشت أرضه بألواح خشبية قديمة متفضّنة ، حتى

(١) لعله هو نفسه الحوت الذي سيحدث عنه فالج في أواخر الفصل ١٨١ باسم نات سوين .

(٢) هناك عدّة مواقع تعرف بهذا الاسم ، ولعلّ المعنى هنا هو الرأس بلانكو (الأبيض) في بيرو شمالي باتنا .

لتكاد تتخيل وأنت تدوس عليها أنك تمشي على أرض «قمرات» سفينة عتيقة ، وبخاصة في تلك الليلة التي تعوي فيها الريح وتهزّ هذه الفلك البالية الراسية في تلك الزاوية هزاً عنيفاً . وفي أحد الجوانب تقوم مائدة مديدة قمينة تشبه الرف قد غطيت بصناديق زجاجية مصدوعة مشدوخة ، تملؤها أشياء نادرة علاها الفبار ، جمعت من أقصى أرجاء المعمورة . وفي الزاوية القصوى من الغرفة يقوم كهف معتمّ هو خزانة الشراب «البار» ، وشكله محاكاة غير متقنة لرأس حوت ، وأتياً كان شأنه فهناك فكّ الحوت المقوس ، وهو من السعة بحيث يمكن لعربة أن تمرّ تحته . وفيه رفوف مهترئة صفت عليها الأباريق القديمة والقناني والقوازير . وبين فكي هذا الدمار الوحي شيخٌ بالٍ صغير الجسم منهمك في عمله كأنه يونان آخر ملعون (بل إنهم ينادونه باسم يونان)^(١) وهو يبيع البخارة البُحران والموت - لقاء مالهم - ببيع الغلاء .

كريبه هي الأقداح التي يصبّ فيها ذلك السمّ . اسطوانية الشكل من خارج هي تلك الكؤوس الخبيثة الخضرة الجاحظة أما في داخلها فإنها تستدق وتستدق حتى تفضي الى قرارة خادعة ، وقد رصع الزجاج - دون إتقان - بخطوط متوازية تحيط بهذه الأقداح التي تشبه ممسحة الأقدام . يقول الشارب : صبّ حتى هذه العلامة ، وذلك يكلفه بنساً واحداً . فإذا بلغ الشراب العلامة التالية كلف بنسين ، وهلمّ جزءاً حتى تملئ الكأس - وهي المكيال الذي يستعمله أهل رأس هورن - وثمنها شلن واحد .

وحين دخلت المكان وجدت عدداً من البخارة الشبان قد تجمّعوا حول طاولة يتفحصون على ضوء خافت «عينات» متنوعة من تحف صغيرة يصنعها البخارة ويسمونها Skrimshander^(٢) ، وبحث عن صاحب الحان ، وحين لقيته أخبرته أنني أريد غرفة ، فأجابني أنّ داره مليئة بالناس وليس فيها سرير واحد خالٍ ، ثمّ استدرك وهو يدق على جبهته بيده : «على رسلك! لا أظنّ لديك مانعاً في أن تشارك صيادَ حيتان غطاءه؟ أليس كذلك؟ أعتقد أنّك ذاهب للتحويت ، ومن الخير لك أن تتعوّد هذا الأمر» .

وأخبرته أنني لم أحبّ أبداً أن أشارك شخصاً آخر فراشه ، وإذا كان عليّ أن أفعل ذلك أبداً ، فهذا شيء يعتمد على هوية الحوات ، فإن لم يكن لديه - أي ربّ النزول - مكان آخر يهيئه لي ، ولم يكن لدى الحوات ممانعة وتشدد ، فأبني لاؤثر أن أشارك أيّ أمرى شريف لحافه على أن أضرب في شوارع مدينة غريبة في مثل تلك الليلة المريرة .

- «كذلك قدرت! حسناً . تفضل . عشاء؟ أتريد عشاء؟ سيكون العشاء جاهزاً توتاً» .

(١) انظر الفصل التاسع في مايلي .

(٢) أخذت معنى هذه الكلمة من تعريف ملفل لها في الفصل ٥٧٠ وهي كلمة سامية مخطف في تهجتها . وأصح صورها Sorimslw .

وجلست على «مذة» خشبي قديم ، تخذذ وجهه كأنه مقعد فوق السدة العتيد في منهاتو ، ورأيت في أحد طرفيه فعل نوتي دؤوب أخذ يزينه بمديته الصغيرة ، وتخيّلت كيف انحنى وأكبّ يعمل في حفر المسافة الواقعة بين رجليه ، وقلت لنفسي : لعله جرب مهارة في سفينة مطلقة الأشرعة إلا أنه لم يحرز نجاحاً .

وأخيراً دعي أربعة أو خمسة منّا الى تناول الطعام في غرفة مجاورة ، كانت باردة كأنها ايسلندة ، لا نار فيها أبداً ، إذ زعم ربّ النزول أنه يعجز عن القيام بإعدادها ، ولم يكن ثمة سوى شمعتين كنيبتين مصنوعتين من الشحم وقد وضعت كلّ منهما في غلاف مفتول . وسررنا إذ قيض لكلّ منّا أن يزرّ «صدره السعدان»^(١) على جسمه ، وأن يرفع الي شفّيه كوباً من الشاي السامط فوق أصابع تجمّدت أو تكاد . إلا أنّ السفرة كانت من النوع الخصب الفني إذ لم تقتصر على اللحم والبطاطس ، وإنما كانت تشمل أيضاً الفطير السكري . يالله! فطير للعشاء! وأقبل شاب يلبس معطفاً أخضر سميكاً على ذلك الفطير إقبالاً مفزعاً مروّعاً .

فقال ربّ النزول : «يا بني أنا متيقن أنّ الكابوس سينتبسك الليلة» .

فهمست : «أيها السيّد ، هذا الفتى لأظنه الحوات ، أترأه هو؟» .

فقال ربّ النزول وقد ارتسمت على وجهه إمارات مرح شيطاني : «لا . لا . إنّ الحوات فتى ذو سحنة سوداء وهو لا يأكل الفطير أبداً . أبداً لا يأكله . لا يتناول إلا الشرائح المشوية ويحبّها حبّاً جمّاً» .

قلّقت : «قبّحه الله ، ولكن أين هو هذا الحوات؟ أهو هنا؟» فأجابني : «سيحضر عمّا قليل» . وبدأ الريب يساورني في أمر هذا الحوات الأسود ، وما استطعت لريبي دفعا . ثمّ حرّمت أمري وقلت لنفسي : إذا إتفق أن نمنا تحت لحاف واحد فعليه أن يخلع ثيابه وأن يأوي قبلي الى السرير .

انتهى العشاء ، وعادت الجماعة الى غرفة الشراب ، وإذ لم أكن أعرف ما يمكن أن أفعله قرّرت أن أصرف ماتبقي من المساء في المشاهدة والتطلّع .

وعلى التوسّمعنا جلبة في الخارج ، وصاح ربّ النزول وهو يبادر للنهوض : «هؤلاء بحارة الباخرة «الفرمبوز»^(٢) . رأيتها اليوم على مسافة من الميناء . استغرقت رحلتها ثلاث سنوات . سفينة محمّلة بالمشحونات . مرحى . أيها الفتيان ، سنسمع آخر الأنباء من جزر فيجي» .

(١) هي صدرة نيقة يلبسها البحارة .

(٢) الفرّمبوز : اسم لنوع من الحيتان . سيجي . تصنيفه في الفصل ٢٢٠ ، وقد قال فيه لفلل هنالك : «يرى بعض الصيادين أنّ ظهوره ارهاص بأنّ حوت العنبر العظيم على الاثر» .

وسمعنا وقع أحذية البحارة في المدخل . وانفتح الباب على مصراعيه ، ودلف اليها مجموعة غريبة من الملاحين . تدفروا بمعاطفهم البحرية الخشنة ، وقنعوا رؤوسهم بغفارات صوفية كلها بالمرزق ، وقد تلبدت لحاهم بما علق بها من ذلاذل جليدية ، وكأنهم في ذلك الزي قطع من الدببة انطلقوا من لابرادور . لتوهم نزلوا البر من قاربهم ، وكان هذا أول بيت يدخلونه ، فلا عجب إذن أن يمموا عامدين صوب فك الحوت ، أعني خزانة الشراب ، فتلقاهم يونان العجوز الأعمش - في حركته الدائبة - وأترع الكؤوس - في الحال - لهم جميعاً . وكان أحدهم يشكو «نزلة» في الرأس ، لذلك مزج له يونان دواءً كالقطران من شراب الجن والدبس معاً ، وأقسم أنه سيد الأدوية جميعاً لعلاج أنواع البرد والزكام ، أياً ما كان عمر المرض وقدرته على المقاومة وسواء في ذلك أعلتته المريض عند شاطئ لابرادور أو وهو في مهب الريح الصادرة عن جزيرة ثلجية .

وسرعان ما صعد الشراب الى رؤوسهم ، مثلما يفعل دائماً ، حتى ولو كان شرابه أخبث السكيرين الذين نزلوا الى البر حديثاً ، فبدأوا يشبون ويصخبون .

ولمحت أنّ أحدهم يقف متخياً عن رفاقه . لم يكن يرغب في أن يفسد عليهم جدلهم بما يعلو وجهه من صحور رزين ، إلا أنه على الجملة تحاشى أن يحدث صخباً كصخبهم ، وراقني هذا الرجل على التو ، وبما أنّ أرياب البحر قد قدروا له أن يكون من بعد رفيقي في السفينة (أما عند هذا الحد من قصتي فهو رفيق في نزل) فإنني سأجرب قلبي في وصفه : تبلغ قامته ستة أقدام ، ذو كنفين مهيتين و صدر كخزان الماء في السفينة ، وقلماً رأيت لدى رجلٍ ما رأيت فيه من قوة عضلية . كان وجهه برونزي اللون ملوحاً بالشمس ، فإذا انفرجت شفتاه عن أسنانه التمعت بشدة ، وفي الظلال العميقة المطيفة بعينيه ذكريات حائمة لاتبعث في نفسه كثيراً من الجذل . وحين سمعت صوته عرفت أنه من أهل الجنوب ، وقدرت حين رأيت قامته الجميلة أنه أحد الجبلين الفارعين من سلسلة اليفانيا في ولاية فرجينيا . وعندما بلغت العريضة لدى رفاقه ذروتها انسل خارجاً دون أن يلحظه أحد ، ولم أراه إلا عندما أصبح رفيقي في البحر . وفي بضع دقائق افتتده رفاقه ، ويبدو أنه كان أثيراً لديهم جميعاً ، فرفعوا عقانهم يصيحون : « بلكنجتون . بلكنجتون . أين بلكنجتون ؟ » وانطلقوا من البيت يبحون عنه .

أصبحت الساعة تقترب من التاسعة وبدأ كأن قوى غيبية ضربت على الغرفة غشاه من الهدوء بعد ذلك التصف ، وبدأت أهني نفسي على خطة صغيرة خطرت لي قبيل قدوم البحارة :

لا إنسان يؤثر أن يكون أحد اثنين في سرير واحد ، بل لعل المرء يتحاشى أن يشارك أخاه لحافه . لست أدري لِمَ كان ذلك كذلك ولكني أعلم أنّ الناس يفضلون الوحدة حين ينامون . وإذا كان الأمر أن ينام المرء مع شخص غريب لا يعرفه في فندق غريب في مدينة غريبة ، وذلك الشخص الغريب صياد حيتان فإنّ اعتراضاته تتوالى الى ما لا نهاية . وليس في الوجود سبب يجعلني دون سواي من الناس ، وأنا البحار ، أشارك رجلاً آخر فراشه ، ذلك أن البحارة لا يشاركون غيرهم أسرتهم وهم في البحر ، مثلما أنّ العازبين من الملوك لا يفعلون ذلك وهم على البر . حقاً إنهم جميعاً ينامون في غرفة واحدة ولكن لكل امرئ منهم ارجوحته ولكل منهم بطانيته ، وكلّ منهم يستقلّ بإهابه .

وكلّما أنعمت التفكير في أمر ذلك الحوات ازداد مقّتي لفكرة النوم معه . وكان من حقّي أن أفترض أنه مادام صياداً فإنّ الكتان الذي يلبسه أو الصوف - حسبما كان الأمر - قد يكون من أقلّ الأنواع نظافة أو أنه على وجه اليقين ليس من أجملها . وبدأت أختلج حتى عمّ الإختلاج بدني كله ، ثمّ : لقد مضى قطع كبير من الليل وقد آن لذلك الحوات الأريب أن يعود وأن يكون قد ذهب إلى السرير ، هب أنه جاء وأوى الى فراشه فوق جثتي في منتصف الليل - كيف أعلم من أيّ وكرٍ لعينٍ انسلّ قادماً ؟

- « ربّ النزّل! غيرت رأيي حول ذلك الحوات - لن أنام معه وسأجرب هذا المقعد » .
- « اعمل مايرضيك . آسف إذ لا أستطيع أن أقدم لك غطاء طاوله لتستعمله مفرشاً . وهذا الخشب كزّ لعين » ، وأمرّ يده يتحسّس مافيه من عقد وأخايد . « لكن مهلاً ياتحفتي الصغيرة! ، لديّ في غرفة الشراب فارة نجار . سأكفل لك الراحة المسترخية هنا » . وما أن تفوّه بهذه الكلمات حتى أسرع فأحضّر الفارة ، ونفض الغبار أولاً عن المقعد بمنديله الحريريّ العتيق ، ثمّ انحنى على الخشبة سحجاً قوياً وقد كثر عن أنيابه كالقرد . وأخذت النشارة تطير يمنةً ويسرةً حتى ارتطمت الفارة أخيراً بعقدة عقداً لا يمكن تحطيمها . وكاد ربّ النزّل أن يوهن رسفه وأنا استخلفه أن يكف ، فإنّ السرير قد أصبح أملس ناعماً ممهداً لجنبي ، ولست أعلم كيف يمكن لأيّ سخج في الكون أن يصنع ريش نعام من لوح خشب الزان . ورسم ربّ النزّل تكشيرة أخرى وأخذ يجمع النشارة وألقى بها في الموقد الكبير القائم في وسط الغرفة ومضى لطيّته وخلفني في تفكير قائم .

قست طول المقعد فوجدته ينقص قدماً عمّا يكفيني ، وقلت : ذلك أمر ميسور الحلّ إذا أنا وصلت به كرسياً ، ولكنني وجدت عرضه ينقص قدماً أيضاً ، وكان المقعد الآخر في الغرفة أعلى من الذي سحج بالفارة بمقدار أربع بوصات ، فلا أمل في جمعهما معاً . وضعت

المقعد الأول طولياً في البقعة الوحيدة الغالية بموازاة الحائط وتركت بينه وبين الحائط فضاءً صغيراً ليطمئن فيه ظهري ، ولكن سرعان ما وجدت أنّ تياراً من الهواء البارد تدفق عليّ من تحت اسكفة الشباك ، فاستيقنت أنّ هذه الخطة لاتجدي شيئاً خصوصاً وأنّ تياراً آخر من الباب الخائر الكسيح أخذ يلتقي بالتيار المندفِع من الشباك ويكوّن الإثنان سلسلة من الدوامات الصغيرة بجوار البقعة التي قدّرت أنّ أمضي الليلة فيها .

وقلت لنفسي : ليت الشيطان يحضر ذلك الحوات ، لكن مهلاً! ألا أستطيع أن أكسب الجولة منه فأغلق الباب بالمزلاج من داخل ، وأثب إلى فراشه ثم لا أستيقظ ولو سلطوا عليّ الباب أعنف الدق ؟ بدت لي فكرة غير رديئة ثم نفيتها عن خاطري عندما أعدت فيها النظر ، إذ من يدري ، ربّما وجدت الحوات في الصباح ، حين أطلت من الغرفة ، واقفاً في المدخل على أهبة أن يجندلني أرضاً .

ونظرت حولي مرّة أخرى فلم أجد فرصة ممكنة لقضاء ليلة محتملة إلا في سرير شخص آخر ، وعندئذ بدأت أحسن أنني ربّما غرست في نفسي هوىً لاداعي له ضدّ حوات لا أعرفه ، وقلت : أنتظر برهة فقد يهبط عليّ قبل مضي وقت طويل ، عندئذ أتفرّس فيه وربّما وجدنا الرفقة في سريرٍ واحدٍ سارة . لا أحد يدري .

وظلّ النزلاء الآخرون يقدون واحداً واحداً ومعنى معني وثلاث ثلاث ويذهبون الى النوم إلا هو فلم يلح له طيف . وقلت : « ربّ النزلاء أي نوع من الفتيان هو - أيتأخّر دائماً في عودته ؟ » وكانت الساعة قد كادت تدقّ الثانية عشرة .

وابتسم ربّ النزلاء ابتسامته الواهية مرّة أخرى وبدا كأنّ شيئاً يجاوز إدراكي يدغدغه بقوة . وأجابني قائلاً : « لا . على وجه العموم هو طير لا يغيب عن عشه . ينام باكراً وينهض باكراً . نعم هو الطائر الذي يلتقط الدودة . غير أنه خرج الليلة يبيع متجولاً ، ولست أدري أي شيء آخره ، إلا أن يكون قد عجز عن أن يبيع رأسه » .

« عجز عن أن يبيع رأسه ؟! أي قصّة محيرة هذه التي تقصّها عليّ ؟ » واستبدت بي الغضب ، ومضيت أقول : « هل تؤدّ أن تقول إنّ هذا الحوات منكم ليلة السبت هذه ، أو على الأصح صباح الأحد ، في عرض رأسه للبيع في المدينة ؟ » . فقال : « تماماً . وقد قلت له أنه لن يستطيع بيعه هنا ، لأنّ السوق بلغت حدّ الإكتفاء أو يزيد » .

فصرخت : « حدّ الإكتفاء من أي شيء ؟ »

- « من الرؤوس يقيناً . أليس في العالم رؤوس كثيرة جداً ؟ »

فقلت : « أودّ أن أصارحك أيها السيد ، من الخير لك أن تكفّ عن غزل هذا الخيط .
فأنا لست غزراً غمراً » .

فقال وهو يبيري من العصا خلافاً يفرزه بين أسنانه :
« لعلك لست غزراً ، ، ولكنني أظن أنّ وجهك سيسودّ إذا سمع ذلك الحوات أنك تسخر
من رأسه » .

فقلت وقد هاج غضبي من جراء هذا الخلط الذي لا أجد له تعليلاً وصاحب النزول
يواجهني به : « بل سأكسر ذلك الرأس » .
فقال : « ولكنه مكسور » .
قلت : « مكسور! تعني أنه مكسور ؟ »

- « دون ريب . وذلك هو السبب الذي يحول دون بيعه ، فيما أحسب » .
عندئذ انتحلت بروداً كبرود جبل فقلا إبان عاصفة ثلجية وقلت له : « أيها السيد ، يارب
النزل ، كفّ عن برئ هذه العصا . علينا أنا وأنت أن يفهم أحدنا الآخر ، وأن يتم ذلك دون
إبطاء . ها أنا أجيء الى دارك لأكتري سريراً فتقول لي : لا أستطيع أن أقدم لك إلا نصف سرير
إذ النصف الثاني أصبح من نصيب رجل حوات لم أراه أنا بعد ، بينما تصرّ أنت على أن تخبرني
عنه أشد القصص إثارة للحيرة والهياج ، كأنما تريد أن تولّد في نفسي شعوراً مقلّماً نحو رجل
قرّرت أن يكون شريكاً في سرير - والشراكة في السرير ، أيها السيد ، ألفة وثيقة سرّية من
أرفع طراز ، فأنا أطلب اليك أن تدلني على هوية هذا الحوات وماهيته وهل إذا اعتبرت الأمر من
كافة وجوهه - أظنّ سالمأ إذا أنا قضيت الليلة معه . وأودّ في المقام الأوّل أن تكفّ عن سرد تلك
القصة - قصة بيعه لرأسه - فإنني أعدّها ، إن هي صحّت ، شاهداً قوياً على جنونه المطبق ، وما
كنت لأنام مع رجل مجنون . وأنت ياسيدي ، أعني أنت يارب النزل ، أي أذت نفسك ياسيدي ،
حين تحاول عامداً متعمداً أن تفريني بالمبيت معه تعرّض بذلك نفسك للمقاضاة على جرم » .
وأخذ ربّ النزل نفساً طويلاً وقال : « اشهد أنّ هذه موعظة طويلة من فتى يشتد به
الهياج فيرسل هجر القول أحياناً . هدىء من روعك . هذا الحوات الذي حدثتك عنه وصل
حديثاً من البحار الجنوبية حيث اشترى عدداً من الرؤوس الزيلندية المحنّطة (طُرفة من
الطُرف كما تعلم) وقد باعها جميعاً إلا واحداً ذهب يسعى ليبيعه الليلة ، إذ غداً هو الأحد ،
ولا معنى لأن يجوب الشوارع لبيع رؤوس آدمية والناس غادون الى الكنائس . لقد أراد أن
يفعل ذلك يوم الأحد الماضي فاستوقفته وهو خارج من الباب ومعه أربعة رؤوس قد سلّكها
في خيط حتّى كأنها « مشكاك » من البصل .

هذا الشرح فسّر ما ظلّ لولاه لغزاً لا يحلّ ، ودلّني على أنّ ربّ النزل لم يخطر له أن يسخر منّي . ولكن ما هي نظرتي أنا - في الوقت نفسه - الى حوات مكث طوال ليلة السبت حتى أدركه صبح الأحد وهو منهك في عمل وحشي ، أعني بيع رؤوس موتى وتنين ؟ - « صدقتي أيها السيّد إنّ هذا الحوات رجل خطر » .

فردّة قائلاً : « هو رجل لا يخلّ بدفع الأجر . لكن هنا لقد فات الليل . ومن الخير أن تجرّب بختك - فالسرير مريح . نمت فيه أنا وزوجتي سال ليلة اقتراننا . فهو يتسع لإثنين يسرحان فيه ويمرحان . سرير جبّار كبير . كانت سال قبل أن تتخلّى عنه تضع عند قاعدته ابنينا سام وجوني الصغير . لكنني في إحدى الليالي رأيت مناماً وأخذت أتقلب وأنا نائم ، كما أنّ سام وقع على الأرض وكاد يكسر ذراعه . بعدئذ قالت لي سال : لاخير فيه . تعال معي . سأدعك تلقي عليه نظرة خاطفة . وعندها أضاء شمعة وحوّلها نحوي وأشار اليّ أن أتبعه . غير أنّي وقفت متردداً . ونظر هو الى الساعة في الزاوية وهتف قائلاً : « أقسم أن الأحد قد حل . لن ترى ذلك الحوات الليلة . لقد ألقى مراسيه في مكان آخر . تعال . بالله عليك تعال . ألا تجيء ؟ » .

نظرت في الأمر برهة وتبعته على الدرج ، فأدخلني غرفة صغيرة باردة كالمحارة ، مؤثفة بسرير ضخم يتسع حقاً لأربعة حواتين ينامون فيه وقد اقتروشوا صدورهم .

وضع ربّ النزل الشمعة على صندوق بحري قديم عجيب يؤدي مهمتين : فهو حامل للمفصلة وهو طاولة متوسطة ، وقال : « يلاً... الى الراحة . وتصبح على خير » . ورفعت عيني عن السرير وتحولت لأنظر اليه فوجدته قد غادر الغرفة .

انحنيت فوق السرير بعد أن طويت غطاءه . لم يكن شيئاً بالغ الأناقة ولكنه كان مظنة التحمل للإمتحان . أدت بصري في الغرفة فما رأيت الى جانب السرير والطاولة المتوسطة من أثاث سوى رف خشن ، والجدران الأربعة ، ولوحة من الورق ترسم عليها صورة رجل يظعن حوتاً . أما الأشياء التي وضعت في الغرفة وليست من أثاثها الدائم فقد رأيت منها أرجوحة مطوية ملقاة على الأرض في إحدى الزوايا ، ورأيت كيساً بحرياً كبيراً يحوي ملابس الحوات وهو لا ريب يقوم في البحر مقام الحقيبة على البر . وهناك أيضاً على الرف فوق الموقد صنارات غريبة من عظام السمك ، ورمح مريش طويل عند رأس السرير .

لكنّ ما هذا الملقى على الصندوق ؟ رفعته وقربته من النور ، لمستته وشممتها ، حاولت كلّ وجه ممكن لأصل الى رأي مقنع في شأنه ، لا أستطيع أن أشبهه إلا بممسحة الأرجل التي توضع عند الباب ، وقد زخرقت حواليه بجلال صغير رنانة كريش الشبه المدهون الذي

يزخرف به الهنود أحذيتهم . وفي وسط هذه الممسحة ثقب أو شق مثل الذي تراه في البرانس التي يلبسها أهل أمريكا الجنوبية . ولكن أيصح لحوات عاقل أن يلبس ممسحة أرجل ويتخطف في شوارع أي مدينة مسيحية وهو في ذلك الزي التنكري؟ لبت ذلك الشيء لأجربه فأثقلني كأنه زنبيل إذ كان جاسياً خشناً سميكاً ، وخيل لي أنه أيضاً رطب كأن الحوات العجيب لبسه في يوم ماطر . تقدمت نحو قطعة من مرآة مثبتة في الجدار فلم أر في حياتي منظرًا كالذي رأيت . انتزعت نفسي منه بمجلة حتى لأحسست بوثة في عنقي .

جلست على حافة السرير وبدأت أفكر في الحوات بيناع الرؤوس ، وممسحته التي يرتديها ، وبعد أن قضيت في التفكير فترة في جلستي تلك نهضت وخلعت صدارة السعدان ، ووقفت في وسط الغرفة مفكراً . ثم نزعت معطفي ومضيت أفكر وأنا ما أزال ألبس قميصي . غير أنني بدأت أشعر بشدة البرد بعد أن نزعت بعض ثيابي ، وتذكرت ماقاله صاحب الدار عن الحوات وأنه لن يعود تلك الليلة الى البيت إذا فات أوان عودته ، وعندئذ كففت عن التفكير ، وجذبت سروالي ونعلتي في سرعة ، وأطقت الشمعة وأويت الى الفراش وخلت نفسي في رعايه الله .

هل كانت الحشية محشوة بأقراص القمح؟ هل كانت محشوة بكسر من الخبز؟ لست أدري . غير أنني تقلبت طويلاً ولم يراوح النوم عيني وأخيراً ذهبت في تهويمه خفيفة وكدت ألق نحو أرض «النعاس» حين سمعت وطناً ثقيلًا في الممر ورأيت بصيصاً من نور يتسرب الى الغرفة من تحت الباب .

نجني يارب ، فهذا هو الحوات ولا بد . ذلك هو الجهنمي بيناع الرؤوس . وظللت متمدداً ، وآليت أن لا أفوه بكلمة الا حين يكلمني . ودخل الغريب الغرفة يحمل الشمعة في يد والرأس الزيتندي نفسه في الأخرى ووضع الشمعة ، غير قريب مني ، على الأرض في إحدى الزوايا ، ثم أخذ يعمل في فك عقد الحبل عن الكيس الذي أشرت من قبل الى وجوده في الغرفة . وكان بي شوق جامح لرؤية وجهه إلا أنه أبقاه منزوياً عني مدة وهو يعالج حل الرباط . فلما انتهى من ذلك استدار الي . ياالله! أي منظر! ياله من وجه! وجه ذو لون أصفر ميال للأرجواني قائم تتخلله بقع سود كبيرة متناثرة . نعم هو كما قدرت . رفيق مرعب . كان في شجار نال فيه جراحاً رهيبه وعاد لتوه من عيادة الجراح . وإتفق في تلك اللحظة أن أدار وجهه نحو النور فإتضح لي أن البقع السود على وجنتيه لايمكن أن تكون أبداً ضمادات مثبتة . إنما هي لطخات . ولم أدر في البدء كيف أفسر هذا الأمر ولكن سرعان ماخطر لي طائف من الحقيقة : تذكرت قصة رجل من البيض - حوات أيضاً - وقع بين المتوحشين

فوشموه بميسمهم ، وخلصت الى أن هذا الحوات أيضاً قد وقع في مغامرة مماثلة أثناء رحلاته البعيدة . ثم قلت مناجياً نفسي : أيّ ضير في هذا ؟ هذا هو مظهره وحسب . والمرء قد يكون شريفاً مهما يكن لون بشرته . ولكن كيف أفسّر سحنه التي لا تنتمي الى الأرض ، أعني ذلك الجزء من وجهه الذي لاعلاقة له ببقع الوشم ، قد يكون طبقة اكتسأها وجهه من تلويح شمس الإستواء ، لكنني لم أسمع في حياتي أن الشمس تدبغ بشرة إنسان بلون أصفر مانل الى الأرجوان . على أية حال أنا لم أعش في البحار الجنوبية ولعلّ الشمس هنالك تحدث مثل هذه الآثار الغريبة في البشرة . وبينما كانت هذه الأفكار تعبر خلال رأسي كالبرق ، لم يتنبه الحوات لي أبداً ، بل فتح كيسه بعد جهد وبدأ يعيْث فيه واستخرج منه نوعاً من الطبرزين وكيساً من جلد الصَّيل لايزال الشعر عليه ، ووضع هذين على الصندوق القديم القائم في وسط الغرفة ثم تناول الرأس الزيلندي - وهو شيء فطيع حقاً - ودسه في الكيس . ثم خلع قبعته - وكانت قبعة محرّدة جديدة ، ففاجأني بمفاجأة جديدة إذ كان رأسه خالياً من الشعر - ممسوحاً منه تماماً - إلا جميمة في يافوخه قد عتصها عند جبهته . وتبدى رأسه الأصلع ذو اللون الأرجواني لكل ذي عينين كأنه جمجمة متعفّنة . ولولا أن ذلك الغريب كان يقف بيني وبين الباب لإنطلقت منه هارياً بأسرع ما أتهمّ العشاء .

بل لعلني فكّرت في أن أنسلّ من الشباك لولا أنني تذكرت أن الشباك يفضي الى فضاء الطابق الثاني . لست امرءاً جباناً ، ولكن أبلس عليّ فلم أدري ماذا أصنع بهذا الوغد الأرجواني بياع الرؤوس . والجهل أبّ للخوف . وبما أتني وجدتني في منتهى الحيرة والتردد إزاء هذا الغريب فإني أعترف بأنّ الخوف منه تملكني حتى كأن الشيطان نفسه هو الذي دخل عليّ غرفتي في صمت الليل البهيم . بل بلغ بي الخوف مبلغاً جعلني أخشى أن أخاطبه حينئذ وأن أطلب اليه جواباً مقنعاً عما كان يبدو لي فيه لغزاً غير قابل للتفسير .

وفي أثناء ذلك مضى هو يخلع ملابسه وكشف في النهاية عن صدره وذراعيه ، وأقسم أن هذين الجزئين المستورين من جسده كانا موشومين بتلك البقع السود نفسها ، فكأنما خاض حرباً كحرب الثلاثين ونجا منها بلفافة من « اللزقات » اتخذها قميصاً . بل إنّ رجليه كان يغطيهما الوشم وإذا نظرت اليهما حسبت عدداً من الضفادع الخضراء يتسلّق جذع لينّة سفيرة ، وتجلّي لي أنّه لا بد أن يكون وحشاً مقيئاً أو ماثاباه ذلك ، نقله حوات من البحار الجنوبية على ظهر سفينته ونزل به في هذا البلد المسيحي . وارتعشت إذ جرى ذلك في خاطري . وهو أيضاً بائع رؤوس ولعلها رؤوس إخوته ، وربما أعجبه رأسي ، بالله! انظر الى هذا الطبرزين!

ولكن لم تبق لدي فرصة للإرتعاش لأن الرجل المتوخش أخذ في شيء ، ملك عليّ انتباهي وأقنعني بأنه وثني ولا بد ، فقد أتجه الى برنسه الثقيل^(١) أو قبانه أو قفطانه ، وكان قد علّقه على الكرسي ، وعثت في جيوبه واستخرج بعد البحث صورة غريبة صغيرة مشوهة محدودة الظهر ولونها يشبه تماماً لون طفل كونغوي ابن ثلاثة أيام . وعندما تذكّرت الرأس المحنط كدت أظن في البداية أنّ هذا القزم الأسود كان طفلاً حقيقياً محنطاً أيضاً ، ولكنني حين رأيته لا لدونة فيه وإنه كان يلتمع كأنه الأبنوس المصقول ، استنتجت أنه لابد وأن يكون صنماً خشبياً ، وقد كان حقاً كذلك .

ذلك أنّ الوحش أتجه نحو الموقد الخالي وأزاح اللوحة المغطاة بالورق ونصب أحدهه القمي ، كأنه يبندق الشطرنج بين حديدتي الوجاق ، وكانت جوانب المدخنة واللبنات المرصوفة في داخلها مغطاة بالكثّن ، حتى لتصوّرت أنّ هذا الموقد كان خير معبد صغير أو مزار لصنم الكونغوي .

وتخازرت محدقاً في التمثال الذي استتر عني نصفه وأنا أحسن بالقلق والتأمل في الوقت نفسه - وحددت البصر لأرى الخطوة التالية . فرأيته يستخرج أولاً حفنة من النشارة من جيب برنسه ويضعها بإعتناء أمام الصنم ثم يضع في قمتها قطعة من بسكويت المراكب ويقرب إليها شعلة المصباح ويوري النار في النشارة ليجعل منها لهباً قربانياً . وفي الحال يقرب أصابعه من النار بسرعة ويسحبها بسرعة أشد ، عدة مرّات (وبهذا لسعتها النار وأذتها لسعاتها فيما يبدو) وأخيراً وفق الى استخراج قطعة البسكويت ثم هدأ النار وفرّق الرماد وقدمها في إجلال لزنجيه الصغير ، ولكن ذلك الشيطان الصغير لم يبدُ عليه أنه أحب هذه الوجبة الجافة أبداً فلم يحرك شفثيه . وقد رافق هذه الشعائر الغريبة أصوات حلقية أشد غرابة كان يرسلها ذلك المتعبّد الذي بدا كأنما كان يرتل ترميمة أو لعله يغني مزموراً وثنياً أو شيئاً شبيهاً به ، وكان وجهه أثناء ذلك كله يختلج على نحوٍ بالغ الشذوذ . وأخيراً أطفأ النار ، وتناول الصنم دون خشوع أو إجلال ، ودسه في جيب برنسه في اكرتارٍ قليل كأنما كان صيناداً يدسّ ديك السلوى الميت في جعبته .

زادت هذه الأعمال الشاذة من قلقي ، ولما أبصرت الدلائل كلّها تدل على أنه قد أنهى أعماله وأنه سيثب في السرير الى جانبي تصوّرت أنّ الوقت قد حان ، قبل أن ينطفئ ، النور ، لأحطم ريقه السحر التي كانت تقيدني ، وإذا ضيعت هذه الفرصة فقد ضاعت للأبد .

(١) استعمل المؤلف كلمة gregg ويرى بعض الملقين أنها تركيبة الأصل . قلت : ولعلّها هي القرقل بالعمرية ، والعامّة يقولون القرقر .

إلا أن الفترة التي بددتها في التهيو لما أريد أن أقول كانت ضربة قاضية فقد تناول الطبرزين عن الطاولة وتفحص رأسه لحظة ثم قرّبه من النور وقد جعل مقبضه في فمه ونفت سحباً كثيفة من دخان الطباقي وفي اللحظة التالية انطفأ النور وقفز الوحش ، وكدوسه^(١) - وهو ما حسبته طبرزينا - بين أسنانه ، الى السرير بجانبني فلم أتمالك من أن تندّ عني صيحة - حشرجة دهشة - جعلته يشعر بوجودي .

وتصمتت متلعثماً بما لا أدريه ، وتدحرجت مبتعداً عنه نحو الجدار ثم استحلقتة . أياً كان ومهما يكن ، بأن يبقى هادئاً وأن يدعني أنهض وأشعل المصباح مرّة أخرى . إلا أن الأصوات المنبعثة من حلقة أقتعنتي على التو أنه أساء إدراك ما أعنيه .

وأخيراً قال : « أي شيطان أنت ؟ لاتتكلم أنت . وإلاً أقتل » . وما أن نطق بهذه الكلمات حتى مضى الكدوس يلتمع من حولي في الظلام .

فصرخت : « يارب النزول! بحق الله! يابطرس التابوتي ، يارب النزول . اشهد! ياتابوتي! ياملانكة! خلصوني! » .

فهمهم المتوحش مرّة أخرى يقول : « احك . خبر أنا من هو أنت وإلا ملمعون أقتلك » بينا كانت جذبات الأنفاس من الكدوس تطير رماد الطباقي الساخن من حولي حتى لحسبت أن منامتي ستحترق . ولكن شكراً لك يارب! ففي تلك اللحظة دخل صاحب النزول الى الغرفة وبيده سمعه ، فقفزت من السرير وجريت نحوه .

فكشتر عن أنيابه وهو يقول : « لاتخف الآن ، إن كويكوج^(٢) هنا لن يمس شعرة في رأسك » . فصحت فيه : « كف عن التكشير . لماذا لم تخبرني أن ذلك الحوات الجهنمي من أكلة لحوم البشر ؟ »

- « ظننت أنك تعرف ذلك . ألم أخبرك أنه ذهب يبيع الرؤوس في المدينة ؟ ولكن اهدأ الآن واذهب لفراشك . اسمع يا كويكوج . أنت تسمع كلامي ، أنا اسمع كلامك . هذا ينام في فراش معك . سامع ؟ »

فهمهم كويكوج قائلاً : « تمام » . ومضى ينفث دخان الكدوس وهو جالس في السرير .

(١) الكدوس : كلمة دارجة في السودان تدل على مانسنيه « الفليون » أو مايسنى « الشيك » في التركية . وقد اتخذته للدلالة على الفليون ذي الساق الطويلة مرادفاً للشيك . وقصرت كلمة « الفليون » على ما كانت ساقه قصيرة .

(٢) إن لم تكن هذه الشخصية من نسج الخيال فإنّ ملغل قد نظر في تصويرها الى ماربونا من تاهيتي وقد أعجبه فيه قوة شعوره القومي واعتراؤه بولته وسماه « فيلسوف الطبيعة » الوتسي المتأيد الذي كان ينتقد الرذائل والحماقات المسيحية في بلاط تاهيتي . وهو مثل كويكوج في مظهره ودرسته في التحويت ومزاجه الفلسفي . ولا ريب في أن كويكوج هو الشخصية الوحيدة التي تستأثر بالحب في القصة كلها .

ثم أشار الي بكدوسه وهو يقول : « تعال تنوم » ، ورمى الملابس الى ناحية . فعل ذلك بطريقة لا أعدها مهذبة فحسب بل هي في الواقع لطيفة عطوفة . ووقفت أنظر اليه لحظة فوجدته على رغم الوشم الذي يغمر جسمه متوحشاً نظيفاً مليح المنظر . وقلت لنفسي : ما هذا الازعاج الذي قصت به ؟ الرجل إنسان مثلي ولديه من الأسباب ما يجعله يخافني مثلما أخافه . من الخير أن ينام المرء مع متوحش صاح من أن ينام مع مسيحي سكران .

وقلت مخاطباً ربّ النزول : « قل له أن يخبيء عني هذا الطبرزين أو الكدوس أو أيأ كان اسمه ، قل له بإختصار أن يتوقف عن التدخين وعندئذ أدخل السرير الى جانبه ، ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر رجلاً يدخن في الفراش الى جانبي . هذا أمر خطر . ثم تذكر أنني لم أومن على حياتي » .

وتحدثت ربّ النزول بهذا الى كويكوج فأذعن ، ثم أشار اليّ - في تهذيب - أن أدخل السرير ، وابتعد الى أحد الجانبين كأنه يقول لي : لن أمس أي عضو من أعضائك .

فقلت : « طاب مساؤك يارب النزول . تستطيع أن تمضي » . وأويت الى الفراش ولا أذكر أنني نمت في حياتي خيراً من تلك النومة .

غطاء السرير

حين استيقظت في صباح اليوم التالي لدن طلوع الفجر وجدت ذراع كويكوج ملقاة عليّ في هيئة ودية حانية لامثيل لها ، حتى لو أنّ أحداً رأني على تلك الحال لحسبني زوجته . كان غطاء السرير لفقاً من رقع مليئة بأشكال ملونة صغيرة بعضها مثلث وبعضها مربع ، وأشهد أنني حسبت ذراعه قطعة من ذلك الغطاء المرقّع ، إذ كانت موشومة بأشكال مسترسلة متشابكة كأنها تيه في قصر كريتي والبقع عليها متفاوتة الظلال لانتشابه منها اثنتان ، وذلك ربّما كان مردّه فيما أظنّ الي أنه كان يبقي ذراعه وهو على السفينة في الشمس والظلّ - دون نظام - ويحسر كميّ قميصه على مسافات متفاوتة كلّ يوم . وحين تنبّهت من نومي كان قد ألقى جانباً من ذراعه على الغطاء ، فلم أستطع أن أميّزها من ذلك اللحاف لأنّ لونهما تداخلا وامتزجا ، ولولا إحساسي بالثقل واللفظ لما استطعت أن أقول أنّ كويكوج كان يحتضني .

كانت إحساساتي غريبة . دعني أحاول تفسيرها : إنّي لأذكر حادثة مماثلة بعض الشيء، وقعت لي حين كنت طفلاً . أكانت حقيقة أو حلاًماً - ذلك شيء، لم أستطع أن أجزم به . وهذه هي الحادثة : كنت أقطع شجرة قنار أحسبها كانت تحاول أن تزحف متسلّقة المدخنة ، إذ كنت قد رأيت أحد عساليجها قبل بضعة أيام يمتد سابعاً فيها . وجرتني ظنري ، زوجة أبي ، من رجليّ واستخرجتني من المدخنة - وكان من عاداتها أن تضربني دائماً بالسوط أو أن ترسلني الي السرير دون عشاء - إلا أنها هذه المرة دفعتني الي النوم مع أنّ الساعة كانت الثانية بعد ظهر الحادي والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ، وهو أطول يوم في السنة في هذا النصف الذي نعيش فيه من الكرة الأرضية . كنت مروّع المشاعر ولكنني لم أكن أملك لنفسني نفعاً ولاضراً ، فصعدت الدرج الي غرفتي الصغيرة في الدور

الثالث ، ونزعت عني ثيابي بقدر ما أستطيع من ببطء ، رجاء قتل الوقت ، ثم اندسست في الفراش وأنا أرسل تنهدة مريرة .

اضطجعت هناك مكروب النفس أحسب أنه ستنقضي ست عشرة ساعة قبل أن أرجو خلاصاً وانعتاقاً . ست عشرة ساعة في الفراش! حين أتصور ذلك يتحدر الوجد في الصلب من ظهري ، وقد كان النور شاملاً ، والشمس ترسل أشعتها من النافذة ، والعربات في الشارع تحدث جلجلة مدوية ، والأصوات الفرحة الجذلى تملأ جوانب البيت ، وازداد إحساسي سوءاً على سوء ، فنهضت من الفراش وارتديت ثيابي وهبطت الدرج في خفة ونعومة ، إذ مشيت في جوربي دون حذاء ، وعمدت الى حيث كانت زوجة أبي ، وفجأة ألقى نفسي ضارعاً على قدميها ، ورجوتها أن تحسن اليّ العقوبة فتجلدني دون هواده لسوء سلوكي ، أن تصنع أي شيء تريده إلا أن تحكمني عليّ بالحبس في الفراش طوال وقت ثقيل ممل لا يطاق . ولكنها كانت إذا عُدت زوجات الأباء خيرهن وأحسنهن ضميراً ، فقد أبت إلا أن تعيدني الى الفراش . واستلقيت هنالك ساعات عديدة وأنا في تمام اليقظة شاعراً أنني لم أبلغ من السوء مثلما بلغت حينئذ ، ومن بعد عرفت مما حل بي من مصائب لاحقة كبيرة أنني في ذلك اليوم تجرعت حقاً أسوأ المصائب جميعاً . ويبدو أنني أخيراً تردّيت في تهوية ذات كوابيس مضطربة . وأفقت منها ببطء ، وأنا لا أزال شبه غارق في الأحلام ، وفتحت عيني فإذا الغرفة التي كانت تسبح في ضوء الشمس قد تغلّفت بحجب الظلام . وأحسست على التوهة تسري في كيائي كله . لم أعد أرى أو أسمع شيئاً . إلا أن يداً من الغيب كانت تبدو مطمئنة في يدي . كانت ذراعي على الغطاء ، وكان الشكل الصامت الذي يمز أن أتصوره أو أن أعرف له اسماً ، أو قل ذلك الطيف صاحب تلك اليد يجلس على مقربة من سريري . وظللت مستلقياً هنالك زمناً حسبته أجيالاً مركومة فوق أجيال ، وأشدّ المخاوف ترويعاً قد جمّدت جسمي ، وأنا لا أجرؤ على سحب يدي ، غير أنني كنت أتصور أنني لو حرّكتها مدى بوصة واحدة لإنخلعت من حولي الرقيقة السحرية المفزعة . ولست أدري كيف انحسر عني هذا الإحساس أخيراً إلا أنني حين استيقظت في الصباح تذكرته وجسمي ينتفض ، ومن بعده ظللت أياماً وأسابيع وأشهرأ وأنا ذاهل في ثنايا محاولاتي المحيرة لتفسير ذلك اللغز ، لا بل إنني ما أزال حتى هذه الساعة أحاجي نفسي به أحياناً .

لا بل عدّ عن شعوري بالخوف الرهيب تجد أن إحساساتي حين شعرت بتلك اليد من الغيب في يدي مشبهة في غرابتها لتلك الإحساسات التي ذقتها حين استيقظت ووجدت ذراع كويكوج الوثني تطوقني . ثم انبعثت أحداث تلك الليلة الماضية واحداً إثر واحد حتى

مجسدة في ذاكرتي ، ثم توارت عني ولم يبقَ حياً في نفسي إلا ما أنا فيه من ورطة مضحكة . حاولت أن أزيح ذراعه - أن أفك قبضته الزوجية عني - إلا أنه ظلّ على استغراقه في النوم يحتضني دون فكاك ، حتى كأنه يوحى بأنه لا شيء يفرقنا إلا الصوت . عندئذ حاولت أن أوقظه - « كويكوج! » إلا أنّ الشخير كان هو جوابه الوحيد على نداءاتي . فتدحرجت مبعداً وأنا أحسّ كأنّ عنقي مطوّقة بإنشوطه ، وفجأة أحسست بخدش طفيف ، فنحيت الغطاء عني وإذا بي أرى الكدوس نائماً الى جانب الرجل المتوحش كأنه وليد ذو وجه أسجج . يالهذا « الكبيس » الطريف! أنا في سرير في بيت غريب في رانعة النهار مع متوحش وكدوس ، « كويكوج . بحق الخير ، باسم الإنسانية ، استيقظ! » وبعد جهدٍ أنفقته في التقلّب وفي عتاب جهوري مستمرٍ على أنه لا يلبق به أن يحتضن رجل مثله احتضان الزوج لزوجته أفلحت بأن أنتزع منه نخرة فسحب ذراعه على التوّ ، وانتفض كلّ انتفاضة كلب من كلاب نيوفوندلاند خارج من الماء^(١) ، وجلس في السرير متيبساً كأنه انبوبة الرمح ، ينظر اليّ ويفرك عينيه كأنه لا يتذكر كيف إتفق لي أن نصت الى جواره ، وإن كان يبدو أنّ خيطاً رفيعاً من شعاع التذكر أخذ يلتصق في رأسه وينتهي الى أنه يعرف عني شيئاً ما . وفي أثناء ذلك بقيت ساكناً أرمقه إذ كادت ربيتي فيه تتلاشى ، وأصبحت أميل الى رؤية ذلك المخلوق الغريب عن كسب . ولما بدا أنّ ذاكرته قاربت أن تتبين شخص رقيقه في السرير ، وعندما تقبلت هذه الحقيقة الواقعة دون نفور ، قفز من الفراش الى الأرض . وجعلني أفهم بما رسمه من إشارات وأصوات أنه - إن كان ذلك يسرني - سيلبس ثيابه أولاً ثم يتركني لألبس ثيابي بعد ذلك مخلياً الغرفة كلّها لي . فقلت في نفسي : كويكوج! هذا اقتراح ، في مثل هذه الظروف ، دالّ على سمو الذوق والتهديب . قل ما تشاء غير أنه لا سراء في أنّ لهؤلاء المتوحشين إحساساً باللياقة واللفظ فطرياً ، وهم مطبوعون على التهديب ، وذلك شيء عجيب . وأنا أئنّي بهذا ثناءً خاصاً على كويكوج لأنه عاملني بقسط وفير من حسن الأدب والإحترام بينما كنت أنا آتماً في حقه بشدة الجفاء والفظاظة . وأخذت أهدجه بنظراتي وأنا في السرير وأراقب المراحل التي يمرّ بها في اللبس والزينة ، وانتصر حبّ الاستطلاع عندي - فترة - على أصول اللياقة والأدب . ذلك أنه لا يتاح لك أن ترى إنساناً مثل كويكوج كلّ يوم ، ولذلك كان هو وطرائقه جديرين بالتطلع وإن جافى ذلك المعهود من التزام بأداب السلوك .

(١) هذه صورة مستمدة من واقع كان ملفل يعرفه حق المعرفة إذ كان يقني كلباً من كلاب نيوفوندلاند .

بدأ لبسه من قمة الجسم . فثبتت قبعت المحرّدة الطويلة على رأسه ، ثم أتبع ذلك وهو ما يزال دون سروال بالبحث عن حذائه . ثم كانت الجولة الثانية أنه اندسّ في الفراش وحذاؤه في يده وقبعت على رأسه . أما لماذا صنع ذلك فأمر يقضي منه العجب ولا أدري له وجهاً ، غير أنني استنتجت من اللهاث والطحير العنيف المتنوع أنه كان جاهداً في لبس نعليه . لم أسمع بقانون من قوانين الإحتشام يتطلّب من المرء أن ينزوي عن أعين الناس حين يلبس حذاءه ، إلا أن كويكوج - كما ترى - كان مخلوقاً في مرحلة إنتقاليّة ، لا هو شرنقة ولا هو فراشة^(١) . كان قد أحرز من التهذيب ما يبرز به خشونته بأغرب طريقة ممكنة . وهو لم يكن قد أكمل تعليمه بل كان ما يزال في الصفوف الدنيا ، ولو لم يكن قد أصاب قسطاً يسيراً من التحضّر فلعلّه ماعنى نفسه بكلّ ما يتصل بالحذاء ولبسه . ولكنه لو لم يكن قد احتفظ بقسط من الهمجية لما تصوّر أن يندسّ في الفراش كي يلبسه . وأخيراً برز من السرير وقبعت قد تبعت وتهدّلت فوق عينيه وأخذ حذاؤه يصرّ وقدمه تطلع في جنبات الغرفة ، حتّى كأنه لم يتعود لبس الحذاء ، وحتّى كأن حذاءه الرطب المتفضّن المصنوع من جلد البقر الذي لم يهياً على قدر قدميه فيما أرجح . كان يعتصر قدميه فيعدّبه ويؤلمه أوّل ما يلبسه في صباح بارد مرير .

وارتفع ضوء النهار فرأيت النافذة دون ستارة ، ووجدت الشارع ضيقاً . ولضيقة يستطيع من في البيت المقابل أن يرى بوضوح كلّ ما يجري في غرفتنا ، ويلحظ شخص كويكوج في حال تنافي الحشمة واللياقة ، وهو يتخطّر عارياً إلا من قبعت وحذائه ، وحين اتّضح لي ذلك رجوته ، ملحقاً متلفظاً ، أن يسرع في قضاء ماتبقى من لبس وزينته . وأن يضع عليه سرواله - على وجه الخصوص - بأسرع ما يمكنه . فامتثل لما طلبت وتوجّه الى الماء . في مثل هذا الوقت أعني في الصباح يبدأ أيّ مسيحي بغسل وجهه ، ولكنّ لشدة مادّهشت حين رأيت كويكوج يكتفي بقصر الغسل على صدره وذراعيه ويديه . ثم لبس صدارته وتناول قطعة من الصابون الصلب كانت على الطاولة المتوسطة التي تمثّل أيضاً حامل المغسلة ، وغمسها في الماء وأخذ ينشر الرغوة منها على عارضيه وبدأت أرقب لأرى أين يخبيء الموسى ، عندما تناول - باللعجب العجيب - الريح المريش الذي يستعمله الحوّاتون من زاوية السرير ونزع منه القناة واستلّ سنان الريح وشحذه قليلاً على حذائه ثم تقدّم من قطعة المرأة المثبّبة في الحائط وأخذ يحثّ شعر عارضيه بشدة ،

(١) قارن هذا بقول جوته في سيرة حياته « وفي هذا الصدد يبدو أشدّ الناس حيوية وحذاقة كالفرّاش . مهما يكن حالهم في نور الدودة فإنهم ينفضون عنهم غشاء اليفعة الذي فيه نموّ حتّى اكتمل بهم النموّ » .

أو قلْ أخذ «بحوتهما» . وقلت لنفسي : هذا ياكويكوج استخدام لخير الآلات الحادة التي يصنعها روجر في انتقام وتشغبر ، ومن بعد قلْ عجبني من هذه الحلاقة حين أصبحت أعرف أي نوع مرهف من الفولاذ يتخذ في صنع السنان ، وكيف أن شفرتيه الطويلتين المستقيمتين تظلان دائماً غاية في المضاء .
أنجز كويكوج بقية زينته وغادر الغرفة في خيلاء وقد تلفع بصدارة السعدان . وهو يتلعب برمحه كأنه عصا المارشالية .

الفتور

لبست ثيابي بسرعة وهبطت الى غرفة الشراب وحييت رب الدار المقلص الشفتين دائماً تحية الأنس والإرتياح فلم أكن أضمر نحوه ضغينة وإن عابثني غير قليل في أمر ريفتي في السرير .

على أية حال أنا أرى الضحكة الطيبة شيئاً قوياً طيباً بل هي شيء طيب نادر بالغ الندرة . وفي هذا ما يؤسف له . فإن كان شخص امرئ يصلح لدى امرئ آخر للتندر والدعابة فإنني أنصح به بأن يكون رحب الصدر فيقبل بترحاب أن يضحك ويضحك الآخرين . ومن كان على حظ كبير مما يضحك الناس منه فكن على يقين من أن فيه من الخصائص فوق ماتصوره .

كانت غرفة الشراب مكتظة بالنزلاء الذين توافدوا في الليلة السابقة ولم يكن قد أتيح لي أن أتعرف إلى ملامحهم . كانوا جميعاً من المهتمين بالحيتان ؛ على اختلاف في الدرجات والحرف فمتهم الضباط الكبار ومنهم ضباط الصف الثاني وضباط الصف الثالث ، ومنهم نجارون بحريون ونحاسون بحريون وحدادون بحريون ومنهم الصيادون بالرمح وأصحاب السفن ، فئة من السمردوي السواعد المفتولة واللحي الكثة والشعر الأشعث المعشكول ، يلبسون صدارات السعدان بدلاً من الجلباب الصباحي .

تستطيع دون عناء أن تحزر منذ متى نزل كل واحد منهم على الساحل ؛ هذا الشاب ذو الخد الفاره ، يشبه في لونه الإجاصة التي سفعتها الشمس ورائحته تكاد تكون مسكية كشذاها . حين تراه تقول إنه لم يمض عليه ثلاثة أيام منذ أن ألقى العصا من رحلته الهندية . وذلك الذي يجلس الى جانبه أخف ظلالاً منه وقد تقول إن فيه مسحة من الخشب الأخضر ، وعلى سحنة الثالث بقايا من صحمة استوائية إلا أن سائرهما قد انقشع اذن فلا ريب

في أنه مقيم على البر منذ أسابيع . ولكن أيهم يجلو عليك عارضاً مثل عارض كويكوج ؟ -
ذلك عارض معلّم بجذائذ من الأصبغة فكانه منحدرات الأنديز الغربية يريك في نسقٍ واحد
مناطق مناخية متفاوتة ، واحدة اثر أخرى .

صاح ربّ الدار : هيا ، ودفع الباب على مصراعيه ، فدخلنا لتناول طعام الفطور .
يقولون إنّ الرجال الذين رأوا الدنيا يصبحون ذوي سجاحة واملننان في تصرفاتهم ،
ولباقة وكياسة بين رفقتهم . هذا لا يصحّ دائماً فإنّ لديارد الرحالة المشهور ابن نيوانجلند
ومنجو بارك الاسكتلندي^(١) كانا بين الناس أقلهم ثقة بأنفسهم في الأبهاء والقاعات . ولكن
ربّما كان اجتياز سيبيريا في زلاجة تجرّها الكلاب^(٢) وذلك هو ما فعله لديارد ، وربّما كان
مشي المتوحّد الجائع في قلب افريقيا السوداء ، وذلك هو النسيب الذي فاز به منجو ثمرةً
لأسفاره ، أقول ربّما كان هذا أو ذاك النوع من الأسفار لا يعدّ خيراً وسيلة لإحراز قسط كبير
من الجاذبية والذلاقة الاجتماعية . ثمّ إنّ ذلك الألق الجذّاب في المجتمع يحزره المرء في أيّ
مكان .

أثار هذه التأمّلات في خاطري أننا بعد أن جلسنا الى المائدة منيت نفسي وهيأتها
لسماع قصص كثيرة عن صيد الحيتان . ولشدة ماكانت دهشتي حين وجدت كلّ رجل في
الجالسين يلوذ بالصمت العميق . بل استولت عليهم جميعاً الحيرة والإرتباك . أجل . ها هنا
فئة من كلاب البحر ، كثيرون منهم ، دون ومضة من خجل ، واجهوا الحيتان الهائلة في
البحار الهائجة - التقوا بمن هم غرباء عنهم - بارزوا الحيتان ومصرعوها دون أن يطرف لهم
جفن . وهامهم يجلسون هنا على مائدة الإفطار وكلّهم شركاء في المهنة متقاربون في الأذواق
ينظر أحدهم الى الآخر في استحياء كأنهم لم يفارقوا حظائر الأغنام بين الجبال الخضراء . منظر
غريب! هذه الدببة الحيّة! هؤلاء الحواتون الباسلون الخوّارون!

أمّا كويكوج ، وما أدراك ما هو ، فقد جلس بينهم واتفق أن كانت جلسته في صدر
المائدة ، بارداً كأنه الذلذل الجليدي . يقيناً لأستطيع أن أثني على حفظه من الأدب في هذا
المقام . فإنّ أشدّ الناس إعجاباً به لا يستطيع أن يجد مسوغاً يبرّر إحضاره رمح الصيد الى
مائدة الطعام واستعماله هناك دون احتفال بمشاعر الآخرين ، فقد كان يمدّه الى الطرف

(١) جون لديارد (١٧٥١ - ١٧٨٩) قضى أربع سنوات في جزائر المحيط الهادي في رحلة مع الكابتن كوك (١٧٧٦ - ١٧٨٠) وقطع
سيبيريا في عربة تجرّها ثلاثة خيول (سيف ١٧٨٧) وأنهم بأنّه جاسوس فرنسي فأعيد في عربة الى موسكو ثمّ طرد من روسيا عند
الحذ البولندي (نيسان ١٧٨٨) . أمّا منجو بارك (١٧٧١ - ١٨٠٦) فقد عرف برحلاته في داخل افريقيّة (١٧٨٩) وبين الرجلين
مشابه كثيرة .

(٢) خطأ من ملفل ، والمصواب : تجرّها الثيول .

القصي من المائدة ، وفي ذلك ما فيه من خطر بالغ على رؤوس الحاضرين ، ويفرزه في شرائح اللحم ويقربها الى صحنه . إلا أنه فعل ذلك في هدوء وكلنا نعلم أن الناس يرون أن من أذى أمراً في هدوء فقد أذاه في ظرف وكياسة .

لن نتحدث في هذا المقام عن كلّ الشذوذات لدى كويكوج وكيف أنه تجنّب القهوة والكعك الساخن ، ووجه همّه مجتمعة نحو شرائح اللحم حتّى أتى على أكثرها .
يكفيني أن أقول أنه بعد انتهاء الفطور انسحب مع سائر القوم الى القاعة العامة ، وأشعل كدوسه الشبك ، وجلس هناك في هدوء يهضم الطعام ويدخن ، وقبّعته التي لا تفارقه أبداً جائمة على رأسه ، بينما اندفعت خارجاً لأقوم بجولة في البلد .

الشارع

إذا كانت الدهشة قد تملكنتني حين لمحت - أول مرة - همجياً مثل كويكوج يتجول في مجتمع مهذب في مدينة متحضرة فإن تلك الدهشة سرعان ما انحسرت عني حين قمت بأول جولة صباهية خلال شوارع نيوبدفورد .

كل ميناء ذي شأن كثيراً ما يعرض لك في الشوارع العامة القريبة من دار الصناعة (الترسانة) أغرب السحن التي تنتمي الى مختلف جهات العالم وتعجز الواصفين . حتى أنك لترى في شارعى برودواي وشسنت^(١) بخارة من حوض المتوسط يزحمون النساء المروّعات أحياناً . وليس شارع ريجنت^(٢) نائياً على بخارة جزر الهند الشرقية (العسكر) والملايو . وفي بومباي - وفي أبولو جرين منها - يعيش أمريكيون يربعون الأهالي أحياناً ، إلا أن نيوبدفورد تفوق في هذا الشأن كل شارعى ووتر وواينج^(٣) . ففي هذين الشارعين ترى بخارة فحسب أما في نيوبدفورد فترى متوحشين يتوقفون ليتحدثوا في زوايا الشوارع - متوحشين لم تفارقهم وحشيتهم وكثير منهم ما يزال يحمل على عظامه لحماً نجساً ، وذلك مما يجعل الفريب يحملق في الوجوه محدقاً . وترى أبناء جزر فيجي وغيرهم من البدانيين ونماذج غريبة من محترفي صيد الحيتان يتجولون في الشوارع دون أن يثيروا التفاتاً ، كما ترى أيضاً مناظر أخرى أشد غرابة وأكثر إثارة للضحك . وفي كل اسبوع يصل الى هذه المدينة عشرات من أغرار فيرمونت ونيوهامبشير وكلهم متعطشون للريح والمجد من صيد الأسماك ، وأكثرهم شبان ذوو أجسام قوية ، أناس عاشوا على قلع الأخشاب ورأوا أن يلقوا القأس

(١) الشارع الأول في نيويورك والثاني في فيلادلفيا .

(٢) اسم شارع بلندن .

(٣) ووتر في لفرمول ، وواينج في لندن .

ويعتقلوا حربة الصيد وأكثرهم أغرار خضر الوجوه كأنهم الجبال الخضر التي جاءوا منها .
وتحسبهم في بعض الأمور الأخرى قد تقدمت بهم السن بضع ساعات . تأمل! ذلك شاب
يخب عند الزاوية ويلبس قبة محرّدة ومعطفاً كذنب الخطّاف «فراك» ويتمنطق بحزام بخار
ومدية مغمدة . وهذا آخر يلبس السوتر والعباءة بالمبازية .

وإذا الريفي أخذ في التأنق عجز عن أن يباريه الغرائقة المتأنتقون من أبناء المدن -
وأعني بذلك «غندور» الريف المتفطرس السادر الذي إذا هب ليحصد الفدانين اللذين
يملكهما - في أيام القيط - لبس قفازاً من جلد الغزال كي لا تلوح الشمس يديه . فإذا صمّم
هذا «الغندور» الريفي على أن يعرّض سمعه فائقة ، ويسلك نفسه في عصبة سيد الحيتان ،
فلا بدّ لك من أن ترى الأمور المضحكة التي يأتيها حين يبلغ الميناء ، فهو إذا أراد أن يجعل
زيه البحري ينمّ عليه أوصى الخياط أن يضع له أزراراً جرسية الشكل على صدرته ، وأن يزود
سرواله الخيشي بالسيور . مسكين أنت يا ابن التين والقش! ما أسرع ماتنفرت تلك السيور
في أول هبة ريح ضارية حين تُلقى أنت وسيورك وأزرارك وكلّ ما لديك بين فكّي العاصفة .

لكنّ إياك أن تظن أنّ هذه المدينة الشهيرة لا تقدم لزانرها إلا الحواتين والمتوخشين
والمتفندرين . لا بل إنّ نيوبدفورّد أغرب شأناً ممّا تتصوّر . ولولانا - نحن رجال الحيتان -
لظلّت تلك البقعة من الأرض حتّى اليوم دويّة مقفّرة كأنها ساحل لابرادور . وبعض الريف
الممتد من خلفها يفزع المرء منظره لأنه أجرد قاحل . ولعلّ المدينة نفسها من أكثر الأمكنة
غلاء في نيوانجلند جميعاً . نعم إنها بلد الزيت . ولكنها ليست مثل أرض كنعان بلد القمح
والخمر . ولا تتدفّق في شوارعها أنهار اللبن ، ولا ترصف تلك الشوارع في أيام الربيع بالبيض
الطازج ، ورغم ذلك كلّه فلن تجد في كلّ امريكا بيوتاً كبيوتها أبهة وفخامة ، أو كمتزهاتها
وجنّاتها وفرة ونضارة . من أين تلك الجنّات ؟ كيف غرست في بقعة ريفيّة لم تكن إلا مطرْحاً
لخبث المعادن ؟

إذا شئت جواباً على هذا السؤال فإذهب وانظر الى الرموز التي تمثّلها رماح الصيد
الحديدية المريّشة حول ذلك الصرح العالي . أجل . إنّ تلك البيوت الجبّارة والجنّات الزاهرة
إنّما انبثقت من الأطلسي والهادي والهندي . إنّها اصطيدت من أعماق البحر وجرت حيث
نصبت . هل يستطيع السيّد اسكندر^(١) أن يعمل مثل هذا العمل العظيم ؟
والناس يقولون : إنّ الأباء في نيوبدفورّد يدفعون المهور لخطّاب بناتهم حيثاناً

(١) ساحر ألماني كان يؤدّي ألعابه السحرية في مسارح نيويورك بين عامي ١٨٦٥ - ١٨٤٩ .

ويفرقون على القريبات حصصاً من البربوز . لابدّ من أن تذهب الى تلك المدينة لتشهد عرساً رائعاً فالناس يقولون إن في كلّ بيت هناك أحواضاً من الزيت وفي كلّ ليلة يوقدون ، دون حساب ، شموعاً من شحم العنبر تبلغ مثل قاماتهم طولاً .

من اللاذّ أن ترى المدينة في فصل الصيف - فهي مليئة بأشجار العُرب الجميلة ، والشوارع التي تظللها الأشجار الخضراء ذات الأزهار الذهبية . وفي شهر آب (اغسطس) يقدم الشاه بلوط الجميل الوفير الذي يشبه الشمعدانات - يقدّم للعابرين عنائيد من براعمه في أشكال مخروطية مستقيمة مستدقة . الفن ذو قوة مهيمنة فقد أضاف ربعاناً مشرقة من الأزهار الى تلك النفايات من الحجارة العقيمة التي طرحت آخر يوم خلق فيه العالم .

ونساء نيوبدفورد : إنهن يزهرن إزهار الورد الأحمر في بلدهنّ . إلا أنّ الورد لا يترعرع إلا في الصيف ، أمّا جمال خدودهنّ فإنه دائم كضوء الشمس في السماء السابعة . لا تستطيع أن تجد لتوردهنّ مثيلاً في أيّ مكان إلا في سالم ، فقد أخبرني الثقة أنّ أنفاس الفتيات فيها تنفث مسكاً ، حتّى أنّ عشاقهنّ من البحارة يتنسمون شذاهنّ العطر وهم على أميال من الشاطئ . وكأنّما يقتربون من «جزر البهار» بدلاً من «رمال المتبررين الفياري» .

المعبد

يقوم في هذه المدينة التي تسمي نيوبدفورد معبد صيادي الحيتان وقليل هم الصيادون ذوو الأمزجة المتقلبة الذين يتراخون عن القيام بزيارته في أحد أيام الأحاد ماداموا يزمعون الإبحار وشيكاً الى المحيط الهندي أو الهادي . وأنا على يقين بأن تلك الزيارة لم تفتني . فعندما عدت من جولتي الصباحية الأولى خففت مرة أخرى لقضاء هذا الارب ، وقد تغيرت السماء من حال صفاء وشمس وبرودة الى ضباب ومطر مصحوب بالبرّد . لذلك تلتفتت بسترتي الخشنة المصنوعة من قماش يسمونه « جلد الدب » ، واتخذت وجهتي في مقاومة العاصفة العنيدة . وعندما دخلت المعبد وجدت جمعاً مشتتاً صغير العدد من البحارة ونسائهم وأراملهم . وكان يفشى الوجود صمت مخيم لايمزقه بين الحين والحين سوى زعقات العاصفة . وقد ابتعد كل مصل عن أخيه عامداً كأن كل حزن صامت كان مقصوراً على صاحبه فهو لايفضي به الى غيره . ولم يكن القستيس قد وصل فوقف كل فريق صامت من الرجال والنساء يرمقون شواهد رخامية عديدة ذات حواف سود قد غرزت في الجدار على جانبي المنبر . ويشبه أن يكون ماكتب على ثلاثة منها كما يلي : وإن كنت لأدعي أن هذا هو النص الحرفي :

وقفاً على ذكرى جون تلبوت الذي غرق وهو في الثامنة عشرة
تقريباً من جزيرة الدمار ، حذاء ساحل باتاغونيا في غرة
تشرين الثاني عام ١٨٣٦ . نصبت هذه اللوحة اخته لذكراه .

وقفاً على ذكرى روبرت لونج وولس إلري وناثان كولمان
وولتر كاني وسيث ماسي وصموئيل جلايخ ، وهم من
بحارة السفينة «اليزا» التي جرما حوت فأغرقها على
مبعدة من البر في المحيط الهادي في ٢١ كانون الأول
١٨٢٩ وقد أقام هذا النصب الرخامي رفاقهم الناجون .

وقفاً على ذكرى المرحوم القبطان حزقيال هاردي الذي قتله
وهو في مقدم قاربه حوت العنبر عند ساحل اليابان في الثالث
من آب ١٨٢٢ وقد نصبت أرملته هذه اللوحة لذكراه .

بعد أن نفضت البرد عن قبعتي وسترتي اللتين كساهما الجليد بطبقة زجاجية اتخذت
مجلسي عند الباب . وتلفت يمينه ويسرة ، فأدهشني أن أرى كويكوج قريباً مني ، كان مثابراً
بجدية المشاهد فارتسمت على ملامحه نظرة المندهب الذي ثار في نفسه حب استطلاع
ظامي . وكان هذا المتوخش هو الشخص الوحيد الذي لحظ دخولي - فيما يبدو- ذلك أنه كان
الأضي الوحيد بين الناس ، ومن ثم لم يكن قد شغل بقراءة تلك النقوش الجامدة على الجدار .
لست أدري هل كان في الجمع أحد أقرباء البخارة الذين كتبت أسماؤهم على الرخام ، غير أنني
أعلم أن ما يدون من أحداث مهنة الصيد على الشواهد والنصب كثير العدد ، وكثيرات هن
النساء الحاضرات اللواتي كن يحملن على وجوههن سمات حزن لايريم ، إن هن لم يتسلبن
ثياب الحداد ، حتى لأحسست مستيقناً أنه قد احتشد أمامي أولئك الذين يتبعث الأسي في
قلوبهم الملتاعة منظر تلك اللوحات الكئيبة وينكأ جراهم القديمة .

أوه يامن يرقد موتاهم بين المشب الأخضر! يامن إذا وقفوا بين الأزهار قالوا : هنا ،
هنا يرقد الأحب! إنكم لتجهلون الوحشة التي تعشش في تلك الصدور . أي فراغ مرير في
ذلك الرخام ذي الإطار الأسود الذي ليس تحته رفات! أي يأس في هذه المنقوشات الثابتة!

أيّ خلا، مميت، وكفرٍ محرّم في تلك الأسطر التي تهضم الإيمان وجوده وتنكر البعث على الأحياء الذين قضوا دون أن تخطّ لهم قبور . لو نصبت هذه اللوحات في مغارة القبلة^(١) لكانت أيضاً في موضعها الملائم .

في أيّ فريق من المخلوقات الحيّة يدرج موتى بني الإنسان ؟ لم يقول المثل السائر فيهم : إنهم لا يحكون حكايات وإن كانت لديهم أسرار تزيد على رمال عالج ويبرين ؟ كيف نقرن باسم الذي فارقنا أسس الى العالم الآخر كلمة كافرة مرموقة ، ولانصحه هذا الحق إذا شاء . أن يبهر الى أقصى بقعة في هذا العالم الحي ؟ لم تدفع شركات التأمين تعويضات عن موت من يعدّون خالدين ؟ في أي شلل خالد كسيح وغيوبه مميتة يانسع آدم القديم الذي مات منذ ستمين قرناً كاملة ؟ ما بالنا ما نزال نرفض أن تعزّي عنن لانفتاً تؤمن - رغم ذلك - إنهم يقيمون في نعيم مقيم ؟ لم يحاول الأحياء جميعاً أن يخرسوا الأموات جميعاً . مع أن إشاعة تروى كيف سمع صوت الدقّ في أحد القبور تكفي لترعب مدينة كبيرة ؟ هذه الأشياء جميعاً ليست دون معنى .

إلا أن الإيمان كالشعلب يجد غذاءه بين القبور ، ومن الريب الميته يستجمع أشد آماله حياة ونضرة .

لقلماً يحتاج القارىء أن أخبره بأي مشاعر تأملت تلك الشواهد الرخامية وأنا على أهبة السفر الى ناتوكت ، وكيف أنني على ضوء ذلك اليوم الحزين المظلم - وهو ضوء خافت - قرأت مصير صيادي الحيتان الذين مضوا قبلي على الطريق . نعم يا اسماعيل ، إنك قد تواجه مثل ذلك المصير . غير أن المرح عاودني على نحوٍ ما : مغريات ممتعة تحفزني على الرحلة . فرصة ذهبية لتحسين الحال - فيما يبدو - أجل : فإنّ قارباً مخروفاً يجعلني خالداً بالبراءة التي يمنحنيها بعد أن كنت من أبناء الفناء . نعم إن في مطاردة الحيتان موتاً - إلا أنه إزجاء للإنسان في أحضان الأبدية على نحوٍ سريع صامتٍ ملهوج . ثمّ ماذا نجد في أحضان الأبدية ؟ هبّ أنا أخطأنا خطأ فادحاً في فهم مسألة الحياة والموت . هبّ أن ما يسمونه على هذه الأرض « ظلي » إنّما هو جوهرى الصحيح ، هبّ أننا حين ننظر الى الأمور الروحية نشبه السرطان الذي يرى الشمس من خلال الماء فيظن أن الماء الكثيف هو أشدّ نوع من الهواء شفافية . هبّ أن جسدي ليس إلا الحمى الذي يأوي اليه وجودي الأفضل . بل في الواقع ليأخذ جسدي من شاء - أقول ليأخذه - فإنه ليس أنا . مرّحى ثلاثاً لاناتوكت وليأت القارب المخروق والجسم الموهون متى شاء . إذ أن جوهر نفسه يعجز عن أن يخرق روحي .

(١) مغارة قرب بومبي بالهند والتي جانبها ست مغاور صغيرات . وهي وقف على عباد شيغا المدمر الذين يوثرونه على قسطنطين الحافظ . وكانت مزينة بالتماثيل .

المنبر

لم أكن قد جلست طويلاً حين دخل رجل ذو وقار جليل ، وما أن استدار الباب الذي تصفحه العاصفة على عقبه مرخباً بقدمه حتى توجهت الأنظار اليه متطلعة عجلى ، وكان ذلك دليلاً على أن هذا العجوز الجليل هو القسيس . أجل . كان هو الأب مابل المشهور ، فكذلك كان يدعو صيادو الحيتان ، وكان بينهم أثيراً مرموقاً . وفي شبابه كان بخاراً وحواتاً إلا أنه منذ عدة سنوات نذر حياته للتبشير والوعظ . وأثناء كتابة هذه السطور كان قد بلغ من العمر الفصل الشتائي من شيخوخة صحيحة سليمة ، أعني ذلك النوع من الشيخوخة الذي يخيل اليك أنه يفضي الى شباب ثانٍ مزدهر ، إذ كان يلعب في أتلانم تجقداته ألقى وديع من نضارة آخذة بالنمو ، كأنها خضرة الربيع تتفلت للظهور من تحت ثلوج شباط . وكل من سمع قصته من قبل فلا بد من أن يتلقاه باهتمام بالغ ، إذ كانت قد رسخت عنه في النفوس خصائص اكليروسية تعزى الى حياة المخاطر البحرية التي خاضها في شبابه . وعندما دخل لحظت أنه لم يك يحمل مظلة ، ولم يأت على وجه اليقين في عربة ، إذ أن قبعة التريبولين كانت تقطر برداً ذائباً ، وسترته الكبيرة المصنوعة من قماش الملاحين تكاد تشده الى الأرض بشقل ما امتصته من ماء . مهما يكن من شيء ، فقد نزع عنه قبعته ومعطفه وخفه ، واحداً إثر آخر ، وعلقها في فجوة صغيرة في الزاوية المجاورة له ، وحين ارتدى ثياباً مناسبة تقدم بهدوء نحو المنبر .

وكان منبراً ككل المنابر القديمة في طرازها ، عالياً بالغ العلو ، وبما أن الدرج العادي الصالح لمثل هذا الإرتفاع يكون مع الأرض زاوية طويلة فيبتلع مساحة المعبد - وهي بطبيعتها صغيرة - لذلك قام المعماري امتثالاً لإرشادات الأب مابل ببناء منبر دون درج ، متخذاً عوضاً عنه سلماً جانبياً قائماً كالسلام التي تستعمل في الصعود الى السفن من قارب في

البحر . وقام زوج أحد قباطنة الحواتين فتبرعت للمعبد بزوجين جميلين أحمرين مبرمين من الكرور . ولما كان المنبر نفسه متقن الرأس مدهوناً بلون كلون خشب الماهوغاني فقد كان التدبير جملة ، إذا أنت اعتبرت حال المعبد ، يدل على ذوق طيب . توقف الأب مابل لحظة عند قاعدة السلم وقبض بكلتا يديه على عقدتي الجبل البارزتين للزينة ، وألقى نظرة الى فوق ، ثم وضع يداً على يد ، وأخذ يصعد مرقة إثر مرقيه في رشاقة تليق بالبحارة . إلا أنها أيضاً مشفوعة بالوقار ، كأنما يصعد الى قمة الدقل الرئيس في سفينته .

وكانت مراقبي هذا السلم الجانبي ، حسبما هي الحال في كل السلالم المتأرجحة ، مصنوعة من حبال مغلقة بالقماش وليس فيها خشب إلا في العوائل . ولذلك كان في كل مرقة مفصل . وحين لمحت المنبر أول مرة لم يفتني أن هذه المفاصل إذا كانت تصلح للسفينة فإنها في حال المنبر تبدو غير لازمة . غير أنني لم أكن قد تهيأت لأرى الأب مابل بعد أن رقي في منبره يستدير ببطء ، وينحني فوق المنبر ، ويعمد الى جز السلم مرقة إثر مرقة ، حتى يودعها جميعاً لديه ، وقد أصبح ممتنعاً متحرزاً في «سفينته» الصغيرة .

وتفكرت في هذا الأمر بعض الوقت دون أن أفهم وجه السر فيه . ذلك أن الأب مابل كان قد أحرز شهرة واسعة في الإخلاص والتأله ولذلك لم يتجه بي الريب الى أنه كان يجز على نفسه سوء السمعة بمثل هذه الحيل المسرحية ، وقلت في نفسي : لا . لا بد من سبب وجيه لهذا . ثم لا بد أن يكون هذا الأمر رمزاً لشيء غير مرئي . ألا يجوز أنه بهذه العزلة الجسمانية يرمز الى اعتناقه الروحي - بعض الوقت - من أسر العلائق والروابط الدنيوية ؟ أجل إن هذا المنبر وقد طفح بخمر الكلمة ولحمها يمثل حمى حصيناً دائم المدد للرجل المؤمن . فيما أرى - كأنه قلعة شاهقة^(١) مزودة ببئر من الماء المعين داخل أسوارها .

إلا أن السلم الجانبي لم يكن هو وحده المظهر الغريب في ذلك المكان . بل كانت هناك شؤون أخرى استمدها القسيس من وحي أعماله البحرية السابقة ، منها صورة كبيرة تمثل سفينة جريئة تصارع عاصفة عنيفة عند شاطئ عاصف ذي صخور سود وموجات بيض . وقد علقت هذه الصورة بين الشاهدين الرخاميين القائمين على جانبي المنبر ، وزين بها الحائط الذي يمثل ظهر المنبر نفسه ، وفوق الغيمات السابحات والسحب السود المتدحرجة كانت تعوم جزيرة صغيرة من نور الشمس يبزرغ منها وجه ملك ، وهذا الوجه

(١) في الأصل كأنه : Ehrenbreitstein وهي قلعة زارها ملغل عام ١٨٤٩ .

المتألق يرسل فلكة من الشماع على ظهر السفينة المتأذفة ، شبيهة بذلك الطبق الفضي الذي طمعت به الربة خلف الدقل الأعظم في سفينة «النصر» حيث سقط «نلسون»^(٢) . وكأن الملاك يقول : «أيتها السفينة الكريمة . تقحّمي ، اندفعي ، قدمي دفّة جسورة . ها هي الشمس تشقّ الدجن ، والسحب تنحسر متدحرجة ، والزرقة الصافية قد أصبحت وشيكة» . ولم يكن المنبر نفسه بنجوة من أثر الذوق البحري الذي خلق السّم والصورة بل إنّ مقدّمته «المقرّوزة» كانت تشبه القيدوم السامق في السفينة ، وكان وضع الكتاب المقدّس على قطعة بارزة من حلية التدوير إنّما هو محاكاة للمنقار الحديدي أو المّلوي في السفينة . أي شيء أشدّ من هذا احتفالاً بالمعنى ؟ إذ المنبر هو مقدّم هذه الأرض وكلّ شيء عداه يجيء في المؤخّرة ، والمنبر هو الذي يقود العالم ويهديه ، منه تلمح عاصفة الغضب الالهي أول ما تلمح ، ولا بدّ للقيدوم من أن يتلقّى الصدمة الأولى ، منه يتوجّه الدعاء الى ربّ الرياح - رفيقة كانت أو عنيفة - لكي يرسلها رخاء طيبة . أجل إنّ العالم سفينة مبحرة ، لما تستكمل رحلتها ، والمنبر فيها هو قيدومها .

(٢) «النصر» Victory اسم سفينة نلسون وهي في ميناء بورتموث ، وقد رآها طفل عام ١٨٤٩ .

الموعظة

نهض الأب مابل ، وأمر الناس المتفرقين أن يتجمعوا ، بصوت لطيف يوحي بسُلطان وديع : « أنتم في ميمنة السفينة ، قفوا جانباً ، اتجهوا نحو ميسرة السفينة . وأنتم في الميسرة ، تجمعوا ، هنا إلى الميمنة ، جميعاً توسطوا السفينة ، توسطوا » .

تحركت الأحذية البحرية الثقيلة بين المقاعد وأرسلت دمدمة غير عالية ، وبعثت أحذية النساء حسيماً ، ثم هدأ كل شيء ، واتجهت الأعين نحو الواعظ .

تريث هنيهة ثم جفا على ركبتيه عند مقدمة المنبر ، وطوى يديه الكبيرتين السمراوين أمام صدره ، وشخص بعينه المغمضتين ، ودعا دعاء قاتناً حتى خيل أنه راكع يصلي في قاع البحر .

وحين انتهى من ذلك أخذ يقرأ الترنيمة التالية في نغمات مستطيلة جليلة كأنها صوت جرس مسترسل في سفينة مشرفة على الفرق في ضباب البحر . إلا أنه غير أسلوبه في المقطعين الأخيرين واندفع في تهلل وابتهاج مجلجل يرتل قائلاً^(١) :

أضلاع الحوت وما في الحوت من مفرعات
نشرت فوق ظلاماً كثيفاً
وتدافعت من حولي أمواج ساقها الله مضوأة بنور الشمس
فرفعتني ثم هوت بي وطوتحت بي للأجل المحتوم

(١) لعلّ ملغل هو ناظم هذه الانشودة الدينية . لعلّ يعبر أحد لها على أصل في كتاب آخر .

ورأيت جهنم وقد ثفلت أحشاؤها
وهي تتميز بالأم وأحزان أبدية
لا يقدر على وصفها إلا من كابدها ،
واهاً لي . لقد كنت أهوي في لجج اليأس .

وفي محنتي السوداء دعوت ربي
حين كنت أجده رثاً
فسمع الله شكاتي
ولم يعد بطن الحوت لي محبباً

ويادر مخفأً الى خلاصي
كأنما انطلق به دلفين كالشعاع
وتجلى لي وجه الرب منقذي
رهيباً ، متلألئاً كخطفة البرق

ستظلّ ترنيمتي الى الأبد
تعيد ذكرى تلك الساعة الرهيبة البهجة
لله المجد خالصاً
فهو القوي الذي وسعت رحمته كل شيء .

شارك جلّ المصلين في ترديد هذه المناجاة فتعالت على عواء العاصفة ، وتلا ذلك توقف
قصير الأمد ، وقلب الواعظ ببطء صفحات التوراة ، وأخيراً قال وهو يطوي يده على الصفحة
المبتقاة : « أحبابي رفاق البحر ، قفوا عند الجملة الأخيرة من الاصحاح الأول في سفر يونا
حيث يقول : « وأما الرب فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونا » .
« يارفاقي البحارة ، يحوي هذا السفر إصحاحات أربعة ، أو خيوطاً أربعة ، فهو من
أصغر القوي في حبل الكتاب المقدس القوي المفتول . أي أعماق روحية يسبرها حبل يونا
المديد! أي عبرة حفيلة نستمدّها من هذا النبي! أي شيء سام هي تلك الأنشودة في جوف
الحوت! ما أشبهها بالموجة في عنفها وعظمتها! إننا لنحسن الطوفان يندفع من فوقنا ، وإننا

نتمس معه الى أغوار الماء حيث ينزوي جنّ البحر ، ومن حولنا أعشاب البحر وكلّ ما فيه من حمأة . ولكن أيّ درس هذا الذي نتعلّمه من سفر يونان ؟ يارفاقي البحارة إنه لدرس ذو طاقتين : درس لنا بني الإنسان المذنبين ، ودرس لي أنا قائد سفينة الحي القيوم . هو درس لنا جميعاً - نحن المذنبين - لأنه قصة الخطيئة وقساوة القلب والمخاوف التي استفاقت فجأة والعقاب العاجل والتوبة والصلوات والنجاة والفرح الذي غمر يونان . وقد كانت خطيئة ابن أمّتي - كخطيئة جميع الأثمين من الناس - هي عصيان أوامر الله إصراراً حين وجدها أوامر شاقة . لايهمّنا ماذا كانت تلك الأوامر ، وكيف ألقيت اليه ، غير أنّ كلّ ما يأمرنا الله أن نفعله يشقّ علينا فعله ، تذكروا هذا واعلموا أنه من ثمّ يأمرنا بدلاً من أن يسمى لإقناعنا . وإذا كنّا نطيع الله فعلينا أن نعصي أنفسنا ، وفي عصياننا لأنفسنا تكمن الصعوبة في امتثالنا لأوامر الله .

« لم يقتصر يونان على العصيان بل ذهب يسخر من الله بالفرار من وجهه . ظنّ أنّ سفينة صنعها الأدميون قد تحمله الى بلاد ليس لله فيها سلطان ، وكلّ السلطان فيها إنّما هو لقباطنة هذه الأرض . فتوارى في أرصفة يوبا يبحث عن سفينة متوجّهة الى ترشيش ، وربّما كان يكمن في هذا نفسه معنى خبيء لم يتنبّه له أحد حتّى اليوم . إذ أنّ ترشيش لم تكن سوى مدينة قادش الحديثة ، ذلك مايقول به العلماء . وأين هي قادش يارفاق البحر ؟ في اسبانيا أبعد مكان من يوبا يمكن أن يبهر اليه يونان في الأيام القديمة ، حين كان الأطلسي مايزال بحراً مجهولاً أو يكاد . ذلك لأنّ يوبا - وهي يافا الحديثة يارفاق البحر - تقع على ساحل المتوسط ، أو البحر الشاميّ ، وتبعد عنها ترشيش أو قادش مايزيد على ألفي ميل غرباً ، وراء مضيق جبل طارق . ألسّتم ترون يارفاقي البحارة أنّ يونان كان يحاول أن يمعن هرباً من وجه الله حتّى ليقطع العالم من طرف الى طرف ؟ يالك من رجل تمسّ! أيّها الحقير الذي يستاهل كلّ ازدراء! أتريد أن تختفي عن إلهك بقبّعة منكفئة الحوافي^(١) وعين منكسرة! وأنت تنسلّ بين حشود السفن كالخارب اللصّ تريد أن تعبر البحار! كان مضطرباً تخونه نظراته وملامحه ، ولو كانت في تلك الأيام شرطة لقبضت على يونان قبل أن يلمس ظهر السفينة بشبهة اقتراه جرمًا . ما أوضح ماتنبيء أحواله أنه هارب : لا متاع ولا صوان للقبّعة ولا وليجة ولا كيس أمتعة ، ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودعين . وبعد بحث وتسلّل كثير يجد أخيراً سفينة ترشيش وهي تتلقّى آخر البضائع من مشحوناتها ، وحين

(١) كذلك كانت قبعة أخاب منكفئة الحوافي ، انظر الفصل ٢٠٠ (الجملة الخامية) .

يخطو على ظهرها ليقابل قبطانها في قمرته يتوقف البحارة جميعاً عن رفع البضائع ليبحروا هذا الغريب وعينه المشؤومة . فيدرك يونان ذلك ويحاول عبثاً أن يبدي أمارات الشكّة والإطمئنان . وعبثاً يحاول أن يمتحن أثر ابتسامته التاعسة ذلك أن حدساً قوياً يلهم البحارة أنه لا يعقل أن يكون بريئاً ، فيهمس أحدهم للآخر في جذ ظاهره هزل ويقول : « جاك ، لقد سرق مال أرملة » . أو يقول : « جو ، ألسّت تبصره ؟ إنه زوج اثنتين » . أو يقول : « هاري أيها الفتى ! إنّي لأظنه الزاني الذي هرب من السجن في عامورة القديمة ، أو لعله أحد القتلة الهاريين من سدوم » . ويجري آخر ليقراً الإعلان المثبت على أسوار الرصيف الذي تأوي اليه السفينة وفيه جائزة بخمسمائة قطعة ذهبية لمن يرشد الى قاتل أبيه . وفيه أوصاف القاتل . فيقرأ ناقلاً عينيه بين يونان تارة والإعلان تارة أخرى بينا يتجمهر رفاقه البحارة الذين يشاطرونه شعوره حول يونان على أهبة أن يلتقوا القبض عليه ، فيرتعد يونان المرتع . ويستنجد بكلّ جرأته لترسم الجراءة في قسّمات وجهه فلا يزداد في أعينهم إلا جبناً . فهو لا يريد أن يعترف بأنه مشبوه ولكنّ ذلك نفسه شبهة قوية ، غير أنه يفيد من ذلك الى أقصى حد ، وعندما يجد البحارة أنه ليس هو الموصوف في الإعلان يطلقون سراحه فيهبط الى القمرة » .

« فيصبح القبطان وهو جالس الى طاولة عمله ، يعد الأوراق لتقديمها للجمارك : « من هذا ؟ » - من هذا ؟ سؤال هين ولكنه يقع على سمع يونان وقوع الصاعقة ويكاد يستدير هارباً إلا أنه يتظارف قانلاً : « أودّ أن أسافر على هذه السفينة الى ترشيث . هل بقي لإبحاركم وقت طويل ياسيدي ؟ » . حتى هذا الوقت لم يكن القبطان قد تطلّع الى يونان وإن كان ماثلاً أمامه ، ولكنه ماكاد يسمع ذلك الصوت الأجوف الخاوي حتى يرميه بنظرة فاحصة . وأخيراً يجيبه في أناة : « نبحر مع ارتفاع المدّ التالي » ، وما يزال محدّد البصر اليه . فيقول يونان : « ألا تبادرون للإبحار قبل ذلك ياسيدي ؟ » فيقول القبطان : « إبحارنا مع المدّ مبادرة يرضى بها كلّ مسافر شريف » . وهاهنا لك يا يونان! هذه طعنة أخرى . ولكنه يسرع فيحوّل فكر القبطان عن الإمان في هذه البادرة من الريبة ويقول : « سأسافر معكم . أجرة السفر - كم تبلغ ؟ سأدفع على التوّ » . من أجل ذلك نوّه « سفر يونان » بأمر الدفع كأنه يوحي لنا بأنّ ذلك أمرٌ يجب ألا نغفل عنه في هذه القصة إذ ورد فيه : « دفع أجرتها » أي قبل أن تنشر السفينة أشرعتها . وإذا قرأت هذه العبارة في قرائنها وجدتها حافلة بالمعنى » .

« وكان قبطان تلك السفينة يارفاقي البحارة حصيفاً المعيناً يستطيع بنافذ بصره أن

يستشف الجريمة لدى أيّ امرئ اقتترفها ، إلا أنّ جشعه لم يكن يسمح له أن يفضحها إلا إن كان مقترفها مفسلاً . إنّ الخطيئة التي تستطيع أن تدفع الأجرة في هذا العالم ، يرافق البحر ، تسافر حرة طليقة دون أن تحتاج الي وثيقة سفر ، ولكن إن كانت الفضيلة مسكينة مدقماً أوقفوه عند كل الحدود . لذلك شاء القبطان أن يختبر انتفاخ هميان يونان قبل أن يدينه علناً ، فتقاضى منه ثلاثة أضعاف الأجرة التي يدفعها أمثاله ، وامتلئ يونان لهذا الاشتطاط ودفع . وكان القبطان يعرف أنّ يونان هارب إلا أنه صمّم في الوقت نفسه على أن يساعد الهرب الذي يعبد طريقه بالذهب . ولكن حين استخرج يونان كيس نقوده كانت الريب الفطنة ماتزال تساور القبطان . فنقر كلّ قطعة ليجد فيها زيفاً مبهرجاً فما وجد شيئاً من ذلك فتمتم يقول : « على أيّ حال لا أراك مبهرجاً » ، وقيد اسم يونان بين المسافرين . فقال له يونان : « عيّن لي غرفتي ياسيدي ، فأنا امرؤ قد أنهكتني السفر ، وبني حاجة الي النوم » . فقال القبطان : « ذلك يبدو في ملامحك . هناك غرفتك » فدخلها يونان وكان يودّ لويقلها لولا أن المفتاح لم يكن موجوداً . وعندما سمعه القبطان يتلمس مفلاها متحامقاً ، ضحك ضحكة خافتة وتمتم بشيء عن أبواب مخادع المتهمين التي لايسمح لهم أن يقلوها من داخل . وألقى يونان نفسه وهو أشعث أغبر مرتدر كل ثيابه فوق سريره ، وأحسن كأنما سقف الغرفة الصغيرة جاثم على جبهته ، وأخذ يلهث وهو مبهور الأنفاس في هواء محصور . وأحسن وهو في ذلك الوكر المتضايق وقد نزل دون خطّ الماء ببوادر نذر الشؤم التي تسبق الساعة الخائفة ، ساعة يطويه الحوت في أدقّ مسالك أحشائه .

« وكان في غرفة يونان قنديل معلق يتأرجح تأرجحاً واهناً وقد شدت عند وسطه الي الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة نحو الرصيف بسبب ثقل الرزم الأخيرة التي قذفت فيها بقي القنديل والذهب وكلّ ما يتصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة وإن كانت حركتها خفيفة ، ومع أنه كان في الحقيقة مستقيماً استقامة لاتخطئها العين فإنه جلا للعين المستويات الكاذبة الخادعة التي كان معلقاً بينها . وكان القنديل يُرعب يونان ويخيفه . وفيما كان مضطجماً على سريره أخذت عيناه المتعبتان تدوران في أرجاء المكان ، ولم يجد الهارب الذي وجد ملجأ لنفسه أيّ ملاذ لنظرته القلقة ، ولكنّ التناقض في وضع القنديل مايزال يثير الرعب في نفسه ، فأرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعاً مائلة . فيئن يونان قائلاً : كذلك هو ضميري معلق في داخل نفسي على استقامة ، وكذلك هو يتلهب مضيئاً إلا أنّ الغرفة التي تحتلها روحي مائلة » .

« بعد مصارعة أليمة مرت على يونان في سريره أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وقد هوى

به يفرقه في أعماق النوم ، كأنه سكير أوى الى فراشه بعد ليلة من العريضة وهو مايزال يترنح ، الا أن ضميره يخزه مثل وثبات فرس رهان روماني يزداد شداً كلما أهوى عليه صاحبه بسوطة المدبب بالفولاذ ، أو كأنه امرؤ في تلك الورطة التاسعة يدور ويدور في نوبة دوار ، داعياً الله أن يفنيه كي تمر النوبة ، وأخيراً يحس وهو في غمرة الويل خدراً عميقاً يتسلل الى جسمه مثلما يتسلل في النهاية إلى امرئ ينزف حتى يموت ، إذ الضمير هو الجرح وليس ثمة ما يوقف نزيهه .

«وحان وقت المدّ وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف ، وهي منحنية متجهة صوب ترشيش وليس عليها علامة من التهلل والاستبشار ، تلك السفينة يرافاق كانت من أوائل السفن التي اتخذت للتهديب ، وكانت البضاعة المحظورة هي يونان ، غير أن البحر يشور لأنه يأبى أن يحمل ذلك العبء الشرير ، فتهب عاصفة مخيفة وتكاد السفينة أن تنشق . حينئذ يهيب رئيس النوتية بالأيدي لتخفيف حملها ، فتطرح الصناديق والرزم والجرار وتسمع جلبتها وهي تلقى في الماء . وفيما الريح تزعق والرجال يصرخون وكل لوح خشبي فوق رأس يونان يجأر بالأنين من شدة وطء الأقدام عليه ، إذ ذاك كان يونان يفظ في نومه الشنيع ، والجلبة هذه تشتد من حوله . فهو لا يرى سماء سوداء أو بحراً غاصباً ولا يحسن بالخشب المترنح ، ولا يسمع ولا ينصت لاندفاعه الحوت القوي ، وهو يشقّ البحار خلفه بشدق مفتوح . نعم يرافاق ، كان يونان قد نزل في جوف السفينة ، وهو ما أقدّر أن يكون سريراً في قمرة ، وكان مستغرقاً في النوم ، إلا أن القبطان المرتاع يجي، اليه ويصرخ في اذنه التي حل بها الوقر : «ماذا تعني أيها النائم! انهض!» فيهب من نومه فزعاً لدى سماع الصيحة المخيفة ، وينهض مترنحاً على قدميه ، ويتعثر متجهاً نحو ظهر السفينة فيمسك بحبل ويلقي نظرة على البحر . وفي تلك اللحظة تثب نحوه إحدى الموجات وثبة النمر ، مندفعة من جانب السفينة نحو قمّتها . وتثب في السفينة موجة اثر موجة ، وإذا لا تجد منفذاً كي تتسرّب منه تجري هادرةً نحو مقدمة السفينة ومؤخرتها حتى يشرف النوتية على الفرق والسفينة ماتزال طافية . ومثلما يبدي القمر الشاحب وجهه المفضع من الأخاديد العميقة المنحدرة في الظلمة المطلّة عليها ، كذلك يرى يونان وهو مبهور ، الدقل المائل وهو يمتد في الفضاء ثم يراه وقد توجه الى أسفل نحو الأعماق الهائجة .»

«أفواج من الرعب إثر أفواج اندفعت تصرخ في روجه . الهارب من وجه الله انفضح أمره ممّا كان أبداه من مدهانة وتولاه من تملق . عرفه البحارة بسيماه . غلّت ريبتهم في

أمره . أرادوا أن يفوضوا الأمر الى حكم السماء ليكشف وجه الحقيقة ، فلجأوا الى القرعة ليروا بسبب من ثار ذلك النوء المخيف . وقعت القرعة على يونان . وإذا استبان الأمر تألبوا محنتين يقذفونه بالأسئلة : ماهو عملك ومن أين أتيت ؟ ماهي أرضك ؟ ومن أي شعب أنت ؟ تأملوا يرافاق البحر مسلك يونان : سأله البحارة ملحنين متطلعين عن هويته وأرضه فلم يتلقوا منه جواباً على هذه الأسئلة فحسب بل أجابهم عن سؤال لم يوجهوه اليه ، يد الله القوية هي التي انتزعت منه ذلك الجواب الذي لم يطلب ، حين صاح يقول : « أنا عبراني وأنا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر » . تخافه يا يونان! ما أحسن أن تخاف الله إذن! ودون مواربة يفضي باعترافه كله . وعندئذ يزداد النوتية رعباً وإن كانت أنفسهم تفيض بالثناء لحاله . ذلك أنّ يونان لم يتضرع الى الله طالباً الرحمة إذ كان يخشى ألا يستجيب الله دعاءه وهو الذي أورط نفسه في ظلمات الهرب من وجهه ، وإنما أهاب ذلك التعس بالنوتية أن يأخذوه ويطرحوه في البحر ، إذ كان يعلم أنّ ذلك النوء العظيم إنما ثار بسببه ، وحينئذ استثيرت شفقتهم عليه ، وتلمسوا وسائل أخرى كي ينجوا السفينة ، وذهبت محاولاتهم سدى ، واشتدّ عواء العاصفة الغاضبة ، فرفعوا الى الله يدأ داعية ، وأمسكوا يونان بالأخرى وطرحوه في البحر وهم كارهون . » .

« هاهو يونان يهوي الى الأعماق كأنه المرساة المطروحة . وإذا السكون ينبسط من قبل المشرق ، فيكفّ البحر عن الهياج ، ويحمل يونان العاصفة معه ، مخلفاً ماء هادناً وراءه ، ويتخطفه وهو هابط جوف الهياج الجامح حتى لا يكاد يعي اللحظة التي ينزل فيها بين شفتي شديقين أهرتين فاغرين لتلقيه ، ويطبق الحوت وراءه كل أنيابه العاجية كأنها مزاليج بيض يتغل بها باب سجنه . وصلّى يونان الى الرب إلهه من جوف الحوت . تأملوا صلاته وخذوا منها عبرة راجحة . ذلك أنّه وهو الأثم لم يبك ولم يمول طالباً الخلاص الفوري . بل كان يحسن أنّ العقوبة التي نزلت به عادلة فهو يُسلم أمر خلاصه لله ، ويقنع هو نفسه بشيء واحد رغم ضروب آلامه وعذابه : وذلك الشيء هو أن يعود فينظر الى هيكل قدس الرب . وهذه يرافاق البحر توبة نصوح خالصة إذ ليس فيها الإلحاف بطلب المغفرة وإنما فيها الشكران على العقاب . وإذا شئتم أن تعرفوا مبلغ رضى الرب عن عمل يونان ذلكم عليه إن الله نجّاه في آخر الأمر من البحر والحوت . رفاقي! لست أعرض صورة يونان أمام أنظاركم لتحاكوه في خطيئته وإنما أعرضها عليكم لتقتدوا بطريقته في الندم والتوبة . لا تمعوا في الإثم ولكن إن وقعتم فيه فتوبوا الى الله منه كما فعل يونان » .

وحين كان يرسل هذه الكلمات كان زئير العاصفة الصارخة المتحرّفة في خارج المعبد

كأنما يضفي قوة جديدة على الواعظ ، وكأنما كان الواعظ نفسه وهو يصف العاصفة البحرية امراً تتلاعب به عاصفة . إذ كان صدره يعلو ويهبط كأنّ فوقه جرثومة تراب ، وكان ذراعه وهو يطوّح بهما كالعناصر وهي تتقاتل متصارعة ، وكانت الرعود التي تندرج عن جبهته القاتمة والبروق التي تثب من عينيه تجعل مستمعيه البسطاء ينظرون اليه في خوف سريع غريب عليهم .

ثم غشت السكينة نظرته حين أخذ يقَلب صامتاً صفحات الكتاب مرة أخرى ، ووقف دون حراك ، مغمض العينين ، مدى لحظة ، كأنه كان في النهاية يناجي ربه ويناجي نفسه . ثم مال بجذعه الى الأمام نحو المستمعين ، وطأطأ رأسه في وضع يدلّ على أعظم ضرور التواضع وعلى أشدها رجولة في آنٍ معاً وقال :

« يا رفاق البحر . إن الله قد وضع عليكم إحدى يديه أما أنا فقد بسط عليّ يديه كليهما . لقد قرأت لكم على ضوء خافت ينساب من نفسي العبرة التي علّمتها يونان - نحن الآتمين - فهي عبرة لكم ولكنّ العبرة لي من قصة يونان أقوى لأنّي أشدّ منكم أثاماً . كم أحبّ أن أنزل عن قمّة هذا الصاري وأجلس بينكم فوق عنبر السفينة ، وأصفي كما تصفون بينما يقرأ لي أحدكم العبرة الأخرى ، العبرة الأقوى التي يعلمونها يونان - أنا قائد سفينة الحيّ القيوم . كان يونان مثلي ربّاناً ، نبياً مسيحاً ، ينطق بالحق ، أمره الله أن ينادي بالحق أهل نينوى الذين سعد شرّهم أمام الربّ ، فخشي العداوة التي قد يثيرها وهرب ناكلاً عن أداء رسالته ، ومضى يريد أن يفرّ من وجه واجبه ووجه ربه بالإرتحال في سفينة مقلعة من يافا . لكن حيثما ولّى المرء وجهه فشمّ وجه الله . فلم يبلغ يونان ترشيش ، وأتاه وعيد الله في صورة حوت ابتلعه وأهبطه الى قرارة المصير ، وانحرف به في سرعة خاطفة الى العمق « في قلب البحار » ، حيث حومات الأعماق اجتذبتّه عشرة آلاف قامة الى القرار ، « والتفت عشب البحر برأسه » ، وعجّت فوقه جميع ويلات الماء . وحين كان على عمق لا يبلغه أي مسبار بحري - « من أحشاء الجحيم » - حين كان الحوت قد أرسى على أقصى عظام المحيط ، سمع الله من الظلمات نداء النبي التائب السجين . وأمر الربّ الحوت فجاء من عالم البرد الزمهريري وظلمة البحر يتضربّ صعداً نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الهواء والأرض « فقذف يونان الى البر » . وحين صدرت كلمة الله الى يونان مرة أخرى ، وكان يونان مشججاً منهوك القوى وفي أذنيه اللتان تشبهان محارتين طنين البحر ، امتثل أمر ربه . أيّ أمر ؟ أن يصدع بالحق في وجه الباطل - ذلك هو الأمر .

« هذه هي العبرة الأخرى التي أستمدّها من قصّة يونان يارفاق وويل لربّان الحيّ القيوم

الذي يستخفّ بها ، ويل لمن ألهته هذه الحياة الدنيا عن أداء فروض الكتاب ، ويل لمن أثار فتنة أطفالاً الله نارها ، ويل لمن يبتغي أن يترضى الناس أكثر مما يخوفهم . ويل لمن كانت سمعته أثر لديه من عمل الخير ، ويل لمن لا يستدعي الهجنة الى نفسه في هذه الدنيا . ويل لمن يتجنب الحق وإن كان الباطل منجاة ، ويل لمن يعظ غيره ولا يَعْظُ - كما قال القديس بولس^(١) .

وتدلّى رأسه ونأى عن نفسه لحظة عاد بعدها فرغ رأسه الى القوم والبشر يلتصق في عينيه ، حين صرخ في حماسة ربانية : « لكن يارفاق السفينة : في ميمنة سفينة كل ويل مسرة حقيقية^(٢) - طوبى حقة - وقمة تلك المسرة موعلة في سموها بأكثر مما يوغل الويل في انحداره العميق . إذا أنتم قسم علو الصاري الكبير حتى الصفحة المعدنية في رأسه وانخفاض الكلزون - أو اللوح المثبت في قاعدة السفينة - أستم تجدون علو الأول أكثر من انخفاض الثاني ؟ طوبى^(٣) سامقة شاهقة روحية - لمن عرض نفسه الصليبية ضد الأرباب والقباطنة المستكبرين في هذه الأرض . طوبى لمن أسعفته ذراعه القويتان حين تفرق سفينة هذا العالم الحقير الخائن - . طوبى لمن لم يسمع في الحق لومة لائم وإنما يقتل الأثام ويحرقها ويهدمها ، وإن كان يستألفها من تحت ثياب القضاة والحكام - . طوبى - شاهقة نبيلة - لمن لا يقرّ بشرع سوى شريعة الله وبربّ سوى ربّه ومن أخذته الحمية للسماء وحدها - . طوبى لمن إذا احتشدت كلّ أمواج بحار الرعاع الهانجة المانجة لم تزحزحه عن قاعدة سفينة الأجيال - . طوبى خالدة لذيدة لمن يقول حين يضجعونه في لحدّه : رباه - أنت يامن عرفتك بصولجان سطوتك - ها هنا أرقد ، خالداً كتبت لي أن أكون أو فانياً . لقد سميت لأكون من حزبك لا لأكون من حزب الدنيا أو من حزب نفسي . غير أنّ هذا ليس أمراً ذا بال فإني لاحقٌ لي بالخلود ، إذ الخلود لوجهك ، وما هو الإنسان حتى يطلب البقاء ، والبقاء صفة خالصة لربّه » .

لم يزد ، وإنما لوح بيده نحو الرؤوس ينثر فوقها البركات ، ثم غطى وجهه بيده . وبقي راكعاً وحيداً في موضعه ، حتى فصل القوم جميعاً .

(١) يشير الى كورينثوس ٩ : ٢٧ « بل أقبح جدي وامتعده ، حتى بعد ما كرزت للأخرين لا أسير أنا نفسي مرفوضاً » .

(٢) لاحظ أن اسم السفينة في الفصل : ١٢٦ هو « مسرة » . وهي آخر سفينة التفت بها الباقوة .

(٣) تأمل التوازن بين تكرير كلمتي «ويل» و «طوبى» في هذه الموعظة .

صديق حميم

حين رجعت من المعبد الى حارة النفاث وجدت كويكوج هناك وحده ، إذ كان قد غادر المعبد قبل نثر البركات ، وكان يجلس على مقعد أمام النار ، وقدماء على وجاق المدفأة ، وقد قرب من وجهه صنمه الزنجي الصغير بإحدى يديه ، وأخذ يحدّد النظر في وجه الصنم ويعبث عند أنفه بمديته ، وهو في أثناء ذلك يهمهم لنفسه بطريقته الوثنيّة .

ولمّا قطعت عليه وحدته نحى التمثال من يده ، وذهب توّاً الى الطاولة وتناول عنها كتاباً كبيراً ، ووضعه على ركبتيه وأخذ يعدّ صفحاته على نحوٍ لا يختلّ ، إذ كان يقف لحظة بعد كلّ خمسين صفحة - فيما تصوّرت - وينظر من حوله نظرات فارغة ثمّ يتفوه بصفير طويل مفرغر من الدهشة ، ثمّ يبدأ في عدّ الخمسين التالية ، ويبدو أنه كان في كلّ مرّة يبدأ بواحد كأنّما كان يعجز عن أن يتجاوز الخمسين في عدّه ، وبعد أن كثر لديه عدد الخمسينات معاً ثارت دهشته من كثرة عدد الصفحات .

جلست أرقبه بإهتمام بالغ ، كان متوخشاً وكان وجهه مشوّهاً - حسب ذوقي - تشويهاً بالغاً مفرعاً ومع ذلك فقد كان في قسماته ما لا يوصف بإثارة النفور . إن المرء لا يستطيع أن يخفي حقيقة روحه ، وكذلك كان حال كويكوج ، فإني أظن أنني رأيت من خلال وشمه الغريب آثار قلب بسيط شريف ، ورأيت في عينيه النجلاوين العميقتين اللتين تلهبان سواداً وجسارة أمارات روح تستطيع أن تتحدّى ألف شيطان . زد على هذا أن هذا الوثني كان يطيف به منزع رفيع لم تستطع أن تشوّهه خشوته وفضاظة منبته . كان يبدو لي إنساناً لم يعرف الملق ولا يد الدائن العليا . وكان رأسه حليقاً وقد اتخذت جبهته سمّاً متطلقاً المعنى بالنسبة لرأسه وبدت أعرض ممّا هي في حقيقتها . أتراها كانت كذلك إذ كان رأسه حليقاً ؟ ذلك شيء لا أجرؤ على الجزم به ، ولكنني على يقين من أن رأسه كان رأساً ممتازاً إذا نظرت

اليه من زاوية علم القوى العقلية ، وقد يبدو مضحكاً ، غير أنه ذكروني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في تماثيله المعروضة للناس ، ففيه ما في رأس واشنطن من إنحدار مقعّس متدرّج بانتظام فوق الحاجبين وهما لديه أيضاً حاجبان شديدا البروز كأكمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمتيهما . كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطوّر في اتجاه بدائي .

وبينما كنت أرقبه عن كعب وأنا كأنما أوهم في الوقت نفسه أنني أنظر الى العاصفة من النافذة لم يتنبّه هو لوجودي ، ولاعنى نفسه أن يلقي عليّ نظرة واحدة وإنما بدا أنه منهمك كلّ الإنهماك في عدّ صفحات ذلك الكتاب العجيب . وإذ تذكّرت كيف كنّا ننام معاً على ونام في الليلة السابقة ، وبخاصّة إذ تأملت تلك الذراع الحانية التي وجدتها تطوّفتني حين صحت في الصباح ، خيل لي أنّ قلّة احتفاله بي أمرٌ مستغرب . غير أنّ المتوحّشين كاننات غريبة ولايعرف المرء بدقّة أحياناً كيف يعاملهم . فهم يبدوون أول الأمر مصدر رهبة بالغة ، وتبدو السكينة المطمئنة في بساطتهم حكمة سقراطية . ولحظت أيضاً أنّ كويكوج لم يكن على شيء من الانسجام - أو لعلّه كان على انسجام قليل - مع البحارة الآخرين في الحان . فلم يحاول أن يباشر التعرّف الى أحد منهم ، بل بدا أنه لا يرغب في أن يوسّع دائرة معارفه . كلّ هذا لفتني بأنه شيء ، فذّ فريد ثمّ كررت فيه النظر فوجدت فيه أيضاً شيئاً من الروعة . ها هنا رجل ابتعد عن وطنه عشرين ألف ميل عن طريق رأس هورن ، وهو الطريق الوحيد الذي يبلغه الى وطنه ، وقد رماه القدر بين ناس غرباء عنه فكأنّما ألقاه في كوكب المشتري ، ومع ذلك كان مسترسل الطمأنينة محتفظاً بأقصى حظ من الهدوء والرصانة ، قانعاً بصحبة نفسه ، غير متعدّ طوره . وفي هذا - دون ريب - مسحة من فلسفة جميلة ٤ وإن كان هو لم يسمع على وجه اليقين بما نسميه فلسفه ، ولكنّ لعلنا إن شئنا ، نحن القانين ، أن نكون فلاسفة حقاً فعلياً ألا نعي أننا نعيش عيش الفلاسفة أو نسعى لتكون كذلك . وكلّما سمعت بأنّ زيداً أو عمراً من الناس يرى في نفسه أنه فيلسوف فإبّني أستنتج - كما استنتجت العجوز المصابة بسوء الهضم - أنه « قد كفّ عن تناول الهاضوم » ، ولابدّ .

جلست في تلك الغرفة المتوحّدة والنار تتلهب في غير حدة ، وإنما هي في مرحلة لطيفة من التوقّد وقد خفتت فيها حدتها التي أدفأت الهواء فأصبحت تصلح لمتعة النظر . جلست وأطياف المساء وأشباحه تتجمّع حول النافذة وتسرق النظر اليّنا في صمت ، نحن الإثنين الوحيديين ، والعاصفة تهدر في الخارج في تموجات مهيبية ، وفي جلستي تلك أخذت أحسن بمشاعر غريبة ، أحسست شيئاً يذوب ويتهاوى في دخيلة نفسي ، لن أوجّه بعد اليوم قلبي الممزّق ويدي المجنونة ضدّ عالم المخطب والنايب ، فهذا المتوحّش الذي ينشر الطمأنينة من

حوله قد افتدى العالم . ها هو يجلس هناك وقلة إكترائه بالأشياء ، تنبىء عن طبيعة لايندسَ فيها نفاق الحضارة وخذعها المستعذبة . نعم هو وحشي المنبت ، يحلو للمرء أن يراه ، ولكنتي بدأت أحسّ أنني أنجذب اليه على نحوٍ غريب ، والمغناطيس الذي يشدّتي نحوه هو تلك الأمور التي تنفر منه معظم الآخرين ، وقلت لنفسى : سأجرب صداقة امرئٍ وثني بعد أن يبرهن اللطف المسيحي على أنه توذد أجوف . وقربت مقعدي منه ورسمت بعض الإشارات والحركات الودية ، باذلاً ما في وسمي من جهد لأتحدث اليه أثناء ذلك ، ولم يكثرث هو بهذه البوادر الودية أول الأمر ، غير أنني حالما أشرت الي كرم ضيافته في الليلة الماضية عانى صوغ عبارة يسألني فيها : هل سنكون رفيقَي سرير مرة أخرى ؟ فأجبت أن نعم ، وخيّل اليّ أنه استشعر الرضى أو لعلّه أبدى ارتياحه بما عدّه تقديراً .

ثم أخذنا نقلب صفحات الكتاب معاً ، وحاولت أن أشرح له الفاية من الطباعة ومعنى الصور القليلة التي احتواها الكتاب وسرعان ما أثرت اهتمامه ، ومن ثمّ انتقلنا نهدرم ، بأقصى مانستطيع ، حول المناظر الخارجية المتنوعة التي لا بدّ للمرء من أن يراها في هذه المدينة الشهيرة . وفي التوا اقترحت عليه أن نشترك في التدخين فأخرج كيدوسه وجرابه وعرض عليّ في هدوء أن أسحب أنفاساً . وجلسنا نتبادل سحب الأنفاس من ذلك الشبك العجيب وجعلناه يتنقل فيما بيننا في انتظام .

إن كان قد تسلّل الي صدر ذلك الوثني شيء من جليد اللامبالاة نحوي فإنّ هذه الأنفاس الممتعة المؤنسة قد أذابت ذلك الجليد وجعلتنا خدنين ، فقد ألفني على نحوٍ طبيعي عفوي مثلما ألفت ، وعندما انتهينا من التدخين ضغط جبينه على جبيني وطوقني عند الخصر وقال : « منذ اليوم تمّ اقتراننا » ، وهذا يعني في لغة بني قومه أننا قد أصبحنا صديقتين حميمين ، وأنه قد يقدم حياته من أجلي مفتبهاً إذا استدعى الأمر ذلك . لو أنّ أحد أبناء وطني بادهني هذه الوقدة المفاجئة من الصداقة لقلت ذاك تسرع لاتحمد عقباه ، ولأحطت حماسه المتدفعة بالشك والريبة ، غير أنّ هذه النظرة القديمة الي معنى الصداقة لا تنطبق على هذا المتوحش الساذج .

ذهبنا معاً الي الغرفة بعد تناول العشاء وتبادل الحديث الودي والتدخين . فأهداني الرأس المحبّط الذي لديه ثمّ استخرج كيس الطباق الكبير وتلمس بأصابعه ما تحت الطباق ، وأخرج ثلاثين دولاراً فضياً ونشرها على الطاولة وقسمها بالتساوي قسمين بطريقة آلية ، ودفع بأحدهما نحوي وقال : هذه حصّك . وكان عليّ أن أعترض إلا أنه أسكتني حين سكبها في جيوب سروالي ، فتركتها حيث اطمانت . ثمّ قام يؤذي صلوات المساء فأخذ صنمه ،

وأزاح اللوح المغطى بالورق ، وظننت من بعض الإشارات والأعراض أنه يرغب في أن أشاركه صلواته ، ولما كنت أعلم ما سوف يتلو فكرت لحظة ، ترى إذا دعاني فهل أطاوعه أو لا ؟
كنت مسيحيًا متدينًا ، ولدت ونشأت في أحضان الكنيسة المشيخية (البرسبترية) المعصومة . كيف أتحد مع هذا الوثني البدائي وأعبد قطعة من الخشب ؟ ولكني قلت لنفسى : ما هي العبادة ؟ أتظن يا اسماعيل أن إلهك العظيم رب السماء والأرض - رب الوثنيين وغيرهم - يمكن أن يغار من قطعة تافهة من الخشب الأسود ؟ مستحيل . لكن ما العبادة ؟ - الإمتثال لإرادة الله ، تلك هي العبادة . وماهي إرادة الله ؟ - أن أعمل لإخوتي بني الإنسان ما أحب أن يعمله بنو الإنسان من أجلي ، تلك هي إرادة الله . وكويكوج أخ لي في الإنسانيّة فما الذي أرغب أن يعمله من أجلي ؟ أن يؤذي العبادة معي على حسب المذهب المشيخي . إذن فعلي أن أتحد معه . إذن فعلي أن أصبح عابد صنم . لذلك أصعلت النشارة ونصبت الصنم الصغير البري ، وقدمت إليه بسكويتاً محروقاً أنا وكويكوج وانحنيت له بالسلام مرتين أو ثلاثاً وقبّلت أنفه . وحين انتهينا من ذلك خلعنا ملابسنا وذهبنا الى السرير وقد إطمأن ضميرانا وأصبحنا في سلام مع العالم كلّه . غير أننا لم ننم قبل أن تتبادل قليلاً من الحديث .

ليس في الدنيا مكان للمكاشفة بالأسرار بين الأصدقاء مثل السرير ، ولا أدري لِمَ كان ذلك كذلك . يقولون إن الرجل وزوجه يفتح أحدهما للآخر أعماق روحه في السرير ، وبعض الأزواج الشيوخ كثيراً ما يستلقون ويتحدثون عن الأيام الخوالي حتى الصباح . كذلك استلقيت أنا وكويكوج في عرس قلبيين ، قرنين مطمئنين متحابين .

المنامة

اضطجعنا في السرير نثرثر ، وتدركننا سِنَّة قمصيرة فنذوق النوم غراراً ثمّ نصحو ، وبين الحين والحين كان كويكوج يطرح - في حنوّ- رجليه السمراوين المشوشومتين فوق رجليّ ثمّ يسحبهما . كنا على غاية من الألفة والإنطلاق والطمأنينة . ومن حلاوة السّمر انقشعت عن عيوننا أخيراً كلّ آثار النعاس ، وشعرنا كأننا قد أخذنا قسطنا من النوم وصحونا ، وإن كان الصبح مايزال نائياً عنّا في الغيب .

نعم استكملتْ يقظتنا حتى بدأ الإضطجاع يبدو لنا متعباً ، وقليلاً قليلاً وجدنا أنفسنا نجلس ، والشباب مطوية من حولنا ، وسندنا ظهرينا الى ظهر السرير وقد جعلنا ركبنا الأربع متقاربة في هيئة تشبه الحبوة ، وانحنينا بحيث يتّجه الأنف نحو الركبتين كأنما النقرة بينهما مدفأة نستمدّ منها الحرارة . كنا نحسّ بعدوية واسترخاء ، وازداد إحساسنا بذلك إذ كان البرد قارساً في الخارج ، ولا بدّ أنه كان قارساً في الداخل إذ نحن تجاوزنا ثياب النوم ، فقد كانت الغرفة دون نار . أقول : ازداد إحساسنا بذلك لأنّ المرء إن شاء أن يستمتع دفة الجسد فلا بدّ له من أن يدع جزءاً من جسمه عرضة للبرد ، إذا ليس هناك من صفة في العالم تتخذ لها وجوداً متعيّناً دون أن توضع موضع المفارقة لصفة أخرى . ليس هناك شيء قائم بذاته . إذا أوهمت نفسك أنك مرتاح وأنه قد مضى عليك وقت طويل وأنت كذلك فاعلم أن صفة الراحة لم تعد تنطبق عليك . ولكن إن كنت مثلي ومثل كويكوج في السرير قد جعلت أرنبه أنفك أو يافوخك يحسّ بالبرد قليلاً فهناك تشعر شعوراً عاماً بأنك في دفيء ممتع حقيقي . لهذا السبب يجب ألا تزوّد غرفة النوم بالنار فهذا من عيوب الترف في حياة الأغنياء . إذ أن ذروة السرور في لذة الدفء هي أن لا يفصل بينك أنت وماتهومّ فيه من جمام وبين برد الهواء في الخارج شيء سوى البطانية ، عندئذ تستلقي كأنك قبس دافئ، في جوف بلوزة قطنية .

كنا قد اتخذنا هذه الحبوة بعض الوقت حين خطر لي فورا أن أفتح عيني ، ذلك أنني كنت بين ملاءتي السرير ، ليلاً أو نهاراً ، نائماً كنت أو يقظان ، فإن من عاداتي دائماً أن أبقى عيني مغمضتين لكيما أستغرق في الشعور بالاسترخاء في السرير . وما من امرى يستطيع أن يحس بهويته الحق إلا وعيناه مغمضتان ، كأنما الظلمة هي العنصر الذي يتكون منه جوهرنا ، وإن كان النور أكثر انسجاماً مع الطبيعة الطينية فينا . فلما فتحت عيني وخرجت من الظلمة الراضية التي خلقتها لنفسي الى ظلمة جاهمة مفروضة علي لا يتخللها ضياء في الثانية عشرة ليلاً أصابني انتكاس وبييل . ولذا أمنت على اقتراح كويكوج بأنه قد يكون من الخير أن نشعل المصباح مادامت يقظتنا مستكملة ، ثم هو قد شعر برغبة لاهفة الى بضعة أنفاس هادئة من كدوسه . لقد أصابني نفور حاد في الليلة الماضية من تدخينه في السرير ولكن ألا ترون كيف أصبح الهوى العنيد المتصلب مرناً ليناً حين يحاول الحب أن يحنيه ؟ فأصبح أحب شيء إلي أن أرى كويكوج يدخن الى جانبي ونحن في السرير لأنه كان في تلك الحال يبدو في فرح عائلي لطيف . ولم أعد أبدي اهتماماً لا مسوغ له بعقد التأمين الخاص بربّ النزول . وإنما أصبحت أعنى بالطمأنينة المكتنزة الخاصة الناجمة عن مشاركة صديق صدوق في كدوسه وسريره . وتبادلنا الشبك فيما بيننا وقد طرحنا سترتينا الخشنتين على أكتافنا حتى انعقد فوقنا - في بطء - ظلة زرقاء من الدخان يتخللها ضوء المصباح الذي أشعلناه قبيل ذلك .

هل كانت تلك الظلمة المتموجة هي التي طوّحت بذلك الإنسان البدائي الى مشاهد الماضي ؟ لست أدري ، غير أنه تحدث عن وطنه ، وكنت تواقاً الى سماع تاريخه ، فرجوته أن يمضي في الحديث ، فامتثل في سرور ورضى . حينئذ لم أحسن فهم كثير من كلماته إلا أن ما أفضى إلي به من بعد حين أصبحت أكثر ألفة بتعبيراته « المكسرة » يجعلني الآن قادراً على أن أقدم قصته كلها أيّاً كانت وقائعها في هذا الموجز الذي أسرده .

موجز سيرة

كان هذا الرجل من أبناء كوكوفوكو وهي جزيرة تقع الى الغرب والجنوب ، وليس لها على المصوّرات الجغرافية وجود ، فالأماكن الحقّة لا تدرج على تلك المصوّرات أبداً .
 وحين كانَ حديث الولادة يجري كأنه حيوان بري في أرجاء الغابات وهو يخصف عليه تباناً من الحشيش ، فتتبعه المعزى قاضمة عنه كأنه شجيرة خضراء ، في ذلك الحين تغلّفت في روحه الطمّاحة رغبة جيّاشة ليعرف عن دنيا المسيحية أكثر ممّا يستطيع أن يراه في أنموذج أو اثنين من صيادي الحيتان .

كان والده رئيساً كبير المقام ، كان ملكاً ، وكان عمه رأس الكهنة ، وكان إذا ذكر النسب الامومي يستطيع أن يفخر بأن له خالات تزوّجن محاريين باسليين لايفليون . كان الدم الذي يجري في عروقه ممتازاً - إذ كان ملوكياً ، وإن كنت أخشى أنه للأسف قلل من النسبة الملوكيّة فيه بنزوعه في شبابه الجاهل الى أكل لحوم البشر .

وذاث يوم زارت سفينة قادمة من ميناء ساج^(١) الخليج الواقع في مملكة أبيه ، وتلمّس الشاب أن يسافر الى أرض مسيحية ، إلا أنّ السفينة كانت مزوّدة بما يكفيها من بخّارة ولذلك رَدّت طلبه بازدراء ، ولم ينجح نفوذ والده في تذليل ذلك الرّد ، غير أنّ كويكوج أقسم أن يحقّق ما تصبو اليه نفسه ، فدفع بزورقه وحيداً الى مضيق بعيد كان يعلم أنّ السفينة لابدّ أن تجتازه حين تغادر الجزيرة ، وكان على أحد جانبيه حاجز مرجاني وعلى الجانب الثاني برزخ منخفض من الأرض تغطّيه غابات المنجروف التي تنمو وترعرع في الماء ، فخبأ زورقه وهو عائم بين تلك الغابات جاعلاً مقدّمته قبّل البحر وجلس هو على كوثلة

(١) قرية صغيرة على الساحل الجنوبي ، على مقربة من الطرف الشرقي من لونغ آيلاند .

الزورق وقد أمسك بالمجداف منخفضاً بيده ، فلما جاءت السفينة تنساب على الماء انطلق من مكمنه كالبرق الخاطف وتعلق بجانبها وركل بقدمه زورقه فقلبه رأساً على عقب وأغرقه . وتسلق السلاسل ، ورمى نفسه مستجعماً كل طاقته على ظهر السفينة ، وقبض على مزلاج حلقي هنالك وأقسم أن لا يفلته ولو قطعوه إرباً إرباً .

هذه القبطان بأنه سيقتذف به في الماء ، فذهب تهديده سدى ، علق سيف بخارٍ فوق معصميه العاريين ، ولكن كويكوج - وهو ابن ملك - لم يطرف له جفن . وأعجب القبطان بهذه الجرأة المستينسة وبرغبته الفذة في أن يزور دنيا المسيحية ، فلان شماسه أخيراً وأخبره أنه يتقبله على الرحب والسعة . إلا أن هذا الشاب المتوخش الأريب ، هذا الرجل الذي كان في بلده وريث عرش لم يرَ أبداً قمرة القبطان ، وإنما وضعوه بين البحارة وجعلوا منه صياد حيتان . ومثلما كان القيصر بطرس الأكبر راضياً أن يكذب في أحواض السفن في مدن أجنبية^(١) ، كذلك كويكوج لم يأنف من كل ما قد يلحق به الهوان ، إذ هو استطاع بذلك أن يكسب القدرة على تنوير بني وطنه الأميين وتقنيهم . وقد قال لي أنه كانت تحدوه في أعماقه رغبة عميقة في أن يحرز بين المسيحيين تعلم الفنون والوسائل التي تجعل قومه أسعد حالاً مما كانوا عليه ، بل يريد إن صح له ذلك أن يجعلهم خيراً مما كانوا . ولكن وأسفاه! فإن تصرفات الصيادين أقتعته بأن المسيحيين قد يكون فيها التعساء والأشرار وأنهم قد يتفوقون في تعاستهم وشرورهم على رعايا أبيه الوثنيين . وأخيراً وصل مرفأ ساج ورأى مايفعله البحارة هنالك ثم ذهب الى نانتوكت ورأى في أي الوجوه ينفقون أجورهم هنالك أيضاً ، وعندئذ قال كويكوج المسكين لنفسه : واضياع جهدها! هذا عالم شرير أينما ولّى الإنسان وجهه . سأظل وثنيّاً حتى أفضي نحبي .

وهكذا عاش بين هؤلاء المسيحيين وتزيتاً بزيتهم وانتحل رطانتهم وهو وثني عريق في أعماقه . وهذا هو وجه الغرابة في عاداته وإن كان قد نأى عن وطنه منذ زمن . وألمحت اليه متسانلاً : لماذا لا يفكر في العودة الى بلده ليتوج فيها ملكاً ، إذ هو قد يعدت آباءه في الموتى الفائنين بعد أن أصبح شيخاً هماً ضعيفاً . فاجابني بأنه لم يحن أو ان ذلك بعد ، وأضاف يقول : إنه يخشى أن تكون المسيحية - أو أهلها بالأحرى - قد جعلوه غير ملائم لإرتقاء عرش نقي خالص توارثه ثلاثون ملكاً وثنيّاً قبله . وقال : إنه قد يعود مع

(١) بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) سافر متكرراً باسم بطرس ميخايلوف ودرس عدة فنون وعلوم في مدن ألمانيا وهولندة وقضى بضعة أشهر من عام ١٦٩٨ عاملاً في دار الصناعة بمدينة ديتفورد بإنجلترا يتعلم بناء السفن ، كي يدخل فنون أوروبا الغربية وصناعاتها الى روسيا .

الزمن حين يحسن أنه قد استعاد «العماد» الوثني مرة أخرى . أما هدفه قبل ذلك فهو أن يطوف مبحراً ، وأن يبذر «زوانه» في المحيطات الأربعة جميعاً . لقد جعلوا منه حواتاً وأصبح رمح الصيد الشائك في يده بديلاً عن الصولجان .

وحين وقف الحديث عند ما يزعم أن يؤذيه في المستقبل سألته ما الذي ينوي أن يفعله في الحاضر الراهن فوراً ؟ فأجابني بأنه عائد الى البحر أخذ في حرفته القديمة . عندئذ أخبرته أن صيد الحيتان هو هدفي أيضاً ، وأعلمته أنني أنوي الإبحار الى ناتوكت إذ هي خير ميناء يبحر منه الصياد المغامر ، أعني خير ميناء يعدُّ بصيد وفير . فقررّ حالاً أن يرافقني الى تلك الجزيرة وأن يسافر معي على السفينة ذاتها ، ونكون معاً في نوبة واحدة ، وقارب واحد ، وعلى مائدة واحدة . وبإيجاز : سيشاركني في كل ما يقدر لي ، ويدي الإثنان بين يديه ، وقد غمست الأيدي معاً بجرأة في «وجبة» العالمين اللذين ننتمي اليهما . فوافقت على كل ما قاله وأنا جذل فقد كنت أحمل له ودّاً ، وكان الى ذلك حواتاً مدرّباً ، ومن كان مثله لم يعجز عن أن يكون ذا نفع عظيم لامرئٍ مثلي يجهل كل شيء عن أسرار صيد الحوت وإن كان يعرف البحار معرفة الملاحين التجار .

وانتهت قصته عند آخر نفس اجتذبه من «الشبك» فعانقني وضمط جبهته على جبهتي وأطفأ النور ، فتباعدنا أهدنا عن الآخر كل الى ناحية ، وارتمينا تَوّاً في أحضان النوم .

عربة يد

في صباح اليوم التالي - وهو يوم الاثنين - تخلصت من الرأس المحتط حين دفعته الى حلاق ليعرض عليه جمّة من الشعر المستعار ، وبعد ذلك دفعت ما علي وما علي صديقي من حساب مستفلاً النقود التي أعطانيها ذلك الصديق . ويبدو أن ربّ النزله والنزلاء جميعاً أحسوا على نحوٍ مدهش بالغيرة من هذه الصداقة المفاجئة التي نبتت بيني وبين كويكوج ، وخصوصاً وأنّ بطرس التابوتي - ربّ النزله - حكى لي عنه حكايات موغلة في الاسراف والفلو فأخافني من الشخص نفسه الذي أصبحت اليوم أرافقه .

استعرنا عربة يد ونقلنا أشياءنا وفيها حقيبتي القماشية البانسة وفيها من أمتعة كويكوج كيسه الخيشي وأرجوحة نومه ، ومضيّنا منحدرين الى « الطحلبة » تلك السفينة الصغيرة المثناة الشراع الراسية عند رصيف الميناء على أهبة الإقلاع الى ناتوكت . وبينما كنّا سائرين كان الناس يحملقون فينا ، ولم تتجه أنظارهم كثيراً الى رفيقي إذ تعودوا أن يروا متوحشين مثله في شوارع بلدهم ، وإنّما كانوا يحدقون لرؤيتنا أنا وإياه في صحبة وثيقة : غير أنّا لم نعرهم اهتماماً وظللنا ندفع العربة ، كل بدوره ، وكان كويكوج يقف بين الحين والحين ليسوي الغمد على ريش رمحه . فسألته لِمَ يحمل مثل هذا الشيء المزعج على الساحل ، أليست كلّ السفن المخصّصة لصيد الحيتان مزوّدة بالرماح الصالحة للصيد ؟ فأجابني على هذا السؤال بما فحواه : إنّ ما ألمعت اليه حق تماماً ولكنه ذو مقّة خاصة لرمحه إذ هو من مادة مضمونة مجرّبة في عديد الممارك وقد أصبحت قلوب الحيتان مألّفاً لسنانه . أي أنّ كويكوج - بعبارة موجزة - كان لأسباب خاصة يؤثر سلاحه مثلما أنّ الحصادين الذين يستأجرون للحصاد في حقول المزارعين يذهبون الى عملهم وقد حملوا مناجلهم الخاصة بهم وإن لم يكونوا مجبرين على أن يتزوّدوا بها .

وإذ نقل العربية من يدي الى يده قصّ عليّ قصة مضحكة عن موقفه من أولّ عربية يد
يشاهدها . كان ذلك في مرفأ «ساج» ويبدو أنّ أصحاب السفينة التي ركبها أعاروه عربية
لكي ينقل فيها صندوقه الثقيل الى الفندق الذي ينزله ، ومن أجل ألا يقال أنه يجهل كيف
يستعملها - والواقع أنه كان على جهل تام بطريقة استعمالها - وضع صندوقه عليها وربطه
ربطاً محكماً ، ثمّ حمل العربية على منكبه ومضى يشقّ الرصيف . قلت له : «أوه
ياكويكوج ، أظنّ أنّك كنت تعرف خيراً متافعت ، ترى ألم يضحك الناس من ذلك ؟» .

فلما سمع ذلك منّي حكى لي قصة أخرى . قال : إنّ الناس في جزيرة روكوفوكو
يعصرون في حفلات الأعراس الماء العطر من أثمار جوز الهند الفتّي في سقاء يقطيني مدهون
يشبه الكأس الذي يصبّ فيه شراب البنش . وهذا الكأس - أو لنسمّه الرغد - يمثل دائماً
واسطة العقد في الزينة على البساط المجدول حيث يقام الإحتفال . وذات يوم وقفت في
ميناء روكوفوكو سفينة تجارية كبيرة ، ودعي قائدها الى عرس أخت كويكوج ، وكانت
أميرة جميلة يُزهد بها العمر نحو الحادية عشرة . وكان القبطان من أيّ وجه اعتبرته يعدّ
سيداً جليل المظهر عارفاً بأصول اللياقة وآدابها ، بما يليق بقبطان في سفينة . فلما اجتمع
الضيوف جميعاً في كوخ العروس - وهو من البوص الهندي - دخل القبطان وقد خصص له
مجلس الشرف ، فجلس عند ذلك الرغد بين رأس الكهنة وجملة الملك ، والد كويكوج ،
وحين انتهوا من تقديم التحميد والدعاء ، - فأولئك الناس يبدؤون أيضاً بالتحميد وقد
أخبرني كويكوج أنهم يفعلون حينئذٍ خلاف مانفعل ، فنحن ننظر ، إذ نردّد أدعية الشكر ،
الى الصحف المنشورة بين أيدينا ، أمّا هم فيقلّدون طيور البطّ ، وتشرنّب أعناقهم وأعينهم
نحو الوهاب العظيم الذي يمنحنا جميع الأعياد والاحتفالات - أقول : حين انتهوا من تقديم
التحميد افتتح رأس الكهنة المائدة بالشعائر الخالدة التي عاشت عليها الجزيرة ، أي بأن
غمس أصابعه الميمونة التي تفيض بركة ، في الرغد ، قبل أن يدار العصور المبارك على
الشاربين . ولما رأى القبطان أنه يجلس الى جنب رأس الكهّان وبعينيه فعل ذلك الكاهن
الأعلى مافعل ، وطلنّا منه أنه مادام قبطاناً لسفينة فهو مقدّم على ملك لايملك إلا جزيرة ،
وبخاصة وهو ضيف في دار الملك - أقول : لذلك تقدّم ذلك القبطان - غير مبالٍ - وغسل يديه
في ذلك الرغد ظانناً أنه قدح كبير تغسل فيه الأيدي . وقال كويكوج : «تفتكر ماذا ؟ أما
ضحك منه قومنا ؟» .

وأخيراً دفعنا أجرة السفر وأودعنا الأمتعة ووقفنا على ظهر تلك الشانوية ، فنشرت
سراعيها وانسابت على نهر أكشنت . وعلى أحد الجانبين تجلّت نيوبدفورد وقد امتدّت

شوارعها صفوفاً ، والأشجار التي يغطيها الثلج تتلألأ في الفضاء البارد وقد كُدت على أرصفتها تلال وجبال من براميل فوق براميل ، وقد تلاصقت سفن صيد الحيتان التي تجوب العالم ووقفت صامتة بعد أن أُرست سالمة هنالك في نهاية مطافها . بينما كان ينبعث من سفن أخرى أصوات التجارين وصانعي البراميل وقد اختلطت بضجيج النيران والأفران لإذابة القار ، وكل ذلك ينبئ عن التأهب لرحلات جديدة . فما تنتهي أخطر سفرة وأطولها حتى تبدأ ثانية ، وما تكاد تنتهي الثانية حتى تبدأ الثالثة وهلمّ جزأ الى الأبد . ذلك هو الدءوب الدائب . بل تلك هي الفداحة الباهظة ، في كلّ السعي الإنساني على الأرض .

النسيم المرتعش يزداد طلاقة وترويحاً عندما يحتضن بسيط الماء ، و«الطحلبة» الصغيرة تنثر الزبد المتسارع عن مقدمتها كما ينفث المهر الفتى أنفاسه . كيف كنت أنتفس ذلك الهواء الجهنمي! ما أشد ما احتقر الأرض ذات الحواجز والأتاوات والجوازات! تلك الطريق العامة التي خدّتها نعال العبودية وحوافرها! وتحولت الى الإعجاب بعظمة البحر الذي لاتطبع فيه آثار .

ويبدو أنّ كويكوج كان يرد موردي ويشرب من دنّ كدني ويترنّح مثل ترنّحي ، فقد تفاعت فحتنا أنفه الأسمر وابتم جذلان ابتسامه كشفت عن أسنانه المشحوذه المحددة . وطارت بنا السفينة ، وكسب عرض البحر الجولة ، وأدت «الطحلبة» شعائر الولاء لهيمنة الريح ، فانحنّت إجلالاً وانفمرت مقدمتها كأنها عبد بين يدي سلطان ، وكلّما مالت الى جانب انبعثنا نميل معها ، وكلّ كَرّ من كرورها يجلبل كأنه سلك معدني ، والصاربان الطويلان ينكبّان كأنهما قصبان هندیّان في وجه إعصار بري . وانهمكنا في هذا المشهد المترنّح حين كنّا واقفين أمام الدقل المائل الفاطس ، حتى لقد مرّ علينا وقت لم نلاحظ فيه النظرات الساخرة التي كان يسدّدها الينا المسافرون وهم مجموعة من الحمقى تعجّبوا من أن يكون إثنان من الناس على مثل هذه الصعبة ، كأنّ الرجل الأبيض شيء أرفع من الزنجي الذي فقد البياض . لكنّ كان هناك بعض الحمقى والمتفطرسين تدلّ سفرتهم الشاحبة على أنهم جاءوا من قلب السفينة ومن سويداء الغيرة . وفاجأ كويكوج أحد هؤلاء الأيفاع الأغرار وهو يحاكيه ساخرأ من وراء ظهره . وظننت أنّ ساعة ذلك المتفطرس قد دنت ، فقد نحى ذلك المتفطرس المفتول الساعد رمحه ، وأمسك بالفتى من ذراعيه وطوّح به في رشاقة وقوة خارقة في الفضاء ، ثمّ ضربه على كفله في انقلابة ، فأرسي على قدميه ، وصدره يكاد أن ينشق ، وأدار كويكوج ظهره غير مكترث وأشعل كدوسه ودفعه الي لأسحب منه نفساً .

فصرخ المتفطرس وهو يجري نحو الضابط : « كبتان! كبتان... هذا شيطان » وصاح

القبطان ، وهو ضلع عجفاء ، فيما هو يمشي في خيلاء نحو كويكوج : « أنت . هناك . بحق . الشياطين ماذا تعني بذلك ؟ ألا تدري أنك قد تقتل الفتى ؟ » .

فقال كويكوج وهو يلتفت نحو بلطف : « هو ، يقول ماذا ؟ » قلت : « يقول لك أنك كدت تقتل - هو » وأشرت الى ذلك الغرّ المرتعد .

فصرخ كويكوج وهو يلوي قسماته الموشومة في تعبير من الإزدراء غريب : « أنا أقتل هو - سمكة هو صغيرة!! إن كويكوج يقتل - ه - حوتاً كبيراً » .

فزأر القبطان يقول : « أنا أقتلك يا أكل لحوم البشر إذا أنت قمت بإحدى حيلك ها هنا على هذه السفينة . فاحذر ثم احذر » .

في تلك اللحظة آن الأوان لكي يكون القبطان نفسه على حذر ، ذلك أن الضغط الهائل على الشراع الأكبر قد فصل الحبل الذي يضبط زاوية الشراع ، وأخذت السارية الكبرى التي بها تمتد قاعدة الشراع - ولنسمها المشحان - تتأرجح من جانب الى جانب وتكنس في حركتها الجزء الخلفي من ظهر السفينة . أما المسكين الذي عَنَفَ عليه كويكوج فقد اكتسحته وألقته في البحر . وعقد الخوف الأيدي جميعاً عن الحركة ، ولو حاولت يد أن تمتد الى السارية لتثبتها لكان ذلك هو الحمق عينه . فقد كانت تطير يمناً ويسرة وتعود ثانية في أقل من لمح البصر وفي كل لحظة تكاد تتطاير الى سظايا . فلم يعمل أحد شيئاً ولم يُبدُ أن شيئاً يمكن أن يُعمل . أما الذين على الظهر فاندفعوا نحو المقدمة ووقفوا يرقبون السارية - المشحان - كأنها الفك الأسفل من حوت محنق يستشيط غضباً . وفي غمرة هذا الفزع المشلول انحنى كويكوج برشاقة على ركبتيه ، وزحف تحت متأرجح السارية ، وأمسك بحبل ، وأوثق أحد طرفيه الى الجانب الواقع فوق ظهر السفينة ، ثم قذف الطرف الثاني كأنه أنشودة ، وأعلقه حول السارية وهي تتأرجح فوق رأسه ، وفي الهزة التالية أعلق السارية نفسها وثبتها ، وبذلك سلم كل شيء . واندفعت الشانية مع الريح ، وبينما كانت الأيدي تعالج القارب في المؤخرة ، نزع كويكوج ثيابه حتى الخصر ، ووثب من الجانب وثبة متموسسة حيوية طويلة . وظللنا نراه مدة ثلاث دقائق أو أكثر وهو يسبح كأنه كلب ، يلقي ذراعيه الطويلتين على استقامة أمامه ، وأحياناً يبرز كتفيه المفتولين من خلال الزيت الذي يجمد الأطراف . ونظرت الى ذلك الرفيق العظيم الرائع فلم أر شخصاً يتطلب إنقاذاً . لأن ذلك الفتى الغرّ كان قد احدر الى الأعماق . غير أن كويكوج انطلق عمودياً من خلال الماء ولمح ما حوله في لحظة ، ثم - كأنما عرف الأمور على حقيقتها - غاص واختفى عن الأنظار . وبعد بضع دقائق ظهر ثانية وإحدى ذراعيه تضرب الماء والأخرى تجرّ شيئاً لا حياة فيه .

فالتقطهما القارب حالاً ، واستعيد المتفطرس المسكين ، وصفتت الأيدي جميعاً تحتي
كويكوج ، وسأله القبطان المغفرة ، ومنذ تلك الساعة التصقتُ به كأنني محارة ، الى أن
غاص كويكوج المسكين آخر غوصة طويلة .

أهناك مثل انكاره للذات ؟ لم يتصوّر أنه يستحق نيشاناً من الجمعيات الإنسانية
العظيمة . لم يطلب شيئاً سوى الماء - الماء القراح - حتى يزيل عنه الملوحة ، وإذا فعل ذلك
لبس ثياباً جافةً وأشعل كدوسه وأستند ظهره الى جدار السفينة ونظر الى من حوله في دماثة
وكانه يقول لنفسه : « هذا عالم مشترك يتبادل الناس التعاون في كل بقعة من بقاعه ، ونحن
المتوخشين آكلة لحوم البشر لا بدّ من أن نساعد هؤلاء المسيحيين » .

نانتوكت^(١)

لم يحدث في السفارة شيء آخر يستحق أن يذكر وهكذا وصلنا نانتوكت سالمين بعد جري جميل .

نانتوكت! خذ خريطةك وأنظر إليها . تأمل أي بقعة تحتلها في هذه الأرض وكيف تقع ، حيث تقع ، بعيدة عن الشاطئ ، متوحدّة أكثر من فنار أديستون . انظر إليها - ماهي إلا كثيب رمل أو جحّف ، كلّها شاطئ ليس وراءه أرض . فيها من الرمل أكثر ممّا قد تستعمله في خلال عشرين سنة بدلاً عن ورق النشاف . ولو حدثك عنها بعض الظرفاء المغامرين لأخبروك أنهم يزرعون العشب نفسه فيها لأنه لا ينبت وحده بزياً وأنهم يستوردون أشواك كندا ، وأنهم يبعثون الى ماوراء البحار لجلب سداة يمنعون بها تسرب الزيت من برميل ، وإن قطع الخشب من نانتوكت تحمل وتنقل كأنها شظايا من الصليب الحقيقي بروما . وإنّ الناس هناك يزرعون «الفطر» أمام بيوتهم لكي يجلسوا في ظلّه إبان القيف ، وأنّ سنبله واحدة من النبات تكوّن واحة وثلاث سنابل تنبت على مدى مسيرة يوم تمثّل سهوباً شاسعة ، وأنهم يلبسون أحذية للمشي في الرمل المهيل كذلك التي يستعملها أهل لابلاند للمشي على الثلج وأنهم محاطّ بهم مطوّقون محصورون من كلّ وجه معزولون قد جعل المحيط بلدهم جزيرة محضاً حتى أنهم ليجدون البزاق عالقاً بكراسيهم ومواندهم كما يعلق بظهور السلاحف البحرية . إلا أنّ هذه الشطحات لاتدل إلا على أنّ نانتوكت ليست هي إينوي .

تأمل هذه القصة المأثورة العجيبة عن استيطان الرجال الحمر لهذه الجزيرة . تقول

(١) جزيرة تقع على بعد ٢٧ ميلاً الى الجنوب من رأس كد . وأكبر مدنها تسمى نانتوكت .

الأسطورة : في سالف الأزمان خات نسر على ساحل نيوانجلند وطار يحمل وليداً هندياً في مغالبه . وأعول الوالدان وهما يريان طفلهما وقد غاب عن أنظارهما فوق الأمواه المترامية فزما على اللحاق به في الإتجاه نفسه ، وأبحرا في زورقيهما وبعد سفرة خطيرة استكشفا الجزيرة ، وهناك وجدا علبة عاجية صغيرة ، وما كانت سوى هيكل الوليد الهندي المسكين .

أي عجب ، وأهل ناتوكت يولدون على الشاطيء ، في أن يألفوا البحر مصدراً لعيشهم . كانوا أول الأمر يجمعون السرطان من الرمل ، فلما اشتدت جراتهم خاضوا الماء بشباكهم بحثاً عن سمك المعقريل ، فلما أن سبت دربتهم انطلقوا في قواربهم يصيدون البكلاه (سمك القد) . وأخيراً أنزلوا في الماء اسطولاً من السفن التجارية الكبرى واستكشفوا العالم المائي ، وطوّقوه بنطاق من الملاحة ، وأطلّوا على مضائق برنج ، وفي كل فصل وفي المحيطات جميعاً شنوا حرباً أبدية على أكبر جرم حافل بالحياة ، تخلف بعد انصار الطوفان ، أشدها هولاً وأكثرها ضخامة أعني ذلك الجبار كأنه هملايا ، ذلك الماموث الذي يعيش في البحر المالح ، ويكسوه شؤم قوة خفية ، حتى أن الهلع الذي ينشره ، يخشى أكثر مما تخشى هجماته الجريئة الحاقدة .

هكذا جاب أهل ناتوكت العراة ، نُسّاك البحر ، العالم المائي وفتحوه ، صادريين من جرثومة النمل التي يسمونها جزيرة ، وكأن كل واحد فيهم هو الإسكندر الكبير . وجزأوا بينهم الأطلسي والهادي مثلما اقتسمت بولندا ثلاثاً من قوى القراصنة . إذا شاءت أمريكا أن تضيف المكسيك الى تكساس وأن تكذس كوبا فوق كندا فلتفعل ، وليحتشد الإنكليز في طول الهند وعرضها مكائرين أهلها عدداً ، وليركزوا علمهم الشهير على قرص الشمس . غير أن ثلثي هذه المعمورة المؤلفة من برّ وبحر من نصيب ابن ناتوكت ، لأن البحر منها هو نصيبه ، فهو يملكه مثلما يحرز الأباطرة امبراطورياتهم ، وليس للبحارة الآخرين من حق فيه إلا العبور وما السفن التجارية إلا جسوراً ومعاير ، وما الحربية منها إلا قلاع عائمة . وقد يذهب القراصنة وقباطنة السفن الخاصة في مسالك البحر كما يفعل قطاع الطرق على البر ولكنهم لا ينهبون إلا سفناً ليست لأهل ناتوكت ولا يقتطمعون أي أجزاء أخرى من الأرض دون أن يحاولوا استمداد عيشهم من أغوار الماء العميق . إلا ابن ناتوكت وحده فإنه هو الذي يقطن البحر ويقم المآدب والحفلات فوق مياهه ، هو وحده على حد قول التوراة : « ينزل اليه في سفن »^(١) ،

(١) من المزامير ١٠٧ ، ٢٢ - ٢٤ « النازلون الى البحر في السفن العاملون عملاً في البياح الكثيرة . هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق » .

ويفلحه ذهاباً وإياباً كأنه مزرعته الخاصة ، فيه بيته ، وفيه موطن عمله ، وعمله دائب لا يوقفه طوفان كطوفان نوح ، ولو كان طوفاناً يكتسح كل الملايين في العتير . هو يعيش في البحر كما تعيش ديوك السهوب في السهوب ، يختبئ بين الأمواج ويتسلقها كما يتسلق صيادو الأروى جبال الألب . تمضي عليه سنوات لا يعرف فيها البر ، فإذا نزل على البر أخيراً وجد فيه رائحة عالم آخر ، أغرب من القمر في نظر ابن الأرض . ابن ناتوكت كطيور النورس التي لا بر لها ، تطوي جناحيها عند الغروب وتهدهد نفسها للنوم بين الأمواج . وهو عندما يجنه الليل نائياً عن البر يلفاً أشرعته ويخلد إلى الراحة وتحت وسادته نفسها تندفع قطمان من الفظ والحيتان .

الشودر

كان المساء قد أظلم حين أرست «الطحلبة» الصغيرة في هوادة ، ونزلت أنا وكويكوج الى الشاطئ ، ولم نكن نستطيع في تلك الساعة المتأخرة أن ننجز عملاً سوى أن نبحث عن عشاء ونزل . وكان صاحب حان النفاث قد أوصى بنا ابن عمه هوسيا هسي (آل السليط) من عائلة «القدور المجربة»^(١) ، وأكد لنا أنه صاحب فندق من أحسن الفنادق في ناتوكت كلها ، وأضاف يقول : إن ابن العم هوسيا مشهور بأطباق الشودر . أي أنه بإيجاز ألمح إلينا أن خير مانفعله هو أن نجرب وجبة عند عائلة «القدور المجربة» . ولكنه حين وصف لنا كيف نهتدي الى الفندق قال : إجعل على يمينك مستودعاً أصفر اللون حتى تواجه كنيسة بيضاء على اليسار ، واجعل الكنيسة على اليسار حتى تنعطف نحو اليمين بعد ثلاثة منعطفات ، فإذا فعلت ذلك فإسأل أول رجل تلتقاء عن ذلك المكان - وحين تذكرنا هذه التعليمات الملتوية حيرتنا بادئ الأمر ، وبخاصة وأن كويكوج أصر على أن المستودع الأصفر ، وهو بداية إنطلاقنا ، لا بد أن يكون على اليسار ، بينما فهمت أنا من بطرس التابوتي أنه على اليمين . مهما يكن من شيء أخذنا نخبط في الظلام ، وبين الحين والحين نطرق باب امرى آمن مطمئن لسأله عن الطريق حتى وصلنا أخيراً الى شيء لا مدب فيه للخطأ .

فقد رأينا أمام الباب العتيق قدرين ضخمتين من الخشب مدهوتين باللون الأسود ، معلقتين في أذنين كأذني الحمار ، وتدلّيان من ساريتين أفقيتين مسحرتين على دقل كبير مفروز أمام ذلك الباب . وقد نشر قرنا تينك الساريتين من الجانب غير المواجه حتى بدا

(١) الأصح أن يقال «قدور الصنية» Try. Pots ، وإنما آثرت عينا من الميابة للأمل رجاء الإيحاء بالقدره على الطبخ .

ذلك الدغل غير بعيد الشبه بالمشنقة ، ولعلني كنت حينئذ مسرفاً في التقاط الإنطباعات التي تأدت الي من ذلك المنظر . ولكنني لم أملك أن أهدق في تلك المشنقة إلا وأنا استشعر ريبة غامضة ، وأحسست في عنقي بشيء من التصلب وأنا أهدق في القرنين اللذين لم ينشرا . نعم هما اثنان ، واحد لي وواحد لرفيقي ، وقلت لنفسي : هذا كلّه نذير شؤم يقتني خطواتي ؛ حين نزلت في أول ميناء للصيد كان صاحب النزول الذي حللت فيه تابوتياً . وفي معبد الصيادين كانت شواهد القبور تحدّد النظر في وجهي . وما هنا مشنقة! وهذان زوجان من القدور السود الضخام! أتراهما يلمحان تلميحاً موارباً الى درك المجهيم السفلي!

استردتني من التهويم في هذه الأفكار منظر امرأة كلفاء ، ذات شعر أصفر وعباءة صفراء ، واقفة في دهليز الفندق تحت مصباح بليد أحمر متأرجح يبدو شبيهاً بعين مطروقة ، وقد اشتبكت مع رجل ذي قميص صوفي أرجواني في سباب ظريف . كانت تقول للرجل : « انصرف والآ... عفرت الأرض بك » . فقلت : « هيا يا كويكوج . لقد وصلنا ، فتلك هي زوجة السيد هسي » .

وكذلك كانت ، إذ أن السيد هوسيا « السليط » كان قد سافر ، وترك لزوجته أن تشرف بما لديها من كفاية تامة على كل أعماله . وعندما أعلننا عن رغبتنا في المشاء والمنام أرجأت زوجة « السليط » أمر السباب مؤقتاً وأدخلتنا الى غرفة صغيرة ، وأشارت الينا بالجلوس الى مائدة تناثرت فوقها بقايا وجبة استهلكت قبيل قليل ، ثم استدارت نحونا وقالت : « بكلاه أو حلزون ؟ » .

فقلت في أدبٍ جمّ : « ما شأن البكلاه يا ستي ؟ » .

فردت : « بكلاه أو حلزون ؟ » .

فقلت : « حلزون للمشاء ؟ وبارد أيضاً أهذا ما تعنيه ؟ ولكن هذا استقبال فاتر حلزوني في وقت الشتاء . أليس كذلك يا مسز « سليط » ؟

ولكن لما كانت في عجلة تود أن تستأنف شتم الرجل ذي القميص الأرجواني ، وكاد هو أن ينتظر استئناف ذلك في المدخل ، ولما لم تسمع من كلماتي شيئاً سوى لفظة « حلزون » أسرع نحو باب مفتوح يؤدي الى المطبخ ومرخت : « حلزون لإثنين » واختفت عن أنظارنا .

فقلت : « كويكوج ، هل تظن أننا الإثنين نستطيع أن نكتفي في عشاننا بمحارة واحدة ؟ » .

وانطلق من المطبخ بخار دافئ. لذيذ الشذا كذب ما حسبناه رجاءً خائباً ، وعندما حضر الشودر يعلوه البخار انحلّ اللغز بما تطيب له النفس . أصيخوا اليّ يا أحبّتي! كان ذلك الطبق مصنوعاً من حلزون صغير غفن ، لاتكاد الواحدة منه تتجاوز حبة البندق ، وقد مزج ببسكويت السفن مسحوقاً ، وشرائح من لحم الخنزير رقيقة مملّحة ، وقد غذي كلّ ذلك بالزبدة ، وأدم يقدر سخّي من الفلفل والملح ، وكانت الرحلة البرود قد شحذت شهوتنا للأكل ، وخاصة كويكوج حين رأى طعامه البحري الأثير أمامه ، والشودر متقن غاية في ذلك ، فالتهمنا ما بين أيدينا بسرعة فائقة . وحين سندات ظهري لحظة فكّرت في ما صاحت به زوجة « السليط » وهي تعلن للطباخين ما يجلبونه للنزلاء من بكلاه أو حلزون قلت : سأقوم بتجربة صغيرة ، فتقدّمت اليّ باب المطبخ وقلت : « بكلاه » بصوت جهوري ، وعدت اليّ المائدة . فانبعث البخار اللذيذ مرّة أخرى في بضع لحظات إلاّ أنه كان ذا شذا مباين للأول ، وفي وقت غير طويل وضع أمامنا طبق من شودر البكلاه .

استأنفنا البعد ، وفيما كنّا نجيل الملاقي في صينية الطعام ، قلت لنفسي : أترأه يؤثّر في الرأس . وإلاّ لماذا جرى ذلك الوصف العياب عن ناس يقال فيهم : هؤلاء ذوو رؤوس شوردية ؟ « انظر يا كويكوج أليس ذاك الذي في صحنك أنكليسُ حيّ ؟ أين رمحك ؟ » . كان فندق « القدور المجرية » أشدّ المحلات التي تقدّم السمك إمعاناً في « السمكية » ، وبحق ما استحقّ تلك التسمية ، إذ كانت القدور دائماً تفرقر بالشودر . فهو طعام الفطور وطعام الغداء وطعام العشاء ، حتّى ليبدأ المرء المقيم هنالك يتحسّس حسك السمك خارجاً من ثيابه . وأمام الدار باحة قد رصفت بصدف الحلزون . ثمّ أنّ زوجة « السليط » تلبس عقداً مصقولاً من فقرات سمك البكلاه ، وزوجها يحتفظ بسجل حساباته مجلداً بجلد قرش فاخر عتيق . حتّى الحليب له نكهة السمك ، ولم أستطع أن أفسر ذلك إلاّ حين قمّت بجولة ذات صباح على الشاطئ بين قوارب بعض الصيادين ورأيت بقرة هوسيا المخططة تتغذى على قمامة من بقايا السمك ، وكانت تسير على الرمل وقد علق في كلّ حافر من حوافرها رأس سمكة البكلاه وأنا أوكدّ لكم أنها كانت تبدو محدوة متعلة .

ختمنا العشاء فتسلّمنا مصباحاً وقدمت لنا زوجة « السليط » كلّ التعليمات المتعلقة بأقصر طريق تبليغنا غرفة النوم . ولكن بينما كان كويكوج يتأهب ليتقدّمني صاعداً الدرج مدت السيدة اليه يدها وطلبت اليه أن يسلمها رمحه ، إذ أنّ إدخال الرمح اليّ إحدى الغرف أمر غير مسموح به . فقلت لها : « ولم لا ؟ كلّ حوات عريق ينام والى جانبه رمحه . لمّ لا ؟ » فقالت : « لأنّ ذلك خطر . منذ أن عاد استجز الشاب من رحلته التعيسة وليس معه إلاّ

أربعة براميل من الجعة بعد أن غاب أربع سنوات ونصف سنة ، ووجد مَيّتاً في الطابق الأول الخلفي ورمحه الى جانبه - منذ ذلك الحين لا أسمح للنزلاء، أن يأخذوا هذه الأسلحة الخطيرة الى غرفهم ليلاً ، وعلى هذا ياسيد كويكوج (وكانت قد حفظت اسمه) سأخذ هذه الحديدية منك وأحتفظ لك بها حتى الصباح . ولكن أيّ شودر تريدان في فطور الغد ؟ البكلاه أم الحلزون ؟ » .

قلت : « كليهما ، وليكن مع ذلك على سبيل التنويع زوجان من سمك الرنجة المدخن » .

السفينة

في السرير تدبّرنا خططنا من أجل الغد ولكنّ ثار عجبي وقسط غير قليل من اهتمامي حين أعلمني كويكوج بأنه قد كان مثابراً على استشارة يوجو^(١) - إله الأسود الصغير - وأنّ يوجو أخبره مرتين أو ثلاثاً ، وأصرّ عليه في كلّ مرّة إصراراً شديداً ، بأنّ لاندذهب سوية بين أسطول الصيد في الميناء لاختار معاً السفينة التي نبحر عليها ، أقول : إنّ يوجو نبّه في حرارة وإخلاص الى أنّ اختيار السفينة يجب أن يكون منوطاً بي وحدي ، إن شئنا أن يظنّ يوجو مقيماً على رعايتنا ، ومن أجل ذلك وقع اختيار يوجو على سفينة ، لو تركت أنا اسماعيل لشأني لوقع عليها اختياري دون خطأ ، كأنّ الحظّ هو الذي قدر أن تكون من نصيبي ، وعليّ أن أبحر في تلك السفينة على الفور ، بصرف النظر في الحال الراهنة عن كويكوج .

نسيت أن أذكر أنّ كويكوج كان في أمور عديدة يضع ثقة كبيرة في براعة يوجو وحسن تقديراته ، وتنبؤاته المدهشة ، وأنه كان يحبوه إعظاماً بالغاً ويرى فيه إلهاً طيباً حسن النوايا على الجملة ، وإن لم تكن خططه الخيرة ناجحة دائماً .

ولمّا كانت خطة كويكوج هذه ، أو قلّ خطة يوجو ، تمسّ اختيار السفينة التي نبحر عليها وجددتني أواجهها بشيء من التكره . نعم أنا لم أعتمد أيّ اعتماد على حكمة كويكوج لكي يدلّ على خير سفينة تحملنا وتحمل مقدراتنا في أمان . ولكنّ حين تبددت جميع اعتراضاتي فلم تحرك شيئاً في كويكوج اضطررت الى التسليم ، وعلى ذلك تأهبت للشروع في هذا العمل بطاقة وقوة مندفعة حاسمة لكي أسوي ذلك الأمر الصغير التافه على عجل . وفي

(١) يذكر اسمه بلفظة ياجوج ولكن لعلّ ملئ لم يطلع على هذا ، واختار اسماً مقارباً لما يمرره من أسماء في البحار الجنوبية .

صباح اليوم التالي خلفت كويكوج مع وجود قابعين في غرفة نومنا الصغيرة ، إذ يبدو أن ذلك اليوم كان عندهما رمضان أو يوم صيام وخشوع وصلاة . كيف كان كويكوج يؤدي هذه الشعائر ؟ ذلك سرّ لم أستطع استكشافه فأني وإن كنت حاولت ممارستها مرّات عديدة لم أستطع أن أحكم صلواته ولا بنودها التسعة والثلاثين . تركت كويكوج صائماً وكدوسه بين شفّتيه ، ويوجو يدفئ نفسه على نار النشارة القربانيّة ، وذهبت في جولة بين السفن . وبعد تجوال طويل واستفسارات غامضة علمت أنّ هناك ثلاث سفن مزمعة على رحلة تستغرق ثلاث سنوات ، وهي « زوجة الشيطان » و« اللقمة السانغة » و« الباقوطة »^(١) . أمّا الأولى فلست أدري من أين جاء اسمها وأمّا الثانية فاسمها واضح وأمّا الباقوطة فأتّم تذكر دون ريب أنه اسم قبيلة مشهورة من هنود ماساشوستس انقرضت كما انقرض الميديون . أمعنت النظر في « زوجة الشيطان » وتفحصتها متطّلعاً ثمّ قفزت منها الى « اللقمة السانغة » وأخيراً وصلت ظهر « الباقوطة » وتأمّلتها لحظة وقرّرت أخيراً أنها هي السفينة التي نريدها .

لعلّك رأيت في زمانك كثيراً من السفن الفرمة الأنيقة ، لعلّك رأيت ذوات الأشرعة المربّعة ، والينكات اليابانيّة كأنها الأطواد ، والجليوات الهولنديّة التي تشبه البطّ الأمريكي ، وغيرها ، ولكن صدقني إن قلت لك أنّك لم تر سفينة قديمة نادرة المثل كالباقوطة ، تلك السفينة العتيقة التي يمزّ وجود مثلها حقّاً . كانت سفينة من الطراز القديم أقرب الى الصغر ، تحمل ملامح الخطّاف ذي الطراز العتيق ، طال تمرّسها وتقلّب الجوّ بها بين عاصفٍ وساكنٍ في المحيطات الأربعة ، فاسودّت سحنة هيكليها كأنها جندي فرنسي حارب في مصر وسيبيريا على السواء . وتبدو مقدّمتها الجليّة وكأنّها قد التحت . فقدت صواربها الأصليّة في إحدى العواصف وركّبت لها صوارب جديدة قطعت من موضع على ساحل اليابان ، وانتصبت كأنها أصلاب ملوك كولون الثلاثة القدماء^(٢) . أمّا ظهرها فقد بلي وتغصّن كأن الحجر الذي نهكته أيدي الحجاج الذين يؤمّون كنيسة كانتربري حيث لقي توماس بيكت مصرعه . غير أنه أضيف الى هذه العناصر القديمة فيها ملامح جديدة مدهشة تتصلّ بذلك العمل الفذّ الذي اضطلعت به نصف قرن أو يزيد ، ويعزى كثير من هذه الترميمات والتحسينات الى فالج القبطان العجوز الذي ظلّ يدير شؤونها سنوات عديدة قبل أن ينتقل الى قيادة سفينة يملكها وقبل أن يصبح اليوم بخاراً متقاعداً وواحداً

(١) Pequod

(٢) المجوس الثلاثة الذين أنوا بالهدايا الى عيسى في مهده ، قيل إنهم مدفونون في كولون .

من أصحاب الباقوطة . فإن فالج هذا في أثناء رئاسته قد بنى فوق المظاهر الأصلية العجيبة ورمعها بأناقة في المادة والرسم ليلحق بها شيء ، إلا الدرع الخارجي المنقوش أو القاع في سفينة ثوركل هيك . فكساها كأنها امبراطور حبشي اثلقت عنقه زخارف ثقيلة مدلاة من العاج المصقول ، وجاءت كأنها نصب تذكاري . سفينة في صورة إنسان بدائي مستوحش زين نفسه بعظام منقوشة استلها من أجسام أعدائه . وأما جوانبها المفتوحة غير المفروزة فوق الظهر العلوي فقد زينت ، كأنها فك واحد مديد ، بأنياب حوت العنبر العادية ، وقد زجت الأنياب هنالك بدلاً من المسامير لكي تشد أعضادها وأمراسها . وهذه الأمراس لا تخترق خشباً وإنما تمر برشاقة عن بكرات من عاج البحر . أما عند دفتها الرزينة فإنها بدلاً من أن تتواضع فتتخذ عجباً دواراً ركزت هنالك مخللاً ، جعلته كتلة واحدة منحوتة نحتاً عجيباً من فك عدوها اللدود ، ذلك الفك السفلي المستدق الطويل . فكان القيم على الدفة إذا وجهها في عاصفة أحسن كأنه تترى يكبح جواده المنطلق بإمساكه من فكّه . سفينة كريمة إلا أنها صورة للكآبة وكل شيء كريم فيه مسحة من الأسي الكتيب .

وعندما أجلت طرفي خلف الدقل الأعظم على الريمة المؤخرة من السفينة بحثاً عن مسؤول لكي أقيّد اسمي بين المشتركين في الرحلة لم أر في بادئ الأمر أحداً ، ولكن بصري لم يستطع أن يتجاوز شيئاً منصوباً كالعريش أو الكوخ الهندي على مسافة يسيرة خلف الصاري الرئيس . وبداء لي أنه ليس سوى مثابة مؤقتة تستخدم في الميناء . كان مخروطي الشكل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة أقدام ويتألف من صفائح طويلة ضخمة من العظم الأسود اللدن أخذت من الأجزاء الوسطى والعليا في فكّي الحوت الاثنتين ، وقد غرست بحيث وقعت نهاياتها المستعرضة على ظهر السفينة ، وسلكت دائرة من هذه الصفائح معاً ، وانحدرت أحداها نحو الأخرى في تبادل ، ثم ضمت عند الذروة في نقطة مقنزعة حيث الألياف المسترسلة المكسوة بالشمر تتموج جيئة وذهوباً كأنها العقدة العليا على رأس الشيخ المسنّ رئيس قبيلة بوتوتامي . وتفتتح في مواجهة مقدم السفينة فتحة مثلثة الشكل حتى أنّ من كان في داخلها يستطيع أن يشرف على المنظر كاملاً أمامه .

وبعد لأي وجدت واحداً منزوياً بعض انزواء في هذا العريش الغريب ، وأوحى لي منظره أنه رجل مسؤول ، وأنه كان يستمتع وقت الظهيرة . حين يتوقف العمل في السفينة ، بالارتياح من عبء الأمر والنهي . كان جالساً على كرسي قديم الطراز من خشب البلوط

غطّي بمنعرجات من الزخارف ، وقاعدته مصنوعة من صفائر قويّة من المادة المرنة نفسها التي صنع منها العريش .

ربّما لم يكن في مظهر ذلك الرجل المسنّ شيء مميّز . كان أسمر مفتول الساعدين كغيره من قدامى البحارة ، وقد أثقل جسمه بما لفته حوله من قماش البحارة الأزرق وفصله على طراز الكويكرين ، إلا أنّ شبكة من الفضون الدقيقة جميلة صغيرة كانت تتشابك حول عينيه ، ولعلّها من آثار إبحاره المستمر في عواصف جانحة قاسية ، كان هو في أثنائها يتطلّع نحو مهبّ الريح ، وهذا يجعل العضلات حول العينين تنكمش وتقلّص ، ومثل هذه التجفّفات ذو أثر كبير في من كان عبوساً متجهماً .

قلت وقد تقدّمت الى باب العريش : «أمامي قبطان الباقوطة ؟» فأجاب :

- هبّ أنه قبطان الباقوطة فما تريد منه ؟

- كنت أفكّر أن أبحر .

- كنت! أحقّاً كنت! أرى أنّك لست من أهل ناتوكت - هل إتفق أن سافرت على سفينة

مخروقة ؟

- أبدأ ياسيدي .

- اذن - أجرؤ على أن أقول إنّك لا تعرف شيئاً عن صيد الحيتان .

- لا شيء ، يا سيدي ولكنّ لا شك في أنني سأتعلم في وقت قصير . لقد سافرت عدة

سفرات في الخدمة التجارية ، وأظن...

- الخدمة التجارية عليها اللعنة! لا تكلمني بهذه اللهجة . أترى تلك الرجل ؟ سأنزع تلك

الرجل من قفاك إذا تكلمت اليّ عن الخدمة التجارية مرّة أخرى . ياسلام على الخدمة

التجارية! أظنك تحسّ بالخيلاء لأنك خدمت في سفن التجارة . أغرب يارجل عن وجهي . ما

الذي تريده من صيد الحيتان ؟ أمرك مريب . أليس كذلك ؟ لم تكن في حياتك قرصاناً ، هل

كنت ؟ لم تسرق آخر قبطان عملت تحت أمرته ، هل سرقته ؟ لا تفكّر في قتل الضبّاط حين

تعمل في البحر ؟

أقسمت اني بريء من كلّ تلك الأمور . وفهمت أنّ هذا البخار المعجوز كشأن رجل

كويكري منعزل من أهل ماتوكت يخفي تحت هذه الأعراض شبه الساخرة هوى بلده

وتعصباً له ، وانه لا يثق في الغرباء إلا إن انطلقوا من رأس كود أو من فينارد .

- لكن مالذي يجذبك الى صيد الحيتان ؟ أودّ أن أعلم قبل أن أوافق على إبحارك .

- أودّ ياسيدي أن أعرف ماهو صيد الحيتان . أريد أن أرى العالم .

- تريد أن تعرف ما هو صيد الحيتان ، مش كده ؟ هل ألقىت نظرة على القبطان آخاب^(١) ؟

- من هو القبطان آخاب ، يا سيدي ؟

- معلوم ، معلوم ، أدركت ذلك . القبطان آخاب هو قبطان هذه السفينة .

- اذن فأنا مخطئ . ظننت أنني أكلّم القبطان نفسه .

- إنك تكلم القبطان فالج ، - ذلك هو الذي تكلمه ، أيها الشاب . أنا والقبطان بلد

مسؤولان عن إعداد الباقوطة للبحار وإنها مزودة بكل ما تحتاجه ، بما في ذلك الملاحون .

نحن من أصحابها ووكلائها ، ولكن أعود فأقول : إذا كنت تريد أن تعرف ما هو صيد

الحيتان - كما أخبرتني - فبإني أستطيع أن أضعك حيث تعرفه قبل أن تربط مصيرك به

وتتورط فتفوت عليك فرصة التراجع . ألق نظرة على آخاب القبطان أيها الشاب وسوف تجده

ذا رجل واحدة .

- ماذا تعني يا سيدي ؟ هل أفقده الرجل الأخرى حوت ؟

- أفقده إياها حوت! أيها الشاب اقترب مني : بل افترسها وامتصفها وضررها بأنيابه

أشدّ ذي ناب وحشي مزق سفينة . آه . آه .

ذعرت لحماسته وربما استثارني قليلاً ما أودعه في آهاته الختامية من أسى عميق ، غير

إنني قلت بكل ما أستطيع من هدوء « ما تقوله صحيح دون ريب ياسيدي ، ولكن لعل ذلك

الحوت عينه كان ذا شراسة متميزة ، ولو خلتني لتقديري لاستنتجت ما حكيت له لي من تلك

الحادثة نفسها » .

- انتبه أيها الشاب . إن رتتيك نخب هواه . أظنك لاتخاذعني في القول . مؤكداً أنك

مارست البحر قبل اليوم . أمتأكد أنت ؟

قلت : « سيدي ظننت أنني أخبرتك بأنني قمت بأربع رحلات في التجا - » .

- أعفني من ترديد هذا! تذكر ماقلته أنا عن الخدمة التجارية - لا تثقل عليّ - لأحِبُّ

أن أسمع ترديدك . لكن دعنا نتفاهم . لقد ألمحت اليك بما تعنيه مهنة صيد الحيتان .

ألا تزال تحسن أنك تميل إليها ؟

- نعم يا سيدي .

(١) الاسم في المبرية يعني أبا الأب أي العم ، ودراسة شخصيته في هذه القصة تحتاج ساعة واسعة ، يكفي أن يقال أن ملفل استغل في تصويره شخصية بروميثيوس والشيطان عند ملتن وبعض خصائص الشخصيات الكبرى عند شكسبير وخاصة في المناجيات الذاتية .

- حسناً . أنت المرء يستطيع أن يسدّد رمحاً الى زور حوت حيّ ثم يقفز وراءه ؟ أجب بسرعة .

- نعم يا سيدي إذا لم يكن بد من ذلك ، لا . إنك تقول هذا لتتخلص منّي وهذا ما لا أتصوره .

- حسناً ثانية! إذن فأنت لاتريد فحسب أن تذهب في صيد الحيتان لتعرف بالتجربة ماهو ذلك الأمر ولكنك تريد أيضاً أن تذهب لترى العالم ؟ أليس ذلك ماهو قلته ؟ أظنّ ذلك . إذن تقدم هنالك خطوة وانظر حال الجوّ من مرقب الجو وأخبرني ماذا ترى .

وقفت هنيهة وقد حيرني هذا المطلب الغريب لأنّي لم أعرف تماماً طبيعته : أهو مزاح أم جد . ولكنّ فالج القبطان استجمع كلّ تجعّدات وجهه في عبسة واحدة وأمرني بتحقيق الهمة .

تقدّمت ونظرت من المرقب فلمحت السفينة التي تتأرجح مع التيّار في مرساها وقد مالت ميلاً موارباً نحو المحيط الفسيح . كان المنظر شاسعاً لاحدود له إلا أنه كان مملاً موحشاً ، ولم أر فيه إلا استرسالاً لايتخلّله شيء من تنوع .

وعدت فقال فالج : « طيّب ماذا تقول ؟ ماذا رأيت ؟ » فأجبت : « لم أر شيئاً ذا بال ، لم أر إلا الماء . أفاق بعيدة وعاصفة مصحوبة بالغيوم على وشك أن تهب » .

- طيّب . ماذا تظنّ في رؤيتك للعالم ؟ أتريد أن تدور حول رأس هورن كي تراه بوضوح ؟ ألا تستطيع أن ترى العالم من حيث أنت واقف ؟

زعزعني هذا القول ، ولكنّي لا بد أن أذهب في صيد الحيتان ، وأنا أريد ذلك ، والباقولة سفينة كأني سفينة أخرى حسنة - بل لعلها خيرهن . وأعدت هذا الذي مرّ في خاطري على مسامح فالج . فلما رأى عزمي وحزمي أبدى موافقته على إبحاري في تلك السفينة . ثمّ أضاف قائلاً : « وتستطيع أن تمضي الأوراق على التوّ . تعال معي » . وما أن قال ذلك حتّى تقدمني نازلاً الى القمرة .

على الطرنسوم - أو الخشبات التي تتخذ مقعداً في كوثلة السفينة - رأيت ما خلته أغرب الصور وأشدها إثارة للدهشة . عرفت من بعد أن الجالس هنالك هو بلدد القبطان الذي كان من أكبر الشركاء المالكين لتلك السفينة . أمّا الحصص الأخرى فكانت - كما هي الحال أحياناً في تلك الموانئ - ملكاً لجمهور من المساهمين من أرامل وآباء لأبناء لهم وقاصرين تحت الوصاية ، وكلّ فرد منهم يملك قيمة رأس خشبة أو قاعدة لوح أو مسماراً أو اثنين في السفينة . إذ الناس في نانتوكت يستثمرون أموالهم في سفن صيد الحيتان مثلما يستثمر غيرهم الأموال في الأسهم الدوليّة التي تأتي بربح وفير .

كان بلد مثل فالج ومثل كثيرين من أبناء ناتوكت كويكرياً في مذهبه ، إذ أن تلك الطائفة كانت أول من استوطن تلك الجزيرة ولا يزال سكانها الى اليوم يحتفظون بخصائص أبناء هذه الطائفة ومميزاتهم على نحو غير قليل . إلا أن أموراً غريبة وغير متجانسة قد حوّرت من تلك الخصائص والمميزات بما زادت عليها وانقصت منها . فبعض هؤلاء الكويكريين من أشدّ البحارة والصيادين نزوعاً لسفك الدماء . فهم كويكريون محاربون ، يحبون الثأر والإنتقام .

ومن العادات الشائعة في الجزيرة أن يسمي الآباء أبناءهم بأسماء مما ورد في التوراة . وبينهم رجال يحملون تلك الأسماء ، ويتحلون في طفولتهم طريقة التخاطب الكويكرية القائمة على التجليل باستعمال « أنتم » و« أنتمو » وتجري بها ألسنتهم كأنها سليقة فيهم ثم تمتلى . حياتهم من بعد بمغامرة مستبسلة جريئة لا تعرف حدوداً ، فيمزجون بهذه الخصائص المميّزة التي شبّ بهم العمر عنها آلافاً من أعمال الجرأة والإقدام لو أضيفت الى ملك اسكندنافي أو وثنى روماني من أبطال الملاحم لصلحت له وصلاح لها . وحين تجتمع هذه الأمور في رجل ذي قوة طبيعية فائقة ، ذي دماغ كربي وقلب كبير ، وقد أعانه على أن يفكر تفكيراً مستقلاً مبنوت الصلات بالموروث ما أتيح له من هدوء وانفراد - الليالي الطوال - في يقظاته الليلية في المياه النائية تحت كواكب لا نراها نحن في مناطقنا الشماليّة ، رجل يتلقى كل أثر للطبيعة غضاً - سواء أكان عذباً أو مريراً- من صدرها البكر المطواع المؤتمن ، وبذلك يتعلّم بعون من الفوائد العارضة لفئة جريئة رفيعة حادة ، فإن ذلك الرجل في ميزان أمة كاملة يعدّ مخلوقاً جليل القدر قويّ النفس يصلح للتراجيديّات السامية ، وحين تسيطر عليه علة من العلل مستقرة في أعماق طبيعته وينقاد هو لها بما يشبه أن يكون رضى واختياراً فإن ذلك من الزاوية المسرحيّة لايزري به سواء أكانت العلة فيه وراثية أو اكتساباً . ذلك أن كل الرجال العظماء من الزاوية التراجيديّة إنّما يكونون كذلك بسبب ما فيهم من علة . ثقوا أيّها الشبان الطامحون أن العظمة الإنسانيّة مرض ، ولكننا لا نتحدث عن هذا بل عن شيء آخر ، نتحدث عن رجل إن يكن فذاً فإنما ذلك ناجم عن وجه آخر من وجوه الكويكرية فيه وقد وقعت عليه ظروف فردية فحورته وغيرته .

كان القبطان بلد كزيميله فالج صياداً ثرياً متقاعداً . إلا أن فالج لم يكن يهتم قدر قلامة ظفر بما يدعى أمور الجدّ والرصانة ، بل كان يعدّ هذه الأمور عينها لبّ التفاهة ونقاوتها . وفي هذا كان بلد يختلف عنه إذ أنه لم ينل فحسب تعليمه وثقافته على أشدّ مبادئ الطائفة الكويكرية في ناتوكت تنطعاً وتزمتاً ، بل إنّ حياته البحرية من بعد ،

ومنظر كثير من العرايا الجميلات في الجزر حول هورن كل ذلك لم يزحزح ذلك الكويكري المتشدد قيد شعرة ، ولم يغير خيطاً واحداً في زيتة وملبسه . وعلى هذا الثبات الراسخ فإن طبيعة بلدد كانت عرضة للتقلب . نعم إن وازع الضمير قد حال بينه وبين أن يحمل السلاح ضد غزاة البر إلا أنه كان يفزو المحيطين الأطلسي والهادي غزوات لا تقف عند حد ، ومع أنه كان خصماً لدوداً لسفك الدم الإنساني ، إلا أنه أهرق وهو يلبس معطفه الضيق أطناناً على أطنان من دم الحوت العبيط . كيف كان بلدد التقى في أمسيات التأمل يوفق بين هذه الأمور المتناقضة من ذكرياته ؟ ذلك الشيء لست أدريه ، ولكن يبدو أن خاطره كان مطمئناً ، ولعله أرسى منذ عهد طويل عند استنتاج حكيم عاقل يقضي بأن دين المرء شيء ، وإن هذا العالم العملي شيء آخر . هو عالم يدفع حصصاً وأسهماً . وذلك شيء هام عند رجل مثل بلدد نشأ أجيراً في قمرة يلبس ثياباً قصيرة من أخشن الأصواف ، وارتقى الى حوات ذي صدارة واسعة كأنها كرش الشبوط ، ثم أصبح قائداً لقارب ثم رئيس ضباط ثم قبطاناً وأخيراً صاحب سفينة . واختتم بلدد حياة المغامرة كما ألمحت من قبل بالتخلي عن أي نشاط عملي في سن الستين ، ووقف أيامه الباقية على تسلّم الدخول الطيب الذي يرد اليه ، في هدوء .

ويؤسفني أن أقول إن بلدد شهير بأنه فظّ عاتر جبار وأنه كان في سفراته البحرية سيداً مريراً قاسياً . وقد أخبروني في نانتوكت ، وإن كان ما قالوه غريباً ، أنه حين أبحر حواتاً على ظهر حوامة تسمى « كاتيجوت » فإن ملاحيه حين عادوا الى الوطن نقلوا جميعاً الى المستشفى وقد أنهمكهم الألم والإعياء . وأقل مانقوله فيه أنه وهو الكويكري التقى ، كان قاسي القلب غليظ الكبد . ومع ذلك فهم يقولون انه لم يكن يستعمل السباب مع ملاحيه ولكنه كان يستنزف منهم قدرأ مسرفاً من الجهد الجائر الثقيل . فكان إذا حدّد عينه المسلية المصفرة في أحد البحارة يوم كان رئيس ضباط في سفينته جعله يشعر بأنه أصبح ثائر المزاج عصيباً حتى أن البخار ليمسك بأي شيء ، - مطرقة كان أو مثقباً - ويتوجه من فوره الى العمل في شيء ما ، أي شيء كان ، بحمية كأنها حمية المجنون . كان التراخي والكسل يتلاشيان أمامه وكان تكوينه الجسماني يعكس صورة عن طبيعته النفعية ، فكان جسمه الطويل الضامر لا يحمل لحمأ زائداً ولا لحية مسترسلة ، بل كانت ذقنه ذات زغب ناعم مقتصد كالزغب المنجرد على قبعته ذات الحافة الواسعة .

كذلك كان الشخص الذي رأيته يجلس على الطرنسوم حين تبعت فالج القبطان هابطاً الى القمره . كانت المسافات بين الدكات صغيرة وهناك جلس بلدد الشيخ منتصباً كالوتد ،

وكان يجلس دائماً هذه الجلسة فلا يتكلم ، كي لا ينجرد الزغب عن معطفه . وكان قد وضع قبعته الواسعة الى جانبه وجعل رجله متقاطعتين في تصلب ، ووزر رداءه الصوفي حتى الذقن ، وألقى النظارة على أنفه وبدأ مستغرقاً يقرأ في مجلد ضخمة .

صاح فالج : « مرة أخرى تكب عليها يا بلدد ؟ مش كده ؟ منذ ثلاثين سنة وأنت تدرس أسفار الكتاب ، حسب علمي ، أين وصلت يا بلدد ؟ » .

وكان بلدد تعود منذ عهد بعيد أن يسمع هذا الحديث المستخف من صديقه القديم ، فصعد بصره في هدوء دون أن يلحظ ما يحمله صديقه من استهانة ، وحين رأي نظره مرة أخرى نحو فالج متسانلاً .

فقال فالج : يقول إنه صاحبنا ، سيبحر على السفينة ، فقال بلدد في نفمة جوفاء وقد تحول الي : « أتريدون ذلك ؟ » فقلت لاشعورياً : « نريد » ، وقد كان هو كويكراً متحمساً وبلغة التبجيل يتحدث .

فقال فالج : « ما رأيك فيه يا بلدد ؟ » .

فقال بلدد : « ينفع » ورمقني ثم مضى يقرأ في كتابه في لحن هامس مسموع .

تصوّرته أغرب كويكري عجوز وقعت عليه عيناى وبخاصة حين قارنته بصديقه وزميله القديم فالج الذي يحب الضجيج والعجيج . غير إنني لم أقل شيئاً بل تطلعت من حولي بنظر حديد . فتح فالج صندوقاً واستخرج منه عقداً من عقود العمل في السفينة ووضع أمامه دواة وقلماً وجلس الى طاولة صغيرة ، وبدأت أفكر أنه قد آن الأوان لكي أقرّر بيني وبين نفسي أيّ شروط أرضى أن أنزل على حكمها من أجل هذه الرحلة . وكنت أعلم أنهم في التحويت لا يدفعون أجوراً وإنما يتسلم العاملون ، بما في ذلك القبطان نفسه ، حصصاً معينة من الربح يسمونها « الانصاء » days وهذه تتناسب ودرجة الأهمية التي تناط بكلّ واجب من واجبات عصة السفينة . وكنت أعلم أن غرارتي في ميدان التحويت لن تقسم لي نصيباً كبيراً ، ولكن بما أنني عرفت البحر وأستطيع توجيه السفينة وربط الحبل وجدله وكلّ ما إلى ذلك ، فإنني لم أشك من كلّ ما سمعته في أنهم سيقدّمون لي على الأقل النصيب رقم ٢٧٥ أعني هذا الجزء من صافي غلة الرحلة ، أيّاً كان مقداره في النهاية ؛ ومع أنهم يسمون هذا النصيب باسم « النصيب البيطي » فإنه خير من لا شيء ، وإذا كانت رحلتنا موفقة فإنه يكاد يفي بضمن الثياب التي سأبليها خلالها ، دع عنك أمر الطعام خلال ثلاث سنوات وذلك ما لا أدفع فيه مليماً واحداً .

قد يظن من يسمع هذا أن هذه طريقة بانسة لجمع قدر محترم من المال - نعم هي كذلك ، طريقة جد بانسة حقاً ، ولكنني أنا ممن لا يحفلون بالشراء وأنا قانع من الدنيا إذ هي

زودتني - لقاء عملي - بالطعام والمأوى مادمت أحمل هذه الشارة الجاهمة ، شارة « القيمة الكهربائية » . وعلى الجملة قدرت أن النصيب الخامس والسبعين بعد المائتين شيء معتدل ولكنني لن أندش إذا ما عرضوا عليّ النصيب المائتين إذا هم اعتبروا أنني عريض الكتفين جزل البنية .

وعلى رغم ذلك فإن شيئاً جعلني قليل الشقة بعض الشيء ، في تسلّم حصّة سخية من الأرباح ، فقد سمعت على البرّ شيئاً عن القبطان فالج وعن بلد خدنه العجوز غير المسؤول وأنها المالكان الكبيران للباقوطة ومن ثمّ ترك سائر الشركاء الموزعون ذوو الحصص الصغيرة أمر إدارة شؤون السفينة جميعاً لهذين الرجلين . وما عرفت إلا أن بلد الشيخ البخيل قد يكون لديه الكثير ممّا يقوله في الأيدي التي تعمل في سفينته وبخاصة وقد وجدته على ظهر الباقوطة مطمئناً في قمرته يقرأ التوراة كأنه جالس أمام الموقد في بيته . وبينما كان فالج يحاول - عبثاً - أن يصلح قلماً بمطواة ، كان بلد العجوز - لدهشتي البالغة - إذا قدرت أنه شريك هام في الإجراءات المرتقبة - بلد هذا لم يعرنا اهتماماً ومضى يتمتم لنفسه ويقرأ : « لا « تنصبوا » لكم كنوزاً على الأرض ، حيث يفسد السوس... » .

فقاطعه فالج قائلاً : « طيب يا قبطاننا بلد . ماذا تقول ؟ أي نصيب نفرضه لهذا الشاب ؟ » .

فأجابه وكأنّ صوته منبعث من القبر : « إنكم تعرفون هذا خيراً مني ، النصيب السابع والسبعون بعد السبعمان (٧٧٧) ليس كثيراً ، أليس كذلك ؟ » ويمضي فيقرأ : « حيث يفسد السوس والصدأ ولكن « انصبوا »^(١)... فقلت لنفسي : لاتنصبوا ، حقاً ، وأي نصيب! السابع والسبعين بعد السبعمان! يا بلد العجوز أنت مصرّ على أنني ، أنا من الناس ، لن أنصب لنفسي « أنصباء » على هذه الأرض حيث السوس والصدأ يفسدان ، هذا « نصيب بطي » ، غاية في البطء حقاً ، ومع أنّ كبر الرقم قد يخدع المرء الذي يعيش على البرّ إلا أنّ أقل حساب يبيّن أنّه وإن كان رقماً كبيراً فإنك حين تجعله جزءاً وتسمّيه الجزء السابع والسبعين بعد السبعمان فإنّ هذا الجزء من الفارذنج Farthing أقل بكثير جداً من ٧٧٧ دبلون ذهبي . كذلك جرت هذه الخواطر في نفسي حينئذ .

فصاح فالج : « عمى بعينك يا بلد . أتريد أن تغيب هذا الشاب ؟ يجب أن يأخذ أكثر من ذلك » .

(١) النص في مشي ١٩٠٦ « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء... » وقد استعملت كلمة « انصبوا » لأن المؤلف يتلاعب بالأجناس بين هذه اللفظة ولفظة « نصيب » .

فأجاب بلدد دون أن يرفع عينيه : «النصيب ٧٧٧» ثم مضى يتمتم : «لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» .
فقال فالج : «سأسجل اسمه إزاء النصيب الثلاثمائة . أتسمع ذلك يا بلدد ؟ أقول :
النصيب الثلاثمائة» .

فوضع بلدد كتابه واستدار نحوه في هدوء وقال : «قبطان فالج ، قلبك سخى ، ولكن عليك أن تعتبر الواجب المنوط بك تجاه الشركاء الآخرين في السفينة - من أرامل وأيتام وغيرهم - وإذا كافأنا أتعاب هذا الشاب بسخاء فنحن قد نختطف الخبز من أفواه هؤلاء الأرامل وأولئك الأيتام . النصيب السابع والسبعون بعد السبعمائة يا قبطان فالج» .
فزار فالج وقد توقّف وأخذ يذرع أرض القمرة : «ويلك يا بلدد ، سحقاً لك! لو اتّبعث مشورتك في هذه الأمور لسحبت حينما اتّجهت ضميراً مثقلاً يكفي ليفرق بثقله أكبر سفينة أبحرت حول رأس هورن» .

فقال بلدد في ركابة : «قبطان فالج قد يجزّ ضميرك عشر بوصات من الماء أو عشر قامات ، ذلك ما لا أدريه ، ولكن بما أنك ماتزال يا فالج رجلاً سادراً في آثامه غير تائب منها فإني أخشى أن يكون ضميرك مثقوباً وأنه في النهاية سيفرقك في الدرك الأسفل من الجحيم ، يا قبطان فالج» .

- «الدرك الأسفل ، الدرك الأسفل! إنك تهينني أيها الرجل ، تهينني بما تعجز الطبيعة الإنسانية عن أن تطيقه . من الغضب المشتط أن تقول لأخيك الإنسان أنه صائر إلى الجحيم . ديدان وثيران! يا بلدد أعد ما قلته عليّ ، واستعر غضبي ، لكن أنا ، أنا نعم أنا سأبتلع بطيخة مثلجة على حالها . أخرج من القمرة يا منافق يا أصفر يا أبحر يا ابن البندقية الخشبية ، لأطمسن أثرك» .

وحين أَرعد بهذه الشتائم اندفع نحو بلدد إلا أنّ هذا تحاشاه عندئذ في سرعة عجيبة مواربة منحدره .

أفزعتني هذه السّورة الصاخبة بين اثنين كبيرين مسؤولين من مَلاك السفينة ، وشعرت أنّ نفسي أخذت تزهد في الرحلة وتودّ أن تتخلّى عن الإبحار في سفينة ، ملكيتها موضع شبهة ، وإمّرتها عرضة للنزوات ، فخرجت لأمنح بلدد منفذاً إذ كان دون ريب جامح الرغبة في أن يختفي من وجه غضب فالج المندلج . ولشدّة مادّهشت حين رأيته يجلس مرّة أخرى على الطرنسوم في هدوء ودون أن تكون لديه أدنى رغبة في الانسحاب . ويبدو أنه قد ألف القبطان فالج العاصي وتعود أساليبه . أمّا فالج فإنه بعد أن نفّس عن غضبه لم يبق لديه شيء .

منه فيما يبدو ، فجلس أيضاً كالحمل الوديع . وإن ظل يرتعش قليلاً كأن أعصابه كانت ماتزال ناثرة . وأخيراً صفر : « أف . ف . أظنّ الريح تشجه معاكسة . بلدك كنت في الماضي ماهراً في شحذ الأستة ، أصلح هذا القلم ، من فضلك ، إنّ مديتي تحتاج تجليخاً . أحسنت ، شكراً لك يا بلدد . أمّا أنت أيها الشاب ، اسمك اسماعيل ، أليس كذلك ؟ سأسجّل اسمك هنا يا اسماعيل ، أزا ، النصيب الثلاثمئة » .

قلت : « أيها القبطان فالج إنّ معي صديقاً يريد أن يبحر أيضاً فهل آتي به غداً ؟ » . فقال فالج : « أكيد . أحضره ، ونحن نرى في أمره » . فأرسل بلدد أنه ورفع رأسه من الكتاب بعد أن كان قد دفنه فيه وقال : « أي نصيب يريد ؟ » . فقال فالج : « اوها لاتهمم بهذا يا بلدد » . ثم التفت اليّ وقال : « هل سبق له أن مارس التحويت ؟ » .

- قتل من الحيتان أكثر مما أستطيع عدّه أيها القبطان .

- طيب ، إذن أحضره معك .

ومضيت بعد أن وقّعت على الأوراق لايخالجني ريب في أنني أذيت عملاً طيباً في ذلك الصباح ، وأنّ الباقوطة هي السفينة نفسها التي قدر يوجو لي ولكويكوج أن تنقلنا حول الرأس .

وما أن مشيت غير بعيد حتى بدأت أحدث نفسي بأنني لم أر القبطان الذي سأبحر معه . هذا مع أنّ سفينة صيد الحيتان في أحوال كثيرة قد تعدت إعداداً كاملاً ويحضر فيها جميع الملاحين قبل أن يظهر القبطان للأعين ويأتي ليتسلّم القيادة . إذ تكون الرحلات أحياناً طويلة وتكون فترات الراحة على البرّ في الوطن بالغة القصر ، فإن كان القبطان صاحب عائلة أو مصالح تشغل باله فإنه لايعني نفسه كثيراً بأمر السفينة في الميناء وإنّما يتركها لأصحابها حتى يكون كلّ شيء ، قد أعدّ للإنتلاق في البحر . غير أنّ إلقاء نظرة عليه أمر مستحسن قبل أن يصبح الإنسان في عهده بعهد لاينقض . فعدت أدراجي ودنوت من فالج القبطان محيياً وسألته أين يمكن أن أجد القبطان آخاب .

- وماذا تبغي منه ؟ لقد حققت ماتريد ، وسوف تبهر على السفينة .

- هذا صحيح ولكنني أحب أن أراه .

- لكنني لا أظنّك تستطيع ذلك في الحاضر . لست أدري ما أمر القبطان على التمام ولكنه لايبارح بيته ، كأنه مريض ومنظره لا يوحى بذلك ، والواقع أنه ليس مريضاً ، ولكنه غير معافي تماماً . على أي حال أيها الشاب أنه لا يستقبلني دائماً ولذلك لا أتصوّر أنه

يستتبعك . هو شخص غريب الأحوال - ذلك القبطان آخاب ، كذلك يظنّ بعض الناس ولكنّه إنسان طيّب . ستحبّه كثيراً ، لا خوف ، لا خوف . رجل جليل هو القبطان آخاب ، مقدّس ربّاني لا يعرف التقوى . لا يتكلّم كثيراً فإذا تكلم ، فما عليك إلا أن تنصت . حذارٍ يا هذا ، إنّ آخاب فوق مستوى العامة ، درس في الكليات وعاش بين أكلة لحوم البشر . أليف عجائب أعجب من الأمواج ، وأثبت حربته المتألّقة في أعداء أقوى وأغرب شأناً من الحيتان ، حربته ، أجل ، أنفذ سنان وأسده في كلّ الجزيرة . آه إنه ليس بالقبطان بلدد ، وليس القبطان فالج . إنه آخاب ، يا غلام ، آخاب القديم كما تعلم كان ملكاً متوجّأ .

- وأعلمُ أنه ملك شريّر ، وعندما ذبح ذلك الملك الشرير ، أما ولفت الكلاب في دمه ؟

فقال فالج وفي عينيه معنى كاد يفزعني : « تعال اليّ ، اقرب ، اقرب . اسمع أيّها الفتى لاتنفوه بمثل هذا الكلام على ظهر الباقوطة . لاتنفوه به في آية بقعة . إنّ القبطان آخاب ليس هو الذي اختار اسمه لنفسه ، وإنما كانت نزوة حمقاء جاهلة من أمّه الخرقاء التي ماتت عنه وعمره اثنا عشر شهراً ، ومع ذلك فإنّ تستغ المرأة الهندية المعجوز في جايهيد قالت إنّ ذلك الاسم قد يحمل النذر ويكون نبويّاً . وقد يحدثك حمقى آخرون مثلها بمثل ما قالت . لكنّي أودّ أن أحذرك . فتلك أكذوبة محض ، أنا أعرف القبطان آخاب معرفة حسنة ، سافرت معه ضابطاً منذ سنوات ، أعرف ما هو - طيّب - لأنني أنه طيّب بقي مثل بلدد ، وإنما أعني أنه طيّب شتام ، يشبهني إلا أنه يفوقني كثيراً . أجل أجل أنا أعلم أنه لم يكن في حياته كثير المرح ، وأنا أعرف أنه في عودته الى الوطن فقد عقله فترة ولكنّ كان السبب في ذلك هو الألام الحادة النافذة في جذعه النازف بالدماء ، وذلك أمر يعرفه من خبّره . وأعلم أيضاً أنه منذ فقد رجله في آخر سفرة بسبب الحوت اللعين أصبح متقلّب المزاج ، متردّد الطباع يانسأ ، متوخشأ أحياناً ، ولكن كلّ ذلك يزول . ودعني أخبرك وأؤكد لك ، دفعة واحدة ، أيها الشاب أنّ من الخير لك أن تبجر مع قبطان طيّب متقلّب المزاج على أن تبجر مع قبطان بشوش سيئ الطباع . إذن وداعاً ، ولا تظلم القبطان آخاب لأنه يحمل اسماً شريراً ، ثمّ تذكر أيّها الفتى أنّ له زوجة لعلّه لم يمض على زواجه منها ثلاث رحلات ، فتاة حلوة وديعة راضية بما قدر لها . تدبّر هذا ، ذلك الشيخ قد أولد هذه الفتاة الحلوة ولدأ . أنتعتقد إذن أنه يمكن أن يكون لدى آخاب أذى مطلق لا يُكبح ؟ لا . لا . يا بنيّ إن كان آخاب ذا عاهة ممقوتاً منهوك القوى فإنّ لديه جوانب إنسانيّة » .

وحين بارحته امتلأت نفسي بالأفكار ، ذلك أن ما انكشف لي عن القبطان آخاب ملأ جوانحي بغموض غريب من التألم له ، وشعرت حينئذ بعطف عليه وأسف من أجله ، لكنني لم أدر لماذا غمرني ذلك الشعور إلا أن تكون نكبتة بفقدان رجله هي السبب . ومع ذلك شعرت برهبة غريبة منه ، إلا أنها نوع من الرهبة لا أستطيع أن أصفه ، فإنه لم يكن رهبة على وجه الدقة لكنني لست أدري ماهو ، غير أنني أحسست به ينفرني من الرجل ، بيد أنني شعرت بما يشبه أن يكون جزءاً فيما حسبته لغزاً فيه ، لغزاً بنسبة القدر الضئيل الذي عرفته عنه . ومهما يكن من شيء فقد انطلقت أفكارى - من بعد - في وجهات أخرى ، حتى تلاشى وجود آخاب المبهم من مخيلتي عندئذ .

(١) الصوم

كان كويكوج قد نذر الصوم ، وهو على أن يستمرّ فيه طوال اليوم ، ولذلك لم أشأ أن أزعبه بالعودة المبكرة ، وقررت أن أرجع عندما يجنّ الليل ، ذلك أنني أكنّ أبلغ احترام نحو الفروض الدينية التي يمارسها أيّ امرئ كان ، مهما تكن مضحكة ، ولا أجد في قلبي نزوعاً الى التهوين من شأن عبّاد أي دين حتى ولو كان أولئك العبّاد قرية من التمل يعبد أهلها الكمأة ، أو لو كانوا بعض المخلوقات التي تعيش في نواح من أرضنا وتحتني على نحو من البودية ، غير ممهود إلا على هذا الكوكب ، أما جذع رجل إقطاعي منوفٍ مريضٍ لا لشيء ، إلا لأنه يملك أملاكاً مترامية الأطراف ويؤجرها باسمه .

أقول : علينا نحن الصالحين أتباع المذهب المشيخي أن نرُحِبَ صدرأ بهذه الأمور فلا تصوّر أنفسنا أعلى مقاماً من سائر الناس ، وثنيين كانوا أو غير ذلك ، لما لديهم من تصوّرات ممرورة في شؤون دينهم ، هذا كويكوج كان يستطعم أشد الخواطر سخفاً عن يوجو وعن صومه . وماذا في هذا ؟ كان كويكوج يظنّ أنه يعرف ماهو بصدده ، فيما أخمّن ، ويبدو أنه كان راضياً بذلك ، فليطمئن حيث وجد رضاه وطمأنينته ، وكلّ مجادلاتنا معه لن تجدي شيئاً . إذن لندعه وشأنه ، أنزل الله علينا جميعاً رحمته ، مشيخين كنا أو وثنيين إذ أننا جميعاً نمشي برؤوس « مشعورة » تحتاج صدوعها رأياً .

وحين قدّرت أن صلواته وشعائره لا يبدّ أن تكون قد انتهت ، توجّهت عند المساء الى غرفته وقرعت الباب ، فلا جواب ، حاولت أن أفتحه فوجدته مغلّقاً من داخل . ناديت من ثقب المفتاح في لطف ، « كويكوج ! » ، فلم أجد إلا الصمت الشامل . « أقول : كويكوج !

(١) هي الأصل ، رمضان .

لِمَ لا تتكلّم؟ هذا أنا - اسماعيل». ولكن كل شيء، بقي صامتاً ساكناً. بدأ الفرع يساورني فقد غبت عنه زمناً كافياً، وأخشى أن يكون قد أَلَمّت به نوبة من التشنّج. نظرت من ثقب المفتاح، ولكنّ الباب كان يواجه زاوية شاذة في الغرفة، ولذلك كان المنظور من خلل الثقب شيئاً شاذاً مشوّوماً إذ لم أستطع أن أرى إلا جزءاً من مرقاة السرير وخطاً في الحائط ولا شيء سوى ذلك، ودهشت حين رأيت قناة رمح كويكوج التي كانت ربة المنزل قد أخذتها منه في المساء السابق قبل أن ناوي الى الغرفة مركوزة الى الجدار. قلت لنفسى: هذا غريب ولكن بما أن الرمح على أية حال موجود، وبما أن كويكوج قلماً يخرج دون أن يعتقله اذن فهو موجود ولا بد في الغرفة. وليس في هذا التقدير أدنى خطأ. صحت: «كويكوج! كويكوج» - كل شيء هادى ساكن. حدث شيء ما ولا بد. أصيب بالسكتة! حاولت أن أستعمل العنف في دفع الباب فقاومني بعناد. هبطت الدرج راكضاً، وأفضيت بما في صدري من ظنون لأوّل شخص صادفته - وكان هو الخادمة، فصرخت: «لا! لا! قَدَرْتُ أَنْ هناك أمراً. ذهبت لأسوي السرير بعد الفطور فكان الباب مقفلاً ولا تسمع في الداخل نائمة. وظلّ الصمت شاملاً حتى هذه اللحظة. وقلت: لعلكما خرجتما معا وأقفلتما الغرفة حفاظاً على ما فيها من أمتعة لكما. لا! لا! سي! سيديتي! قُتِل! مسز هسي! سكتة!» وجرت وهي تردّد هذه الصيحات نحو المطبخ وأنا على أثرها.

برزت مسز هسي (السليط) لدى سماع الصوت وفي إحدى يديها بوطلة الخردل وفي الأخرى وعاء الخلّ وقد فرغت لتوها من الإشراف على المواعين ومن شتم خادمها الفلام الأسود في أثناء ذلك.

صرخت: «مستودع الخشب! أين الطريق اليه؟ كرمال الله اركضوا، أحضروا شيئاً نكسر به الباب، الفأس! الفأس! أصابته نوبة يقيناً!» وفيما قلت ذلك اندفعت أصعد الدرج فارغ اليد على غير هدى، فاعترضت زوجة (السليط) طريقي ببوطلة الخردل ووعاء الخلّ وبكل خروج يتّمسّه وجهها:

- «ما بك أيها الشاب؟»

- «فأساً! كرمال الله! أسرعوا الى الطبيب، واحد منكم، بينما أنا أكسر الباب».

فقال ربة البيت وهي تضع وعاء الخلّ على الأرض بسرعة لتكون إحدى يديها حرة طليقة: «اسمع! اسمع. أنت الذي تتحدّث عن كسر أحد أبوابي!» وفيما هي تقول ذلك قبضت على ذراعي: «ما لك! ما بك أيها البخار؟».

بكل ما أستطيعه من هدوء وسرعة أفهمتها القصة جميعاً ، فضربت بوعاء الخلّ جانب أنفها دون وعي ، واستغرقت لحظة تفكّر ، ثم هتفت : « لا! لم أره منذ أخذته منه » وجرّت الى غرفة صغيرة تحت اسكلة الدرج ، وأجالت فيها عينيها وعادت تقول إنّ رمح كويكوج قد اختفى منها . وصاحت : « قتل نفسه . هذه حادثة استجز التعيسة تتكرّر - ضاع شرف آخر - كان الله لأمه المسكينة! سيخرب بذلك بيتي - ألهذا الفتى المسكين أخت ؟ أين هي ؟ بيتي! اذهبي الى سنارل الخطّاط قولي له أن يصنع لي لافتة يكتب عليها : « الانتحار ممنوع والتدخين ممنوع في القاعة » - بهذا نقتل عصفورين بحجر . نقتل ؟ رحم الله روحه . ماهذه الدوشة ؟ أنت أيها الشاب . قف عندك ؟ .

وجرت خلفي وأمسكت بي وأنا أحاول مرّة أخرى أن أفتح الباب بالقوة : « لا أسمح بهذا ، لا اسمح بإتلاف ممتلكاتي . اذهب الى صانع الأغلاق ، هناك واحد على بعد ميل . قف عندك » ثم وضعت يدها في جيبها وقالت : « هذا مفتاح مناسب ، فيما أظن . لتجرّبه » وأدارت المفتاح في المفلاق ولكن وأسفاه بقي المزلاج الداخلي مثبتاً لا يتحلل .

فقلت : « لا بدّ من كسره » ، وجرّيت هابطاً قليلاً عن باب المدخل ، تهمماً بالإنقضاء ، حين أمسكت بي ربّة النزل ، وحلفت أنني لن أحطم شيئاً من عقاراتها ، ولكنني نزعّت نفسي من قبضتها واندفعت وألقيت جسمي وأنا مندفع ضدّ الباب ، فانفتح محدثاً جلبة شديدة ، وحين ارتطمت الأكرة بالجدار نثرت الجير حتّى السقف وهناك رأيت ، بالله! كويكوج جالساً رابط الجأش مطمئن النفس في وسط الفرقة تماماً وقد تفرّص على فخذي وحمل يوجو على نافوخ رأسه . ولم يلتفت لا الى هذه الناحية ولا الى تلك وإنما جلس كالثمّال المنصوب دون أن تبدر منه دلالة على الحياة والحركة .

قلت وأنا أتقدّم نحوه : « كويكوج ؟ ما دهاك ؟ » .

وقالت ربّة النزل : « طبعاً لم يجلس هذه الجلسة طوال اليوم . أترأه فعل ؟ »

ولكنّا رغم ماقلناه لم نستطع أن نستخرج منه كلمة واحدة ، وكادت أهمّ بأن أدفعه لكي يغيّر جلسته لأنها كانت غير محتملة ، فهي مؤلمة معقّدة للأعصاب على نحوٍ شاذ ، وبخاصّة وأنّ الدلائل تشير الى أنه جلس كذلك ثماني ساعات أو عشرّاً واستمرّ على ذلك دون أن يتناول طعاماً ..

قلت : « مسز هسي هو حيّ على أيّة حال ، فإذا تكرّمت اتركينا وسأتولّى النظر أنا نفسي في هذا الأمر الغريب » .

وأغلقت الباب وراءها وحاولت أن أفتح كويكوج بأن يجلس على كرسي ، وسدّ

ما حاولت . ظلّ حيث هو ، توصلت بكلّ أسباب اللطف والأدب ولكنّ كان رده الوحيد على ذلك أنه بقي لا ينتقل خطوة ولا ينبس بكلمة ولا ينظر إليّ ولا يلحظ وجودي ولو لمحاً .

وقلت لنفسي . عجيب أمره . أيكون هذا جزء من الصوم لديه ؟ أتراهم يجلسون القرفصاء وهم صائمون في وطنه ؟ هو كذلك ولا بدّ ، أجل ! هذا جزء من عقيدته فيما أظن . طيب لأتركه حيث شاء فإنه سينهض - دون ريب - عاجلاً أو آجلاً . شكراً لله لأنه لا يستطيع أن يبقى كذلك أبداً . ثم إنّ صومه لا يحلّ إلا مرة في العام . ولأظنه ملحاً مادام كذلك .

ذهبت إلى العشاء . وبعد أن جلست وقتاً طويلاً أنصت إلى قصص مسهبة يقصّها بعض البخارة الذين عادوا لتوهم من رحلة يسمونها مجازاً « حلاوة البرقوق » (ويعنون بها رحلة قصيرة لصيد الحيتان في المحيط الأطلسي دون سواء) . أقول : بعد أن أصغيت إلى هؤلاء الصيادين حتّى ناهزت الساعة الحادية عشرة سعدت إلى غرفة النوم وأنا على مثل اليقين أنّ كويكوج حينئذ قد ختم صيامه . ولكن خاب ماظننته يقيناً فقد كان مايزال حيث خلفته لم يتزحزح قيد أنملة . فبدأ استياني منه يثور ، ذلك أنه كان من البلادة واللؤقة المحض أن يجلس القرفصاء يوماً ونصف ليلة في غرفة باردة وقد وضع على رأسه قطعة من الخشب :

- « بحقّ السماء يا كويكوج انهض وتحلّل ، قمّ تناول بعض الطعام إنك تميت نفسك جوعاً ، تقتل نفسك يا كويكوج » . غير أنه لم ينبس ببنت شفة .

عزمت وقد يأسّت من أمره أن أويّ إلى الفراش وأنا ، ولاريب في أنه سيلحق بي بعد وقت غير طويل . غير أنّي قبل أن أستدير منصرفاً تناولت صدارتي الثقيلة التي تسمّي جلد الدب وألقيتها عليه إذ كانت الليلة توحى بأنها ستكون قارسة البرد ، ولم يكن يرتدي شيئاً سوى سترته المستديرة . ومضى وقت وأنا عثباً أحاول أن أستجلب النعاس . كنت قد أطفأت الشمعة ولكن خطر لي أنّ كويكوج على بعد أربعة أقدام جالسٌ تلك الجلسة المرهقة متصلياً متخشباً وحده في الظلام ، فلأنني هذا الخاطر شعوراً بالنعاسة ، تصوّروا حالي نائماً طوال الليل في غرفة واحدة مع وثنى ساهر يجلس القرفصاء في هذا الصوم الموحش الذي لا أعرف له تفسيراً!

ولأدري كيف غفوت أخيراً إغفاءة امتدّت حتّى الصباح وحين أفتت نظرت عبر السرير فرأيت كويكوج مقرصاً كأنما شدّ إلى الأرض بمسمار . ولكنّ ماكاد أول خيط من أشعة الشمس ينفذ إلى الفرقة حتّى نهض ومفاصله متيبسة تصرّ وعلى وجهه سمات المرح ، فتقدّم مني يطلع ، وضغط جبهته على جبهتي وقال أنّ صومه قد انتهى .

أنا ، كما ألمحت من قبل ، لا أعترض على دين أي فرد مهما يكن حاله ، مادام ذلك الفرد لا يقتل غيره ولا يهينه من أجل أن غيره لا يشاركه إيمانه . ولكن حين يصبح دين المرء مثيراً للسخط ، حين يكون مصدر عذاب لصاحبه ، وبإيجاز حين يجعل العيش على هذه الأرض كالسكن في فندق مزعج ، حينئذ أعتقد أن الوقت صالح لنتحي بصاحب ذلك الدين ناحية ونناقشه في معتقه .

وهذا هو ما فعلته إزاء كويكوج . قلت له : « اذهب الى السرير تَوّاً واضطجع وانصت لما أقول » . ثم مضيت في حديثي مبتدئاً من نشأة الدين البدائي وتطوّره حتى بلغت مرحلة الأديان المختلفة في عصرنا الحاضر ، وخلال ذلك كلّه جهدت لكي أبين له أن كلّ ضروب الصوم وجلس القرفصاء في غرف باردة مكفّهرة إنّما هي هراء صراح ، فهي ضارة بالصحة ، لاتفيد الروح ، وتعارض - في إيجاز - وقوانين علم الصحة المعروفة وحسن التدبير . وأخبرته أيضاً أنه إذا كان في أمور أخرى بدائياً بالغ التحقّل والحكمة فإنه ممّا يؤلّمني ، بل يحزّني ويرمّضني ، أن أراه محمقاً الى مدى محزن في أمر هذا الصوم الذي يمارسه . ثمّ قلت : زد على ذلك أن الصوم ينحل الجسم ومن ثمّ تضوى الروح ، وكلّ أفكار تتولّد عن الصيام فإن نصفها بالضرورة يكون ميّاً جوعاً . وهذا هو السرّ في أن أكثر المتديّنين المصابين بعسر الهضم يجتروّن خواطر سوداوية عن مصايرهم . وأقول في كلمة ، وقد قلتها على نحو ملتوٍ غير عامد : كويكوج! إنّ جهنّم فكرة ولدت أوّل مرّة إثر عسر هضم من تناول الفطير السكري ثمّ خلّدت تلك الفكرة خلال مراحل عسر الهضم الذي يولّده الصيام .

ثمّ سألته أترأه يصاب أحياناً بعسر الهضم ، ووضّحت له الفكرة في تبسيط شديد حتى أدركها فأجاب بالنفي إلاّ مرّة واحدة في حادثة لا تنسى . وكان ذلك عقب حفلة كبيرة أقامها والده الملك حين انتصر في معركة عظيمة ، فقتل خمسين من العدو في حوالي الثانية ظهرأ وشويت أجسامهم وأكلت في ذلك المساء .

قلت وأنا أرتعش ، « حسبك يا كويكوج . كفى . كفى » . إذ كنت أعلم النتائج دون أن يلمح اليها ، فقد كنت رأيت بخاراً زار تلك الجزيرة نفسها ، وأخبرني أنّ العادة جرت في حال الإنتصار في معركة كبيرة أن يشوى المذبوحون جميعاً في فناء دار المنتصر أو حديقته . ثمّ يوضعون واحداً إثر آخر في مذاود خشبية كبيرة ، ثمّ تصف حولهم زخارف من ثمر الخبز وجوز الهند كأنهم أطباق الأرز ويهديهم المنتصر لأصدقائه وقد وضع في فم كل واحد منهم ضمة من البقدونس كأنهم الديوك الرومية التي تسوى احتفالاً بعيد الميلاد .

بعد ذلك كله لست أظن أن تعليقاتي على الدين تركت أثراً في نفس كويكوج ذلك لأنه كان في المقام الأول كأنما في أذنه وقر إذا أنت حدثته في ذلك الموضوع الهام إلا إذا تناولته من وجهة نظره . ثم لأنه في المقام الثاني لم يفهم ثلث ما قلته ، مهتما بسطت أفكاره ووضحتها ، ثم لأنه أخيراً كان يعتقد أنه يعرف عن الدين الحق أكثر مما أعرف . فنظر اليّ نظرة مجاملة وحنو كأنما كان يرى من المؤسف أن يفضل شاب عاقل مثلي ضلالاً لارجاء فيه عن إدراك التقوى الوثنية .

أخيراً نهضنا وارتدينا ثيابنا ، وتناول كويكوج بنهم فطوراً كبيراً من جميع أنواع الشودر كي لا يوقر صيامه شيئاً على ربة النزل ، وانطلقنا الى الباقوطة ، ونحن نتسكع في مشيتنا ونخلل أسناننا بحسك القفندر .

علامته

حين كنّا ننحدر الى نهاية الرصيف نحو السفينة ، وكويكوج معتقل رمحه ، حيناً القبطان فالج بصوته الأجرى من عريشته وقال إنه لا يشك في أنّ صديقي كان متوحشاً من أكلة لحوم البشر ، وأنّ هذا الصنف من الناس لا يؤذن لهم بالإبحار على سفينته إلاّ إن تقدّموا بأوراقهم قبل التسجيل .

قفزتُ على جانب السفينة وتركت رفيقي واقفاً على الرصيف وأنا أقول : « ماذا تعني بهذا يا قبطان فالج ؟ » .

فأجاب : « أعني أنه لا بد أن يبرز أوراقه » .

وقال بلدد بصوته الخاوي وهو يمدّ رأسه من خلف رأس فالج من العريش : « حقاً عليه أن يبرز ما يدلّ على أنّه تنصّر » . واستمرّ ملتفتاً الى كويكوج : « يا ابن الظلام! هل أنت في الوقت الحاضر على صلة بأيّة كنيسة مسيحية ؟ » .

فقلت : « بل هو ينتمي الى أوّل كنيسة مجعية » . وهنا يجدر بي أن أقول أنّ كثيراً من هؤلاء المتوحشين الموشومين الذين يبحرون في سفن من نانتوكت يتحولون الى أحد المذاهب المسيحية في النهاية .

فصاح بلدد : « أوّل كنيسة مجعية ماذا ؟ أعني تلك التي تقام صلواتها واجتماعاتها في بيت الشماس ديوترونومي كولمان ؟ » . وإذا قال ذلك أخرج نظارتيه ومسحهما بمنديل كبير أصفر زاهي اللون وأثبتهما على عينيه بتؤدة وخرج من العريش وانحنى ، انحناءة المتينس ، على جانب السفينة ، وسدّد الى كويكوج نظرة طويلة .

ثمّ قال وهو يستدير نحوي : « كم مضى عليه وهو عضو فيها ؟ أعتقد أيها الشاب أنه حديث الإلتماء » .

وقال فالج : « ثم أنه لم يعمد ولو فعل لفسل ماء العماد عنه بعض هذه الزرقة المشؤومة في وجهه » .

فصاح بلدد : « أخبرني أهذا الفريسي عضو منتظم منتسب الى اجتماعات الشماس ديوترونومي ؟ لم أره هناك وأنا أتردد اليها كل يوم أحد » . قلت : « لا أعرف شيئاً عن الشماس ديوترونومي ولا عن اجتماعاته . كل ما أعلمه أن كويكوج بحكم مولده ينتمي الى الكنيسة المجمعية الأولى ، وهو نفسه شماس ، أعني كويكوج نفسه » .
فقال بلدد في عبوس : « أيها الفتى أنت تعابني . أوضح ماتقول أيها الحثي الشاب . الى أي كنيسة تنتمي ؟ أجنبي » .

وإذ وجدته محرجاً أجبت : « أعني ياسيدي تلك الكنيسة القديمة كنيسة الفطرة التي تنتمي اليها أنت وأنا والقبطان فالج هناك وكويكوج هنا ، ننتمي اليها كلنا واليهما ينتسب كل ابن أم وكل ذي نفس ، تلك الكنيسة المجمعية الأولى الأبدية التي تضم كل من سيح الله . كلنا أبناؤها إلا أن بعضنا قد تراوده أخيلة ضالة زائفة تحرف به قليلاً عن المعتقد الأعظم الذي يوحدنا جميعاً ويجمع بين أيدينا » .

فصاح فالج وهو يدنو مني : « تعني يربط الأيدي ، أي يشدها في وثاق واحد . أيها الشاب خير لك أن تسافر على السفينة مبشراً واعظاً بدلاً من أن تكون بحاراً . لم أسمع موعظة خيراً من موعظتك . لم يبدها الشماس ديوترونومي بل حتى الأب مابل نفسه ، وهو ما هو في الخطابة والوعظ . اسعد على ظهر السفينة ، اصعد . دع عنك مسألة الأوراق . أقول : قل لكويكوج - ما اسمه ؟ قل لكويكوج أن يتقدم . وحق المرسي العظيم ، إنه ليحمل رمحاً نعم الرمح ! من نوع جيد ، وهو يلعب به لعب المتمرسين . أقول : يا كويكوج ، أو أياً كان اسمك ، هل وقفت في حياتك على رأس قارب لصيد الحيتان ؟ هل اتفق لك أن طعنت سمكة ؟ »

ولم ينبس كويكوج بكلمة وإنما ففز على جانب السفينة بطريقته الوحشية العفوية ، ومن ثم انطلق الى مقدمة أحد قوارب التحويت المعلقة على أحد الجوانب ثم طوق ركبته اليسرى وسدد من عليها رمحه وصاح يركن : « قبطن . أنت هو تراه النقطة القار على الماء هاك ؟ تراه ؟ فرضناً هو عين الحوته . شفتا ! » وسدد الرمح ثم قذف به فويق قبعة بلدد الواسعة الحواشي ، عبر ظهر السفينة على خط مستقيم وأزال بقعة القار التي كانت تلتصق .

وقال في هدوء وهو يسحب رمحه : « فرضناً هو عين الحوته ، داك الحوته يموت » .

فقال فالج الذي بهرته مصاقبة الرمح الطائر فتراجع نحو ممز القمرة موجهاً الكلام لشريكه : « بلدد أسرع . أقول : عجل يا بلدد وأحضر الأوراق لابد من أن نسجل هجوع أعني كويهوج في أحد قواربنا . اسمع يا كويهوج . سنعطيك النصيب التسعين . وهذا أكثر مما أعطيه أي حوات من نانتوكت » .

لذا نزلنا الى القمره وما كان أبلغ سروري حين سجل كويكوج بين رفاق السفينة التي أصبحت أنتمي إليها .

وعندما انتهت الأمور التمهيديّة وأصبح كل شيء في يد فالج جاهزاً للتوقيع ، التفت اليّ وقال : « أظنّ أنّ كويهوج أمي لا يكتب . أليس كذلك ؟ أقول يا كويهوج عليك اللعنة أتوقع اسمك أو ترسم علامتك ؟ » .

إلا أنّ كويكوج الذي كان قد أدى هذه الفريضة مرتين أو ثلاثاً من قبل لم يخجل عندما سمع السؤال بل أخذ القلم المقدم اليه ونسخ على الورقة ، في الموضع الصحيح ، نسخة دقيقة عن شكل مستدير غريب كان موشوماً به ذراعه ، وقد أدركه الخطأ العنيد الذي تلبس فالج وهو يلفظ اسمه ، فكان مارسمه شيئاً بما يلي :

كوهوج



علامته

في أثناء ذلك كله جلس القبطان بلدد يحدّق النظر منعماً في كويكوج وأخيراً نهض في وقار وعيث في جيوب معطفه الصوفيّ الضخم ذي الزيق العريض ، واستخرج رزمة من الكراسات الدينية ثمّ اختار كراسة عنوانها « اقتربت الساعة أو العمل قبل الأجل » ووضعها بين يدي كويكوج ، ثمّ زمهما والكتاب بينهما بيديه ، وأنعم النظر في عينيه وقال : « يا ابن الظلام! عليّ أن أؤدّي واجبي نحوك . أنا شريك في هذه السفينة وأحسن بأنّي مسؤول عن أرواح بخارتها جميعاً . فإذا كنت ماتزال متشبهاً بشؤونك الوثنية ، وذلك ما أخشاه أسفاً ، فإنّي أتوسّل اليك أن لا تبقى لحظة من أولياء الشيطان الرجيم . اطرح عنك بعلأ والتنين الوبيل . احذر يوم الهول الأكبر . وتبصّر وتدبّر . (ألطف بنا ياربنا) حاذر أن تقع سفينتك في هوة جهنّم » .

كانت أثاره من البحر المالح ماتزال عالقة بلغة بلد وقد اختلطت بلغة الكتاب وبالعبارات المألوفة في بلده .

فقال فالج : « قف . خلّ عنك . حسبك لا تفسد علينا حواتنا . إنّ الحواتين الأتقياء لا يحسنون الصيد . تقواهم تسيب القرش من أيديهم . الحوات لا يسوى دانقاً إنّ لم يكن كالقرش وحشية ومضاء . أتذكر الشاب نات سوين أجراً من وقف على رأس قار في نانتوك وفنيارد ؟ بعد أن سلك نفسه في الإجتماعات الدينية ، فقد جراً الحوات - أصبح يرتعش اشفاقاً على روحه المنوفة ، حتى غدا يخيم ويحجم إذا واجه الحيتان ، خوفاً من أن ينشق به القارب فيهوي الى دركات الجحيم .

رفع بلد عينيه ويديه وقال : « فالج ! فالج ! لقد رأينا - أنا وأنت نفسك - لحظات عديدة من الخطر . أنت تعلم يافالج مامعنى الخوف من الموت . كيف تهرف بهذا البهتان المضلّ ! إنك تكذب حقيقة قلبك يافالج ! قلّ لي عندما تحطمت صواري الباقوطة الثلاثة في الإعصار عند اليابان ، في تلك الرحلة التي رافقت فيها القبطان آخاب ، ألم تفكر في الموت واليوم الآخر ؟ »

فقال فالج وهو يخطر في القمرة وقد دسّ يديه الى أعماق جيبه . « ماشاء الله! ماشاء الله . اسمعوا بالله عليكم جميعاً . تصوّروا! حين كنّا تصوّر في كلّ لحظة أنّ السفينة غارقة! الموت واليوم الآخر وقتئذ ؟ ماذا ؟ حين أخذت الصواري الثلاثة تضرب جوانب السفينة وتبعث أصواتاً كالرعد ، وأخذ كلّ بحر يتفجّر منقفاً علينا في القيدوم والكوثلة ، أفكرنا في الموت واليوم الآخر حينئذ ؟ كلاً . ما كان لدينا وقت للتفكير في الموت حينئذ . الحياة هي ماكنّا نفكر فيه أنا والقبطان آخاب - كيف نخلّص الجميع - كيف نكسو الصواري العارية بالأشربة والحبال - كيف نصل الى أقرب ميناء - ذلك هو ماكنّا أفكر فيه . »

لم يقلّ بلد شيئاً وزرّ معطفه ، ومشى مختالاً فوق ظهر السفينة فتبعناه ، وهناك وقف يطل في هدوء على بعض صنّاع الأشربة ، وهم يصلحون شراعاً كبيراً من وسطه . وبين الحين والحين كان ينحني ويلتقط خرقة أو يلتمّ طرف دوبارة مقيّرة ، حرصاً منه على أن لاتذهب سدى .

ايليا المتنبئ^(١)

ما كدنا نغادر الباقوطة ، ونبدأ تسكفنا بعيدين عن الماء ، وكلّ منا غارق في أفكاره .
 حتى طالنا شخص غريب ، وقف أمامنا وصوب سبّابه المكتنزة نحو السفينة وقال :
 - يا رفيقي ، هل اتفق لكما أن تبجرا في تلك السفينة ؟
 كان مرتدياً ثياباً مهلهلة ، سترّة حائلة اللون وسروالاً مرقعاً ، وقد لفّ حول عنقه خرقة
 من منديل أسود . وقد غمر وجهه كلّه بشر الجدري في جميع النواحي ، وخلاّه كمجري التيار
 المعقّد المضلّع بعد أن تنحسر عنه المياه أو تجفّت .
 فأعاد قوله ، « هل تبجران فيها ؟ » .
 قلت محاولاً أن أكسب بعض الوقت لأشملة بنظرة طويلة : « تعني الباقوطة فيما
 أظن » .
 فقال : « نعم الباقوطة - تلك السفينة هناك » . وأرجع ذراعه كلّها ثمّ ردها على استقامة
 أمامه ، وقد جعل أنملة سبّابه مصوّبة تمام التصويب الى السفينة » .
 قلت : « نعم قبيل هنيهة وقفنا العقد » .
 - هل يحيك شيء في روجيكما ؟
 - حول أي شيء ؟
 فقال في سرعة : « أواه لعلكما لاتشعران بشيء ! لا بأس ، أعرف فتیاناً كثيرين لا
 يشعرون بشيء - يا حسن حظهم ! خلیون لا یؤرقهم شيء . إنّ الروح كالمجل الخامس
 للعربة » .

(١) اختار له اسم «ايليا» عمداً لأن ايليا هو الذي كان يندثر أخاب . أندره أولاً بفلات سنوات من التحط . وتنبأ أيضاً بأن الكلاب ستلغ في دمه (انظر أخبار الملوك الأول ١٧ . ١٨٠ . ٢١) .

قلت : « عن أي شيء تهرف ، أيها الرفيق البحار ؟ » .

- « هو لديه ما يكفي ليعوّض الآخرين عما ينقصهم في أرواحهم » . تفوهه الغريب بتلك الكلمات في اقتضاب وقد تلفّظ لفظه « هو » في نبرة عصبية شديدة . فقلت : « كويكوج ! هنا بنا ، هذا امرؤ قد نذ من عقال ، وهو يتحدث عن شيء وشخص لا نعرفهما » .

فصاح الغريب : « قف ! بالحق نطقت - فأنت لم تَرَ «الرعد الرعاص» بعد ! » .

قلت وقد لفتني الحماسة الملتائة في هيئته : « من هو الرعد الرعاص ؟ » .

- « آخاب القبطان » .

- « ماذا ؟ قبطان سفينتنا الباقوطة ؟ » .

- « أيوه . بيننا نحن البحارة القداسي ، ذلك هو اسمه . لم تراه بعد . أليس

كذلك ؟ » .

- « بلى ! لم نره . يقولون إنه عيان إلا أنه في تحسن وسيكون معافئ في زمن قصير » .

فضحك الرجل الغريب ضحكة ساخرة مهيبة في آن ، وقال : « معافئ في زمن قصير .

اسمع ! حين يعافى القبطان آخاب تكون يدي اليسرى هذه قد صحت ، وليس قبل ذلك » .

- « ماذا تعرف عنه ؟ » .

- « ماذا أخبروك عنه ؟ هكذا قل ! » .

- « لم يخبروني عنه كثير شيء . سمعت أنه سيأد حيتان ماهر ، طيب في معاملة

بخارته » .

- « كلا هذين الخبرين صحيح - نعم . كلاهما صحيح ، ولكن عليك أن تتفرض حين

يأمر . تقدّم ثم تدمر ، تدمر لكن لا تتوقف - هذا هو ما يقضي به آخاب . ولكنكما لم

تسمعا شيئاً عما أصابه عند رأس هورن ، منذ زمن بعيد ، حين استلقى كالमित ثلاثة أيام

بلياها ، ولا عن المناوشة بينه وبين الاسباني عند المذبح في سانتا . لم تسمعا شيئاً عن

ذلك ؟ مش كده ؟ ولا شيء ، عن القدرح الفضّي الذي بصق فيه ، ولا عن فقدانه لرجله في آخر

رحلة حسبما جاءت النبوءة ، لم تسمعا شيئاً عن هذه الأمور وعما هو أكثر منها ، مش

كده ؟ لا . لا أظنكما سمعتما . وأنتي لكما ! ومن يعرف ما أعرف ؟ لا أظن نانتوكت كلها

تعرف . لكن مهما يكن من أمر فلا بد أنكما سمعتما شيئاً عن رجله وكيف فقدها ، أجل .

أجل سمعتما ، فيما أخمن . حقاً كل الناس يعرف ذلك - أعني يعرفون أنه ذو رجل واحدة ،

وأن حوت العنبر أخذ الأخرى » . قلت : « ياعزيزي عمّ كل هذا الهذيان ، لست أدري ولا

يعني أن أدري إذ يبدو لي أن هناك منطقة معطلة في رأسك بعض الشيء . لكن إن كنت

تحدثت عن القبطان آخاب ، قبطان تلك السفينة الراسية هناك ، أعني الباقوطة ، فليكن معلوماً لديك أنني أعرف كل شيء عن فقدانه لرجله .
- « كل شيء ، مش كده ، تعرف حقاً ؟ كل شيء ؟ » .
- « يقيناً » .

وقف الغريب الذي يشبه الشخاذ في هيئته ، لحظة ، واصبغه تشير الى الباقوطة ونظره مسدد نحوها ، كأنما هو في استبحار فكري مضطرب . ثم تقدم قليلاً ثم استدار وقال :
« تبحران . أليس كذلك ؟ قد كتبتما توقيعكما ؟ حسناً حسناً! ما أمضي فقد أمضي ، وما قضى فلا بد كائن! وقد يشاء الله ألا يكون . كل شيء قد أعدت ورتب ، ولا بد أن يبحر معه بخارة ، فيما أظن ، ويبحر معه رجال آخرون . كان الله لهم! وداعاً يارفيقي ، وداعاً! وحلت عليكم بركة السماء الموشحة بالقداسة . أنا آسف اذ أوفتكم! » .

قلت : « اسمع يا عزيزي إذا كان لديك شيء هام تقوله لنا ، هيا نغُ ، أفضربه ، ولكن إن كنت تحاول فحسب أن تضحك علينا وتخدعنا ، « فالعب غيرها! » - ذلك كل ما لدي من قول » .

- « وقولك فصيح ، وأنا أحب أن أسمع فتى يتحدث على هذا النحو . أنت تناسبه - أنت وأمثالك . صباح سعيد - يا رفيقي - وداعاً! حين تقابلانه قولاً له : إني قررت ألا أكون واحداً منهم » .

- « يا عزيزي ، يا رفيقي إنك لا تستطيع أن تضحك علينا كأننا من الحمقى ، ليس لك أن تخدعنا بهذا الأسلوب ، أسهل شيء في الوجود على المرء أن يبدو للناس وكأنه ينطوي على سرٍ عظيم » .

- « وداعاً يارفيقي . صباح سعيد! » .

- « يا له من صباح! هيا بنا كويكوج لنمض عن هذا المجنون ، مهلاً! قل لي ما اسمك! » .
- « ايليا » .

ايليا! كذلك رددت في نفسي ونحن نبتعد عنه ، وكل منا يعلق بطريقته على هذا البخار العجوز ذي الأنمال ، واتفقنا على أنه لم يكن سوى نصاب يحاول أن يبدو « ببعياً » . وربما لم نكن قد أبعدنا عن ما يزيد على مائة ياردة حتى انعطفنا في أحد المنعطفات ، والتفت ورائي وأنا أدور منعطفاً ، فإذا بايليا يقتني خطانا عن بعد ، وأثر مرآه في نفسي على نحو جعلني لا أنبه كويكوج الى أنه يسير في آثارنا ، وإنما مضيت ورفيقي وأنا أتوق لأتحقق هل

ينعطف الغريب في الزقاق نضسه الذي اتجهنا فيه . وكان أن فعل وبدا لي أنه يتعلق بنا ؛ أمّا ماذا كان قصده من ذلك فشيء لم أستطع أن أتخيله أبداً . هذه الحادثة وُلدت في نفسي ، حين اجتمعت مع كلماته المبهمة التلميحية الموهمة المغلفة ، جميع ضروب العجب والإشفاق ، وكلها كانت تتصل بالباقوطة والقبطان آجاب والرجل التي فقدها ، والنوبة عند رأس هورن ، والقدح الفضّي ومقاله عنه القبطان فالج حين غادرت السفينة أمس ، ونبوءة المرأة الهندية تستغ والسفرة التي ارتبطنا بها ومئات من أمور أخرى كالطيوف .

وعزمتُ على أن أعلم علم اليقين هل ايليا الباذّ الهيئة يتعمّقنا حقاً ، وتحقيقاً لهذه النية اجتزت الطريق بصحبة كويكوج ثم عدنا معاً على الجانب الآخر منها ، إلا أن ايليا مضى في طريقه دون أن يلحظنا - فيما يبدو - . ذلك نفّس عني ، ومرة أخرى ، قلت في نفسي إنه نصاب ، وبدا لي أنني أطلق عليه هذا الوصف لآخر مرة .

كل شيء على قدم وساق

مضى يوم أو يومان ، واحتدم النشاط فوق ظهر الباقوطة . لم تُصلح الأشرعة القديمة فحسب بل استحضرت أشرعة جديدة ، ولقائف من الخيش والحيال ، أي جلب كل شيء يدلّ على أنّ الإعدادات في السفينة تؤذن بالإنتهاء . أمّا القبطان فالج فعله لم ينزل الى البر أو نزل مرّات معدودة ، وظلّ أكثر الوقت في عريشه يرقب الأيدي بنظرات نافذة . وأمّا بلدد فقام بكلّ ما احتجاجة السفينة من مشتريات ومن مخزونات . وأمّا الرجال العاملون في عنبر السفينة وعلى الحبال فكان عملهم يمتد بهم وقتاً طويلاً بعد حلول الليل .

في اليوم التالي لليوم الذي أمضى فيه كويكوج العقد ، عمّم على جميع الفنادق التي ينزل فيها بخّارة السفينة أمر بأن تودع حقائبهم وصناديقهم في السفينة قبل حلول الليل ، إذ توشك أن تبحر في أية لحظة . فحملنا أنا وكويكوج أمتعنا وقرّرنا أن ننام على الشاطئ حتى يحين موعدها . ولكن يبدو أنّهم يبكّرون في تعميم مثل هذه الأوامر في هذه الحالات فقد مضت عدة أيام ولم تبحر السفينة ، ولكن لا عجب في ذلك إذ كان ما يجب إنجازه كثيراً ولا أحد يحصي ما يجب أن لا يغيّب عن البال قبل أن تكون الباقوطة قد أعدت وأخذت كل أهبتها .

كلّ منا يعلم كثرة الأشياء التي لا يستغني عنها بيت ، من أسرة وقدرور وسكاكين وشوك وجوارف وملاقط وفوط وكستارات وغيرها . وتلك هي الحال أيضاً في سفن الصيد التي تحتاج الى ما يكفي ثلاث سنوات تقضى في عرض البحر بعيداً عن كلّ البدلين وبانعي الخضر والفواكه والأطبّاء والخبازين والمصارفة . وهذا يصدق أيضاً على السفن التجارية وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ سفن التحويت . فالسفرة في صيد الحوت طويلة ، هذا الى تعدّد الأدوات التي يحتاجها الصيادون في مهمّتهم ، واستحالة استبدالها أو إيجاد عوض عنها في

الموانئ النائية التي تمرّ بها سفن الصيد ، ويجب أن نذكر بأن سفن التحويت من بين جميع السفن أكثرها تعرّضاً للحوادث من كلّ نوع وخاصة تلف الأشياء التي يعتمد عليها نجاح الرحلة ، أو فقدانها ، ولذلك يأخذون فيها مزيداً من القوارب ومزيداً من الصواري ومزيداً من الحبال والرماح ، يأخذون مزيداً من كلّ شيء إلا شينين هما السفينة نفسها وقبطانها .

ولدى وصولنا الجزيرة كانت الباقوطة قد استكملت كلّ المخزون المطلوب أو تكاد ، وذلك يشمل ما تحتاجه الرحلة من لحم البقر والخبز والماء والوقود والأطواق الحديدية والأخشاب . ولكن ظلّ احضار الأشياء المتنوّعة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، مستمراً قائماً بعض الوقت .

ومن أبرز الذين كانوا يقومون بالجلب والنقل أخت بلد القبطان ، سيّدة عجوز نحيلة ذات روح حازمة لا تعرف الكلل إلا أنها الى ذلك ذات قلب حنون ، آلت على نفسها - إن هي استطاعت - ألا تدع شيئاً ينقص الباقوطة بعد أن تنساب على الماء . وكانت حيناً تجيء وهي تحمل جرة من المخلّل الى مخزن المون ، وحيناً آخر تحمل حزمة من أقلام الريش لتضعها في درج رئيس الضباط حيث يحفظ سجلّه ، وحيناً ثالثاً لفاقة من الفلانن يحزم بها صلبه من يشكو الروماتزم في ظهره . ليس في الكون امرأة يليق بها اسمها كما كان اسم هذه المرأة لانقأ بها - اسمها « احسان » - العمّة احسان - وبذلك كان الجميع يدعونها . كانت العمّة المحسنة احسان كإحدى راهبات الاحسان والمحبة تنهمك هنا وهناك موجّهة يدها وقلبها لكلّ شيء يبشّر بالسلامة والراحة والعزاء كلّ من على ظهر السفينة التي يرعاها أخوها المحبوب بلدن وتملك هي فيها عشرين أو أربعين دولاراً ادخرتها .

ولكن كان من المفزع أن يرى المرء هذه المرأة الكويكرية الطيبة المتفانية في الخير تجيء الى ظهر السفينة - مثلما فعلت في آخر يوم - وهي تحمل في إحدى يديها مغرفة زيت طويلة وفي اليد الأخرى رمحاً أطول للتحويت . كذلك لم يتخلّف كل من بلدن وفالنج عن أداء واجباتهما ، فأما بلدن فإنه كان يتجول ومعه قائمة طويلة بالحاجات المطلوبة ، وعند وصول أيّ حاجة منها كان يضع علامة إزاءها على الورقة . وأما فالنج فكان يأتي وهو يقزل من كهفه المصنوع من عظم الحوت ويزار في الرجال الموجودين في الداخل أو يرفع زنييره نحو العاملين فوق الحبال عند رأس الصاري ، ويختم ذلك كلّهُ بالزئير وهو يأوي الى عرينه .

وكثيراً ما كنت أنا وكويكوج نزور السفينة أثناء تلك الإستعدادات ، وكثيراً ما سألت عن آخاب القبطان وكيف حاله ومتى يفد الى السفينة . وقد كانوا يجيبونني على هذه الأسئلة

بأنه أخذ في التحسن المطرد ، وأن حضوره الى السفينة متوقع في أي يوم ، وأن القبطانين فالج وبلدد يستطيعان في أثناء ذلك أن يرعيا كل ما هو ضروري كي يجعل السفينة متأهبة للرحيل . ولو كنت صادقاً مخلصاً مع نفسي لرأيت بوضوح في قلبي أنني لم أكن أتصور تمام التصور معنى أن أسلم نفسي لمثل تلك الرحلة الطويلة دون أن تقع عيناى على الرجل الذي سيكون السيد المطلق في الرحلة حالما تأخذ السفينة مجراها في عرض البحر . ولكن حين يشتبه المرء بوقوع ظلم أو خطأ فإنه أحياناً يسعى دون أن يشعر ليخفي شكوكه وشبهه حتى عن نفسه ، إن كان الأمر يعنيه ويملك عليه فكره . تلك هي حالى ولذا لم أقل شيئاً وحاولت أن أبتعد بنفسي عن التفكير .

وأخيراً أعلنوا لنا أن السفينة ، في وقت ما من اليوم التالي ، ستبحر يقيناً ، ولذلك نهضت أنا وكويكوج مبكرين في صباح اليوم الموعود .

ركوب البحر

كانت الساعة تقترب من السادسة والفجر أطلس موشح بالضباب حين اقتربنا من الرصيف .

قلت لكويكوج « إن كان بصري لم يخدعني فهناك بعض البحارة يجرون أمامنا . لا يمكن أن تكون هذه ظلالاً . ستطلع عند طلوع الشمس - فيما أخمن - هيا بنا » .

« قف مكانك » ، صاح صوت يقترب صاحبه على أعقابنا ، ثم وضع يديه على كتفينا ، ثم زج نفسه بيننا ، ووقف منحنيًا بعض انحناء ، في ذلك الشفق المنبهم ، وهو يحدثنا نقلًا بصره بيني وبين كويكوج على نحو غريب .
كان هو ايليا .

- « أتركبان البحر ؟ » .

قلت : « انزع عنا يديك ، أسمع ؟ » .

وقال كويكوج وهو يفلت من يده ، « اسمع أنت . رح » .

- « اذن فلستما مبحرين ؟ » .

قلت : « بل سنبحر فما شأنك أنت ؟ هل تعلم ياسيد ايليا أنني أعتبرك وقحاً متطفاً ؟ » .

فقال وهو ينقل بصره بيني وبين كويكوج في بطنه ودهشة وبظنرات يعجز المرء عن تفسيرها : « لا . لا . لا . لا . لم أكن أدرك ذلك » .

قلت : « هل تفضل علي وعلى صديقي ، يا ايليا ، بالإنسحاب . إننا ذاهبان الى المحيط الهندي والهادي ونؤثر ألا تستوقفنا وتمطئنا » .

- « تذهبان ؟ تذهبان ؟ وترجعان قبل الفطور ؟ » .

قلت : « كويكوج ، إنه « مشعور » . امض بنا » .

فنهتف ايليا المسمّر في مكانه يودّعنا وقد ابتعدنا خطوات : « هالوا ! »

قلت : « لا تأبه به يا كويكوج ، وامض بنا » .

ولكنه لحق بنا ثانية ، وفجأة ربت على كتفي وقال : « هل رأيت أشياء تشبه الأشخاص

ذاهبة نحو السفينة قبل قليل ؟ » .

وهزتي السؤال الذي أصاب حقيقة واقعة فأجبت : « نعم ، أظنني رأيت أربعة رجال أو

خمسة إلا أن الجو كان ممتماً فلست واثقاً من ذلك تماماً » .

فقال ايليا : « معتماً جداً ، معتماً جداً . سعدتما صباحاً ! » وخلفناه مرة أخرى إلا أنه

سرق الخطى خلفنا مرة أخرى ومسنّ كتفي وهو يقول : « جرب إن كنت تستطيع أن تمثر

عليهم . أتفعل ؟ » .

- « أعثر على من ؟ » .

فردد : - « سعدتم صباحاً! سعدتم صباحاً » ثم مضى وهو يقول : « آه! كنت على وشك

أن أحذركما - لكن لا . لا بأس . لا بأس . . . لافرق . . . كل في العائلة أيضاً . صقيع قارس

هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ وداعاً لكما . لن أراكما عن قريب ، فيما أخمن ، إلا أن يكون

ذلك أمام هيئة المحلّفين العظمى » . وانصرف أخيراً بعد أن فاه بهذه الكلمات المتتامة

وتركتني لحظة وأنا مندهش أشدّ الدهشة من وقاحته الممرورة .

وأخيراً اعتلينا ظهر الباقوطة فوجدنا كل شيء في سكون عميق وليس فيها نفس يتردّد .

كان باب القمر مغلّقاً من داخل ، ومنافذ ظهر السفينة كلّها مثبتة في أماكنها ، وقد كدنت

فوقها لفائف الحبال . وحين تقدّمنا من منارة السفينة وجدنا باب المنارة مفتوحاً . ورأينا

ضوءاً فهبطنا ولم نجد هنالك إلا رجلاً عجوزاً من الحبالين وقد تلفّع بصدرة بخار مهلهلة ،

وتمدّد على صندوقين ووجهه الى أسفل وقد طوّقه بذراعيه ، وجثا عليه النوم الثقيل العميق .

- « أولئك البحارة الذين رأيناهم يا كويكوج تراهم أين ذهبوا ؟ » - قلت ذلك ونظرت

في ريبة الى النائم . ولكن يبدو أننا حين كنا على الرصيف لم يلاحظ كويكوج أبداً ما كنت

المرح اليه . ولقد كنت أظنّ نفسي واهماً مخدوعاً من الناحية البصريّة لولا أن ايليا سألني

عنهم سؤالاً لا أعرف له تفسيراً . إلا أنّي أخذت هذه الخواطر وأخذت أرقب الرجل النائم ،

والمحت هازلأ الى كويكوج أن من الخير لنا أن نجلس مع هذا الجسد الممدّد ، وقلت

لكويكوج أن يتخذ لنفسه جلسة تتّفق ووضع ذلك النائم . فوضع يده على قفا الرجل كأنه

يتحسّن إن كان ناعماً وثيراً ثمّ جلس هنالك مطمئنّاً لا يبالي .

قلت : « يا لطف اللما يا كويكوج لا تجلس هنالك » .

فقال كويكوج! « آه : جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا . لا أؤذيه وجهه » .

قلت : « وجهاً أتسمي هذا وجهه ؟ هذا إذن وجه لطيف . لكن ثقيل النفس كأنما يلهث ، قم يا كويكوج! أنت ثقيل الوطأة فوقه ، وذلك يحطّم وجه المسكين . انهض يا كويكوج! أراه سينفضك حالاً . إنني لأعجب كيف لا يستيقظ » .

زحزح كويكوج نفسه وجلس غير بعيد عن رأس النائم وأشعل كدوسه . وجلست أنا عند قدميه . وظللنا نتبادل الكدوس من فوق جسم النائم . وعندما سألت كويكوج ما الذي يعنيه بقوله : « جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا » ، أفهمني بلهجته المكسرة أنهم في بلدهم ، لإنعدام جميع أنواع الطنافس والكنبات ، يعمد الملك والرؤساء والأعيان الى أن يسمّون بعض أبناء الطبقات الدنيا ليأخذوهم مقاعد لهم . وإذا شاء أحدهم أن يزود بيته بمثل هذا الأثاث المريح فعليه أن يشتري ثمانية أو عشرة من « التنايل » ثم يطرحهم في الدواوين والأواوين . ومثل هذا الأثاث الوثير مفيد في الرحلات فهو خير من كراسي الحديقة التي تتحول الى عصي . وأحياناً يستدعى السيّد تابعه فيرغب اليه أن يجعل من نفسه مقعداً تحت شجرة ظليلة أو في مكان رطب تنبسط فوقه المستنقعات .

وبينما كان كويكوج يحدثني بهذه الأمور كان كلّما تسلّم الشبك متي جعل فوهته فوق رأس النائم .

- لم تفعل ذلك يا كويكوج ؟

- سهل كثير ، يقتل - ء - سهل كثير .

ومضى يستعيد ذكريات غريبة عن كدوسه ، وهو - فيما يبدو - ذو فائدتين : ينشر أدمغة الأعداء ، ويسكن روح صاحبه ، وفي تلك اللحظة التفتنا الى الحبال النائم . فقد ملأ الدخان القوي ذلك الوكر الضيق وبدأ أثر ذلك يظهر عليه ، فأخذ يتنفس تنفس المخنوق ثم بدا أن أنفه يضطرب ثم تقلّب مرة أو مرتين ، ثم جلس يفرك عينيه .

وأخيراً تنفّس وقال : « هالو . من أنتما أيها المدخّان ؟ » .

فأجبت : « من المبحرين . متى تطلع ؟ » .

- « أجل . أجل . أنتما ذاهبان فيها . أليس كذلك ؟ تطلع اليوم . جاء القبطان الليلة

الماضية » .

- « أي قبطان ؟ - آخاب ؟ » .

- « ومن سواه ؟ » .

هممت أن أسأله بضعة أسئلة أخرى عن آخاب ، حين سمعنا جلبة فوق ظهر السفينة .
فقال الحبال : «هلا استاربك بدأ نشاطه . إنه رأس الضباط ، حيوي طيب تقي .
ومادمت قد استيقظت فلا بد من أن أتوجه إليه » . وما أن قال ذلك حتى أتجه نحو ظهر
السفينة وتبعناه .

كانت الشمس قد بزغت ساطعة . وسرعان ما أخذ البحارة يقدون مثنى مثنى وثلاث
ثلاث ، ونهض الحبالون وانهمك الضباط المساعدون في العمل ، وانشغل كثير من رجال البر
بجلب آخر الحاجات اللازمة . وفي أثناء ذلك كلّه ظلّ القبطان آخاب مختفياً متوارياً في
جوف قمرته .

عيد ميلاد سعيد

ومن بعد ، وكان وقت الظهيرة وشيكاً ، صرف الحبالون بعد أن جرت الباقوطة من مرساها ، وبعد أن جاءت «إحسان» التي تُذكر ولايفلها النسيان ، في قارب تحويت ، ومعها آخر هدية - قبة مسانيق لصرها اسطب الضابط الثاني ، ونسخة من التوراة لخازن المؤن ، بعد ذلك كَلَّه خرج القبطانان فالج وبلدد من القمرة ، واستدار فالج نحو رئيس الضباط وقال :

- «أنت واثق يا سيد استاربك أن كل شيء على مايرام ؟ القبطان آخاب حاضر - كلمته قبل لحظات - لم نعد نحتاج شيئاً من البر ؟ طيب ، ادع الملاحين جميعاً . احشدهم هنا في الكوثة - قبحهم الله!» .

فقال بلدد : « لا حاجة بنا الى السب والشتم ، يا فالج ، مهما نكن بحاجة الى العجلة . لكن هيا يا صديقي استاربك . نفذ الأوامر» .

كيف يكون ذلك! هاهي السفينة على وشك أن تبدأ رحلتها ، وصاحب الكلمة العليا على ظهرها القبطان فالج وزميله بلدد كأنما سيكونان الأمرين معاً فيها في عرض البحر مثلما كانا في الميناء . وأما آخاب فلا دلالة على وجوده سوى قول القائلين إنه في القمرة . ولكن كل ماقاله فالج وزميله من قبل : إن حضور آخاب غير ضروري بأي حال لرفع المرساة وتوجيه الدفة في عباب البحر ، وذلك قول حق لأن ذلك ليس من مهمة آخاب وإنما هو من عمل الربتان ، ثم أن آخاب لم يكن قد استكمل العاقبة - كذلك قالوا - واذن فلا غرابة أن يغيب عن السفينة وهي راسية . كل هذا يبدو أمراً طبيعياً معقولاً ومما يؤكد ماأعرفه عن السفن التجارية فهناك أيضاً يمضي وقت غير قصير على رفع المرساة قبل أن يظهر القباطنة على ظهور السفن ، وإنما يبقون عند ماندة القمرة ، يحتفون بتوديع

أصدقائهم أبناء البر قبل أن يغادروا السفينة نهائياً مع الرّبان .
ولكن لم يكن لديّ فرصة للتفكير في الأمر ، ذلك أنّ القبطان فالج كان بالغ الحيويّة
والحركة ، وكأنّما هو المسؤول عن الحديث والأوامر ، دون بلد .
فصاح وقد تملكأ البخارة عند الصاري الكبير : « إلى الكوئلة ، هيا يا أولاد الأرامل .
سقمهم إلى المؤخرة ياسيد استاريك » .

وكان الأمر التالي : « انصبوا العريش هناك! » وكنت ألمحت من قبل إلى أنّ هذا
العريش المصنوع من عظام الحوت لا يُنصب أبداً إلا في الميناء ولكن على مدى ثلاثين سنة
كان الأمر بنصب تلك الخيمة على الباقوطة هو الأمر الذي يتلو رفع المرساة توتاً .
وتلا ذلك أمر آخر : « جهّزوا المسحاب . صاعقة تبلمكم! اقفّزوا » ووثب البخارة إلى
العجلات .

وأقول : عند رفع المرساة يكون الموقف الذي يحتله الرّبان في الجزء الأمامي من
السفينة ، ولذلك كنت ترى بلدل منهماكماً في الإشراف على مقدم السفينة ليرى المرساة
الصاعدة ، وهو بين الحين والحين يغني مقطوعة كنيبة من بعض الأناشيد الدينية لينعش
أيدي العاملين عند الدولاب الرافع ويبعث فيهم إرادة وعزماً ، أمّا أولئك العاملون فكانوا
يجأرون كأنهم جوقة يتغنّون بجمال الفتيات في زقاق بوبل . ولاعجب في أن يؤدي بلدل
عمل الرّبان ، فقد كان إلى وظائفه الأخرى رباناً مجازاً بالعمل في الميناء ، وقد اتهمه الناس
بأنه ما أصبح رباناً إلا لكي يسلم من دفع أجره لوظيفة الرّبان في كلّ السفن التي كانت في
ملكه . وأمّا عن تغني العمال بالفتيات فأبني أذكر أنّ بلدل قبل مايقبل عن ثلاثة أيام أخبرهم
بأنه لايسمح بالأغاني الدينية على ظهر الباقوطة ، وأحضرت اخته « احسان » نسخاً صغيرة
مختارة من أناشيد وطس الدينية^(١) ، ووضعت في كلّ سرير بخار نسخة منها .

وفي الوقت كان فالج ، وهو يشرف في الجزء الآخر من السفينة ، يتميّز غضباً ويسب
ويفحش في السباب . وكاد الظنّ يساورني بأنه سيفرق السفينة قبل أن تسحب المرساة .
واتكأت لإرادياً على العتلة التي معي وطلبت إلى كويكوج أن يعمل كما عملت ، وأنا أتصوّر
المخاطر التي نعرّض لها أنفسنا حين نأخذ في رحلة مع شيطان مثله يسقي نفسه رباناً .
وطيبت خواطري المستشارة حين تذكّرت أنّ طريق النجاة قد توجد لدى بلدل التقى رغم
النصيب السابع والسبعين بعد السبعمان ، وحينئذ أحسست بلكمة على أذني فاستدرت ،

(١) هو اسحاق وطس (١٧٧٤-١٧٤٨) نظم أناشيد دينية كثيرة تورّقل في الكنائس البروتستنتية .

وأصابني الرعب عندما رأيت شيخ فالج وهو يسحب رجله من جوارى المصائب . تلك كانت أول ركلة أنالها .

وزأر فالج يقول : « أهذه هي الطريقة التي يرفعون بها المرساة في السفن التجارية! اقفز يارأس الكباش ، اقفز واكسر صلبك . لِمَ لاتقفز؟ أقول : أنتم جميعاً لِمَ لاتقفزون؟ أنت ياكوهوج اقفز . وأنت ياذا الشاربيين الأحمرين! وأنت يا صاحب القبعة الاسكتلندية! وأنت يالابس السروال الأخضر . اقفز . اقفروا جميعاً ، ودعوا أعينكم تثب من محاجرهما » . وما أن نثر هذه الكلمت حتى مضى على طول الدولاب الرافع يستعمل رجله في الركل هنا وهناك جزافاً دون وازع بينما ظل بلدل المحتشم الوقور ماضياً في ترتيلاته . فقلت لنفسي : لا بد من أن يكون القبطان فالج قد شرب شيئاً اليوم .

وأخيراً رفعت المرساة ، ووقف كلّ بخار في مكانه ، وانسابت بنا السفينة . كان اليوم هو عيد الميلاد ، وكان يوماً قصيراً قارس البرد ، وحين ولج النهار الشمالي القصير في الليل وجدنا أنفسنا في عرض المحيط والفصل شتاء ، والرذاذ المتجمد يطوقنا بالجليد كأننا في درع صقيلة . وأخذت صفوف الأسنان على الجوانب تلتمع في ضوء القمر وتدلّت من مقدم السفينة ذلاذل ثلجية منحنية كأنها أنياب فيل عاجية بيضاء .

قام بلدل النحيف - وهو يؤدي وظيفة الرئان - بأول نوبة في الرقابة وظلّت تتردّد نغماته دائماً وأبداً كلما غاصت السفينة القديمة في أحضان البحر الأخضر وأرسلت صقياً راعشاً فوق جسمها ، وجأرت الرياح وقععتت الحبال ، وكنا نسمعه يقول في تنغيه^(١) :

وراء الأمواج العالية حقول حبيبة

قد كستها الطبيعة ثوباً أخضر

كذلك تجلّت كنعان القديمة ليهود

بينما كان يتحدّر الأردنّ خلالها .

لم تقع هذه الكلمات العذبة التي مثلما وقعت عندئذ ، فقد كانت مفصّمة بالأمل والرجاء ، وعلى الرغم من هذا الليل الشتاني القارس في الأطلسي ، على رغم من الرطوبة التي تبيلّ قدمي وتضفي على صدرتي بللاً أغزر بدا لي أنّ الأقدار قد وقّرت لنا في جمعيتها كثيراً من الموائج والملاجئ ، وكثيراً من المروج والمسارب ذات الخضرة الأبدية ، التي

(١) من أناهيد ولس . انظر التعليق السابق .

يهيج فيها العشب في الربيع ويبقى حتى منتصف الصيف دون أن يزوي أو تدوسه الأقدام .

ها قد أصبحنا في عرض من البحر بحيث لم يعد لوجود الربتانيين معنا حاجة ، فبدأ البحارة بإنزال القارب الشراعي القوي الذي حُمل معنا .

كان التأثر الذي ألم بكل من فالج وبلدد - والثاني منهما بخاصة - في موقف الفراق عجبياً غير خالٍ من الامتاع . كانا ينفران من الفراق ، كانا شديدي التكره ليغادرا سفينة مُقدمة على سفرة طويلة مليئة بالمخاطر - تبلغ الى ماوراء الرؤوس العاصفة ، سفينة استثمر فيها بلدد بضعة ألف من دولاراته التي شتمى في جمعها ، سفينة يسافر فيها أحد رفاقه القدامى قبطاناً ، رجل مثله في كبر السن يبدأ مرة أخرى في مواجهة كلّ مرعبات الشدق القاسي الجبار ، كان بلدد ينفر من أن يقول وداعاً لشيء امتلأت جوانحه بكلّ ما يهمنه - فأطال المسكين اللبث ، ذرع ظهر السفينة بخطوات قلقة ، جرى الى القمرة ليقول وداعاً مرة أخرى ، عاد مرة أخرى الى ظهر السفينة ونظر صوب الريح ، نظر نحو الأمواه المترامية التي لا حد لها ، إلا حد من القارات الشرقية النائية التي لا يبلغها البصر ، نظر الى البر ، نظر الى أعلى ، نظر يميناً وشمالاً ، نظر الى كلّ وجهة والى لواجهة ، وأخيراً لف حبلاً حول وتد بحركة آلية ، وأمسك وهو يرتعش بيد فالج القوية ، ورفع القنديل ، ووقف لحظة يحدق بشجاعة في وجهه كأنه يقول له : « مع كل ذلك ، يا صديقي فالج ، أستطيع أن أتحمّل ، نعم أستطيع » .

أما فالج فقد نظر الى الأمر نظرة فيلسوف ، ولكن رغم فلسفته كلها كانت العبارة تترقق في عينه حتى اقترب القنديل منه . وهو نفسه لم يتوقف عن الجري من القمرة الى ظهر السفينة - ملقياً كلمة في الأسفل ، وأخرى الى استاريك ، رئيس الضباط .

ثم تحوّل الى رفيقه في نظرة كأنها الأخيرة وقال : « قبطان بلدد - هيا يا رفيقي القديم علينا أن نذهب - اسندوا دعامة الشراع الرئيسي هنالك هاهو القارب! قفوا جانباً حتى يقترب! باعثناء! باعثناء! - هيا يا بلدد ، أيا الرجل ، قل كلمتك الأخيرة : حظ سعيد لك يا استاريك - حظ سعيد لك يا سيّد اسطب - حظ سعيد لك ياسيّد فلاسك ، وداعاً ، وحظ سعيد لكم جميعاً . بعد ثلاث سنوات من هذا اليوم سأحضّر لكم عشاء ساخناً يتصاعد فوقه البخار في نانوتوكت القديمة - مرحي ومع السلامة » .

فهمهم بلدد الشيخ يقول وكأنه يهذي : « حاطتكم بركة الله ، وجعلكم في حفظه ورعايته المقدسة . أرجو أن تحلّوا في جو جميل كي يتمكن القبطان آخاب من الظهور بينكم

- كل مايريده هو الشمس الممتعة وستجدون وفرة من أشعة الشمس في الرحلة الإستوائية التي تزمعونها . كونوا حذرين في الصيد يا رفاق! لاتكسروا القوارب دون حاجة تستدعي ذلك أيها الحوتون ، إن اللوح من خشب السربين الأبيض الجيد قد ارتفع سعره ثلاثة في المائة . كذلك لاتغفلوا عن الصلوات . وأنت ياسيد استاريك أحرص على أن لايبذد صانع البراميل ذاك تلك الأطواق الفانضة . آه! وإبر الأشرعة مودعة في الدرج الأخضر . لاتحوتوا كثيراً في أيام الأحاد يارجال ، ولكن لاتدعوا فرصة تفلت من أيديكم أيضاً فذلك بطرء وتعجرف على هبات السماء . وأنت ياسيد اسطب خلّ بالك من مكيال الدبس فقد كان يرشح بعض الشيء فيما أظن . وإذا نزلتم الى الجزر ياسيد فلاسك فحذارٍ من الزنا . مع السلامة! مع السلامة! لاتبقوا تلك الجبنة طويلاً في العنبر ياسيد استاريك لتلاً تتلف . دققوا في توزيع الزبدة فقد اشترينا كل رطل بمشرين سنتاً ، واذكروا أنه إذا... » .

- « ييلا ، ييلا يا قبطان بلدد . كفاك هذراً - لنمضوا! » وجره فالج مسرعاً عند جانب السفينة ، وهبطا كلاهما في القارب .

وافترقت السبيل بالسفينة والقارب ، وهبّ النسيم الليلي البارد الرطب يفصل بينهما ، وطارت فوق رؤوسنا نورسة تصيح ، وتدحرج الهيكلان تدحرجاً غريباً . صحنا في قلوبنا الحزينة مرحة ثلاثاً وغصنا على غير هدى ، كأننا القدر ، في الأطلسي الموحش .

الشاطئ الآمن من الريح

قبل فصول^(١) ذكرت شخصاً اسمه بلكنجتون وهو بخار طويل القامة كان قد نزل على البرّ حديثاً ورأيته في الحان في نيوبدفورد .

في تلك الليلة الشتائية المرتعشة عندما طعنت الباقوطة بمقدمتها الموتورة صدر الأمواج الحاقدة المقرورة : من تراه مثل أمامي عند دقتها سوى بلكنجتون ؟

تطلّعت في رهبة مشفقة وخشية الى ذلك الرجل الذي لم تكن قدماه تطآن الأرض ، في منتصف الشتاء بعد رحلة خطيرة استغرقت سنوات أربعمائة ، حتى أثاره القلق فاندفع في فصل آخر عاصف مرة أخرى . لذعت حرارة اليابسة قدميه فيما يبدو . أعجب الأشياء هي التي لا يستطاع ذكرها ، وأعمق الذكريات لا يخلد في شواهد ، وهذا الفصل القصير هو القبر غير الحجري الذي أعدده لبنجكتون . حسبي أن أقول إنّ حاله كانت كحال سفينة تلقت بها العاصفة فهي تتوجه نحو الحمى ، نحو المرفأ الآمن من الريح في ذلة وتعاسة ، ويرخب بها الميناء ويفتح صدره لها ملاذاً فهو عطوف ، آمن ، مريح ، عنده النار والمشاء ، والأغطية الدفيئة والأصدقاء ، وكل ما يولينا عطفاً ولطفاً . ولكنّ اللجوء الى البر أو الميناء في تلك العاصفة هو أسوأ مخاطرة تتعرض لها السفينة ، فهي تريد أن تفرّ من وجه اللطف والبشاشة والكرم ، ولو لمست اليابسة طرف قاعدتها لمسأ لتخلل الإرتعاش جسمها كلّ ، ولذلك تستجمع أشرعتها بكل ما أوتيته من قوة لتبارح الشاطئ ، وفي هذا تقاوم الرياح التي تحاول أن تردّها الى الميناء ، وتندفع الى الرحب اللابري بين ذراعي البحر المتضرب المهتاج . من أجل المأوى تندفع وحيدة في قلب الأخطار وصديقها هو ألد أعدائها .

(١) انظر الفصل العاشر .

أتعلم يا بلكنجتون؟ إني لأحس أنك ترى التماعات من تلك الحقيقة المروعة التي لا تحتمل، إنك لترى أن كل تفكير عميق مخلص فإنما هو جهد جريء تبذله الروح كي تبقى لبحرها انفتاحاً جوانبه وحرّيته الطليقة، حين تتأمر أعتى رياح السماء والأرض لتلجنها إلى الشاطئ الخائن المستمعد المفلول.

في حالة اللابزية وحدها تكمن أعلى الحقائق، لا برّ لها، مطلقاً كالإله. ولذا فخير للمرء أن يهلك في ذلك المطلق الصخّاب من أن تقذف به الأمواج على البرّ، ولو كان هو برّ السلامة. إذ من ذا الذي - وأسفاه! - يؤثر لنفسه حينئذ أن يزحف كالديدنة زحف المهين الهدان إلى البرّ. ياويلات المفزع المرعب! أكل هذا العذاب يضيع سدى؟ كن رابط الجأش، شدّ حيلك يا بلكنجتون! تحمّل وصابر عابساً جاهماً يا صنو الجبارين! من رذاذ بحرك الذي ينضمّ فوق جسدك الهالك، يشبّ عالياً مجدك وجبروتك!

دفاع عن التحويت^(١)

بما أنني أنا وكويكوج قد أقلعنا شوطاً في سفرة التحويت ، وبما أن التحويت نفسه مشنوع السمعة منزور الألق والرواء في نظر أبناء البر لذلك فإني جدّ حريص على أن أقنعكم يا أبناء البر بالظلم الذي ينال صيادي الحيتان في نظرتكم هذه .

أما في المقام الأول فلعلّه من تحصيل الحاصل أن أقرّر بأن مهنة التحويت لاتعدّ بين معظم الناس على مستوى مايسمونه المهن الحرة . فلو أنّ غريباً دخل في مجتمع مديني متنوع الأجناس وقيل للناس هذا حوت لما زاد هذا الوصف في كفاياته عندهم إلا قليلاً ، ولو أنه منافسةً لضباط البحرية أضاف الى اسمه على بطاقته هذه الرموز (ص . ح . ع .) أي صياد حوت العنبر لرأى الناس في عمله هذا شيئاً عجرباً مضحكاً .

ولا ريب في أنّ من أكبر الأسباب التي تجعل العالم يحرمنا التمجيد ، نحن الحواتين ، هو أنّ الناس يظنون بأن مهنتنا في خير أحوالها لاترقى إلا الى نوع من الجزارة ، وأننا حين ننهك فيها فإنما يحيط بنا كلّ نوع من الدم والدنس . جزأرون نحن ، ذلك صحيح ، ولكنّ ماذا عن القادة العسكريين الذين يغتبط العالم على اختلاف نواحيه في تمجيدهم وتكليل رؤوسهم بالفار! أليسوا جزأرين ، وجزأرين يحملون أقنى شارة دموية ؟ أما عن الدنس المزعوم في مهنتنا فإني سألقي اليكم بعض الحقائق التي ماتزال مجهولة بوجه عام ، وهي على الجملة ستضع حرفة صيد حوت العنبر بين أنظف الأشياء على هذه الأرض النظيفة . ولكن لو سلّمنا بأن هذه التهمة صحيحة فإني ظهر سفينة فوضوي زلق بما ساح فوقه من دماء يمكن أن يقارن بمجزرة في ميدان القتال لايحقّها وصف ، ويرجع منها كثير من الجنود

(١) مظّم هذا الفصل استمده ملفل - روحاً وأفكاراً - من الفصل الحادي عشر من كتاب بيل «نشوء حرفة صيد حوت العنبر وتطورها» وكذلك أوحى إليه سكورسبي ببعض الأفكار .

ليشربوا نخب وداد جميع السيّدات ؟ وإذا كانت فكرة الخطر تزيد في تصوّرات الناس عن حرفة الجندي فلأؤكد لكم أنّ كثيراً من المجتدين الذين يمشون الى المدفعية طوعاً خواطرهم يخيمون ناكسين إذا لاح لهم شبح ذنب حوت العنبر وهو يحرك الهواء دوامات فوق رأسه . أيّ شأنٍ لأهوال الإنسان التي لاتفوت حدّ التصوّر إذا أنت قارنتها بأهوال الله وعجائبه المتواشجة ؟

ولكن مع أنّ العالم يزدرينا نحن الحواتين إلاّ أنّه يولينا - غافلاً - أعمق آيات الولا . والخشوع . أجل ، يقدّم لنا إجلالاً وفيراً غزيراً ، ذلك أنّ جميع القناديل والمصابيح والشموع التي تشتعل في جميع أرجاء الكرة الأرضية فإنّما تضاء في مجدنا كما تضاء أمام قبور القديسين والأولياء .

بل انظر الى هذه المسألة تحت أضواء أخرى ، زنها بكلّ ضروب الموازين وانظر ما نحن الحواتين وماذا كنّا :

لِمَ كان لدى الهولنديين في أيّام دي ويت أمراء بحر (أميرالات) لأساطيل التحويت ؟ لِمَ جهّز لويس السادس عشر ملك فرنسا على حسابه سفناً لصيد الحيتان أرسلها من دنكرك ، وتلطف فدعا الى تلك المدينة عشرين أو أربعين عائلة من جزيرتنا ناتوكت ؟ لِمَ دفعت بريطانيا بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٨٨ الى حواتيها هبات تربو على مليون جنيه ؟ وأخيراً كيف تأتّى أن أصبح حواتو أمريكا يربون على حواتي العالم مجتمعين في العدد ، وأنّ لديهم اسطولا من سبعمئة سفينة يعمل فيه ١٨ ألف رجل ويكلف في العام أربعة ملايين من الدولارات ، وتسوي السفن فيه أيّام الإقلاع ٢٠ مليوناً من الدولارات ، وتحضر كلّ عام الى موانئنا غلّة تقدر بسبعة ملايين . كيف كان كلّ ذلك إذا لم يكن في حرفة التحويت شيء ذو حول وطول ؟

وهذا لا يبلغ نصف الحقيقة بعد ، فاسمعوا أيضاً :

أؤكد لكم دون جمجمة أنّ الفيلسوف العالمي لا يستطيع - حياته - أن يدلّنا على أيّ عمل سلمي أقرّ خلال الأعوام السّتين الماضية بقوة وكفاية في العالم الواسع كلّه - مجتمعاً - بأكثر من تأثير مهنة التحويت ، تلك المهنة السامية الجبّارة . فقد ولدت على نحو أو آخر أحداثاً هامة في ذاتها ، هامة خالدة فيما نجم عنها من أحداث مسترسلة حتى لتعدّ حرفة التحويت كتلك الأم المصرية التي كانت تحمل في بطنها بنات يولدن حاملات أيضاً . وربما كان عدّه هذه الأحداث مهمّة لا تطاق ولا تقف عند غاية فلنكتفِ بحفنة منها : منذ سنوات عديدة مضت كانت حرفة التحويت رائداً في الكشف عن أقصى أرجاء الأرض المجهولة ،

فقد استكشفت بحاراً وأرخبيلات لا خرائط لها ، حيث لم يبلغ مستكشف مثل كوك وفانكوفر ، وإذا كان المحاربون الأمريكيون والأوروبيون يركبون بأمان فيما كان من قبل موائي للمتوحشين ، فعليهم أن يطلقوا نيراهم تحية لشرف سفينة التحويت ومجدها ، فهي التي مهدت لهم الطريق في البداية ، وكانت الترجمان بينهم وبين المتوحشين . إنهم قد يمجّدون ذكرى أبطال الرحلات الاستكشافية مثل كوك وكروزنشترن^(١) ومن لف لفهما . ولكني أقول إنّ عشرات من القباطنة المجهولين الذين أبحروا من ناتوكت كانوا كهؤلاء المكتشفين عظمة بل أعظم من كوك وكروزنشتون لأنهم وهم العزل الذين لا يجدون نصيراً تمرّسوا في البحار الوثنية المليئة بالقرش وعند شواطئهم جزر لم تقيد لها في المصورات الجغرافية أسماء وأهلها من رماة الحدق ، تمرّسوا بالحرب ضدّ عجائب وأهوال بكر لا يجرؤ أن يتمرّس بها كوك عن طيب خاطر بكلّ ما معه من قوى بحرية وبنادق ، وقد ألف الأبطال أهالي ناتوكت مايزهو بعمله سواهم من الناس في الرحلات الى البحار الجنوبية حتى أصبحوا لا يعدّونه إلاّ مبتدلاً هيناً من الأعمال . فالمغامرة التي يخصّص فانكوفر لسردها ثلاثة فصول لا يعدّها أولئك الأبطال جديرة بالتسجيل في سجل السفينة العمومي ، ولكن آه من العالم وواها له!

لم يكن من تجارة بل من صلة أية صلة بين أوروبا وذلك الخطّ الغني من الولايات الاسبانية على ساحل المحيط الهادي حتى استدار التحويت حول رأس هورن ، اللهم إلا أن تكون صلة بين البلد الأم ومستعمراتها أو تجارة قائمة بينهما . وكان الحوات أول من ثلم حدّ السياسة الغيرى التي يتبعها التاج الاسباني حين تعرف الى تلك المستعمرات . وقد أبينّ بوضوح - إن سمح لي حجم الكتاب - كيف أنّ تحرير بيرو وشيلي وبوليفيا من نير اسبانيا وإنشاء ديموقراطية خالدة في تلك المناطق إنّما يُعزى الى أولئك الحواتين .

أما أمريكا العظمى في الجانب الآخر من الكرة ، تلك التي نسميها استراليا ، فإنّ الذي كشف عنها الفطاء وقدمها للعالم المستنير هو رجل حوات ، إذ بعد أن استكشفتها أحد الهولنديين خطأ ظنّت السفن تتجنّب الدنو من شواطئها زمناً طويلاً لأنّ همجيتها تشبه الداء الوبيل ، إلاّ سفن التحويت فقد كانت تحاذي شواطئها وتدنو منها . إذن فإنّ سفينة التحويت هي البلد الأم الذي تنتمي اليه تلك المستعمرة القوية اليوم . زد الى ذلك أنّ المهاجرين الأول في العهد الأولى من الإستيطان باستراليا كانوا يواجهون المجاعات

(١) آدم ايفان كروزنشتون (١٧٧٠-١٨٤٦) أول روسي طاف حول الكرة الأرضية وكان ملغل يعرف حق المعرفة رحلته حول العالم .
١٨٠٢-١٨٠٦ ع .

ولم ينقذهم مراراً من الموت جوعاً إلا البسكويت السخّي الذي كانت توزّعه سفن التحويت حين ترسو لحسن حظهم في مياهمهم . وتشهد جزر بولينيزيا التي لا تحصى عدداً بهذه الحقيقة نفسها وتؤدي فروض الولاء التجاري لسفينة التحويت التي مهّدت الطريق أمام المبشر والتاجر ، وحملت المبشرين الأولين في كثير من الأحوال الى حيث ينشرون تعاليمهم . وإذا كان لليابان ، تلك البلاد المسوّرة المغلقة ، أن تصبح بشوشاً مضيفة فلن يرجع الفضل في ذلك إلا لسفن التحويت ، لأنّ هذه السفن تقف على عتبة تلك البلاد .

فإن لم يقنعك كلّ هذا وذهبت تقول أنّ حرفة التحويت لا تشتمل على ماهو شريف رفيع من الناحية الجماليّة ، فإنني على استعداد لأحطّم في مبارزتك خمسين رمحاً حول هذه النقطة ، وأنزلك عن جوادك كلّ مرة وخوذتك قد شقّت نصفين .

تقول بزعمك : لم يكتب عن الحوت مؤلف مشهور ولا أرخ مهنة التحويت مؤرخ ذائع الصيت .

أقول ذلك ، وفتح به فمك على مصراعيه ، قل لي إذن من كتب أول خبر عن الحوت العظيم (اللويثان) ؟ أليس هو أيوب مضرب المثل في الصبر ؟ ومن كتب أول حكاية عن رحلة لصيد الحوت ؟ ألم يكن أميراً ؟ أليس هو ألفرد العظيم الذي أمسك بقلمه الملكي ودون كلمات أوتر الحوات النرويجي في تلك العصور ؟ ومن هو الذي ألقى عنا مديحاً رناناً في قاعة البرلمان ؟ من سوى أدمند بيرك ؟ وتقول زاعماً : كلّ هذا صحيح ولكنّ الحواتين أنفسهم شياطين بؤساء ليس في عروقهم دماء نبيلة .

ليس في عروقهم دماء نبيلة ؟ بل دماؤهم خير من الدم الملكي . ذلك أنّ جدّة بنيامين فرانكلين هي ماري موريل ، ثمّ أصبح اسمها بعد الزواج ماري فولجر وهي من أوائل المستوطنين القدامى في نانتوكت ومن أبنائها وحفدتها عدد كبير من عائلة فولجر ومن الحواتين وكلّهم من أقرباء بنيامين العظيم ، يقذفون بالحديدة المزججة من طرف في العالم الى طرف .

وتقول : هذا حسن . إلا أن الجميع يقرّون أنّ التحويت مهنة غير محترمة .
ومن أنبأك هذا ؟ والتحويت ملكي المنزع ، فقد أقرّ القانون الدستوري الإنجليزي القديم أنّ الحوت «سمكة ملكية»* .

* انظر مزيداً عن هذا الموضوع في فصول تالية .

فترة قانلاً ، آه إنمّا هذا شيء اسمي ، فإنّ الحوت لم يدخل مرة واحدة في مناسبة فحمة جليّة .

أتى لك هذا ؟ ألا تعلم أنه في حفلات النصر التي أقيمت لقائد روماني وهو يدخل عاصمة العالم ، جلبت عظام الحوت من الساحل الشامي ، وكانت أبرز شيء في ذلك الموكب الصاحب^(١) ؟

فتجيب : صدقتُ ما تقول مادمت أنت ترويه ولكن قلّ ما تريد فليس في التحويت عزّة أصيلة .

ليس في التحويت عزّة ؟ عزّة حرفتنا تشهد بها السماء . في سماء الجنوب كوكب اسمه « القاطوس » أي الحوت ، ولا أزيد . شدّة قبمتك أمام القيصر واخضعها احتراماً لكويكوج ، ولا أزيد . عرفت رجلاً صاد في حياته ثلاثمائة وخمسين حوتاً ، وأنا أعدّ ذلك الشخص أبلغ شرفاً من ذلك القائد القديم الذي كان يتمدح بأنه فتح هذا العدد من المدن المحصنة .

وأما أنا ، فإنّ قدر لي أن يكتشف الناس فيّ مجدداً لم يستبن من قبل ، وإذا أصبحت جديراً بأيّ صيت حق في ذلك العالم الصغير - العالم ذي الصيت البليغ الذي أطمح إليه طموحاً له ما يسوغه ، وإذا أذيت بعد اليوم شيئاً خليقاً بالإنسان أن يؤذيه على أن يتركه دون أداء ، وإذا وجد من يصقون تركتي - بل دانني على وجه أدقّ - مخطوطة نفيسة في درج مكتبي فأنا هنا أعزو ، وأنا استشرف المستقبل ، كلّ شرف ومجد الى حرفة التحويت ، إذ أنّ الجامعة التي تخرّجت فيها هي سفينة صيد الحيتان ، فقد قامت في حياتي الثقافية مقام هارفارد وبيل .

(١) قبل إنّ ماركس ايبليوس سكارس أخذ الى روما هيكل حوت كان قد قدّمه البحر عند ميناء يافا .

تذييل

في الدفاع عن معنى العزة في التحويت يسرّني أن لا أقدم شيئاً سوى حقائق جوهرية . ولكن بعد أن يعدّ المحامي شواهد ، أترأه يعطل مايعرض له من حدس معقول ينبىء عن القضية بحجة ناصعة وبيان ذليق ؟ أليس مثل هذا المحامي - إن فعل ذلك - مظنة لوم ؟

من المتعارف المشهور في تتويج الملوك والملكات حتّى المحدثين منهم أن يتدرّجوا خلال خطوات غريبة من «التدشين» تجعلهم صالحين لما يناط بهم . فهناك مايسمونه «مملحة الدولة» . كيف يستعملون الملح على وجه الدقة ؟ - من يدري ؟ أنا واثق على أيّ حال أنّ رأس الملك «يزيت» يوم التتويج ، كأنه صحن سلطة . أترأهم يمسحونه بالزيت رجاء أن يجعلوا ما في داخل رأسه يتحرك ويعمل في يسر مثلما يزيّتون الآلات ؟ ها هنا شيء . كثير يصلح للنظر والتأمل حول هذه العزة الأصيلة لهذا الصنيع الملكي ، لأننا في شؤون الحياة العامية ننظر باحتقار وازدراء الى المرء الذي يدهن شعره ، وتدّيع منه رائحة الزيت . والواقع أنّ الرجل الناضج الذي يستعمل زيتاً لشعره يعدّ مهزوزاً في جانب من جوانب نفسه ، إلاّ إن وصف له الطبيب ذلك . ومن القواعد العامة أنه في جملة لا يبلغ شيئاً كثيراً .

لكنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي نوّد أن نقف عنده في هذا المقام : أيّ نوع من الزيت يستعمل في حفلات التتويج ؟ طبعاً لا يمكن أن يكون هو زيت الزيتون أو زيت «مكسّر» لتقوية الشعر أو زيت الخروع أو زيت الدبّ أو زيت القطارات أو زيت كبد البكلاه . اذن ماذا يمكن أن يكون سوى زيت العنبر في حاله الطبيعية الصافية دون شوب ، زيت العنبر أحبّ الزيوت جميعاً ؟

فكروا في هذا يانسل البريتون الناشئين على الطاعة . إننا نحن - الحواتين - نزود
ملوككم وملكاتكم بالمادة الصالحة للتويج .

فرسان ووصفاء

كان استارباك رئيس الضباط في الباقوطة من أهالي ناتوكت ومن أتباع المذهب الكويكري بالولادة ، وكان رجلاً طويلاً جاداً ، ذا بنية مناسبة لتحمل المناخ الحار ، وإن ولد على ساحل جليدي . إذ كان لحمه عاسياً مضمرّاً كالبسكويت الذي دخل الفرن مرتين . وبما أنه قد نقل الى جزائر الهند فإنّ دمه أصبح لايتلف كالجمعة المعبأة في القناني . ولا بدّ من أنه ولد أيام سنة مُسَنِّتة أو مجاعة جائحة أو في أحد أيّام الصوم التي يُعرف بها بلده . وقد شهد ثلاثين صيفاً أعجف ، جففت في بنيته كلّ الحواشي وضمرت كلّ موضع رخو ، فإذا هو ناحل قضيف ، وليس نحوه علامة على الهموم والأوصاب المضنيّة ، ولا هو دلالة على آفة تنحت الجسم ، وإنّما هو ضمور وحسب . ولم يكن أبداً دميم المنظر بل كان على الضدّ من ذلك ، إذ كانت بشرته الصافية الضيقة المشدودة لبوساً ممتازاً فتلبس هو بها مُحَكَمَةً مُقَدَّرَةً ، وطيب من داخل بالقوة والعافية كأنه مصريّ محتط ، فبدا وكأنّما هو مستعدّ للبقاء أجيالاً طويلة ، مستعد أن يظلّ في كلّ حين كما هو في الحال الراهنة . وسواء أكان هنالك جليد قطبي أو شمس استوائية فهو في كلّ الأحوال كآلة التوقيت الموثوقة ، تكفل له حيويّته الداخلية أن يؤدي مهمته في جميع أنواع المناخ . وإذا نظرت في عينيه بدا لك وكأنّما ترى فيهما أخيلة لاتزال ماثلة من آلاف الأخطار التي واجهها في حياته بثباتٍ وسكينة . إنه رجل رابط الجأش حازم ، كانت حياته في معظمها رواية ذات «حركات معبّرة» لا فصلاً خاملاً من الأصوات . لكنه كان ، على رصانته الجريئة وجلده الجسور ، ذا صفات تؤثر أحياناً في سائر مميزاته وتكاد ترجح بها في أحيان أخرى . كانت يقظة الضمير لديه غير مألوفة في البخارين وكان قد وهب الخشوع الطبيعي العميق ، لذلك نزعته به الوحدة الموحشة على الماء نزوعاً قوياً الى الخرافة ، إلا أنه نوع

من الخرافة يبدو في بعض الظروف وكأنه نابع من الذكاء لا من الجهالة . كان يؤمن بالنذر الخارجية ويصفي الى صوت الشعور بالشؤم في دخيلة نفسه . وإذا استطاعت هذه الأمور أن تحني فولاذ روحه أحياناً ، فإنّ الذكريات العائلية عن زوجه وطفله في منطقة «الرأس» كانت تنزع الى أن تثنيه عمّا في طبيعته من حزنونة أصيلة وتزيد من تعريضه لتلك المؤثرات الكامنة التي إذا أصابت ذوي بعض أصحاب القلوب الشريفة كبحت لديهم تدفق الجراءة التي تشبه جراءة العفاريث ، وهي الجراءة التي تتجلى كثيراً لدى الآخرين في أشد صروف الصيد أخطاراً . كان استاريك يقول : « لا أريد من يرافقتني في قاربي إلا أن يكون امراً يخشى الحوت » . ويبدو أنه كان يعني بهذا القول أنّ أشد الشجاعة نفعاً وأحسنها ممتداً هي التي تنشأ من تقدير الخصم لخصمه وحسبان خطره المرتقب ، كما يعني أنّ من لا يعرف الخوف يُعدّ رقيقاً أخطر على صاحبه من الرعديد الجبان .

فكان اسطب الضابط الثاني يجيبه : « أجل يا استاريك ها هنا رجل « حويط » ليس في كلّ الصيادين مثله » . وبعد صفحات غير كثيرة ستعرف ما تعنيه كلمة « حويط » بدقة حين يستعملها رجل مثل اسطب أو أي واحد من صيادي الحيتان .

لم يكن استاريك ذا حماسة تسمى لركوب الأخطار ، لم تكن الشجاعة فيه وقدة عاطفية ، بل كانت شيئاً مفيداً له ، قريباً من تناول يده في كلّ الظروف العملية الخطيرة . ولعله كان يتصور أنّ الشجاعة في مهنة التحويت إنّما هي جزء من الزاد الذي تزوّد به السفينة ، شيء شبيه بما تحتاجه من الخبز واللحم ، لا يجوز استهلاكها وتضييعها بسوء التدبير ، ومن ثمّ لم يكن يميل الى التحفّز لصيد الحيتان بعد الغروب ولا الى الإصرار على مقاتلة السمكة التي تصرّ على الثبات في مقاتلته . إذ كان استاريك يقول لنفسه : « أنا هنا في هذا المحيط المحرّج لأقتل الحيتان كي أعيش ، لا لتقتلني الحيتان كي تعيش » ، وكان استاريك يعلم أنّ مئات من الرجال خرجوا يبحثون عن مثل غايته ولقوا مصارعهم . إذ ما هو المصير الذي لقيه أبوه ؟ وأين في الأعماق التي لا تقرار لها يمكن أن توجد أضلاء أخيه ؟

فإذا اعتبرت هذه الذكريات التي تخايله وقدّرت أنه يستسلم الى الإيمان بالخرافات - كما أشرت من قبل - وجدت أنّ شجاعته التي تستطيع بعد كلّ هذا أن تتحقّق وتنتقل إنّما كانت شجاعة متطرّقة غاية في وفرتها . ولكن حين يكون مثل هذا الرجل على هذه الفطرة وعلى مثل تلك التجارب والذكريات المهولة فإنّ من المعجز أن تقصّر هذه الأمور المستكنة في نفسه عن أن تولّد فيه عنصراً قد ينطلق في الظروف الملائمة من مكمنه ويعصف بما

لديه من جرأة وشجاعة . وعلى مبلغ ما كان يتمتع به من شجاعة فإن شجاعته كانت من النوع الذي تراه في بعض الجراء الباسلين الذين تقف جرأتهم ثابتة لا تتزعزع ولا تنكل ماداموا يصارعون البحر أو الرياح أو الحيتان أو أي مفزع من مفزعات عالم الطبيعة إلا أنها تعجز عن أن تقف موقف الند من مفزعات أشدّ هولاً لأنها أعلق بالنفوس ، مفزعات تنطلق متوعدة من رجل محرب قويّ ساخطٍ عاقدٍ ما بين حاجبيه .

ولكن إن كانت القصص التالية ستكشف في بعض أمثلتها تهوراً تاماً من شأن شجاعة استاربك المسكين ، فقلّما أجد قلبي يطاوعني على تدوينها ، لأنّ من أشدّ الأمور إثارة للأسى والأسف ، بل من أشدها زعزعة للشعور ، أن تعرض على الناس تهاوي الشجاعة في الروح . فقد يكون الناس ممنوعين حين تراهم في شركات مساهمة أو أمم ، وقد يكون بين الناس محتالون وحمقى وسفاحون ، وقد تكون لهم وجوه دينية هزيلة ، ولكنّ الإنسان ، في المستوى المثالي ، مخلوق كريم المعنى سامٍ وضاء ، وهو جدير إذا انكشفت لديه هنة تشينه بأن يسرع إليها رفاقه ويستروها بأغلى مالداهم من أردية . تلك الرجولة الطاهرة نحستها في دخيلة أنفسنا ، في أعماق أعماقنا ، حتى لتظلّ سليمة لم يمسسها سوء وإن اندثرت كل السمات الخارجية ، إنها لتنزف وهي تتلوى بأصدق الألم كلما شهدت منظر امرئ محطّم الشجاعة بارزاً للحوت . بل إنّ روح التقوى نفسها لاتملك إزاء هذا المنظر المخجل أن تكبح في نفسها لومها للأقدار ، غير أنّ هذه الأنفة التي أتحدت عنها ليست أنفة الملوك والطيلسانات وإنما هي أنفة وفيرة ليس لها كسوة من طيلسان . تراها تلتمع من ذراع امرئ يحمل معولاً أو يدقّ مسماراً ، هي أنفة ديمقراطية تنزل على الأيدي نوراً أبدياً من عند الله ، من الله الأول والآخر ، مثابة الديمقراطية وفلكها ، الكلّي الوجود الذي جعلنا سواسية على أرضه .

فإذا أنا بعد اليوم نسبت الى أحقر البخارة والخلاء والمنبوذيين أسمى الصفات وإن كانت قاتمة ، ونسجت من حولهم أمجاداً مأساوية ، وإذا استطاع أشدهم جزءاً - ولعله أن يكون أكثرهم نصيباً من الزرية - أن يرفع نفسه في بعض الأحيان الى الذرى الشاهقة ، وإذا سكبت على ذراع ذلك العامل ضوءاً أثيرياً ، وإذا نشرت قوس قزح أمام غروب شمسهِ الفاجع ، فانصرتني في موقعي على كلّ ناقد يسلقني بلسانه الحديد يا نع المساواة التي نشرت فوق جميع الناس رداءً واحداً سامياً هو رداء الإنسانية . انصرتني في موقعي هذا أيها الرب ، يا رمز الديمقراطية الأعظم ، أنت يامن لم تحرم «بنيان» ، الجاني الأسود من نعمة الشعر ، أنت يا من كسوت بأوراق مطرقة من رقيق الذهب ذراع ثرفانتس الشيخ حين بترت

وأخذ من أجلها يستكف الأيدي ، أنت يا من أنقذت أندرو جكسون^(١) من اللصوق بالدقعا
وأعطيته حصان فارس محارب ورفعه الى ما سما به فوق العروش ، أنت يا من تنظر الى أبناء
الأرض من عليائك وتختار أحب أحبائك فيهم من عامة الناس الذين يشرقون الملوك ، أنت يا
رب ، انصرتني في موقفي وأيدني وتقبل مني يا ذا المن والطول .

(١) أندرو جكسون رئيس الولايات المتحدة ١٨٢٩-١٨٤٧ . ترقى عام ١٨٤٥ بعد أن عاد مفلج الى الولايات المتحدة وبدأ حياته
الأدبية .

فرسان ووصفاء

أما اسطب الضابط الثاني فكان من أهل رأس كد ولذلك كانوا يسمونه ، حسب العادة المحلية المتبعة ، «الراسكدي» : هَيِّنْ لَيِّنْ ، لا هو جبان ولا هو شجاع ، يواجه الأخطار كيفما جاءت في هيئة من لا يبالي . ويظل وهو منهمك في أشد أزمت الصيد منهوك من شدة الإعياء ، هادئاً مستثبت النفس كأنه صانع يعمل منهمكاً طوال العام . طيب المزاج يَسِرُّ سَبَهَلِّي ، يتصدّر قارب التحويت كأن أشد لقاء مميت مع الحوت ليس سوى مائدة عشاء وبحارته ضيوف حولها . ذو اهتمام خاص بتنفيذ الجزء الخاص به من القارب على نحو مريح ، مثلما يهتم سائق العربة التي تخص المسرحح بالاطمئنان على صندوقه . وحين يكون قريباً من الحوت ، في غمرة الموت ، يصرف رمحه الغشوم ببرود وبداهة كما يصرف «السمكري» مطرقته وهو يصفر . قد يهمهم بالنفحات القديمة التي يرددها البحارة حين يكون جنياً لجنب مع أعتى حوت مستشيط الغضب . طول التمرس قد جعل شدقي الموت كرسياً مريحاً لدى اسطب . ولا أحد يعلم كيف كان يتصور الميت ، بل لعلّ من حق المرء أن يتساءل : أترأه تصور الموت أبداً ؟ ولكن ان اتفق له أن وجّه فكره تلك الوجهة بعد عشاء لذيذ ما يفعل البخار الطيب فإنه كان يعتبره نوعاً من دعوة أصحاب النوبة ليشبوا الى الحبال العليا ويقفوا متأهبين هنالك فاذا وثب معهم عرف الشيء الذي من أجله وثب حين امتثل للأمر ، لا قبل ذلك .

ولعل هناك شيئاً - بين سائر الأشياء الأخرى - جعل اسطب يسراً سجيحاً ، غير هَيَّاب ، ينقل خطواته فارعاً مستبشراً وقد حمل عبء الحياة في عالم مليء ببائعي السقط الجاهمين العابسين الذين انحنى أصلابهم تحت ثقل بضاعتهم ؛ شيئاً استخرج منه طيب مزاجه ودعابته التي تبلغ حد الاستخفاف بالتدين ، أما ذلك الشيء فهو غليونه ولا بد . ذلك أن

غليونه الصغير القصير الأسود كان كأنفه واحداً من قسّمات وجهه الثابتة . ولا تستكثر أن يبرز من منامته في السفينة دون أنف اذا حسبت أنه يستطيع التخلي عن غليونه ، فكلّ الأمرين سواء . ولديه صف كامل من الغلايين معبأة جاهزة قد ثبتها في لوحة مسنّنة وجعلها في متناول يده ، فاذا دخل غرفته دخنها جميعاً على التوالي ، مشعلاً واحداً منها من الآخر حتى النهاية ، ثم عبأها مستأنفاً ووضعها جاهزة حيث كانت . ذلك أن اسطب حين يرتدي ثيابه يضع أولاً غليونه في فمه بدلاً من أن يدخل رجليه في سرواله .

أقول : إن هذا التدخين المستمر قد كان في الأقل سبباً واحداً في مدّه بتلك الصفات الخلقية الخاصة ، اذ كل امرئ يعلم أن هذا الهواء الأرضي ، سواء أكان على البر أو على الماء ، تنتقل اليه العدوى بسرعة من تعاسات لا تحصى ، نَفّسها من لا يحصرون من الأحياء الذين لقوا حتفهم ؛ ومثلما أن الناس في أيام وباء المرض الأصفر يمشون وقد وضعوا على أفواههم مناديل مضمخة بالكافور كذلك فعل اسطب في مواجهة البلايا والمحن التي تصيب بني الانسان ، اذ اتخذ من دخان الطباق وقاءً يصدّه به العدوى عن نفسه .

أما الضابط الثالث فهو فلاسك من أهالي تسبري في فينارد التابعة لمرتا . شاب قصير القامة صلب العود ، أحمر اللون ، شرس فيما يتصل بالحيّتان كأنه يتصوّر أن الحيّتان العظمى قد أهانتة في شخصه ونسبه ، ولذلك كان إهلاكها كلما عرضت له من سمات النخوة والأنفة . وقد فُقد كل احساس بالإكبار للعجائب الكثيرة التي تصدر عن الحيّتان في حجوماها الهائلة وطرائفها الغريبة ، ومات لديه كل خوف من الأخطار التي يمكن أن تنجم عن لقائها حتى كان رأيه الغائل يصوّر له أن الحوت العجيب ليس إلا نوعاً من فأر تضخم وانتفخ أو لعله جرد مائي لا يتطلب منه إلا قليلاً من المخادعة بعض الوقت والجهد كي يقتله ويشويه . هذه الشجاعة الحمقاء اللاواعية جعلته هازلاً بعض الشيء في شؤون الحيّتان فهو يتبعها من أجل التفكه ، ورحلة حول رأس هورن يقضي فيها ثلاث سنوات ليست لديه إلا دعابة مرحة تستمر طوال ذلك القدر من الزمن . وقد ينقسم الناس في فريقين على نحو ما تنقسم مسامير النجار في قسمين ' منحوتة ومصنوعة ، وإلى الفريق المصنوع ينتمي فلاسك ، اذ صنع لكي يثبت محكماً مشدوداً ويبقى أمداً طويلاً ؛ كانوا يسمونه : «الدعامة الكبرى» على ظهر الباقوطة لأنه في هيئته يمكن أن يشبه بتلك الخشبة القصيرة المربعة التي يطلق عليها ذلك الاسم حواتو المناطق القطبية وهي بما يزوج فيها من خشبات جانبية مستعرضة تحمي السفينة من الارتجاجات الجليدية في تلك البحار المصطفقة .

كان هؤلاء الضباط الثلاثة ، استاريك واسطب وفلاسك ، رجالاً ذوي شأن وخطر . فقد

أجمع الرأي على أن يكونوا قادة ثلاثة من قوارب الباقوطة ؛ وفي التسبئة العظمى للمعركة التي قد يقود فيها آخاب القبطان جيوشه لتتقض على الحيتان يمثل هؤلاء الثلاثة مركز القواد في الفيالق ، وإذا اعتقل الجيش حراب التحويت الطويلة النفاذة كان هؤلاء ثالثاً مختاراً من الرماحين بينا الصيادون الآخرون هم الزراقون .

وبما أن كل ضابط أو قائد في حملة الصيد يصاحبه ، كالفارس القوطي في الأزمان القديمة ، مَوْجَهٌ للدفة في القارب أو زراق برمحه يقدم له في بعض الأحداث والظروف سناً جديداً إذا التوى الأول أو انحنى عند الهجوم ، وبما أن الاثنين يقيمان فيما بينهما صلة وثيقة وصداقة حميمة لذلك أرى من المناسب أن أثبت في هذا المقام شيئاً عن زراقة الباقوطة ولأي قائد ينتمي كل منهم .

واذكر منهم كويكوج أول من أذكر فقد اختاره استاريك رأس الضباط وصيفاً معاوناً . ولكنكم تعرفون كويكوج فلا حاجة بي إلى التحدث عنه .

ثم اذكر طاشطيقو ، وهو هندي عريق خالص من جاي هيد أبعد قمة في فنيارد التابعة لمرتا غرباً ، حيث لا تزال آخر قرية من الحمر طالما زودت جزيرة نانتوكت المتاخمة بأجراً حواتيها الزراقين . وهم بين الصيادين يعرفون بنسبتهم فيقال فيهم «الجايهيدون» . وطاشطيقو هذا ذو شعر مسترسل متهدل أسود ، وخدين بارزي العظام ، وعينين نجلاوين حوراوين ، شرقيتين في اتساعهما ، قطبيتين جنوبيتين في تعبيرهما المتألق - صفات تتحدث أنه وريث الدم النقي من أولئك الصيادين المحاربين المختالين الذي جابوا ، وأقواسهم في أيديهم ، الغابات العاديّة في تلك الأرض وهم يطاردون على الموط في نيوانجلند ، ولكن طاشطيقو لما كفّ عن استنشاء ربح الوحوش البرية في الغابات أخذ يقص أثر الحيتان الكبيرة في البحار ، وهكذا حلّ الرمح السديد الذي يحمله الابن محل السهم الصائب الذي كان يرسله الآباء . وإن أنت نظرت الى العضل الأصحم في أعضائه الافعوانية كدت تؤمن بخرافات بعض البيورتان الأوائل وأوشكت أن تصدق بأن هذا الهندي المتوحش ابن أمير القوى الهوانية . كان طاشطيقو وصيفاً لدى اسطب الضابط الثاني .

وثالث الزراقين اسمه دغة ، زنجي متوحش فحمي السواد ضخّم له على الأرض وطأة الأسد ، إذا رأته حسبته احشويرش . يتدلى من أذنيه بُرتان ذهبتان كبيرتان حتى سحاهما البحارة «الوتدين الذهبين» ، وتحدثوا كيف يمكنهم تثبيت حبال الصاري الرئيس بهما . تطوع دغة في شبابه بالسفر على ظهر سفينة حواته كانت راسية عند خليج منعزل في ساحل وطنه فلم يذهب الى أي بقعة في العالم سوى افريقية ونانتوكت والمواني الوثنية التي يتردد

اليها الحواتون ، وعاش عدة سنوات حياة الصيد الجريئة في سفن يهتم أصحابها اهتماماً فريداً بنوع الرجال الذين يختارونهم للبحار في سفنهم ، لذلك كله استمر دغة يتمتع بكل فضائله الهمجية ، منتصباً كالزرافة يتنقل على ظهور السفن في خيلاء امرئ فارغ الطول يبلغ ١٩٠ سنتيمتراً دون حذاء . فإذا نظر المرء إليه شعر بقمأة جسمانية ، وإذا وقف امرؤ من البيض أمامه بدا كأنه علم أبيض جاء يتوسل الى عقد هدنة مع إحدى القلاع ، ومن المستغرب أن يكون دغة - احشويرش ، الزنجي الطود ، هو وصيف فلاسك الصغير الذي يبدو إلى جانبه كأنه بيدق الشطرنج . أما سائر عصابة الباقوطة فيكفي أن أقول : لا يبلغ أن يكون نصف العاملين في هذا العصر أمام الصاري في صيد الحيتان بأمريكا - وهم ألوف - من أبوين أمريكيين ، بينما يكاد كل الضباط أن يكونوا أمريكيين نسباً . وفي هذه الحقيقة تتفق الحال في صيد الحيتان مع الحال في الجيش الأمريكي وفي الأساطيل الحربية والتجارية وفي قوى الهندسة التي تعمل في بناء القنوات وطرق السكك الأمريكية . أقول : تتشابه الحال هناك وهنا لأن الأمريكي الأصلي في جميع الأحوال يجود بالأفكار ، وسائر العالم يقدم الفضلات بسخاء . ويتسمي عدد غير قليل من بحارة التحويت الى جزائر الأزور حيث يرسو حواتو نانتوكت في أسفارهم البعيدة ، ليضيفوا الى بحارتهم عدداً من الفلاحين الأشداء القاطنين على تلك السواحل الصخرية . كذلك فإن حواتي جرينلاند الذين ينطلقون من هل أو لندن يتوقفون عند جزائر جتلند ليستكملوا عدد ملاحيتهم فإذا كانوا عاندين إلى أوطانهم أنزلوهم في جزائرهم ، ويبدو أن أهالي الجزر هم خير الحواتين وإن لم أعلم سر ذلك . وقد كان معظم ملاحى الباقوطة من هؤلاء الجزريين ، وأنا أسميتهم « المتأبدين » ، لا أحفل بمدى اجتماعهم في صعيد ، بل أعني أن كل متأبد منهم يعيش في دنياء الخاصة . وإذا احتشدوا على صعيد سفينة واحدة لأي قبيل هم! مندوبون من أتباع الثوري أنخاريسيس كلوتز^(١) جاءوا من كل جزر البحار ومن جميع أطراف اليابسة ، يصحبون آخاب الشيخ في الباقوطة ليسيظروا مظالم الكون أمام قفص الاتهام الذي لم يرجع من عنده الا القليل . ييب الأسود الصغير - أترأه عاد ؟ لا . لم يعد ، وإنما تقدم على الطريق . ذلك الفتى الألبامي المسكين! على منارة الباقوطة الجاهمة ستراه قبل وقت طويل يضرب طنبوره ، استهلالاً للوقت الأزلي ، حين يدعى الى الصعود العلوي كي يشارك الملائكة عزفهم ويضرب طنبوره في مراقي المجد . اسمه هنا جيان ، وهم يحيونه هناك تحية البطل .

(١) ثوري بروسى فرنسي (١٧٥٥-١٧٩٤) كان اسمه جان بابست فجهله أنخاريسيس ولقب نفسه «خطيب الجنس البشري» .

آخاب

مضت عدة أيام على مفادرتنا ناتتوكت ولم يلح آخاب أبداً فوق العنابر . وكان الضباط يتناوبون المراقبة في انتظام ، ولم يبد شيء ، ينقض عليّ تصوّري أنهم هم الآمرون الوحيدون في السفينة لولا أنهم كانوا أحياناً يصدرون عن القمرة بأوامر مفاجئة جازمة ، فكان هذا الفعل يدلني على أنهم إنما يقودون السفينة بالنيابة . أجل إن «ريسهم» الأعلى ودكتاتورهم كان موجوداً وإن لم تره الأعين التي لم يؤذن لها أن تنفذ الى معتكفه المقدس في القمرة .

وكنت كلما صعدت الى ظهر السفينة إثر نوبة من المراقبة في الأسفل شخصت ببصري توأ الى مؤخرة السفينة لأرى إن كان هناك وجه غريب . ذلك أن قلقي المبهم إزاء القبطان المجهول كاد يصبح لديّ في عزلة البحر بلبالاً منغصاً . وأحياناً كان يلم بي - غير مأذون - الهذيان الشيطاني الذي سمعته من ايليا الرثّ القشيف فيزيد في بلبالي على نحو غريب ، ويشتد بي التوجس على وجه لم أتصوّره من قبل . وفي مثل تلك الأحوال لم أكن أستطيع مقاومة ذلك الهذيان الشيطاني مثلما أنني كنت في لحظات أخرى أتبسم من تلك التخيلات الكنيية التي أرسلها على مسمعي عزافُ الأرصفة الغريب .

ولكن سواء أكان ما أحس به هو التوجس أو الانزعاج - إن صحت تسميته كذلك - فإني كلما كنت أتلفت حولي في السفينة كان يبدو لي أن استحواذ هذه المشاعر عليّ لا يجد له مسوغاً ؛ نعم إن الزرقين وسائر هيئة البحارة كانوا أشد همجية ووثنية واختلاطاً من أي فريق صحبته على السفن التجارية وتعرفت اليه في تجاربي السابقة ، ومع ذلك فإني كنت أعزو هذه المشاعر - وبحق ما أعزوها - إلى التفرد الفذ في طبيعة تلك الحرفة الاسكندناوية التي أسلمت اليها نفسي . لكن منظر الضباط الثلاثة في السفينة كان أقوى معتمد لي لتبديد هذه التوجسات الباهتة واستشارة الثقة والاستبشار في كل مرحلة من مراحل سفرتنا . ليس

من السهل أن تجد ثلاثة رجال أوضباط بحر ، لكل امرئ منهم سبيله الفذ ، خيراً منهم . وكل واحد فيهم أمريكي النسبة أحدهم من ناتسوكت والثاني من فنيارد والثالث من «الرأس» . ولما أن كنا في فترة عيد الملاحين انطلقت السفينة من الميناء فقد سرنا مسافةً في جو قطبي قارس ، وإن كنا إنما نهرب من هذا الجو طوال الوقت متجهين جنوباً ، وكلما قطعنا درجة أو دقيقة من تلك العروض خلفنا الشتاء الغشوم وجوه الراهق من ورائنا تدريجاً . وفي صباح يوم قليل الاكفهرار إلا أنه ما يزال أطلس متجهماً ، في فترة الانتقال من المناخ البارد ، والسفينة تجري في ريح رخاء وتشق عباب الماء في وثبات شامة وسرعة أسبانة ، صعدت الى ظهر السفينة تلبية لدعاء نوبة الحراسة قبل الظهر وصويت نظري نحو أعلى الكوئلة . اعترتني فشمعيرة تنذر بالشر . جاز الواقع حدود التوجس . أمامي على ظهر السفينة يقف آخاب القبطان .

لم تبد فيه أية دلالة على مرض جسماني ، ولا على نقاهة منه . بدا لي كأنه امرؤ استنقذ من النار بعد أن ربط الى السارية ليحرق ، وكانت النار قد سفعت الأعضاء دون أن تلتهمها ودون أن تفني جزءاً واحداً من عنقوانها المعمّر المجدول . وبدت بنيتة الشامخة المستعرضة كأنما هي مصنوعة من البرونز الصلب وقد جبلت في شكل لا يدركه التغير كأنها تمثال برسيوس الذي صبه تشليني^(١) ، وإذا نظرت اليه رأيت وسماً دقيقاً كأنه أثر سفود ، بين البياض والدكنة ، وقد اتخذ طريقه بين شعره الأشيب واستمرّ نازلاً عن اليمين على أحد جانبي وجهه ورقبته اللذين سفعتهما ودبفتهما ، حتى غاب تحت ملابسه . وهو يشبه ذلك الأثر العمودي الذي يرتسم أحياناً على جذع مستقيم عالٍ من شجرة ضخمة حين ينفذ فيها سهم من البرق العلوي فيشقها ، فيسحج اللحاء ويشقه من الرأس الى القاعدة قبل أن يفور في الثرى ، مخلقاً الشجرة حية خضراء إلا أنها موسومة دون أن يلوي منها غصناً . هل ولد آخاب يحمل تلك السمّة ؟ هل كانت ندباً خلفه جرح رغيّب ؟ ما من أحد يعرف وجه اليقين في ذلك . ولكن كأنما أجمع القوم ضمناً ، وبخاصة الضباط ، على أن لا يلمحوا اليها خلال الرحلة كلها . إلا أن رئيس ماشطيقو وهو هندي شيخ جايهيدي بين البحارة . أكّد ذات مرة توهماً أن آخاب لم ينل ذاك الوسم إلا بعد أن استكمل الأربعين ، وأنه أصيب به في كفاح مع قوى الطبيعة في البحر لا في غمرة عراك بين آدميين . لكن نفى هذا التلميح المفتنت نفياً ضمناً تلميح آخر أورده شيخ ثانٍ من جزيرة مان ، عجوز خفيض الصوت لم يبحر أبداً من

(١) تمثال برسيوس يحمل رأس مدوزا في فلورنسة من البرونز صنعه بينيتوتو تشليني (١٥٠٠-١٥٧١) .

نانتوكت ولم تقع عيناه على آخاب قبل ذلك . ومع ذلك فإن التقاليد البحرية القديمة والمعتقدات العريقة زوّدت هذا الشيخ بقوى خارقة للطبيعة في المكاشفة . فلم يكن أي بحار أبيض ليناقضه مناقضة جادة حين قال : إن صحّ للقبطان آخاب أن تسجى جثته كمن يموت حتف أنفه ، وهذا ما لا أكاد أقول بحدوثه (وتمتم بهذه الكلمات في خفوت) فإن من يفسل جثته سيرى سمة الولادة تمتد من رأسه إلى أخمص قدمه .

أثرت في طلعة آخاب الجاهمة والوسم الداكن الذي يمتد فيها تأثيراً بليغاً ، حتى كدت في اللحظات الأولى أغفل عن أن قسطاً غير ضئيل من جهامته المتشامخة إنما يعزى إلى رجله الهمجية البيضاء التي ألقى عليها جانباً من ثقله . وقد سبق لي أن تصوّرت أن هذه الرجل العاجية قد قدرّت له في البحر من العظم الصقيل المنتزع من فك حوت العنبر . وذات مرة قال الشيخ الهندي الجايهيدي : «نعم تحطم صاريه بإزاء اليابان ولكنه «رُكّب» لنفسه صارياً جديداً قبل أن يعود الى الوطن ، مثلما فعلت سفينته حين تكسرت صواريتها ، نعم . لديه خُرُجٌ من هذا الصواري» .

ولفتتني وقفته الفريدة التي اعتمدها . في كل جانب من جانبي ظهر الباقوطة خلف الدقل الأعظم قريباً من أشرعة المظنين ثقب حفر بالمشقاب ، سعتة نصف بوصة في المرينة ، وقد ثبت آخاب رجله السليمة في واحد من تلك الثقوب ، وجعل إحدى ذراعيه مرفوعة ممسكة بطرف المظنين ، ووقف منتصباً ينظر على مدى مستقيم وراء مقدم السفينة المترنح على الدوام . وفي تلك النظرة المسددة الجريئة المعلقة بالاتجاه الأمامي يتجلى قدر لا يحد من البأس الركين والصلابة الحازمة التي لا تهن ولا تلين . لم ينطق بكلمة ، لم يحدثه ضابطه بشيء ، وإنما دلت أدق حركاتهم وتعبيرات وجوههم على أنهم يعانون إدراكاً قلفاً . إن لم أقل مؤلماً ، بأن الرقيب المسلط يلحظهم بعين كدرة . وليس ذلك فحسب بل إن آخاب ذا المزاج المتقلب وقف أمامهم والألم قد ارتسم على وجهه ، في غطرسة وصيّد ملوكي ثقيل ، لا أجد له اسماً دقيقاً ، كأنه ويل وييل .

ولم يطل به الوقوف في العراء فانسحب الى قمرة . ولكنه كان بعد ذلك الصباح يبرز كل يوم ويراه الملاحون إما واقفاً مثبتاً رجله في الثقب المحوري وإما جالساً فوق مقعده العاجي أو متخطراً على ظهر السفينة بوطه ثقيل . ولما أخذت جهمة السماء تنقشع ، أي بدأت تظهر البشر والسماحة بعض الشيء ، أخذ آخاب يقلل من اعتكافه وعزلته ، كأنه لم يفرض عليه العزلة حين أقلعت السفينة من مرساها إلا زمهرير البحر الشتوي المرير ، ورويداً رويداً أصبح يبرز دائماً أو غالباً ولكن كل ما قاله وما فعله في الواقع على ظهر السفينة حيث

انسكبت أشعة الشمس أخيراً جعله يبدو لي حشواً زائداً حيث هو كأنه دقل آخر . إلا أن الباقوطة كانت تمخر البحر حينئذٍ . لم تكن تتجول تجوالاً منتظماً وكان الضباط ذوي كفاية تامة للإشراف على معظم المعدات والاعدادات اللازمة للتحويث ، فلم يكن هناك شيء يستدعي جهود آخاب أو يستثيره للعمل . فإن وجد شيء من ذلك فهو قليل . وهكذا أخذ يبدد - حينئذٍ - تلك السحب التي كانت قد تكدست ، كومة فوق كومة على جبهته ، مثلما أن الفيوم جميعاً تختار أعلى القمم لتحشد من فوقها .

ومع ذلك ، لم يمضِ وقت طويل حتى استطاع الاغراء الدافئ الناغم في ذلك الجو الممتع المتهلل الذي وقعنا في نعيمه ، أن يغير مزاج آخاب تدريجاً . إن الفادتين الراقصتين الورديتين الخدود ، أعني نيسان ونوار ، حين تعودان الى الغابات الباردة الناقمة المكفهرة ، ترحب بمقدمهما أكبر سنديانة شانخة جاسية عريت من الورق وشققتها الصواعق ، ترسل في الأقل بضعة عساليح خضر احتفاءً بالقادمتين الجذلتين ، كذلك استجاب آخاب في النهاية الى الاغراءات المرححة التي حملها ذلك النسيم اللعوب . وقد انتحل غير مرة برعماً باهتاً من نظرة لو أتيح لرجل غيره لتفتح توأً عن ابتسامة .

شجار

مضت بضعة أيام منذ أن خلفت الباقوطة الجليد وجباله من وراء ظهرها ، وأصبحت تندحرج في ربيع كيتو المشرق ، وهو فصلٌ يكاد يهيمن أبداً في البحر على أعقاب آب (أغسطس) الخالد في المناطق الاستوائية . وأصبحت الأيام المنعشة الصافية الناعمة العبة الفياضة الوفيرة كالكؤوس البلورية التي تتسع بالأشربة الفارسية - تطفح بالماورد . وتقدم أفواهاها بالثلوج . والليالي البهية المرصعة بالنجوم كأنهن السيدات المختلات في الحبرات المزينات بالجواهر يتعللن في خيلانهن المتوحدة بذكري بعولتهن السادة الذاهبين في ميادين الفتح والغلبة ، وما أولئك السادة سوى الأيام المشمسة المقنعة بالخوذ الذهبية . فمن كان يريد النوم تحير أيهما يختار : أتلك الأيام الجميلات أم تلك الليالي المغريات . ولكن فنون السحر في ذلك الجو السرمد لم تتحف العالم الخارجي فحسب بتعاويذها وحيويتها الجديدة بل تفلقت رقاها الى الروح وبخاصة حين كانت تحلُّ الأمسيات الودية ، عندئذ تطلق الذكريات بلوراتها مثلما يتكون الجليد الصافي في الشفق الصامت . وكل هذه المؤثرات اللبقة تسلت الى بنية آخاب .

غير أن من علت سنه يظل صاحياً بأبي الرقاد ، كأن المرء كلما طالت بالحياة صلته نفر من ممارسة أي شيء يشبه رقدة الموت . وأمار البحر الشيوخ ذوو اللحي الشمطاء هم الذين يغادرون أسرتهم ليزوروا ظهر السفينة المجلبب بالظلام . وتلك هي حال آخاب ، إلا أنه في الأيام الأخيرة كان يبدو كأنما يعيش في الهواء الطلق ، حتى لتقول أنه كان يلم بالقمرة زائراً وكانت زيارته لها لماماً ، إذا أنت قسنت مكعه فيها الى مكعه فوق الأنواح الخشبية . وربما كان يتمم لنفسه : « حين ينزل قبطان مسن مثلي الى هذه الناروزة الضيقة فكأنما ينزل الى قبره ، إني أحس كأنني أذهب إلى لحد يسمونه سريراً » .

ففي كل أربع عشرين ساعة تقريباً ، حين تنصب الحراسة الليلية ، ويقوم الفريق الموجود على ظهر السفينة بالسهر على نوم الفريق في الأسفل ، حتى لو أن حبلاً كان يحتاج أن يسحب على المنارة لما ألقى به البحارة الى الأسفل في جفاء وخشونة كما يفعلون أثناء النهار ، وإنما يسقطونه الى مستقره في حيطه وحذر لئلا يزعج رفاقهم النائمين ، أقول : حين يبدأ هذا النوع من السكينة ينسحب على الوجود ، في المعتاد ، يحرس ربُّ الدفة الصامت ناروذة القمرة ، ولا يمضي وقت طويل حتى يبرز منها الرجل الشيخ وهو يتشبث بالدرايزين الحديدي ليعين رجله على مشيتها الظالعة . كانت فيه لمسة من الانسانية ترعى مشاعر الآخرين ، اذ كان في مثل هذه الساعات يأبى في العادة أن يعتنى على ظهر السفينة وراء الدقل الأعظم ، ذلك أن ضباطه المنهوكين الذي أخذوا الى الراحة على بعد ست بوصات من كعبه العاجي قد تطيش بألبابهم أصداء الصلصلة والصرير المنبعثة من تلك الخطوات العظيمة حتى ليرون في منامهم أنياب حيتان القرش وهي تصطك . وذات مرة كانت السوداوية قد استفرقته فأغفلته عن رعاية مشاعر الرفاق ، وذهب يذرع السفينة من أعلى الكوئل حتى الدقل الأعظم بخطى ثقيلة كأنها صخر يتقلع ، واذاك طلع الضابط الثاني اسطب من أسفل وألمح في دعاية مترددة مستنكرة معاً أن القبطان آخاب إن كان يعجبه «المشي على الخشبة»^(١) فلا أحد يستطيع أن ينكر عليه ذلك ، ولكن قد تكون هنالك وسيلة صالحة لكتم الصوت وإخماده ، وألمح في غمغمة وتردد الى كرة من القنب يلبس بها الكعب العاجي . ويلك يا اسطب! انك لم تكن تعرف آخاب حينئذ .

قال آخاب : «أنا قنبلة مدفع يا اسطب حتى إنك تريد أن تحشونني كذلك ؟ لا بأس قل ما تريد فأنا قد نسيت . أهبط الى قبرك السفلي المظلم فإذا اندسست بين أكفانك ، اتخذناك في النهاية كبة غزل . أهبط أيها الكلب وانجر» .

انعقد لسان اسطب لحظة حين أفزعته الخاتمة غير المتوقعة في كلمات الشيخ الذي انقلبت لهجته فجأة الى سباب وتحقير ، ثم قال في انفعال : «لست متعوداً أن يوجه اليّ الكلام بهذه اللهجة يا سيدي ؛ لقلماً أطبق مثل هذه اللهجة يا سيدي» .

- «صه»! ذلك هو الصوت الذي صرّت به أسنان آخاب وتحرك بعنف مبتعداً كأنما يريد ليتجنب حوافز الهياج .

فنجراً اسطب وقال : «لا يا سيدي ، على رسلك . لا أريد أن أدعي كلباً ، استذلالاً» .

(١) to walk the planks في العبارة تورية ، فقد كان آخاب يمشي على خشب السفينة . كما أن المشي على الخشب عقوبة يستعملها القراصنة في السفن اذ يجعلون شخصاً يمشي على الخشبة ثم يزلزلونها تحت قدميه حتى يهوي في البحر .

- «اذن فليقل لك عشر مرات أنت حمار وبغل وأتان ؛ وانقشع وإلا كنتك من العالم جملة» .

وفيما هو يتلفظ هذه الكلمات اقترب من اسطب وفي طلعتة مفزعات مروعة حتى أن اسطب تراجع من وجهه لا إرادياً .

فتمتم اسطب وقد وجد نفسه يهبط الى ناروزة القمره : «لم يعاملني أحد هذه المعاملة من قبل دون أن ازد عليها بالمثل . هذا غريب . قف يا اسطب . لا أدري أرجع فأضربه أم... ما هذا ؟ - أركع على ركبتي وأتوسل اليه داعياً ؟ نعم ، هذه هي الخاطرة التي عنّت لي . ولكنها تكون أول مرة أركع فيها داعياً مصلياً . غريب ، غريب جداً ، وهو رجل غريب أيضاً . نعم خذه من أساسه الى رأسه ، يكاد أن يكون أغرب شيخ أبحر اسطب معه . يا لله كيف اندفع نحوي! عيناه كخزانتني البارود في البندقية ؛ أهو مجنون ؟ على أي حال به مسّ وهذا أمر أكيد مثلما أن ظهر السفينة لا يقعق إلا أن يكون فوقه شيء . ثم هو لا يستلقي في سريره هذه الأيام إلا ثلاث ساعات من أربع وعشرين ، ولا يغفو في أثنائها . ألم يخبرني خازن المؤمن ، الغلام العجّان إنه في الصباح يجد فراش أرجوحة الرجل العجوز كله معكوكاً مقلوباً والملاءات قد لبكت عند آخر السرير . والغطاء يكاد أن يكون ملوياً مثنياً في عقد . والوسادة ساخنة سخونة مفزعة كأن آجرة حمماة كانت فوقها ؟ عجوز حار حاد . أظن لديه ما يسميه بعض الناس على البر ضميراً ، ويقولون أنه نوع من الاختلاج النورالجي ، أسوأ من ضربان الضرس . طيب . لا بأس . أنا لا أعرف ما هو ولكنني أسأل الله أن يحميني من عدواه . وهو مليء بالألغاز ولا أدري سرّ ذهابه الى العنبر الخلفي كل ليلة حسبما حدثني الغلام العجّان وقال أنه يظن أنه يذهب هنالك . لم يذهب ؟ أريد أن أعرف . من الذي يعده اللقاء في ذلك العنبر ؟ أليس هذا عجبياً ؟ ولكن لا أحد يدري . ها هنا تستمر اللعبة القديمة - يذهب لينال غفوة . عليّ اللعنة ، جدير بنا أن نأتي الى هذا العالم حتى ولو لم يكن نصيينا منه إلا أن نطرح نائميين . وها أنا يخطر لي هذا الأمر ، وهو أول شيء يعمله الطفل حين يولد ، وهذا شيء غريب أيضاً . عليّ اللعنة ، لكن كل الأشياء غريبة حين نفكر فيها إلا أن التفكير في الأمور ضد مبادئي . « لا تفكر » تلك هي الوصية الحادية عشرة التي اتقاد لها . « ثم حينما تستطيع » هي الوصية الثانية عشرة - هكذا إذن . ولكن كيف ؟ ألم يدعني كلباً ؟ المشنوع! ودعاني عشر مرات حماراً وكدّس فوق ذلك كله مجموعة من الأتن ، كان في مقدوره أن يرفسنني ويتم منظر الحمير . لعله رفسنني ولم أشعر فقد أفزعتني جبهته بعض الشيء ، إذ أومضت كأنها عظمة مفسولة . يا للشيطان ما بي ؟ أنا لا أقف منتصباً على

رجلي . اصطدامي بذلك المجوز قد لخبط كياني . تالله كنت أحلم . كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ -
لكن الطريقة الوحيدة أن أكتم الأمر . الى السرير إذن . وفي الصباح أرى كيف تلوح للفكر
هذه الفعلة الاحتيالية المزعجة » .

الغليون

حين انصرف اسطب وقف آخاب هنيهة منحياً على جدار السفينة ثم استدعى . كما أصبحت عاداته في الأيام الأخيرة ، أحد بحارة النوبة وأرسله الى القمرة ليحضر له مقعده العاجي وجليونه . وأشعل الغليون من المصباح الموضوع عند صندوق الابرة المغناطيسية ، وثبت المقعد مستقبلاً للريح وجلس يدخن .

تقول الأسطورة أن عروش الملوك الدنماركيين المفرمين بالبحر في غابر أيام الأمم الشمالية كانت تصنع من أنياب التروول . فكيف يستطيع أمرؤ أن ينظر الى آخاب حينئذ وقد جلس على ذلك المقعد المصنوع من العظام دون أن تخطر له السمة الملكية التي يمثلها . كان آخاب خاقان سفينة ، وملكاً على البحر ، وسيداً عظيماً على الحيتان .

مضت بضغ لحظات انطلق فيها الدخان من فمه في نفثات سريعة مسترسلة ارتدت الى وجهه ، وأخيراً أخذ يناجي نفسه وقد سحب الغليون من فمه : « ما لهذا الدخان لم يعد يهدئني . آه يا غليونني ! ستكون حياتي عسيرة اذا تلاشى سحرك عني ؛ ها هنا كنت أجهد دون وعي ، من غير استمتاع ، أجل ولجهلي جعلت أدخن ضد الريح طول الوقت . ضد الريح ويمثل هذه النفثات العصبية كأن نفثاتي الأخيرة هي أقوى النفثات وأحنفها بالاضطراب ، شأنني في ذلك شأن الحوت المحتضر . ما شأنني بهذا الغليون ؟ هذا الشيء الذي يراد للتسكين ، لإرسال أبخرة لطيفة بيضاء ، بين شعرات بيض لطيفة لا بين خصل في دكنة الحديد مثل خصلي . سأكف عن التدخين » .

قذف بالغليون الذي مايزال مشتعلاً في البحر^(١) ، وسمع حسيس جمرته بين الأمواج .

(١) قد تقدم في الفصل العاشر ص ١٠٢٠ كيف أن تبادل الأنفاس من غليون واحد كان رمز صداقة حميمة بين اسماعيل وكويكوج .
وها هو آخاب يقذف بغليونه في البحر وتلك اشارة على أنه يستسلم لشيطانه ويكسر « طوق الانسانية السحري » . كان مغفل »

وفي اللحظة نفسها ضربت السفينة الحبيب الذي أحدثه الفليون الغارق . أما آخاب فأخذ يذرع السفينة وعلى رأسه قبعة منكفئة الحوافي .

= نفسه يحب التدخين فهو يستعمله في أدبه رمزاً للراحة والاطمئنان .

ربة الأحلام

في الصباح التالي دنا اسطب من فلاسك محبباً وقال :

« مثل هذه الرؤيا لم أر في حياتي أيها الدعامة الكبرى ؟ أنت تعرف الرجل العاجية التي يمشي بها الرجل العجوز . رأيت في المنام أنه ركمني بها ، وحين حاولت أن أرد عليه بالمثل ، وحياة روعي ، يا رفيق ، انخلعت رجلي . ثم بلمح البصر! بدا أخاب هَرَمًا وأنا أخذ في ركله كأنني أحقق مرور . وأغرب من هذا يا فلاسك - وأنت تعلم مبلغ غرابة الأحلام جميعاً - أنني خلال هذه السورة الغضبية التي انتابتنني رأيتني أقول لنفسي : إن تلك الركلة التي سددها إليّ أخاب ، في آخر الأمر - ليست إهانة لي . قلت لنفسي : ما ضرّ؟ علام كل هذه الخناقة ؟ هذه ليست رجلاً من لحم وعظام إنما هي اصطناعية . وبين الضربة الحية والأخرى الميتة فرق كبير . هذا هو الذي يجعل ضربة اليد يا فلاسك ، مذلة مؤلمة للمرء خمسين مرة أكثر من الضرب بالقناة . العضو الحيّ هو الذي يحدث الاهانة الحية يا بني . وأقول لنفسي طوال ذلك كله ، إفهم ، وأنا أخبط أصابع قدمي الكليلية ضد ذلك الهَرَم اللعين وكل شيء يحدث في تناقض مضطرب ، طول الوقت ، أقول : كنت أقول لنفسي : هل رجله إلقانة - قناة من عظم الحوت . وأقول أيضاً : نعم إن الضرب لم يكن إلا دعابة ، في الواقع لم يكن إلا رَمْحاً بعظم الحوت لا رفسة مهينة . ثم أقول لنفسي : « بل انظر إليها مرة ، إلى نهايتها ، أي موضع القدم ، ما أصغرها . بينا لوركنني فلاح عريض القدم ، لكنت تلك إهانة شيطانية عريضة . أما هذه الاهانة فقد استدقت واستدقت حتى أصبحت نقطة . ثم تأتي النكتة الكبرى في الحلم ، يا فلاسك . بينا كنت أركل الهرم ظهر لي انسان الماء العجوز (المرمان) وعليه شعر كشعر الغرير ، وله في ظهره حردبة وأمسك بي من كتفي وذبحني . كان يقول لي : ماذا تحاول ؟ تحرك أيها الرجل ، ولكنني كنت خائفاً . يا لها من فراسة! إلا أنني في اللحظة التالية أتيج لي أن أتغلب على الخوف . « ماذا أحاول ؟ » ذلك ما

قلته لنفسي أخيراً . وأي دخل لك في هذا ، أود أن أعرف أيها الأحمق ؟ أتريد أنت ركلة ؟ والله يا فلاسك ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى أدار لي مؤخرته وانحنى ونزع عنه كمية من عشب البحر كان قد اتخذها تبناً . ماذا تظنني رأيت ؟ وحق الرعد أيها الرجل كانت مؤخرته قد غرزت فيها كلها مخارز رؤوسها الى خارج . وقلت في نفسي بعد أن ترويت في الأمر : « أظنني لا أريد أن أركلك أيها الرفيق العجوز » فقال : « عاقل يا اسطب ، عاقل يا اسطب » ، وظل يتمم بهذه العبارة طول الوقت كأنه يتغذى من لثته مثل عفريته المدخنة . ولما رأيت أنه لا يريد أن يكف عن قوله « عاقل يا اسطب ، عاقل يا اسطب » خطر لي أنني قد أنحي على الهرم ركلاً كرة أخرى . وما كدت أرفع قدمي حتى زار : « كف عن الركك » فقلت : « مرحباً . ما المسألة أيها الرفيق القديم ؟ » فأجابني : اسمع يا هذا تعال نبحت في أمر الإهانة . ركلك القبطان آخاب . أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . ها هنا وقعت قدمه . فقال : طيب . واستعمل رجله العاجية ، أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . فقال : طيب يا اسطب يا عاقل من أي شيء تتذمر ؟ ألم يركلك بنيتة حسنة ؟ لم تكن رجلاً من الخشب المقير تلك التي ركلك بها . أكانت كذلك ؟ كلا بل ركلك رجل عظيم ذو رجل عاجية جميلة يا اسطب . هذا شرف . أنا أعده شرفاً . اصغ الي يا اسطب يا عاقل . في اليهود القديمة بانجلترا كان أعظم اللوردات يعدون من المجد الرفيع أن تصفهم الملكة وتجعل منهم أنجد الفرسان . ليكون موضع فخرك يا اسطب أن آخاب الشيخ ركلك وجعل منك امرءاً عاقلاً . تذكر ما أقوله لك ، اجعله يركلك . عد ركلاته شرفاً لك ولا ترد عليه بالمثل لأنك لا تستطيع أن تعين نفسك يا اسطب يا عاقل . ألا ترى ذاك الهرم ؟ وفجأة بدا لي على نحو غريب أنه يعوم في الفضاء ، فأرسلتُ شخيراً ، وانقلبتُ على الجانب الآخر ووجدتني في أرجوحتي . فماذا ترى في هذا الحلم يا فلاسك ؟ .

- لا أدري يبدو لي شيئاً من الحق .

- ربما . ربما ، ولكنه جعلني عاقلاً يا فلاسك . هل ترى آخاب واقفاً هنالك يوارب النظر من على مؤخرة السفينة ؟ خير ما تستطيع أن تعمله يا فلاسك أن تدع ذلك العجوز وحده . لا تكلمه مهما يقل لك . ويك . ها هو يصرخ فماذا يقول ؟ أنصت !
- أنتم عند رأس الصاري . حددوا الابصار جميعاً . ها هنا حيطان من حوالينا . اذا رأيتم حوتاً أبيض فأنذرونا بأصوات جهورية تشق الصدور .

- ماذا ترى في هذا يا فلاسك ؟ أأست ترى نقطة صغيرة من شيء مستهجن مستغرب فيه ؟ مش كده ؟ حوت أبيض ، هل أدركت هذا ؟ اسمع - في الريح شيء فريد . قف متأهباً يا فلاسك . على عقل آخاب شيء دموي . صعدا ها هو قادم نحونا .

علم الحيتان

لقد توغلنا في أحضان العباب وعمما قليل نغيب في مده المترامي بلا ساحل ولا مرفأ أمين . لكن قبل أن يتم هذا ، قبل أن يتدحرج هيكل الباقوطة المطحلب الى جانب هياكل الحوت المحلزنة ، من المناسب في البداية أن نلتفت الى مسألة يكاد لا يستغني عنها من شاء أن يدرك ما يتلو من معلومات عن الحوت وإشارات مختلفة اليه .

وإنه ليسرني أن أقدم اليكم في هذا المقام عرضاً منظماً عن مختلف أجناس الحوت . غير أن مهمتي هذه ليست سهلة ، اذ التصنيف لا يعدو أن يكون تصنيفاً لمشمولات الفوضى ، ولا تتضمن المحاولة شيئاً أقل من ذلك . اصفوا الى ما قاله خير الحجج الاثبات وأحدثهم رأياً :

قال القبطان اسكرسبي (١٨٢٠) : « ليس في علم الحيوان فرع أكثر تعقيداً من ذلك الذي يسمونه علم الحيتان » .

وقال الجراح بيل (١٨٢٩) : « ليست غايتي ، لو كان لي في الأمر يدان ، أن أدخل في بحث عن الطريقة المثلى لتقسيم الحيتان الى فئات وأسر... فالاضطراب المطلق قائم بين من يوزخون لهذا الحيوان « (حوت العنبر) .

وهاك أقوالاً أخرى : « ضعف الاستعداد اللازم لمتابعة أبحاثنا في الأمواه التي لا يسبر غورها » - « حجاب كثيف يعز النفاذ منه يقف دون معرفتنا عن الحيتان » - « هذا ميدان قد نشرت فيه الأشواك » - « وكل هذه الدلالات الناقصة إنما تعذبنا نحن علماء التاريخ الطبيعي » .

هكذا تحدث عن الحوت كل من كوفييه العظيم وجون هنتر ، ولسون ، بدور علم الحيوان والتشريح . ومع ذلك فإن كانت المعرفة الصحيحة منزورة يسيرة فان الكتب عديدة

وفيرة ؛ وكذلك هي الحال الى حد ما في علم الحيتان . فكثيرون هم الذين كتبوا عن الحوت كباراً وصغاراً ، قدامى ومحدثين ، أهل برّ وأهل بحر ، ومنهم من أسهب ومنهم من توخى الايجاز . تعال نعد بعضهم ؛ منهم مؤلفو كتاب يهود ، وأرسطو طاليس وبليني والدروفاندي والسير توماس براون وجسنر وراي ولنايوس ورونديليتيوس وويلوبي وجرين وارتيدي وسيبولد وبريسون ومارتن ولاسيبيد ويوتير ودرمارست وبارون كوفييه وفريديريك كوفييه وجون هنتر واوين وسكورسبي وبيل وبنت وج . روس بروان ومؤلف Miriam Coffin وأولمستد والتسيس ت . شيفر . ولكن ما الغاية القصوى التعميمية التي من أجلها كتب هؤلاء ، ذلك ما تبينه المقترسات السابقة .

ولم يرَ حوتاً حياً من هؤلاء المؤلفين الذين سُردت أسماؤهم سوى من ذكرتهم بعد أوين ، ولم يكن فيهم حوات ورماح محترف إلا واحد هو القبطان اسكورسبي فهو خير حجة في شأن « الحوت الأثين » أو حوت جرينلاندا . ولكن اسكورسبي لم يعرف شيئاً عن حوت العنبر الكبير الذي إذا قارنت به « الحوت الأثين » وجدت هذا الثاني يكاد لا يستحق أن يذكر . ويجب أن أقرر في هذا المقام أن الحوت الأثين مقتصب يجلس على عرش البحار بل انه ليس بأية حال أضخم الحيتان وقد ولد له الاعتصاب سبقه الى الاستئثار بالعرش وتراخي الزمن على تنويجه ، والجهل العميق الذي بقي الى ما قبل سبعين سنة يكتنف حوت العنبر ويخيل للأذهان انه شيء أسطوري أو شيء غير معروف اطلاقاً ، ولا يزال هذا الجهل سائداً في جميع المجالات الا في بعض صوامع العلماء وموانئ التحويت . ان الرجوع الى جلّ الاشارات الواردة عن الحيتان لدى الشعراء العظام في الأزمان الغابرة سيدلكم على أن الحوت الأثين كان في نظرهم عاهل البحار دن منازع . وأخيراً حان الأوان لبيعة ملك جديد . وهذا هو مكان البيعة^(١) . أصفوا التي أيها الناس الطيبون جميعاً! لقد عزل الحوت الأثين - وتولى العرش حوت العنبر!

ليس هناك الا كتابان يقدمان لكم حوت العنبر الحي على حقيقته ، ويوققان في ذلك الى أقصى حدّ من بين جميع الكتب التي تزعم لنفسها ذلك . هما كتاب بيل وكتاب بنت وكان كل منهما في زمنه جراحاً على سفن التحويت الانجليزية التي تتراد البحر الجنوبي وكلاهما دقيق ثقة . وما في كتابيهما من مادة حول حوت العنبر ضئيل ضرورة ، ولكنها في بابها مادة من نوع ممتاز وان كانت في معظمها مقصورة على الوصف العلمي . ومهما يكن من شيء

(١) في الأصل هذه هي مربعة تشارنج (Charing Cross) وكانت مركز لندن منها يبدأ قياس المسافات بالأميال ومنها يملن النداء . بملك جديد .

فان حوت العنبر من الناحيتين : العلمية أو الشعرية غير واضح القسماات في أي أدب . فلم يجد من يخط سيرته مع أنه يسمو سمواً بالغاً على كل ما يصاد من الحيتان .

وتحتاج الفصائل المختلفة من الحيتان نوعاً من التصنيف الشامل المقرب للمعرفة حتى ولو جاء في شكل مسرد ميسر بما يسد الحاجة الراهنة على أن يتولى الخلف العاملون في الميدان استكمال أبوابه والاضافة الى ما وضعه السلف ، على التوالي . وبما أنه لم يتقدم الى تحقيق هذا الأمر من هم خير مني معرفة واطلاعاً ، أراني أتقدم في هذا الصدد بجهودي المتواضعة . ولست أعدكم بأن يكون عملي كاملاً ، فكل أمر انساني يظن فيه الكمال لا بد من أن يكون لهذا السبب عينه غير بريء من النقص والخطأ ، ولست أزعم أنني سأقوم بوصف تشريحي دقيق لمختلف الفصائل ، أو أنني في هذا الموضوع على الأقل سأسهب في الوصف . غايتي ها هنا رسم مسودة من تصنيف للحيتان فأنا المهندس ولست المعمار الباني .

إلا أنها مهمة جسيمة لا يحسنها أي «فزاز» عادي للرسائل في دائرة البريد . إنه لأمر مخيف أن أذهب في الأعماق خلف الحيتان متحسباً ، مخيفاً أن يضع المرء بين يديه في أسس العالم الهائلة وأضلاعه وعظام حوضه نفسها . ومن أنا حتى أسمى لأعلق هذا اللويثان من أنفه بصنارة ؟ لعلمي أتعظ بالزواجر الرهيبة التي وردت في سفر أيوب : «هل يقطع (أي لويثان) معك عهداً فتتخذة عبداً مؤبداً... هو ذا الرجاء به كاذب» (٤١ : ٤ ، ٩) . ولكنني غصت في عالم المكتبات وأقلمت في أرجاء المحيطات ، تمرست بيدي هاتين بالحيتان وأنا جاد مخلص فيما أنتويه وأود أن أحاول ، ولكن لا بد من تهديد أجلو به مسألتين :

أولاهما : أن علم الحيتان مايزال غير يقيني ، غير مستقر على وضع حاسم ؛ وشاهدي على ذلك لأول وهلة أن بعض الجهات لاتزال تناقش في هوية الحوت : أهو سمكة أم لا . يقول ليناويوس (١٧٧٦) في كتابه «نظام الطبيعة» : بهذا أود أن أفصل بين الحيتان والأسماك . ولكنني أعلم أنه رغم هذا التصريح الجلي الذي أورده ليناويوس ظل القرش والشبوط والرنجة والنوع الذي يسمى من الرنجة «أنثى الأل» حتى عام ١٨٥٠ كلها تشارك اللويثان نفس البحار .

ويورد ليناويوس الأسباب التي جعلته يكاد ينكر على الحيتان أن تكون حيوانات مائية على النحو التالي : «إن قلبها حار ذو مخدعين ولها رنتان وجفنان يتحركان وأذنان مجوفتان - *penem intrantem feminam mammis lactantem - ex lege naturae jure meritoque* . وقد أطلعت على هذا كله صديقي سيمون ماسي وشارلي كوفن من ناتوكت وكلاهما كان رفيق المائدة في إحدى السفرات ، واتفق رأياهما على أن هذه الأسباب

المقدمة غير كافية ، بل أضاف شارلي يقول بلهجة جحودية إنكارية إنها أسباب من قبيل
النصب والاحتيال .

وليعلم من شاء أنني نحييت الجدل جانباً وأخذت الرأي القديم القائل بأن الحوت من
السماك واستنصرت يونان المقدس ليسندني في الرأي . وما دمت قد سويت هذه المسألة
الجوهرية فإن النقطة التالية هي : على حسب أي اعتبار داخلي يختلف الحوت عن سائر
السماك ؟ لقد قدم ليناوس وجوه الخلاف قبل قليل وهذه هي في ايجاز : الرتتان والدم الحار
بيننا سائر السمك ذو دم بارد وليس له رتتان .

وثانيتها : كيف نعرف الحوت بمظاهره الخارجية الواضحة حتى نسمة بسيماه أينما
عرض لنا في المستقبل ؟ أوجز فأقول : الحوت سمكة نفثات ذات ذنب أفقي . هذا هو
الحوت ؛ فإن كان التعريف موجزاً فاعلم أنه نتاج تأمل طويل . قد تقول : إن اللفظ حيوان
نفثات ، هذا صحيح ولكنه ليس سمكة لأنه برمائي . وإذا أخذت الشق الأول من التعريف مع
الثاني ، جاء مقتعاً مرضياً . ويكاد كل امرئ أن يكون قد لاحظ أن جميع السمك الذي يعرفه
أهل اليابسة ليس له ذنب منبسط . وإنما ذنبه عمودي أو منشعب . أما في السمك النفثات
فإن الذنب قد يتخذ هذا الشكل نفسه إلا أنه يظل أفقي الاتجاه دائماً .

ولست أقصد من هذا التعريف الذي أوردته للحوت أن أنفي من حظيرة الحيتان أي
مخلوق بحري وضمه في تلك الحظيرة أهل ناتسوكت المارفون الخيرون ، ولا أريد أن أزج
فيها بأية سمكة يعدها هؤلاء الثقات غريبة أجنبية على الحيتان* لذلك لا بد أن تضاف في
هذا الجدول من علم الحيتان جميع الأسماك الصغيرة النفثات ذات الذنب الأفقي ، وهذه هي
الأقسام الكبرى في قبيل الحيتان ؛

أولاً : أقسم الحيتان - حسب الجرم - في ثلاثة كتب أولية (يتفرع كل كتاب منها إلى
فصول) وستشمل هذه الكتب جميع الأصناف من كبير وصغير . والكتب هي : ١- الحوت
من القطع الكبير ٢- الحوت من القطع الثمن (٨/١) ٣- الحوت من قطع جزء من اثني عشر
(١٢/١) واذكر من نماذج النوع الأول ، « حوت المنبر » ، ومن النوع الثاني : « الغرمبوز »
من النوع الثالث « البربوز أو الذوحر » .

* أنا أعرف أنه حتى وقتنا الحاضر لا يزال كثير من الطبيعيين يعدون السمكة التي تسمى Lamatis والأخرى التي تسمى « الاطومات »
Dugongs (وتسميها عائلة كوفن في فانثوكت باسم السمكة الخنزير Pig-fish والسمكة الخنزيرة Sow-fish) ، من جملة الحيتان .
ولكن بما أن هذين النوعين مجموعة أنافية مهينة تترجم في معظم الأحوال عند مصبات الأنهار وتتذى بالثين المملول ، وبما أنهما لا
ينفشان ، لذلك أنكر عليهما النسبة إلى الحيتان وقد قدمت لهما جوازي سفرهما كي ينادرا مملكة علم الحيتان .

الكتاب الأول ، يحتوي - فيما يحتويه - الفصول الآتية : ١- حوت العنبر ٢- الحوت الأثين ٣- الحوت المزعنف أو المناري ٤- الحوت المسنم ٥- الهرقول ٦- الحوت الأزرق .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الأول : حوت العنبر : يعرفه الانجليز القدماء - في ابهام - باسم «إوال ترومبا» Trumpa Whale و«إوال فيستر» Physeter Whale و«الحوت الذي رأسه كالسندان» Anvil Headed Whale ويعرفه الفرنسيون باسم «القشلول» Cachalot والألمان باسم Pottsfich ويسميه العلماء «مقروقال» Macro- cephalus . وهو دون ريب أضخم من يقطن هذه الكرة الأرضية ، وأشد الحيتان التي يواجهها الانسان إخافة ، وأجلها منظراً ، وأكثرها في التجارة قيمة إذ هو الحيوان الوحيد الذي تؤخذ منه المادة القيمة التي يسمونها العنبر Spermaceti . وسأفيض القول في خصائص هذا الزيت في مواضع أخرى كثيرة . أما في هذا المقام فأكثر ما يهمني هو اسمه . فاذا اعتبرت اسم الزيت (أي Spermaceti) من زاوية فقه اللغة وجدته سخيلاً . منذ بضعة قرون ، حين كان حوت العنبر في صورته الصنعينة مجهولاً أو يكاد ، وعندما كان زيتته يؤخذ عرضاً من السمك الذي يطرح على الشواطئ ، في تلك الأيام كان يظن أن زيت العنبر يؤخذ من حيوان صنو للحوت المعروف في انجلترا باسم الحوت الأثين أو حوت جرينلاند (القاطوس) وكان الناس أيضاً يظنون أن هذا الزيت المسمى Spermaceti إنما هو مني الأثين (القاطوس) لأن كلمة Spermaceti تعني هذا ، و ceti تعني «قاطوس» . وفي تلك الأيام كان زيت القاطوس هذا بالغ الندرة لا يستعمل في الاضاعة وإنما يقتصر استعماله على اتخاذه مرهماً ودواءً . ولا يحصل عليه المرء إلا من العيادلة مثلما تشتري اليوم أوقية من الراوند . وعلى مر الزمن - فيما أرى - عرفت حقيقة هذا الزيت ولكن ظل اسمه القديم مع ذلك عالقاً لدى البائعين وذلك - دون ريب - ليوهموا أنه نادر فتزيد بذلك قيمته ، ثم نقلت التسمية الى الحوت الذي يستخرج منه ذلك الزيت .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الثاني : الحوت الأثين : يعد هذا الحوت من إحدى النواحي أكثر أنواع اللويثان التي يجلبها الانسان ويقدرها لأنه أول نوع كان يصيده الانسان بانتظام . ومنه تؤخذ المادة التي تسمى عظم الحوت أو البلين ، والزيت الذي يعرف بخاصة باسم «زيت الحوت» وهو مادة ضئيلة القيمة في التجارة . ويطلق عليه الصيادون جميع الألقاب الآتية دون تمييز : الحوت - حوت جرينلاند - الحوت الأدهم «حوت الجليد» - الحوت العظيم - الحوت الصحيح - الحوت الأثين . وهناك قسط من الغموض فيما يتصل بهوية الأنواع التي تطلق عليها هذه الأسماء . فما هو هذا الحوت الذي أضعه ثانياً في الكتاب

الأول من هذا التصنيف ؟ هو الذي يسميه علماء التاريخ الطبيعي من الانجليز باسم «السبلحوت العظيم» Great Mysticetus ويسميه حواتو الانجليز : حوت جرينلاند ، وحواتو الفرنسيين باسم البلينة العادي ، والسويديون باسم بال جروفلاندا - Growlands Wal-fish . وهو الحوت الذي كان يصيده الانجليز والهولنديون على مدى القرنين الماضيين في البحار القطبية الشمالية . وهو الذي طارده الصيادون الأمريكيون في المحيط الهندي وعلى ضفاف البرازيل وعلى الشاطئ الشمالي الغربي وجهات أخرى مختلفة من العالم سموها مناطق صيد الحوت الأثين .

ويزعم بعضهم أنه يجد فرقاً بين حوت جرينلاند لدى الانجليز والحوت الأثين لدى الامريكيين ، ولكنهما يتفقان اتفاقاً دقيقاً في الملامح الكبرى ، ولم يقدم أحد حقيقة واحدة حاسمة تقيم بينهما فرقاً أساسياً . إلا أن بعض دوائر التاريخ الطبيعي تعتمد الى التعقيد المنفر لكثرة حرصها على التفريع الكثير القائم على فروق واهية . وفي موضع آخر سأتناول الحوت الأثين بإسهاب عند إفاضة البيان عن حوت العنبر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الثالث : الحوت المزعنف أو المناري : أضع تحت هذا العنوان وحشاً متعدد الأسماء : فهو المزعنف Fimback وذو النفاثة الطويلة _ Tall Spout ؛ وجون الطويل Long - John يكاد الناس أن يكونوا رأوه في كل بحر ، وهو الحوت الذي يستبين المسافرون نفاثته البعيدة وهم يعبرون الأطلسي في المراكب النيويوركية . وهو يشبه الحوت الأثين في طوله وبلينه ، إلا أنه أقل منه قطراً وأخف لوناً ، يقترب لونه من الزيتون ؛ ومشفره الضخمان يمثلان منظرأ يشبه الجبل اذ يتكونان من طيات متشابكة منحرفة ذات تجاعيد ضخمة . أما المظهر الكبير الذي يميزه وبه سمّي فهو زعنفته وهي في الغالب شيء واضح بارز ، طولها ثلاثة أقدام أو أربعة تمتد رأسياً من القسم الخلفي من الظهر وذات شكل زاوي ولها طرف حديد جداً . ولو أن الحوت اختفى فلم يظهر منه أدنى شيء لظلت هذه الزعنفة المستقلة أحياناً بارزة فوق السطح بوضوح ، وحين يعتدل البحر الى السكون وتنداح فيه التفضنات الدائرية بعض اندياح وتقف هذه الزعنفة التي تشبه عقرب المزولة منتصبه وترسل ظلالاً على السطح المجعد فإن المرء قد يحسب الدائرة المائية المحيطة بها شبيهة بالمزولة بعض الشيء ، لها ميل المزولة ، وخطوط الساعات المتموجة محفورة عليها ، وغالباً ما يذهب الظل على هذه المزولة^(١) الى الخلف ، والحوت المزعنف

(١) في الأصل Ahaz _ dial وذلك نظراً الى ما ورد في أنصبا ٢٨ ٨١ وها أنا ذا أرجع ظل الدرجات الذي نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء... » .

« غير مدني » أي لا يحب الانتماء الى القطيع ، فهو يبدو كأنه يكره الحيتان مثلما أن بعض الناس يكرهون الناس . خجول ، متفرد دائماً ، على غير توقع يصعد الى السطح في أنأى البحار وأشدّها ركوداً . ونفاته المستقيمة العالية ترتفع كأنها حربة طويلة تبغض البشر ملقاة على سهل قاحل ، وهب قوة عجيبة وسرعة في السباحة بحيث يتحدى أية مطاردة يقوم بها الانسان . وكأن هذا اللويثان هو قابيل الطريد العنيد بين أبناء جنسه ، وقد جعل سمته ذلك الميل القائم فوق ظهره . وبما أن بلينه في فمه فإن البعض أحياناً يدرجه هو والحوت الأثين في فصيلة نظرية يسمونها « الحيتان البلينية » ومنها ، فيما يبدو ، أنواع عديدة أكثرها غير معروف ؛ ويسمي الصيادون بعض أنواعها بالأسماء التالية : الحيتان ذات الأنوف المسترصة - الحيتان المنسرة ذوات المناكير - الحيتان المحرّبة الرؤوس - الحيتان المحدّبة - الحيتان ذوات الفك الأسفل الضخم - الحيتان ذوات المخطم .

من الهام أن أذكر فيما يتصل بهذه التسميات التي تطلق على الحيتان البلينية أنها قد تسهل الإشارة الى بعض أنواع الحيتان ولكن لا طائل في محاولة انشاء تصنيف واضح للويثان مؤسس على بلينه أو حدبته أو زعنفته أو أسنانه ، هذا على الرغم من أن هذه الأعضاء أو الملامح - إذا اتخذت أساساً في بناء كيان منظم من علم الحيتان - بدت أصلح من المميزات الجسدية الأخرى التي تبرز مختلفة في مختلف أنواع الحيتان . أتى ذلك ؟ هذه الملامح من بليين وحدبة وزعنفة في الظهر وأسنان ؛ موزعة دون تمييز على جميع أنواع الحيتان بقطع النظر عما تكون طبيعة بنائها من حيث الخصائص الجوهرية الأخرى ؛ فالحدبة المسنمة موجودة في حوت العنبر والحوت المسنم الأحدب على السواء ، ثم تنقطع وجوه الشبه بينهما . وهذا الحوت الأحدب المسنم وحوت جرينلاندي كلاهما ذو بليين ، ثم لا شبه بينهما بعد ذلك . وهكذا قل في الأعضاء واللامح الأخرى التي تقدم ذكرها . فإذا أخذت أنواعاً مختلفة من الحيتان وجدت تلك الملامح تجتمع أو تفترق على غير نظام ؛ وإذا أخذت أحد الأنواع على حدة وجدت أحد الملامح فيه يشدّ عما هو عند غيره . وهذا كله يستعصي على كلّ تصنيف عام تتخذ فيه تلك الملامح أساساً . تلك صخرة تحطمت عندها جهود كل عالم من علماء التاريخ الطبيعي .

وقد يظن البعض أننا إذا اعتبرنا الأجزاء الداخلية من الحوت ، أي الجانب التشريحي فيه ، فهناك على الأقل نستطيع أن نعرّض على التصنيف الصحيح . وأقول ؛ كلا . خذ الجانب التشريحي من حوت جرينلاندي - مثلاً - هناك شيء فيه أهم من بلينه ؟ وقد رأينا أنه من المستحيل أن نصنف حوت جرينلاندي على أساس بلينه تصنيفاً صحيحاً . وإذا اعتبرت أحشاء الأنواع المختلفة

من الحيتان لم تجد مميزات تبلغ في نسبتها واحداً الى خمسين من المميزات الخارجية التي عدناها من قبل . ماذا يتبقى اذن ؟ لا شيء ، سوى أن نأخذ جسم الحوت ، بحجمه المستفيض كله ، وتتخذة أساساً في التصنيف دون تردد . وهذه الطريقة البليوغرافية التي آثرناها هنا وهي الوحيدة التي يكتب لها النجاح لأنها الطريقة العملية دون غيرها . فلنمضِ على منهجنا :

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الرابع : الحوت المسنم : كثيراً ما يرى هذا الحوت على الساحل الشمالي من أمريكا ، وكثيراً ما اصليد هنالك وجز الى الميناء . يحمل رزمة ثقيلة كأنه تاجر متجول ، أو قد تسميه الحوت - الفيل ، أو الحوت - القلعة . على أي حال لا ينفع اسمه الشائع في تمييزه لأن حوت العنبر أيضاً ذو حدبة مسنمة وإن كانت أصغر من حدبة هذا المسنم . وزيته غير ذي قيمة وله بلين ، وهو أشد الحيتان ميلاً الى اللعب والمرح ، فيكثر حوله الزبد المتطاير والماء الأبيض مما لا يماثله فيه حوت آخر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الخامس : الهركول : لا يعرف عن هذا الحوت عدا اسمه ، إلا الشيء القليل . رأيته على مسافة من رأس هورن ؛ محباً للعزلة ، يهرب من الصيادين والفلاسفة . غير جبان إلا أنه لم يبدِ حتى الآن شيئاً من جسده سوى ظهره الذي ينتصب في شكل ربوة طويلة حادة . ليذهب في حال سبيله فلا أنا أعرف عنه شيئاً ذا بال ولا غيري .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل السادس : الحوت الأزرق : هذا ناسك آخر يحب العزلة ، ذو معدة ذات لون كبريتي ، انتحله دون ريب من الاحتكاك بالصخور القارية في بعض غوصاته المتعمقة . قلما يبرز للعيان . على الأقل أنا لم أراه إلا في أقصى البحار الجنوبية ، وهو دائماً بعيد ناء بحيث لا يمكن المرء من استثبات ملامحه . لا أحد يصيده إذ يهرب مبعداً في الوثبة الواحدة بقدر طول جبل كامل ؛ تُحكى عنه أعاجيب ؛ وداعاً أيها الحوت الأزرق ، لا أستطيع أن أزيد شيئاً أعلم أنه صحيح عنك ، ولا يستطيع ذلك أكبر المعمرين في ناتوكت .

بهذا ينتهي الكتاب الأول ويبدأ الكتاب الثاني . قطع الثمن : يضم هذا حيتاناً متوسطة الجرم قد نعدت منها في هذا المقام ١- الغرمبوز ٢- الحوت الأدهم ٣- النرول أو الأيامور ٤- الدرأس ٥- السفاح .

الكتاب الثاني (قطع الثمن)* الفصل الأول - الغرمبوز : أوحى تنفسه الرنان أو بالأحرى

* لم لم اسم هذا الكتاب الثاني « قطع الربع » - هو الذي يتلو القطع الكبير حجماً ؟ لأن الحيتان الواقعة في هذه الفئة - وإن كانت أصغر حجماً من الفئة الأولى - لا تزال تحمل أوجه شبه كبيرة بها . وقطع الربع عند مجلد الكتب ذو حجم ضئيل لا يحتفظ بشكل القطع الأكبر بينما قطع الثمن يحتفظ بحجم القطع الأكبر .

لهائه بمثلٍ يردده أهل البر ، وهو قاطن مشهور من قطان المحيطات ، إلا أنه لا يصنف عادة بين الحيتان لكن حين وجده معظم المؤرخين الطبيعيين يحوز جميع الملامح العظيمة التي تميز اللويثان عدوه منها . حجمه معتدل من قطع الشمن ، يتراوح طوله بين ١٥-٢٥ قدماً وله محيط مشابه عند الخصر . ينتقل قطعاناً ولا يُصاد بانتظام . وإن كان زيته كثيراً وصالحاً للاضائة ، ويرى بعض الصيادين أن ظهوره إرهاباً بأن حوت العنبر العظيم على الأثر .

الكتاب الثاني (قطع الشمن) : الفصل الثاني - الحوت الأدهم : الأسماء التي أطلقها على جميع هذه الحيتان هي الأسماء التي ألفها الصيادون وشاعت بينهم وهي أحسن الأسماء بعامية . وحيث يتفق أن يكون الاسم مبهماً أو غير دقيق التعبير فإني سأقرر أنه كذلك وأتشرح اسماً آخر . وهذا هو ما أفعله بصدد الحوت الأدهم لأن الدهمة أو السواد لون غالب على جميع الحيتان ، ولذلك سمّوه الحوت - الضبع إن شئت . هو مشهور بالشره وبما أن الزاويتين الداخليتين من مشفره منحيتان إلى أعلى فإنه يحمل على وجهه كلوحاً شيطانياً خبيثاً كأنه مفوستفيلس . معدل طوله يتراوح بين ١٦-١٨ قدماً ويعيش في مختلف أنواع المناخ . وله طريقة خاصة في إبراز زعنفته الظهرية الحجناء وهي تبدو شبيهة بالأنف الروماني . حين يكف أصحاب السفن عن استخدام صيادي الحيتان بما يدر عليهم ربحاً يتجه هؤلاء أحياناً إلى صيد الحوت - الضبع حتى يكتفوا المؤونة من الزيت الرخيص للاستهلاك في الشؤون المنزلية - مثلما أن بعض القومة المقتصدين في المنازل والفنادق يستعملون الشحم النتن في الاضائة حين ينفردون ويقل الرواد بدلاً من الشمع الشذي . وطبقة الشحم في هذا الحوت رقيقة إلا أن الواحد منه يقدم أحياناً ما يربو على ثلاثين جالوناً من الزيت .

الكتاب الثاني (قطع الشمن) الفصل الثالث - النرول : معنى الكلمة « الأنافي » ، وهذا مثل آخر على التسمية الغربية التي ألصقت بهذا النوع ، ولعله إنما سمّي كذلك خطأ حين ظن من رأوا قرنه أنه أنف أحجن ؛ يبلغ طوله نحواً من ١٦ قدماً بينما يبلغ معدل قرنه خمسة أقدام ، وبعض القرون يتجاوز عشرة أقدام بل يبلغ خمسة عشر . وما هذا القرن إذا توخينا الدقة إلا نابٌ ممتد نابت من الفك في اتجاه ينزل قليلاً عن الاتجاه الأفقي ، ولا يوجد إلا على الجانب الأيسر من فكه الأعلى ، وله من أجل ذلك تأثير سيء إذ يمنح صاحبه شهباً بمنظر الرجل الأعسر . ومن العسير أن نعين الغاية التي يحققها هذا القرن العاجي أو الحربة ويبدو أنه لا يستعمله كما تستعمل السمكة المسيفة والسمكة ذات المنقار ما لديهما من سلاح ، وإن أخبرني بعض البحارة أن النرول يستعمل قرنه مجرفة في قلب قاع البحر بحثاً عن غذاء . وقال شارلي كوفن أنه يستعمله مخراقاً للجليد ، ذلك أن النرول إذ يرتفع إلى

السطح في البحر القطبي يجده مغلفاً بالجليد فيظمن بقرنه ويشق خلاله طريقاً ؛ ولكنك لا تستطيع أن تبرهن على صدق هذه الاستنتاجات . أما أنا فأرى أنه على أي وجه استعمل النرول قرنه الأعسر فإنه يفيد كثيراً لو اتخذته أداة يمسك بها الكراسات حين يقرأ . وسمعتهم يسمون النرول : ذا الناب الأقرن ووحيد القرن ؛ وهو مثل غريب حقاً على وحدانية القرن التي تكاد توجد في كل مملكة من ممالك الطبيعة الحية . وقد استنتجت من أقوال بعض المؤلفين الرهبان القدامى أن قرن هذا الأقرن البحري كان يعد في الأيام الغابرة الترياق العظيم ضد السم ، ولذلك كانت مستحضراته تدر أرباحاً هائلة . وكان يقطر الى الملح الطيار لتسعف به النسوة اللواتي يصبن بالإغماء على النحو الذي يصنع به النشادر من قرون الغزال الذكر . وقد كان القرن يعد فيما مضى تحفة عجيبة ؛ أخبرني بلاك لتر عن عودة السير مارتن فوربشر حين رجع من تلك الرحلة ولوحت له الملكة بس بيدها المزيّنة بالجواهر من نافذة قصر جرينتش^(١) ، وسفيته الجريئة تنحدر مع نهر التيمس فقال بلاك لتر : « عندما عاد السير مارتن من تلك الرحلة قدّم لجلالته ، وهو راجع ، قرناً ضخماً طويلاً من قرون النرول ظلّ معلقاً مدة طويلة من بعد في قلعة وندسور » . ويؤكد مؤلف إرنندي أن آرل ليستر كذلك قدم الى جلالته وهو يحني ركبته قرناً آخر لوحيد قرن من حيوانات البر .

وللنرول طلعة بهية يشبه بها النمر الأرقط فلونه العام في بياض اللبن ولكنه منقطع ببقع سود مستديرة ومستطلية . وزيته رفيع النوع صافٍ جميل إلا أن ما يوجد منه قليل وقلماً يطارده الصيادون ويعيش في الأكثر في البحار حول القطب .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الرابع - الحوت السفاح ؛ ما يعرفه أبناء نانتوكت عن هذا الحوت قليل فأما العالم الطبيعي فلا يعرف عنه شيئاً . وأستطيع أن أقول بناء على ما رأيته منه عن بعد أنه في حجم الغرنبوز . متوحش شديد الوحشية ، يشبه أن يكون نوعاً من حوت فيجي . أحياناً يعلق بمشفر أحد الحيتان الكبيرة التي وصفت في الكتاب الأول ويظلّ متشبهاً به كأنه الملقه حتى يتردى الحيوان القوي الضخم من الانهاك ميتاً . والصيادون لا يطاردون السفاح أبداً ولم أسمع شيئاً عن نوع زيته . قد أقف متردداً في إطلاق اسم «السفاح» عليه لأنه اسم مبهم ذلك أننا جميعاً سفاحون قتلة ، براً وبحراً ، سواء من كان منا من صف بونابارات أو من فئة أسماك القرش .

(١) يعني الملكة اليزابيث . وقد لوحث له بيدها عندما سافر في رحلته الأولى . ثم قدم لها قرن النرول عند عودته من الرحلة الثانية .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الخامس - الدرّاس^(١) ، هذا السيد مشهور بذنبه اذ يستعمله هراوة يصك بها أعداءه . يمتطي ظهر أحد الحيتان الكبرى (من النوع الأول) واذا يذهب سابحاً يشق دربه بجلدٍ - طريقة يتبعها مديرو المدارس في هذه الدنيا . ما يعرف عنه أقل مما يعرف عن السفّاح . كلاهما خارجي حتى في البحر الذي لا تحكمه شريعة .

بذلك ينتهي الكتاب الثاني (قطع الثمن) ويبدأ الكتاب الثالث (قطع الجزء من اثني عشر ١٢/١) .

قطع الجزء ١٢/١ ، في هذه الفئة تقع الحيتان الصغيرة وهي جميعاً من أنواع البربوز أو الدوحر :

١- بربوز مرحى ٢- البربوز الجرين ٢- البربوز الطحيني .

الذين لم يتفق لهم بخامة أن يدرسوا هذا الموضوع قد يستغربون أن تصنف أسماك لا تتجاوز الأقدام الأربعة أو الخمسة في عداد الحيتان - وكلمة الحوت في الاستعمال الشائع تفيد الضخامة . ولكن هذا النوع الثالث حيتان حقاً اذا احتكنا الى التعريف الذي وضعته للحوث أعني ، سمكة تنفث ولها ذنب أقوي .

الكتاب الثالث (قطع ١٢/١) الفصل الأول - بربوز مرحى : هذا هو النوع الشائع من البربوز ويكاد أن يكون موجوداً في جميع أنحاء الكرة الأرضية ، وأنا الذي منحته هذا الاسم . إذ هنالك غير نوع من البربوز ولا بد من استحداث شيء للتمييز بينها ؛ وإنما أسميه كذلك لأنه يسبح دائماً في رعالٍ جذلة تظل تتوثب في البحر الواسع نحو الفضاء كأنها قبعات الجماهير في الرابع من تموز (يوليه) [عيد الحرية] . والبحار يتطلع الى منظرها مستمتعاً مسروراً ، وهي مليئة بالحوية والمرح وتتجه دائماً من الأمواج التي يراوحها النسيم نحو مهبّ الريح ، فهي عصبه الفتیان التي تعيش دائماً مستقبلة الريح . ويعدها البحارة أمانة فآل حسن ، إنك لا تملك إلا أن تقول مرحى ثلاثاً وأنت تنظر الى هذه الأسماك الطروب فإذا لم تفعل فحالتك يرثى لها ، كان الله في عونك ، إذ أن روح المرح ليست من نصيبك . وبربوز مرحى البدين الذي حسنت تغذيته يعطي جالوناً من الزيت الطيب غير أن السائل الرقيق الناعم الذي يستخرج من فكيه بالغ القيمة إذ يبعث في طلبه الجواهريون والساعاتيون . ويضمه البحارة على حجر المسنن ؛ ولعلك تعلم أن لحم البربوز طيب للأكل وربما لم يخطر

(١) كان حقاً أن يجمله الفصل الرابع حسب الترتيب الذي أورده من قبل .

لك أن البربوز ينفث ، نعم إن نفثته صغيرة حتى أنها لا تدرك . ولكن إن صح لك أن ترى البربوز مرة أخرى فارقبه وسوف ترى أنه حوت العنبر في صورة مصفرة .

الكتاب الثالث (القطع ١٢/١) الفصل الثاني - بربوز الجرين : قرصان متوحش ممعن في وحشيته ، لا يوجد - على ما أظن - إلا في المحيط الهادي . أكبر من بربوز مرعى إلا أنه يشبهه في البنية العامة ؛ استشره تجده تحول قرشاً . قطبتُ حاجبي لمراه عدة مرات ولكنني لم أراه يصاد أبداً .

الكتاب الثالث (قطع ١٢/١) الفصل الثالث - البربوز الطحيني : أكبر أنواع البربوز ولا يوجد إلا في المحيط الهادي ، حسبما بلغ إليه العلم . والاسم الانجليزي الوحيد الذي أطلقه عليه البحارة حتى اليوم هو «البربوز الأثين» لأجل أنه يوجد مصاقباً للحيثان الأثينية . يختلف بعض اختلاف في شكله عن بربوز مرعى إذ هو ذو محيط أقل استدارة ومرحاً . والحق أن له هيئة سيد نظيف أنيق ، ليس له زعانف على ظهره (ومعظم أنواع البربوز ذات زعانف) وله ذنب جميل وعينان هديتان حالمتان عسليتا اللون ، إلا أن لون الطحين على فمه يفسد كل هذا الجمال . لون ظهره أسود حالك حتى زعانفه الجانبية ، إلا أن جدّة فارقة كأنها العلامة في هيكل السفينة تطوقه من أعلى الى أسفل وتسمى «الخصر اللامع» وتفصل بين لونين : سواد الظهر وبياض البطن . ويشمل البياض جانباً من رأسه وسائر فمه فيجعله يبدو وكأنما فرّ بعد أن قام بزورة فاحشة الى كيس الطحين . منظر بالغ في الدناة والطحينية! أما زيتة فيشبه زيت سائر أنواع البربوز .

* * *

بعد القطع ١٢/١ يتوقف التصنيف ، إذ أن البربوز أصفر صنف من حيثان . وفي أعلى القائمة تجد حيثان الكبرى المرموقة إلا أن هناك خليطاً من حيثان شرودة أو منقرضة أو شبه أسطورية أعرفها أنا الحوات الأمريكية سماعاً لا عياناً . وسأعدها مستعملاً الأسماء التي وضعها البحارة وقد تكون هذه القائمة مفيدة لباحثي المستقبل فيكملون ما بدأت به وإذا اصطيد أحد حيثان التالية وعوين حاله أمكن ادراجه في التصنيف الذي رسمته آنفاً ، وفي واحد من الأبواب الثلاثة ، حسب حجمه :

الحوت الذي يشبه عنق الزجاجة - الحوت الينك - الحوت ذو الرأس الذي يشبه البودنج - حوت رأس هورن - الحوت القائد - الحوت المدفع - الحوت القضيف - الحوت المظلف بالنحاس - الحوت الفيل - الحوت الذي يشبه جبل الجليد - الحوت الكووغ - الحوت الأزرق...

الخ . ويقول الشقات من ايسلنديين وهولنديين وانجليز قداماء أنه يمكن اقتباس قوائم أخرى من حيثان لا تعرف هويتها يطلق عليها كل نوع من الأسماء الشاذة . ولكنني لا أوردتها لأنها انقرضت وأنا أتصور أنها كانت كما تدل عليه أسماؤها حافلة بالحوثية إلا أنها أصبحت أسماء دون مدلولات .

وأخيراً : قلت في البداية أن هذا التصنيف لن يجيء ، في هذا المقام مستكماً ولعلك ترى أنني التزمت بما قلت . غير أنني أخلي هذا التصنيف الحيثاني غير مستكمل مثلما تركت كاتدرائية كولون ، والآلة الرافعة ماتزال هنالك على قمة الجرسية التي لم تتم^(١) . ذلك أن المباني الصغيرة قد يتممها المعماريون الذين ابتدأوها ، أما المباني العظيمة ، المباني الحق ، فإن حجر الزاوية فيها يترك للخلف . وقاني الله سبحانه إتمام أي شيء وما هذا الكتاب كله إلا مسودة ، لا بل هو مسودة المسودة . وهاً أين الوقت والقدرة والمال والجلد!

(١) زار ملف تلك الكاتدرائية في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ .

مقطع الشحم

يصلح هذا الموضع لتقييد خاصية من الخصائص المألوفة على ظهر السفينة تتصل بضباط مهنة التحويت وتنشأ عن وجود فنة ضباط من الزراقين ، هي فنة لا توجد طبعاً في أي قطعة بحرية أخرى سوى أسطول الحوارة .

مما يشهد بالأهمية الكبرى المنوطة بحرفة الزراق أن الهولنديين في أعمال الصيد منذ قرنين أو أكثر لم يكونوا يعهدون بقيادة سفينة الحوارة الى الشخص الذي نسميه اليوم «القبطان» وإنما كانت القيادة شركة بينه وبين آخر يدعونه سبكرندر Specksynder وهي لفظة تعني حرفياً «مقطع الشحم» وقد درج استعمالها حتى أصبحت تعني رأس الزراقين . في تلك الأيام كانت سلطة القبطان قاصرة على الابحار وعلى الادارة العامة في السفينة ، أما عملية التحويت وكل ما يتصل بها فكان مقطع الشحم أو رأس الزراقين هو السيد الأول فيها دون منازع . وماتزال وظيفة رأس الزراقين قائمة في السماكة الانجليزية بجزيرة جرينلاند تحت اسم محرف هو سبكيونير ، إلا أن العزة القديمة التي كانت تحف بصاحبها تضاءلت باهتة . فهو اليوم لا يعدو أن يكون زراقاً مقدماً ، وهو بذلك واحد من أدنى الملازمين لدى القبطان . ولكن النجاح في سفرة التحويت يعتمد الى حد كبير على السلوك الطيب لدى الزراقين ، ثم أن الزراق في الحوارة الأمريكية ليس فحسب ضابطاً هاماً في القارب وإنما هو في بعض الظروف (كنوبة الحراسة الليلية أو في ميدان التحويت) صاحب الأمر على ظهر السفينة أيضاً ؛ لهذا كله تتطلب السنة السياسية الكبرى في البحر أن يعيش - اسماً - منفصلاً عن الرجال الذين يقفون أمام الصاري وأن يكون له من التمييز ما يجعله رئيسهم على نحوٍ ما ، وإن كانوا هم يعتبرونه في العادة صنواً لهم في المنزلة الاجتماعية . في البحر يفرقون تفرقة فاصلة بين الضابط والرجل العادي ، فالأول يسكن في المؤخرة

والثاني في المقدمة ؛ لذلك تجد الضباط في سفن التحويت والسفن التجارية على السواء يتخذون مساكنهم مع القبطان ، وكذلك في معظم الحواتات الأمريكية يسكن الزراقون في القسم الخلفي من السفينة ، ومعنى هذا أنهم يتناولون وجباتهم في قمرة القبطان ، وينامون في موضع يفضي الى القمرة بطريق غير مباشر .

وسفرة الحوآة في البحار الجنوبية أطول سفر قام به إنسان أو يقوم به أبداً . فطول السفرة وما يكتنفها من أخطار والشعور بالفائدة المشتركة الذي يسود الجماعة فكل منهم ربيعاً كان أو وضعياً يعتمد في مكاسبه على الحظ المشترك لا على أجور مقدرة وكل منهم مدعو للسهر والدأب والبسالة ، أقول ؛ كل هذه الأمور قد تولد في بعض الأحوال تراخياً في النظام المحكم بأكثر مما يتصدى له النظام في السفن التجارية . ولكن إن يكن هؤلاء الحواتون أحياناً يعيشون معاً كالأسرة البابلية القديمة في بعض الأحوال الساذجة فإنهم مع ذلك كله قلما يتهاونون في شؤون الآداب التي لا بد أن يراعوها وراء الدقل الأعظم - في الأقل ، ولا يتجردون منها بحال . حقاً كثيرة هي السفن الناتوكتية التي ترى فيها الريان يتخطر وراء الدقل الأعظم في عظمة تياهة لا مثيل لها في أي أسطول حربي ، لا بل إنه يتطلب فروض الطاعة والولاء ممن حوله كأنما هو يلبس الأرجوان الامبراطوري لا الكتان المهلهل الذي يرتديه البحار .

وكان قبطان الباقوطة ذا المزاج المتقلب أقل نظرانه استسلاماً لدواعي هذه العجرفية الضحلة ؛ فلم يكن يتطلب من فروض الولاء سوى طاعة كاملة مبادرة ، ولم يكن يأمر أي رجل ليخلع نعليه قبل أن يخطو وراء الدقل الأعظم ، وإن يكن في بعض الظروف ، المتصلة بأحداث سأرويها بإسهاب فيما بعد ، يخاطب رجاله بالفاظ لم يأنفوها سواء أكان مصدرها التواضع أو التهيب أو غير ذلك ، أقول مع هذه الصفات في القبطان آخاب فإنه لم يكن يتنازل أبداً عن مظاهر السيادة والآداب المرعية في البحر .

لا بل ربما لن يفوتنا أن نلاحظ في النهاية أنه كان أحياناً يتخذ من هذه المظاهر وتلك الآداب المرعية قناعاً لنفسه ، ويستغلها بين الحين والحين في تحقيق غايات أخرى خاصة به غير التي وضعت شرعاً من أجلها . فأصبح النزوع السلطاني الذي يخيل ذهنه متجسداً - عن طريق هذه المظاهر - في هيئة دكتاتورية سادرة لا تقاوم ، ولولا تلك المظاهر لبقى ذلك النزوع خافياً غير مستعلن . إذ مهما يكن شأن التفوق الفكري لدى الانسان فإن ذلك التفوق يعجز عن أن ينتحل سيادة ميسرة عملية على الآخرين دون عون من حيل وأساليب خارجية تكون في ذاتها دائماً متفاوتة الحظ من الخسة الدناءة . وهذا هو الذي أبداً يضع أمراء الله

العدول في امبراطوريته الكبرى بمنجاة عن كل ملابسات الدنيا من دسوت ومنصات ومعارك انتخابية وغيرها فيتخلون عن الأمجاد الكبرى التي تتمخض عنها تلك الحيل والأساليب الخسيسة ويتركونها لأولئك الرجال الذين ينالون الشهرة عن طريق وضاعتهم وتدنيهم السحيق اذا قورنوا بتلك الصفوة القليلة من أولياء الله الزاهدين في أمجاد الحياة الراضين بالستر والخمول لا عن طريق سمو أكيد فيهم يرفعهم فوق مستوى الجماهير . وحين تقوم الخرافات السياسية المتطرفة باستغلال هذه الشؤون والحيل الصغيرة فإنها تمدها بقدره كبرى ، حتى أنها في بعض ما يتصل بالملوك من شؤون لتمنح قدرة وصولاً للبلهاء الأغبياء ، ولكن إن كان التاج المستدير الذي يطوق امبراطورية واسعة النواحي ، يستدير أيضاً محكماً حول ذهن امبراطوري كما هو الشأن في حال القيصر نقولا^(١) عندئذٍ ترقع قطعان الرعاع مهينة أمام تلك السيادة المركزية المحكمة الهائلة . إن كاتب المآسي إن شاء أن يصور الصمود الانساني العنيد الركين في نطاقه الكامل وخطرانه الفوري فإنه لجدير به أن لا ينسى أبداً لمحة كالتي ألمحت اليها ذات أهمية بالغة أحياناً لفته .

إلا أن قبطاني آخاب مايزال يتحرك أمامي في عبوسه وبذاذته الناتوكتية . وفي هذه النبذة التي لمست فيها جانب الأباطرة والملوك عليّ ألا أخفي أنني سأتعامل مع حوات مسكين عجوز مثله ، ولذلك فإنني محروم من كل زينة ملكية ظاهرة ، ومن كل ما يعلق بها من حواش وأسباب . آه يا آخاب! كل شيء عظيم فيك يجب أن يُتخطف من الغضاء ، أو يفاص عليه في الماء ، أو يتجسد في الهواء اللا جسداني .

(١) نقولا الأول امبراطور روسيا (١٨٢٥-١٨٩٥) مثال موقن على الاستبداد المطلق حتى عرف باسم القيصر الحديدي .

المائدة في القمرة

الوقت ظهراً ؛ وأمين المؤمن ذلك الغلام العجان ذو الوجه الشاحب ، كأنه رغيغ خبز ، يبرز من ناروزة القمرة ، ويعلن لسيدة ومخدومه أن قد حان وقت الغداء . وسيد جالس لوأداً من الريح يرقب الشمس ، ويحسب سامتاً موقع المكان على المصوّر الأملس الذي يشبه في شكله المدالية ، وهو يحتفظ به لتلك الغاية اليومية على الجزء الأعلى من رجله العاجية . واذا اعتبرت استفراق آخاب في ذهول تام عما أعلنه أمين المؤمن ظننت أن ذلك الرجل المتقلب المزاج لم يسمع ما قاله خادمه . ولم يمسك توأ بأشرعة المظين ، ويطوِّح بنفسه على ظهر السفينة ، يقول بصوت مسترٍ غير مبتهج «الغداء ، يا سيد استاريك» ثم يختفي داخل القمرة .

وحين يتلاشى آخر صدى لخطوات السلطان ، ويقتنع استاريك ، الأمير الأول ، أن سلطانه قد أخذ مجلسه على المائدة ، ينهض من سكينته ، ويدور بضع دورات على الألواح الخشبية ؛ وبعد أن يلقي نظرة رزينة على صندوق الابرة المغناطيسية يقول بصوت فيه مسحة من التهلل «الغداء ، يا سيد اسطب» ، ويهبط في الناروزة . ويتسكع الأمير الثاني فترة حول الحبال ، ثم يهز حلقة الرباط الرئيسي بخفة ليرى إن كان ذلك الحبل الهام على حال جيدة ؛ ويحمل على عاتقه العبء القديم فيقول في عجلة : «الغداء ، يا سيد فلاسك» ويقتفي آثار سلفيه .

غير أن الأمير الثالث وقد وجد نفسه وحده وراء الدقل الأعظم كأنما يحس بأن عبئاً انزاح عن صدره ، فهو يوزع الغمزات المتفهمة في جميع الوجهات ، وينفض مذكروه ، وينفخ في المزمار القرني نغمة حادة لا ضجيج لها ، فوق رأس «الباب العالي» ثم في خفة رشيقة بقبعته على قمة الصاري المظين متخذاً لها منه رقاً ، ويجر رجليه هابطاً ، ما دام على

الأقل بعين الرائي الواقف على ظهر السفينة ويعكس ما يجري في المراكب حين تتخذ موسيقى الختام في البداية . غير أن فلاسك الصغير ، قبل أن يخطو الى باب القمرة ينتحل وجهاً جديداً ، ويدخل حضرة الملك آخاب في صورة القن أو العبد بعد أن كان حراً مرحباً .

في تقاليد البحر أشياء غريبة تولدها شدة التصنع والتكلف ، وليس أقلها غرابة أن يكون بعض الضباط في الهواء الطلق فوق ظهر السفينة إذا هم استشيروا جراًء ، يتحدثون أمرهم ، حتى إذا جعلت هؤلاء الضباط أنفسهم في اللحظة التالية يهبطون الى مائدة الغداء ، في قمرة ذلك الأمر نفسه ، فما أسرع ما تنمات جراتهم ، فإذا هم يلبسون وجوه المسالمين إن لم أقل هيئة المسكنة والانخزال ، حين يجلس أمرهم على رأس الطاولة . هذا عجيب وأحياناً يكون مبعث هزء وسخرية . من أين جاء التباين في الحالين ؟ هناك مشكلة ؟ لعلها ليست كذلك . حين يكون المرء بليشاصر ملك بابل ، وحين يكونه في الدماثة لا في الخيلاء ، فذلك يعني وجود مسحة من العظمة الدنيوية . ولكن من يتصدر مائدة غدائه بروح ملكية ذكية ومن حوله ضيوفه فإن سلطانه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، ونطاق نفوذه حينئذٍ ، والملوكية التي يتبحر فيها ، كل تلك الشؤون تفوق ما كان لدى بليشاصر من سلطان ونفوذ وملوكية لأن بليشاصر لم يكن يبلغ الذروة في هذه الشؤون . ومن أدب مآدبة لأصدقائه مرة واحدة استطاع أن يتذوق طعم «القيصرية» . ففي هذا العمل سحر القيصرية الاجتماعية الذي لا يستعصي على قوته أحد . وإن أضفت إلى هذا الاعتبار ما في وظيفة قبطان السفينة من سيادة مفروضة ، استطعت أن تستنتج السبب في هذا اللون المتفرد الذي ذكرته آنفاً من حياة البحر .

ترأس آخاب المائدة المرصعة بالعاج كأنه أسد بحري صامت مروّض جالس على شاطئ مرجاني أبيض ، يحفه أشباله المحرّبون المؤدّبون في آن معاً . وكل ضابط فيهم ينتظر دوره في سكب نصيبه من الطعام . كانوا كالأطفال الصغار في حضرة آخاب ، ومع ذلك فلم يكن في آخاب نفسه أدنى نصيب من العجرفة المتبسطة . واحتشدت خواطهم جميعاً في بؤرة واحدة حين اثبتوا عيونهم على سكين الرجل العجوز وهو يقطع جانباً من الصحن الرئيسي أمامه ؛ ولست أظن أبداً أنهم دنسوا قداسة تلك اللحظة بهنة هيئة من حديث حتى ولو دار حول موضوع كموضوع حال الطقس مما لا يكلف جهداً . كلا لعمري! حين بلغت قطعة اللحم الحبيسة بين سكين آخاب وشوكته مأمناها في صحن استاريك ، دفع إليه آخاب بصحنه فتلقى رأس الضباط نصيبه من اللحم كأنه يتلقى صدقة ، وقطعها بلطف ، حذراً من أن تخدش السكين وجه الصحن فتبعث حشرة مزعجة ، ومضغها دون صوت ، وازدردتها في غير قليل

من الحيلة والحذر . كانت هذه الوجبات في القمرة خشوعية تؤخذ في صمت رهيب كأنها مأدبة التسويج في فرنكفورت^(١) حيث يتفدى الامبراطور الالمانى مع المستشارين الامبراطوريين السبعة . ومع أن آخاب لم يكن يحرم الحديث على المائدة فإنه هو نفسه كان يظل أحرص صامتاً . أي ارتياح كان يحس به اسطب المختق حين كان أحد الفيران يحدث ضجة مفاجئة في العنبر! أما فلاسك الصغير البائس فهو أصغر الأبناء وأدناهم منزلة في هذا الشمل العائلي المتعب الضجر . حصته هي الظنايب التي كان يكسوها لحم البقر المملوح . حصته قد تكون عظام الدجاجة بين الفخذ والرسغ . إذ لو أن فلاسك خيل اليه أن يجترئ نصيبه من الطعام لنفسه لبدا له أن هذا أمر يناظر السرقة الفاحشة . لو تقدم فتناول نصيبه من الطعام على المائدة لما استطاع دون ريب أن يحتفظ برأسه في هذا العالم الشريف . ومع ذلك فربما استغرب من عرف أن آخاب لم يمنعه من ذلك أبداً . ولو تقدم فلاسك وشارك في أخذ ما يريد فلربما لم يلحظه آخاب أبداً . وأقل ما كان يدور في خاطر فلاسك هو أن يأخذ نصيبه من الزبدة . هل كان يظن أن أصحاب السفينة يحرمونه منها لأنها تعقد سحنته العاقية الواضحة ؟ أكان يحسب أنه ما دام في رحلة بحرية طويلة في مياه ليس فيها أسواق فإن الزبدة نوع من العلاوة لا يستحقها لأنه ملازم وحسب ؟ أياً كان السبب فإن فلاسك . وا أسفاه كان امرءاً لا زبدة له!

وثمة شيء آخر : كان فلاسك آخر شخص يهبط الى الغداء وأول شخص يغادر المائدة : تأمل! من ثم كان فلاسك يلهوج غداءه لضيق الوقت . كان استاريك واسطب مقدمين عليه ، وكانا يتمتعان أيضاً بحق التلكؤ في الخاتمة ، وإذا اتفق أن كان اسطب الذي لا يعد أعلى من فلاسك إلا بدرجة واحدة ضعيف الشهوة للطعام وأبدي في الحال أعراضاً تدل على أنه ختم وجبته ، فمحتوم على فلاسك أن ينهض وعندئذ لا يكون قد زاد على ثلاث لقم في ذلك اليوم ؛ ذلك أن التقاليد المقدسة تحرم على اسطب أن يسبق فلاسك الى ظهر السفينة لذلك أقر فلاسك ذات مرة لخلصائه أنه منذ أن ارتقى الى رتبة ضابط لم يعرف منذ تلك اللحظة شيئاً سوى أنه جائع ، على تفاوت في كلب الجوع لديه . ولم يكن مقدار ما يأكله ليخلصه من الجوع ويتقضى عليه بل كان ذلك القدر من الطعام يطيل عمر الجوع ويخلده . وكان فلاسك يقول لنفسه : « الهدوء والاكتفاء شينان قد غادرا معدتي الى الأبد . أنا ضابط ولكن ما أشد ما أتوق الى أن أمسك قطعة من لحم البقر في منارة السفينة كما

(١) مدينة فرنكفورت على نهر المين . اتخذت مقر الانتخابات الامبراطورية منذ ١٢٥٦ .

كنت أفعل يوم كنت أقف أمام الصاري . هذه هي ثمرات الترقية ، هذا هو بطلُ المجد ، هذا هو جنون الحياة!» ثم لو أن أحد البحارة كان ينقم على فلاسك شيئاً من تصرفاته الرسمية ، فما على ذلك البحار ، اذا شاء أن يثار منه ثأراً عريضاً ، الا أن يذهب الى مؤخرة السفينة وقت الغداء ، ويطل على فلاسك من فضاء القمرة وقد جلس في بلادة والحيرة تعقد لسانه أمام آخاب الرهيب .

كان آخاب وضباطه الثلاثة يمثلون ما يسمى «الفوج الأول» على المائدة في قمرة الباقوطة . وبعد مغادرتهم المكان في ترتيب على عكس ترتيب القدوم ، ينظف غطاء المائدة الخيشي أو بالأحرى يقوم «السفريجي» الشاحب بترتيبه في دهشة وعجلة . ثم يدعى الزراقون الثلاثة الى الطعام ، اذ هم الورثاء لما تبقى منه ، فيحولون القمرة العالية الممتنعة تحويلاً مؤقتاً الى شيء يشبه قاعة الخدم .

ما أغرب الفرق القائم بين حالين على المائدة أولاً حين تشهد الكبت والتوتر وضروب التسلط الخفي حين يكون القبطان وفوجه وثانياً حين تشهد خلو البال والسجاجة بل الديموقراطية الصاخبة التي يمارسها الزراقون ، أولئك الفوج الذي يعد في منزلة أدنى من الفوج الأول . بينا كان أسيادهم الضباط في الحال الأولى يبدون خائفين من صوت حركة الفكين عند طحن الطعام كان هؤلاء الزراقون يمضغون طعامهم في قابلية متفتحة حتى لتسمع للمضغ أصواتاً واضحة . كانوا يأكلون كأنهم سادة ، ويمالئون معدم كأنهم سفن هندية تعباً بالبهارات طول النهار . كانت شهوة كل من كويكوج وطاشطيقو الى الطعام ساعة حتى إذا شاء أن يملأ الفراغ الذي لم تملأه الوجبة السابقة كان على الغلام السفريجي الشاحب أن يأتيهما بكتلة ضخمة من لحم البقر المقدد المملوح كأنها احتزت من جسم الثور الصلب . وإذا لم يقم الغلام بعمله في عجلة ، إذا لم يذهب بين الهرولة والوثب ، لجأ طاشطيقو الى حفزه بطريقة غير حميدة ، اذ كان يقذف ظهره بالشوكة كأنه يحوت بالرمح . ومرة استولت الدعابة فجأة على دغة فحاول أن ينعش ذاكرة الغلام ، فرفعه بيده ودر رأسه في جفنة خشبية فارغة بينا أمسك طاشطيقو بموساه وأخذ يرسم دائرة تمهيداً لنزع جلدة رأسه . كان ذلك الغلام الذي يشبه وجهه رغيف الخبز عصبياً رعديداً مستضعفاً ، ولد لأب خباز مفلس وأم ممرضة في مستشفى . وما الذي يناله من يرى طلعة آخاب القاتمة المرعبة كل حين ويشهد تلك الزيارات الدورية الصحابة التي يقوم بها أولئك المتوحشون الثلاثة سوى أن تكون حياته كلها ارتعاشة في الشفتين! كان في العادة اذا زود الزراقين الثلاثة بما يريدونه هرب من قبضاتهم الى كرازه الصغير المجاور ، وأخذ يسرق النظر اليهم من مفاصل الباب حتى ينتهوا من طعامهم .

منظر يستحق المشاهدة أن ترى كويكوج جالساً قبالة طاشطيقو ، وأسنانه المحددة تواجه أسنان زميله الهندي ، وبينهما دغة يجلس على الأرض لأن الجلوس على مقعد يبعث برأسه الذي يشبه التابوت المحطى بالريش ، هابطاً الى جحيم السواحر ، وكلما حرك في جلسته كراديسه الضخمة جعل القمر المنخفضة تهتز كأنه فيل افريقي ينقل في سفينة . ولكن على ذلك كله كان هذا الزنجي العملاق عيوقاً متقشفاً إن لم أقل متقناً نظيفاً . ويكاد يستحيل على امرئ مثله أن يحتفظ بحيويته منبهة في جثته المستعرضة الفخمة الرائعة الفارعة وهو يكتفي بتلك اللقم التي تعدّ نسبياً ضئيلة ؛ لكن لا ريب في أن هذا الهمجي النبيل كان يتغذى ويحب من عنصر الهواء حوله ويستنشق بوقبي منخريه النافجين حياة الأكوان الرائعة . العمالقة المردة لا يصنعهم اللحم والخبز ولا يعيشون عليهما . أما كويكوج فكان اذا أكل تمطق بشفتيه على نحو همجي بدائي فأحدث بذلك صوتاً بشعاً ، حتى أن الغلام الرعيد يكاد ينظر اليه ليري إن كانت هناك علامات من أضراره تختفي في ذراعيه الناخلتين ، وحين كان يسمع طاشطيقو يفني له لعله يتملى حتى ترتاح عظامه ، كان الغلام الساذج يكاد يحطم المواعين المعلقة حوله في الكرار بما يتبانه من ارتعاد فالجي فجانني . وكيف يهدأ ذلك المسكين وهو يرى حجر المسن الذي يحمله الزراقون في جيوبهم ليشحذوا به أستهم وأسلحة أخرى ، يراه وقد استخرجه كل واحد منهم على الغداء وأخذ يشحذ به سكينه محدثاً صوتاً كأنه الصريف . كيف ينسى أن كويكوج - مثلاً - أيام أن كان في وطنه تورط ولا بد في حماقات تجمع بين القتل والاحتفال بلحوم القتلى! أسفاً أيها الغلام ، ما أشقى النادل الأبيض الذي يقف في خدمة أكلي لحوم البشر . عليه أن يحمل معه ترساً لا فوطة . ولكن ما أقصد سرور الغلام حين ينهض فرسان البحر الملح ويفادرون المكان في الوقت المناسب ؛ غير أن أذنيه سريعتان الى التوهم تصنعان الأساطير فتخيلان اليه أن عظامهم الحربية تفرقع في كل خطوة كأنها سيوف عربية في أغمدها .

ومع أن هؤلاء الهمجين كانوا يتناولون طعامهم في القمر ، ويعيشون - اسمياً - فيها ، إلا أنهم لكراهيتهم اطالة الجلوس قلما كانوا يدخلونها فيما عدا أوقات الطعام وقبل وقت النوم ، حين يجتازونها ذاهبين الى مخادعهم الخاصة . في هذه الناحية لم يكن آخاب بدعاً بين معظم قباطنة التحويت الامريكين ، اذ كانوا يجنحون الى اعتبار القمرات حقاً مقصوراً عليهم ، فإذا دخلها شخص غير القبطان في أي وقت فذلك من باب الحقاوة والتسامح . لذلك يمكن أن يقال أن الضباط والزراقين في الباقوطة ، كانوا في واقع الأمر يقطنون في خارج القمر لا داخلها اذ أنهم عندما كانوا

يدخلونها فإنما كانوا في ذلك كباب البيت الشارع على الطريق ، يدور الى الداخل لحظة ليعود بعدها الى مستقره ويظلّ أبداً في مكانه قاطناً في العراء . ولم يخسروا في هذا شيئاً اذ ليس في القمرة ألفة الأصحاب لأن آخاب كان من الناحية الاجتماعية نائياً كالعيوق . كان محسوباً - بالاسم - في عداد المسيحيين إلا أنه كان مايزال أجنبياً على دنيا المسيحية . كان يعيش في العالم كما يعيش آخر دبية جرسلي في ولاية مسوري بعد أن مهدها الانسان موطناً ، فإذا ذهب الربيع والصيف دس ذلك الحيوان ابن الغابات نفسه في جذع شجرة جوفاء وتفسى فيه الشتاء وهو يلحس برائنه ، كذلك كانت روح آخاب في شيخوخته المقرورة العاوية محبوسة في جذعه المجوف تفتذي هنالك من مخالف عبوسه الكابي .

أعلى الدقل

حين طاب الجو واعتدل جاء دوري أول مرة في سباق التناوب الدوري بين البحارة ، لأصعد الى قمة الدقل .

تزود قمم الصواري في معظم الحوئات الامريكية بالرجال حين تهم السفينة بمغادرة الميناء ، حتى ولو كان عليها أن تبحر ١٥ ألف ميل أو أكثر قبل أن تبلغ ميدان تطوافها ؛ واذا كانت تقترب من الوطن في العودة بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات أو أربعاً أو خمساً وفيها شيء فارغ - هب أنه دن - فإن أعالي الصواري فيها تظل مزودة بالرجال حتى النهاية ولا تتخلى عن رجانها في صيد حوت آخر حتى تصبح أعمدة أشرعتها العلوية بين منارات المرفأ .

وبما أن الوقوف عند قمم الصواري ، سواء في البر أو البحر ، عمل قديم ممتع فلأتحدث عنه في هذا الموطن بأسهاب . أعتقد أن أقدم من وقفوا على قمم الصواري هم المصريون القدماء إذ أنني لم أجد في كل استطلاعي وتنقيبي أحداً سبقهم الى ذلك . نعم إن أسلافهم بناء بابل قد هدفوا من بناء البرج الى أن يشيدوا أعلى قمة صار في آسيا جميعاً أو افريقيا أيضاً ، ولكنهم قبل أن يسقفوها هبت عليها ريح مرعبة من غضب الله ذهبت بتلك السارية الحجرية وأغرقتها ، لذا لا نستطيع أن نقول بأسبقية هؤلاء البابليين على المصريين في هذا الصدد . وحين أقطع بأن المصريين كانوا شعباً له قوام على صواريه فإنما أبني هذا القول الجازم على المعتقد الشائع بين علماء الاثار اذ يرون أن الأهرام الأولى إنما بنيت من أجل غايات فلكية ، وتلك نظرية مؤيدة بأن الجوانب الأربعة في هذه الصروح مبنية على شكل مدرج فكان أولئك الفلكيون القدامى يصعدون الى الذروة بخطوات متفاجئة ينقلون بها أرجلهم مسعداً ويهتفون اذا رأوا نجماً جديداً ، مثلما يهتف مراقبو السفن الحديثة اذا رأوا

شراعاً أو حوتاً على مرأى منهم . ولدينا مثل آخر فذ غير هباب على رجل من القانمين على قمم الصواري ذلك هو سمعان العامودي الناسك المسيحي المشهور في الأيام القديمة . فقد ابتنى لنفسه عموداً من الحجر في الصحراء وقضى كل النصف الثاني من حياته على قمته يرفع اليه طعامه عن الأرض ببكرة ، ولم يكن ليزحزحه من مكانه ضباب أو صقيع أو مطر أو برد ولكن ظل يواجه كل شيء الى النهاية أعني حتى قضى في موضعه . أما القانمون على قمم الصواري من المحدثين فليس لدينا منهم إلا مجمعة غير حيّة ، أعني رجالاً من حجر أو حديد أو برونز ، وهم وإن كانوا أكفاء قادرين علي مواجهة النوء القاسي إلا أنهم فاقدو القدرة على النداء عندما يستكشفون أي شيء غريب . منهم نابليون على قمة عامود فنديم يقف وقد طوى ذراعيه على ارتفاع ١٥٠ قدماً في الفضاء ، لا يبالي من يحكم ظهر السفينة دونه ، سواد أكان الأمر المسيطر يسمى لويس فيليب أو لويس بلانك أو لويس الشيطان . ومنهم واشنطن العظيم الذي يقف شاهقاً على الدقل الرئيس السامق في بليتي مور ، وكأن العمود الذي يقف عليه واحد من أعمدة هرقل ، اذ يصيب رأسه حدّ العظمة الانسانية التي قل أن يتجاوزها أحد من بني البشر . ونلسون أمير البحر أيضاً على رافعة من معدن المدافع يقف على قمة دقله في ميدان الطرف الأغر ، وكلما غلغه دخان لندن كان ذلك نفسه دلالة على أن هناك بطلاً مختبئاً اذ حيث الدخان فتم نار . ولكن واشنطن العظيم ونابليون ونلسون لا يجيبون أية صيحة تتأدى اليهم من أسفل ، حتى ولو استنخاهم الصانحون في لهفة لكي يعطفوا بحسن مشورتهم على السفن الضالة التي ينظرون اليها من عل . وقد يجوز لنا أن نستنتج بأن أرواحهم تتغلغل خلال ضباب المستقبل الكثيف وتستبصر أي شعاب صخرية وصخور يجب أن تتحاشاها تلك السفن .

وقد يبدو أمراً لا مسوغ له أن نجتمع بين القوام على الصواري في اليابسة وزملائهم البحريين في نطاق . والحق أن الحال على خلاف ذلك ويشهد بصدق ما ذهبنا اليه نبذة كتبها عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت الوحيد فيحدثنا عبيد الجليل أن الناس في تلك الجزيرة في دور مبكر من تاريخ التحويت ، قبل أن تعد السفن بانتظام لمطاردة الصيد ، أقاموا سواري سامقة على طول الساحل كان يصعد عليها المراقبون بوساطة مراقٍ مسفرة ، مثلما تصعد الفراخ في بيت الدجاج . ومنذ بضع سنوات اقتبس حواتو الخليج في نيوزيلندا هذه الطريقة فكان المراقبون اذا أبصروا الصيد نهوا القوارب المعدة على مقربة من الشاطئ . غير أن هذه العادة أصبحت أترأ بعد عين ، فلنعد الى الحديث عن القيام الصحيح على قمة الصاري أعني على سفن التحويت في البحر : تبقي الصواري الثلاثة مزودة بالرجال من شروق

الشمس الى غروبها ، ويتناوب فيها البحارة كل في نوبته (كما هي الحال عند الدقة) ويتعاقبون كل ساعتين . وحين يكون الجو في المناطق الاستوائية هادئاً فإن القيام على قمة الدقل غاية في الامتاع ، لا بل إنه مبعث للبهجة عند الرجل المتأمل الحال . هناك يقف المرء على علو مائة قدم فوق ظهر السفينة الصامت متفاجّ الرجلين فوق الأعماق كأنما الصواري ركازات ضخمة ، ومن دونه ومن بين رجليه تسبح أضخم وحوش البحر ، مثلما كانت السفن تمر من بين حدائي تمثال كولوسوس العملاق المشهور في رودس قديماً . هناك يقف المرء مستغرقاً في أثباح البحر المسترسلة الى ما لا نهاية ، في هدأة لا تصخب فيها الا الأمواج ، وتتدحرج السفينة المسحورة في تراخ وأناة ، وتهب الرياح التجارية الناعسة ، فيدفعه كل شيء إلى أحضان النوم وتلتف حوله ، معظم الوقت في حياة التحويت الاستوائية ، وتيرة من الاسترسال الرائع الذي لا تمكروه الأحداث ، فلا يسمع خيراً ولا يقرأ جريدة ولا تفضله ملاحق الصحف وأخبارها المثيرة عن مبتذلات الحياة في سورة من الهياج لا ضرورة لها ، ولا يسمع عن مأسى الأسير ولا عن كمبيالات مسحوبة على مفلسين ، ولا عن تدهور الأسهم ، ولا يشغل باله التفكير في أمر الفداء لأن وجباته على مدى ثلاث سنوات مخزونة وادعة في البراميل ، وقائمة الأسعار لا تتبدل .

وقد تبلغ الساعات المختلفة التي يقضيها المرء عند قمة الصاري - في سفرة من سفرات التحويت الجنوبية تستمر ثلاث سنوات أو أربعاً - اذا أنت جمعتها معاً عدة أشهر كاملات ؛ ومما قد يأسف المرء له أن المكان الذي ينفق فيه هذه الحصة الوفيرة من عمره كله خالٍ محروم للأسف من كل ما يضارع السكن المريح أو من كل ما يولد اطمئناناً واستقراراً في المشاعر كالسرير أو الأرجوحة أو التابوت أو قفص الاتهام أو المنبر أو العربة أو أي شيء من هذه العدد والوسائل الصغيرة الممهدة التي يجد فيها المرء عزلة المؤقتة . ولعل الموطئ الوحيد الذي يحلّه إنما هو قمة الصاري الأشم حيث يقف على عصوين دقيقتين متوازيتين (ويكاد أن يكون هذا أمراً تتميز به سفن الحوامة) يسمونها «الخشبتان الشهمتان» . ها هنا يحس الفرّ المبتدئ في شؤون المراقبة ، والبحر ينتفض من حوله ، أنه في موقف مريح كما لو أنه وقف على قرني ثور . وتستطيع في الجو البارد ، دون ريب ، أن تحمل معك بيتك الى القمة وما بيتك هذا إلا معطف ؛ غير أننا اذا توخينا الصدق قلنا أن أسمك نوع من هذا المعطف لا يمثل بيتاً إلا بمقدار ما يمثله الجسد العاري ، إذ مثلما أن الروح ملصقة مُغزاة داخل هيكله اللحمي ولا تستطيع أن تتثقل فيه حرة ولا أن تفاديه إلا إذا ركبت الفرر وعرضت نفسها للفناء (كالحاج الجاهل الذي يجتاز جبال الألب المثلجة شتاءً) كذلك معطف

المراقب ليس فيه من صفة البيت إلا أنه غلاف أو جلد آخر يغلفك ويحيط بك ؛ وأنت لا تستطيع أن تزج في جسدك رفاً أو صندوقاً ذا أدرج ، ولا تستطيع كذلك أن تحول معطفك حين المراقبة الى مقصورة مريحة .

وبالإشارة الى هذا كله من المؤسف الممض أن لا تزود رؤوس الصواري في سفن الحوامة الضاربة جنوباً بتلك الخيم أو المناير الصغيرة التي يغط عليها أصحابها ، وتسمى « أعشاش الغراب » وبها يتقي المراقبون من حواتي جرينلاند صتارة القر في البحار المتجمدة . للقبطان سليت^(١) كتاب مؤنس متع عنوانه : « رحلة بين جبال الجليد بحثاً عن حوت جرينلاند ، وإعادة كشف - وهذا هدف عارض - للمستعمرات الايسلندية المفقودة التي كانت تابعة لجرينلاند في القديم » . وفي هذا الكتاب المعجب وصف جذاب خطير الشأن لإطلاع جميع القوام على قمم الصواري على عش الغراب في « جبل الجليد » ، وجبل الجليد هو اسم سفينة القبطان سليت ، فسمى اختراعه الجديد « عش غراب سليت » تمجيداً لنفسه ، اذ كان هو نفسه مخترعه وصاحب الامتياز الأصيل فيه ؛ وكان بارئاً من كل تواضع مضحك كاذب ، وكان يرى أننا ما دنا نسمي أبناءنا بأسمائنا (ونحن الآباء مخترعو هؤلاء الأبناء وأصحاب الامتياز الأصيل فيهم) فعلينا بالمثل أن نسمي بأسمائنا كل جهاز آخر نلده . وعش غراب سليت يشبه في الشكل أنبوبة أو قطعة من أنبوبة ، مفتوح من أعلاه حيث زود بحجاب جانبي متحرك يدور نحو مهب الريح ليتلقاها في النوء الشديد عن الرأس ، وهذا العش مثبت في أعلى الصاري فإذا شئت استعماله صعدت فيه من خلال فوهة في أسفله كفوهة المصيدة . وفي الجانب الموالي لمؤخرة السفينة مقعد مريح تحته خزانة للمظلات والأقبية والمعاطف وفي الواجهة الأمامية لوحة مسننة يضع فيها المرء المصوتة^(٢) والغليون والتلسكوب وغير ذلك من الحوائج البحرية . وعندما كان القبطان سليت نفسه يقف على قمة الصاري في هذا العش الذي اخترعه يقول إنه كان دائماً يحمل بندقية (مثبتة أيضاً في اللوحة المسننة) ومعها قارورة من البارود والطلقات ، من أجل أن تجفل ، إذا أطلقتها ، حيطان السُرول الضالة ، أو الحوت الأقرن الجوال ، التي تغير على تلك البحار ؛ ذلك لأنك لا تستطيع أن تطلق عليها النار من ظهر السفينة بسبب مقاومة الماء أما اطلاق النار عليها من عل فإنه شيء مختلف تماماً . وواضح أن الوصف الذي كتبه القبطان سليت ، ليبين

(١) اسم وضعه ملفل ساخرأ ويشير به الى القبطان وليم اسكورسي الأكبر والده مؤلف « خبر عن المناطق القطبية » ، وكان اسكورسي الأكبر من أنجح الحواتين في تلك المناطق اذ قام بثلاثين رحلة ناجحة في مياه خطرة ولم يفقد سفينة واحدة .

(٢) آلة لتقوية الصوت .

في اسهاب أصغر ضروب المنافع التي حققها اختراعه ، كان أمراً محبباً الى نفسه وهو يظن في تبيان كثير من الدقائق ويسلمنا الى وصف علمي دقيق لتجاربه في عش الغراب ، فيحدثنا أنه اتخذ بوصلة صغيرة أودعها هنالك لكي يحسب الأخطاء الناجمة عما يسمى «الجذب المحلي» في مغناطيس صندوق الابرة ، وإنما ينجم الخطأ عن كون الحديد الأفقي مجاوراً عند ظهر السفينة لصندوق الابرة ، وربما كان ناتجاً في حال «جبل الجليد» لوجود كثير من الحدادين المصلولين بين بحارتها . ومع أن القبطان فطن علمي المنزع في هذه الشؤون إلا أنه رغم كل نظرياته في «انحرافات الإبرة» و«ملاحظ على بوصلة السميت» و«أخطاء تقريبية» فإنه يعلم علم اليقين أنه لم ينغمس في هذه التأملات المغنطيسية العميقة انغماساً يعجزه عن أن يجذب بين الحين والحين الى تلك الزجاجاة الصغيرة الطافحة الملففة بعناية ولطف في جانب من عش غرابه ، في تناول ميسر لليد ؛ ومع أنني في الجملة معجب كثيراً بالقبطان الشجاع النزيه العالم ، بل أوليه الحب ، إلا أنني أراه قد أساء النية حين تجاهل أمر تلك الزجاجاة تجاهلاً تاماً ، وهو يرى كيف كانت صديقاً صدوقاً ونديماً رقيقاً حين كان يدرس الرياضيات في الأعالي في عش الطائر على بعد يسير من القطب ، وقد وضع القفاز في يديه والقلنسوة على رأسه .

لكن إن كنا نحن ، حواتي البحار الجنوبية ، محرومين من المهاد المريح في الأعالي ، لا ننال ما كان يستمتع به القبطان سليت وحواتو جرينلاند فإن لدينا ما يعوض هذا الحرمان ويوازيه ويربو عليه فنحن - حوارة الجنوب - قد ننعم بالطمأنينة في تلك البحار المغرية التي نبحر غالباً فيها . وأنا أصدقك القول عن نفسي فقد كنت أصعد الجبال متكاسلاً ، وأرتاح في القمة لأتحدث إلى كويكوج أو الى أي امرئ آخر انتهت نوبته والتقيت به لدى سعودي ، ثم أرقى قليلاً فألقى رجلاً متكاسلاً فوق سارية الشراع الرئيس ، مرسلأ نظرة رائدة على المروج المائية وأخيراً أصعد الى مستقري النهائي .

ودعني أنفض خبيثة صدري في هذا المقام وأقر في صراحة أن الرقابة التي كنت أقوم بها كانت بنيسة . هذا الكون يدور في داخلي فهل في مقدوري - وأنا قد أصبحت وحدي على علو يولد الخواطر والأفكار - ألا أن أستخف بالواجبات التي تفرض علي أن أراعي أمر سفن التحوييت حين تقول : «كن يقظاً مفتح العينين على الجو من حولك ، وارفع عقيرتك بالنداء كل مرة» .

ولأوجه إليكم يا أصحاب السفن النانتوكتيين تحذيراً حافزاً مشيراً في هذا المقام! حذار من أن يكتب للعمل في سماكاتكم اليقظة أي فتى شاحب الجبين غائر العينين مستسلم الى

التأمل في غير إبتانه ، يبحر معكم وقد حمل حوار «الفيدون»^(١) في رأسه بدلاً من «جداول» بودتش . أقول لكم حذار من مثل هذا الفتى . ذلك أن الحيتان لا بد أن تقع عليها العين قبل أن يمكن قتلها وهذا الشاب الأفلاطوني ذو العين الغائرة قد يجركم في عشر دورات حول العالم ولا يزيد غلتكم من زيت الغنبر ربع لتر واحد . وما أقدم لكم هذه التحذيرات اعتباطاً وأنتم في غنى عنها ، لأن سماكة الحيتان في هذه الأيام قد جعلت تصبح ملجأ لكثير من الشبان الرومىتيكيين السودويين الذاهلين الذين ائتمزت نفوسهم من الهموم المضنية على اليابسة ، فجاءوا يطلبون رضى مشاعرهم في الشحم والقار . وكثيراً ما كان تشايلد هارولد يقوم عند قمة الصاري في إحدى سفن التحويت التابعة الخائبة ثم يرسل كلماته المنكدة قائلاً :

تدافعي تدافعي يا أمواج الخضم العميق الأخضر

فقوقك آلاف من متصيدي الشحم يتذبذبون متقليين من غير طائل .

وكثيراً ما يوقف قباطنة السفن هؤلاء الفلاسفة الشبان الذاهلين موقف التفرع ويوبخونهم لأنهم ليست لديهم «رغبة» كافية في الرحلة ، ويلمحون اليهم بأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن الطموح السامي إذ أنهم يؤثرون في قرارة نفوسهم أن يروا أي شيء سوى الحيتان . ويضيع كل تفرع سدى ، فهؤلاء الافلاطونيون يعتقدون أن الرؤية عندهم ناقصة ، وأنهم مصابون بتصر النظر فما جدوى أن يتعقبوا أعصاب العين ؟ وهم لم يحضروا معهم نظاراتهم التي يستعملونها في المسارح .

قال أحد الزراقيين لأحد هؤلاء الفتية : «يا قرد ، قد قضينا في التجوال ما يناهز ثلاث سنوات وأنت لم ترَ حوتاً . إن كنا نجد للدجاجة أسناناً ، وجدنا الحيتان وأنت موكل بالحراسة في الأعالي» . لعله الحيتان اختفت أثناء نوبته ، أو لعلها كانت أكداساً على الأفق البعيد ، ولكن هدير الموج الذي اختلط بالأفكار هدهد ذلك الفتى الذاهل في هدأة حلم أجوف غير واع كأنه سحب الأفيون ، فأفقدته في النهاية هويته ، فأخذ يحسب الخضم الغامض عند قدميه صورة محسوسة لتلك الروح العميقة الزرقاء التي ليس لها قرار ، والتي تغلغلت في الانسان وتخللت عالم الطبيعة ؛ وغدا كل شيء غريب منساب جميل لا تحقه العين بدقة يفرضه ، وكل زعنفه بارزة لا تستبان بوضوح في أي شكل لا يشبهه الادراك تتبدى في عينيه تجسيدا لتلك الخواطر والأفكار الفزارة التي لا تعمر الروح إلا ان استمرت تمزق من

(١) هو الحوار الذي تناول فيه أفلاطون مسألة خلود النفس . وكان من الكتب التي يحبها ملغل .

خلالها . وفي هذه الحال المسحورة تنحسر الروح هاربة الى الصولن الذي جاءت منه ، وتتخلل الزمان والمكان كأنها رفات كرانمر المؤمن بوحدة الوجود حين ذرّيت فأصبحت في النهاية جزءاً من كل شاطئ في الكرة الأرضية^(١) .

تنحسر الحياة من راكب السفينة إلا تلك الحياة المهددة التي تهبها له السفينة نفسها وهي تقدل فوق الأمواج هوناً ما . حياة استمدتها السفينة من البحر ، ووهبتها للبحر تيارات الإلهية خفية لا تدرك . وبيننا المرء مستغرق في هذه الهدأة سابح في هذا الحلم ، قلّ له أن يحرك قدمه أو يده على مدى بوصة ، ليزحزح رأسه قيد أنملة ، ترجع اليه هويته في فزع . إنه ليخلق فوق «دوامات» ديكارت^(٢) ، ولعله في منتصف النار والجو غاية في الاعتدال يرسل صيحة مختنقة محشرجة ويتردى خلال ذلك الهواء الشفاف في أعماق البحر إبان الصيف ، فلا يرتفع من مهواه الى الأبد . تنبهوا لهذا أيها المؤمنون بوحدة الوجود!

(١) هو توماس كرانمر نخبه هنري الثامن رئيساً لأساقفة كانتربري ، وقد أحرق في أكفورد عام ١٥٥٦ متهماً بالهرطقة بعد أن عادت سلطة الكنيسة الرومانية في حكم الملكة ماري . ولكن لم يذكر أحد أن رفات ذرّيت ، ويبدو أن الأمر اشبه على ملغل ، باستخراج رفات وليم ويكلف وحرقتها وقذفها في نهر هنالك «حملها في أرجاء المعمورة» حين ألقى بها أخيراً في البحر الصحيح .

(٢) اعتماداً على نظريات كوبرنيكوس وغاليليو تقدّم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) بنظرية تقول أن كل حركة في الكون هي دائرية أو في هيئة دوامة . وقد بقيت هذه النظرية حتى قفس عليها نيوتن بنظريته في الجاذبية .

الربعة خلف الدقل الأعظم

(يدخل آخاب ثم يدخل الجميع)

بعد مدة قصيرة من حادثة الفليون كان آخاب ، حسب عاداته ، يصعد ذات صباح بُعيد الفطور من دهليز القمرة الى ظهر السفينة . ومعظم قباطنة البحر يتمشون في العادة هنالك في تلك الساعة كالسادة الريفين الذين يدورون في الحديقة بضع دورات بعد وجبة الإفطار . وسرعان ما تأدت الينا أصوات خطواته العاجية الثابتة وهو يذهب ويجيء في دوراته المعهودة على ألواح ألقت وطأته حتى انحفرت آثار مشيته فيها ، وكأنها حجارة جيولوجية . هل حدثت ممعناً في ذلك الجبين المغضن المخدد ؟ هنالك ترى أيضاً آثار أقدام أغرب من تلك - هي اثار أقدام الفكر الذي لا ينفك مسهداً يذرع رأسه جينة وذهوباً .

لكن في المناسبة التي نحن بصددنا بدت تلك الطوابع المنحفرة أشد غوراً مما هي في العادة ، مثلما أن خطوته العصبية القلقة في ذلك الصباح تركت علامة أعمق . وملاً الفكر نفس آخاب ، حتى أنك لتكاد عند كل دورة يدورها حيناً عند الصاري الرئيس وحيناً عند صندوق الابرة أن ترى ذلك الفكر يدور فيه كلما دار ويخطو فيه كلما خطا ؛ وقد تملكه تملكاً تاماً في الواقع حتى كأنما لم يكن سوى الشكل الداخلي لكل حركة خارجية .

همس اسطب يقول : « أترأه يا فلاسك ؟ إن الصوص الذي في داخله ينقر القشرة ولا بد أن ينقف سريعاً » .

وانقضت الساعات . وكان آخاب حبيس قمرته ثم توأ يذرع ظهر السفينة وفي مظهره ما كان فيه من التهمم المستبد نحو غايته .

وأخذ النهار يقترب من نهايته ، وفجأة وقف عند جانب السفينة ودرّ رجله العاجية في الثقب ، وأمسك بيده جانب الشراع ، وأمر استاربك أن يبعث بكل الرجال الى مؤخرة السفينة .

«سماً!» - ذلك ما قاله الضابط وقد اعترته الدهشة لأمر قلما يصدر على ظهر السفينة إلا في الظروف الشاذة .

فردد آخاب : « أرسل كل الرجال الى المؤخرة . المراقبون على رؤوس الصواري ؛ هيا! لينزلوا! » .

وحين احتشدت العصابة كلها وأخذوا يتطلعون اليه ووجوههم يرين عليها الاستغراب وشيء من الخشية والتوجس - إذ أنه لم يكن يختلف كثيراً عن الأفق حين تنذر العاصفة بالهبوب - ألقى آخاب لمحة عجلية من فوق جانب السفينة وسدّد عينيه في البحارة وبدأ المشي من حيث وقف ، أعني استأنف خطواته الثقيلة كأنه لا يحس نامة إنسي على مقربة منه . ومضى يمشي مطأطأ الرأس وقبعته منكفئة بعض الشيء ، غير منتبه إلى الهمس المندهش الدائر بين الرجال ، حتى همس في حذر الى فلاسك بأن آخاب دعاهم ، ولا بد ، ليشهدوا براءة المشي . ولم يستمر هذا الأمر طويلاً إذ صاح بعد تلبث عنيف :

- « ماذا تفعلون عندما ترون حوتاً أيها الرجال ؟ » .

- « نرفع عقائرتنا بالنداء » رددت هذا الجواب المتسرّع عشرون حنجرة معاً .

- « حسن! » كذلك صاح آخاب وفي صوته نغمة استحسان غريبة إذ لحظ الانتعاش

المخلص الذي أثاره سؤاله غير المتوقع وألقى الرجال في حومته بقوة مغناطيسية .

- ثم ماذا بعد ذلك يا رجال ؟

- ننزل قواربنا ونتبعه!

- وأي لحن ترددون وأنتم تجدفون يا رجال ؟

- حوت ميت أو قارب محطوم!

وعند كل صيحة أخذت أسارير الرجل العجوز تزداد تطلقاً واستحساناً على نحو غريب

عنيف . هذا بينما أخذ البحارة ينظر أحدهم الى الآخر نظرات دهشة واستغراب ، كأنهم يعجبون كيف انساقوا هم أنفسهم الى الانفعال بهذه الأسئلة التي تبدو دون غاية .

غير أنهم عادوا وكلهم شغف وتطلع حين خاطبهم آخاب ، بعد أن دار نصف دورة في

الثقب المحوري ، ويده مشبوحة على الشراع وهو يقبض عليه قبضة محكمة لا تخلو من ارتعاش ، فقال :

« أنتم يا حراس الأعالي جميعاً لقد سمعتموني ألقى الأوامر حول حوت أبيض . تنبهوا!

هل ترون هذه الأوقية الاسبانية من الذهب ؟ » ورفع في وجه الشمس قطعة نقد عريضة لامعة

ثم مضى يقول : «هذه القطعة تسوى ستة عشرة دولاراً يا رجال . هل ترونها ؟ ناولني يا سيد استاريك تلك المطرقة» .

وبينا ذهب الضابط يحضرها جمل آخاب ، دون أن يتكلم ، يحك القطعة الذهبية ببطء ، على زيق سترته كأنما يريد أن يزيد في لآلئها ، وكان عندئذ يهمس لنفسه بصوت خافت دون أن يستعمل ألفاظاً ، محدثاً صوتاً مغمغماً مكتتماً حتى بدا وكأنه همهمة آلية تصدرها عجلات حيويته التي تدور في دخيلة نفسه .

وتناول المطرقة الخشبية من استاريك وتقدم نحو الدقل الأعظم والمطرقة مرفوعة في إحدى يديه ، والقطعة الذهبية معروضة في الأخرى وهتف في صوت جهوري :

«من نَبّه الى وجود حوت أبيض الرأس ذي جبهة مجمدة وفك أعوج ، من نَبّه الى وجود ذلك الحوت الأبيض الرأس وفي جانبه الأيمن ثلاثة ثقوب ، من نَبّه الى وجود ذلك الحوت الأبيض نفسه فله هذه الأوقية الذهبية يا أبنائي!»

«زه مرحي! زه مرحي!» صاح البحارة تحية تسمير القطعة الذهبية على الصاري وهم يؤرجحون قبعات التربولين في الفضاء .

وفي أثناء ذلك كله كان طاشطيقو ودغة وكويكوج يتطلعون وقد ساورهم اهتمام ودهشة أشد من سائر الملاحين ، وأجفلوا حين سمعوا ذكرى الجبهة المتجمدة والفك الأعوج كأنما كل واحد على حدة مسَّته ذكرى خاصة .

قال طاشطيقو : «قبطاننا آخاب ، لا بد أن هذا الحوت الأبيض هو الذي يسميه بعضهم : موبي ديك» .

فصاح آخاب : «موبي ديك ؟ اذن فأنت تعرف الحوت الأبيض يا طاش ؟» . فقال الرجل الجايهيدي في تودة : «أترأه يحرك ذنبه تحريكاً غريباً بعض الشيء يا سيدي قبل أن يفوص ؟» .

وقال دغة : «وله نفثة غريبة وهو كثرُ الحاجب بالقياس الى حيتان العنبر الأخرى ، سريع جسور ، يا قبطان آخاب ؟» .

وصاح كويكوج : «وله واحد . اثنان . ثلاث أه! أسنة كثيرة فيه جلده ، قبطان ؛ وكل الأسنة عج مبعج فيه مثل... مثل» وأخذ يتلمس جاهداً كلمة يعبر بها عن نفسه ويبرم يده ويبرمها كأنه يفتح قنينة : «مثل هيك... مثل هيك» . فصاح آخاب : «مثل البريمة . صدقت يا كويكوج كل الأسنة تعوجت فيه والتوت . صحيح يا دغة نفثاته كبيرة كأنها عرمة قمع ؛ بيضاء ككومة من جزز الصوف النانتوكسي اثر الموسم السنوي العظيم لقص الأغنام . أيوه يا

طاش وذنبه يخطر كالشرع المشقوق في العاصفة . يا للموت! يا للشيطان! يا رجال إن ما رأيتموه هو موبى ديك - موبى ديك» .

فقال استاريك ، وكان حتى هذه اللحظة يلحظ رئيسه هو واسطب وفلاسك بدهشة متزايدة ؛ وأخيراً بدا أن فكرة لاحت له فسرت، بعض الشيء، كل دهشته : « قبطان آخاب ، قبطان آخاب سمعت بموبى ديك - أليس هو موبى ديك الذي خلع رجلك ؟ » .

فصاح آخاب : « من أنبأك هذا ؟ » وبعد أن توقف قليلاً مضى يقول : « نعم يا استاريك ، نعم يا أحبائي المجتمعين . هو موبى ديك الذي نزع صاري . موبى ديك هو الذي ألجأني الى هذا الجذم الميت الذي ألق عليه . نعم . نعم » وصرخ في شهقة مرعبة حيوانية كأنها شهقة موظ أصيبت في قلبه واستمر يقول : « أجل . صحيح! هو ذلك الحوت اللعين الذي هدأ ركني وجعل مني خشبة نائمة الى الأبد وكل يوم » . ثم لوح بذراعيه كأنه يصب لعنات لا تحصى وصاح : « نعم . نعم . وسأطارده حول رأس الرجاء وحول رأس هورن وحول الدوامة النرويجية وحول شعل الهلاك والدمار قبل أن أياس من لقائه . ومن أجل ذلك أبحرتم أيها الرجال ، كي تتعقبوا ذلك الحوت الأبيض في نصفي الكرة الأرضية وعلى كل جوانب المعمورة الى أن ينفث دماً أسود ويتقلب ويتضرب وتطفو زعنفته على الماء . ما قولكم يا رجال أتعطونني أيديكم على هذا ؟ إنني لأراكم شجعاناً باسليين » .

« أجل . أجل » صاح الرماحون والبحارة وقد جروا يقتربون من الشيخ الهائج وقالوا : « عيون نفاذة ترقب الحوت الأبيض . رماح حادة مُعدة لموبى ديك » .

بين الشهقة والصراخ قال : « بارك الله فيكم . بارك الله فيكم يا رجال . يا أميين المؤمن . اذهب وأحضر مكيال الجروك الكبير . ما بالك مططت بوزك يا سيد استاريك ؟ ألا تريد أن تطارد الحوت الأبيض ؟ ألسنت كفوؤاً لموبى ديك ؟ » .

- « أنا كفوؤ لفكه المعوج ، كفوؤ لفكي الموت أيضاً ، يا قبطان آخاب ، إن كان ذلك يتفق مع العمل الذي من أجله نسعى ؛ ولكنني جئت هنا لصيد الحيتان لا لأتأثر لرئيسي . كم برمياً من الزيت يأتيك بها انتقامك إن حققته يا قبطان آخاب ؟ إنه لا يفلق عليك ما يفيدك كثيراً في أسواق نلتوكت » .

- « أسواق نانتوكت! تبالاً اقرب يا استاريك . إنك لتطلب نصيباً أكبر^(١) . ان كان المال

(١) في الأصل razeed me ومعنى الكلمة : قطع الريمة العليا من سفينة .

(٢) يلح آخاب هنا الى أن موافقة استاريك قد تشتري بزيادة نصيبه من الأرباح (a little lower layer) ، وقد مررنا أن الأندباء التي يتالها الذاهبون في التحويت تسمى lays (انظر الفصل ١٦ : ١٤١٠) .

هو المقياس أيها الرجل وقدر الحاسبون أن تكون الكرة الأرضية بيت حساباتهم الكبير فطوقوها بالجنيهات ووضعوا جنيهاً على مدى كل ثلاثة أرباع من بوصة فدعني أخبرك بأن انتقامي يدر كسباً عظيماً في هذا المجال .

فهمس اسطب : « إنه يدق صدره بيده . ترى لماذا ؟ والصدى يدل على أنه صدر واسع إلا أنه أجوف » .

فصاح استاريك : « أنتتم من وحش أخرس! ضريك بوحي من غريزته العمياء ؟ جنون! إنك حين تغضب من شيء أخرس يا قبطان آخاب فذلك ذو سب بالكفر » .

- « أسيخوا مرة أخرى - هذا يريد نصيباً في الأرباح ، كل الأشياء المرئية أيها الرجل ليست إلا أفتنة من الورق المقوى . ولكن في كل حادث - في العمل الحي ، في الفعل اليقيني - يقوم شيء مجهول إلا أنه متعل ، فيخفي طابع ملامحه وراء ذلك القناع غير المتعل ، فإذا كان للمرء أن يضرب فليضرب من خلال القناع . كيف يمكن للسجين أن ينفذ إلى الخارج إلا إذا اخترق الجدار ؟ أنا أرى الحوت الأبيض هو ذلك الجدار وقد اندفع قائماً على مقربة مني ، وأحياناً يخيل إليّ أن ليس وراءه شيء ، ولكنه وحده يكفي فإنه يستنزف جهدي ، يطرحني كالكومة ، وأرى فيه قوة غاضبة فاضحة يتعشها حقد مبهم ، وذلك الشيء المبهم هو ما أمقته ؛ وسواء أكان الحوت الأبيض نائباً عنه أو كان هو إياه فإني سأجعل ذلك المقت له نكالاً . لا تتحدث عن الكفر ، يا رجل . إنني لأضرب الشمس لو أنها أهانتني إذ ان كانت الشمس تستطيع الاهانة فأنا أستطيع الضرب ، فهناك دائماً نوع من التعامل الانتصافي ما دام الحسد يهيمن على كل المخلوقات ولكن ليس رئيسي نفسه يا رجل كفاء بهذا التعامل ؛ ومن ذا الذي هو أعلى مني حتى يستحق اسم الرئيس ؟ ليس للحقيقة حدود . حول بصرك! لأسهل أن يطبق المرء تبريق الشياطين من أن يطبق النظرة البلهاء! كذا اذن تحمر وتصفر ، لقد اذابتك حرارتي فأصبح يتطاير منك شرر الغضب . لكن افهم يا استاريك ؛ إن ما يقال في حرارة ، فذلك شيء يخرس نفسه فلا يبين ؛ بعض الناس تصدر عنهم الكلمات الحارة وهي خسة صغيرة . لم أقصد أن أثرك . معلى . ها فانظر تلك الخدود التركية ذات الصحة البقاء ، تلك الصور الحية المتنفسة التي رسمتها الشمس . هذه الفهود الوثنية - التي لا يهمها شيء ولا تعبد شيئاً ، تلك التي تحيا ولا تتطلب أسباباً عن الحياة المتطلبية التي تحس بها ولا تقدم أسباباً . هؤلاء البحارة أيها الرجل ، هؤلاء البحارة أليسوا وحداناً ومجتمعين مع آخاب في أمر الحوت ؟ أنظر إلى اسطب! أنه يضحك ، وانظر ذلك التشيلي هناك إنه يقهقه إذ يتصوره . شجيرتك المزعزعة لا تستطيع أن تقف وحدها في العاصفة الجائحة يا استاريك! وما الأمر ؟ قدره وحدك . أن تعين

غيرك في ضرب زعنفه ، ليس هذا عملاً بطولياً يقوم به استاريك وماذا أيضاً ؟ عن هذا الصيد البائس ، لن تبقى خير حربة في ناتوكت كلها محجمة حين أمسكت كل يد بحجر المسن ؟ آه! أنقلتك القيود والأغلال . ها! رفعتك الأمواج! تكلم - تكلم وحسب ، أجل ، أجل إنه صمتك إذن الذي ينطقك . (ثم على حدة) : انطلق شيء من وقبي منخري الواسعين فتجرعه حتى بلغ رتتيه . أصبح استاريك في قبضتي ، ولا يستطيع أن يقامني دون تمرد وثورة» .

«حماني الله! حمانا جميعاً!» كذلك تمت استاريك بصوت خفيض .

إلا أن آخاب ، وهو مبتهج جذلان اذ يرى التسليم المسحور الضمني لدى استاريك ، لم يسمع دعاءه الأخير المحمل بالندر والتوجسات ، ولا الضحكة الخفيضة التي انطلقت من غير السفينة ، ولا ذبذبات الريح المنذرة بالشر وهي تصطمم بالأمراس ، ولا الخفقات الجوفاء تصدر عن الأسرعة وهي تلمم الصواري ، وقد هوت قلوبها ذعراً في تلك اللحظة . اذ أن عناد الحياة وإبائها عادا يشتعلان في عيني استاريك اليانستين ، وماتت الضحكة التي تأدت من أسفل ، ومضت الريح في هبوبها وانتفخت الأسرعة ، وذهبت السفينة كما كانت من قبل تمايل وتدرج . آه منك أيتها النذر والمنبهات! لماذا لا تبقين حيث أنت حين تقررين القدوم ؟ ولكن أنت أيتها الأطياف مرهصات لا نذر إلا أنك لست مرهصات آتية من الخارج بقدر ما تمثلين الأمور التي تجري في الداخل . اذ أن قليلاً من العناصر الخارجية يعترض طريقنا ويصدنا ، عندئذ تلح الضرورات الدخيلة على أن تحفزنا للمضي .

صاح آخاب : «المكيال! المكيال!» ،

فجاءوه بالاناء القصديري الطافح ، فالتف نحو الرماحين وأمرهم أن يحضروا أسلحتهم . ثم صفهم أمامه قرب المسحاب قد أمسكوا رماحهم بأيديهم ، بينا وقف ضباطه الثلاثة الى جانبه ومعهم حرابهم . وكون سائر العصبة دائرة حول تلك الفئة ووقف برهة يلحظ كل فرد في الملاحين . إلا أن تلك العيون الغريبة واجهت عينيه كأنها عيون ذئاب السهوب الحمر المتوقدة تواجه عيني قائدها قبل أن يندفع وهو على رأسهم في أثر اليبسون ليسقط وأسفاه في فخ خبي ، نمبه الرجل الهندي .

سلم الاناء المترع لأقرب بحار وصاح : «اشرب وأدره لمن يليك . ليشر الملاحون وحدهم الآن . ثم أديروه . أديروه! شرباً قصيراً ، وتمزراً طويلاً يا رجال! انه ساخن كحافر الشيطان . تمام . تمام . هكذا يدار . انه ليثغلغل متولباً ثم ينشطر متجهاً الى العين الغاضبة الأفعوانية . أحسنتم . كدتم تأتون على ما فيه . في هذا الاتجاه ذهب . في هذا يجيء . لقد تحسيتم الحياة المترعة . املاً أيها الساقى!» .

« أصفوا التي أيها الشجعان لقد جمعتمكم حول هذا المسحاب ؛ وأنتم أيها الضباط أحيطوا جناحي بحرايكم ؛ وأنتم أيها الرماحون قفوا هناك ومعكم رماحكم ؛ وأنتم أيها البحارة الأقوياء الأشداء تحلقوا حولي كي أحيي عادة سامية درجت قبلي بين أسلافي الصيادين . أيها الرجال انكم سترون أن... يا غلام! عجل! الدراهم الزائفة لا تعود بسرعة ؛ حسناً . ها هو الاناء مترع مرة أخرى ، لو لم تكن أنت عفريت سنت فيش! عُز يا حتى البرداء! » .

« تقدموا أيها الضباط . ضعوا حرايكم أمامي متقاطعة . أحسنتم دعني ألمس نقطة الالتقاء » . وما ان قال ذلك حتى مَدَ ذراعه وضم جمع يده على الأسلحة المتعارضة في مركز التقائها جميعاً . وإذا فعل ذلك هزها فجأة وفي عصبية بينا هو ينعم النظر حيناً الى استاريك وحيناً الى اسطب حيناً الى فلاسك . وكأنه كان يود أن يفرغ في دخيلة نفوسهم عن طريق عزم دخيل لا يحد تلك الشحنة النارية التي تجمعت داخل الجرة الليدنية من حياته المغناطيسية ، وأصيب الضباط بالوهن الخائر أمام مظهره القوي الصامد الفامض ؛ أما اسطب وفلاسك فحولاً نظراتهما عنه الى ناحية ، وأما نظرة استاريك الشريف فسقطت عند قدميه . وساح آخاب : « عبثاً ، ولكن ، لعل الخيرة في ذلك لأنكم لو أخذتم مني تلك الشحنة المتأججة إذن لنقصت الكهرباء أو تلاشت مني أنا ، وربما لم تقدرُوا على تحملها فصعقتكم ، وربما لم تكونوا ممن يحتاجها . اخفضوا حرايكم! وأنا أوظفكم يا ضباطي الثلاثة سقاة لأنسبائي الوثنيين الثلاثة الواقفين هنالك - أشرف الناس وأعلامهم محتداً ، أولئك الزراقين الشجعان . أتزدرون هذه المهمة ؟ ماذا تقولون في البابا العظيم وهو يغسل أقدام الشحاذين مستعملاً تاجه البابوي ابريقاً ؟ اه أيها الكردينالات الأحياء! إن تواضعكم هو الذي يحيي جباهكم لأدائها . أنا لا آمركم وإنما أنتم تريدون . جدّوا الأربطة وافصلوا القنوات من الأسنة أيها الزراقون » .

أطاع الزراقون الثلاثة أمره في صمت ووقفوا أمامه وقد انفصلت الأسنة من قنوات رماحهم - وطول السنان منها ثلاثة أقدام - وهم قد أشرعوها .

- « لا تطعنوني بذلك الفولاذ النفاذاً اميلوها! اميلوها! ألا تعرفون قرارة الكأس . اجعل ثعلبة السنان التي أعلى . تمام . كذا . انتم أيها السقاة تقدموا . الأسنة! خذوها . احملوها وأنا أصب » . وبذلك مشى ببطء من ضابط الى آخر وملاً ثعلبة كل سنان بالشراب الناري يصبه من الاناء .

- « انتم الآن ثلاثة يواجهون ثلاثة . ضعوا ثقمتكم في هذه الكؤوس الفولاذية القاتلة .

سَلَموها الى أصحابها يا من أصبحتم فريقاً في هذه الرابطة التي لا تنفصم . ها! استاربك! لقد تمَّ كل شيء! وهذه الشمس المؤمنة على خطتنا تشهد على العهد . اشربوا أيها الزرّاقون . اشربوا وأقسموا أنتم يا من تقفون عند مقدم القارب المرصد بالموت - أقسموا أن يكون الموت نصيب موبي ديك . قولوا : جعلنا الله جَزْراً لنقمته إن لم نجتزر موبي ديك حتى يموت» . رفعت الأسنة التي اتخذت كؤوساً وتساعدت الصيحات وانصبت اللعنات على الحوت الأبيض ، وأغرقت الأرواح عندها في جرع الشراب . اصفر استاربك وحول وجهه وارتعد ؛ ثم جرى الاناء مرة أخيرة يدور بين الملاحين الهائجين ، وعندما لوح لهم آخاب بيده تفرقوا جميعاً ، أما هو فذهب ينزوي في قمرته .

الغروب

(المنظر في القمرة، عند النوافذ المظلمة على مؤخرة السفينة، آخاب جالس وحده يحرق في الفضاء)

« حيثما اتجهت خلفت أثراً أصفر كدراً . حيثما أبحرت فتمّ مياه شاحبة وخذود أشد شحوباً . الأمواج الفيّري الحاسدة تتدافع على الجانبين لتطمس أثري . لتفعل إن شاءت فأنا أمرّ أولاً وأخلفها ورائي » .

« هناك عند حافة هذا الكأس المترع أبدأ تملو الأمواج الدافئة حمرة الخجل كأنها الخمر ، والحاجب الذهبي يسبر غور الأزرق المائي . والشمس قامس يهبط . وقد مالت عن سمت الظهيرة - وروحي تصعد لأنها سئمت لبشها عند مشارف الأرض . هل التاج الذي ألبسه - إذن - ثقيل ؟ تاج لومبارديا الحديدي^(١) ؟ هذا وفيه تتلألأ جواهر عديدة . أنا الذي ألبسه لا أرى المدى الذي يبلغه للأوها . إلا إنني أحس إحساساً مبهماً بأني ألبس شيئاً يحتر ويعمشي . حديدي هو - أدري ذلك - لا ذهبي . مصدوع هو أيضاً - أحس ذلك . والحافة المثلمة تشكّني حتى أن دماغي ليدق دقاته ضد المعدن الصليب . نعم . جمجمة فولاذية هي جمجمتي . مثلها لا يحتاج خوذة في أي قتال ينغر حشو الرؤوس » .

« أتعلو جيّهي حرارة جافة ؟ يا لله! رحم الله أياماً كنت إذا لسعني فيها حمة الشروق رقتني منها تعويذة الغروب . كل ذلك انقضى . هذا الضوء الجميل لا يضوّئ جنبات نفسي . كل جمال أصبح مصدر عذاب لي لأنني لا أستطيع أن أتملاه . وهبت الإدراك العالي فأعوزتني القدرة الدانية التي تحسن التملّي والاستمتاع . ملعون على نحو خبيث ماكر! مطرود من الرحمة وأنا في رحبة الفردوس! طابت ليلتكم - طابت ليلتكم! » [يلوح بيديه ويفاندر النافذة] .

(١) محفوظ في كاتدرائية مونزا بإيطاليا . كان يستعمل في تنوير اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وتروي الأساطير أن فيه مسماراً من مسامير الصليب الذي دق ليسى .

«لم تكن مهمة صعبة . ظننت أنني سأجد في الأقل واحداً حروناً عنيداً . إلا أن شئني وافق طبقتهم ؛ طوقى المسنن يلائم كل عجالاتهم المختلفة فتدور حوله وفاقاً . أو إن شئت فقل إن كل امرئ فيهم جرثومة من مسحوق البارود تقف أمامي ، وأنا أعواد الكبريت . تشبيهه صعب غير موفق! إذ أن الكبريت إن شاء أن يشعل الآخرين فقد وجوده أولاً . ما جرؤت عليه أردته ، وما أردته سأحققه . يظنونني مجنوناً - استاربك يظنني كذلك ، إلا أنني شيطاني ، إنني الجنون هائجاً مجنوناً! جنوني هو الجنون الذي لا يهدأ إلا ليتأمل نفسه! قالت النبوءة سأفقد عضواً - صدقت فقد فقدت هذه الرجل ، وأنا الآن أتنبأ بأنني سأفقد من ذهب برجلي أعضائه . لأكن أنا العراف ومحقق المرافة معاً . هذا شيء آيتها الألهة العظيمة فوق طوقك . أنا أضحك وأمكو منكم سخرأ ، يا لاعبي الكريكت يا «قبضيات» ، أيها الصمّ مثل بيرك أيها العمي مثل بنديجو^(١) ، لن أقول كما يقول تلميذ المدرسة لفتوة من فتوات العواهر : «فتش لك على واحد قدك ، لا تلكمني» . لا . لقد سرعتموني وها أنا أنهض من كبوتي ، إلا أنكم هربتم واختبأتم من وجهي . ابرزوا التي من وراء حشيات القطن التي تحتمون بها . ليست معي بندقية طويلة تبلغ مداكم . تعالوا! آخاب يهديكم تحياته . تعالوا وانظروا إن كنتم تستطيعون أن تزحزحوني من موقعي . تزحزحوني! لا تستطيعون ذلك إلا إذا زحزحتم أنفسكم . أمامكم رجل . تزحزحوني؟ لقد مددت الى غايتي المثبته سكة حديدية ورسمت لروحي أن تجري عليها لتبلغها فأنا أندفع دون خطأ فوق مضايق لا يعرف غورها وخلال جبال لم تخترق صعاها تحت أثباح السيول والتيارات الجارفة . لا شيء يقف عقبة في طريقي ، لا انعطاف في السكة الحديدية العامدة» .

(١) كان بيرك بطل إنجلترا في الملاكمة عام ١٨٢٢ ، وكان بنديجو واسمه ولهم طومسن بطلاً آخر ١٨٢٩-١٨٤٥ .

غيش الظلام

(عند الصاري الرئيسي وقد استند إليه استاريك)

«روحي لم تنلها أطراف الثقب فحسب ، انها معبأة الى درجة الانفجار . عبأها رجل مجنون . حُمة لا يطاق لسعها إن يبسط الجنون ذراعيه حول كل هذا المجال . الا أنه حضر عميقاً عميقاً ووضع لغماً فجر به كل عقلي . أظنني أبصر خاتمته الكافزة ولكنني أحسن أن عليّ مساعدته لبلوغها ؛ شئت أو أبيت - لقد ربطني به ذلك الشيء الذي لا أجد له اسماً أو وصفاً ، ربطني بحبل لا أجد معي سكيناً أجذه بها . يا للشيخ المفزع الرهيب! يصيح قائلاً ، من ذا يسيطر عليه ؟ نعم انه قد يكون ديموقراطياً مع كل من فوقه . انظر كيف يبسط سيادته على كل من دونه! آه! بوضوح أرى مهمتي التاعسة - ان أطيع والثورة تعتلج في نفسي ، وأسوأ من ذلك أن تخالط كراهيتي لمسئمة من شفقة ، اذ أنني قرأت في عينيه ويلاً مرعباً مكفهرأ لو كان بي لشلّ قواي . ومع ذلك فحمة أمل . الزمن والمدّة تياران عريضان ، فالعالم المائي كله مجال للحوت البفيض مثلما أن الزهرية الزجاجية بيت للسمة الذهبية الصغيرة ، واللّه قادر على أن يرخي حبال الزمن بينه وبين غايته التي أهان بها وجه السماء . لاستخفّ قلبي الرجاء لولم يكن قلباً مثقلاً كأنه الرصاص ، لكن مزولة حياتي تنحدر ، وقلبي هو الذي يرجح بها ، وقد ضاع مني المفتاح الذي يعينني على رفعها من منحدرها» .

[يسمع صوت عريضة آتية من المنارة]

«رباه! كيف يبهر المرء مع أفراد عصبه وثنية لم تلدهم أمهاتهم من بني الانسان وانما تمخض عنهم البحر أو قرش البحر . فالحوت الأبيض هو الفرغون المخيف لديهم . سمعاً! هذا هو اللهو الشيطاني . تجيء المريدة أولاً ثم يعقبها صوت محتوم . أظن هذا يمثل لنا الحياة . في الأمام ينطلق مقدم السفينة المرح المتأهب المتماجن خلال البحر اللامع الفوار لا لشيء الا ليجر أخاب في أعقابه ، حيث يقيم مستغرق الفكر في قمرته الواقعة عند المؤخرة

المبنية على ماء المخر الساكن الهامد ، ومن بعد يتشبه بها الخير المتذنب . يهز العواء
المديد أعماقي . صمّأ! أيها المعريدون وابدأوا نوبة الحراسة . آه أيتها الحياة في ساعة
كهذه الساعة حين تكون روعي قد قهرتها المعرفة واستولت عليها - معرفة كالتّي تتغذى بها
الأشياء المستوحشة الجاهلة مضطرة - في ساعة كهذه أيتها الحياة أحس بالرعب الكامن
فيك ، لكنه ليس رعباً من داخلي ، هو رعب يقع خارج نفسي ، وسأحاول أن أقاتلك يا
أشباح المستقبل الجاهمة بالشعور الانساني الرقيق الذي في . أيديني ثبتي قدمي أعلقي
حبالك بي أيتها القوى المبروكة! » .

النوبة الأولى في الحراسة الليلية

مرقبة الصاري الأمامي (اسطب وحده يصلح احد الأربطة)

ها! ها! ها! إحم! أجلو زوّري منذ ذلك الحين وأنا أفكر فيها والختام دائماً سلسلة من ها! ها! ها! لمّ كان ذلك كذلك؟ لأن الهأمة الضاحكة أحكم جواب وأسفه عن كل تلك الغرابة . وإذا كفلت للانسان راحته ، تلك الراحة التي تحضر حين تطلب ، فلا خير أن يقع ما يقع ، فكل شيء بقضاء وقدر . لم أسمع كل حديثه مع استاربك ولكن استاربك تبدى لعيني المسكينة شيئاً كالذي أحسست به أنا في تلك الأمسية . كن واثقاً أن السلطان العجوز قد صلبه . أدركت ذلك ، عرفته ، ولو كانت لدي الموهبة لتنبأت به لأنني حين صفت جمجمته بنظرتي رأيت ذلك الأمر . حسناً يا اسطب . يا اسطب يا عاقل - ذلك هو اللقب الذي أحرزته - حسناً يا اسطب ، أي بأس عليك؟ ها هنا جشة . أنا لا أعرف كل ما قد يقع ولكن مهما يكن فإني سأذهب للقاءه ضاحكاً . أي غمز عابت تنطوي عليه مرعبات دنياكم! أشعر أنني مضحك فا . لا . ليرا . سيرا... ترى ماذا تصنع اجاصتي الشهديّة الريّا في البيت الآن؟ أتراها تبكي؟ أم تراها تستضيف آخر دفعة وصلت من الرماحين ، فهي مرحة كأنها علم الفرقيقة ، وكذا أنا فا . لا . ليرا سيرا . آه!

سنشرب الليلة بقلوب جدلى

استخفّها الحب فهي مرحة رشيقة

كالحب الطافي عند حافة الكأس

ينمات إذا لامسته الشفاه .

شعر جزل جميل - من ذا يناديني ؟ السيد استاريك ؟ نعم سيدي نعم - (ثم على حدة)
هو رئيسي وله رئيسه أيضاً إذا لم أكن مخطئاً في التقدير - أجل . أجل يا سيدي تمهل
علي . أكاد أنهي هذه المهمة . آت إليك .

منتصف الليل عند المنارة

الزرقاون والبحارة (يرتفع الماري الأماسي، فيظهر
الحراس المناويون واقفين متبلدين متكلين مضطجعين
في اوضاع مختلفة وكلهم يغنون معاً في جوقة):

وداعاً وفي رعاية الله يا أيتها السيدات اسبانيات
وداعاً وفي رعاية الله يا سيدات اسبانيا
قبطاننا قد أمر - .

البحار الأول من ناتوكت ،

أيها الفتيان لا تكونوا عاطفيين . ذلك شيء يضرّ بالهضم . احفظوا اللازمة
وهينوا أنفسكم للنعمة ورددوا بعدي .
(يفني ويأتمّ به الجميع) :

قبطاننا واقف فوق الدكة

وفي يده مراقب

يرى به الحيتان الجريئة

وهي تنفت عند كل شاطي

ضعوا دناتكم في قواربكم يا فتیان

وقفوا عند معاقد الحبال

وسنصيد حوتاً من هذه الحيتان

فاعقدوا العزائم تكاتفوا كالبنیان

تهلّلوا وافرّحوا يا فتیان ، لا خارت منكم القلوب!

حين ينقض الرماح الجري، ليظمن الحوت .

يتأدى صوت ضابط من الربعة وراء الدقل الأعظم ،

اقرع الجرس ثماني مرات ، هناك هيا!

البحار الثاني من نانوتوكت :

أوقفوا الفناء! ثماني دقات هناك! أسمع يا جراس دق الجرس ثماني دقات أنت يا بيب! يا أسويد ، ولادعُ النوبة فمي صالح لذلك ، فم كأنه البرميل . هكذا . هكذا : (يدلي رأسه في الناروزة) ستار - بو - لي - نزا هوي! ثمانية أجراس هناك في الأسفل! هيا أسرع!

البحار الهولندي :

تمسيلة عظيمة هذه الليلة يا صويحب ، ليلة مسترخية كسلى . لحظت ذلك في الخمرة التي أدارها علينا ريسنا ، فهي مميتة لبعضنا ، مهيجة لسانرنا . فنحن نغني وهم ينامون ، أي نعم ، يضطجعون هناك كالبراميل المشدودة بالأرض . خذ هذه اليراعة وانفخ فيها ونادهم ؛ قل لهم يكفوا عن أن يحلموا بصواحبهم . قل لهم نُفخ الصور وبعثر من في القبور . عليهم أن يطبعوا على شفاه الخليلات آخر قبلة - في المنام - وينهضوا للحساب . هذا هو السبيل ، إن حلقي لم يتلفه أكل الزبدة الهولندية .

البحار الفرنسي :

صه ، يا أولاد! لنرقص لرقصة أو رقصتين قبل أن نرسي في خليج بلانكت . ما قولكم؟ ها هم أفراد النوبة الثانية . استووا على أرجلكم . بيب! بيب! هات الطنبور .

بيب (وهو برم مأخوذ بالنوم) :

لا أعرف أين هو .

البحار الفرنسي :

اضرب على كرشك إذن بدلاً منه ، وحرك أذنك . ارقصوا الرقصة يا رجال . حلوة هي لفظة الرقص ؛ مرحى! ويلي ألا تريدون الرقص ؟ اصطفوا واحداً واحداً واقفروا في دبكة مزدوجة . تطوحووا . أرجلكم! أرجلكم!

البحار الايسلندي :

لا أحب هذه المصطبة يا رفيق ، ذوقي يراها رطبة بليلة ؛ أنا تعودت على مصاطب الجليد . آسف اذ أسكب ماء بارداً على ما أنت متحمس من أجله . ولكن معذرة .

البحار المالطي :

وكذلك أنا أجدني متعاساً عن الرقص . أين الفتيات ؟ أي أحقق يأخذ يده

اليسرى في يمناه ويقول لنفسه وهو يهزها : مرحبا . كيف حالك ؟ أريد رفيقة تراقصني ، أين الرفيقات!

البحار الصقلي :

أي نعم! فتيات وبساط عشبي أخضر عندنذر أثب وأنط معكم بل أصبح جندياً إن شتمت .

بحار لونج آيلاند :

يا بلداه! ان قعدتم عن الرقص ففيركم كثير . أقول : أحصدوا قمحك حين تريدون . ستسعى الأرجل عما قريب الى الحصاد . آه . ها هي الموسيقى حضرت . ها اليها!

البحار الأزوري : (يصعد ويضع الطنبور عند أعلى الناروذة)

بيب . ها هي الآلة وهناك عضادة الرافعة . اصعد! يلاً يا فتيان!

(نصفهم يرقص على نضبات الطنبور ، بعضهم يهبط الى أسفل ،

بعضهم ينام أو يستلقي بين لفائف الأمراس . الشانم سيل غزير)

البحار الأزوري (يرقص) :

نعم . نعم يا بيب . دق يا جراس دق . نعم . حكم . دمدم . قدم . يا فتى الأجراس . ابعث الشرار فوق النار . وحطم الجلاجل .

بيب :

تقول الجلاجل! هذا واحد قد هوى . أنا أطمه هكذا .

البحار الصيني :

جلجل بأسنانك ودعها تتلاطم . اجعل من نفسك معبداً هندياً .

البحار الفرنسي :

استطارني الطربوا أمسك هذا الطوق يا بيب حتى أقفز من خلاله . ايتها الأشرعة المشققة . تمزقي!

طاشطيقو (يدخن في هدوء) :

هذا رجل أبيض بحق يسمى ما يفعله مراحاً . أف له . أنا في غنى عن التعب والعرق .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

عجباً هل يعلم هؤلاء الفتية المرحون أي شيء هو الذي يرقصون فوقه . أمرُ

وعيد تنفوه به نساء الليل عندكم ، أولئك اللواتي تصنمنهن الريح عند المنعطفات أن تقول احداهن : سأرقص فوق قبرك ، سأرقص . يا للمسيح! حين يفكر المرء في الأساطيل الخضراء والبحارة ذوي الجماجم الخضراء . ايه صدق علماءكم حين قالوا أن الأرض مستديرة ولذلك صبح لأهلها أن يجعلوا منها دواراً للرقص . ارقصوا يا فتيان فأنتم في عهد الشباب . كان لي شباب . البحار الثالث من ناتوكت .

عرق! عرق! واه هذا أسوأ من جز القوارب خلف الحيتان في جو - هات نفساً يا طاش .

(يتوقفون عن الرقص ويتعلقون حلقاتاً . في الوقت نفسه تكنهر السماء وتقوى الريح)

البحار الهندي :

وحتى براهما يا فتيان سيقولون انزلوا الأشعة عما قليل . مده عالٍ سماوي كأنه مده نهر الكنج قد تحول ريحاً . انك ترينا عين الغضب المكفهر يا رب الأنواء^(١)!

البحار المالطي (متمدد يهز قبته) :

هي الأمواج - قبعات الثلوج جاءت ترقص رقصتها . عما قليل تهز هذابها . ليت الأمواج جميعاً كانت نساء ، اذن لنزلت اليهن ورقصت معهن . ليس في الأرض ما هو عذب مثل اللمحات الخاطفة ترسلها الصدور الدافئة الشائرة في الرقص حين تخفي كرمه الأذرع التي تظللها عنياً ناصجاً جامحاً مستوفزاً .

البحار الصقلي (وهو متمدد) :

على الخبير سقطت . اسمع يا فتى . لمحاً واذا الأجسام تتعانق - تميح كتميح الأغصان الفضة - لمسات وجمشات - رعشات . الشفة! القلب! الرانفتين! تمتع بالنظر اليها . لا تكف عن لمسها ثم امض . لا تذق . افهم ان ذقت شبعنا! مش كده يا وثنى؟ (يلكزه لينتبه) .

البحار التاهيتي (متمدد على حصير) :

يا ما أحلى العري المقدس في فتياتنا الراقصات - رقصة الهيوا هيوا . آه يا

(١) هو سيفا رب الدمار والخراب في الدين الهندوسي .

دانية الخمار يا سامقة النخيل يا تاهيتي . لا أزال أريح جنبي على حصير من صنعك لكن أين الثرى الناعم ، ثراك ؟ رأيتك يا حصيري تنسجين في الغابات . خضراء كنت أول يوم جئت بك من هناك . وها أنت بليت وذبلت النضارة . ويلاه! لا أنا ولا أنت نستطيع أن نطيق البلى . كيف بك لو تعرضت للأنواء . ها أنا أسمع الجداول الهادرة من قمة بيروهيتي ذات الشفاف حين تندفع من خلل القنان وتفرق القرى والقيعان . العاصفة! العاصفة! انهضي يا نفس وواجهيها (يقفز واقفاً على قدميه) .

البحار البرتغالي :

يا للبحر كيف يتدافع متناثراً على جنب السفينة . تهبأوا لطي الأصرعة يا أعباء . الريح قد استلت سيوفها وشهرتها وعماً قليل ستقوم المباراة حالاً .

البحار الدنماركي :

قعقي قعقي أيتها السفينة القديمة فأنت متماسكة الجوانب ما دمت تتقععين . أحسنت! الضابط هناك يمسك بك بثبات . لم يعد يخاف كأنه قلعة في جزيرة كاي تجوت شيدت هناك لتقاتل بحر البلطيق بمدافع تجلدها العواصف ، ينعد عليها ملح البحر .

البحار الرابع من نانوكوت :

تذكر أن لديه أوامر . سمعت آخاب الشيخ يقول له أنه يجب أن يقتل العاصفة مثلما يفجرون أنبوب الماء بمسدس - سمعته يقول : أطلق سفينتك رأساً في قلب العاصفة .

البحار الانجليزي :

دم! هذا الشيخ كاجار^(١) عجوز . نحن الفتيان الذن سنصيد له الحوت!

الجميع : نعم . نعم .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

كيف تهتز هذه الصنوبرات الثلاث . الصنوبر أصلب نوع من الشجر وأقدره على الحياة حين ينقل من تربة الى تربة ولكن أي تراب في السفينة سوى التراب الملعون الذي صنع منه الملاحون . ثبات يا قيم الدفة ، ثبات . هذا

(١) كاجار : Cajar صحاؤ مكة . وقد استعملها الجاحظ في البخل .

النوع من الجو تخور فيه القلوب الجريئة على البر وتتصدع الهياكل المنبسطة
في البحر . على قبطاننا علامة الميلاد . انظروا هناك يا أولاد تروا علامة
أخرى في السماء ، تتوهج لامعة - وكل ما عداها أسود كالقار .

دغة :

وماذا في هذا ؟ من كان يخاف السواد فإنه يخافني . أنا قطعة منتزعة منه .

البحار الاسباني (على حدة) :

يريد أن « يتقبضن » أه! الحقد يجعلني حساساً سريع الانفعال ، (يتقدم) نعم
أيها الزقاق لا نكران في أن بني قومك هم الجانب المظلم من بني الانسان -
سواد كسواد الشياطين ؛ هل زعلت ؟

دغة (في تجهم) :

أبدأ .

بحار من ستياغو :

هذا الاسباني أما أن يكون مجنوناً أو سكران . والأول أقرب الا أن تكون
المياه النارية التي سقاء إياها ريسنا طويلة الأثر في كيانه .

البحار الخامس من نانوتكت :

ما هذا الذي رأيته - برق ؟ نعم .

البحار الاسباني :

لا . هذا دغة كشر عن أنيابه .

دغة (واثباً) :

سكر بوزك ، يا قزم . بشرة بيضاء وقلب منحوب .

البحار الاسباني (يلاقيه) :

بمديتي أشق صدرك في سرور . جرم كبير وروح صغيرة!

الجميع :

خناقة! عركة! خناقة!

طاشطيقو (وهو ينفث نفساً) :

خناقة في الأسافل وخناقة في الأعالي - الآلهة والرجال - كلاهما متترع

(١) تمثال بريسوس يحمل رأس مدوزا في فلورنسة من البرونز صنمه بينفوتو تشارليني (١٥٠٠-١٥٧١) .

متسرع للقتال - أف!

بحار بلفاست :

عركة! ها ها خناقة! بركاتك يا عذراء . خناقة! ما عاش من تخلف!

البحار الانجليزي :

المهم التكافؤ! اخطفوا المديّة من الاسباني! تحلقوا! تحلقوا!

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

ما أسرع ما تحلقوا . هناك! الأفق المشلق الدائري . في تلك الحلقة قتل قابيل هابيل . أهذا شيء . حلوا! أهذا عمل صحيح! كلا . لم يا رب خلقت هذه الحلقة الدائرية ؟

صوت ضابط يتأدى من الربة خلف الدقل الأعظم :

تكاتفوا عند جوانب الأشرعة . اقتربوا كي تطووا الأشرعة العليا!

الجميع :

العاصفة! العاصفة! اقفزوا أيها الأعزاء! (يتفرقون) .

بيب (انكمش ودخل تحت الرافعة) :

أعزاء ! يا رب عونك لهؤلاء الأعزاء . دعامة الشراع تنن! تحشرج! واخ - واخ! رياه . تطامن متحاشياً لانذاراً يا بيب . كأنك في الغابة الملكية ذات الصيد الوفير . بل هذا أسوأ من المكث في الغابات التي تجتاحها الريح في آخر يوم من أيام السنة . من ذا الذي يتسلق أشجار الكستناء بعد أن رحلت ؟ دأبهم لا ينفكون عنه ، يلعنون ويشتمون أما أنا فلا . مستقبلهم مزهر . طريقهم تؤدي الى السماء . احكم قبضتك! أية عاصفة هي هذه يا جميني! ولكن أولئك الشبان هنالك أسوأ أيضاً . انهم عواصف بيضاء . بيضاء ؟ حوت أبيض . اش . اش . تسمعت لما قالوه قبل قليل ، والحوت الأبيض . اش . اش . تحدثوا عنه مرة - وفي هذا المساء نفسه سمعت ذلك الأفي المعجوز ، وما سمعته يجلجل جسمي ويهزه كالطنبور . سمعته يقسم . أنه لا بد من أن يصيده! آه أيها الاله الأبيض الكبير ، حيثما كنت في سماواتك محتجباً في الظلام ارحم هذا الغلام الأسود الصغير في أرضه . احفظه من كل الرجال الذين ليس لهم أحشاء تعرف الخوف .

موبي ديك^(١)

كنت أنا ، اسماعيل ، أحد أولئك الملاحين : صرخاتي صعدت متحدة مع صرخاتهم ، ويميني انعقد مع أيمانهم . وجارت بقوة ورسخت يميني واغلظته للخوف القابع في نفسي . ملأني شعور فائز غامض حنون حتى كأن نقمة آخاب الظامنة كانت نقمتي . بأذان منهومة أنصتُ الى تاريخ ذلك الوحش القتال الذي أقسمت أنا والآخرون أيمان الانتقام والثأر منه . منذ عهد مضي كان الحوت الأبيض المنفرد المنمزل في فترات متقطعة يلتم بالبحار المتأبدة التي يرتادها صيادو حوت العنبر لكن لم يكونوا كلهم يعرفون عن وجوده ، ولم يره منهم رؤية معرفة إلا عدد قليل نسبياً منهم ؛ أما الذين نازلوه عن معرفة منازل واقعية فكانوا أقل عدداً . وهناك أسباب كثيرة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر حالت طويلاً دون انتشار الأخبار الفذة المتميزة في عالم التحويت الواسع المترامي الأطراف عن موبي ديك . فالحوات كثيرة العدد منتشرة على غير نظام في مدى المحيط المائي ، وبعضها تغامر مندفعة في بحثها على عروض منعزلة ، فتمتد غيبتها اثني عشر شهراً كاملة دون أن تلتقي في طريقها شراعاً واحداً يحمل إليها نبأ أي نبأ ، وكل رحلة تطول أو تقصر حسب ظروفها ، وليس لبحار السفن وقت محدد تنطلق فيه معاً ، الى غير ذلك من أسباب . ولا يكاد أحد يشك في أن بواخر عديدة ذكرت أنها التقت ، في هذا الوقت أو ذاك أو على هذا الخط الزوالي أو ذاك ، حوت عنبر ذا ضخامة وشراسة غير عاديتين ، وإن ذلك الحوت بعد أن ألحق الأذى بمهاجميه نجا منهم ولم يصب ؛ ولعل بعض الناس كانوا يفترضون - ولهم وجه

(١) لا ريب في أن ملفل عرف أساطير كثيرة عن التحويت والحياتان واستعار من بعضها اسماً لهذا الحوت الغيالي ، غير أن شخصاً اسمه رينولدز نشر عام ١٨٣٩ مقالات في مجلة Knickerbocker عن حوت أبيض اسمه موكا ديك فيه خصائص كثيرة مما ذكره ملفل متصلاً بموبي ديك .

من الحق - إن هذا الحوت المذكور لا بد أن يكون موبى ديك ، ولا شيء سواه . غير أن سماكة حوت العنبر قد عرفت فيها أمثلة متعددة متكررة عن وحشية الوحش المطارد وخبثه وحقده لذلك فإن أولئك الذين دفعتهم المصادفة جاهلين لخوض معركة ضد موبى ديك أقول لعل أولئك الصيادين في أكثر الأحوال قنعوا أن يسندوا الرعب الذي ولده فيهم الى أخطار سماكة الحيتان عامة ولم يقصروه على واحد . وعلى هذا النحو في أغلب الظن نظر الناس الى ذلك اللقاء الكارث بين آخاب والحوت حتى عهدئذ .

وأما الذين سمعوا من قبل عن الحوت وألقته المصادفة في طريقهم وتسنى لهم أن يروه فكل واحد منهم في مبادي الأمور هاجمه وحاول سيده في جسارة ومن دون خشية ، كما يهاجم كل حوت آخر من فصيلته . ولكن مع الزمن كثرت الكوارث الناجمة عن تلك الهجمات ولم تكن قاصرة على رضى الارساغ والاعقاب وكسر أعضاء وبتير أخرى ، بل كانت كوارث مميتة لا يرجى معها شيء . وهذه الاخفاقات المتكررة والنوازل كلها احتشدت ونسب ما فيها من الرعب والافزاع الى موبى ديك ، وأصبحت مبعث فرق يهز فرائص كثير من الصيادين الباسلين الذي بلقتهم في آخر الأمر قصة موبى ديك .

والشائعات الغريبة من كل نوع لا تعجز عن المبالغة وإضافة شحنة من الرعب الى التاريخ الصحيح لتلك اللقاءات المميتة ؛ ذلك أن الشائعات المختلفة لا تنمو فحسب نمواً طبيعياً من الأحداث المرعبة المدهشة - مثلما أن الشجرة التي أصابتها الصاعقة تلد من حولها نبات «الفطر» - وإنما تكثر الشائعات الغريبة في الحياة البحرية أكثر مما تكثر في البر ، وتنمو حيشما وجدت نواة حقيقية صالحة لأن تتشبت بها وتلتف من حولها . ومثلما أن البحر يفوق اليابسة في هذا الأمر فإن سماكة الحيتان تفوق كل نوع آخر من حياة البحر في غرابة الشائعات التي تدور أحياناً حولها وفي مبلغ الخوف الذي تثيره . ذلك لأن الحواتين - إذا اعتبرت فنة واحدة - ليسوا يارئين من ذلك الجهل والاطمئنان الى الخرافة ، وهما من خصائص البحارين ، بل أنهم من دون البحارين جميعاً معرضون بحكم مهنتهم الى الاقتراب من كل ما يثير الدهشة والخوف في عرض البحر . انهم لا يقفون أمام أعاجيبه الكبرى وجهاً لوجه لكنهم يصارعون أشداق الرعب بأيديهم . وحين يسافر المرء وحده في تلك المياه النائية ويقطع مبحراً ألف ميل ويمر بألف شاطئ فإنه لا يقف على ديار ولا نافخ نار ولا يجد شيئاً يرحب بمقدمه تحت تلك الشمس ، وفي مثل هذه المواقع طولاً وعرضاً تهيمن على العوات الذي يسمى وراء حرفته مؤثرات تجعل مخيلته جبلى بأجنّة عديدة .

لا عجب إذن إن كبر حجم الشائعات عن الحوت الأبيض وتضخم بمحض انتقالها على

مدى المسافات المائية الشاسعة ، حتى انطوت في النهاية على كل نوع من أنواع التلميحات السقيمة وعلى إلماعات خداج عن قوى غيبية ناطت بموي ديك في النهاية أهوالاً جديدة لم يستمدتها الخيال من عالم المنظورات . ونشر هذا الحوت - في أحوال كثيرة - رعباً في النفوس حتى لقلماً وجد بحار من أولئك الذين لم يعرفوا موي ديك إلا عن طريق تلك الشائعات يرضى أن يواجه أخطار فكه مختاراً .

وكانت هناك مؤثرات أخرى أقوى وأشد حيوية تفعل فعلها في النفوس . حتى في عصرنا الحاضر لم تنطمس من أذهان الحواتين جملة المنزلة الأصلية لحوت العنبر من حيث هو يتميز تميزاً مخيفاً عن كل أنواع الحيتان ، وبينهم اليوم من يؤهلهم ذكائهم وشجاعتههم لمنازلة حوت جرينلاند أو الحوت الأثين إلا أنهم قد يحجمون عن خوض معركة مع حوت العنبر ، إما لقلّة التجربة أو لضعف في الكفاية أو للتعب . وعلى أي حال ثمة عدد وفير من الحواتين وبخاصة بين حواتي الأمم الذين لا يبحرون تحت ظل العلم الأمريكي لم يواجهوا حوت العنبر مواجهة الخصم العدو ، وإنما كل معرفتهم الوحيدة عن اللويئاتان قاصرة على الوحش المغمور الذي كان الصيادون يطاردونه قديماً في البحار الشمالية . وهؤلاء الرجال يصفون وهم جالسون في غنابر السفن برهبة وبرغبة ، كرغبة الأطفال في الحكايا عند الموقد ، الى القصص الفريية الفريدة عن التحويت في البحار الجنوبية . ولا يدرك الهول الجبار الذي يتمتع به حوت العنبر العظيم ادراكاً شعورياً مثل أولئك الذين يذهبون فوق مقدمات السفن التي تصدمه مواجهة .

وكأنما حقيقة قوته التي أيدها الاختبار قد ألفت ظلالها أمامها في الأيام الاسطورية السابقة فنجد اثنين من المؤرخين الطبيعيين المطلعين هما أولاسن وبوفلسن يقولان إن حوت العنبر ليس فحسب مصدر فزع وحيرة لكل مخلوق آخر من مخلوقات البحر ، وإنما هو أيضاً بالغ الشراسة والوحشية حتى ليظل ظمآن أبداً الى الدم الانساني . ولم تكن هذه الانطباعات أو ما يكاد يشبهها قد طمست على مرّ الزمن حتى عهد كوفيه ذلك لأن البارون نفسه يؤكد في تاريخه الطبيعي أن كل الاسماك (والقرش من بينها) حين ترى حوت العنبر : « تصاب بأقوى أنواع الرعب » و« إنها من شدة افراطها في السرعة وهي ناجية تندفع نحو الصخور بعنف يؤدي بها الى موت وحي » . ومهما تصحح التجارب العامة في السماكة من هذه المعتقدات يظل الايمان بها لدى الحواتين في بعض التقلبات التي تنال مهنتهم حياً في أذهانهم ، ويظل لتلك المعتقدات وجهها المرعب المروع بل لعلها تحتفظ بما قاله بوفلسن عن الظمأ الى الدم الانساني .

واذ سيطرت على الصيادين رهبة من موبى ديك ولدتها الشائعات والنذر ذهب غير قليل منهم يتذكرون فيما يتصل بذلك الحوت حوامة الأيام القديمة للحصول على حوت العنبر حين كان من الصعب في الغالب أن يغرى حواتو الحوت الأثين المدربون المتمرسون بأن يمحروا بين أخطار تلك الحرب الجديدة الجريئة ، فقد كان هؤلاء الناس يردون قائلين : قد تكون مطاردة الحيتان الأخرى ذات جدوى . أما مطاردة شبح اسمه حوت العنبر وتسييد الحراب نحوه فأمر ليس منوطاً بالإنسان الذي لا عاصم له من الغناء . فمن حاول مثل ذلك فقد عرض نفسه حتماً ليذهب أشلاء ممزقة في ذمة الابدية . وفي هذا الموضوع وثائق هامة يمكن الرجوع إليها .

مع ذلك كله كان بعض الصيادين على استعداد رغم هذه الأمور جميعاً ليطاردوا موبى ديك ، واتفق لعدد أكبر من الصيادين أن سمعوا عنه أموراً غامضة عن بعد دون احاطة بتفصيلات أية نازلة من النوازل التي أحدثها ، دون أية متعلقات خرافية ؛ وهؤلاء أيضاً كانوا على حذر من الصلابة والعناد يتيح لهم الثبات في المعركة إن حان حينها . ومن الالمامات الغريبة التي أشرت إليها الماعة اقتترنت أخيراً بالحوت الأبيض في الأذهان ذات النزعة الخرافية وهي ذلك التصور الواهم الذي مثل للناس أن موبى ديك من « أهل الخطوة » . أي أنه موجود في كل مكان وقد رآه من أبصروه في أمكنة مختلفة في وقت واحد .

ومهما يكن حظ تلك الأذهان من سذاجة التصديق فإن التصور كان قائماً على ظل خفيف من الاحتمال الأسطوري . وبيان ذلك أن أسرار التيارات البحرية لاتزال مغلقة لم يفك طلاسمها البحث العلمي الحصيف ، فاذا بقي حوت العنبر تحت السطح لم يستطع مطاردوه أن يجدوا تفسيراً وتعليلاً للطرق الخفية التي يسلكها ؛ ومن حين الى حين تولدت حول مسالكة أغرب التصورات وأحدها تناقضاً وبخاصة الأساليب الغامضة التي ينتقل بها ، بعد أن يتمس إلى أغوار بعيدة ، في سرعة فائقة بين أشد المراحل تباعداً .

ومن المتعارف المشهور لدى حواتات الأمريكيين والانجليز ، وهو شيء قد دوته اسكورسبي منذ سنوات تدويناً موثقاً ، ان بعض الحيتان اصليدت في أقصى الشمال من المحيط الهادي ووجدت في أجسامها أسنة رماح قذفت بها في بحار جرينلاند . وليس هناك ما ينقض القول بأن الفترة التي انقضت بين الهجومين في حال بعض الحيتان لا يمكن أن تتجاوز أياماً معدودات . لهذا اعتقد بعض الحواتين استنتاجاً أن العمر الشمالي الغربي ، وهو عقبة أمام الإنسان ، لم يكن يمثل مشكلة لدى الحوت . وهكذا تثبت التجربة الحية الواقعية التي قام بها الأحياء أن الوقائع المبروية عن الحوت تكاد توازي تلك الأقاصيص

الخرافية أمثال الأعجوبة التي رويت في سالف الأيام عن جبل سترلو الداخلي في البرتغال ، وعن قصة أعجب أيضاً تروى عن نبتة أرثوسة قرب سرقوسة بصقلية . أما استرلو فقد قيل أن بحيرة كانت عند قمته وجد فيها حطام سفن عامت على سطحها . وأما أرثوسة فقد زعموا أن مياهها كانت تأتيها من البلاد المقدسة^(١) في مجرى خفي تحت الأرض .

وما دام الحواتون اضطروا الى ألفة هذا اللون من الأعاجيب وعرفوا أن الحوت الأبيض نجا حياً بعد هجمات متكررة بطاشة فليس من المستغرب أن يضمن بعض أولئك الحواتين في ايمانهم بالخرافات فيعلمنوا أن موبي ديك ليس من « أهل الخطوة » فحسب وإنما هو خالد أيضاً (لأن الخلود هو أن يصبح المرء من أهل الخطوة زمنياً أيضاً) وإن جوانحه قد تفرز فيها غابات من الأسنان ومع ذلك يمضي سابعاً لم يمسه أذى بل إنه إذا طمن وأخذ ينفث دماً عاقداً فما هذا المنظر فيه إلا تهاويل خداعة مبعثها الرعب ، ذلك أنك ترى نفاثته النقية الناصعة بعد مئات من الفراسخ بين أمواج لا أثر فيها للدماء .

ولو أن هذا الوحش جرّد من جميع هذه الأوهام الخارقة الغيبية لظل في بنيته الحقيقية وشخصيته الفذة ما يؤثر في الخيال بقوة غير مألوفة . ذلك أن حجمه المستفيض لم يكن هو الذي يميزه كثيراً عن سائر حيتان العنبر وإنما ما ألمعنا اليه في موضع آخر من جهة مجمدة فذة بيضاء كالثلج وحردبة عالية هرمية بيضاء . تلك هي الملامح البارزة فيه ، تلك هي العلامات التي كان يعلن بها للذين يعرفونه عن هويته على مسافة طويلة حتى في البحار المترامية التي لم ترسم لها خرائط .

أما سائر جسمه فكان معلماً أبقع مشمولاً بلون الرخام - صفة غدت في النهاية علماً عليه حين دعي الحوت الأبيض ، وكان يسوغ هذه التسمية حقاً بما فيها من دلالة حرفية منظره الناضر حين ينساب وقت الظهيرة في بحر أزرق معتم الزرقة مخلفاً وراءه خيطاً من الزبد الأبيض ملمعاً كله بومضات ذهبية .

وقد يكون حجمه الهائل ولونه الملمع وفكه السفلي المشوه ، عوامل أحاطته بذلك الرعب الطبيعي إلا أنها لا تبلغ في ذلك مبلغ ضغنه الذكي الذي ليس له نظير ، فقد روت الأخبار كيف أنه أبدى مثل هذا الضغن في هجماته مرة أثر مرة . ثم أن ضغنه لا يبلغ في إثارة الرعب مبلغ تقهقره الخداع الذي كان يبعث الهول أكثر من أي شيء آخر . فلقد كان يسبح أمام مطارديه الزاهين المتهللين وهو يبدي لهم كل أعراض الذعر وشواهدة ولكن كم من مرة

(١) الصواب ، من بلاد اليونان ، حسبما ذكرت الأسطورة .

استدار فجأة وحمل عليهم حملة منكرة فإما جعل من قواربهم شظايا متناثرة وأما ردهم مدهوشين مأخوذين الى سفنهم .

ولقد شهدت محاولات اقتناصه مصاير عدد من الهلكى ، ولم تكن مثل تلك الكوارث شيئاً شاذاً في السماكة وإن لم تلفظ بها الألسنة كثيراً على البر ، إلا أن الوحشية الجهنمية التي تتمثل في الحوت الأبيض كانت تخيل لخصومه انها وليدة تدبير سابق فكلمها أطاح بعضو أو سبب موتاً قالوا ان مثل هذه الأمور لا ينزلها بخصومه خصمٌ غير ذكي .

قدر لنفسك إذن كيف تبلغ أذهان صياديه المستنسين الى ذروة السخط اللاهب العائر حين كانوا يسبحون عاندين وسط شظايا من القارب كأنها العصف المأكول وأشلاء غارقة من رفاق مزقوا ارباً ارباً ، ليخرجوا من تلك الخثارة البيضاء التي عقدها حولهم غضب الحوت المرعب الى ضوء الشمس الهادئ المحقق بهدونه وابتسامته كأنما يزف بشرى مولد أو عرس .

غير أن قبطاناً رأى قواربه الثلاثة محطمة من حوله ورأى المجاذيف والرجال ينسابون في أحشاء الدوامات فانتزع مديته من مقدم سفينته المنحطم وانقض على الحوت كما ينقض المبارز الاركناسي على خصمه ، وسعى في حلق عشوائي بشفرة تبلغ ست بوصات الى أن يستل حياة الحوت من أعماق أعماقه السحيقة . ذلك هو آخاب القبطان . ثم كان ما حدث أن طوح موبي ديك فكّه السفلي الذي يشبه المنجل ، من تحته فجأة ، وحصد به رجل آخاب ، كما يحش الحصاد سنبلة من الحقل . وما كان لأحد سواه أن يسدد ضربة مثلها ناضحة بالضيفنة الحاقدة ، لا أستثني من ذلك تركيا معممأ أو أحد أبناء البندقية أو الملايو الذين يستأجرون للقتل . اذن فليس ثمة من ريب في أن آخاب بعد ذلك اللقاء الذي كاد يودي به هالكاً احتقب في صدره نحو الحوت حقد الموتور ، وزاد حقه ضراماً أنه أخذ في علته الحانقة يرى الحوت مسؤولاً عن مصابه الجسماني كله وعن مرارة الحزن والضيفنة التي استولت على عقله وروحه . وحين مضى الحوت الأبيض أمامه سابحاً تمثله صورة المسن التي تجسدت فيها كل العوامل الحاقدة التي يحس بها بعض الخبثاء الماكربين تتأكل في دخائل نفوسهم حتى لتترك أحدهم يحيا بنصف قلب وبعض رثة . ذلك الحقد المجرد الذي كان منذ بدء الخليقة ، ذلك الحقد الذي يؤمن بعض المسيحيين المحدثين ان نصف العالم ينتمي الى سلطانه ، ذلك الحقد الذي اتخذ له الاوفيتيون^(١) القدامي في المشرق

(١) فرقة غنوصية بدائية يقدرون قوى الشر ويشبهون في هذا فرقة اليزيدية .

تمثال شيطان وعبده ، لم يسجد آخاب أمامه خاشعاً عابداً مثلهم وإنما نقل صورته وهو في شبه بحران الى الحوت الأبيض البفيض وضرم في نفسه الثورة الناقمة عليه وهو يتلمس مدى التشويه في جسمه وروحه . ورأى آخاب الذي أصابه المس كل ما يثير الجنون ويستفز العذاب وكل ما يستثير رواسب الأشياء ، وكل حقيقة يستكن فيها الحقد وكل ما يفتت القوى العضلية ويشوي الأدمغة ، وكل ضروب الشيطنة الماكرة التي تعشش في الحياة والفكر ، رأى كل ذلك أي كل الشر مجتمعاً قد تمثل كأنثاً مرئياً يمكن له أن ينقض هاجماً عليه في صورة موبي ديك . وفوق حردبة الحوت البيضاء كدس جميع الغضب والكره للذين جريا في نفوس بني جنسه منذ عهد آدم ثم فجر قبلة قلبه الملتهبة على تلك الحردبة كأنما اتخذ من صدره مدفعاً .

ولعل هذا المس فيه لم ينشأ دفعة ، وقت أن فقد رجله ، ذلك أنه حين انقض على الوحش ومديته في يده أطلق العنان لعداوة مفاجئة متضمرة جسدية فلما تلقى الضربة التي بترت منه شلواً حينئذٍ لعله لم يحسن إلا بالتمزق الجسدي المؤلم ولا شيء سواه . غير أن آخاب حين اضطرت الصدمة الصادمة للعودة نحو الوطن واستلقى أشهراً مسهدة طيلة الأيام والأسابيع ، ممدداً هو والعذاب في أرجوحة واحدة يدور في صدارة قز الشتاء حول رأس باتاغونيا الموحش العاوي ، حينئذٍ تسرب النزيف من جسمه الممزق الى روحه الجريحة وبالعكس وتمازج النزيفان معاً فجعله اختلاطهما مختلطاً مجنوناً . ومما يؤكد أن هذا المس النهائي لم يصبه إلا وهو عائد بعد ذلك اللقاء ، إنه كان في بعض الفترات أثناء الرحلة يهذي كالتمسور المخبول ، وأن قوته الحيوية ، وإن فقد رجله ، كانت ماتزال تكمن في صدره الأسود وقد زادت غيبوبته حدة حتى اضطرب ضباطه أن يوثقوه بالأغلال وهو مبحر يهذي في أرجوحته . وأخذ وهو في معطف المجانين الضيق المشدود يتقلب وفق تناوح الرياح المجنونة ؛ وعندما وقعت السفينة في عروض مقبولة عامت وقد نشرت أشرعتها الخفيفة في ريح رخاء عبر المياه الاستوائية الساجية . وحينئذٍ دلت الظواهر جميعاً على أن الرجل المجوز خلف بحرائه الهادي وراءه بين أثباج رأس هورن وخرج من كهفه المظلم الى نعيم النور والهواء . وحين بدت طلعتة حازمة واثقة على شحوبها ، وأخذ يصدر أوامره الهادئة الرزينة مرة أخرى ، وتوجه ضباطه الى الله يشكرونه على أن جنون قبطانهم قد بارحه ، أقول حتى حينئذٍ كان آخاب ما يزال يهذي في دخيلة نفسه . ذلك أن الجنون الانساني كثيراً ما يكون ماكرأ خبيثاً ، يتحول ، وقد ظننته تولى ، في صورة أشد قدرة على التسلل لوأذا . وكذلك كان جنون آخاب المطبق ، فإنه لم يهدأ وإنما انكمش وغار في أعماق سحبة كنه

الهدسن حين يضيق به المجرى وماؤه على حاله من الغزارة وينفذ من ممر التلال فوق عمق لا يسير له غور ، وفي المجرى الضيق الذي انساب فيه جنون آخاب الغزير المستعرض لم تتخلف نقطة واحدة كذلك لم تفرق في ذلك الجنون الغزير المستعرض نقطة واحدة من عقله الطبيعي الكبير . فذلك العامل الحيوي الذي كان ، أصبح أداة حيوية ، اذا صح لهذه الاستعارة العيفة أن تصدق قلت أن جنونه الخاص غزا تعقله العام وأخذه أسيراً وحول مدفمه المصوب نحو هدفه المجنون حتى أن آخاب لم يفقد شيئاً من قوته المرجحة نحو غايته الوحيدة بل أصبح يمتلك ألف ضعف من الطاقة التي كان يوجهها أبداً في عهد التعقل نحو أي هدف واحد معقول .

وفي هذا القدر كفاية . غير أن الجزء الأكبر الأعمق الأعم من آخاب لم ينل منا تلميحاً كاشفاً . لا طائل في نبش الأعماق ليعرفها الناس وكل حقيقة فانما تكمن في الأعماق . نحن الآن نقف على قمة فندق كلوني الصروس^(١) فلنغادره مهما يكن فخماً عجبياً ذاهبين في طرق متعرجة من خلال قلبه . شقي طريقك ايتها الأرواح ذات المنزع الشريف الايمان الى أبهاء ثرمس الواسعة الرومانية في طرازها حيث اصول جلال الانسان أي جوهره المهيب يجلس في وقار الملثحين بعيداً بعيداً تحت الأبراج الوهمية القائمة في هذه الأرض العليا ، جوهر عادي قديم مدفون تحت العاديات ، جالس على عرش من أجساد انسانية مبتورة الأطراف . تسخر الآلهة العظيمة من ذلك الملك المأسور جالساً فوق عرش محطم مشوه . ويجلس هو كأنه تمثال امرأة اتخذ سارية في رواق ، صابراً ساكناً يسند فوق جبهته الباردة اروقة العصور . تعطيني متعرجة في طريقك ايتها الأرواح الذاهبة في استكبارها وأساها . سلي ذلك الملك المستكبر الايمان . صفاتك من صفاته ومن أشبه اباه فما ظلم! فأنت من نسله ايتها الأرواح الغضة المنفية ، ربيبة ملك . سليه فلا يعرف سر الدولة العريق الا من هذا الوالد الجاهم .

كانت تلتصق في قلب آخاب ومضة فحواما : كل وسائلي سليمة عاقلة غير أن دوافعي وغاياتي مجنونة . الا أنه كان يعرف ايضاً دون أن تكون لديه قوة ليقول الحقيقة أو ليغيرها أو ليتحاشاها بأنه كان يوارى حقيقته ويكتمها عن الناس منذ عهد بعيد ومايزال يوارىها على نحو ما . الا أن أمر ذلك الكتمان كان يقع تحت ادراكه الحسي فحسب لم يكن خاضعاً لحزمه الارادي . ومع ذلك فقد وفق في التورية والتكرار حتى أنه حين كان يخطو على البر

(١) متحف بياريس حاول لقل أن يزوره في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ فوجده مغلقاً .

برجل عاجية لم يتصوره أي ناتوكي الا أنه حزين حزناً طبيعياً ، بلغ منه مبلغاً ، بسبب ذلك العارض الفظيع الذي أصابه .

وقد نسب الناس الخبر عن البحران الذي أصابه في البحر الى سبب مماثل أيضاً ؛ وكذلك فعلوا أيضاً في شأن ذلك القلب المزاجي الذي يخيم دائماً على جبهته من بعد حتى اليوم الذي أبحرت الباقولة فيه في هذه الرحلة . ولعل أهل تلك الجزيرة الذكية الماهرين في التقدير والحساب كانوا أبعد من أن يسيئوا الظن بكفايته للخروج في سفرة تحويت أخرى بسبب من تلك الأعراض الكابية فوق جبينه فجنحوا الى أن يُسَرِّوْا التوهم بأن هذه الأسباب نفسها جعلته صالحاً متأهباً للقيام بمطاردة مليئة بالغضب والوحشية كالمطاردة الدامية في سيد الحيتان . واذا وجد رجل يعضه الحَرَضُ الدخيل ويحرق الغضب ظاهره ، وقد دأبت نفسه بفكرة لا يرجى شفاؤها ذات مغالب محددة ضارية لا تنكل فمثل هذا الرجل قد يكون «عينه فزاره» - هو هو الذي يصلح أن يقذف رمحه ويرفع حرته ضد أشد الوحوش هولاً وافزاعاً . واذا تعرض الظن بأنه عاجز جسدياً ، فانه قد يكون أبعد الناس كفاية في أن يحفز اتباعه ويذمرهم ويستثير نخوتهم عند الهجوم . ومهما يكن من أمر هذا التقدير ، وهو يقيني ، فان آخاب الذي جعل سرَّ غضبه المتضرم - وهو سرُّ مجنون - حبيس نفسه وأقل عليه وضيب بمزلاج ، قد عمد الى السفر في هذه الرحلة ولديه غاية - وحيدة - لا ثاني لها ، استفرقت وكده كله ، وتلك هي صيد الحوت الأبيض . ولو أن بعض معارفه القدامى على البر خطر لهم شيء مما كان يتلجج في نفسه لانتفضت عليه أرواحهم المأخوذة المعتدلة وانتزعت السفينة من مثل ذلك الرجل الشيطاني! كانوا يسعون الى رحلات دارة بالريح ليقيضوا بالغلة الحاصلة دولارات خارجة من دار الضرب ، أما هو فكان مطوي النفس على انتقام خارق وقبح لا ينادى وليده .

ها هنا اذن شيخ أشيب الرأس كافر النفس يطارد باللعنات حوت أيوب حول العالم على رأس بعارة جلهم من أفناء الخلعاء المارقين والأردال المنبوذين وأكلي لحوم الأدميين . ومما زاد في معنوياتهم ضعفاً قلة غناء الفضيلة أو الاستقامة المخدولة التي لا تجد لها نصيراً لدى استاربك ، والخفة وقلة المبالاة والاستهتار - تلك الخلال التي يعتصم بها اسطب ، والتوسط الغالب في الكفاية عند فلاسك . مثل هؤلاء البحارة ، يسوسهم مثل هؤلاء الضباط ، كأنما انتقامهم وحشدهم قدر جهنمي ليعينوه على تأره المجنون . كيف اتفق لهم أن استجابوا عن بكرة أبيهم لغضب الشيخ - بأي سحر شرير حاز أرواحهم حتى اتحلوا الكراهية التي لديه فأصبحت هي كراهيتهم ، وأصبح الحوت الأبيض عدوهم اللدود مثلما هو عدوه - كيف تم كل

ذلك . كيف كان الحوت الأبيض في نظرهم أو كيف كان يبدو لفهمهم الخفي اللاواعي على نحو مبهم يقيني في صورة الشيطان الكبير الذي ينساب في بحار الحياة - هل من تفسير لكل ذلك ؟ هذا يتطلب عمقاً أبعد غوراً مما يستطيعه اسماعيل . فينا جميعاً حفار دجيل لا يكف عن العمل في منجمه لكن أنى لنا أن ندري الى أين يتجه التفق الذي يحفره من الاستماع الى صوت فأسه المكتوم المتنقل ابداً ؟ من ذا الذي لا يحس بجذبة ذراع لا يستطيع مقاومتها ؟ أي زورق « اسكف » بين أربعة وسبعين مربوطة بحبل يقف ثابتاً لا يهتز ؟ أما أنا فاني أسلمت نفسي طائناً لرحمة الزمان والمكان . وبيننا أنا في أشد اندفاع لمواجهة الحوت لا أرى شيئاً في ذلك الوحش سوى دائرة السوء المعيت .

بياض الحوت

ماذا كان يعني الحوت الأبيض لدى آخاب ، ذلك ما ألمعت اليه ؛ أما ماذا كان يعني لديّ - في بعض الاحايين - فذلك شيء لم أتحدث عنه حتى الآن .

هناك خاطرة أخرى أو قل رعب غامض لا يوصف فيما يتصل بمبوبي ديك ، عدا تلك الاعتبارات الواضحة التي لم تستطع الا أن توقظ بعض الفزع والتوجس في روح الانسان . غير أن تلك الخاطرة كانت تهيم في حديثها هيمنة تامة على سائر المخاوف . إلا أنها غريبة غامضة ، قريبة يعجز التعبير عنها ، حتى لأكاد أياس من وضعها في صورة مفهومة . تلك هي بياض الحوت ، فقد كان بياضه يفزعني أكثر من كل شيء آخر . ولكن كيف أرجو أن أعبر عن نفسي في هذا الأمر؟ على أنه لا بد لي من التعبير عن نفسي ولو على نحو غائم عارض وإلا كانت كل هذه الفصول خواء .

كثير من الأشياء الطبيعية يزيد البياض في جمالها ويرهف منه كأنما يسكب عليها فضيلة من ذاته ، مثلما هي الحال في الرخام والسفرجل الياباني واللآلئ . وقد رأت كثيراً من الشعوب - حتى الهمجية منها - في هذا اللون تفوقاً ملكياً ، حتى أن قدامى ملوك بيجو العظماء وضعوا لقب « سيد الفيلة البيض » على سائر المتعلقات الملكية الفخيمة ، وأبرز ملوك سيام المحدثين صورة الفيل الأبيض على العلم الملكي^(١) . وحمل علم هانوفر صورة وحيدة هي صورة جواد فاره ناصع البياض . أما الامبراطورية النمساوية القيصرية التي ورثت روما السيدة المتبسطة فقد اتخذت اللون الأبيض رمزاً امبراطورياً . ويسبب البياض كذلك نُسب التفوق الى الجنس الانساني فَمُنح الانسان الأبيض سيادة مثالية فوق كل الشعوب

(١) كانت الحرب بين أسراء سيام في القرن السادس عشر تقوم في سبيل احتياز الفيل الأبيض ، وهم يسمون الملك « ملك الفيل الأبيض » . ويكون هذا الفيل ملكاً على سائر الفيلة . والمسألة راجعة الى عقيدة دينية في أسلها .

الملونة . ثم كان البياض الى ذلك كله دلالة على السرور ، فكان الرومان يرون الحجر الأبيض علامة على اليوم البهيج . وفي كثير من الشعائر والرموز جعل هذا اللون رمزاً لأشياء حساسة شريفة مثل طهر العروس وسمت الشيخوخة . وبين الحمر في أميركا يعد تقديم النطاق من الخرز الأبيض أعمق مظاهر التشريف والتبجيل . ويمثل البياض في كثير من الأجواء عظمة العدالة في فروة القاضي ، ويضفي شأناً على سلطان الملوك والملكات الذين يمتطون الجياد الكريمة الناصعة . وقد جعل البياض في غيبات الأديان الكبرى رمزاً للطهارة المقدسة والسلطان ؛ فيرى المجوس أن الشعلة البيضاء المنشعبة أقدس شيء على المذبح ؛ وتقول الأساطير اليونانية أن زفس العظيم تجسد ذات مرة في صورة ثور ناصع البياض . كان الايروقيون ذوو المحند الكريم يضحون في منتصف الشتاء كلباً أبيض مقدساً ويتخذون ذلك اليوم أقدس أعيادهم ، ويعتقدون أن ذلك الحيوان الطاهر المخلص أنقى رسول يذهب الى «الروح العظيم» حاملاً له تقريراً سنوياً عن اخلاصهم ووفائهم . ومن اللفظة اللاتينية التي تعني أبيض Alb استمد الأساقفة المسيحيون اسم واحد من أقدس الثياب التي يلبسونها وهو «الألب» أو الرداء المزتر الذي يلبسونه تحت الكازاك . وكان البياض في الدين الرومي يستعمل بين مظاهر الأبهة المقدسة في ذكرى آلام الصلب . وفي رؤيا القديس يوحنا تقدم الثياب البيض الى الذين قتلوا من أجل كلمة الله ، ويقف الأربعة والعشرون شيخاً متسرلين بشياب بيض حول العرش الأبيض العظيم ، والواحد الذي استوى على العرش أبيض كأنه الصوف ؛ ومع كل هذه الشؤون التي تجمع فيها كل ما هو عذب وشريف ورائع فإنه ما يزال يكمن في دخيلة الفكرة عن البياض شيء روائح يصيب الروح بالهلع أكثر من الحمرة التي تغزعا حين ترى الدماء .

هذه هي الصفة الرواغة التي تجعل البياض إذا فصل من القرائن الوديمة اللطيفة ووصل بشيء مرعب ، يزيد ما فيه من رعب حتى الذرورة . تأمل الدب القطبي الأبيض والقرش الأبيض في البحار الاستوائية ؛ ما الذي يجعلهما رعباً راعباً سوى بياضهما الناعم الشامل ؟ ذلك البياض الكالح هو الذي يضفي ذلك اللطف البغيض الممقوت الذي يثير التقزز أكثر مما يثير الفزع على الحملقة الخرساء في مظهرهما . حتى أن النمر ذا المخلب المضرى في برده التي تنبئ عن شراسته لا يستطيع أن يصيب الشجاعة بالترنح مثلما يصيبها الدب أو القرش المشتملان بشملة بياض* .

* بالإشارة الى الدب القطبي فقد يقول من يلذه أن تعمق هذه المسألة ؛ ليس بياض الدب إذا نظرت اليه منعزلاً هو الذي يهلي من درجة الرعب الذي لا يطاق في هذا الوحش إذ قد يقال أنك إذا حلت هذا الرعب المستزاد وجدته ينشأ من أن وحشية هذا

وفكر في طير الفطرس من أين جاءت سحب الدهشة الروحية والرعب الشاحب الذي يبحر فيها ذلك الشبح الأبيض في الأخيلة جميعاً . لم يكن كولردج أول من ألقى تلك الرقية السحرية . أول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي لا يشاري ولا يماري أعني الطبيعة* .
وما أعظم شهرة جواد السهوب الأبيض في تواريخ القرب الأمريكي وفي الموروث الهندي! حصان رائع فاره في بياض اللبن ، ذو عيني نجلادين ورأس صغير وجوجو راب وعزة كعزة ألف ملك هو في هيئته السماء المغالية في الاستخفاف ، انتخب ملكاً على قلعان الخيل البرية العديدة وكانت مراعيها في تلك الأيام تمتد بين جبال روكي وجبال الليفاني . في طبيعتها الوهاجة كان يرود بها مرتبناً متجهاً نحو الغرب كأنه ذلك النجم المرموق الذي يقود فكل مساء جيوش الضياء . وقد زودته معرفته التي تشبه الشلال المتألني الوضاء وذنبه الذي يشبه الشهاب المنقض بزينة أشد تألقاً مما يستطيع صاعقة الذهب والفضة أن يزوده به . ترى فيه طيفاً ملكياً ملانكياً من ذلك العالم الغربي الحي الذي كان يجلو لأعين قدامى القناصين

= المخلوق محاكمة من حولها بجزء من البراءة والحب السامرين فإذا يجتمع ضموران متناقضان لدينا يخفيها الدب القطبي بهذه المفارقة ولكن لو سلمنا بصحة هذا كله لقلنا أنه لولا البياض لما تم هذا القرب العاد . وأما القرب الأبيض فإن السكينة الشبحية المناسبة في سورة ذلك الحيوان حين يرى في أحواله العادية تضاهي على نحو غريب تلك الصفة نفسها في الدب القطبي . وقد وفق الفرنسيون في إبراز تلك الصفة في القرب في تسميتهم له باسم Requin وهي كلمة تذكر بلطفة Requiem « وتعني راحة الموت » - ثم أطلقت على القديس الجنائزي - وهذا القرب الأبيض صامت سميت الموت .

* اذكر أول طائر فطرس رأيته في حياتي . كان ذلك في هبة ربيع طويلة في المياه فوق البحار القطبية ، من نوبة حراسة الظهيرة في الأسفل سمعت الى ظهر السفينة المنطلي باليوم وهناك عند مدخل المنابر رأيت فيناً مرشحاً ملكي السميت ذا بياض صافٍ وعرف متوس روماني وبين العين والحين كان يقوس جناحي ملاك كأنما يريد أن يمانق تابوت عهد . وكانت تهزه خفقات وانفاسات عجيبة . لم يصبه أذى جسماني غير أنه كان يرسل الصيحات كأنه صيح ملك في مصيبة لا قبل له بها وأظنني رأيت في عينيه الغريبتين اللتين لا يستطاع تفسيرهما أسراراً تجلي فيها الله فاتحيت كما انحني ابراهيم قدام الملانكة . كان ذلك الشيء الأبيض أبيض ناصباً يفرج جناحيه على مدى واسع وكنت في تلك المياه المستطمة قد فقدت الذكريات التيمسة المنحرفة - ذكريات التقاليد والمدن - وطويلاً حدثت في تلك الامجوبة من الريش . لا أستطيع أن أحدث بما تفضل في نفسي وإنما ألمح اليه الماح . وأخيراً استيقظت والتفت فسألت بحاراً « أي طير هو ذلك ؟ فأجاب « Goney ولم أكن سمعت بهذا الاسم من قبل واعتقد أن هذا الطير المجيد غير معروف لكنا على البر ؛ أبدأ ؛ ومن بعد عرفت أن هذه اللقطة هي اسم طائر الفطرس عند بعض الملاحين ، ولا يمكن أن تكون تسمية كولردج المحببة ذات علاقة بشك الانطباعات الغريبة التي ألتت بي عندما رأيت ذلك الطائر على ظهر السفينة ذلك أني لم أكن قرأت التسمية ولم أكن أعرف أنه هو طائر الفطرس . غير أني حين أقول هذا فلاني بطريقتي غير مباشرة أزيد من الصمبة فضل تلك القصيدة وصاحبها .

أؤكد إذن ان سحر السحر يكمن في ذلك البياض الجسدي العجيب في الطائر وهي حقيقة يزيد بها تسميتهم لبعض أنواع الفطرس باسم الفطرس الداكن وقد رأيت هذا النوع ولكن مشاعري لم تكن كمشاعري يوم رأيت الفطرس الأبيض .
ولكن كيف امك ذلك الطائر الغريب ؟ هل تصور السر ؟ ان كنت تفعل حكيت لك . بمسارة خائنة عذارة وحيل حين كان الطائر يحوم فوق الماء . وأخيراً جعل منه القبطان رسولاً إذ ربط حول عنقه قطعة من جلد كتب عليها الوقت والمكان ثم أطلقه . ولكنني لا أشك في أن تلك القطعة الجلدية التي كتبت ليراهم الناس أخذت في السماء حين طار الطائر الأبيض لينضم الى صف الملانكة المهلين السجين!

وناصبي الفخاخ أمجاد الأيام الأولى حين كان آدم يمشي في أهبته وسناء كأنه إله ، مقعنساً غير هياب كأنه هذا الجواد الجري . وسواء أكان ذلك الجواد الأبيض يمشي بين أركان حربه ومارشالاته في طليعة كتائب تموج دوماً فوق السهول كأنها نهر أهايو أو كان بين رعاياه المطفين به وهي ترعى في نطاق واسع على مدى الأفق فإنه كان يتفقدتها بمنخريه الدافنين المحمرين وسط بياضه البرود . وأياً كان المظهر الذي يطالع به الناس فقد ظل لدى أشجع الهنود موضع اجلال راعش ورهبة متهيبة . ليس للشك مجال فيما بني على شهادة الأساطير عن هذا الجواد المتيق اذ تقول أن بياضه الروحي بخاصة هو الذي وشحه بالقداسة ، وأن في هذه القداسة ما استخرج الخشوع من العابدين وفيها ما أثار في الوقت نفسه رعباً لا يحده وصف .

غير أن هناك أمثلة أخرى يفقد فيها البياض كل هذه الحواشي وذلك المجد الغريب الذي يكتنفه في الجواد الأبيض وطائر الفطرس .

ما الذي في المُفْرَب ينفر العين ويصدمها ليشتمزم منه أحياناً الأهل والأصحاب ؟ هو ذلك البياض الذي يكتنفه . لقد خلق المغرب في أحسن تقويم كثيره من الناس دون أن يكون فيه تشويه جوهري ، مع ذلك فإن تشغُّ البياض فيه يجعله بشعاً أكثر من أي طرح بشع قبيح . فلم ذلك ؟

ولم تنس الطبيعة في مظاهر أخرى أن تجعل البياض صفة تكمل بها سائر صفات المفزع من قواها الخفية أو شبه الخفية التي ليست - على خفائها - أقل من سواها حقداً وحفيظة ؛ فشبح البحار الجنوبية الضاوي يسمونه بسبب مظهره الثلجي « العاصفة البيضاء » . كذلك لم ينس فنُّ الحقد الانساني أن يستعين بهذا اللون التقدير في بعض الأحداث التاريخية . فالمستينسون المقلسون بالقلانس البيض من غنت يقدمون على ذبح وكيل الحاكم بمقاطعتهم في سوق المدينة^(١) ؛ ومما يزيد في روعة وصف الحادث حسبما أورده فرواسارت اتخاذ تلك العصابة رمزاً لثلجي اللون - أعني قلانس بيضاء يتقنّون بها .

وفي بعض الأمور لا تقصر التجربة العامة المتوارثة عند البشر جميعاً عن أن تشهد بما بهذا اللون من قوة خارقة للعادة . فلا ريب في أن الصفة المنظورة في منظر الميت التي تخيف المشاهد هي ذلك الشحوب الرخامي البادي فيها كأنما الشحوب يشبه شارة الهلع في العالم الثاني مثلما أنه شارة الجزع في عالم الفناء . ومن صفرة الموتى استعرنا اللون المعبر للأكفان التي ندرج فيها الموتى . كذلك نحن لا ننسى أن نطرح هذه الملاءة البيضاء في أساطيرنا على كل الأشباح فنصورها وقد أخذت ترتفع في ضباب أبيض كاللبن - ولنصف الى

(١) كان ذلك عام ١٢٧٩ إذ أقدمت عصابة من ذوي التبعات البيض يتودها جون ليون على قتل روجر دوترف وكيل إيرل مقاطعة فلاندر ، في سوق المدينة . وقد وصف جون فرواسارت هذه العادة في كتابه : « حوليات انجلترا وفرنسا واسبانيا » .

ما تقدم وهذه المفزعات آخذة بمجامع قلوبنا ، ان الواعظ الانجيلي حين يريد أن يجعل ملك المفزعات مشخصاً متجسداً يصوره ركباً على حصان أبيض^(١) .

اذن فإن الانسان قد يجعل البياض رمزاً للجليل والمهييب ولكنه لا أحد ينكر أن هذا البياض في حالات نفسية أخرى قد يستحضر في أعرق دلالاته المثالية صورة الشبح أمام الروح .
وإذا كانت هذه المسألة تلقي اجماعاً فكيف للانسان الفاني أن يعطها ؟ قد يحاول تحليلها فيجده أمراً مستحيلاً . إذن فهل نستطيع أن نستقرئ أمثلة يكون فيها البياض قد تعرى أو كاد من الملابس المباشرة التي تلصق به معاني الرعب ، غير أنه مع ذلك يظل يأخذ بمجامع قلوبنا على نحو معتدل ؟ هل نرجو أن نقع على قبس يهدينا الى السبب الخبيء الذي نفتش عنه ؟

تعال نجرب . لكن لنذكر أن الدقة المتسللة في مثل هذا الأمر لا تستجيب الا للدقة المتمسكة ولا يستطيع امر أن يتبع آخر في هذه المسارب دون عون من خيال ، ومع أن بعض الانطباعات التخيلية التي ستقدمها هنا كانت - دن ريب - شركة بين معظم الناس الا أنه قلما وعاءها أحد منهم في حينها ولذلك فقد يعجز المرء عن تذكرها في هذا المقام .
تصور شخصاً ذا مثالية لم ينلها بالتقشيف ، اتفق له أن يعرف طبيعة أحد العنصرة ، معرفة عابرة غير محكمة ، وقل لي لماذا تسترسل في خياله اذا ذكر اسبوع العنصرة محض ذكر سلسلة من مواكب طويلة كنيبة صامته يمشي فيها حجاج بطينو الخطوات مطأطئو الهامات مقنمون بقلانس من الثلج الذي سقط حديثاً ؟ أو خذ بروتستانتياً أمياً ساذجاً من احدى الولايات المتوسطة بأمريكا وقل لماذا اذا ذكرت له الراهب الأبيض أو الراهبة البيضاء ذكراً عابراً أثار ذلك في روحه صورة تمثال أعمى .

وقلعة لندن البيضاء : عدت عن الروايات التي تحدثنا عن من سجن فيها من الملوك والمحاربين فتلك روايات لا تعطل تماماً خطورة شأنها وقل لي ما الذي يجعل تلك القلعة ذات أثر بعيد في خيال الأمريكي الذي لم يتمرس بالأسفار أبلغ من أثر تينك القلعتين الشاهقتين جارتها : قلعة بايورد والقلعة الدامية .

ثم الجبال البيضاء في نيوهامشير هي قلاع أعلى وأرفع : لم يطيف بالروح لدى ذكر اسمها محض ذكر في بعض الحالات النفسية « شبحية » مهولة ضخمة بينا يبعث ذكر سلاسل فرجينيا الزرقاء « حلمية » ناعمة ندية قصية . أو لم يقع الخيال في إيسار « الطيفية » اذا ذكر اسم البحر

(١) انظر سفر الريا ٦ ٢١ فنظرت وإذا فرس أبيض والجالس عليه معه قوس وقد أعطي اكليلاً والسفر نفسه ٨٠ وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت (وهنا أخضر ترمز الى الشعوب) .

الأبيض - بقطع النظر عن موقعه - أما اسم البحر الأصفر فإنه يهدد الخيال بخواطر عن أصائل وديعة مزعفرة قضاها المرء على الأمواج ، مشفوعة بأبهى ساعات الغروب وأشدها سِنَّة . أو لتأخذ مثلاً لا علاقة له بالمادة ، يتأدى الي الخيال خالصاً شفافاً : لماذا اذ نقرأ في قصص أوروبية الوسطى عن الجنيات القديمة يتبدى لنا « الرجل الطويل الشاحب » الذي يعيش في غابات هارتز - وهو الذي تناسب صفته الثابتة الملازمة بين خضرة الغابات دون أن تحدث حفيفاً - أقول : لماذا يتمثل هذا الشبح أشد افزعاً من جميع الأقسام الذي يزعقون ويصرخون في جنبات الغاب ؟

ومدينة ليما^(١) التي لا تسكب دمة واحدة على مصانجها : ليس الانقباض الذي يعلوه صفحتها صادراً فحسب عن تذكرها للزلازل التي دكت كاتدرانيتها ، ولا عن ضروب الذعر التي أثارتها بحارها المهتاجة ، ولا عن مرأى ذلك الحقل المديد من المآذن المنارات المائلة وأحجار الزوايا المتناثرة والصلبان المنحنية (كأنها السواري المائلة في اسطول راس) ، وشوارع ضواحيها قد كدست فيها الجدران تكديساً كأنها رزمة من البطائق مطروحة . لا ليست هذه الأمور وحدها هي التي تجعل ليما أغرب المدن وأشدها تعاسة وإنما لبست ليما القناع الأبيض ، وفي بياض مصابها رعب أشد هولاً . وهذا البياض يجعل خرائبها كأنها حدثت أمس وإن كانت هي قديمة مثل بزارو ، ولا يسمح بنمو الخضرة على دمنها ومطارح بلاها ، وإنما ينشر فوق حصونها المتهاوية صفرة السكته الصارمة فتخلد ما فيها من تشويه .

وأنا أعلم أن المفهوم العام لدى الناس لا يعترف بأن ظاهرة البياض هي العامل الأول الذي يزيد في رعب ما هو مرعب وأن العقل ذا الخيال القاصر لا يرى شيئاً من الرعب في تلك المظاهر التي يراها عقل آخر حافلة بالرعب بسبب من هذه الظاهرة وحدها وبخاصة حين تبدو في أي شكل يشارف حدود الخرس أو الشمول . ولعلني أوضح ما أعنيه بهذين القولين في مثلين تاليين :

أولاً : حين يقترب الملاح من شواطئ بلاد أجنبية يهب الي الحراسة حين يسمع ليلاً هدير الموجات الكبار ويحسن بقدر من الهلع يكفي ليشحذ ملكاته وحواصه . ولكن ادعه في مثل هذه الظروف نفسها من أرجوحته ليرى سفينته مبحرة خلال منتصف الليل في بحر من البياض الذي يشبه اللين - كأن السنة برّ تطيف به من كل جانب وقد أخذت تسبح من حوله حشود من الدببة البيض المقلنسة المتدافعة - حينئذ يشعر برعب صامت كالذي تبعته الخرافات ؛ وإذا طيف المياه

(١) أسماها فرنشكرو بيزاراها عام ١٥٢٥ اتخذها عاصمة ، وقد هدمت الزلازل عام ١٧١٦ قسماً كبيراً منها . كذلك أحدث فيها زلزال آخر عام ١٨٢٨ خراباً بالئاً ، وقد زارها مثل زورة قصيرة بين ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٢ و ٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤ .

المبيضة الملففة بالأكفان يربعه كأنه شبح حقيقي وعبثاً ما يحاول الجبل أن يقنعه بأنه ما يزال بعيداً عن أن يبلغ الأغوار سبراً . وإنما يهبط قلبه وترتخي يده عن دفة سفينه ، ولا يطمئن باله الا إذا أصبح فوق الماء الأزرق . ولكن أين هو هذا الملاح الذي قد يقول لك : « سيدي لم يكن خوفي من الارتطام بمخور خبيثة وإنما من ذلك البياض المفزع هو الذي ألقني » .

ثانياً : إن الهندي من أبناء بيرو لا تبعث في نفسه رؤية جبال الانديز التي يعلوها هودج من الثلوج أي شيء من الرعب ، اللهم الا أن يكون من تصور الوحشة والعزلة الصقيعية الأبدية التي تهيمن على تلك الأعالي الشاسعة وتخيل للمرء على نحو طبيعي ما قد يصيبه من خوف لو أنه ضل طريقه في تلك العزلة الموحشة . ومثل ذلك حال قاطع الاخشاب في الغرب الأمريكي فإنه لم يلحظ السهوب المترامية بقسط ضئيل من الاكتراث وقد التحفت بالثلج وليس فيها ظل لشجرة أو لغصن يوقظ الغيبوبة المصلوبة التي نشرها البياض . وليس كذلك حال البحار حين يرى مناظر البحار القطبية فإنه يرتعش من البرد وتشرف سفينه على الفرق ، وكأنما قوى الصقيع والهواء تأخذه بحيلة جهنمية من حيل المشعوذين فبدلاً من أن تريبه قوس قزح متحدثاً اليه بالرجاء وبالعزاء في محنته ، تخيل له أنه يرى مقبرة كالحة كاشرة عن أنيابها له ، وفيها نصب ثلجية دقيقة وصلبان مشطاة متفلقة .

ولكنكم قد تقولون : هذا الفصل الأبيض الطويل عن البياض ليس إلا علماً أبيض ترفعه روح امرئ مستسلم جبان . لقد استسلمت يا اسماعيل للأوهام السوداءية .

خبروني : هذا المهر القوي الأرن الذي يفتلى في واد آمن من فيرمنت بعيداً عن كل الضواري - اذا جنته في يوم مشمس وضاح وحركت خلف ظهره جلد ثور سلخ حديثاً دون أن يراه بل يشم شذا رائحته الحيوانية الغريبة - لماذا يفزع وينخر وتجحظ عيناه ويدق الأرض في نزوات مخبولة من الهلع ؟ ليست لديه ذكريات عن طعنات دامية سببتها مخلوقات متوحشة في موطنه الشمالي الأخضر حتى يقال أن الشذا الغريب الذي شمه ذكره بشيء مرتبط بتجربته لأخطار سابقة . اذ ما الذي يعرفه هذا المهر ربيب نيو انجلند عن حيوان البيسون ساكن اوريجون البعيدة ؟

على رسلكم اذن . انكم لتشهدون هنا أن غريزة التعرف الى الشر الشيطاني في الكون موجودة حتى في الحيوان الأعجم فهو وإن كان يبعد آلاف الأميال عن اوريجون ما يزال اذ يشم ذلك الشذا الوحشي يتمثل قطعان البيسون النطّاحة الممزقة كما يتمثلها أخوه الذي لا يزال برياً سارحاً في السهوب ، وربما كانت قطعان البيسون تعرفه في الثرى في هذه اللحظة . كذلك اذن هي التدفقات المكتمة في البحر ذي البياض كأنه اللبن . والحفيف البارد

الذي يحدثه صقيع الجبال المزخرف والتحويلات الكنيية التي تأتيها ثلوج السهوب حين تذروها الرياح . كل هذه لدى اسماعيل هي هزة جلد الثور للمهر المرتاع .
نعم لا أحد يعرف أين تقع تلك الأشياء التي لا تسمى ، والتي تبث علامات الغريبة مثل هذه للمحات ولكني أنا والمهر نعتقد بوجود تلك الأشياء ، ولا بد . وإذا كان أكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فإن الأفلاك غير المرئية إنما صنعت من الرعب .

ولكن لم نفك لغز هذا البياض فقد عرفنا سحره وعلما كيف تستجيب له الروح بقوة وأغرب من هذا وأشد احتمالاً بالأسرار - حسبما تقدم - أنه من بين الرموز الروحية أكثرها مغزى لا بل إنه الحجاب الالهي ثم هو بعد كل ذلك ، ورغم كل ذلك ، هو العامل الذي يُغلي من حدة الخوف في أشد الأشياء اخافة للانسان .

أهو أن لا محدوديته تمثل ما في الكون من خلاء ساكن لا ينبض ومن انفساح لا يحد وبذلك تدعنا من الخلف بخواطر العدم حين نرى الأعماق البيضاء في نهر المجرة ؟ أهو أن البياض في جوهره ليس لوناً بمقدار ما هو انعدام محسوس للالوان وفي الوقت نفسه تحقق محسوس لها ؛ ألهذا كان هناك بياض صامت أخرس حافلاً بالمعنى في بسيط مديد من المنظر الثلجي - جحود لا لون له ، جامع للالوان جمعياً تنفر منه نفوسنا ؟ للفلاسفة الطبيعيين نظرية تقول إن سائر الالوان الأرضية - أي كل زخارف فخمة أو جميلة - مثل حواشي السماء والغابات العذبة لدى الغروب ، وأجنحة الفراشات المذهبة وخدود الفتيات اللواتي تشبه الفراشة ، كل هذه ليست إلا خدعاً ماكرة ، ليست في جوهر المادة بطبيعتها وإنما ركبت فيها من خارج حتى إن الطبيعة المؤلهة نفسها إنما تتبرج كأنها عاهرة لا يستر مغرباتها سوى قبر . فإذا تأملنا هذه النظرية وتقدمنا خطوة أخرى وقفنا عند الزينة الغريبة التي تبرز كل لون من ألون الطبيعة أعني مبدأ الضوء العظيم وأنه يبقى أبداً أبيض أو غير ذي لون في ذاته وإذا وقع على المادة دون وسيط من الأشياء جمعياً حتى أزهار الخزامى والورود بخضابه الذي لا لون له - أقول إذا تأملنا كل ذلك بدا الكون المفلوج ممدداً أمام أعيننا كأنه أبرص ؛ وكما يرفض المسافرون ذوو الارادة العازمة في لابلاند أن يضعوا على عيونهم نظارات ملوثة كذلك الكافر التعيس تعشى عيناه وهو ينظر الى الكفن الأبيض المنشور على كل منظر من حوله . كل هذا مجتمعاً يرمز اليه الحوت الأبيض . أتعجبون بعد ذلك من الصيد الناري ؟

اصح!

- سه! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو؟

كانت النوبة الوسطى في الحراسة ، وضوء القمر ساج جميل ، والملاحون قد وقفوا في طابور يمتد من عند أحد براميل الماء العذب في منتصف السفينة حتى البرميل عند الناروزة قرب أعلى الكوئلة وعلى هذه الحال كانوا يمزرون الدلاء ليملأوا برميل الناروزة . وبما أنهم في معظم الوقت كانوا يقفون قريبين من مشارف الربعة وراء الدقل - وهي موضع مقدس - لذلك حرصوا على أن لا يتكلموا أو يصدروا حفيفاً بأقدامهم . ومضت الدلاء تنتقل من يد الى يد في صمت عميق لا يتخلله إلا خفقة عابرة من شرع وإلا المهمة الدائمة التي تحدثها أريئة السفينة أثناء تقدمها الدائب .

في وسط هذه السكينة همس آرشي أحد رجال الطابور وكان يقف قريباً من العنابر الخلفية في أذن جار له شولوي بتلك الكلمات ،

- « سه! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو؟ » .

- « خذ السجل . تسمع يا آرشي ، أي ضجة تعني؟ » .

- « ها هي مرة أخرى - تحت العنابر - ألا تسمعها؟ سعال . إنها تبدو كأنها سعال » .

- « الله يلعن السعال! مرر هذا السجل العائد » .

- « مرة أخرى - هي عينها - كأنها الآن صوت اثنين أو ثلاثة نانمين يتقلبون » .

- « قرني^(١)! كفاك يا رفيق ، بالله! هذه هي البقسامات الثلاث المنقوعة التي أكلتها

في العشاء تتقلب في جوفك - لا غير . انتبه للدلو! » .

(١) كلمة اسبانية تدل على الشعور بالمفاجأة أو الاحتزاز .

- « قل ما تريد يا رفيق . ان سمعي حاد » .
- « نعم . أنت الذي سمع وهو في البحر على بعد خمسين ميلاً من نانتوكت صوت إبير العجوز الكويكرية وهي تخطط . أنت هو أليس كذلك ؟ »
- « اسخر كما تريد . سنرى النتيجة . أصح يا كباكو! في العنبر الخلفي شخص لم يظهر بعد على ظهر السفينة وأنا أظن ريسنا العجوز يعرف شيئاً عنه أيضاً . سمعت اسطب يخبر فلاسك في إحدى التوبات الصباحية أن في الجو شيئاً من ذلك » .
- « اش! هاك الدولو! » .

الخريطة

لو أنك ذهبت في أعقاب آخاب القبطان الى قمرة بعد العاصفة التي حدثت في الليلة التالية لليلة التي نال فيها التأييد من البحارة في بلوغ غايته لرأيته يعمد الى درج في الطرنسوم ويستخرج منه طوماراً كبيراً مجعداً من الخرائط البحرية الصفراء وينشرها أمامه على طاووته المشبته . ثم لرأيته بعد أن يجلس اليها قد أخذ يدرس متفحصاً ما فيها من خطوط وظلال متنوعة تواجه عينيه ثم يخط عليها في بطن حازم خطوطاً أخرى بقلمه في مواضع كانت خالية من كل رسم وتخطيط . وبين الحين والحين يرجع الى أكديس من سجلات الرحلات البحرية الى جانبه حيث دوت فيها الفصول والمواقع التي اصطيدت فيها حيتان العنبر أو رؤيت في سفرات سابقة قامت بها مختلف السفن .

وبينا كان مشغولاً كذلك كان المصباح الصفيحي الثقيل المعلق بالسلاسل فوق رأسه يتأرجح تأرجحاً مستمراً مع حركة السفينة ويلقي أبداً ومضات وظلال خطوط متنقلة فوق جبينه المتفطن حتى لكأنه - وهو يرسم خطوطاً واتجاهات على الخرائط المتجمدة - كان هناك قلم خفي يمد خطوطاً واتجاهات على خريطة جهته ذات الأخابيد العميقة .

ولم تكن هذه هي الليلة الوحيدة التي يجلس فيها آخاب منفرداً في قمرة متأملاً خرائطه . وأكد أقول أنه كان يستخرجها كل ليلة ، ويمحو منها كل ليلة بعض العلامات ، ويضع مكانها علامات أخرى . ذلك أن آخاب ، وخرائط المحيطات الأربعة منشورة أمامه ، كان يلق بقلمه في تيه من التيارات والدوامات رجاء أن يستيقن من انجاز الخاطرة المجنونة التي كانت تملأ روحه .

وكل من لم يكن على معرفة تامة بطرائق الحيتان قد يرى أن البحث عن مخلوق واحد في محيطات هذا الكوكب الأرضي التي لا تعد مهمة سخيفة لا رجاء فيها . ولكن الأمر لم

يكن يبدو كذلك لدى آخاب الذي كان يعرف جميع أوقات المدّ والتيارات وبذلك يحسب تنقلات حوت العنبر طلباً للطعام ويستطيع أن يبلغ الى استنتاجات معقولة تكاد تشارف اليقين حول اليوم المناسب الذي يكون فيه الحوت هنا أو هنالك باحثاً عن فريسته ، وحسبه ليبلغ ذلك أن يتذكر المواسم المنظمة اليقينية التي يخرج فيها الصيادون لصيد الحوت في عروض ومواقع بأعيانها .

إن تعيين الفترات التي يلجأ فيها الحوت الى هذه المياه أو الى تلك قد أصبح شيئاً يقينياً حتى أن كثيراً من الصيادين يعتقدون أنه اذا استطاع أحد أن يراقبه ويدرسه خلال العالم عن كتب ، وأنه لو أجرى مقارنة بين سجلات السفينة لرحلة واحدة يقوم بها أسطول كامل للتحويت اذن لوجد أن هجرات حوت العنبر تطابق في الزمان رحلات قطعان الرنجة وأسراب السنونو - دون اختلاف . وعلى أساس من هذا التقدير بذلت محاولات لرسم خريطة محكمة مفصلة تنبئ بهجرات حوت العنبر* .

ثم إن حيتان العنبر حين تنتقل من منطقة غذائية الى أخرى بهداية غريزة لا تخطئ أو قل بوساطة ذكاء خفي وهبها الله إياه - فإنها في الأكثر تسبح في مسارب - veins - آخذة في طريقها على طول خط بحري في دقة لا أمت فيها ولا عوج حتى أنك لا تجد سفينة أبداً جرت مجراها حسب أية خريطة بعشر تلك الدقة العجيبة . ومع أن الاتجاه الذي يذهب فيه أي واحد من تلك الحيتان في هذه الأحوال مستقيم كأنه خطوط المساح على خريطته مع أن خط تقدمه مطابق تماماً لخط مخره المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا أن المسرب المحدد الذي يقال إنه يسرب فيه في تلك الأوقات يتسع بحيث يشمل بضعة أميال عرضاً (تزيد أو تنقص حسب امتداد المسرب أو انكماشه) إلا أنه لا يتجاوز مدى النظر من قمم الصواري في الحوئات حين تناسب متببهة يقظة على طول تلك المنطقة الساحرية . وخالصة هذا كله أنك تستطيع في مواسم معينة وفي نطاق ذلك العرض وعلى طول ذلك المسرب أن تفتش عن الحيتان المهاجرة وأنت على مثل اليقين بأنك ستراها .

اذن فإن آخاب لم يكن يرجو أن يلتقي بفريسته في أوقات موثوقة عند مواقع تغذية مشهورة متباعدة ، فحسب ، وإنما كان اذا اجتاز ما بين تلك المواقع يستطيع بما أوتي من

* منذ أن كتب هذا جاء لحسن الحظ ما يؤيده في نشرة رسمية أصدرها البيوزيافي موري من المرصد القومي بواشنطن في ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٥٦ ويبدو من تلك النشرة أن تلك الخريطة في طريقها الى النجاز وقد وردت أقسام منها في النشرة ، « هذه الخريطة تقسم المحيطات في خمس مناطق ذات خمس درجات عرضية وخمس درجات طولية ، وفي الاتجاه العمودي تحوي كل منطقة ١٢ عموداً بعدد الأشهر ، وفي الأفقي تحوي ثلاثة أهدا يدل على عدد الأيام التي قضيت في كل شهر في كل منطقة والاثنان الآخرين يدلان على عدد الأيام التي وقيت فيها الحيتان - سواء أكلت من جنس العنبر أو من الحوت الأتئين » .

براعة فنية أن يحدد الزمان والمكان في طريقه بحيث لا يكون بعيداً عن استشراف الرجاء في لقائه .

وحدثت حادثة بدت لأول وهلة وكأنها تعقد خطته الغارقة في البحران المنظمة في آن معاً . ولعلها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر . ان قطعان حوت العنبر تتخذ مواسمها المنظمة في مواقع معينة ولكنك من وجه عام لا تستطيع أن تستنتج بأن القطعان التي أمت خط العرض الفلاني أو خط الطول العلاني في هذا العام مثلاً هي نفسها التي أمت به في الموسم السابق ، وإن كانت هناك أمثلة واقعية خاصة أثبتت أن تقيض هذا صحيح . وهذه الملاحظة نفسها تصدق بعامة وفي حدود أضيق على المنعزلين والمترهبين بين الحيتان الناضجة المسنة . فموبي ديك - مثلاً - رثي في سنة سابقة عند ما يسمى منطقة سيشل^(١) في المحيط الهندي أو خليج فولكانو عند ساحل اليابان ولكن هذا لا يستتبع أن لو أن الباقوطة زارت إحدى هاتين البقعتين في موسم مطابق تالٍ لالتقت به حتماً . وقل مثل ذلك في مواقع أخرى أمها موبي ديك للغذاء واستبان فيها للناظرين في بعض الأحيان . ولكن هذه المواقع كانت فيما يبدو مواقف عارضة وفنادق راحة يعرج عليها ولم تكن مواقع استيطان طويل . وحيث تحدثنا عن فرص آخاب في انجاز غايته حتى هذا الحين فإنما ألمحتنا فحسب الى ما كان أمامه من فرص جانبية أو اضافية أو قائمة على معرفة بالسوابق قبل أن يحرز زماناً خاصاً أو مكاناً خاصاً حين تصبح كل الامكانات جميعاً احتمالات ، وكل امكان في نظر آخاب فإنما كان ثانياً ليقين . وهذا الزمان المعين والمكان المعين يجتمعان معاً في تعبير فني واحد هو : «موسم الصيد على خط الاستواء» The Season-on-the-Line . فقد مضت عدة سنوات وموبي ديك يرى في ذلك المكان المعين في الزمان المعين يتلبث في تلك المياه فترة والشمس في دورتها السنوية تتمهل مدة مقدرة في أي برج من أبراج الفلك ، وهناك جرت معظم اللقاءات المميتة بين الصيادين والحوت الأبيض ، هناك اختزنت الأمواج قصص بطولاته ، وهناك أيضاً كان المسرح الأساسوي^(٢) حيث وجد الشيخ المجنون دافعه الرهيب للشأر والانتقام . غير أن آخاب حين ألقى روحه المتألمة في هذا الصيد الذي لا يريد له الاخفاق لم يسمح لنفسه ، وهو ذو ادراك حذر ويقظة نفاذة ، أن يرسى آماله جميعاً عند تلك الحقيقة الختامية التي قدمناها مهما زينت له من تلك الآمال ولا كان في نذره الساهد

(١) تقع جزائر سيشل الى الشمال الشرقي من مدغشقر .

(٢) في الفصل : ٢٨ ذكر الهندي الجاهيدي أن آخاب «نزع ساربه» عند اليابان . وها هو لفل بنير المكان هنا . فيجمعه عند خط الاستواء . حيث غرقت الباقوطة في نهاية الأمر .

ليقرّ عيناً ويفرخ روعاً بحيث يرجئ كل بحث عاجل حتى يبلغ ذلك المكان .
أبحرت الباقوطة من ناتوكت عند بداية «الموسم» . فلو أن قائدها بذل كل جهد ممكن ليقوم بالسفرة الطويلة نحو الجنوب ويدور حول رأس هورن ثم يجري ستين درجة من درجات العرض لما استطاع أن يصل المنطقة الاستوائية في المحيط الهادي في الوقت المناسب ليقوم هنالك بالطواف . ولذلك كان لا بد له من أن ينتظر الموسم من قابل . ولعلّ آخاب قد أصاب إذ اختار أن يبكر في الابحار بالباقوطة بسبب هذا التعقيد في الأمور فقد كانت أمامه فترة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وليلة ، وهي فترة يمكنه أن يقضيها في صيد متنوع بدلاً من أن يقضيها على البرّ فارغ الصبر فلعلّ الحوت الأبيض أن يمضي اجازته في بحار بعيدة عن مواقع غذائه الموسمية ولعلّ جبهته المفضنة أن تظهر على مبعدة من خليج فارس أو في خليج البنغال أو بحار الصين أو أية مياه أخرى يفضها بنو جنسه . فكل ربح سواء أكانت الرياح الموسمية أو الهابة من سهول الأرجنتين أو كانت شمالية غربية أو حرامية أو تجارية - كل ربح عدا الشرقية أو الخماسين قد تسوق موبى ديك نحو الدائرة العالمية المتعرجة التي ترسمها الباقوطة بخط مخرها المبحر .

ولو سلمنا بكل هذا فإنك إذا تأملت الفكرة في تمعن وهدوء قلت أنها ليست سوى فكرة حمقاء : في المحيط الواسع المترامي الأطراف هل يمكن للصيد الذي يبحث عن حوت واحد حتى لو واجهه أن يقول أنه هو حقاً كما لو كان يبحث عن المفتي الأعظم ذي اللحية البيضاء في أسواق استانبول المكتظة الحاشدة . أجل لأن جبهة موبى ديك المتفردة ذات البياض الناصع وحردبته البيضاء كأنها الثلج لا يمكن أن تخطئهما العين . قد يتمم آخاب لنفسه بعد أن انكب على خرائطه طويلاً حتى الهزيع الأخير من الليل واستلقى غارقاً في أحلامه وهو واجسه - قد يتمم قائلاً : ألم أجعل الحوت معلماً بعلامات فأتى له أن ينجو ؟ أليست زعانفه العريضة مخروقة مقطوشة كأنها أذن خروف قد قطعت ؟ وهنا يذهب عقله المجنون في شوط يبهز الأنفاس حتى يستولي عليه الانهالك ويتناهب الاعياء من كثرة التفكير فيذهب الى الهواء الطلق فوق السفينة ليستعيد قوته . رباه! أي غشية من عذاب يقاسيها ذلك الرجل الذي استغرقته رغبة موتورة لم تتحقق ؟ إنه لينام ويدها مقبوضتان ويستيقظ وأظافره الدامية غارزة في راحتيه .

فإذا اضطرت أحلامه الليلية المضنية التي لا يطاق الحاحها الى الخروج من سريره ، وهي أحلام تستأنف ما كان يجول في خواطره من أفكار حادة أثناء النهار ، إذا حمل أحلامه بين سورات من الغضب متلاطمة ودار بها في ذهنه المتلهب حتى أصبح نبض مركز الحياة عنده

عذاباً لا يطاق ، حين يحدث في بعض الحالات أن تهز هذه الآلام المبرحة كيانه من أساسه ويبدو كأنما تتفتح في داخله هوة تنطلق منها شُعَب اللهب والبرق وتومي له العفاريت اللعينة أن يقفز بينها ، حين تتأهب هذه الجحيم في داخل نفسه - عندئذ تسمع صرخة شاذة خلال السفينة ويندفع آخاب من قمرة وعيناه تتوقدان كأنه يفر من سرير جعلت النار تأكله . وبدلاً من أن تكون هذه الأمور أعراض ضعف كمين لم يستطع قهرها وإخفاءها أو أعراض خوف مما يزعم أن يحققه فإنها لم تكن سوى أمارات واضحة لحدة عزمه . ففي مثل هذه الأوقات لا يكون آخاب المجنون المكب على التخطيط صياد الحوت الأبيض الذي لا يلين جانبه ولا يهدم غضبه ، الذي ذهب الى سريره ، هو نفس آخاب الذي انطلق من سريره مرة أخرى مرتاعاً . أما الثاني منهما فهو المبدأ الخالد الحي أو هو الروح فيه ، وبما أنه في النوم انفصل عن العقل المميز الذي استخدمه في أوقات أخرى ليكون يده الفعالة في الظاهر فإنه حاول الهرب تلقائياً من مجاورته لذلك الشيء المهتاج - هي مجاورة لافحة لاذعة - ، ولم يعد - عندئذ - جزءاً مكماً له . ولكن بما أن العقل لا يوجد إلا إذا تحالف مع الروح ، لذا يبدو في حالة آخاب أنه سلم أفكاره وأوهامه جميعاً الى يد غايته العليا ، ووقفت غايته تلك بمحض ما في إرادتها من رسوخ وسمود في وجه الآلهة والشياطين واتخذت لنفسها كياناً مستقلاً . بل استطاعت أن تحيا وتلهب في جهامة وعبوس بينا الحيوية العامة التي كانت ترتبط بها هربت مرتاعة من مولد تلك الإرادة التي ليس لها أب شرعي . لذلك فإن الروح المعذبة التي كانت تشع من عيون الجسد حين كان يندفع من الغرفة من يحسبه الناس آخاب إنما كانت شيئاً منسوخاً ، ذاتاً لا شكل لها تمشي في نومها ، شعاعاً حياً من نور ، لكنها لا تقع على شيء لتضوئه ومن ثم كانت بياضاً في ذاتها . أعانك الله أيها الشيخ فقد خلقت أفكارك فيك مخلوقاً ، ومن جعلت أفكاره الحادة منه برميثيوس فإن النسر يقتدي من قلبه الى الأبد ، وذلك النسر هو المخلوق الذي خلقه .

الأقرار بيمين

من أجل ما سردناه في هذا الكتاب ولمسنا به - على نحو غير مباشر - خصيصة أو اثنتين ممتعتين غريبتين من عادات حوت العنبر يعتبر الفصل السابق في أجزائه الأولى ذا أهمية كأى فصل آخر هام في هذا الكتاب . غير أن مادته المجلدة التي جعلناها فاتحة ، تتطلب شيئاً من التوسيع والاسهاب لكي يصح فهمها فهماً كفاءً بقيمتها ولكي تزيل عدم التصديق الذي قد يبثه في بعض العقول ما لدى أصحابها من جهل مطبق بالموضوع كله وخاصة عدم تصديقهم لليقين السليم في الأمور الرئيسية من هذا الموضوع .

ولست حريصاً على أن أؤدي هذا الجزء من مهمتي بطريقة منهجية منظمة ، وإنما أكتفي بأن أحقق غايتي المرجوة بإيراد مقتبسات متفرقة عن شؤون خبرتها وأنا حوات ، أو اعتمدت فيها على شهادة الثقات ؛ وأعتقد أن النتيجة التي أرمي إليها ستحقق من ذاتها على نحو طبيعي بعد سرد هذه المقتبسات .

أولاً : عرفت أنا نفسي ثلاثة أمثلة ذهب فيها الحوت ناجياً بعد أن تلقى رمحاً . وبعد فترة (وكانت في إحدى المرات ثلاث سنوات) ضربه الصياد نفسه مرة ثانية وذبحه ، واستخرج الحديدتين من جسمه واكلتاهما معلمة بعلامة خاصة . أما في حال الحوت الذي عاش بين الضربتين ثلاث سنوات ، أو لعل الفترة كانت تزيد على ثلاث ، فإن الرجل الذي كذب بالرمحين سافر أثناء الفترة الواقعة بينهما في سفينة تجارية في رحلة الى افريقية ، ونزل على البر وانضم الى جماعة من المستكشفين ، وتوغل بعيداً في الداخل حيث قضى في سفره فترة تبلغ حوالي سنتين ، وعرض نفسه لخطر الحيات والمتوحشين والنمور والميازم السامة وسائر الأخطار العامة التي قد تعرض لمن يتجول في قلب مناطق مجهولة . وفي الوقت نفسه كان الحوت المضروب يقوم أيضاً برحلاته ، ولا بد ؛ ولا ريب في أنه طوّف الكرة الأرضية ثلاث مرات ،

ومحك جوانبه على جميع شواطئ افريقية دونما غاية . ثم التقى هذا الصياد وذلك الحوت مرة أخرى وقهر الأول منهما الثاني . أقول : أنا نفسي عرفت ثلاثة أمثلة من هذا القبيل رأيت في حالتين منهما الحوتين مضروبين ؛ وفي الهجمة الثانية رأيت السنانين اللذين حفرت فيهما علامتان متماثلتان وقد استخرجا بعد من الحوت الميت . وقد اتفق لي في الحادثين اللذين تخللتها فترة سنوات ثلاث أن كنت في المقارب في المرتين واستبنت بوضوح في المرة الثانية منهما نوعاً فذاً من خال كبير تحت عين الحوت كنت قد لحظته في المرة الأولى قبل ثلاث سنوات . أقول ثلاث سنوات وأنا على مثل اليقين أنها كانت أكثر من ذلك . هذه اذن أمثلة أعرف صدقها بنفسني غير أنني سمعت أمثلة كثيرة أخرى من أشخاص لا وجه للظن في عدالتهم .

ثانياً : من المتعارف المشهور في سماكة حوت العنبر ، مهما يجهل الناس على البر أمرها ، أنه حدثت أمثلة تاريخية عديدة لا تنسى حيث رأى الصيادون حوتاً بعينه في أزمة وأمكنته متباعدة . أما لماذا أصبح ذلك الحوت معلماً مشهوراً فأمر لا يعزى في الأصل الى صفات جسدية فيه تميزه عن سائر الحيتان ، اذ مهما يكن تفرد الحوت في تلك الصفات ، فإنهم يقضون على ذلك التفرد بقتله وغليه لاستخراج زيته الثمين . لا . إنما السبب في ذلك هو أن التجارب المميّنة في السماكة أفادت أن الخطورة التي يمثلها ذلك الحوت تتخذ لها في النفوس مكانة مريعة كمكانة رينالدو رينالديني ، حتى أن معظم الصيادين ليكتفون حين يميزونه بأن يمسوا قبعاتهم الثربولينية اذ يتبينون أنه يتسكع قريباً منهم في البحر دون أن يحاولوا توثيق المعرفة به . وهم في ذلك يشبهون بعض شياطين الفقراء على البر الذين اتفق لهم أن عرفوا رجلاً عظيماً سريع الغضب فهم يحيونه في الشارع من بعيد تحيات فضولية لنلا تنالهم لطمة عاجلة لتوقحهم اذا هم توغلوا في اظهار الدالة والألفة .

ولا يتمتع كل حوت من تلك الحيتان المشهورة بصيت فردي عظيم فحسب - وتستطيع أن تسميه أيضاً صيتاً مديداً لأنه يمتد على مدى المحيطات ؛ ولم ينل كل حوت منها شهرته وحسب في الحياة ثم أصبح خالداً في مستودعات المنارة بعد الموت ، لا بل أحرز كل ما يستطيع الاسم العظيم أن يمنحه من حقوق وامتيازات ومميزات ، حتى أصبح حظه من الشهرة حظاً أصحاب الأسماء العظيمة مثل قمبيز وقيصر . أليس كذلك يا تيمور توم أيها الحوت المشهور الذي كان ذا ندوب وتواليح كجبل الجلي ، وأطال اللبث في المضايق المشرقية التي سميت باسمه ، وكانت نفاثته ترى من شاطئ أومبي ذي النخلات^(١) ؟ أليس

(١) أومبي جزيرة من مجموعة الجزر التي تسمى Little Sundas في أندونيسيا الشرقية .

كذلك يا جاك زيلنده الجديدة يا من روج كل الطوافين الذي مخرت سفنهم بجوار بلاد تاتو؟ أليس ذلك كذلك يا مرقان يا ملك اليابان ، يا من تتخذ نفائته السامقة في الفضاء - فيما يقولون - صورة صليب ناصع البياض؟ أليس ذلك كذلك يا دون ميخائيل أيها الحوت التشيلي المعلم بخطوط غامضة على ظهره كأنه سلحفاة عجوز؟ بمبارة بسيطة : هذه حيتان أربعة مشهورة لدى طلاب علم الحيتان ، شهرة ماريوس وسلأ لدى طلاب تاريخ الرومان .

وليس هذا هو كل ما هنالك ؛ وإنما بعد أن أنزل كل من توم زيلنده الجديدة والدون ميخائيل نكبات بليغة في قوارب تنتمي الى مختلف السفن ، بعد ذلك كله ذهابا في النهاية ، اصطادهما بعد أن طاردهما وقتلها قباطنة التحويت الشجعان الذين رفعوا مراسيهم من موانئها وغايتهم هي قتلها ، مثلما أن القائد بطلر في القديم اتجه متغلغلاً في غابة نرجانست وقد انتوى أن يأسر أناون المتوحش المشنوع القتال ، رأس المحاربين عند الملك فيليب الهندي^(١) .

لست أرى موضعاً خيراً من هذا الموضوع لأذكر شيئاً أو شيئين آخرين يبدوان لي ذوي أهمية ، فاذا دوناً أكداً من جميع النواحي صفة المعقولة في قصة الحوت الأبيض ، وبخاصة جانب الكارثة منها . إذ أن هذه القصة من الأمثلة المؤيزة المشبطة التي يحتاج فيها الصدق ما يحتاجه الكذب من ركائز ودعامات . ومعظم الناس على البر يجهلون أبسط عجائب الكون وأكثرها واقعية ، فاذا لم تزودهم بمعلومات وتعليقات تمس الحقائق البسيطة من تاريخية وغيرها في مهنة التحويت ، فقد يسخرون هازئين من موبى ديك ويرون قصته أسطورة مرعبة ، أو ربما عدوها أمثلة قصصية مخيفة لا تطاق ، وهذا أمر أسوأ من الأول وأدعى للمقت .

أولاً ؛ لدى معظم الناس بعض أفكار غامضة عابرة عن المخاطر العامة في السماكة الكبرى ؛ إلا أنه ليس لديهم تصوّر ثابت حيوي عن تلك المخاطر وعن مدى تكرار حدوثها . وربما كان أحد الأسباب في ذلك أن تلك الكوارث والمهالك الواقعية التي تحدث عرضاً في السماكة لا يدون منها واحدة من كل خمسين في مدون عام ، أيأ كان ذلك المدون موقت القيمة ينسى على التو . هل تظن أن ذلك المسكين الذي ربما علق به الحوت القامس في هذه اللحظة عند ساحل غينيا الجديدة وحمله الى الأعماق البحرية - هل تظن أن اسم ذلك المسكين سيظهر في صفحة الوفيات بالجريدة التي تقرؤها غداً عند الفطور؟ كلا . لأن البريد غير منتظم بيننا وبين غينيا الجديدة ؛ بل هل سمعت أبداً ما قد يسمى أخباراً منتظمة

(١) أناون مقاتل هندي أسره القائد بنجامين تشرتشمن سنة ١٦٧٦ في رود آيلاند ، وقد نسب لفلن أمر أسره الى القائد بطلر وهذا الثاني ذهب في حملة سنة ١٦٧٨ لقبض على قائد هندي آخر اسمه جوزف برانت .

تجني، مباشرة أو بالواسطة من غينيا الجديدة؟ ومع ذلك فإني أخبرك عن إحدى الرحلات التي قمت بها إلى المحيط الهادي وقد ألقينا التحية من سفينتنا على ثلاثين سفينة أخرى بين عديد من السفن، وفي كل واحد منها قتل صرعه حوت وفي بعضها غير قتل واحد، وفقدت ثلاث منها جميع ملاحي القارب. بالله عليكم اقتصدوا بزيوت قناديلكم وشموعكم؛ إن كل جالون تحرقونه فقد أهرق في سبيله على الأقل نقطة من دم إنسان.

ثانياً؛ لدى الناس على البر حقاً فكرة غير محددة عن الحوت وأنه مخلوق هائل ذو قوة هائلة. ولكنني وجدت دائماً وأنا أسرد عليهم مثلاً معيناً يصور هذا الهول المزدوج أنهم كانوا يهتنونني على ما لدي من ميل للدعابة والظرف بينما أنا أقسم أنني لا أنوي أن أتفوق في روح الدعابة على موسى حين كتب تاريخ الطواغين بمصر.

ومن حسن الحظ أن المسألة التي أريد أن أقررها في هذا المقام يمكن أن تؤيد بشواهد مستمدة من غيري. وهذه هي المسألة؛ يبلغ حوت العنبر في بعض الأحوال من القوة وإحكام الضفينة وكأنما هو يدبر الأمور قبل عملها، مبلغاً يستطيع به أن يخرق سفينة كبرى وأن يحطمها تحطيماً وأن يفرقها. وقد فعل كل ذلك.

أولاً؛ في عام ١٨٢٠ كانت السفينة اسكس من نانتوكت - وقبطانها بولارد - تطوف في المحيط الهادي. فرأت ذات يوماً نفاثات فأنزلت قواربها وطاردت قطعياً من حوت العنبر؛ وبعد وقت غير طويل جرح عدد كثير من الحيتان، وإذا بحوت ضخم جسيم ينجو من القوارب وينطلق من القطيع ويتنفس هاجماً على السفينة، ويسدد جبهته نحو هيكلها فيشقها شقاً حتى أنها في أقل من «عشر دقائق» أخذت تهوي منقلبة. ومنذ تلك اللحظة لم يَرَ أحد لوحاً من ألواحها، وبعد أشد ضروب الهتك وصل بعض الملاحين البر في قواربهم؛ ثم لما استقر القبطان بولارد بعض الوقت في وطنه أبحر مرة أخرى نحو المحيط الهادي يقود سفينة أخرى ولكن الألهة حطمت سفينته مرة أخرى فوق صخور وأمواج مجهولة. ومرة ثانية فقد سفينته تماماً فألقى على نفسه أن لا يعود للبحر ولم يحاول العودة منذ يومئذ. ولا يزال بلارد القبطان قاطناً في نانتوكت حتى اليوم، وقد رأيت أنا أوين شيس رئيس ضباط السفينة اسكس حين حدثت تلك المأساة وقرأت الحكاية الصريحة الصادقة التي دونها وتحدثت إلى ابنه وكان ذلك على بعد بضعة أميال من موقع الكارثة*.

* إليك مقتطفات مما حكاها شيس؛ وكانت كل واقعة تؤكد لي مستحياً أن لا دخل للحظ والمصادفة في توجيه أعماله فقد قام بهجومين على السفينة بينهما فترة قصيرة وكلاهما حسب وجهتهما كانت محكمة لتوقع بنا أشد الأذى إذ كانت رأية وبذلك تجتمع سرعة الجسيمين المتصادمين لدى إحداث الصدمة وكما يحق ذلك كانت التحفريات والتهبؤات التي قام بها ضرورية. كان منظره =

ثانياً ، يونيون اسم سفينة أخرى من نانتوكت فقدت عام ١٨٠٧ بإزاء جزر الأزور في هجمة مماثلة ولكني لم أصادف دقائق موثوقة عن هذه الكارثة^(١) وإن كنت سمعت من الحواتين اشارات عارضة اليها بن الحين والحين .

ثالثاً : منذ ثمانية عشر عاماً أو عشرين كان الكومودور ج^(٢) ... يقود شانية حربية أمريكية من طراز رفيع وكان يتناول طعام الغداء مع جماعة من قباطنة التحويت على ظهر سفينة نانتوكتية في ميناء واهو بجزائر ساندويتش ، ودار الحديث عن الحيتان ، والكومودور مرتاح النفس الى التشكك فيما يرويه السادة العارفون بالحواتة من حوله عن القوة المدهشة التي تعزى للحيتان فأنكر جازماً مثلاً أن يستطيع الحوت ضرب شانيته الحربية الحصينة بحيث يجعلها ترشح من الماء بما يملأ قمع الخياطة . هذه ثقة جيدة ، ولكن في زوايا الغيب خبايا . بعد بضعة أسابيع أبحر الكومودور في تلك السفينة الحصينة الى فالباريزو لكن حوت عنبر فخماً جسيماً استوقفه في الطريق ورجاه أن يمنحه بعض لحظات من المسارة بينهما لتسوية بعض الشؤون . كانت نتيجة تلك المناجاة لظمة سددها الحوت الى السفينة فتعطلت كل مضخاتها وذهب الكومودور عامداً الى أقرب ميناء لتسحب فيه السفينة ويصلح ما تعطل منها . لست ممن يؤمنون بالخرافات ، لكني أعتقد أن ما جرى بين الكومودور والحوت كان تدبيراً إلهياً . ألم ينتصر شاول الطرسوسي بسبب ما ألم به من خوف مماثل ؟ تريدون الحق ؟ إن حوت العنبر لا يطيق الفشر والهراء .

وأحيلكم هاهنا على « رحلات لانجز دورف » من أجل حادثة صغيرة ذات علاقة بما نحن بصددده وهي من نحو خاص تهتم كاتب هذه السطور ولا بد أن تعلموا بهذه المناسبة أن لانجز دورف كان مع الأميرال الروسي كروزنشرتري في البعثة الكشافية المشهورة في أوائل هذا القرن . يبدأ القبطان لانجز دورف الفصل السابع عشر من كتابه بقوله :

« مخيئاً . وكان يمر عن الاستياء والهياج . جاء رأساً من التلج الذي تنقلنا بينه قبلاً وضر بنا ثلاثة من فكأننا افتعل بنار الاقتام من أجل آلام أصحابه » . ويقول : « وفي جميع الظروف أرى أن الأحداث إذا أخذت سحسمة ، وكلها حدثت بيني وأنتجت حينئذ انطباعات في ذهني ، بأن الحوت يمزج على إيقاع الأذى ويقدر ويحسب (وكثير من هذه الانطباعات قد نسيتها فلا أذكره) أقول ، أرى أن الأحداث تغريتي بأن أفتح أن رأيي كان سوابها .

وهذه هي تأملاته بعد وقت من مفادته للسفينة أثناء ليلة مظلمة في قارب مكشوف وهو يكاد يبتس من بلوغ مرافاً أمين^١ « لم يكن المحيط المظلم والمياه المتدافمة شيئاً مذكوراً . كذلك الخوف من أن تتلصقني عاصفة مخيفة أو تقذف بي على صخور خفية وغير ذلك من الموضوعات التي تعرض لخطر الخائف - كل ذلك لم يعلق بذهني لحظة إنما الذي ظل يخيل أفكاري ويمتصرها هو التحلم الكئيب وسنظر الحوت الرهيب وتأاره حتى انبج العجبر » .

وفي موضع آخر من ص ١٥٠ يتحدث عن « تلك الهجمة الجبية المهلكة التي غنها ذلك الحيوان » .
(١) عجيب أن يقول مثل هذا وهو الذي ينقل كثيراً من عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت . فقد أورد في تاريخه خبراً مفصلاً عن كارثة هذه السفينة .

(٢) أكبر الظن أنه الكومودور تيماس أبو كاتسي جونز الذي كان يقود « اليكوك » ، في رحلة الى جزائر هواي عام ١٨٢٥ .

« في الثالث عشر من أيار (مايو) كانت سفينتنا على أهبة الأبحار وفي اليوم التالي كنا في عرض البحر ، في طريقنا الى أوختش . كان الجو صافياً جميلاً إلا أن البرد لا يطاق حتى اضطررنا لشدته أن نحتفظ بما نرتديه من فرو . مرت بضعة أيام والرياح ضعيفة حتى إذا كان اليوم التاسع عشر انطلقت هبة ريح لعوب من الشمال الغربي ؛ وإذا حوت جسيم ضخيم يفوق في ضخامته السفينة نفسها يكاد يكون على سطح الماء ، لكن أحداً منا لم يره ونحن على ظهر السفينة إلا حين كادت السفينة وهي مطلقة الأشرعة أن تصادمه حتى كان من المستحيل أن نحول بينها وبين الارتطام به . ووقعنا في خطر داهم حين نصب هذا المارد الجبار ظهره فرفع السفينة مسافة ثلاثة أقدام فوق الماء فترنحت الصواري وهوت الأشرعة جميعاً ووثبنا نحن الذين كنا في العنابر حالاً الى الظهر مخمنين أننا اصطدمنا بصخرة إلا أنا رأينا - بدلاً من ذلك - ذلك الوحش مبحراً مبعداً في كل وقار وركانة . فأعمل القبطان ديولف المضخات على التولّيختبر ان كانت السفينة قد أصيبت بأي ضرر من تلك الصدمة لكن وجدنا لحسن حظنا أنها نجت سالمة » .

هذا القبطان ديولف المذكور الذي كان يقود السفينة المذكورة من أبناء نيو انجلند هو اليوم يقطن قرية دورشستر على مقربة من بوسطن بعد حياة طويلة من المغامرات الفذة كان فيها قبطاناً بحرياً . ولي الشرف أن أكون أنا ابن أخيه^(١) وقد سألته بخاصة عن هذه العبارة في رحلة لانجزدورف فأثنى على كلمة وردت فيها وقال أن السفينة لم تكن أبداً كبيرة - كانت سفينة روسية بنيت على ساحل سيبيريا واشتراها عمي بعد أن باع السفينة التي أبحر فيها من الوطن .

وقد وجدت مادة أخرى مدونة في أحد تلك الكتب الرجولية التي تقص أخبار المغامرات العتيقة وما كان فيها من صعود وهبوط - أعني رحلة ليونل ويفر أحد الأغبياء البلداء من رفقاء الملاح القديم دامبير ؛ وتلك المادة تشبه ما اقتبسته من رحلة لانجزدورف حتى أنني أجدني لا أملك إلا نقلها هنا لتكون مثلاً مؤيداً إن احتاج الخبر السابق الى توثيق .

ويبدو أن ليونل كان في طريقه الى جون فرناندو - هو الاسم الذي يطلقه على ما يعرف اليوم باسم جوان فرناندز - فيقول : « في طريقنا الى ذاك المكان وكانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً ونحن على بعد مائة وخمسين فرسخاً من الأرض الأمريكية أحسست سفينتنا بصدمة مخيفة ألقى الرجال في حيرة حتى لا يكادون يعرفون أين هم أو قيم يفكرون إلا أن كل واحد

(١) القبطان ديولف الثاني ترك الخدمة في البحر وهو في الثامنة والأربعين عام ١٨٢٧ وهو زوج عمه ملفل الكبرى واسمها ماري . قضى ملفل في ضيافته صيف عام ١٨٢٨ في منزله بمدينة برستول في رود آيلند . وقد عمل مع لانجزدورف من ١٨٠٥-١٨٠٧ .

منهم بدأ يستعد للقاء الموت ، وكانت الصدمة في الواقع مفاجئة بالغة العنف حتى أننا قلنا دون تردد لقد ارتطمت السفينة بالصخور ولكن حين انحسر عنا بعض الدهشة ألقينا المسبب لنسبر الغور فلم يلامس أرضاً... والمفاجأة في الصدمة جعلت المدافع تثب فوق عرباتها وانطرح كثير من الرجال أرضاً من أسرتهم أما ديفر القبطان الذي كان مضطجماً ورأسه مستند على مدفع فقد طرح خارج قمرته . ثم يمضي ليونل فيعزو الصدمة الى هزة ارضية يبدو أنه أراد أن يؤيد هذه الدعوى بالدليل فذكر أن زلزلة حدثت في مكان ما حينئذ وأصابت البلاد الاسبانية بأذى كبير . لكنني لا استغرب أن تكون الصدمة في غبش تلك الساعة المبكرة قد سببها حوت لم يره البحارة أخذ يدفع هيكل السفينة من أسفلها في اتجاه قائم .

وقد أتقدم بأمثلة أخرى عديدة عرفتها من غير طريق عن قوة حوت العنبر وشدة ضعفه . وقد عرف منه في غير مثل واحد أنه لا يقنع بمطاردة القوارب المهاجمة حتى يردّها الى سفنها وانما يلاحق السفينة نفسها يقاوم الحراب المقدوفة نحوه من على ظهرها طويلاً وتستطيع السفينة الانكليزية بوسي هول أن تحكي في هذا الشأن حكاية^(١) . وأما عن قوة حوت العنبر فدعوني أذكر لكم أنه حدثت أمثلة كانت فيها الحبال المربوطة به وهو هارب تُنقل الى السفينة في هدوء وتُحفظ فيها ، والحوت يسحب هيكلها الضخم خلال الماء مثلما يسحب الحصان عربة . وكثيراً ما لوحظ أن الحوت اذا ضرب وكانت لديه ندحة للهجوم فانه لا يتصرف تماماً في غضب أعمى وانما يتدبر كيف يقضي على مطارديه بخطط ارادية محكمة . لعلّ مما يفصح عن طبيعته أنه اذا هوجم فانه كثيراً ما يفتح فمه ويقيه مفتوحاً في ذلك الامتداد المخيف دقائق عديدة متوالية . ولكنني أكتفي بصورة أخيرة واحدة أختتم بها هذا كله ، وهي فذة متميزة ولن تعجزوا اذا تدبرتموها عن أن تروا انها أشدّ الأعاجيب المذكورة في هذا الكتاب ، ليست فحسب مؤيدة بوقائع صريحة راهنة وانما هذه الأعاجيب (كسائر الأعاجيب) ليست الا تكراراً لما حدث في سالف العصور حتى اننا لنؤمن للمرة المليون على قول سليمان : « ما كان فهو يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس جديد » .

في القرن السادس الميلادي عاش بروكوبيوس وهو حاكم مسيحي بالقسطنطينية أيام كان جستنيان امبراطوراً وبلزار يوس قائداً . وكثيرون يعرفون أنه كتب تاريخ عصره فجاء مؤلفاً ذا قيمة غير عادية من كل وجه فطالما عدّه الثقات مؤرخاً موثقاً لا ينحو نحو الغلو الا في أمر أو أمرين لا يؤثران في المسألة التي أود ذكرها :

(١) سادفها حوت عام ١٨٢٥ . وحكى لستها بنيت في المجلد الثاني من ٢١٨١ .

يذكر بروكوبيوس في تاريخه أنه في أثناء حكمه في القسطنطينية اصطيده وحش بحري جسيم في البحر الأسود أو بحر مرمرة بعد أن حطم سفناً في تلك المياه على فترات خلال ما يزيد على خمسين عاماً . ومثل هذه الواقعة المدونة في تاريخ موثق لا يستطيع تكذيبها بسهولة ولا من سبب يدعو لذلك . ولم يذكر لنا المؤرخ من أي فصيلة كان ذلك الوحش ، ولكن بما أنه كان يحطم السفن ، ولأسباب أخرى ، فقد كان حوتاً ولا بد ، وأنا أرجح بقوة أنه كان حوت عنبر وسأنبئكم عن السبب . طالما توهمت أن حوت العنبر لم يعيش أبداً في البحر المتوسط والمياه العميقة المتملة به . ، وأنا اليوم واثق من أن هذه البحار ليست وربما لن تكون ، والأمور على هذا الوضع ، مكاناً يقيم فيه مستوطناً . غير أن البحوث المستقصاة حديثاً قد برهنت لي أنه وجدت أمثلة متفرقة تشير الى وجود حوت العنبر في البحر المتوسط ؛ وقد أخبرني الشقة أن كومودوراً اسمه ديفز من البحرية البريطانية وجد على ساحل افريقية الشمالية هيكل حوت عنبر وإذا كانت السفينة البحرية تستطيع المرور خلال الدردنيل فحوت العنبر يستطيع أن يمر بنفس الطريق من البحر المتوسط الى البحر الأسود .

وليس في البحر الأسود - حسب علمي - تلك المادة الهامة التي تسمى « القشريات » brit وهي غذاء الحوت الأثين . ولكن لدي كل ما يسوغ الاعتقاد بأن غذاء حوت العنبر - هو السبيدج أو الحبار - يكمن في قاع ذلك البحر اذ وجدت مخلوقات كبيرة من ذلك النوع وان لم تكن أكبر الأنواع على سطحه . فاذا وضعت هذه الحقائق معاً وضعاً ملائماً ونظرت فيها قليلاً لاحظت بوضوح أن الوحش البحري الذي ذكره بروكوبيوس وذكر أنه ظلّ خمسين عاماً يخرج سفن امبراطور روماني كان ولا بد ، حسبما تقضي بذلك كل طرائق التفسير والتعليل ، حوتاً من حيتان العنبر .

أوهام

وجّه آخاب كل أفكاره وأعماله نحو غاية واحدة كانت حرارة نارها تقتص أطراف نفسه وتأكل حشاشته ، تلك هي القضاء المبرم على موبى ديك . وكأنه على استعداد ليضحي بكل رغائب النفس البشرية في سبيل تلك الغاية ، لولا أن الجبلّة الطبيعية والتعرس الدائب غرسا في نفسه عادات الخوات المتهمّم الصارم فمنعاه بذلك من أن يتخلى كل التخلي عن تحقيق تلك الغايات الجانبية الأخرى في الرحلة . وإذا لم يكن ذلك فلأقل أنه لم تكن تموزه دوافع أخرى حافزة . ربما كان إسرافاً في التتوّق أن أقول - وأنا أتمثل تشبّه المجنون بغايته - ؛ لعل حقه على الحوت الأبيض قد بسط ظلّه بعض البسط على حيطان العنبر جميعاً ، فكلما استكثر من ذبح تلك الوحوش تعددت لديه الفرص في أن يكون الحوت الذي يلقاه من بعد هو ذلك الحوت البقيض الذي خرج في طلبه . غير أنّا إذا استبعدنا مثل هذا التقدير حقاً بقيت لدينا اعتبارات أخرى لا أراها توازي ضراوة شهوته المستحكمة ، غير أنها على ذلك لم تكن عاجزة أيضاً عن الاستبداد به .

كان على آخاب أن يستعمل أدوات إن هو شاء تحقيق غايته ؛ والرجال من بين تلك الأدوات التي تستعمل في ظلال القمر هم أشدها خروجاً على النظام . كان يعلم مثلاً أن ترؤسه على استاربك ، مهما يكن مغناطيسي التأثير من بعض النواحي ، فان ذلك التروؤس لم يستطع أن يبسط ظلّه على ذلك الانسان ذي النزعة الروحية بأكثر مما يستطع التفوق الجسديّ أن يستغرق السموّ العقلي في حومته ، ذلك أن العلاقة بين العقلي والروحي المحض تكاد تكون نوعاً من العلاقة الجسدية . كان في مقدور آخاب أن يحتاز جسم استاربك وإرادته المقهوره ما دام يستطيع أن يبقى مغناطيسه مسلطاً على عقله ، ثم هو كان يعلم أيضاً أن رئيس الضباط يمتّ في قرارة نفسه مأرب قبطانه . وأنه لو استطاع

لتحلل منه مفتباً ، بل لحاول أن يبطله ويحولّ دونه . وقد يطول الوقت قبل أن يظهر الحوت الأبيض ، وقد تعتاد استارك ، خلال ذلك الوقت الطويل ، نزعات للاستسلام الى حوافز الثورة المستعلنة ضد رياسة قبطانه ، إلا اذا حدثت مؤثرات عادية لبيقة ظرفية وفعلت فعلها في نفسه . ولم يكن ذلك كلّ ما هنالك ، بل إن الجنون الماكر الذي استولى على آخاب بصدد موبى ديك لم يتجلّ تماماً مثلما تجلّى في إحساسه الساطع ودهانه البارح حين نظر مستبصراً فرأى أن الصيد عندئذ يجب أن يجرد - مؤقتاً - من ثياب الضلال والجحود التي تلبس بها بطبيعة الحال ، وأن الفزع المرعب الذي تنطوي عليه الرحلة يجب أن يظل منزوياً منحجراً - (فقليل هم الناس الذين تصمد شجاعتهم طويلاً أمام التفكير والترقب الطويل الذي لا يخرج توأ الى حيز الفعل) - وأن ضباطه ورجاله يجب أن يشغلوا أفكارهم بأمور أقرب اليهم من موبى ديك في مواقعهم للحراسة والرقابة في الليال الطوال . نعم ان البحارة الهمج قد هللوا له في تلهف وتهور حين أعلن لهم عن غايته ، ولكن البحارة جميعاً ، أياً كان متماهم ، على حظ من النزوات ونكث العهود - قلّ أو كثر - فهم يعيشون في جو متقلب ، ويجرعون في صدورهم أنفاس تقلّب ، واذا ربطت نفوسهم الى غاية بعيدة خواء من الكسب ، مهما يكن ما تعد به من حياة ورضى عاطفي ، فمن الضروري قبل كل شيء أن تهيأ فيما بين ذلك مصالح ومشاغل عاجلة وتبقى نفوسهم معلقة بالضربة النهائية ، لئلا يفسدها الفراغ .

ولم يكن آخاب غافلاً عن شيء آخر : في لحظات العواطف الثائرة الجياشة يحتقر البشر حقاً كلّ الأمور المهينة ، ولكن مثل تلك اللحظات سريعة الزوال . ولقد قال آخاب لنفسه : إن الحرص الخسيس هو الحال الملازمة التي لا ينفك منها الانسان المخلوق لأنها في صميم جبلته . إذن هب أن الحوت الأبيض هو الذي يلهب قلوب بحارتي ، هؤلاء الهمج ، وأن التحيل على همجيتهم ووحشيتهم يولد في نفوسهم نوعاً من الفروسية السخية المعطاء ، مع ذلك لا بد لهم أيضاً من غذاء آخر يشبع شهوتهم اليومية الدنيئة ، وان كان غرامهم بالصيد قد يحفزهم لصيد موبى ديك . حتى الصليبيون الفرسان ذوو النخوة والشهامة في العصور الخوالي لم يقنعهم أن يقطعوا ألفي ميل في البر ليحاربوا من أجل الضريح المقدس ، دون أن يقترفوا صنوف السرقة والطرارة (النشل) ويبتزوا أجور الأتقياء الآخرين في طريقهم . ولو أنهم تمسكوا تمسكاً دقيقاً بغايتهم القصوى الجذابة لانحرف منهم كثيرون عنها نافرين مسمنزين . ولذلك قال آخاب لنفسه : لن أجرد هؤلاء الرجال من رجائهم في أن ينالوا نقداً - نعم نقداً وعداً ؛ قد يزدرون النقد اليوم ولكن اذا لم يلح لأعينهم رجاء في النقد بعد مضي

بضعة أشهر ، فإن هذا النقد الهادئ سيتعمد دفعة واحدة ، هذا التصرف النقدي قد « يصرف » آخاب توطاً الى الاستيداع .

ولم يغب عن بال آخاب دافع آخر داع الى الحيطة متصلً بشخصه ؛ لعل آخاب قد تملكه التسرع حين كشف عن الغاية الكبرى - غايته الخاصة - من سفرة الباقوطة ، ولعلّه أعلن عن ذلك قبل أوامه ، فأصبح على وعي تام بأنه حين فعل ذلك قد جعل نفسه عرضة - بطريق غير مباشر - لتهمة الغصب ، وهي تهمة ليس لديه ردّ عليها ، ومن ثم يستطيع بحارته ، ان شاؤوا وكانوا كفاءً بذلك ، أن يرفضوا طاعته بل أن ينزعوا الإمرة منه عنوة ، تخلصاً مما قد يصيبهم من قصاص اذا هم شايعوه في الغصب ، وذلك حق لهم من الناحيتين الأخلاقية والقانونية . ولقد كان آخاب ، ولا بد ، أشد شيء رغبة في أن يحمي نفسه من محض الالماح الى تهمة الغصب ومن النتائج الممكنة التي قد تنجم لو أن هذه الفكرة المنزوية المكبوتة قد استعلنت واستحكمت ثمة . ولا تتأتى له هذه الحماية إلا اذا سخّر دماغه المصرف وقلبه ويده ، وشغفها جميعاً باهتمام يقظ مترصد حاسب ، يرقب كل أثر جوي دقيق صغير يمكن أن يتعرض له بحارته .

لهذه الأسباب جميعاً ، ولأسباب أخرى لعلها أدق من أن يفصح المرء عنها ، وجد آخاب في وضوح أن لا بد له من أن يظل مخلصاً اخلاصاً كفاءً بالغاية الطبيعية الاسمية التي تهدف اليها رحلة الباقوطة ، وأن يرعى العرف المتبع ، وهذا أيضاً غير كافٍ إذ كان عليه أيضاً أن يقسر نفسه على أن تعلن عن حميته المعروفة المتضزمة في تأديته لمهمته العامة . ومهما يكن أمر هذا كله فكثيراً ما كان يسمع صوت آخاب ينادي الواقفين على رؤوس الصواري الثلاثة وينبهمهم الى انعام النظر الحديد ، والى أن لا يغفلوا عن الإخبار بما يلوح لأعينهم ولو كان بربوياً . بعد وقت غير طويل وجدت هذه الرقابة اليقظة جزاءها وفاقاً .

النساج

يومئذ كان الأصيل الأول غائماً حاراً ؛ والبحارة يتسكمون على ظهر السفينة حاملين ، أو يحدقون ساهين في الأمواه التي لبست لونا رصاصياً ، وكنت أنا وكويكوج ننسج في دعة ما يُسمى « حمالة السيف » لكي نضيف الي قاربنا جبلاً . وكان المشهد كله ساكناً مكمداً وان كان استهلالاً لشيء يعقبه على نحو ما ، قد انبث في الهاء سحر من الاستبحار حتى كأن كل بحار صامت قد غار في زوايا نفسه الخبيثة .

كنت رفيق كيكوج أو وصيفه بينما كان هو منهمكاً في صنع الحبل . وحين كنت أسدي وأحم الخيوط بين وشائع النول متخذاً من يدي « مكوكاً » ، وحين كان كويكوج - وهو في وقفته الجانبية يمرر سيفه السندياني دون توقف بين الخيطان وينظر متكاسلاً نحو الماء ، وهو يضع كل وشيعة موضعها الصحيح في غير اكتراث أو تفكير ، أقل : حينئذ رانت على السفينة وعلى البحر جميعاً حالة غريبة من الحلم لا يتخللها إلا الصوت المتقطع البليد الذي يحدثه السيف ، حتى بدا لي وكأن هذا هو « نول الزمن » ، وكأنني أنا نفسي « مكوك » ينسج وينسج ألياً ليعلق بالأقدار . هنالك طاقات السداة المثبتة في المنسج وهي عرضة لذبذبة وحيدة متكررة أبداً غير متغيرة أبداً ، وهذه الذبذبة لا تسمح إلا بخيوط اللحمه كي تتشابك مع طاقات السداة المثبتة ؛ هذه السداة هي الضرورة ، وأنا - كما حدثتني نفسي - أدير مكوكي وأحيك قدرتي خلال هذه الطاقات التي لا تتغير ولا تتبدل ، وفي الوقت نفسه يجيء سيف كويكوج ، ذلك الحافز السادر ، فيضرب اللحمه مانلاً أو معوجاً ، قوياً أو ضعيفاً ، كيفما اتفق ، وبهذا الفرق في ضربة الختام يحدث مفارقة مماثلة في الطور النهائي من النسيج المستكمل ؛ وقلت لنفسي : ان سيف هذا البربري الذي يمنح الشكل الختامي لكل من سداة النسج ولحمته ، هذا السيف الهين السادر لا بد أن يكون هو المصادفة

والارادة الحرة والضرورة ، ثلاثة أضداد مجتمعة تعمل معاً متداخلة متضافرة ، طاقات سداة الضرورة لا تحيد عن مسالكها المرسومة ولا تتم كل ذبذبة مراوحة فيها إلا كي تعود الى مستقرها الثابت ، والارادة الحرة تظل طليقة لكي توجه مكوكها بين الطاقات المقدره ، والمصادفة مقيدة في حركتها خلال خيوط الضرورة حين تتجه يمناً متحركة حركة جانبية بقوة الارادة الحرة ، إلا أن هذه المصادفة - وإن كانت موجّهة بقوة الاثنتين - تتحكم بدورها فيهما ، وترسل الضربة التي ترسم الملامح النهائية للأحداث .

* * *

كنا ننسج مسترسلين حين أجفلتُ لدى سماع صوت بالغ الغرابة مديد وحشي الموسيقى مستنكر الوقع ، حتى أن فلكة الارادة الحرة سقطت من يدي ، ووقفت أشخص ببصري الى الغيم من حيث سقط علينا ذلك الصوت كأنه حفيف أجنحة ، فرأيت في الأعالي الشاهقة على مرعاة المرقب ذلك الجايهيدي الأحمق طاشطيقو . كان قد دفع جسمه الى الأمام في تهوّر المتحمس ، ومدّ يده كأنها عصا الساحر ، ومضى يرسل صرخاته اثر لحظات قصيرة من التوقف المفاجئ . وأنا على يقين أن ذلك الصوت في تلك اللحظة ربما انبعث من منات المراقب العلوية في سفن الحوامة ، وتردد في أرجاء البحار جميعاً ، ولكن قلّ أن تجد فيها صوتاً شبيهاً بالصوت الذي كان يرسله طاشطيقو الهندي فانه استمدّ من صدر صاحبه المتمرّس المعنك في هذه الشؤون وقماً عجيباً .

ولو أنك رأيتَه محلّقاً من فوقك ، مطلقاً نصفه في الفضاء ، محدقاً نحو الأفق في وحشية واندفاع ، لظننته كاهناً أو عرافاً يشهد أسباح القدر ويعلن عن قدمها بصرخاته الغريبة .

- هناك ينفت! هناك! هناك! هناك ، ينفت! ينفت!

- أين! أين! ؟

- قبالة مستعرض السفينة وفق المهبّ ، على بعد ميلين ، هناك قطع منها .

وسرعان ما أصبح كل شيء في حركة واضطراب .

ان حوت العنبر ليرسل نفثاته كدقات الساعة في وقع منتظم لا يختل ولا يضطرب ،

وبهذه النفثات يميز الحواتون هذا الحوت من سائر الأسر التي تنتمي الى نوعه .

وصاح طاشطيقو عندئذ يقول : «ها هي الذبول تبدو» ، واختفت الحيتان .

وصرخ آخاب : «عجل يا سفرجي ؛ الوقت! الوقت!» .

وأسرع الغلام العجان نازلاً ، ولمح الساعة ، وأعلم آخاب بالوقت .

كانت السفينة حينئذٍ قد جعلت تجري بلطف أمام الريح ، وقال طاشطيقو : ان الحيتان قد قسمت في الماء وفق المهب ، فأخذنا نتطلع إليها واثقين من قوله ، فرأيناها بعيداً على سمت مقدمة السفينة . ولحوت العنبر حيلة فذة يستعملها أحياناً ويعرفها كل من تمرس بالتحويت أعني أنك قد تراه مصمم الرأس في اتجاه ما ، ثم يسبر الماء ويختفي تحت سطحه ويدور دورة الطاحونة وهو ما يزال مختفياً ، ويسبح بخفة في اتجاه مضاد ، غير أنه لم يأت هذه الخدعة حينئذٍ ولم يكن ما يحمل على الظن بأن الحيتان التي رآها طاشطيقو قد أصيبت بالذعر أو عرفت حقاً بأننا على مصابقتها . جاءت نوبة بديل للهندي في المرقب بأعلى الصاري الرئيسي ، فنزل وحلّ محلّه أحد الذين يختارون عادة لحفظ السفينة - وهؤلاء الحفظة هم الذين لا ينزلون في قوارب الصيد . ونزل البحارة الذين كانوا عند الشراع الأمامي أو عند المظنين ، وثبتت براميل الحبال في مواضعها ، وجهزت الروافع ، وقويت سنادة الشراع الرئيس وتدلّت القوارب الثلاثة متأرجحة فوق البحر كأنها ثلاث سلال من السمار تدلت من ريد الجبل . وعلى جوانب هيكل المركب تدلى ملاحوها المتحمسون وكل منهم يمسك طرف الحاجز الحديدي بإحدى يديه ويرجو أن يحطّ إحدى قدميه على حرف السفين . هل رأيت صفّاً طويلاً من جنود بارجة على أهبة أن يقذفوا بأنفسهم فوق سفينة العدو ؟ لكن في تلك اللحظة الحرجة سمعت صيحة مفاجئة حولت كل الأبصار عن الحوت . وأجفل الجميع وهم يبصرون آخاب الأسود وقد أحاطت به خمسة أشباح قاتمة كأنما تمخض عنها الفضاء لتوها .

القوارب تنزل أول مرة

كانت الأشباح - وماذا أدعوها وقد بدت كذلك؟ - تمرق على الجانب الآخر من ظهر السفينة وتنفك علائق القارب وأربطته ، حيث تدلّى ، في سرعة لا حسن فيها . وكان البحارة يظنون دائماً أن هذا القارب هو أحد القوارب الاحتياطية ، وإن سموه بالنظر الى موقعه باسم قارب القبطان ، إذ كان معلقاً بجانب ربعة الجانب الأيمن من السفينة ، وكان الزؤل الواقف عند مقدمته طويلاً مكمد اللون ذا ناب واحد أبيض ناتئ نتوءاً مشؤوماً من بين مشفره الفولاذيتين ، وقد تسلب حول جذعه صدارة صينية «مكرمشة» من القطن الأسود وسروالاً أسود واسعاً من ذلك القماش الغامق نفسه . وكان هذا السواد الأبنوسي قد توج على نحو غريب بعمامة متألثة بيضاء جمدة هي شعره الأصيل وقد ضفّره وجعله يلتف ويتلوى عقاصاً حول رأسه . أما رفاق هذا الزؤل فكانوا أقل من صاحبهم كمدة وقتاماً ، ذوي بشرة في صفرة النمر يتميز بها بعض السكان الأصليين من أهل جزر مانايلا . وهو جنس مشنوع بنوع من الشيطانية في المكر والدهاء ، ويظنه بعض البحارة البيض الطيبين جواسيس لدى الشياطين ، سيدهم ومدبرهم ، وهم عملاؤه الموثوقون في السرّ يرسلهم على وجه الماء وهو يستخدمهم ويكمن - حسب ظنهم - في موضع آخر .

وبينا كان رجال السفينة يتطلعون في دهشة نحو أولئك الغريباء كان أخاب يهيب برئيسهم الشيخ ذي العمامة البيضاء صائحاً ، «أكل شيء على أتم استعداد يا فيض الله^(١)؟» .

(١) يمثل فيض الله الروح الشريرة التي تسلطت على أخاب ، وسيتم ذلك في الفصل التالي أثناء تصوير العلاقة بين الرجلين وقد ورد اسم «فضل الله» في قصة من ألف ليلة وليلة تحكي ، حكايته مع امرأة اسمها زمردة لأخمت الى الانجليزية . وهو ملك الموصل ذو الفضائل العظيمة الذي سعد بزواجه من زمردة ، يخدعه درويش بنكرته عن تغمص الأرواح فيحل في جسده ويملك فلكه وزوجته ، أما روح فضل الله فتحل في وعل ثم في بلبل تربيه الملكة وترعاه ، ويبدو أن ملفل منح اسم الأمير الفاضل للدرويش المحتال ، وظن الحكاية فارسية فجمّل «فضل الله» أو «فيض الله» مجوسياً ، غير أن هذا الاسم الاسلامي لا يطلق على شخص مجوسي .

فيجيبه هذا بصوت بعضه كالصغير : « أتم استعداد » .
فيصيح آخاب عبر السفينة : « أنزلوا قواربكم اذن . أتسمعون ؟ أقول : أنزلوا قواربكم » .

كذلك كان هزيمُ صوته الراعد حتى أن الرجال ، على ما تملكهم من دهشة ، وثبوا فوق حرف السفينة ودارت البكرات في محاجنها ، وسقطت القوارب في البحر فتفاجَّ لها صدر الماء . ووثب البحارة وثبة المعزى من جانب السفينة المتدحرج ، الى القوارب المتدفعة ، بجرأة رشيقة لا تعرف المبالاة ، ولا يحسنها غيرهم في أية حرفة من الحرف .

وما كادوا يبتعدون عن جسم السفينة من الجانب البعيد عن الريح حتى تبدى قارب رابع أت من الجهة المواجهة للمهب فاندفع حول المؤخرة ، وظهر الغرياء الخمسة وهم يجذفون بأخاب وقد وقف منتصباً في مؤخرة القارب ودعا استاريك واسطب وفلاسك لكي يوسموا ضربات المجاذيف حتى يقطعوا مسافة أطول على الماء . ولكن بحارة القوارب الأخرى سمروا نظراتهم في فيض الله الأسود ورفاقه فلم يمثثلوا للأمر استغراقاً .

وقال استاريك : « من ذا ؟ القبطان آخاب ؟ »

فصاح آخاب : « وسعوا مدى التجديف ، لا تتشددوا أنتم بحارة القوارب الأربعة جميعاً وأنت يا فلاسك ، جذف في مئيل وفق المهب » .

فصاح « الدعامة الكبرى » في جذل وهو يحول مجذافه الكبير الأمامي : « نعم . نعم . سيدي » ثم خاطب بحارته قائلاً : ميلوا للخلف! ها هو! ها هو . هناك مرة أخرى . أمامنا ينفث على خط مستقيم أيها الفتيان ، ميلوا للخلف! .
- « حول عينيك عن هؤلاء الفتيان الصفر يا آرشي » .

فقال آرشي : « سيدي . أنا لا أبه لهم . لقد كنت أعرف كل هذا من قبل . ألم أسمعهم وهم في العنبر ؟ ألم أخبر كاباكو بما سمعت ؟ ما رأيك يا كاباكو ؟ لقد كانوا «مهربين» في خفية يا سيد فلاسك » .

- « جدفوا . جدفوا يا قلوب الشبان الفتية ، جدفوا أبنائي ، جدفوا يا صفاري » - كذلك كان يتنهد اسطب وهو يحفز بحارته في هذمة ومصانعة ، إذ كان بعضهم مايزال يبدي بعض امارات القلق والنفور : « لأي شيء توفرون أصلابكم . لمّ لا تكسرونها نشاطاً يا فتياتي ؟ فيمّ تحدقون ؟ في هؤلاء الفتيان أصحاب القارب الآخر ؟ هه! ما هم إلا خمس أيدي أخرى جاءت لتساعدنا - لا يهمنا من أين جاءوا - زيادة الخير خير . جدفوا هيا ، جدفوا : لا تهتموا بطلاء القار على وجوههم - فالشياطين رفاق طيبون . كذا . كذا ، أحسنتم . تلك

ضربة مجداف تسوي ألف جنيه . تلك ضربة تكسب الرهان وتكفل الفوز ، مرحى بكأس ذهبية من زيت العنبر يا أبطالى . مرحى ثلاثاً يا رجال يا ذوي القلوب القوية . على رسلكم ، على رسلكم . لا عجلة ، لا عجلة ؛ لِمَ توفرون مجاذيفكم فلا تقصفونها حمية يا خبثاء يا أزدال! عصفوا على شيء ما يا كلاب! كذا . كذا إذن ، على مهلكم ، على مهلكم! هو ذاك ، أحستم ، باعدوا المسافة وادفعوا بقوة . أريحوا ، أريحوا هنالك! ركبكم الشيطان يا أفاقين يا معدمين . كلكم نائمون . أبطلوا الشخير يا نوام وجدفوا . ادفعوا ، ألا تدفعون ؟ جدفوا ، ألا تستطيعون ؟ هيا اعملوا ، ألا تريدون ؟ جدفوا واكسروا شيئاً ما ، جدفوا واجعلوا أعينكم تندر من محاجرهما شداً . انظروا . - واستل مديته الحادة من نطاقه وقال : « ليسحب كل ابن اثنى منكم مديته ويجدف وهو واضع شفرتها بين أسنانه . تماماً هكذا! ها أنتم قد صنعتُم شيئاً يذكر ؛ مثل هذا كنت أريد ، يا شظايا الفولاذ! اخرقوه عنقاً! اكسروه تجديفاً ، يا معالق الفضة ، يا مخارز! » .

تسمحت بايراد «ديباجة» اسطب هذه التي كان يلقيها على بحارته ، دون ايجاز ، لأنه كان ذا طريقة فذة في التحدث اليهم بعامة ، وبخاصة حين يريد أن ينقش في أذهانهم أمثلة التجديف . ولكن اياك أن تظن اذا أنت طالعت هذا النموذج من أسلوبه الوعظي أنه كان يستشيط غضباً وهو يخاطب جماعته . لا شيء من ذلك أبداً . وتلك هي ميزته الفريدة ، فربما وجه لبحارته أشدّ ضروب البذاء والسباب في نغمة تجمع بين مزيج غريب من الفكاهة والهياج ، ويجيء الهياج مقدراً كأنه «بهار» للفكاهة ، حتى أن أي بحار يسمع هذه الدعوات الغريبة ليهبّ مجدفاً بكل ما أوتي من قوة ويجذف استطرافاً واستملاحاً . أما هو نفسه فقد كان يظل طوال الوقت هيناً ليناً ، يدير مجدافه المقدم في دعة مسترخية وقد تشاءب أو ففر فاه أحياناً حتى أن منظر ذلك الأمر المتشائب ، بقوة المفارقة المحض ، كان يفعل فعل السحر في ملاحيه . ثم أن اسطب كان من نوع غريب من ذوي الفكاهة ، يجيء مرحهم أحياناً غامضاً على نحو غريب فيجعل مرؤوسيهم على رقبة وأهبة في شؤون الطاعة والامتثال .

أما استاريك فقد كان يجدف مائلاً عبر مقدمة اسطب امتثالاً لاشارة أرسلها آخاب : ولما تقارب القاريان مدة دقيقة أو نحوها نادى اسطب رفيقه الضابط قاتلاً :
 « يا سيد استاريك . يا ريس القارب الأيسر . كلمة واحدة يا سيدي ان أذنت! »
 - « هلو » ؛ ردّ عليه استاريك دون أن يلتفت قيد شعرة وهو يتكلم ومضى يحث بحارته في حماسة هامساً . وكان وجهه ازاء وجه اسطب شبيهاً بالصوان .

- ماذا ترى في هؤلاء الفلمان الصفر يا سيدي ؟

- مهربون على السفينة ، على نحو ما ، قبل أن تغادر الميناء (جدفوا بقوة . بقوة يا فتيان!) «أمر مؤسف يا سيد اسطب» (احموا صدر القارب ، هيجوه يا شبان) «لكن لأبأس يا سيد اسطب ، نرجو الخير . قل لبحارتك جميعاً أن يجدفوا بقوة وليكن ما يكون» (وثباً يا رجالي وثباً) «أمامنا براميل من زيت العنبر يا سيد اسطب وهذا ما أبحرنا من أجله» (جدفوا يا أولادي) «حوت العنبر هو بغيتنا . هذا هو الواجب في الأقل ، والواجب والريح متلازمان!» .

فقال اسطب وكأنه يناجي نفسه حين تباعد القاربان : «أجل! أجل! ذلك ما فكرت فيه حين وقعت عيناى عليهم ، ذلك ما ظننته ، أجل ، ومن أجل ذلك كان يكثر التردد على العنبر الخلفي حسبما زعم الغلام العجان منذ عهد بعيد . كانوا مختبئين هنالك . والحوت الأبيض هو سرّ هذا التدبير كله ؛ حسناً ، حسناً ، ليكن ما يكون . لا يمكن تلافيه . طيب! أريحوا قليلاً يا رجال ، ليس ما نظارده اليوم الحوت الأبيض! أريحوا قليلاً» .

من عجيب أن قدوم هؤلاء الغرباء الغلاظ في مثل تلك اللحظة الحرجة . لحظة انزال القوارب من على ظهر السفينة ، لم يثر في نفوس بعض ملاحى السفينة أي دهشة أسطورية . وعلة ذلك أن استكشاف آرشي التخميني كان قد شاع بينهم قبل زمن ، فأعدّ نفوسهم لتقبل الحادثة بعض إعداد ، وثلم حدة دهشتهم . ولهذا برنوا من الأوهام الخرافية حينئذ . وساعدهم على ذلك أيضاً طريقة اسطب الواثقة حين ذهب يعمل لظهور أولئك الغرباء : غير أن الحادثة تركت مجالاً واسعاً لجميع أنواع الظنون الغريبة حول يد آخاب الأسود في الأمر منذ البداية . وتذكرت أنا - في صمت - تلك الأشباح الغريبة التي رأيتها تزحف على ظهر الباقوطة خلال الفجر الأغيش في نانتوكت ، وعادت اليّ التلميحات المبهمة التي كان ينثرها ايليا السادر الغريب الشأن .

وكان آخاب في الوقت نفسه قد أصبح بمنأى عما يقوله الضابطان ، وقد أبعد في الانسياق نحو وجهة المهب وتقدّم بقية القوارب ، وكل ذلك كان ينبئ عن كفاية الملاحين الذين كانوا يدفعون بالتجذيف قاربه . لكأنما كان أولئك النمر صفرةً من فولاذ أو عظام حوت ، يقومون ويقعدون حسب ضربات من القوة منتظمة كأنهم المرازب الآلية ، فينطلق القارب في الماء كأنه مولد بخار أفقي يذهب منطلقاً من باخرة في نهر المسيسيبي . أما فيض الله الذي كان يعمل مجذاف الزراق فكان قد ألقى عنه صدرته السوداء وكشف عن صدره العاري وعن كل ذلك الجانب من جسمه الممتد فوق حرف السفين فاتضحت معالم بنيته إزاء

الانخفاضات المتواوِحة في الأفق المائي . وأما آخاب فقد كان في الطرف الآخر من القارب وقد مدّ ذراعاً واحدة كأنه مبارز وتقاعس بظهره في الفضاء كأنما يوازن بجلسته أي ميل للسقوط . كان آخاب يسيطر في ثبات على المجذاف المقدم الموجّه . كأنه هو نفسه آخاب في المرة الألف من انزال القوارب قبل أن يذهب الحوت الأبيض بساقه . ورسمت الذراع الممتدة حركة خاصة - دفعة واحدة - ثم بقيت مثبتة حيث هي وإذا المجاذيف الخمسة في وقت معاً قد أصبحت كالمناسر . وقف القارب والملاحون على الماء بلا حراك . وعلى التوّ توقفت القوارب الثلاثة المتباعدة في المؤخرة . كانت الحيتان قد استقرت دون انتظام في القاع الأخضر من غير أن تحدث أية أمانة تدل من بعد على حركتها وان كان آخاب قد لاحظها لاقترابه منها .
فصاح استاريك : « لينظر كل رجل منكم على المدى في اتجاه مجذافه ، قف ، أنت يا كويكوج! » .

وثب ذلك البربري بخفة ورشاقة على الصندوق المثلث البارز في المقدمة ، ووقف هنالك منتصباً ، ونظر بعينين محددتين لاهفتين نحو البقعة التي رني فيها الصيد آخر مرة . وعلى مؤخرة القارب حيث سطح مستوٍ يصنع مع حرف القارب شكلاً مثلثاً وقف استاريك أيضاً ، وجعل يحاول أن يقف متزناً في برود وكياسة ، والماء يتلعب بتلك الخشبة التي تسمى قارباً ، وأخذ يرمق بعينيه عين الأخضر الطامي في سكون .
ولم يكن قارب فلاسك نائياً وهو منطرح مبهور على صفحة الماء ، وقد وقف قائده بغير اكتراث على قمة « المثقلة » ، وهي نوع من الدعامة مفروسة في بطن القارب ، وترتفع نحو قدمين فوق مستوى دكة المؤخرة ، وتستعمل ليلتف حولها حبل التحويت ، وقمتها ليست أعرض من راحة كف الانسان ؛ وحين وقف فلاسك على مثل تلك القاعدة بدا وكأنه قد حطّ على قمة صارٍ في سفينة غرقت جميعاً سوى دواليب روافعها . غير أن « الدعامة الكبرى » كان صغير الحجم قميناً ، وكان أيضاً مفعماً بطموح كبير طويل حتى أن قمة « المثقلة » التي اعتلاها لم تكن لترضيه أبداً .

- لا أستطيع أن أرى مدى ثلاث موجات . أقم لنا مجذافاً هناك ودعني أقف عليه .
فلما سمع دغة هذا اتكأ بيديه الاثنتين على حرف السفين متشبثاً ، وانزلق بخفة نحو مؤخرة السفينة ، ثم انتصب واقفاً وتطوّع بجمل كفيه مراقبة وقال :
- كمرب الصاري يا سيدي . ألا تصعد ؟
- ذلك أريد وشكراً جزيلاً يا رفيقي المهدب . كم كنت أتمنى أن تكون أطول مما أنت بمقدار خمسين قدماً .

وعلى الأثر غرس الزنجي العملاق قدميه ضدّ لوحين متقابلين في القارب ، وطأطأ قليلاً ، وقدم راحته مبسوطة ليضع عليها فلاسك قدمه ثم وضع يد فلاسك على رأسه الذي يشبه التابوت المعلم بالريش وأمره أن يثب إذا هو انتفض ، وفي همزة رشيقة واحدة أرسى الرجل الصغير عالياً في الفضاء فوق كتفيه ، وفيما هو واقف هنالك كان دغة يرفع له ذراعه ليتخذها حزاماً يشدّ بها صدره ويتثبت في موقفه .

ومن كان مبتدئاً في شؤون البحر أدهشه في كل وقت أن يرى كيف يحتفظ الحوات بقامته منتصبه في القارب ، وكأن دربته العجيبة قد جعلت مهارته عفو الخاطر حتى حين يتأرجح به القارب في أشد المياها طفياناً وعناداً . وأغرب من هذا كله أن يراه وقد وقف مترنحاً فوق « المثقلة » نفسها في مثل تلك الظروف . غير أن مرأى فلاسك الصغير وقد علا فوق كتفي دغة العملاق كان أغرب المناظر جميعاً ، فقد استطاع ذلك الزنجي الفارع أن يدع جسمه الجميل يتدحرج في انسجام مع تدحرج الأمواج ، قد نصب نفسه في عظمة هادئة يسرة عفوية سمحة بربرية ؛ وكان فلاسك فوق عاتقه العريض المغطى بشعر كأنه الكتان يبدو كندفة الثلج . كانت المطية أنجد من راكبها . وكان فلاسك حقاً مرحاً صخباً محباً للتباهي ، إلا أنه كان بين الحين والحين يدق بأخمصه في جزع وفروغ صبر فلا يحرك في صدر الزنجي الشامخ مزيداً من زفرة واحدة . كذلك رأيت الشهوة والضرور تدقان بأقدامهما وجه الأرض الحية الكريمة ، فلم أرَ الأرض تغير أزمانها وفصولها بذلك .

وفي الوقت نفسه لم يبدِ اسطب الضابط الثالث أي شوق لابعاد مدى الرؤية . قد تكون الحيتان قامت بإحدى قمساتها المنتظمة ، ولم تغض غوصاً مؤقتاً بداعي الفزع المحض ؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن اسطب يصرّ ، حسبما تعود في مثل هذه الأحوال ، أن يبدد جهامة الزمن المتراخي بدخان غليونه ، ولذا استخرجه من شريط قبته حيث كان يضعه دائماً مانلاً كأنه الريشة ، وحشاه بالتبع وسوى سطحه بطرف ابهامه ، وما كاد يمرّ عود الثقاب على سطح يده الخشن الذي يشبه « ورق الصنفرة » حتى انقض فجأة طاشطيقو مساعده الرماح الذي كان قد ثبت عينيه وجهة نشوء الريح كأنهما نجمان ثابتان ، انقض كأنه الساعة من وقفته المنتصبه في مقعده وهو يصرخ صرخات متلاحقة وكأنما أصابه من عجلة ؛

- « هيا ، هيا جميعاً ، ووسعوا مدى التجديف ، فهي هناك! » .

لو أن الناظر كان رجلاً من أهل البر لما لاح لعينيه في تلك اللحظة أي حوت أو أية أمارة من سمك الرنجة ، واذن لما رأى إلا قطعة من الماء الأبيض الضارب الى الخضرة ، ونفثات متفرقة من البخار تحوم من فوق الماء ، وتنتشر سحباً مع مهب الريح كأنها اندفاع

مضطرب تحدثه الأمواج البيض المتدحرجة . وامتز الهواء من حولها فجأة وتدافع مقشعراً كأنه الهواء الذي يكون فوق صبحاف من الحديد أحميت بشدة . ومن خلال هذا التموج والتجعد الجوي ومن خلال طبقة رقيقة من الماء كانت الحيتان تسبح ، وكانت نفثات البخار التي أرسلتها تتقدم جميع الدلائل الأخرى على وجودها ، كأنها رُسلها المقدمون أمامها أو طلائعها الراكضة التي انحاشت عنها بعيداً .

وكانت القوارب الأربعة حينئذٍ تقوم بمطاردة جاهدة نحو تلك البقعة التي يضطرب فيها الماء والهواء . ولكنها كانت تنأى فتوتها ، كانت تتباعد وتمعن في التباعد كأنها مجموعة من الحجب المختلط يحملها جدول سريع منحدر من التلال .

- « جذفوا ، جذفوا يا أولادي الطيبين » ، كذلك قال استاريك لرجاله في همسة هي أشد شيء خفوتاً وأبعده تهماً واعتماداً ؛ بينما كانت عيناه تطلقان نظرتين مشبتين حادثين من عند مقدم القارب في اتجاه عامد مستقيم ، وكأنهما ابرتان مرنيتان في بوصلتين دقيقتين قد أودعتا في صندوقيهما . ومع ذلك فإنه لم يكتر التحدث الى ملاحيه ولم يقل له ملاحوه شيئاً ، الا أن الصمت الذي يلف القارب كانت تتخلله بين الحين والحين همسة من همساته الخاصة ، على نحو يستثير الفزع ، فتكون حيناً همسة تملؤها فظاظة الأمر وحيناً نغومة الرجاء .

شتان بين استاريك وبين « الدعامة الكبرى » الصخاب الجمجاع الذي لم يكن يكف عن الكلام : - « غنوا وقلولوا شيئاً يا أعزائي ، ازرأوا وجدفوا أيها الصواعق . جزوا بي ، جزوا بي فوق السود أيها الغلمان . اقلعوا هذا فحسب إكراماً لي وسأتنازل لكم عن مزرعتي في مرتا فنيارد يا أولاد ، بما في ذلك زوجتي وأولادي ، يا أولاد . اضجعوني هنالك ، أضجعوني ، رباه ، رباه! سأجن وأنا أحدق ، انظروا! انظروا ذلك : الماء الأبيض » وما أن أرسل تلك الصيحة حتى نزع قبعته عن رأسه وأخذ يدوسها وينط فوقها ، ثم التقطها وطوح بها بعيداً على الماء ، وأخيراً أخذ ينهض ويفوص في مؤخرة القارب كأنه مهر مجنون من مهارى السهوب .

وكان الغليون القصير بين شفطي اسطب حينئذٍ قد انظفاً ، فظل يضغط عليه بأسنانه ، ويتابع الابحار على مسافة قصيرة من قارب فلاسك ؛ فقال وهو يهدرم متحلاً حكمة للفيلسوف : « تأملوا ذلك الفتى . أصابته نوبة . لا ريب أن فلاسك يصاب بها . النوبات ، نعم انمحوه نوبات - تلك هي الكلمة الدقيقة لتصوير حاله - اغرسوا النوبات فيه . جذفوا بمرح ، بمرح أيتها القلوب الحية ، سيكون عشائركم بودنج ، وأنتم تعلمون ذلك . المرح تلك هي الكلمة المناسبة . جذفوا أيها الأطفال ، جذفوا أيها الرضع ، جذفوا جميعاً ؛ ولكن بحق الشيطان لم تستعجلون ؟ هوناً هوناً وثباتاً يا رجالي ، جذفوا فحسب ، وامضوا مجذفين ؛ لا

شيء، سوى ذلك . اكسروا أصلابكم جهداً ، وعضوا على مدياتكم حتى تقصموها وحسبنا هذا .
يسرّوا ولا تعسروا ، لم لا تيسرون - أقول ، لم لا تيسرون وتفجرون أكبادكم ورناتكم شداً .
لكن ما الذي قاله آخاب الغامض لبحارته الذي هم كالنمور صفرة ؟ خير لنا أن لا ندرج
تلك الكلمات في هذا المقام لأنكم - أيها القراء - تعيشون تحت النور المبارك الذي يشع
على هذه البلاد ذات المذهب الانجيلي . ولا يصفي لمثل تلك الكلمات الا حيطان القرش
الكافرة في البحار الجبارة ، حين وثب آخاب خلف فريسته ، وجبينه كأنه الزوبعة ، وعينه
تقدحان بشرر الموت الأحمر ، وشفتاه تتدبقان بنثار الزبد .

وحينئذ كانت القوارب جميعاً تشدّ شدّها الجاهد . وكان فلاسك يكرر التلميح الى
الوحش الاسطوري باسم : « ذلك الحوت » ، ويقول إن ذنبه ما يزال يعابث صدر قاربه
بالشوق المبرح الى ادراكه ؛ وكانت تلميحاته تلك تجيء أحياناً حيوية واقعية ، حتى كانت
تجعل واحداً أو اثنين من بحارته يسترقان نظرة خائفة الى الوراء ؛ وهذا العمل مخالف لكل
قانون ، ذلك أن المجذفين لا بد لهم أن يفرسوا أعينهم أماماً دون التفات ، ويدسوا في
أعناقهم سفافيد تصلبها عن الحركة ، فقد جرى العرف على أنه ليس لهم من جوارح إلا
الأذان وليس لهم من أطراف إلا الأذرع في مثل تلك اللحظات الحرجة .

وكان منظراً حافلاً بالعجب والرهبة السريعين! كل شيء فيه يحدث هزة وانتفاضاً .
فهناك الأمواج الهائلة في البحر الجبار ؛ والهدير الطاغي الأجوف الذي تحدثه وهي تصدم
حوافي القوارب الثماني ، كأن القوارب كرات ضخمة في ملعب أخضر مترامي الأطراف ؛
والعذاب الوحي المتقطع الذي يقاسيه القارب حين ينقلب لحظة على حافة الأمواج المحددة
كأنها موسى ، وكأنها لحدتها توشك أن تشقه نصفين ؛ والغوص المفاجئ العميق في أغوار
البحر وأخاديه ؛ والحث والهمز اللاهف لبلوغ قمة الموجة المقابلة ، والجرف القائم الزلق
في صفحتها الأخرى . أضف الى هذا كله سرخات القادة والراحين ولهات المجذفين
المرتعد ، والمنظر العجيب - منظر الباقوطة العاجية وهي تكاد تنقض على قواربها بأشربة
منتشرة كأنها دجاجة مفزعة تلحق كتكايتها المصنّعة - كل ذلك كان مصدر هزة ومشار
ارتعاش . فلا المتطوع الفج الذي انتزع نفسه من صدر زوجته وذهب في غمرة حمى
المعركة الأولى ، ولا شبح الميت وهو يواجه أول طيف مجهول يلقاه في الدار الآخرة ، لا هذا
ولا ذاك يحسبان بمشاعر أغرب وأوقى من مشاعر ذلك الرجل الذي وجد نفسه لأول مرة
يجذب في الدائرة المسحورة المضطربة . دائرة سيد حوت العنبر .

وأخذ الماء الأبيض المتراقص الذي أثارته المطاردة يتضح للأعين ريداً رويداً ، وذلك

لازدياد العتمة في ظلال السحب الداكنة التي تنطرح على وجه الماء . ولم تعد نفضات البخار تشتبك وتختلط وإنما تعرجت يميناً وشمالاً ، وبدا كأنما الحيتان قد تمايزت آثار مخرها . فازداد التباعد بين القوارب ولحق استاريك ثلاثة من الحيتان كانت تجري مستميتة وفق المهب . فنشرنا عندئذٍ شراعنا ، ومع الريح التي ما تزال هابة اندفعنا ومضى القارب في الماء بجنون حتى أن المجاذيف اليسرى لم تكذب في مواقعها حين شاء البحارة أن يعملوها في سرعة كافية . وسرعان ما وجدنا أنفسنا نجري خلال غشاوة واسعة منشورة من الضباب فلا نرى سفينة أو قارباً .

وهمس استاريك وهو ما يزال يسحب قماش شراعه نحو اليسار : « قدموا يا رجال ، ما يزال لدينا وقت لنقتل حوتاً قبل حلول العاصف . ها هو الماء الأبيض يعود! قاربوا! اقضوا » . وبعيد ذلك سمعنا صرختين متلاحقتين على جانبينا دلتا على أن القوارب الأخرى قد قطعت شوطاً في سرعتها وما كدنا نسمع الصراخ حتى قال استاريك في همسة كالبرق عاجلة : « قف! » وإذا كويكوج يشب واقفاً ورمحه في يده .

ومع أنه لم يكن أحد من المجذفين يواجه خطر الحياة والموت الكائب وهو من أمام ، فإن أعينهم كانت مسلطة على وجه الضابط الجاهم في مؤخرة القارب وبذلك عرفوا أن اللحظة الحاسمة قد حلت ، وسمعوا أيضاً صوتاً هائلاً متدفعاً كأن خمسين فيلاً كانت تتلطم في مضاجعها . وفي الوقت نفسه كان القارب ما يزال عائراً بين الضباب ؛ والأمواج تتجدد وتصرصر من حولنا كأنها حيات منضبة قد نفشت قنازعها .

وهمس استاريك : « تلك هي حردبته . أيوه . أيوه اغرز الحديدية فيها! » .

ومن القارب وثب صوت قصير مندفع ؛ تلك هي حديدية كويكوج المزروقة . ثم جاءت دفعة خفية من خلف السفينة في اضطراب مجتمع متلاحم الجنبات بينما كان القارب في الأمام كأنه يصدم افريزاً ، فانهار الشرع وتشتق ، وانطلقت على مقربة منا دفقة من البخار اللذاع ، وتدحرج من تحتنا شيء وانقلب كأنه الزلزلة ، وكاد البحارة يختنقون حين نفضهم القارب شذر مذر في جوف العاصف المنعقد الخائر . واختلط العاصف والحوت والرمح معاً ونجا الحوت بنفسه إذ أشوت الحديدية ولم تصب منه مقتلاً .

ومع أن القارب استنقع في الماء فإنه لم يكذب يصيبه أذى . فسبحنا من حوله ، ولمننا المجاذيف العائمة ، وربطناها عبر حرف القارب ثم انكفأنا الى مواقعنا ، وهناك جلسنا والماء يغمرنا حتى الركب ، وقد غطى كل دعامة ولوح ، حتى بدا القارب المعلق أمام نظراتنا المصوبة قارباً مرجانياً نما بارزاً من قاع المحيط .

وأصبح صوت الريح جواراً ، وجمعت الأمواج دروعها معاً ، وغدا العاصف كله يزار وينشعب ويفرقع من حولنا كأنه نار بيضاء في السهوب ونحن نحترق في جوفها دون أن تحيلنا رماداً ؛ كنا خالدين بين فكي الموت ؛ وناديننا القوارب الأخرى فضاعت أصواتنا ، كأننا كنا ونحن نناديها في العاصفة كمن يهيب بالفحم الذي لم يكد يعلق به الشرر من خلال مدخنة أتون لاهب . وفي الوقت نفسه زادت ظلمة البخار والطخا والضباب ، تلك الثلاثة التي تزجها الريح لحلول أشباح الليل ، فما نرى للسفينة عيناً ولا أثراً . وحال الموج المتوثب دون أية محاولة لنزح الماء من القارب ، ولم تكن المجاذيف لتجدي لو اتخذناها مرواحات للدفع ، إذ كنا قد جعلنا منها وسائل للنجاة . وبعد محاولات عديدة مخفقة قطع استاربك الرباط الذي يشد برميل الشقاب - وهو برميل لا ينفذ منه الماء - ودبر اشعال المصباح في المنور ، ثم علقه على عود وجده لقي ، ومدّ به الى كويكوج حامل راية ذلك الفريق المنبت ، فجلس هنالك وقد رفع ذلك الضوء الواهي في قلب ذلك الضياع الجبار ؛ هنالك جلس وهو رمز انسان دون ايمان يرفع يانساً رجاء في حومة يأسٍ محيط .

أما نحن فقد شملنا البلبل وانتقمنا وأخذنا نتنفذ من البرد يائسين من رؤية سفينة أو قارب ، أما نحن فقد رفعنا أعيننا لنواجه الفجر لدن طلوعه . كان ثوب الضباب مايزال منشوراً على الماء ، والمصباح الناضب ملقى في قاع القارب محطماً ؛ وفجأة نهض كويكوج واقفاً وقد جوف راحته وراء أذنه متسمعاً ، وسمعنا جميعاً صريراً خافتاً كأنه صرير حبال وسوارٍ ماتزال العاصفة تكتمه ؛ وأخذ الصوت يقترب ويقترب ، وانشق الضباب الكثيف من حول جسم ضخّم مبهم ، وتملكنا الفزع ، غير أننا قفزنا جميعاً في الماء حين لاحت لنا السفينة بمراى منا وهي تنقض نحونا في مدى لا يزيد كثيراً عن طولها .

وحين كنا على الشبح رأينا القارب المهجور يعوم فوق الأمواج وبدا لنا في لحظة وهو يتنفذ ويفهق تحت مقدم السفينة كأنه شظية في قاع شلال ؛ ثم تدرج الهيكل الضخم من فوقه واحتجب عن أنظارنا حتى ظهر يتقلب في المؤخرة . فسبحنا لنبلغه مرة أخرى واندفعنا نحوه بقوة الموج ثم أدركنا السفينة ونزلنا حماها آمنين . أما القوارب الأخرى فإنها قبل أن يقترب منها العاصف كانت قد تخلت عن الصيد وعادت الى السفينة في الوقت المناسب . وأما السفينة فكانت قد يشست من العثور علينا ولكنها كانت ماتزال تطوف لعلها تقع على أمانة تدل على مصيرنا المحتوم ، كأن تعثر على مجذاف عائم أو قنارة رمح طافية .

الضبيع

في هذه الزحمة المختلطة الغريبة التي نسميها « الحياة » أوقات ومناسبات عجيبة يرى المرء فيها الكون كله نكتة عملية ضخمة ، وان كان لا يستبين فيها براعة التندر الا استبانة باهتة ، ولعله أن يكون على مثل اليقين بأنه هو نفسه محور النادرة . ومع ذلك فإنه لا يرى فيها ما يشبط همته ، ولا يجد ما فيها جديراً بالتنازع . فهو يزدرد كل الأحداث والتجـل والمعتقدات والحجج وكل الأمور المسيرة مرئية كانت أو خفية ، لا يهمه أن تكون عقداً شاجرة ، كأنه نعام ذات قدرة قادرة على الهضم فهي تزدرد الرصاص وشظايا الصوان . أما العقبات والهموم الصغيرة وما قد يحلّ به من مصائب مفاجئة تعرض حياته وأعضاءه للخطر ، أما هذه جميعاً وأما الموت نفسه فإنه لا يرى فيها إلا دعايات ماكرة وإلا جمشآت مرحة في الجنب يمنحه اياها الساخر الأعظم السادر المحجوب عن الأبصار . هذا اللون الغريب من المزاج المصابر المنيد ، وهو ما أتحدث عنه ، لا يستولي على المرء إلا في أشد المصائب والمحن ، فيتلبس به وهو في غمرة تفانيه حتى أن كل ما سبق له أن رآه شيئاً هاماً ذا بال ليفدو في نظره حينئذ جزءاً من تلك النكتة الشاملة . وليس في الأخطار ما يولد مثل هذا اللون الطليق الهين من هذه الفلسفة الرحبة الرعنا . كأخطار صيد الحيتان . وبمثل هذه الفلسفة تأملت رحلة الباقوطة وتأملت غايتها الكبرى وهي صيد الحوت الأبيض .

وعندما سحبتوني ، بذلك سحبتوا آخر رجل ، الى ظهر السفينة وكنت ماأزال أنفص صدارتي ليتناثر منها الماء . عندئذ قلت لكويكوج : « كويكوج ، يا صديقي الظريف ، هل يحدث مثل هذا الذي حدث كثيراً ؟ » فأفهمني دون أن يحشو كلامه بانفعال ، وإن كان مايزال مثلي ناقع الجسم والثياب بالماء ، ان مثل هذا الذي حدث يحدث كثيراً . فتحولت الى السيد اسطب ذلك الرجل البارح الجليل الذي كان يدخن غليونه في هدوء

تحت المطر وقد زرز عليه صدرته المشتمة وقلت : « سيد اسطب ، أظنني سمعتك تقول أن السيد استاريك رأس الضباط أشد من لاقيته بين جميع الحواتين حيلة وزكاته ، اذن فأنا أظن أن الحمل على حوت هارب ، دفعة واحدة ، والشرع منشور ، في عاصف كثيف الضباب ، هو ذروة التبصر والتروي لدى الحوات ؟ » .

- « يقيناً ، فقد حدث أن أنزلت القوارب لمطاردة الحيتان من سفينة مشقوقة يتسرب اليها الماء أثناء ريح هوجاء هبت على مسافة من رأس هورن » .

ثم تحولت الى « الدعامة الكبرى » وكان يقف على مقربة منا وقلت له : « سيد فلاسك! أنت ذو دربة ومراس في هذه الأمور ، ولست أنا كذلك ، فهل لك أن تخبرني يا سيد فلاسك : أهو قانون لا يتبدل ولا يتحول في حرفة الصيد أن يدق المجذف صلب نفسه وهو يجذف كي يلقي نفسه ويحشر ظهره بين فكي الموت ؟ » فقال فلاسك : « ألا تستطيع أن توجز ؟ - أجل ذلك هو القانون . إنني لأحب أن أرى ملاحي القارب يجذفون حتى تكاد ظهورهم تلامس وجه الحوت . ها ها . إن الحوت عندئذ ليرد على كل غمزة من أعينهم بغمزة من عينه ، لا تنسَ هذا! » .

تحصلت لدي من مشافهة هؤلاء الثقات الثلاثة العدول صورة واضحة للأمر كله . فإذا اعتبرت أن العواصف الجانحة والانقلاب في الماء ، وما يتلو ذلك من بيات دون ملجأ أو وقاية على الماء ، هي أمور كثيرة الحدوث في هذا النوع من المعيشة ، وإذا اعتبرت أنني في اللحظة البالغة العرج - لحظة هجومي على الحوت - أجمل حياتي وديمة في يدي ذلك الذي يوجه القارب - وكثيراً ما يكون في تلك اللحظة نفسها امرأً بالغ التهؤز والاحتدام حتى ليكاد بذلك أن ينقب القارب بوطنه الهائج المحنق - وإذا اعتبرت ان المحنة التي أصابت قاربنا سئعزى في المقام الأول الى اندفاع استاريك في هجومه على الحوت بحيث ألقى بنا أو كاد بين نواجذ العاصف المجنون ؛ وإذا اعتبرت أن استاريك على ذلك كله كان مشهوراً بحيطته البالغة في شؤون التحويت ؛ وإذا اعتبرت أنني كنت أنتمي الى قارب استاريك ذلك القائد المعروف بحسن التدبير والزكاته ، وإذا اعتبرت أخيراً أي شيطان أقحمت نفسي في مطاردته ، أعني الحوت الأبيض ؛ أقول اذا اعتبرت كل هذه الشؤون مجتمعة وجدتني أنزل الى غرفتي واكتب مسودة من وصيتي . وقلت لكويكوج ، « تعال معي ، ستكون أنت القاضي والمنفذ والوارث » .

وقد يبدو من الغريب أن يكون البخارة بين الناس جميعاً هم الذين يحرصون على تسطير وصاياهم وشهاداتهم الأخيرة ولكن ليس في العالم كله من هو مثلهم غراماً بتلك

الالهية . وتلك كانت رابع مرة في حياتي أخط فيها وصيتي ، فأحسست ، بعد أن انتهت
المراسيم في المرة الرابعة بأني أكثر راحة وطمأنينة ، كأنما انزاح عن صدري حجر كان
ثقيل الوطأة فوقه . ثم أن الأيام الباقية من عمري ستكون جميعاً طيبة كالأيام التي عاشها
لعازر بعد أن بعث من بين الموتى ، وذلك ربح إضافي نظيف لعله يبلغ شهوراً أو أسابيع .
كيفما كانت الحال . لقد مددت في أجلي وأقفلت خزانة صدري على موتي ودفني ؛ وتلفتُ
حولي في سكينه ورضى كأنني شبح هادئ ذو ضمير سليم يجلس وراء القضبان في قبو عائلي
وادع مريح .

وقلت لنفسي ، وأنا أطوي لا شعورياً أكمام صدارتي ؛ ها أنا على أهبة أن أقوم بفوصة
نحو الموت والفناء وأنا رابط الجأش هادئ النفس ، حقق الشيطان الختام .

قارب أخاب وملاحوه - فيض الله

صاح اسطب قائلاً : « من كان يتصور ذلك يا فلاسك! لو كانت لدي رجل واحدة لما وجدتني في قارب إلا أن أكون فيه لكي أسد أحد الثقوب بطرف قدمي الخشبية . أوه! إنه لشيخ عجيب! » .

فقال فلاسك : « لا أراه أمراً غريباً بعد كل هذا من أجل ما تقول ، فلو كانت رجله مقطوعة من جانب الورك لكان الأمر مختلفاً ، فذلك يمجزه ويقعده ، ولكن لديه ركبة وجزءاً صالحاً من ركبة أخرى كما تعلم » .

- « لست أعرف ذلك ، يا رفيقي فأنا لم أراه أبداً يركع » .

* * *

كثيراً ما كان موضوع حياة القبطان في التحويت موضع جدل بين الناس المعنيين بتلك الحرفة ، فحياته بالغة الأهمية في إنجاح السفرة ، واذن : فهل من حقه أن يجازف بها في أخطار المطاردة والصيد ؟ كذلك كثيراً ما تجادل جنود تيمورلنك والدموع تترقرق في مآقيهم : هل من حق قائدهم أن يزج بحياته الغالية في حومة القتال ؟

غير أن المسألة اتخذت وجهاً محوراً في حال أخاب : ما دام المرء وهو ذو رجلين صحيحتين لا يعدو أن يكون مخلوقاً أقزل في أوقات الخطر ، وما دامت مطاردة الحيتان تتم تحت صعاب كبيرة فريدة على الدوام ، وما دامت كل لحظة على حدة تنضح بالخطر حقاً ، فهل من الحكمة في شيء تحت مثل هذه الاعتبارات أن ينزل امرؤ معطل في قارب تحويت أثناء الصيد ؟ إن الشركاء الذي يملكون الباقوطة لم يروا ذلك الأمر - على وجهه العام - من الحكمة في شيء .

لقد كان أصدقاء آخاب في الوطن لا يستأوون من أن ينزل آخاب في أحد القوارب أثنا، مرحلة من المطاردة غير خطيرة نسبياً لكي يكون من مشهد العمل على كئب ، ويلقي أوامره شخصياً ، أما أن يكون لآخاب قارب مخصوص ويكون هو القائد الأعلى في الصيد ، أو أن يزود آخاب بخمسة رجال آخرين ليتخذهم ملاحين في قاربه ، أما ذلك فقد كان آخاب يعرف حق المعرفة أنه نوع من الخيال السخي الذي لا يمكن أن يتغلغل في رؤوس أصحاب الباقوطة . ولذلك لم يسألهم أن يزودوه بملاحين لأحد القوارب ولا ألمح الى رغباته في ذلك الأمر . إلا أنه اتخذ تدابير خاصة من لدنه بشأن تلك المسألة ؛ وما كان للبحارة أن يتكهنوا بما دبّره حتى ذاع ما اكتشفه كاباكو ، وان كانت الأيدي جميعاً قد أنجزت حقاً تهينة قوارب التحويت للعمل ، وذلك عمل مألوف يتم بعد الابتعاد عن الميناء . وبعد وقت قصير كانوا يرون آخاب بين الحين والحين يشغل نفسه ويدق بيديه المسامير التي يرتكز بينها المجذاف في قارب كانوا يحسبونه أحد القوارب الاحتياطية ، بل كان ينجر - في رقبة الحذر - السفايف الخشبية الصغيرة التي تدق فوق الميزاب في مقدم السفينة حين يرسل حبل الصيد في الماء . حين رأوا ذلك منه ورأوا بخاصة لهفته ليخلف قاع القارب بطاق آخر كأنه يريد أن يتحمل وطأة رجليه العاجية المدببة ، وعندما شهدوا القلق الذي أبداه وهو يصمم بدقة سناد الفخذ أو القليط الأرعن ، كما يسمونه أحياناً ، وهو قطعة أفقية في مقدم السفينة تشد إليها الركبة عند زرق الحوت أو طعنه ؛ وعندما لاحظوا كيف يقف كثيراً في ذلك القارب وقد أثبت ركبته السليمة في التجويف النصف الدائري في القليط وقوره بإزميل النجار قليلاً هنا وسواء مستقيماً ، قليلاً هنالك ، أقول حين شهدوا هذه الأمور جميعاً أيقظت لديهم رغبةً واستطلاعاً حينئذ ، ولكن كاد كل امرئ منهم أن يظن بأن هذه العناية الاستعدادية الخاصة لدى آخاب إنما هي رجااء صيد موبى ديك في النهاية ، إذ كان قد أنبأهم أنه ينوي هو بنفسه صيد ذلك الوحش ، الذي كُتب عليه الموت . ولكن مثل هذا الظن لم يشمل بأي حال أي توهم بعيد حول وجود ملاحين معيّنين لذلك القارب .

وتلاشى ما تبقى من عجب حين ظهر الأشباح التوابع ، لأن الأعاجيب تتلاشى سريعاً في قوارب التحويت . ثم أن مثل هذه النفايات التي تأتي من أمم غريبة والتي لا تجد لها تعليلاً تجيء بين الحين والحين من الزوايا المجهولة وحفر النفايات في الأرض لتزيد الى الشذاذ الخارجين لصيد الحيتان ، كثيراً ما تلتقط السفن مثل هذه المخلوقات الغريبة المنبوذة التي تجدها يتلعب بها الموج فوق ألواح أوشظايا من حطام أو مجاذيف أو قوارب تحويت أو زوارق أو ينكات يابانية تصرفها الريح أو شيء من هذا القبيل ؛ وأن «بعل

ذباب»^(١) نفسه قد يتسلق أحد جوانب السفينة ويتقدم الى القمرة ويحدث القبطان فلا يشير ذلك في منارة السفينة دهشة مستبدة مستحكمة .

ولكن مهما يكن أمر هذا كله ، فإنه لمن المؤكد أن هؤلاء الأشباح التوابع وجدوا مواضعهم بين الملاحين وإن ظلوا متميزين منهم على نحو ما ، إلا فيض الله الذي تتوج رأسه عمامة من شعر فإنه ظلّ لغزاً ملفناً حتى النهاية . من أين جاء إلى عالم كذلك العالم ؟ بأي نوع من رابطة لا تعليل لها وجد نفسه على التو مرتبطاً بمقدرات آخاب ، متحلاً نوعاً من نفوذ ملموح ؛ علم ذلك عند الله بل لقد كان فيض الله ذا سيطرة عليه ؛ تلك أمور لا يعلمها أحد . غير أن المرء لا يستطيع أن يقف من أمر فيض الله متحلاً عدم المبالاة ؛ فقد كان مخلوقاً كالذي يراه أهل المنطقة المعتدلة المتمدنون الألفون في مناماتهم ، ويكاد الشبه أن يكون باهتاً ، ولكن أمثاله ينسابون آونة وآونة بين المجتمعات الآسيوية غير المتغيرة وبخاصة الجزائر الشرقية الواقعة الى الشرق من القارة - تلك البلدان الجزرية الأزية التي لا يتبدل وجهها ، التي لاتزال تحتفظ حتى في هذه العصور الحديثة بكثير من الأصالة الشبحية كما تمثلها أجيال الأرض البدائية حين كانت ذاكرة الانسان الأول لا تعرف النسيان ، وكان كل الناس نسلأ له لا يعرفون من أين أتى ، ويرمق أحدهم الآخر كأنهم أشباح حقيقية ، ويسألون الشمس والقمر لِمَ خلقا ولأية غاية وحين كان الملائكة أنفسهم - كما يقول سفر التكوين^(٢) - يتخذون لهم زوجات من بنات الناس ؛ وزعم الحاخامون المتزيدون أن الشياطين أيضاً أنغمسوا في ضرب من العشق الأرضي .

(١) يحيى . بعد الشيطان في المرتبة ، في «الفرديوس المفقود» وفي سفر الملوك الثاني ١٠ ٢٠١ يرد بعل زيوب اسماً لأحد آلهة الفلسطينيين في عقرون .

(٢) في سفر التكوين ٦ ٢٠١ وحدث لما ابتدأ الناس يكفرون على الأرض وولد لهم بنات من أبناء الله رأوا بنات الناس أنهم حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا .

النفثة الشبح^(١)

مرت أيام وأسابيع والباقوطة العاجية تنساب في بطنه وريح لينة رخاء ، فقطعت بذلك أربعة مجالات من مواقع التطواف : الموقع المقابل لجزر الأزور والثاني عند رأس فرد والثالث على « البلاط » - سمي كذلك لأنه على مسافة من مصب نهر ريو دي لبلاطه - وموقع كارول وهو مجال مائي مهول الى الجنوب من سنت هيلانة .

وفي إحدى الليالي المقمرة كانت الأمواج تتدحرج متلاحقة كأنها أدرج من الفضة ، وتنتشر باهتزازاتها الناعمة ثوباً من الصمت الفضي لا من العزلة الموحشة ؛ وفيما السفينة تنساب خلال الموقع الرابع من مجالات التطواف في ليلة من تلك الليالي الصامتة تجلت للأعين نفثة فضية أمام الحبيب المتكور قدام السفينة ، وتبدت وقد ضوأها القمر سماوية كأنها إله متلألئ ينهض من البحر وعلى رأسه ريشة بيضاء . وكان فيض الله أول من تبينها اذ كانت عادته في هذه الليالي الأضحيانة أن يعلو المرقاة العليا في الصاري الرئيس ويقف في رتبة هنالك ، هو يحدق ممعناً كأنه يتولى الرقابة في النهار . ولربما رأى الحواتون في الليل زرافات من الحيتان غير أنه لم يكن فيهم من كان يحدث نفسه بمغامرة النزول لها في قارب . ولعلك تقدر أية مشاعر كانت تستولي على البحارة وهم يرون هذا الشرقي العجوز قد وقف رصداً في الأعالي في مثل تلك الساعات الشاذة ، وقد أصبحت عمامته والقمر رفيقين مصطحبين في سماء واحدة . وقضى فيض الله فترة مكرورة من الترقب خلال عدة ليالٍ متوالية دون أن يتفوه بصوت واحد ، ولكن حين انبعث صوته الوحشي بعد هذا الصمت كله ،

(١) النفثة الشبح سورة أخرى من القدر الذي ينتظر امرءاً موعلاً في ثقته بنفسه ، لقد كان آخاب ينتظر الدم الأسود يتدفق من الحوت فأصبح فريسة للوهم يظن النفثة الشبح نافورة مومي ديك ، فهي رمز للتضير ، رمز للأمل الرواغ ، وليس من قبيل المصادفة أن يراها « فيض الله » ويوجه انتباه آخاب إليها .

وسمعه البحارة يعلن عن وجود نفثة فضية يضيئها القمر ، هب كل بحار مضطجع واقفاً على قدميه كأنما حلت روح مجنحة في حبال السفينة وأهابت بالملاحين للقاء أجلهم . « هنالك ينفث! » - لو أن الصور نفخ لما عراهم من الرعشة ما عراهم ، ولم تكن رعشة فزع وإنما كانت هزة ارتياح وسرور . نعم إنهم لم يتعودوا الهبوب في تلك الساعة غير أن الصيحة كانت بالغة الاثارة ، مشحونة بالبحران حتى كادت كل نفس على السفينة أن تمنى انزال القوارب بدافع الغريزة .

ومشى آخاب على ظهر السفينة بخطوات سريعة حنفاء ، وأمر أن تعد الأشرعة العليا النبيلة والملوكية وأن تنشر الأشرعة الخفيفة الجانبية وأن يتولى الدفة خير رجل في السفينة ؛ وتدحرجت السفينة المحملة أمام الريح وقد استعد الرجال في المراقي العليا فوق الصواري ، وعبأت النسمات الغربية المنعشة الراقعة تجاويف كثير من الأشرعة فجعلت ظهر السفينة الممرح المدوم يحس وكأن الريح تريد أن تسمو به ؛ ومضت السفينة مندفة قدماً كأن عاملين متضادين يتصارعان فيها ؛ واحد يريد أن يتوجه بها نحو السماء وثانٍ يريد أن يسوقها متشاببة الى هدف على الأفق ؛ ولو أنك عاينت وجه آخاب تلك الليلة لخلت أن لديه أيضاً شينين متباينين يعتركان ، فبينا كانت رجله السليمة تبعث أصداء حية سليمة على ظهر السفينة ، كانت كل دقة برجله الميتة كأنها دقة على تابوت . كان الرجل العجوز يمشي على رجلين من حياة وموت . ومع أن السفينة ذهبت منطلقة عجلي ومن كل عين كانت النظرات اللاهفة تنطلق كأنها سهام إلا أن النفثة الفضية اختفت فلم تلح تلك الليلة للانظار ، وكان كل بحار يقسم أنه رآها مرة واحدة ولم يرها مرة ثانية .

وكادت تلك النفثة التي تنبلج في منتصف الليل تصبح نسياً منسياً حين نادى المنادي بأنها هناك! بعد بضعة أيام في نفس تلك الساعة الصامتة ؛ ومرة أخرى رآها جميع البحارة ، وحين أبحروا لادراكها اختفت عنهم مرة أخرى كأنها لم تكن أبداً . وهكذا ظلت تخايلنا ليلة اتر ليلة حتى لم يعد أحد فينا يتنبه لها إلا ليعجب من أمرها ، فقد كانت تنبلج في ضوء القمر التيمّ أو في ضوء النجوم ، حسبما كانت الحال ، ثم تختفي طوال يوم كامل أو يومين أو ثلاثة ، وكانت في كل مرة تبدو وكأنها تتقدم ممعنة أمامنا ، وكان تلك النفثة المتوحدة كانت تغرينا بالمضي قدماً .

وبعض البحارة يؤمنون بالأساطير منذ الأزل ، وللباقولة نفسها - فيما يبدو - رواء من الخوارق انتحلته في أمور عديدة ، وعلى ذلك لم نعدم بعض البحارة الذين كانوا يقسمون أن تلك النفثة التي أعيانا الحاق بها ، متى شهدت وحيثما شهدت ، مهما تكن الأزمان

والمسافات في مواطن ظهورها متباعدة ، فانها هي نفاثة حوت واحد لا غير ، وذلك الحوت هو مويبي ديك . وهيمن على النفوس ، وقتاً ما ، احساس برعب فريد من ذلك الشبح السابح قدامنا كأنه كان يومئذ الينا مخادعاً لنمضي وراءه كي يتحول في النهاية نحونا يمزقنا في أشد البحار نأياً واستيحاشاً .

واستمدت هذه المخاوف العارضة ، الغامضة الرهيبة في آن معاً ، من سكينه الجوز طاقّة عجيبة ، اذ ظن بعضهم أن سحراً شيطانياً يكمن تحت هذه الوداعة الزرقاء حين أبحرنا أياماً وأياماً خلال بحار ساكنة لطيفة توحى بالاعياء والوحشة ، حتى كأن المسافات كانت تتخلي عما يعمرها من نائمة الحياة أمام مقدمة سفينتنا التي تشبه الزهرية ، رداً منها على مهمتنا الانتقامية الموتورة .

ولكن حين تحولنا أخيراً وجهة المشرق أخذت رياح «الرأس» تجار من حولنا ، وأخذنا نعلو ونهبط فوق المياه الهانجة هنالك ؛ وحين انحنت الباقوطة ذات الخرطوم العاجي للريح انحناءً شديداً وطعنت قلب الأمواج السود في جنونها حتى أخذ نثار الزيد يتطاير فوق هيكلها كأنه صوب من شذرات الفضة ، حينئذ زال ذلك الفراغ الموحش الذي لا تعمره حياة وحلت محله مناظر أشد كآبة من ذي قبل .

على مقربة من قيدوم السفينة تنطلق أشكال غريبة في الماء هنا وهناك أمام أعيننا ، وتطير في المؤخرة أسراب كثيفة من غريبان الماء ، أمرها محير لا يدرك . وفي كل صباح كنا نجد صفوفاً من هذه الطير قد حطت على الحاجز والدعائم . وكنا نصفر بها لننفرها فلا تزداد الا تشبهاً بالحيال ، وتظل كذلك مدة طويلة كأنها كانت تظن أن سفينتنا مركب غارق لا أنيس فيه ، وأنه مثابة للوحشة المتأبدة ، فهو من ثم يليق أن يكون مجئاً لها تأوي اليه ما دامت بلا مأوى . هذا وصدر البحر المظلم يعلو ويعلو ويظل يزفر دون ارتياح ، كأن أمواجه الشاسعة ضمير حي ، والروح الأرضية الكبرى تتعذب نادمة على الخطيئة والعذاب اللذين ولدتهما .

أيسمّونك أيها الرأس : «رأس الرجاء الصالح» ؟ ما أجدد أن تسمى «رأس العذاب» كما كنت تدعى في غابر الأزمان ؛ ذلك أنا بعد خلبتنا طويلاً تلك السكينه الغدارة التي واكبت ابهارنا من قبل وجدنا أنفسنا مطروحين في هذا البحر المعذب حيث مسخت الكائنات الآتمة الى طيور وأسماك ، وكأنما كتب عليها أن تسبح الى الأبد دون أن تأمل في مرفأ أمين ، وأن تضرب الهواء القاتم بأجنحتها دون أن ترى أفقاً . الا أن النفاثة المتوحدة كانت تلح أحياناً هادئة بيضاء كالثلج ، لا تتبدل ، موجة ينبوع رشاشها نحو الفضاء ، وتومئ إلينا أن نمضي في أثرها ، مثلما كانت تفعل من قبل

واذ كان قتمام العناصر جميعاً يرين على كل شيء، أخذ آخاب على عاتقه - بعض الوقت - دور الأمر الوحيد على ظهر السفينة الخطر المبلول ، غير أنه مع ذلك كان في أعتى حال من الانحياش المكتئب ونادراً ما وجه الخطاب الى ضباطه . في مثل هذه الأوقات العصبية العاصفة ، بعد أن يؤمن القائد كل شيء، على السفينة وفي أعاليها ، لا يتبقى شيء يمكن عمله الا التوقع السلبي لهبوب النسمات . عندئذ يصبح القبطان والبحارة جبريين من الناحية العملية ؛ ولذلك كان آخاب يقضي ساعات وساعات يحدق في لهفة المستميت نحو المهبط ، وقد أدخل قدمه العاجية في الثقب المعهود وأمسك قماش الشراع بإحدى يديه إمساك المتشدد ، فلا يوافق في وقفته تلك إلا عاصف أو مطر مشوب بالبرد أو ثلج يعقد أهداب عينيه برداً . في الوقت نفسه يلوذ البحارة هارين من صدر السفينة بسبب المياه الخطرة التي تنور منفجرة وتترامى فوق المقدمة ، ويقفون صفاً على طول الهيكل عند وسطها ، ويدس كل امرئ منهم نفسه في نوع من أنشطة حبل مربوط بالحاجز ، يتأرجح فيها كأنه يلف حوله حزاماً غير مشدود ، كي يحتمي من الأمواج الواثبة . ولا حديث يجري بينهم الا أن يكون بضع كلمات ، وتشق السفينة الجاهدة الصامته طريقها قدماً خلال جنون الأمواج الشيطانية ومرحها المتوثب وكأنها لم تزود برجال وإنما بتماثيل منصوبة من شمع . وسيطر هذا الخرس الانساني نفسه في الليل على السفينة في مواجهة زعيق البحر ، ويظل الرجال يتأرجحون في أنشوطاتهم صامتين ، ويظل آخاب الأبكم واقفاً في وجه العصفات ، حتى أنه لا يسعى للراحة في سريره حين تبدو الطبيعة المعيبة وكأنها تتطلب الارتياح وتستدعيه . وان ينس استاربك فلا ينس منظر ذلك الشيخ ، وقد هبط استاربك الى القمرة ليقراً مقياس الضغط الجوي فرآه ، وقد أغلق عينيه ، يجلس منتصباً في كرسيه المثبت بالأرض ، وماتزال حبات المطر وبعض البرد الذائب التي علقت به حين خلف العاصفة قبل قليل تتساقط في بطنه عن قبعتة ومعطفه ، وعلى الطاولة الى جانبه خريطة منشورة من تلك الخرائط التي تحدثنا عنها من قبل وقلنا أنها تبين المد والتيارات ، ومصباحه يتأرجح في قبضته المحكمة المقفلة ، وعلى أن جسمه كان منتصباً فقد أمال رأسه الى الوراء حتى ان عينيه المغمضتين كانتا موجهتين نحو ابرة البوصلة التي تتأرجح من عمود مثبت في السقف .

وقال استاربك لنفسه وقد عرته قشعريرة : يا لك من شيخ رهيب ، انك لتنام في هذه العاصفة وأنت ما تزال ترمق غايتك منعماً معتزماً .

الفطرس

الى جهة الجنوب الشرقي من «الرأس» عند جزائر كروزيت حيث مجال صالح للتطواف من أجل صيد الحوت الأثين ، لاحت أمامنا سفينة تسمى الغوني أو الفطرس . وكنت أقف عالياً عند رأس الصاري الأمامي فرأيتها وهي تقترب في ببطء ، وقبض لي أن أشهد عياناً منظراً فذاً لدى الحوات المبتدئ الضارب في المصايد المائية البعيدة . منظر سفينة حوامة على الماء طال غيابها عن شواطئ الوطن .

وكأنما الأمواج كانت قصارين اذ كانت هذه السفينة مفسولة كأنها هيكل فظ قذفته الأمواج الى البر ، وكان هذا المنظر الشبحي مخططاً على جوانبه بقنوات طويلة من الصدا المحمر ، أما جميع سواربيها وحبالها فكانت كأنها فروع كثيفة من شجرات كُسيبت بصقيع أشمط . ولم تنشر من أشرعتها إلا الأشرطة الدنيا ، وكان منظراً غريباً أن يرى المرء الحراس الطويلي اللحي عند رؤوس الصواري الثلاثة ، فقد بدوا وكأنهم يرتدون جلود الوحوش ، وقد تمزقت ورقعت تلك الأكسية التي صابرت ما يقارب أربعة أعوام من التطواف . وكانوا يقفون في أطواق حديدية مسمرة الى الصاري فيتمايلون ويتأرجحون فوق بحر لا قرار له ؛ وحين انسابت السفينة مقتربة من مؤخرة سفينتنا اقتربنا نحن الرجال الستة المعلقين في الفضاء بعضنا من بعض ، حتى لكدنا - لو شئنا - أن نقفز من رؤوس صواري سفينة الى رؤوس صواري الأخرى ، غير أن أولئك الصيادين البانسين الذين طال عليهم الأبد رمقونا حين مرّوا عنا بلطف ولم يتفوهوا بكلمة واحدة الى رقباء سفينتنا بينما تأدى الينا من أسفل نداء ينطلق من الربعة :

« يا بحارة السفينة! هل رأيتم الحوت الأبيض؟ » .

ولكن حين همّ القبطان الغريب المستند على الهيكل الشاحب أن يضع التفسير في فمه

سقط من يده في الماء . وكانت الريح تهب معاكسة فجاهد عبثاً ليلبغنا صوته . وفي الوقت نفسه كانت المسافة بين السفينتين تتسع . وبينما كان بحارة الباقوطة يرقبون في ضروب مختلفة من الصمت تلك الحادثة المشؤومة تقع لسفينة أخرى لدى محض التلطف باسم الحوت الأبيض توقف آخاب لحظة وبدا كأنه يكاد أن ينزل قارباً ليلحق بالرجل الغريب لولا أن الريح الهانجة حالت دون ذلك ، غير أنه استغل وجهة الريح فتناول نفييره مرة أخرى ، واذ كان يعرف من مظهر السفينة الغريبة أنها ناتركتية وأنها مزعمة في وقت قصير الى الوطن ، نادى بأعلى صوته : « أنتم هناك! هذه هي الباقوطة ، مزعمة في رحلة حول العالم . قولوا لهم أن يعنونوا جميع رسائلهم في المستقبل الى المحيط الهادي! وإذا مرت على هذه اللحظة ثلاث سنوات ولم أعد الى الوطن فقولوا لهم أن يوجهوها الى... » .

في تلك اللحظة تقاطع مخرا السفينتين وعلى التو انطلقت أسراب من السمك الصفار التي لا أذى منها وكانت حسبما جرت بها عاداتها الفريدة قد سبحت على مدى بضعة أيام في اطمئنان الى جانب سفينتنا ، انطلقت مبعدة وزعانفها كأنه ترتعش ، واصطفت في طبيعة ومؤخرة على جانبي السفينة الغريبة . وقد يكون آخاب خلال سفراته العديدة قد شهد مثل هذا المشهد كثيراً ولكن أيسر الهنات تحمل في طياتها معاني لأي رجل مجنون ، مستبد النزوات . وتمتم آخاب وهو يحدق في الماء قائلاً : « تسبحين مبعدة عني ؟ أليس كذلك ؟ » وكان هذه الكلمات لا تحمل إلا معنى يسيراً ولكن النغمة نقلت أسى عميقاً لا رجاء فيه لم يعبر عنه الشيخ المجنون كذلك من قبل . غير أنه تحول الى القائم عند الدفة وكان قد كبح السفينة في الريح ليقفل من انطلاقها العامد ، زار بصوت أسد هرم قائلاً : « الدفة الى أعلى! دعها تذهب حول العالم! » .

« حول العالم! » في هذا الصوت قسط وافر مما يوحي بالمشاعر المستكبرة ولكن الى أين يؤدي كل هذا التلطوف ؟ ليس إلا خلال ما لا يحصى من المخاطر حتى نبليغ النقطة التي منها انطلقنا حيث أولئك الذين خلفناهم مطمئنين آمنين كانوا في كل حال قد أمنا .

لو كان هذا العالم سهلاً لا نهاية له وكنا اذا أبحرنا شرقاً نستطيع أن نبليغ الى الأبد مسافات جديدة ونستكشف مناظر أحلى وأغرب من أي جزر تسمى ككلادس أو جزر الملك سليمان ، اذن لكان في رحلتنا بشائر خير ؛ ولكن ما دمنا نلاحق مغيبات بعيدة نحلم بها أو نطارد في عذاب ذلك الشبح الشيطاني الذي يلوح سابحاً بين الحين والحين ، أمام جميع القلوب البشرية ، أقول ما دمنا كذلك نسعى فوق هذه الكرة فإن ما نطارده سيقودنا الى تيه يباب أو يقف بنا في منتصف الطريق منبئين هالكين .

الجمعة^(١)

لمَ لم يذهب آخاب الى ظهر الحوَّاة التي تحدثنا عنها ؟ السبب الظاهري في ذلك أن الريح والبحر كانا يندران بالفواصف ، ولعله لو لم تكن الحال كذلك لما ذهب اليها على أية حال ، نحن نحكم في هذا الأمر على ضوء تصرفاته التالية في مناسبات مشابهة ، ان كان في سياق النداء قد تلقى على سؤاله جواباً بالنفي . فقد تبين لنا في النهاية أنه لم يكن يحرص على أن ينفق خمس دقائق في محادثة أي قبطان غريب إلا إن كان ذلك القبطان يستطيع أن يفضي اليه بخبر عما يشغل ذهنه ويسمى لمعرفته . وقد كان في مقدورنا أن لا نعير هذا الأمر اهتماماً لولا أننا نريد أن نقول شيئاً في العادات الخاصة التي تجري عليها الحوَّاتات حين تلقى إحداها الأخرى في البحار النائية وبخاصة اذا تلاقتا في مجال مشترك من التطواف .

لو أن غريبين يقطعان يهما « باين » في ولاية نيويورك أو يقطعان سهل سالزبري الذي يشبهها وحشة بانجلترا ، لو أنهما التقيا مصادفة في مثل تلك البراري الجاهمة الشحيحة لما ضنَّ أحدهما على الآخر بالتحية المتبادلة ، من أجل التشبث بالحياة ، واذن لتوقفنا لحظة وتبادلا الأخبار ولربما جلسا هنيهة واستراحا في ونام . ما أحرى أن تفعل ذلك سفيتان حوَّاتان أبصرت أحدهما الأخرى عند حوافي المعمورة والتقتا في يهما « باين » البحرية وفي سهل سالزبري البحري الذي لا تعرف له حدود - التقتا مثلاً عند جزيرة فاننج المتأبدة أو عند « طواخين الملك » وهي أشد تأبداً ، أقول ما أحرى هاتين السفيتين في مثل تلك الظروف ان تتبادلا النداءات لا بل أن تتقاربا في ونام ودي وثيق . ولا بد أن يبدو هذا أمراً

(١) The Gani . وقد استعملت لفظة « الجمعة » في مقابلها للمشابهة ولأن اللقطة العربية تحمل معاني التجمع والارتياح ، وهي أيضاً من ألقاب البحريين . فجمعة المركب البحري هي الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح من حوزوه ، عربية فصيحة ، كذا جاء في اللسان .

طبيعياً إذا كانت السفينتان تنتميان الى ميناء واحد يعرف قبطانها وضباطهما وبعض بحارتها أحدهما الآخر ولديهم لهذا كل نوع من أمور الوطنية العزيزة ليتحدثوا عنها .
وقد يكون في السفينة المنطلقة في رحلتها رسائل للسفينة التي طالت غيابها ؛ وهي على أية حال واثقة من أنها تحصل منها على صحف أحدث من آخر صحيفة مهترنة مطموسة المعالم ، بمقدار سنة أو سنتين . وتتلقى السفينة المنطلقة في رحلتها لقاء تلك الحفاوة آخر أخبار عن التحويت من أرض التطواف التي تزعم نحوها ، وذلك أمر بالغ الأهمية لها . ويصدق هذا كله ، الى حد ما ، على سفن التحويت التي تعبر الواحدة منها أثر الأخرى في منطقة التطواف نفسها وإن كانت مدتا غيابهما عن أرض الوطن متساويتين . إذ قد تكون احدهما تسلمت رسائل منقولة من سفينة ثالثة أصبحت حينئذ بعيدة نائية ، وقد تكون بعض تلك الرسائل لناس في السفينة التي تلاقىها . هذا الى أنهما قد تتبادلان أخبار التحويت ، وتشتركان في أحاديث مناسبة فإنهما لا تلتقيان فحسب بكل ما بين البحارة من تعاطف وانما تتقابلان أيضاً بكل ضروب اللطف الناشئة عن وحدة الغاية وضروب الحرمان والأخطار المشتركة .

ثم ان اختلاف البلدان لا يصنع فرقاً جوهرياً أي ما دامت الفئتان تتكلمان لغة واحدة مثلما هي حال الأمريكيين والانجليز ، وان كان من الأمور اليقينية ان مثل هذه اللقاءات لا تحدث كثيراً نظراً لقلّة عدد الحواتات الانجليزية ، فاذا حدثت حقاً سيطر الحياء على الفئتين لأن الانجليزي متحفظ مثلما أن الياباني يظن أن ليس في الناس متحفظ إلاه . ثم أن الحواتات الانجليزية تنتحل أحياناً نوعاً من الاستعلاء الذي يمارسه أهل الحاضرة على الحواتات الأمريكية ، فالانجليزي يعدّ ابن ناتوكت الطويل النحيل ومنحاء الاقليمي الذي لا يوصف نوعاً من ريفي البحار ولكن على أي أساس نشأت هذه الاستعلائية في الحواتين الانجليز ؟ ذلك أمر يصعب تقريره اذا تذكرنا أن اليابانيين مجتمعين يقتلون من الحياتان في يوم واحد أكثر مما يقتله الانجليز مجتمعين في عشرة أعوام . ولكن هذه هنة يسيرة من عيب في الحواتين الانجليز لا يابّه النانتوكتي بها كثيراً لأنه يعرف أن لديه أيضاً هنات يسيرات .

من ثم نرى أن الحواتات بين سائر السفن المبحرة متفرقة في البحر أشدها حاجة الى التآلف والمؤانسة - وكذلك هي . بينا تجد بعض السفن التجارية تجتاز فوق مخر سفينة في وسط الأطلسي ، وكثيراً ما تعبر ماضية دون كلمة واحدة من تعرف ، واحدهما تكاد تقارن الأخرى في العبور في البحار النائية وتتقاطع طريقهما كأنهما غرنوقان في برودواي ، ولعلهما أن تنهكما كل الوقت في نقد متحذلق توجهه كل منهما لما زودت به الأخرى من

أدقال وأشرعة وحبال . أما البوارج الحربية فإنها اذا اتفق أن تلاقى في البحر أوغلت أولاً في سلسلة من الانخفاض والارتفاع البليد أعني تبادل التحايا بخفض الأعلام حتى أنه لا يبدو أن لديها نية صافية وحباً أخوياً أبداً ؛ وأما فيما يتصل باللقاء بين سفن الرقيق فإنها تكون جد معجلة حتى أن احداها لتهرب من وجه الأخرى بأسرع ما تستطيع . وأما سفن القراصنة فإذا صادف أن تشاجرت ظلالتها كان أول نداء يسمع منها : « كم رأساً لديكم ؟ » مثلما أن الحواتين يصيحون سائلين عند اللقاء : « كم برميلاً جمعتم ؟ » فإذا أجابت الفئة الأخرى على السؤال افترقت فنتا القراصنة إذ أنهم أوغاد جهنميون في كلتا الفئتين ولا يحب أحدهم أن يمعن في رؤيته لصورة وغديته مجسمة في جه أخيه .

ولكن تأمل الحوالة المتألهة الشريفة المتواضعة المضياف المؤانسة الطليقة الهيئة اللينة! ماذا تصنع عندما تلاقي حوالة أخرى في جو رحيم ؟ تصنع « جَمّة » - شيئاً لا تعرفه إطلاقاً السفن الأخرى بل أنها لم تسمع باسمه ، وإذا سمعت به اتفاقاً سخرت منه وكررت أقوالاً عابثة عن « النفاثات » وعن « مراحل الشحم » وغيرها من التعبيرات الجميلة . لِمَ كان كل بحارة السفن التجارية وكل القراصنة ورجال البوارج الحربية وملاحى سفن الرقيق ينظرون على مشاعر الاحتقار نحو سفن التحويت ؟ هذا سؤال تعسر الاجابة عنه . ولكني أقول : أود أن أعرف ان كانت حرفة القراصنة ذات مجد خاص بها مقصور عليها . نعم انها تنتهي بصاحبها أحياناً الى علو رفيع ، إلا أنه علو في حبل المشنقة وحين يرفع المرء بتلك الطريقة الغربية لا يكون لارتفاعه أساس صحيح اذن فأنا أرى أن القرصان حين يتبجح بأنه أعلى مقاماً من الحوات فليس لديه موطئ صلب لهذه الدعوى يقف عليه .

لكن ما « الجَمّة ؟ » قد تبلي ابهامك وأنت تعلق به وتهبط في أعمدة المعاجم دون أن تعثر على هذه الكلمة . فالدكتور جونسون لم يبلغ به علمه اللغوي تلك اللوذعية ، وسفينه نوح ويستمر لم تحمل مثلها ، ومع ذلك فإن هذه اللفظة المعبّرة قد أصبحت دارجة في الاستعمال منذ سنوات كثيرة بين خمسة عشر ألفاً أو نحوهم من اليانكيين الخُص . ولا ريب في أنها تحتاج تعريفاً ولا بد من أن تدرج في المعجم ، ومن أجل هذه الغاية أحاول أن أعرفها تعريفاً علمياً دقيقاً فأقول :

الجَمّة : اسم ، ومعناها اجتماع وذي بين حواتين (أو أكثر) ، وغالباً ما يكون ذلك في مجالات التطواف . وبعد أن تتبادل السفينتان النداءات يقوم ملاحو القوارب بتبادل الزيارات ، فيبقى القبطانان بعض الوقت على ظهر إحدى السفينتين ويبقى الضابطان الرئيسان على ظهر الأخرى .

وهناك نبذة صغيرة أخرى عن الجمّة يجب أن لا ننساها في هذا المقام : لكل حرفة خصائصها الدقيقة التفصيلية وكذلك الشأن في صيد الحيتان . فحين ينزل قبطان سفينة القراصنة أو البارجة الحربية أو مركب الرقيق في قارب ويجذف به الملاحون الى مكان ما ، يجلس دائماً عند الأشرعة الخلفية على مقعد مريح قد تكسوه حشية أحياناً ، وكثيراً ما يأمر أن يزود السكان برافعة لطيفة ميلانية مزينة بأشرطة وحبال زاهية الألوان ؛ أما قارب الحوامة فليس فيه مقعد في المؤخرة ولا حشية من ذلك النوع ولا رافعة أبداً . ومن النادر حقاً أن تجد قباطنة التحويت يؤخذون في القوارب على « حمار خشبي » كما يحمل الشيوخ المنقرسون في محفّات . وأما الرافعة فإنها مظهر مخنث تأباه قوارب التحويت ؛ ولذلك يفادر السفينة طقمٌ كامل من الملاحين ، كما يحدث في الجمّة ، وبما أن القائم على الدفة أو الرماح يعد واحداً منهم فإن هذا المرؤوس هو سيد الموقف في تلك المناسبة وأما القبطان فإنه يؤخذ الى الزيارة واقفاً كشجرة الصنوبر إذ ليس له مكان للجلوس . وكثيراً ما تلحظ أن هذا القبطان الواقف يدرك أن أعين العالم المنظور جميعاً تتجه نحوه من جانبي السفينتين ، فهو لذلك يعي أهمية احتفاظه بعزته فيظلّ مثبتاً رجليه ، وليس هذا بالأمر السهل إذ أن وراءه مجذاف التوجيه البارز الضخم ، يدعّه بين الحين والحين في أم ظهره ، ويجيبه المجذاف الخلفي فيقرع ركبته من أمام . فهو « مكبوس » تماماً من خلف وقدام ، ولا يستطيع أن يمد نفسه إلا الى الجانبين وذلك بأن يحط على رجليه الممدودتين ؛ إلا أن أية وثبة مفاجئة عنيفة يقوم بها القارب ، كثيراً ما يبلغ بها أن تقلبه ، لأن طول الأساس لا ينفذ دون عرض مماثل ؛ فإنك لو وسعت الزاوية بين عمودين لما استطعت ايقافهما ثابتين ؛ ثم ان هذا القبطان الذي تفاجت رجلاه لا يليق به ان يبدو أمام أعين الكون المحدقة وقد تماسك أدنى تماسك بالقبض على شيء ، ما بيديه ، بل أنه ليضع يديه - على وجه العموم - في جيبي سرواله اشارة الى تشبته الذاتي السجيح التام ، ولكن ربما كانت يده على وجه العموم - في جيبي كبيرتين ثقيلتين فهو يضعهما في جيبيه جاعلاً منهما مثقلاً . ومع ذلك وقعت حوادث أيضاً ، شهد الثقات بصحتها ، حيث صادف القبطان لحظة حرجة أو اثنتين ، كأن يتعرض لحاصب مثلاً ، وإذا به يقبض على شعر أقرب المجذفين اليه ، ويظلّ متشبهاً به كأنه الموت العبوس .

قصة تاونهو

(حسبما رويت في الحانة الذهبية)

رأس الرجاء الصالح وكل المنطقة المائية من حوله كأنها « جهارسوج^(١) » أو مريعة تلتقي عندها طرق سلطانية وهناك تلقى من الرحالة أكثر مما تلقى في أي مكان آخر . ولم يمض وقت طويل على محادثة « الفطرس » حتى التقينا بحوارة أخرى مزمعة نحو الوطن اسمها « تاونهو »* وكان جلّ بحارتها من البولونيزيين . وقد أخبرتنا في « الجمّة » القصيرة التي أقمناها أخباراً ذات شأن عن موبى ديك ، وكان ماجاء في قصة تاونهو سبباً في أن يزداد الاهتمام لدى بعض الناس بالحوث الأبيض على نحو غريب ، فقد شملت القصة على نحو غامض حديثاً عن إمامة عجيبة معكوسة كان الزائر فيها واحداً مما نسميه عادة « الأحكام الربانية » وتلك هي التي تلم - فيما يقولون - ببعض الناس أحياناً . وهذه الحادثة الاخيرة مع ما صاحبها من ملابس خاصة ، وهي تمثل ما قد يسمى الجانب السري من المأساة التي أهمّ بروايتها ، لم تبلغ أذن القبطان آخاب او مسامع ضباطه ، ذلك ان هذا الجانب السري من القصة كان مجهولاً لقبطان تاونهو نفسه وانما كان يعلمه ثلاثة متعاهدون متآلفون من البحارة البيض في تلك السفينة ، فأبلغه أحدهم ، فيما يبدو ، الى طاشطيقو وأخذ عليه الايمان الغليظة بالكتمان ، ولكن طاشطيقو اخذ يهذي في الليلة التالية في منامه ، ونثّ من سره كثيراً على ذلك النحو ، فلما استيقظ لم يستطع ان يتشبث بكتمان ما تبقى . ومع ذلك فقد كان لهذا الأمر تأثير بالغ في من عرفه من بحارة الباقوطة معرفة جلية كاملة حتى لقد هيمنت على نفوسهم تلك الطرفة العجيبة

(١) من الفارسية « جهارسو » ومعناها مربع . ملقى الطرق الأربع يسمونه « جهارسوار » .

* سميت باسم الصيحة القديمة: Town-ho عند رؤية الحوت اول مرة من رأس الصاري ولا يزال الحواتون الذين يصيدون السلحفاة النهرية المشهورة Gallipagos Terrapin يستعملونها . قلت ، ولا احد يعرف معنى هذه الصيحة او أصلها اللغوي .

- ان صحّ ان نسميها كذلك - فاحتفظوا من جراء ذلك بالسّر فيما بينهم بحيث لم يبلغ في ذبوعه وراء الصاري الرئيس في الباقوطة . ولما كنت قد نسجت هذا الخيط القائم بالقصة كما سردت علناً على السفينة في الموضوع المناسب فأنا اتقدم ها هنا لأخلّد هذه الحادثة الغريبة جميعاً بالتدوين .

وسأحتفظ - ارضاء لمزاجي - بالأسلوب الذي سردتها فيه ذات مرة في ليما على مسامع عصابة متسكعة من أصدقائي الاسبان ، في أمسية من أعياد احد القديسين ، ونحن ندخن على باحة الحانة الذهبية ، ذات الارض المفروشة ببلاط مُذهب سميك . وكان السيدان الشابان بطره وسبسطيان من بين أولئك الفرسان الظرفاء أوثقهم بي علاقة ، ومن ثم جاءت الاسئلة المعترضة التي يطرحانها فأجيب عليها بما تستحقه في الحين :

« قبل حوالي سنتين من معرفتي أول مرة للأحداث التي أُمُّ بقصتها عليكم ايها السادة كانت تاونهو - وهي حوامة نانتوكتية لصيد حوت العنبر - تطوف في مياه محيطكم هذا الهادي ، على ليالٍ غير عديدة الى الغرب^(١) من شرفات هذه الحانة الذهبية الكريمة ، وكانت في مكان ما الى الشمال من خط الصيد . وذات صباح أعملت المضخات حسب العادة اليومية فلحظ الملاحون ان مقدار ما تسرب من الماء الى عنبرها قد تجاوز المعهود . فظنوا - ايها السادة - ان حوت الكيج المسيف قد أوهنها ، إلا ان القبطان لم ير الصدع خطراً ، وكان لديه ما يقنعه بأن الحظ سيحالفه في تلك المواقع ، فكان ينفر من مفارقتها ، ثم ان البحارة لم يجدوا أثراً للصدع حين نزلوا في العنبر الى أقصى ما يستطيعون في مثل ذلك الجو العنيف ، ولكل هذه الاسباب مضى الملاحون يعملون المضخات في فترات متباعدة وحماسة فاترة . إلا ان الحظ لم يوات القبطان ، ومضت الايام والصدع يتسع وان ظل موضعه مجهولاً ، عندئذ خاف القبطان وتوجه مبحراً يؤم اقرب ميناء بين تلك الجزر لكي ينزع هيكل السفينة ويؤخذ للترميم » .

« ولم تكن المسافة التي ستقطعها السفينة قصيرة ولكن إن واتها الحظ فان القبطان لم يكن يخشى عليها ان تفرق اذ كانت المضخات سليمة ، وكان البحارة يتناوبونها ، وعددهم ستة وثلاثون ، ولهذا يستطيعون ان يضمنوا لها النجاة دون عناء كبير . ولاضير عليها لو اتسع الصدع فأصبح ضعفي ما كان . والحق ان النسبات المسعفة واكبتها في اكثر رحلاتها وكان في مقدورها ان تصل في سلامة تامة الى مينائها دون ان يعرض لها ما يرديها في أقل

(١) في الأصل : الى الشرق . وهو خطأ بين .

ضروب الخطر لولا عجزية رادني الوحشية - ورادني هذا هو ضابط فيناردي الاصل . ولولا حب الانتقام الذي استعير بمرارة لدى استيلكلت وهو بحيري من بفلو متمرس بالخروج والعصيان » .

« قال الدون سبسطيان وهو ينهض من حشيته المتأرجحة المعبأة بالحشيش : بحيري! بفلو! ما البحيري وأين تقع بفلو؟ » .

« تقع على الشاطيء الشرقي من بحيرة إيرى ايها الدون ، ولكنني أقول - وأنا استمحك عذراً - لعلك ان تسمع بعيد قليل عن هذا كله . هذا البحيري - ايها السادة - قد تربى في قلب امريكنا المنغل باليابسة على تذوق تلك الانطباعات الريفية القرصانية النهابة التي يعتقدها الناس متصلة بالبحر الفسيح ، حين مارس العمل في سفن مربعة الاشرعة واخرى ثلاثية الصواري تقارب في ضخامتها اي سفينة أبحرت من مينائكم القديمة كلاً وحتى مانيلا النائية ؛ لان بحيراتنا العذبة العظيمة - إيرى وانتاريو وهيورن وسوبيريرور ومتشجن - اذ يتحد ماؤها جميعاً تكون في سعتها مشبهة سعة البحر المحيط ، حائزة على كثير من خصائصه الرفيعة ، وعلى ما يتمتع به من أجناس ومناخات متنوعة . فهي تحتوي على ارجبيلات ذات جزر سحرية كالأمواه البولونيزية ؛ وهي في جزء كبير منها - كالمحيط الاطلسي - يعيش على ساحلها شعبان عظيمان متباينان ، وهي تصلح ان تكون طرقات بحرية طويلة تؤدي من جهة الشرق الى مدننا العديدة التي أنشئت على ضفافها وتطل عليها عابسة من هنا وهناك بطاريات ومدافع ناتنة كأنها الماعز من ماكيناو الشاهق⁽¹⁾ وقد سمعت هذه البحيرات هدير الانتصارات البحرية وأحياناً تفتح صدرها لبرابرة همجين تلتعع أوجهم الممطرة من اكواخهم المغطاة بالأهب . وعلى مدى فراسخ وفراسخ تقوم على حوافها غابات عادية كثيفة لايجرؤ على دخولها أحد ، وفيها تقف اشجار الصنوبر الضامرة كأنها سلاسل متراصة من اسماء الملوك في أنساب قوطية . وهذه الغابات نفسها مأوى الوحوش المفترسة الافريقية ومأوى مخلوقات حريرية الملمس يصنع من فرائها المصدر طيلسانات لباطرة التار ، وعلى صفحاتها تنعكس عاصمتنا بفلو وكلفلند المرصوفة شوارعها مثلما ترسم فيها قرى ونباغو ، وعلى سطحها تعوم السفينة التجارية المشحونة ، وطرادة الدولة والباخرة والزورق المصنوع من خشب الزان ، على السواء ، وتهب عليها العواصف البورية التي تحطم

(1) مضايق ماكناك (وهذا هو النطق الصحيح للكلمة) تصل بين بحيرة هيورن ومتشجن ، وفي المضايق جزيرة بنى عليها الفرنسيون قلعة عام ١٧١٢ واستولى عليها الانجليز سنة ١٧٦١ واتخذوها مقراً لحماية مراكزهم التجارية حتى ١٧٩٦ عندما تسلمها الامريكيون بموجب معاهدة باريس .

الصواري ، شديدة مهولة كأى عاصفة تجلد أثباح الموج في البحر الملح ، وهي تعرف ما معنى تحطم السفن اذ انها كثيراً ما اغرقت في منتصف الليل سفينة كاملة بكل من عليها من ملاحين يصيحون مستغيثين ، حين تتوسطها السفينة فتغيب عن الأنظار وان كانت البحيرات محفوفة بالبر من جميع النواحي . اذن فان استيلكلت - ايها السادة - وان كان ابن البر يعد من أبناء البحر الهياج ؛ فيه ولد وفيه ترعرع فأصبح بحاراً مقدماً جسوراً شأنه في ذلك شأن أي بخار . وأما رادني فقد نشأ في طفولته على شاطئ ، ناتوكت المنعزل ، ومنحته مياه البحر صدر الأم ، ولما كبر أطال التجواب في أطلسيكم الجاهم وفي محيطنا الهادي المتأمل . إلا أنه مع ذلك كله كان في تسرعه للثأر وحبه للشجار كأنه ربيب الأجمات المهجورة جاء لتوه من تلك المناطق التي مايزال اهلها يستعملون قرون الغزلان نصاباً لمداهم . غير ان هذا النانتوكتي كان امرأ ذا خلال طيبة ، وأما ذاك البحيري - فانه وان كان حقاً بحاراً من جنس الشياطين - فقد أخذ بالحزم المشوب بذلك التقدير لانسانيته ، - والتقدير لانسانية المرء هو أدنى حقوق العبد - أقول : حين لقي استيلكلت مثل هذه المعاملة تقلمت أظفار أذاه وغداً مطواعاً لئناً ، وظل على ذلك ردحاً طويلاً ، في عدة احداث وشؤون . غير ان القدر كان يدفع رادني الى مصيره وأخرجه الحمق عن طوره ، وأما استيلكلت... .. لا بأس سأقص عليكم ايها السادة نأهما » .

« توجهت تاونهو وجهة مينائها الجزري الامين ، ولم يكد يمضي على ذلك يوم او يومان حتى بدا وكأن صدعها قد اتسع ، إلا ان ذلك كان يتطلب زيادة العمل في المضخات ساعة او غير ساعة يومياً . لايد لكم ان تعلموا بأن بعض القباطنة لا يرون استعمال المضخات دائماً وهم يجتازون مياهاً هادئة مستكينة كمياه محيطنا هذا الاطلسي مثلاً . غير انه لو مرت بضابط الدكة ليلة ساكنة نعوس واتفق له ان نسي واجبه في هذا الصدد ، لكان من المحتمل ان لا يتذكر ابداً هو ورفاقه البحارة ما كان نسيه من قبل لان جميعهم سيخذلون وادعين الى السكينة الابدية في قرارة البحر . وليس من الشاذ ان يظل الملاحون - ايها السادة - في البحار النائية المتوحشة البعيدة عنكم الى جهة الغرب يتناوبون « العزف » على مقابض المضخات في جوقة كاملة حتى تكون الرحلة ذات طول معقول ، أي حين تكون على موازاة ساحل ميسور بلوغه او ان كان قد تهيأ للبحارة ان يلوذوا الى مرفأ أمين . ولا يبدأ قبطان السفينة يستشعر بعض القلق إلا ان كانت سفينته المصدوعة قد ضربت في عرض البحر وأصبح البر منها مناط الثريا » .

« وذلك هو ما ألم بتاونهو . فعندما تبين البحارة ان صدعها قد استشرى أبدي عديدون

منهم في الحق بعض اهتمام يسير وبخاصة الضابط رادني فأمر ان ترفع الاشرعة العليا جيداً وان يبالغ البحارة في نشرها من جديد ، وأن توجه بكل سبيل لتلاقح النسيم . وأنا أظن ان رادني هذا - أيها السادة - كان ينطوي على شيء من الجبن وأنه لم يكن بارئاً تماماً من أي نوع من المخاوف العصبية التي قد تلم بشخصه ، كأني مخلوق جري، متهور على البر أو البحر في مقدور أخيلتكم أن تتصوره على هيئتها . لذا فانه حين أبدى جزع المتوجس حول سلامة السفينة قال بعض البحارة انه انما يفعل ذلك لانه شريك في ملكيتها . وحين كانوا في ذلك المساء يعملون المضخات جرى بينهم تندر ماكر حول ذلك الموضوع اذ كانوا يقفون والماء الصافي المتعرج يتدفق فوق أقدامهم دوماً ، صافياً كأنه ماء نبع في جبل - يا سادة - ويجري عبر ظهر السفينة وقد اندفع والحب من أفواه المضخات ، وينصب في دفتات متلاحقة من ثقب المصارف في الجانب الأيسر » .

« وأنتم تعلمون علم اليقين انه ان جعل أحد الناس أمراً متسلطاً على بعض اخوانه من بني الانسان ووجد هذا الأمر أحد مأموريه يتفوق عليه فيما تبعته الرجولة الحق من زهو واستعلاء ، فليس من الشاذ النادر في عالمنا هذا المعروف - مائياً كان أو غير ذلك - ان يضطن الأمر نحو ذلك المأمور كراهية ومرارة لاتكبحان ، واذا أمكنته فرصة طأطأ من شموخ ذلك الملازم المرؤوس وأنحي عليه دقاً وسحقاً ، وجعل مما كان حصناً سامقاً ، كومة محقورة من تراب . ومهما يكن أمر هذا التشبيه الذي أوردته - أيها السادة - فلا مشاحة في ان استيلكلت كان في كل حال حيواناً طويلاً فارعاً ذا رأس كأنه روماني ، ولحية مسترسلة ذهبية كأنها خصل الجلال الذي اتخذه واليكم الماضي زينة لجواده الكريم ، وهو ذو قلب وذهن ونفس - أيها السادة - تجعل منه شرلماناً آخر لو كان والد شرلمان له أباً . أما الضابط رادني فكان بشع الخلقة كالبغل ، إلا انه مقدم مثلما هو عنيد حقود . ولم يكن يحب استيلكلت وذلك شيء . كان يعرفه هذا فيه » .

واذ رأى البحيرئ الضابط يقترب منه حين كان يعمل جاهداً عند المضخة مع سائر الرفاق ، تظاهر بأنه لا يراه واستمر يرسل دعاباته المرححة دون وجل ، ويقول :
 « بلى . بلى . أيها الفتيان المرحون . هذا صدعٌ حيوي نشيط . ليعبى ، أحدكم صفيحة من الماء كي ندوقه . والله انه ليستحق الحفظ في زجاجات . أقول لكم يارجال ان المال الذي يستثمره رادني الشيخ في هذه السفينة سيدفع لقاء هذا المال . خير له ان يفصل ما يخصه من هيكل السفينة ويسحبه عائداً الى بلده . الحق يا فتيان أن سمك الكعب المسيف هو الذي ابتداء هذه الدعابة . وما هو قد عاد ومعه عصابة من تجاري السفن ، من سمك المنشار وسمك

المبرد ، وهلم جزأ . وها هي الزمرة الحاشدة مكتبة على العمل تقطع وتشق في القمر ، وأظنها تقوم بالترميمات والتحسينات . لو كان «راد» الشيخ هنا لأشرت عليه ان يقفز في الماء كي يثمت شمالها ، ولقلت له : انها تميث في أملاكه فساداً كالشياطين لكن «راد» شيخ ساذج طيب القلب - وهو ايضاً جميل الطلعة . يقال - يا فتيان - انه يستثمر بقية ماله في التجارة بالمرايا ؛ لعلمي لو طلبت منه أنموذجاً عن أنفه وأنا البشع لم يكذب يمنحني ذلك .

«فهد رادني متظاهراً بأنه لم يسمع حديث البحارة : عمى في عينيكم! لم توقفت تلك المضخة عن العمل ؟ فَجَرُوا منها أصواتاً كالرعد» .

«فقال استيلكلت وهو جذلان كأنه الصرّار : «سمعاً . سمعاً . سيدي - هيا انشطوا ، انشطوا يا فتيان!» وما ان أتمّ قوله حتى أخذت المضخة تجلجل كأنها خمسون آلة من آلات الحريق . واشتد الرجال وهم ينصبون في أعمالها ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يسمع لهاث الصدور ، ذلك الذي يدل على ان أقصى طاقات الحياة قد بلغت حدّ التوتر الكامل» .

«ثم ان البحيري غادر المضخة أخيراً هو وسائر عصبته ، وذهب الى الامام وقد استبد به اللهاث ، وجلس على الدولاب الرافع ، وقد احتقن وجهه بحمرة قاذية نارية ، وعيناه تقدحان شرراً ، وهو يمسح العرق الغزير المتصبب عن جبهته . لست أدري اي شيطان ماكر - يا سادتي - تملك رادني حتى دفعه الى ان يتطفل على ذلك الرجل وهو في مثل حالته الجسمانية المنهوكّة . ولكن ذلك هو ما حدث . فان الضابط جاء ، يذرع ظهر السفينة محتدّاً فارغ الصبر وأمره ان يحضر مكنسة ينظف بها الألواح ، ومجرّفة يزيل بها أوساخاً ألقي بها خنزير طليق» .

«وكس ظهر السفينة في عرض البحر - يا سادة - عمل مألوف يتم دائماً كل مساء بانتظام الا في أوقات العواصف الهوج . ومن المعروف انه يتم في حال السفن التي تنخرق حقاً . كذلك هي المرونة في عرف البحر وعادات الملاحة - ياسادة - وكذلك هو حب النظافة السليقي في رجال البحر . فبعضهم يأبى ان يستسلم للفرق قبل ان يغسل وجهه اولاً . ولكن أمر الكس هذا في كل سفينة موكول الى الغلمان وبه يؤمرون ، ان كان على ظهر السفينة غلمان ؛ ثم ان الذين كانوا يتناوبون العمل على المضخات مقسمين الى فئات هم أقوى الرجال في تاونهو وبما ان استيلكلت كان أقدرهم ساعداً وأقواهم جسماً فانه طالما جعل رئيساً لاحدى تلك الفئات . ومن ثم كان لزاماً على الضابط ان يعفيه من مثل ذلك العمل التافه الذي لا صلة بينه وبين الواجبات الملاحية الصحيحة ، ما دام رفاقه يعفون من ذلك . انني أذكر كل هذه التفاصيل لكي تفهموا تماماً كيف كان الموقف بين الرجلين» .

« وفي هذا الامر ما هو أدهى وأمر . فان العمل بالمجرفة كان يعني بصراحة تحقير استيلاكت وازدراءه كأن رادني بصق في وجهه . وهذا شيء يفهمه كل من عمل بحاراً في حوارة ، وقد أدرك البحيري كل هذا وعرف ما هو اكثر منه عندما ألقى اليه الضابط بالأمر . وتلبث لحظة وحدد النظر في عيني الضابط الحاقدتين ورأى فيهما اكداساً مكدسة من البارود ، والكبريت البطيء يقترب منها في صمت ؛ ولما رأى ما رآه بغريزته ، فان ذلك العلم والتمنع عن اثاره الحدة الكامنة في شخص غصوب - وهو نفور يحسه الشجعان حقاً اذا اتفق ان تسرب الي نفوسهم أبداً - أقول : ان ذلك الاحساس الطيفي الذي لا يسمى تسلل - ايها السادة - الي نفس استيلاكت » .

« ولذلك أجابته في نعمة صوتية معتادة لا أثر فيها لتغير الا ما يتخللها من اضطراب بسبب الانهك الجسماني المؤقت الذي ألم به قاتلاً ان كنس السفينة ليس من شأنه وانه لن يقوم به . ومن غير ان يلمح الي العمل بالمجرفة أشار الي ثلاثة فتیان قال انهم هم الذين يقومون بالكنس عادة وبما انهم لم يودوا اي دور في المضخات فان ما عملوه طوال اليوم قليل او كالمعدوم . فكان رد رادني على هذا ان أطلق سبأباً مقذعاً في أشد صور الفطرسه والسخط مكرراً أمره دون تحفظ . كل هذا وهو يتقدم نحو البحيري الذي ما يزال جالساً ، وقد رفع في يده مطرقة أحد صناع البراميل ، اختطفها من برميل كان منه قريباً » .

« وعلى الرغم من الشعور المتصل بالحلم والتمنع ، ذلك الشعور الذي لا نجد له اسماً . فان استيلاكت الذي كان يتصعب عرقاً وقد حمي وهاجه الكد المضني الذي تأبضت به عروقه ، لم يستطع ان يتقبل هياج الضابط الا على مضض ؛ غير انه ظل يخمد لهيب النار المتصاعدة في نفسه فبقي دون ان يتكلم متشبهاً تشبث العنيد بمجلسه ، حتى اقترب رادني المهتاج وهز المطرقة على بعد بضع بوصات من وجهه ، وأمره والسخط يتملكه ان يطيع ما أمر به » .

« فنهض استيلاكت ، وتراجع ببطء حول الدولاب الرافع والضابط يتعقب خطاه ثابتاً ومطرقة التهديد في يده ، وقال للضابط بصوت العامد الواثق انه لن يطيع أوامره . ولما وجد ان ضبطه لأعصابه لم يكن له أدنى ثمرة أخذ يلمح الماحأ رهيباً لا تعبر عنه الكلمات بقبضة يده ويحذر الرجل الأخرق المشهور ، ولكن دون جدوى . وعلى هذا النحو مضى الرجلان ببطء حول الدولاب الرافع ؛ وحين حزم البحيري أمره على ان لا يتراجع خطوة واحدة أخرى اذ قدر لنفسه أنه قد أبدى من الصبر كل ما يطيقه مزاجه ، توقف عند مدخل العنبر ، وخطب الضابط قاتلاً ،

لن أطيع أوأمرك يا سيد رادني . أبعد تلك المطرقة او خذ حذرك . ولكن الضابط الذي أعماه القدر ظل يقترب منه ، والبحيري ثابت في موقفه ، وهز المطرقة الثقيلة على مدى بوصة واحدة من أسنانه ، وهو في الوقت نفسه يرسل سيلاً لا يطاق من السباب واللعن . غير ان استيلكلت لم يطرف له جفن ولم يتزحزح في موقفه بما قد يبلغ واحداً في الألف من البوصة ، وسدد الى عين الضابط نظرة شزراء كأنها خنجر لا يهتز ، ثم جمع قبضته اليمنى وراء ظهره ومدّها الى الوراء متقبضة وأعلم هذا الذي يطارده ان المطرقة ان خدشت خده فانه (اي استيلكلت) سيدبجه . ولكن قوى الشياطين أيها السادة كانت قد ندبت ذلك الاحمق ليقدم على مجزرة . فقد مست المطرقة الخدّ توتاً وفي اللحظة التالية كان فك الضابط الاسفل قد انكسر ووقع على مدخل العنبر وهو يبصق دماً كأنه حوت » .

« وقبل ان تبلغ الصيحة مؤخرة السفينة كان استيلكلت يهز احدى السنادات الخلفية التي تؤدي الى أعلى حيث اثنان من رفاقه يقف كل منهما على أعلى الصاري . كان كلاهما قتالياً » .

« فصاح الدون بطره : قتالياً ؟ رأينا كثيراً من سفن التحويت في موانينا ولكننا لم نسمع شيئاً عن القتاليين ، عفواً : من منهما وما هما ؟ » .

« القتاليون ايها السيد هم ملاحو القوارب التي تنتمي الى القنال العظيمة قنال إيرى^(١) . لا بد ان تكون سمعت بها » .

« لا . ايها السيد في هذه البلاد البليدة الساخنة المتكاسلة التليدة لانعرف الا القليل عن شمالكم الحيّ العتيذ » .

« أكذا هو ؟ لا بأس ايها السيد ، املاً لي كأسي من جديد فان هذه « الشيشة » التي تشربونها لذيدة ، وقبل أن أمضي في حديثي قدماً سأحدثكم عن هؤلاء القتاليين لان مثل هذا الحديث قد يلقي أضواء جانبية على قصتي » .

« خلال ثلاثمائة وستين ميلاً هي عرض ولاية نيويورك ، خلال مدن عديدة مأهولة وقرى نامية ناجحة ، خلال مستنقعات واسعة كثيبة ليس فيها سكان ، خلال حقول خصيبة مستعمرة لا يضارعها شيء في خصبها ، في غرفة للعب البلياردو وأخرى لتناول الشراب ، خلال « قدس اقداس » الغابات العظيمة ، على القناطر الرومانية فوق الانهر الهندية ، خلال الشمس والظل ، في قلوب سعيدة أو تاعسة ، خلال المناظر الشاسعة المتفاوتة في مقاطعات

(١) انتهى العمل في هذه القنال عام ١٨٢٠ وكان موضع دهشة وفخر لمعلم الامريكين .

موهوك وبخاصة في صفوف المعابد البيض كأنها الثلوج ، و«جرسياتها» سامقة كأنها الصوى المنصوبة ؛ يجري جدولٌ مستمر الجريان من حياة فاسدة كأنها تنتمي الى البندقية ، حياة كثيراً ما تكون خارجة على القانون . هنالك هم الأشانتي الخُلص^(١) الذين تعرفون ؛ هنالك يعوي الوثنيون الذين تعلمون ، اذا فتحتم ابوابكم وجدتموهم قابعين وراءها في الأفياء الوارفة وتحت كنف الكنيسة المريحة التي ترعاهم . إذ ان القدر العجيب هو الذي يجعل المذنبين ايها السادة يكثرون في حصى المعابد المقدسة مثلما ان النهايين والخارجين في المدن يتجمعون حول قاعات المحاكم .

«أذاك احد الرهبان ؟ قال ذلك الدون بطره وهو ينظر الى اسفل نحو الرحبة المكتظة بالناس ويبيدي اهتماماً مرحاً» .

«فضحك الدون بسبطين وهو يقول ، ان محاكم التفتيش التي أقامتها السيدة ايزابيلا لا تطولُ - في ليما - صاحبنا الشمالي . خذ في حديثك ايها السيد» .

«فصاح واحد من الرفقة ؛ معذرة وعلى رسلك! باسعنا نحن جميعاً - ابناء ليما - أحب ان أنبئك ياسيدي البحار انه لم تفتنا لباقتك في انك لم تذكر ليما حيث ذكرت البندقية في تلك المقارنة التي ذكرتها حول الفساد . لا تطأطئي رأسك وتبدي اندهاشاً ؛ انت تعرف المثل السائر على طول هذا الشاطئيء «فاسد مثل ليما» وقولك عن البندقية ينطبق عليها . الكنائس فيها اكثر عدداً من طاولات البلياردو وهي مفتوحة ابدأ - والمثل يقول : «فاسد مثل ليما» ؛ كذلك هي البندقية ، لقد زرتها ؛ هي مدينة الانجيلي ذي البركات القديس مرقس! طهرها من أدائها يا سنت دومينيك! كأسك! وشكراً ، ها أنا املاً كأسي مرة أخرى ، وانت فصب لفسك كأساً أخرى» .

«اذا اردت ان أصور لكم القنالي في حرفته - ايها السادة - في صراحة وطلاقة - قلت انه قد يتمثل في صورة بطل مسرحي ظريف ، فان ما فيه من لؤم ومكر يبدو وفيراً جذاباً . انه مثل مارك انطوني قد يبحر فوق مياه نيله الاخضر المزهر اياماً واياماً في كسل واسترخاء ، وهو يداعب علناً حبيبته كليوبترا ذات الخدين الموردين ، وينضج فخذه المشمشية تحت سفعات الشمس على ظهر السفينة ، فاذا نزل الى الشاطئيء نحى عنه هذا التخث . والقنالي يتنكر في زهو وخيلاء بقناع قطاع الطرق إذ ان قبعة المنكفئة الحوافي المحاطة بشريط زاهي اللون تليق بملامحه الفخمة ؛ يفرق منه اهل القرى ذوو البسمات

(١) افريقيون يمتلنون الى الشمال من ساحل الذهب ، معروفون بالشجاعة والجرأة وحذقهم في الزراعة والصناعة والتجارة .

البرينة حين يمر بهم في قاربه ، ويتجافى عن وجهه القاتم ومشيته المتبخرة أهل المدن . ولقد كنت ذات يوم متافقاً في منطقة القتال ، فتلقيت من أحد أولئك القتاليين خدمات جليلة ، اشكره عليها من صميم الفؤاد ولعلني ألا اكون ناكراً للجميل . ولكن من أبرز الصفات التي تكفر عما سواها في رجل العنف انه احياناً يستعمل ساعده القوي ليعين غريباً في مأزق مثلما ينهب به غنياً . وعلى الجملة فان شيرة حياة القتال هذه - ايها السادة - تتجلى لكم في ان حرفة الحوامة العنيفة لدينا تحتوي كثيراً ممن تخرجوا في هذه المدرسة التي سميتها القتال وانه قلما تجدون جنساً من الناس لا يوليهم قباطنة الحوامة ثقتهم مثلهم ، باستثناء أهالي سدني . وليس يقلل من غرابة هذا الأمر ان تكون الحياة التجريبية في القتال العظمى لدى آلاف عديدة من غلماننا وشبابنا الريفيين الذين يولدون على ضفتها هي التي تمدهم بالنقلة الوحيدة بين الحصاد الهادئ في حقل قمح مسيحي والحرق العابت في مياه البحار الهمجية النائية» .

«فقال الدون بطره في احتدام المندفع وقد دلق شراب «الشيثة» على غضونه الفضية : كذا اذن! كذا اذن! لا حاجة بالمرء ليرحل كي يرى الدنيا ، كل العالم هو ليما ؛ لقد كنت اظن ان الاجيال في شمالكم المعتدل هادئة مبروكة ركيئة كأنها الربى . هات القصة» .

«توقفت - ايها السادة - حيث كان البحيري يهز السنادة الخلفية . وما كاد يفعل ذلك حتى أحاط به الضباط الصغار الثلاثة والرماحون الاربعة وتجمهروا من حوله واضطروه للذهاب الى ظهر السفينة . غير أن القتاليين انزلقا هابطين على الحبال كأنهما شهابا رجم واندفعا الى حيث الضجة . وسعيا لينتشلا صاحبهما من حومتها نحو منارة السفينة . وشاركهما بحارة آخرون في هذه المحاولة ونجم على الاثر شغب مختلط ؛ كل هذا والقبطان المقدم بمنجاة من الاذى يشب ويهبط وفي يده حربة من حراب الصيد ويدعو ضباطه ان يفلوا بأيديهم ذلك الوغد المتوقع الاثيم ، وان يقودوه سريعاً الى الربعة التي خلف الدقل الاعظم ؛ وبين الحين والحين كان يقترب من الحد الدائري المحيط بالشغب ويحاول النفاذ الى غمرة الفتنة بحريته لكي يطمئن بها خصمه الذي كان هدفاً لنقمته . ولكن استيلكت والبواسل المستينسين من حوله لم يكونوا لقمة سائغة فاستطاعوا ان يبلغوا الربعة عند منارة السفينة حيث عجلوا فصقوا ثلاثة براميل او اربعة كباراً معاً عند الدولاب الرافع واتخذ باريزيو البحر من هذا الحاجز «متراساً» يحتمون به» .

«فصاح القبطان هادراً وهو يهددهم بمسدسين في يديه الاثنتين ؛ ابرزوا من حيث اتم ، ايها القرصان ؛ ابرزوا من حيث اتم يا سقّاحين!» .

« فقفز استيلكلت فوق المتراس واخذ يذعره صاعداً هابطاً ، متحدياً شراً ما قد يفعله المسدسان ، ولكنه جعل القبطان يفهم بوضوح ان موته (اي موت استيلكلت) سيكون نذير تمرد دموي يتداعى اليه البحارة جميعاً ؛ وخشي القبطان في قرارة نفسه ان يصحح هذا القول فأحجم بعض إحجام إلا انه ظلّ يأمر العصاة ان يعودوا توّأ الى واجباتهم » .

« فقال رأس العصيان : « هل تعد بأن لا تمسنا بسوء ان نحن فعلنا ؟ » .

- « عودوا! عودوا! - لا وعد لديّ - الى واجباتكم! هل تريدون ان تغرقوا السفينة بتوقفكم عن العمل في مثل هذا الوقت ؛ عودوا! » ورفع مسدساً مرة اخرى » .

« فصاح استيلكلت : « نغرق السفينة ؟ نعم ، لنغرق! لن يعود واحد منا الا حتى تقسم بأنك لن ترفع علينا طاقة من حبل . ماقولكم يا رجال ؟ » - موجهاً الخطاب الى رفاقه - فكان جوابهم متافهاً عالياً » .

« وكان البحيري حينئذ يحرس المتراس متطلعاً ، وعينه طوال الوقت على القبطان وهو يطلق بعض العبارات مثل قوله : « هذه ليست غلطتنا . لم نكن نريد ذلك . قلت له أبعد المطرقة . هذا تصرف سيان . كان عليه ان يعرف من أنا قبل هذا . قلت له : الفتنة نائمة فلا توقظها . أعتقد أنني كسرت اصبعي اذ لطمت فكّه اللعين . أليست سكاكين «الفرم» في المنارة ، يا رجال ؟ ابحثوا عن العتلات يا أحيانى . ايها القبطان بالله عليك خذ حذرك . تفوه بالوعد . لا تكن أحمق . انس كل ما حدث . نحن على استعداد لتعود . عاملنا بالحسنى ونحن رجالك . ولكننا نأبى ان نجلد » .

- « عودوا ، لا وعود لديّ ؛ أقول : عودوا! » .

« فصاح البحيري وقد بسط ذراعيه نحو القبطان : تأمل! ها هنا عدد من البحارة (وأنا منهم) أبحروا من أجل التطواف فقط ؛ أليس كذلك ؟ وأنت تعلم يا سيدي أننا نستطيع ان نستعني من العمل حالما نلقي المرساة ، لذا فنحن لا نريد نزاعاً ، نحن نسعى للمسالمة ، نحن على استعداد لنستأنف العمل ولكننا نأبى ان نجلد » .

« فهدر القبطان قائلاً : عودوا! » .

« فتلفت استيلكلت لحظة من حوله ثم قال : ها أنا أخبرك ايها القبطان اننا لن نقلك لأننا لا نريد ان نبسب عليك يداً الا اذا هاجمتنا . ولكن لن نتزحزح من هذا الموقف الا اذا سمعنا وعدك بأنك لن تجلدنا » .

« اهبطوا في المنارة اذن ، عليكم اللعنة ، سابقيكم فيها حتى تتمرر عيشتكم .

اهبطوا! »

«فصاح رأس المتمردين مخاطباً رفاقه ، « هل نهبط ؟ » ولكن اكثرهم عارض ذلك ، ومن بعد تقدموا استيلكلت ، امتثالاً لأمره ، ونزلوا في المخدع المظلم ، واختفوا وهم يهتمون كأنهم دبة في مغارة » .

«وما كاد رأس البحيري يصبح على مستوى الألواح حتى قفز القبطان وزمرته من فوق المتراس ، وسحبوا بسرعة رتاج الناروزة ، ودعموها بأيديهم مجتمعة ونادوا قيم التموين بصوت جهوري ليحضر القفل النحاسي الثقيل الذي يعلق على سلم الهبوط ، ثم ان القبطان وارب الرتاج قليلاً وهمس شيئاً من خلال الفتحة ثم أغلقه ثانية وأدار فيه المفتاح فحصر وراءه عشرة ولم يبق على السفينة الا نحو عشرين او يزيدون ظلوا طوال الوقت لا يتدخلون في النزاع » .

«وقام جميع الضباط بحراسة ساهرة طوال الليل في مقدمة السفينة ومؤخرتها وبخاصة حول ناروزة المنارة وحول المدخل الامامي ، اذ كانوا يخشون ان يتخذ المتمردون ذلك الباب طريقاً للانفلات ، بعد ان يشقوا طريقهم من خلال البدنة الواقية في الأسفل . غير ان ساعات الظلام مرت في أمان ، وظلّ الرجال الطلقاء يعملون جاهدين على المضخات ، وظلت صلصلتها وجلجلتها تتردد بين الحين والحين في جنبات السفينة خلال الليل الموحش في كآبة » .

«وعند شروق الشمس تقدم القبطان فدق على ظهر السفينة داعياً السجناء الى العمل ، الا انهم ردّوا عليه في صوت واحد بأنهم يرفضون . فأنزل لهم الماء وألقيت اليهم حفتتان من البسكويت بعده ، ثم أدير المفتاح الذي يقفل عليهم غيابة سجنهم وعاد القبطان الى الربعة خلف الدقل الأعظم . وقد تكرر هذا مرتين يومياً في مدى ثلاثة ايام ، حتى اذا كان صباح اليوم الرابع تأدى الى الاسماع نزاع مختلط تلاه عراك ، عندما دعي القوم للعودة حسبما جرت بذلك العادة ، وفجأة انطلق من المنارة اربعة رجال وهم يقولون انهم راضون بالعودة ، ذلك ان تنن الهواء الحبيس ونزورة الطعام ثم ما اجتمع اليهما من خشية القصاص في النهاية ، كل هذه العوامل اضطررتهم للاستسلام من تلقاء أنفسهم ، فاستقوى قلب القبطان اذ رأى ذلك وكرر أمره الى البقية الا ان استيلكلت صرخ فيه متوعداً منذراً بأن يكف عن هذيانه وان يرعى شؤون نفسه . وفي اليوم الخامس انطلق ثلاثة آخرون من المتمردين الى الهواء الطلق ناجين من الايدي المستينسة التي كانت تحاول ردهم ، فلم يتبق الا ثلاثة » .

«فقال القبطان في سخرية جوفاء ، «الآن! أليس من الخير ان تعودوا ؟ » فصاح استيلكلت : «أقفل علينا الباب اذا تفضلت!» فقال القبطان والمفتاح يدور مفرقاً : آه ، يقيناً » .

« عند هذا الحد أيها السادة كان السخط قد بلغ مداه لدى استيلكلت بسبب الغدلان الذي ارتكبه سبعة من رفاقه ، وقد شك صدره الصوت الساخر الذي سمعه آخر مرة وجن جنونه بسبب دفنه الطويل في مكان يشبه أحشاء اليأس حلقة ، وعندئذ اقترح على رفيقه القتاليين ، وكانا حتى ذلك الحين يوافقانه الرأي فيما يبدو ، بأن ينطلقوا جميعاً من ذلك المخدع عندما يستدعيهم الحراس للعودة في اليوم التالي وهم قد تسلحوا بسكاكين «الفرم» الحادة (وهي أدوات طويلة هلالية الشكل ثقيلة ذات مقبضين) وأن يثيروا الهياج من الدقل المائل حتى أعلى الكوئل ، وأن يستولوا على السفينة إذا نجحوا في مغامرة مستيئة شيطانية . وقال لهم انه هو نفسه سيفعل ذلك سواء رافقاه او تخليا عنه ، فترك آخر ليلة يقضيها في ذلك المخدع ؛ ولم يبدِ الرجلان أية معارضة لهذه الخطة وأقسما أنهما على استعداد لأداء ذلك او لأداء اي شيء جنوني آخر ، اي القيام بأي شيء سوى الاستسلام . بل وألح كل منهما ان يتقدم رفيقه في الخروج الى ظهر السفينة حين يجيء موعد الانطلاق ، الا ان قائدهم عارض هذا بشدة محتفظاً بحق السبق لنفسه لانه كان يعلم ان أحد الرفيقتين لن يتنازل للآخر في هذا الامر ، ولا يمكن ان يتقدم كلاهما معاً لان السلم لا يتسع الا لواحد . وهنا أيها السادة بدأت اللعبة الخبيثة التي أضمرها كل من هذين الخداعين ، وكان لابد من ان تنكشف . »

« ذلك ان كلاً منهما حين سمع الخطة المشهورة التي وضعها القائد ، انتقدت في نفسيهما فجأة - فيما يبدو - شرارتان متماثلتان من شرر الخيانة ، فحزم كل منهما أمره على ان يكون هو اول من ينطلق ليكون اول الثلاثة استسلاماً وان كان الثلاثة هم آخر العشرة ، وبذلك يضمن اي نصيب يسير من العفو تكسبه له هذه المبادرة . ولكن حين عزفهما استيلكلت أنه مصمم على ان يكون هو القائد حتى النهاية ، فانهما على نحو ما ، استخدما كيمياء الخسة الماكرة في مزج ما زوّراه في نفسيهما من خيانة مكتومة ، فلما ذهب قائدهما في تهويمة كشف كل منهما لأخيه عن طويته في ثلاث جمل ، فقيدا الرجل النائم وكماهما بالبحال وصدحا يستدعيان القبطان في منتصف الليل . »

« واذا ظن ان القتل ميسر له ، وأن رائحة الدم تسطع في الظلام ، اندفع هو وضباطه ورماحوه المسلحون نحو منارة السفينة ، ففتحوا الناروزة في بضع دقائق ، وأخرجوا زعيم العصيان - وكان مايزال يريغ فكاكاً من القيد الذي جمع بين رجله ويده - الى الهواء الطلق يحمله حليفاه الغادران ، وادعيا شرف تكبيل امرئ، خائن قد أبيع رأسه وحان قطافه . غير أن الثلاثة جميعاً طوّقوا وسحبوا على ظهر السفينة كالغنم الميتة ، وحشروا معاً معلقين بحبال المظنين كأن

كل واحد طرف من ذبيحة ويقوا هنالك معلقين حتى الصباح والقبطان يصيح بهم وهو يخطر أمامهم جيئة وذهبياً : عليكم اللعنة ، ان الجوارح لتستكف ان تمسكم أيها الأرذال! »
« وعند طلوع الشمس استدعى القبطان جميع الرجال ، وفصل الذين تمردوا عن الذين لم يشاركوا في التمرد ، وقال للأولين انه يستحسن ان يجلدهم جميعاً وأنه يظن على وجه الجملة أنه قد يفعل ذلك - بل يجب عليه ان يفعل ذلك ، فذلك أمر تقتضيه العدالة . ولكن نظراً لأنهم استسلموا في الوقت المناسب فانه في الوقت الراهن سيخلي سبيلهم بعد ان يسمعهم تقريباً ؛ وعلى أثر ذلك أسمعهم اياه باللهجة الدارجة » .

« ثم التفت الى الرجال الثلاثة المعلقين في الحبال وقال لهم : « أما أنتم أيها الرمم الخيسة ، اما أنتم فانا أنوي ان أفرم لحكمكم وأوزعه على المراجل » : ثم تناول حبلاً وصبه بكل ما أوتيه من قوة على ظهري الرجلين الخائفين حتى كفا عن الصراخ ضعفاً ، وتدلى رأسهما كأن لا حياة فيهما ، كرأسي اللصين اللذين صلبا ، حسبما يظهران في الرسوم » .
« وصاح أخيراً : لقد أوهن رسني ضربك! ولكن ما يزال هناك جبل مخصص لك . يا كتكوتي الظريف ، وهو جبل لا يصيبه الوهن . انزعوا تلك الكمامة عن فمه ولنسمع ما قد يقوله دفاعاً عن نفسه » .

« وظل المتمرد المعيب لحظة وهو يحرك فكيه المتشنجين حركة مختلجة . ثم لوى رأسه في ألم ، وقال بصوت كأنه الفحيح : هذا هو ما أقوله - وتنبه له جيداً - : اذا جلدتني ذبحتك » .
« أهكذا اذن ؟ اذن لقد أفزعتني! - وجرّ القبطان الجبل ليضرب » .
« فعاد البحيري يفحّ قاتلاً : خير لك ان لاتفعل » .
- « ولكن لا بد - ومدّ ذراعه بالجبل ليهوي به » .

« وعندئذ قال استيلكلت شيئاً في صوت كالفحيح لم يسمعه أحد سوى القبطان ، وما كان أشد دهشة الواقفين جميعاً حين أجفل القبطان متراجعاً وذرع الدكة في سرعة مرتين أو ثلاثاً ، وفجأة ألقي الجبل من يده وقال : لن أجلده - أطلقوه - اقطعوا قيوده - أتسمعون ؟ »
« وعندما أسرع الضباط الصغار ليتنفذوا الامر حال بينهم وبين ما انتووه رجل شاحب اللون معصوب الرأس - ذلك هو رادني رأس الضباط : كان رادني منذ ان اصابته تلك اللكمة قد استلقى في سريره ولكنه لما سمع في ذلك الصباح ضجيجاً على الدكة زحف خارجاً وشهد المشهد كله ، وكان فمه قد تأذى باللكمة حتى كان كأنما يعجز عن النطق ، إلا انه غمغم بكلام مفاده انه مستعد وقادر على ان يعمل ما لم يجرؤ عليه القبطان واختطف الجبل وتقدم نحو خصمه المكبل بالأصفاذ » .

«فهمس البحيري في فحيح : انت جبان!» .

- «نعم انا كذلك ، ولكن اليك هذه مني . وكان على اهبة ان يضرب حين ارسل البحيري فحيحاً آخر ، تصلبت بسببه ذراعه المرفوعة ، فتوقف ثم اضرب عن التوقف ، ولم يشأ ان يتخلى عن كلمته رغم تهديد استيلكلت مهما تكن النتائج . ثم حلت اصفاد الرجال الثلاثة وأنزلوا ، واتجه جميع البحارة ذوو الامزجة المتقلبة نحو المضخات الحديدية يعملونها في عناد واصرار» .

«وما كاد الظلام يحل وتنتهي اول نوبة في الحراسة حتى سمع صراخ في المنارة : واذا الخائن المرتعشان يجريان ويحاصران باب القمرة وهما يقولان انهما لايجرؤان على البقاء مع البحارة . ولم ينجع الرجاء واللكم والركل في ارجاعهما ، وآترا ان يودعا في المؤخرة التحتية في السفينة طلباً للسلامة : ولم تبد اية بادرة من تمرد بين سائر الرجال بل انهم على النقيض من ذلك صمموا بإيعاز من استيلكلت نفسه في الاكثر ، ان يلتزموا بأشد حالات الهدوء ، وان يطيعوا جميع الأوامر حتى النهاية ، حتى اذا بلغت السفينة الميناء هجروها جماعة . ولكنهم اتفقوا جميعاً على شيء آخر رجاء ان يكفلوا تحقيق اسرع نهاية لتلك الرحلة - اتفقوا على ان لا يرفعوا اصواتهم منبهين الى وجود الحيتان ان تبينوها . ذلك ان تاونهو ، رغم صدعها ورغم جميع مخاطرها الاخرى ، ظلت تقيم الرقباء على اعالي صوايرها ، وكان قبطانها على استعداد لإنزال القوارب اذا رأى حوتاً في تلك اللحظة مثلما كان في اليوم الذي حلت فيه سفينته مجال التطواف ، وكان رادني على استعداد ليستبدل بسريره قارباً ويسمى ، وقمه مكعوم بالاربطة ، لكي يكعم فك اي حوت حي بكعم الموت» .

«غير ان البحيري الذي حث البحارة على ان يختاروا ذلك النوع من السلبية في تصرفاتهم ظل يدير الرأي في نفسه (حتى انتهى كل شيء على الاقل) حول انتقامه المناسب المحكم من الرجل الذي لدغه في صميم قلبه . وكان هو ينتمي الى نوبة رادني الضابط الاعلى ، في المراقبة ، وكأنما كان الرجل المخبول يسمى ليقطع مايزيد على نصف المسافة في لقاء مصيره بعد ذلك المشهد عند الحبال حين اصّر مخالفاً نصيحة صريحة من القبطان على ان يستأنف رئاسة المراقبة ليلاً . وعلى هذا الأمر وعلى حادثة او اثنتين اخريين بنى استيلكلت خطته للتأر في إحكام» .

«تعود رادني اثناء الليل - على غير عادة البحارة - ان يجلس على حاجز الربعة خلف الدقل ويتكئ بمرفقه على حرف القارب المشبوح هنالك ، على ارتفاع يسير فوق جانب

السفينة ؛ وبين القارب والسفينة فراغ من دونه ماء البحر ، فقد استيكلت الوقت فوجد ان نوبته التالية عند الدفة ستكون حوالي الساعة الثانية في صباح اليوم الثالث اذا عدّ اليوم الذي خذل فيه اول يوم . فاستغل فترات الرقابة في الاسفل في جدل شيء ما باتقان وعلى هيئة « .
« وقال له أحد الرفاق : ماذا تصنع هناك ؟ » .

- « اي شيء ، تظن ؟ اي شيء ، يشبه ؟ » .

« كأنه مرسة تتخذها لربط كيسك ولكنها تبدو لي غريبة . فقال البحيري وهو يمد ذراعه الى الامام على امتداده : نعم انها قد توصف بالغرابة . ولكني أظنها ستفي بالغرض .
ايها الضابط ليس لدي قدر كافٍ من المصيص - هل لديك ؟ » .

« لكن ليس في المنارة اي مصيص » .

« اذن لأذهب فأطلب شيئاً من راد . ونهض ليذهب الى المؤخرة » .

« فقال احد البحارة : لا اظنك تذهب لتستجدي منه! » .

« ولم لا ؟ أظن انه يبخل عليّ بها وهو حين يعطيني فانما يعين نفسه في النهاية ايها الرفيق ؟ وذهب الى الضابط ونظر اليه في هدوء وسأله مصيماً يصلح به ارجوحته ، فأعطي ما سأل . ولكن لم يَرَ احد المصيص او المرسة مرة اخرى . غير انه في الليلة التالية كادت كرة حديدية قد غلفت تغليفاً محكماً ان تتدحرج من جيب « سدارة السعدان » التي يلبسها البحيري ، اذ كان يطوي المعطف في ارجوحته ليتخذها وسادة له . وبعد اربع وعشرين ساعة حل موعد نوبته عند الدفة الخرساء - قريباً من الرجل الذي كان مقدراً له ان يهجم فوق حافة القبر الذي حفرته الطبيعة لاستقبال البحارة على الدوام - وكان لابد للأجل ان يحين ، وكان الضابط في خيال استيكلت الذي قدر وصورّ قد غدا جثة يابسة مسجاة قد انخسفت جبهته اذ تحطمت » .

« ولكن أحد الحمقى ، ايها السادة ، نجى المدبر الذي كان سيفدو قاتلاً من ارتكاب الشار الدموي الذي كان يزعمه ، فحقق انتقامه كاملاً دون ان يثار لنفسه بنفسه . وبفعل لون من القدر غريب تدخلت السماء نفسها فانتزعت يديها من يديه ذلك الأمر اللعين الذي كان يزعم اقترافه » .

« في صباح اليوم التالي بين انبلاج الفجر وشروق الشمس حين كان البحارة ينضحون ظهر السفينة بالماء صاح فجأة تناريقي^(١) غبي وهو يصب الماء على السلاسل الكبرى : ها هو يتدحرج هنالك ، هاهو! يا للمسيح! اي حوت هو! هو موبى ديك » .

(١) نسبة الى تناريقي احدى جزر الكناري حيث خاض نلسون معركة فقد فيها ذراعه .

« فصاح الدون سبسطيان : موبى ديك! بحق القديس دومينيك ياسيدي البحار هل للحيثان اسماء ؟ من الذي تسميه موبى ديك ؟ » .

- « هو حوت أبيض مشهور ، وحش مخيف مربع قد عتا على الموت أيها الدون - ولكن لو أخذنا في هذا لكان ايضاً قصة طويلة » .

« فاحتشد الاسبانيون الفتيان من حولي وصاحوا قائلين : « كيف ؟ كيف بالله عليك ؟ »

- لا . لا . ايها السادة ، لا يا سادتي ، ابدأ ، ابدأ ، لا استطيع ان اسرد هذه القصة الآن .

افسحوا قليلاً حتى ييلغني الهواء يا سادتي » .

« فصاح الدون بطره : الشيثة! الشيثة! ان صديقنا القوي يكاد يغمى عليه - املأوا له كأسه الفارغة! »

- « لا حاجة بي الى ذلك يا سادة ، لحظة واستأنف حديثي... : عندما أبصر التاريفي ، يا سادة ، الحوت الناصع فجأة في مدى خمسين ياردة من السفينة ، رفع عقيرته عفواً وبقوة الغريزة يعلن عن وجود الوحش ، وقد نسي ما تعاهد عليه البحارة ، واستبد به الهياج المبادر ، هذا مع ان المراقبين على الصواري التكددة رأوه بوضوح : عندئذ استولى النزق على كل شيء ، فصاح القبطان والضباط والحواتون : « الحوت الابيض! الحوت الابيض! » ولم تمنعهم الاشاعات المخيفة من ان يتوقوا الى القبض على ذلك الحوت الشهير الغالي ، بينا وقف البحارة العائدون يلحظون ، بالعيون الشزراء ، واللعنات المصبوبة ، ذلك الجمال الخلاب الذي كان يمثله الجرم الضخم الناصع في بياض اللبن وقد سقطت عليه اشعة الشمس الافقية المتلامعة فأخذ يتحرك ويتلألاً كأنه « أبال » حي في مياه البحر الازرق الصباحي . لاريب ايها السادة في ان قدراً غريباً يتخلل سياق هذه الاحداث جميعاً كأنها رسمت قبل ان يسوي الكون نفسه ، فقد كان المتمرد هو موجه القارب الذي سيركبه الضابط ، فاذا طارد بقاربه حوتاً فعليه ان يجلس الى جانبه ، بينا يقف رادني عند المقدمة وحرثه في يده ، وهو يجذب ثني الحبل او يرخيه بحسب الاوامر . فاذا انزلت القوارب الاربعة كان من حق قارب الضابط ان يتقدمها جميعاً . ولم ينطلق احد بأصوات من الجذل جارة مثلما فعل استيلكلت وهو ينصب مجذافه . وبعد تجديفة مجهدة أسرع القارب بهم وقفز رادني الى المقدمة ورمحه في يده ، وكان كلما ركب قارباً هاجت نفسه - فيما يبدو - فصاح من وراء الكمام الذي يغلف فمه ان يقربوه بحيث ينزل على اقصى حردبة الحوت ، ودون ان يبدي موجة القارب تكرهاً او نفوراً اخذ يوجهه ويرتفع به خلال زبد يعشي الابصار ، قد اختلط بياضه ببياض الحوت ، حتى ارتطم القارب فجأة كأنما صادم طنفاً غارقاً ، ثم انكفأ فقذف بالضابط الواقف : وعندما سقط في تلك اللحظة

على ظهر الحوت الزلق استقام القارب ودفعته الغمرة المنقضة الى جانب ، بينما كان رادني يطول به الماء ويهبط على الجانب الآخر من الحوت ، فسمى جاهاً خلال الطش المتناثر ، ولمحه رفاقه لحظة خلال تلك الغلالة وهو يحاول بجنون لكي يبعد نفسه عن عين مويبي ديك . إلا ان الحوت اندفع دائراً في « شقلبة » فجانية ، وأطبق فكيه على الرجل السباح ، وانتصب به صعوداً ثم انحدر صعباً وهو يقرع عمودياً وغاص في الاعماق .

« وفي الوقت نفسه ارخى البحيري من طرف الشني عندما أحس اول دقة على قعر القارب كي يتجافى متأخراً عن الدوامة الحادثة ؛ ونظر في هدوء مروياً ، فخطر له ما خطر . ولكن هزة مفاجئة مرعبة من تحت القارب جعلته يستل سكينه ويضعها فوق الحبل ؛ فجذب وذهب الحوت طليقاً ، غير ان مويبي ديك ظهر على مسافة ما مرة ثانية وقد علقت مزق من قميص رادني الصوفي المخضب بأنيابه التي قضت عليه . ثم هبت القوارب الاربعة تطارده إلا انه فاتها جميعاً واختفى عنها من بعد اختفاء تاماً .

« ووصلت تاونهو ميناءها في الوقت المناسب - وكان مكاناً موحشاً متوحداً - لا يسكن فيه اي مخلوق متمدن وهناك دبر الفرار خمسة او ستة من رجال الصاري الرئيس عامدين يقودهم البحيري وأروا الى حائط نخيل . وقد تبين في النهاية انهم اختطفوا زورقاً حربياً كبيراً مزدوجاً من الهمج المتوحشين هنالك وأبحروا الى ميناء آخر .

« وحين اصبح بحارة السفينة لا يجاوزون اصابع اليدين أهاب القبطان بأهل الجزيرة ليعينوه في العمل الشاق اعني ترميم السفينة ورأب صدعها . ولكن تلك العصابة الصغيرة بحاجة الى السهر المضني انتقاء لعدوان أولئك الاعوان الخطرين ، ليلاً ونهاراً . وكان العمل الشاق الذي قاموا به منهكاً مضنياً حتى انهم حين اصبح المركب صالحاً للابحار كانوا في اشد حالات الضعف والاعياء بحيث ان القبطان لم يجرؤ على ان يقلع بهم وحدهم في ذلك المركب الثقيل . وبعد ان استشار ضباطه أرسى السفينة بعيداً عن الشاطئ . قدر المستطاع فعياً مدفعين وصوبتهما من مقدمة السفينة ؛ وكوّم البنادق على مؤخرة السفينة واصطحب معه احد الرجال ونشر شرعاً خير قارب تحويت لديه ، وتوجه به عامداً مع المهب نحو تاهيتي ، على بعد خمسمائة ميل ، لكي يأتي بمدد من الرجال يضيفه الى ملاحيه .

« ورأى الرجلان في اليوم الرابع من ابحارهما زورقاً ضخماً قد انتبذ ناحية عند جزيرة مرجانية منخفضة ، فوجه القبطان قاربه بعيداً منه ولكن الزورق الهمجي انقض عليه ، وسرعان ما تأدى اليه صوت استيلكلت يدعوه ان يتوجه نحوه والا فانه سيطوح به تحت الماء . فشهروا

القبطان مسدساً ، إلا ان البحيري سخر منه مزدرياً ، وقد وضع قدميه على قادمتي الزورق الحربي الموثقتين ، مؤكداً له انه لو عبث عبثاً بزناد المسدس لدفنه بين الفقايع والزبد .
« فصاح القبطان : ماذا تريد مني ؟ » .

« فقال استيلكلت : قل لي الى اين انت متجه ، ولأي شيء تتجه ، واياك ان تكذب » .
« أنا متجه الى تاهيتي رجاء الحصول على مدد من رجال » .

- « حسناً . دعني أجيء الى قاربك ، وثق انني مسالم . وما ان نطق بهذه العبارة حتى قفز من الزورق وسبح الى القارب ، وصعد الحافة ووقف وجهاً لوجه أمام القبطان » .
« ضع ذراعيك متقاطعتين يا سيدي ، رذ رأسك الى الخلف . وردد بعدي : حالما يفادرنى استيلكلت فأنا أقسم ان أرسى هذا القارب عند تلك الجزيرة وأبقى هنالك ستة أيام فاذا لم افعل اذن فلا أخطأنتي الصواعق » .

« وضحك البحيري وهو يقول : « أحسنت! ما أفصحك! في رعاية الله يا سيد » ثم وثب في الماء وسبح عائداً الى رفاقه » .

« ووقف استيلكلت يرقب القارب حتى ساحلَ وجُرَّ الى جذور شجرات جوز الهند هنالك ، وعندئذ استأنف ابحاره ووصل في الوقت المناسب الى تاهيتي ، وكانت هي المكان الذي يؤم ، وهناك حالفه الحظ اذ كانت سفينتان على أهبة الاقلاع الى فرنسا وكانت لحسن البخت بحاجة الى ذلك العدد من الرجال الذين يرأسهم ذلك البحار ، فأقلعوا فيهما وبذلك أخذوا زمام المبادرة من قبطانهم ان كان يرى ابدأ ان ينزل بهم القصاص المشروع » .

« وبعد ان مضت عشرة أيام على اقلاع السفينتين الفرنسيتين وصل قارب التحويت واضطر القبطان الى ان يدون أسماء تاهيتيين اكثر تمدناً وقد تعودوا بعض الشيء ركوب البحر ، واستأجر من هنالك شانية تاهيتية ، وعاد الى مركبه فوجد كل شيء فيه بخير ومن ثم استأنف تطوافه » .

« اين هو استيلكلت اليوم ياسادة ؟ لا أحد يدري لكن أرملة رادني في جزيرة ناتوكت لاتزال توجه عينها الى البحر الذي يأبى ان يعيد الميت ، ولا تزال ترى في أحلامها الحوت الابيض الرهيب الذي قضى عليه » .

* * *

« فقال الدون سبسطيان في هدوء : أترك انتهيت ؟ » .
- « نعم أيها الدون » .

- « اذن فأنا أتوسل اليك ان تخبرني : أهذه القصة في جوهرها حقيقية ، حسب تقديرك وتخمينك ؟ انها عجيبة ، فهل استقيتها من مصدر موثوق ؟ لا تؤاخذني ان كنت ملحقاً . وصاحت الجماعة كلها وقد استبد بها الاهتمام البالغ : ولا تؤاخذنا ايضاً ياسيدنا البحار لأننا نشارك الدون سبطين مطلبه » .

- « هل في الحانة الذهبية ايها السادة نسخة من الاناجيل المقدسة ؟ » .

« فقال الدون سبطين : لا ولكنني أعرف قيساً قريب الدار يستطيع ان يحصل لي على نسخة . وأنا ذاهب لإحضارها . لكن هل أنت مطمئن الى ما ستفعله فإن ذلك قد يكون خطير النتائج ؟ » .

- « هل تعمل معروفاً فتحضر القسيس بصحبتك أيها الدون ؟ » .

« فقال بعض الجماعة لآخر : مع أن حرق الأحياء في ليما قد بطل في هذه الأيام فأنا أخشى أن يكون صديقنا البحار في خطر التصدي لرئاسة الأسقفية . لنسحب من ضوء القمر فلست أرى حاجة لذلك » .

- « معذرة للجري في أنرك يا دون سبطين . هل لي أن أرجوك أن تتحرى أكبر نسخة من الأناجيل فتحضرها لنا ؟ » .

* * *

« وقال الدون سبطين في وقار وقد عاد بصحة شخص طويل وقور : هذا هو القسيس وقد جاءك بالأناجيل » .

- « إذن لأخلع قبعتي . تعال قليلاً في النور أيها القسيس المبجل وأمسك الكتاب المقدس أمامي كي أستطيع أن ألمسه » .

- « عونك يا رب . إني أقسم بشرفي أن القصة التي قصتها عليكم أيها السادة هي في جوهرها وبنودها الكبرى صحيحة وأنا أعلم أنها صحيحة . لقد وقعت على هذه الكرة . فقد وطنت قدمي السفينة ، وعرفت الملاحين ورأيت استيلكلت وتحدثت إليه منذ أن مات رادني » .

صور مشوهة ترسم للحيتان

سأرسم لكم عما قريب ، بقدر ما يسمح به التصوير الكلامي دون لوحة ، شيئاً يشبه ان يكون الشكل الصحيح للحوت حسبما يتبدى لعيني الحوات حقاً ، حين تُجَنَّبَ جثته على ضخامتها الى سفينة التحويت حتى ليستطيع المرء ان يطأ على الجثة مطمئناً وهو يصعد الى السفينة . ولكن قد يكون من الجدير قبل ذلك ان ألمح الى تلك الصور الخيالية الغريبة التي ترسم له والتي ماتزال حتى اليوم تتحدى ايمان اهل البر . لقد آن الاوان كي تُصحح معتقدات الناس في هذا الامر ، وذلك بأن أبرهن لهم ان مثل هذه الصور للحوت كلها خاطئ .

وقد يكون المصدر الاول لهذه الاضاليل التصويرية موجوداً بين اقدم التماثيل الهندية والمصرية واليونانية ، فمنذ تلك العصور التي عرفت بالاختلاق والرخصة في التدقيق ، حين كان الدلفين يرسم على الافاريز الرخامية في الهياكل وعلى قواعد التماثيل وعلى الدروع والمداليات والكؤوس والنقود ، وتجعل له حراشف كزرد الدرع الذي كان يلبسه صلاح الدين ، ورأس متنع بالوخوذة كأنه رأس مار جرجس ، منذ ذلك الحين اتسع مجال الرخصة والتساهل لا في أشد صور الحوت انتشاراً بين الناس بل في كثير من الصور العلمية التي تُرسم له .

ومن العجب العجائب أن أقدم صورة بقيت ، وقد قصد منها ان تكون صورة حوت ، موجودة في كهف معبد الافيال بالهند^(١) . ويعتقد البرهميون ان التماثيل المنحوتة في ذلك المعبد القديم - وهي تكاد تعز على الحصر - انما وضعت لمثل جميع الحرف والاتجاهات وكل مهنة يمكن ان تُخطر في خيال الانسان وان تلك التماثيل كانت قبل ان تكون الحرف والمهن في الكون بعصور طويلة ، فلا عجب اذن ان كانت مهنتنا - مهنة التحويت النبيلة - من تلك

(١) هذا خطأ من مليل ، اذ ليس في مغارة الفيلة صورة تمثل تجسد فشنو على شكل ماتسي اختار .

الحرف التي جرى الالمام اليها والتكهن بها قبل ان تكون . ويقع الحوت الهندي المشار اليه في جانب منعزل من الجدار حيث الصورة تمثل تجسد فشنو في شكل لويثان يسميه العلماء ماتسي آفتار . غير ان ذلك التمثال الذي جعل نصفه انساناً ونصفه حوتاً ليس فيه من الحوت الا ذنبه . بل ان ذلك الجزء اليسير منه خطأ كله ، فهو يبدو وكأنه ذنب مستدق لشبان الانكونه باكثر مما يمثل شطيرتين عريضتين من ذنب ضخّم في حوت حقيقي .

لكن اذهب الى صالات الرسوم القديمة وتأمل صور الرسام المسيحي الكبير لهذا الحوت تجد انه لا يمتاز على الرسام الهندي الذي عاش قبل الطوفان ؛ هنالك ترى صورة رسمها جويدو^(١) لبرسيوس وهو يخلص اندروميديا من وحش البحر أو الحوت . من اين حصل جويدو على أنموذج كهذا يمثل مثل هذا الحيوان الغريب ؟ وليست صورة هوجارت^(٢) الذي رسم المنظر نفسه في لوحة له تسمى « برسيوس هابطاً » خيراً من صورة جويدو ولا بقدر قلامة ظفر . فان الجسامة الهائلة في ذلك الوحش الذي رسمه هوجارت لتترجرج على السطح وتكاد لا تهزّ مدى بوسة من ماء . ولذلك الوحش شيء كالهودج على ظهره ولو نظرت الى فمه الممطوط ذي الناب ، والامواج تتدحرج فيه ، لحسبته « بوابة الخونة » التي تؤدي من نهر التيمس الى برج لندن في طريق ماني . وهنالك حيتان برودرومس التي رسمها سيبالد الاسكتلندي^(٣) في القديم ، وحوت يونان كما تصوره النسخ القديمة من التوراة وكتب المبادئ، الدينية القديمة . ماذا نقول في هذه الصور ؟ اما الحوت الذي رسمه مجلد الكتب متعرجاً يلتف كأنه عساليج الكرمة حول عمود مرسة آخذة بالانحدار - كما يبدو مطبوعاً مذهباً على وجه الورقة الاولى او ظهرها في كثير من الكتب القديمة والجديدة - فانه بالغ الجمال ، الا انه مخلوق خرافي محض ، قد اقتبس فيما اعتقد عن شبيه له يرسم على الزهريات القديمة . وقد سماه الناس عموماً الدلفين ومع ذلك فاني اعذ هذه السمكة التي وضعها مجلد الكتب محاولة لتصوير حوت ، اذ كانت تلك هي النية عندما وضع الشكل اول مرة . وكان الذي وضعه ناشر ايطالي قديم في القرن الخامس عشر خلال « النهضة العلمية » . وفي تلك الايام وحتى فترة متأخرة نسبياً كان الناس يظنون الدلفين من فصيلة اللويثان .

وفي رسوم العساليج وغيرها من الزينات التي كانت تزخرف بها الكتب القديمة تلتقي

(١) جويدو ريني (١٥٧٥ - ١٦٤٢) وكانت الصورة في المتحف الوطني بلندن ولعل ملغل رأها في ١٧ كانون الاول ١٨٤٩ .

(٢) وليم هوجارت (١٦٦٧-١٧٦٤) .

(٣) السير روبرت سيبالد (١٦٤١ - ١٧٢٢) . تحدث عن الحيتان ولكنه لم يرسم لها صوراً .

أحياناً بلمسات غريبة جداً تكاد تنقل رسم الحوت ، حيث ترى كل ضروب النفائات وفوارات الماء والحّمات والينابيع الباردة ونبعة ساراتوجا ونوافير بادن كلها تتدفق من رأسه الذي لا يعتريه الاعياء . وعلى صفحة العنوان في النسخة الأصلية من كتاب « تقدم العلم » تجد بعض الحيتان العجيبة .

ولكن لتجاوز هذه المحاولات التي قام بها ناس غير محترفين ، ولننظر الى صور اللويثان التي قصد منها ان تكون رسوماً رزينة علمية رسمها أناس عارفون . ففي المجموعة القديمة من الرحلات لهاريس بعض لوحات لحيتان انتزعت من كتاب هولندي في الرحلات بتاريخ ١٦٧١ وعنوانه : « رحلة تحويت الى سيتزبرجن » في سفينة اسمها « يونان في جوف الحوت » ، ورّيسها هو بيتر بيترسون الفريزلاندي . وتمثل الحيتان في احدى تلك اللوحات كرمث من الاخشاب مستلقية بين جزر الجليد وعلى ظهورها الحية تجري دببة بيض . وفي لوحة أخرى غلطة كبرى هي جعل الحوت ذا ذنب عمودي الشطرين .

وهناك كتاب من قطع الربع فاخر جليل كتبه قبطان اسمه كولنيت وكان قبطاناً من بعد في الاسطول الانجليزي ، وعنوان الكتاب : « رحلة حول رأس هورن في البحار الجنوبية من أجل توسيع نطاق مصاديد حوت العنبر » وفي هذا الكتاب رسم قصد به ان يكون « صورة للفايستر او حوت العنبر رسم بمقياس رسم عن حوت قتل على ساحل المكسيك ، في شهر آب (أغسطس ١٧٩٢) ورفع الى ظهر السفينة » . ولا ريب عندي في ان القبطان قد أخذ هذه الصورة الحقيقية من أجل ان يفيد بها جنود البحرية ولا أريد ان أذكر عنها الا شيئاً واحداً فأقول : ان فيها عيناً اذا جعلتها - حسب مقياس الرسم المرفق - عيناً لحوت عنبر جسيم ، فكأنما جعلت عين ذلك الحوت نافذة بارزة طولها حوالي خمسة أقدام . آه يا قبطاني الشهم لماذا لم ترسم يونان وهو يطلّ من تلك العين ؟

وأشد مصنفات التاريخ الطبيعي تحرزاً وتحققاً مما يكتب لفائدة الشبان واليافعين ليست بارئة من تلك الشناعة في الخطأ . انظر ذلك المؤلف المشهور : « الطبيعة الحية لجولد سمث » ففي النسخة اللندنية الموجزة منه التي طبعت عام ١٨٠٧ لوحات من « حوت » مزعوم و« نزول » مزعوم . ولست أحب ان أبدو للناس جافياً ولكن هذا الحوت الكريه المنظر يبدو مثل خنزيرة مبتورة الاطراف وأما النزول فإن المرء اذا التمحه لمحا أدهشه ان يرى الناس في هذا الحيوان الخرافي في هذا القرن التاسع عشر صورة حقيقية يدلّس بها على عقول اي جمهور ذكي من تلامذة المدارس .

وفي عام ١٨٢٥ نشر برنارد جرمن الملقب بكونت دي لا سيبيد ، وهو عالم طبيعي

عظيم ، كتاباً علمياً منظماً عن الحوت ، وأدرج فيه عدة صور لأنواع مختلفة من اللويثان . وليست هذه الصور جميعاً خاطئة فحسب بل ان صورة السبلحوت او حوت جرينلاند (اي الحوت الاثين) قد قال فيها اسكورسبي وهو رجل ذو دربة طويلة في شؤون هذا النوع من الحيتان : انها لا يوجد لها نظير في الطبيعة .

ولكن هناك خطأ يقف من هذه الأخطاء كلها موقف التاج المشهور ، وذلك هو ما تورط فيه العالم فردريك كوفييه أخو البارون المشهور ، ففي عام ١٨٢٦ نشر كتاباً في التاريخ الطبيعي للحيتان . وفيه يعطي ما يسميه صورة لحوت المنبر ، ولكن عليك قبل ان تعرض هذه الصورة على احد أبناء ناتوكت ان تتجهز للاختفاء العاجل عن أعين الناس في ذلك البلد . وأنا أقول في ايجاز ان حوت المنبر الذي رسمه فردريك كوفييه ليس حوت عنبر وانما هو صرصر . طبعاً لم يتح له ان يستمد تصوره من رحلة تحويت (وقلما يتاح ذلك لمثل هؤلاء الرجال) ولكن من أين استفاد تلك الصورة ؟ من يدري! لعله حصل عليها من حيث حصل سلفه دزمارست^(١) العالم العامل في هذا المجال العلمي نفسه على احدى مجهزاته الاصلية أعني حصل عليه من رسم صيني ، واذا انت تأملت كثيراً من الفناجين والصحون الشاذة استطعت ان تدرك اي قتيان نشطاء الخيال هم أولئك الصينيون حين يرسمون بالقلم .

وأما الحيتان التي يرسمها رسامو الاعلانات وترى في الشوارع مدلاة فوق أبواب حوانيت الزياتين فماذا يقال فيها ؟ تستطيع ان تسميها بعامة حيتان رتشارد الثالث ، فهي ذات حرادب منتحلة . وهي ايضاً شديدة التوحش ، تظفر على ثلاث او أربع من «طرمة» البحارة أعني على ثلاثة او أربعة من قوارب التحويت مزودة بملاحيها : وهذه الحيتان المشوهة تكافح مناضلة في بحار من الدم والصبغ الأزرق .

ولكن هذه الاخطاء المتعددة الجوانب في تصوير الحوت ليست غريبة بعد هذا كله . تأمل! فمعظم الرسوم العلمية نقلت عن أسماك طرحها البحر ، وما وجه الصواب فيها باكثر من وجه الصواب في رسم سفينة محطة وهي مكسورة الصلب ، فمثل هذا الرسم لا يمكن ان يمثل هذا الجسم النبيل في خياله حين يكون هيكله وصواريه سالمة غير محطمة . لقد أمكن رسم الفيلة بكامل خلقتها لانها تنتصب مائلة أمام الرسام ، فأما الحوت الحي فإنه لا يعوم مدة تكفي لنقل صورته ، اذ الحوت الحي في عظمته الكاملة وجلاله لا يرى في البحر الا في مياه بعيدة الغور فاذا عام كان حجمه الجسيم مختفياً عن الانظار كأنه سفينة حربية يغمر الماء اكثر جسمها ويسبب تلك الضخامة استحالة على الانسان الى الأبد ان يرفع جسمه في الفضاء بحيث

(١) أنسلم حيتان دزمارست (١٧٨٤ - ١٨٢٨) أضاف ملاحظات على كتاب لاسبيد .

يحتفظ بكل ضروب انتفاخاته الجبارة وتموجاته . ولن أقول شيئاً في البون الشاسع في السعة بين الحوت الصغير الراضع والحوت المكتمل القارح ، ولكن هب أنك رفعت أحد تلك الحيتان الصغيرة الراضعة الى ظهر السفينة ، فانك واجد حينئذ ان شكله غريب كالانكليس لدن متقلب لا يستقر على حال حتى ان الشيطان نفسه لا يستطيع ان يتمثل له صورة دقيقة .

وقد يتوهم بعض الناس ان الهيكل المعروف لحوت طرحه البحر قد يمدنا بلمحات دقيقة عن شكله الحقيقي . وهذا غير صحيح لان من أحد الامور العجيبة المتصلة بهذا اللويثان ان هيكله لا يعطي عن شكله الا فكرة ضئيلة . انك اذا نظرت هيكل جرمي بنتام^(١) معلماً بدلاً من « الثريا » في مكتبة أحد الذين صفوا تركته ، وجدته ينقل بدقة فكرة شيخ مؤمن بالمذهب النفعي ضخم الجبهة ويمثل جميع الصفات الذاتية البارزة الاخرى لدى بنتام ، ولكن لا شيء من هذا القبيل يمكن استخلاصه من النظر الى عظام حوت بيثة المفاصل . والحق ان هيكل الحوت مجرداً - كما يقول هنتر العظيم^(٢) - يحمل من العلاقة بالحيوان اللحيم البدين ما تحمله الحشرة من علاقة باليفة التي تغلفها . وتتجلى هذه الميزة على نحو لافت في الرأس وذلك ما سأوضحه عرضاً في بعض أجزاء هذا الكتاب ؛ وهي تتجلى ايضاً على نحو غريب في الزعنفه الجانبية ، وعظامها تكاد تناظر عظام يد الانسان تماماً . الا ان الابهام فيها غير موجود . فلهذه الزعنفه أربع أصابع عظمية منتظمة تقوم فيها كالسبابة والوسطى والخنصر والبنصر ، ولكنها جميعاً تظل مكونة في غطائها اللحمي كأنها أصابع الانسان حين تدس في غطاء صناعي . قال اسطب الفكه ذات يوم : « مهما قدم الحوت لنا من خدمات دونما اكثرث فلا يصح ان نقول فيه انه يعالجنا من دون قفازات » .

وأياً ما كانت الوجهة التي تنظر منها ، فانك لا بد ان تستخلص لهذه الاسباب جميعاً ان اللويثان العظيم هو المخلوق الوحيد في العالم الذي لا بد من ان يظل دون ان يرسم الى الابد . حقاً قد تجي ، صورة أقرب الى الواقع من صورة اخرى ولكن لن تكون هناك صورة تحكي الواقع نفسه بقسط كبير جداً من الدقة . ليست هناك طريقة على الارض تسعفك على ان تجد بدقة كيف يكون شكل الحوت ، ولعل الطريقة الوحيدة التي بها تستمد فكرة مقبولة عن سمته واستفاضته هي ان تذهب انت نفسك محوتاً . غير أنك ان فعلت ذلك لم تكن مجازفتك ميسورة لانها قد تؤدي بك الى ان يمزقك ويفرقك ومن ثم كان عليك فيما يخيل اليّ ان لا تكون متعتاً في تطلعك وتشوفك الى هذا اللويثان .

(١) جرمي بنتام (١٧٤٨ - ١٨٢٢) خلف هيكله لجامعة لندن وكان هو مؤسسها .

(٢) هو الدكتور جون هنتر (١٧٢٨ - ١٧٩٢) وقد كتب مقالة عن تركيب الحوت (١٧٨٧) .

صور للحيتان أقل أخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحويت

أحسنَ باغراء قوي - كلما خطرت لي الصور المغلوطة للحيتان - الى ان اخوض غمار الحكايات المشوهة الخاطئة التي تروى عن الحيتان في بعض الكتب قديمها وحديثها ، وخاصة ما أورده بليني وبرخاس وهكلويت وهاريس وكوفيه ومن لف لفهم . لكني لن انقاد لهذا الاغراء .

لا اعرف إلا اربعة كتب منشورة تتحدث عن حوت العنبر العظيم هي : كتاب كولنت وكتاب هجنز وكتاب فريريك كوفيه وكتاب بيل ؛ وقد أشرت في الفصل السابق الى كولنت وكوفيه ؛ وها هنا أقول ان كتاب هجنز خير من كتابيهما ، غير ان كتاب بيل هو خيرها جميعاً ، وكل رسومه للحوت جيدة الا الشكل الاوسط في صورة الحيتان الثلاثة في مواقف متنوعة ، وهذا الشكل يقع في رأس الفصل الثاني . ثم ان الصورة التي وضعها على الصفحة الاولى وهي تمثل القوارب في هجومها على حيتان العنبر ، صحيحة ذات شبه بالواقع في تأثيرها العام ، وان قدرت كذلك دون ريب لتشير الريبة المهذبة في بعض رجال الصالات . وبعض صور حوت العنبر في كتاب ج .روس براون جيدة الدقة في محيطها وسعتها إلا انها قد أثبتت في وضع كتيب ولا يعد براون نفسه مسؤولاً عن هذا الخطأ .

وخير الصور الاجمالية للحوت الاثين موجودة في كتاب اسكورسبي ، الا ان مقياس الرسم فيها صغيراً جداً بحيث تعجز عن ان تترك انطباعاً مرغوباً ، وليس لديه من مشاهد التحويت الا صورة واحدة وهي مثال للعجز والنقصان اذ من هذه المناظر وحدها ، اذا أُجيد تصويرها ، يستطيع المرء ان يستمد شيئاً يشبه الفكرة الصحيحة عن الحوت الحي كما يراه صيادوه الاحياء .

واجمل الرسوم التي نجدها للحيتان ولمشاهد التحويت ، اذا نحن اعتبرناها جملة

واحدة ، وان لم تكن في بعض دقائقها أدق من سواها . نقشان فرنسيان كبيران جيدان في الاخراج ، منقولان عن رسمين وضعهما شخص اسمه جارنري ، والاول منهما يمثل هجوماً على حوت العنبر والثاني هجوماً على الحوت الاثين . ويظهر في النقش الاول حوت عنبر جليل قد صور في كامل فخامته وجبروته وقد ارتفع تحت القارب من اعماق المحيط . واعتلى يحمل في الفضاء فوق ظهره حطام الألواح المهشمة . وقد ظلت مقدمة القارب في بعض اجزائها سليمة لم تحطم ، ورسمت وهي تحط على صلب الوحش ؛ ويقف في المقدمة اثناء تلك اللحظة الخاطفة العابرة احد المجذفين وقد تغلف نصفه بالفتات الساخنة الهانجة التي يطلقها الحوت وهو على أهبة ان يشب كأنه على شفا الهاوية . وقد نقلت الحركة في هذا المنظر كله نقلاً جيداً صحيحاً يملك العجب . أما برميل الجبل الذي اصبح نصفه فارغاً فانه رسم عاثماً فوق المياه المبيضة ، واما القنوات الخشبية التي كانت الحراب الناصلة مغروزة فيها فانها تغزل مواربة في الصورة . وأما رؤوس الملاحين السابحين فانها مبشرة حول الحوت وعليها تعبيرات من الفزع عجيبة المفارقات ، بينا السفينة في تلك المسافة السوداء العاصفة قادمة لتدخل المشهد . وقد تجد خطأ فادحاً في الدقائق التشريرية لهذا الحوت ولكن تجاوز عن هذا فاني أقر بانني لعمري عاجز عن ان ارسم صورة جيدة مثل هذه الصورة .

وأما في النقش الثاني فان القارب ذاهب ليقرب من الجانب الحلزوني لحوت اثين ضخيم مسرع في جريه ، وهو يدحرج ضخامته المكسوة بالاعشاب في الماء كأنه صخرة مكسوة بالطحلب تندرج عن سفوح بتاغونيا . وفتاته قاتمة مكتنزة سوداء كأنها السناج ، حتى انك لتظن وانت تنظر دفعات الدخان صاعدة من المدخنة ان هناك عشا؛ كبيراً يطبخ في تلك الاحشاء . وقد حطت طيور البحر تنقر بمناقيرها السرطانات الصغيرة والمحارات وغيرها مما يقدمه البحر من حلويات ومعكرونة ، ويحمله الحوت الاثين احياناً على ظهره الموبوء . واثناء ذلك كله ترى اللويثان الشفري يتدفع خلال الماء تاركاً اطناناً من الزبد الابيض المتلاطم المتخثر في مخره ، فيجعل القارب الصغير الحقيق يتأرجح بين التمعجات كأنه «أسكفة» علقته عند الدواليب البدالية في باخرة محيطية . وهكذا ترى ان القسم الامامي من المشهد حافل بالاضطراب الهائج . ومن المفارقات الفنية المعجبة ان القسم الخلفي سطح مائي هادئ مستو كأنه لوح زجاجي ، ترى فيه السفينة الخائفة وقد تهدلت اشرعتها المسترخية ، وترى كتلة هامة من حوت ميت ، قلعة استسلمت ، وراية الاستسلام ترفرف مخذولة فوق عصاها التي اثبتت في وقب النفاة .

لست أدري من كان جارنري الرسام او من يكون ولكنني اشهد بأنه كان على معرفة الخبير بالموضوع ، فان لم يكن كذلك فقد علمه واحسن تعليمه حوات خبير . للفرنسيين حظ التفوق في الرسم . اذهب وتأمل جميع الرسوم في اروبا فأين تجد مثل تلك الصالة من الحياة النابضة المتحركة على اللوحات إلا ان تكون تلك الصالة الباهرة في فرساي ؟ هنالك يشق المتفرج طريقه مبهوراً لاهتاً بين معارك فرنسا الحاسمة حيث كل سيف يبدو ومضة من الاضواء الشمالية ، والملوك والاباطرة الدارعون يتوالون منقضين كأنهم ثلة مندفة من حيوانات القطورس المتوجة . وفي تلك الصالة تستحق المعارك التي رسمها جارنري ان تجد لها مكاناً .

ان كفاية الفرنسيين في استشفاف جمال الاشياء وروعها لتجلى على وجه الخصوص في الرسوم والنقوش التي مثلوا فيها مشاهد التحويت ، هذا مع انه ليس لديهم خبرة الانجليز في صيد الحيتان ، ولا واحد في الالف من درية الامريكيين ؛ ومع ذلك فانهم زودوا هذين الشعبين بالرسوم الوحيدة التي تستحق ان توصف بنقل الروح الصحيحة لمناظر الحيتان . أما رسامو الحوت من انجليز وامريكيين فانهم في معظم الامر يكتفون اكتفاء تاماً فيما يبدو بنقل الحدود الآلية للأشياء كأن يرسموا المنظر الجانبي للحوت فارغاً . وهذا امرٌ يبلغ ان يشبهه ، اذا أنت اعتبرت روعة التأثير ، رسم منظر جانبي للهرم . حتى اسكورسبي وهو الخبير المشهور عن جدارية في شؤون الحوت الاثين بعد ان قدم لنا صورة جاسية كاملة لحوت جرينلاند ، وثلاث صور او اربعاً مصفرة مرهفة للنزول والبريز عاد يعرض علينا سلسلة من الرسوم الكلاسيكية تمثل صنارات القوارب وسكاكين الفرم والكلايب ، ثم وضع تحت انظار عالم يرتعش من البرد ستة وتسعين أنموذجاً طبق الاصل من بلورات ثلج المنطقة القطبية في وضع مكبر مستعيناً في ذلك بدقة المجهر ؛ ولست أقصد الى ان أستخف بهذا الرحالة الفذّ (فأنا احترمه لحنكته وخبرته) ولكنه في مثل هذا الامر المهم سها عن ان يحصل لكل بلورة ثلجية على شهادة موثقة يمين معتمدة أمام محكمة السلام في جرينلاند .

وهناك نقشان فرنسيان آخران يستحقان التنويه ، سوى ذينك اللذين رسمهما جارنري ، وقد صنعهما شخص وقع تحتها باسم « هـ . ديران » وأحد هذين النقشين لا ينضوي تحت غايتنا في هذا المقام ، إلا أنه يذكر لاسباب اخرى ، فهو صورة مشهد هادئ في الظهيرة بين جزر المحيط الهادي ، وقد أرست حوالة فرنسية على الشاطئ، في جو ساكن وأخذت تتزود بالماء في تراخ وكسل وشرعتها مرخاة ، ووراءها نخلات تهدلت

اوراقها الطويلة ، فالسفينة والنخلات جميعاً منحنية مسترخية في الجو الساكن . وللمنظر اثر جميل اذا اعتبرناه يوحى بتمثيل حال الصيادين الاشداء في أحد مشاهد الاستجمام الشرقي ، وهو شيء نادر في حرفتهم . اما النقش الثاني فيمثل شيئاً مختلفاً : يمثل السفينة في حال توقفها في صميم الحياة التحويتية وقد جنبت اليها حوتاً أثيناً ، وبدت السفينة (في حال استئناف السير) وهي تتناول مشرقة على الوحش المجنب كأنها تشرف على ميناء . وفي الصورة قارب يندفع مسرعاً مبعداً عن هذا المنظر الحي على أهبة ان يطارد حيتاناً اخرى بعيدة ، وقد سددت الرياح والحراب وجعلت معدة للاستعمال . وأخذ ثلاثة من المجذفين يركزون الصاري في الثقب ، وتدحرجت فجأة امواج لطمت القارب فجعلته يقف منتصباً بعض انتصاب على الماء كأنه حصان حرون يرفع يديه في الهواء . ومن السفينة يتصاعد دخان العذاب الذي يقاسيه الحوت الفائر ، كأنه دخان قرية من مصانع الحديد ؛ وقبالة المهيب تنشأ سحابة سوداء تحمل نذر الحاصب والمطر . فتزيد - فيما يبدو - في حيوية الملاحين الهانجين .

الحيتان كما تتمثل في الألوان وفي الأسنان وفي الخشب وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم

لعلك حين تتحدر نحو دور الصناعة بلندن قد رأيت على تلة البرج شحاذاً مقعداً (او كاجاراً كما يقول البحارة) ، يمسك امامه لوحة مرسومة تمثل المنظر المؤسّي الذي فقد فيه رجله . وفي الصورة ثلاثة حيتان وثلاثة قوارب ، وأحد القوارب (ويفترض انه يحتوي الرجل المفقودة كاملة) قد ضمضه العض من فكي الحوت الامامي . وقد خبّرت ان هذا الرجل دأب على ان ينصب تلك اللوحة كل حين على مدى عشر سنوات ويعرض ذلك الجذم على عالم قليل التصديق . ولكن آن أوان انصافه وتصديقه فان الحيتان الثلاثة جيدة الرسم كأى حيتان رسمت ونشرت في وابتج ، على اي تقدير . وجذمه كأى جذم آخر يقيني تراه من الجذوع المقتلعات في الغرب ، ومع ان الحوات المسكين يعتلي أبد الدهر ذلك «الجذم» فانه لا يتخذ منبراً للخطابة ابداً وانما يقف حزيناً أسيان بعينين خفيضتين يتأمل ما أصابه من بتر . وقد تمر خلال الباسيفيكي ونايتوكت ايضاً ونيوبدفوردي وميناء ساج على رسوم حية تمثل الحيتان ومناظر صيدها حفرها الصيادون انفسهم على انياب حوت العنبر او على «مشدات» السيدات المصنوعة من عظام الحوات الاثين وامثالها من تلك الطرف الصغيرة العديدة التي ينحتها البحارة بعناية من المادة الخام وهم في ساعات الراحة في عرض المحيط ويسمونها Skrimshander . ولدى بعضهم صناديق صغيرة فيها أدوات تشبه أدوات اطباء الاسنان ، خاصة بهذا النوع من التلهي . ولكنهم على وجه العموم يكدون مستعملين مُداهم وحدها ، وهم بهذه الاداة التي تكون قادرة على كل شيء يشكّلون لك ما تريد ويخرجونه على النحو الذي يتصوره خيال البحار .

ان طول البعاد عن دنيا المسيحية وعالم الحضارة يرد المرء حتماً الى الحال التي أوجده الله فيها ، أعني ما يسمى حالة البداوة الهمجية . فالحوات الحق لا يتميز في همجيته عن

البدائي الايروقوي . وأنا نفسي همجي لا أدين بالولاء إلا لسلطان آكلي لحوم البشر .
مستعد في كل لحظة لأن أثور على ذلك السلطان .

ومن أخص خصائص الهمجي اثناء وجوده في منزله صبره العجيب على الصناعة . فهراوة الحرب الهوائية القديمة او كعوب الرماح فيما يضاف اليهما من نقوش وحفر كثير متشعب محكم يعد كل منهما نصباً يخلد فضيلة الصبر الانساني ، كما يخلدها معجم لاتيني . اذ ان تلك المنعرجات الدقيقة المتشابكة المتشاجرة من الحفر على الخشب قد تمت بشظية من محارة بحرية مكسرة او بسن سمكة القرش ، وكلفت سنوات من الدأب الدائب والانتحاء المستمر .
والهمجي الابيض - اعني البحار - شبيه بالهمجي من أبناء هواي فهو يتمتع مثله بالصبر العجيب ، وبصبره هذا ويناب قرش واحد ، وباستعماله مديته البانسة الوحيدة تراه يحفر لك قطعة من تمثال عظمي ، مفعمة بالترجمات المتشابكة في رسمها كأنها درع ذلك الهمجي الاغريقي ، أخيل ، وان لم تكن مثله اتقاناً ، وتجي ، حافلة بالروح والايحاءات البربرية كأنها رسوم ذلك الهمجي الهولندي الظريف البرت دورر .

وكثيراً ما يصادف المرء في منارات الحواتات الامريكية حيتاناً خشبية او حيتاناً شكّل منظرها الجانبي من لوحات صغيرة قاتمة تؤخذ من خشب حربي متين يوجد في البحار الجنوبية . وبعضها ذو حظ غير قليل من الدقة .

وقد ترى في بعض البيوت الريفية ذات السقوف المسنمة حيتاناً من نحاس معلقة من أذناها تتخذ مقرعة للابواب الشارعة على الطريق . فاذا كان البواب نائماً كان ذلك خيراً للحوت ذي الرأس السندانى . غير ان حيتان المقارع هذه قلما تكون صوراً أمينة للاصل . وقد ترى على منائر بعض الكنائس ذات الطراز القديم حيتاناً من صفائح الحديد موضوعة هنالك لتدل على وجهة الريح ، ولكنها بعيدة في ارتفاعها وكأنما قد كتب عليها ايضاً تحاشياً لكل غاية او غرض : «اللمس ممنوع» ولذلك فانك لا تستطيع ان تتفحصها عن كثب وتحكم بمدى دقتها .

وفي مفاصل الحزآن المضلعة حيث تنتشر عند قواعد الهضاب العالية المشققة كتل من الصخر وتكوّن على السهل رجعات جميلة خلاصة ، كثيراً ما تقع العين على صور تشبه أشكال اللويثان المحنطة وقد غاب بعضها بين العشب ، فاذا كان يوم عاصف تكسر العشب من حولها أمواجاً من الزبد الاخضر .

وفي البلاد الجبلية حيث مايزال المسافر يتمنطق بمرتفعات تستدير من حوله كأنها مسرح روماني تستطيع ان تلمح العين هنا وهناك اذا وقعت في صعيد مناسب لمحات عابرة

تمثل مناظر جانبية من الحيتان شاحسة على طول السلاسل الجبلية المتموجة . ولكنك لابد ان تكون حواتاً أصيلاً كي تتمكن من تحقق هذه المناظر . بل لابد لك ايضاً اذا شئت ان تعود الى ذلك المنظر ثانية من ان تتخذ الوقفة نفسها في الموقع الاول نفسه لان هذه الملاحظ عبر التلال عابرة خاطفة حتى ان وقفتك الاولى لتتطلب عناءً بالغاً لاستكشافها والتثبت منها . كأنها جزائر سولومه التي ماتزال غير مستتبته وان وطنتها ذات مرة قدما مندانا ذي الجيد الأتلع وسجلها قلم فجيورا الشيخ في القديم .

فاذا حلق بك موضوع الحيتان في أجواء الفضاء لم تعجز عن ان تستبين حيتاناً عظيمة في السماء ذات الحبك ، والقوارب تتعقبها مطاردة مثلما ان الاقوام الشرقية لطول ما امتلأت نفوسها بالتفكير في الحروب كانت ترى جيوشاً مشتبكة في ميدان القتال بين السحب ؛ وقد رأيت انا في الجهة الشمالية من الافق حوتاً وطارده حول القطب ورأيت دورات النقاط اللامعة التي صورته لعيني اول مرة . وتحت سماء القطب الجنوبي المتألئ، دنوت من كوكب « السفينة » وشاركت في مطاردة « كوكبة القاطوس » المتلانة بالنجوم وراء أقصى ما يمكن أن تمتد اليه « حياة البحر » و « السمكة الطائرة » - سمكة الخطاف .

وليستني اتخذ من مراسي الفرقاطة حكّاماتٍ لجامي ، وأجعل مهمازي حزمة من حراب وأمتطي ذلك الحوت وأثب به نحو كبد السماء لأرى ان كانت السماوات التي يحكون لنا عنها وعن طباقاتها العديدة تقع حقيقة وراء ما يدركه بصري البشري الكليل .

القشريات

بعد ان أبحرنا الى الشمال من جزائر كروزيت وقعنا في مروج مترامية تقطنها القشريات ، وهي تلك المادة الدقيقة الصفراء التي يفتذي بها الحوت الاتين في الاكثر . وكانت تتموج من حولنا على مدى فراسخ و فراسخ حتى كأننا كنا نبحر خلال حقول مديدة من السنابل الذهبية الصفراء .

ورأينا في اليوم الثاني أعداداً من الحوت الاتين ، تسبح فاغرة الأفواه في استرخاء خلال القشريات ، اذ كانت بمأمن من هجوم حوارة كالباقوطة هدفها صيد حوت العنبر دون سواء ؛ ولما كانت القشريات تلتصق بالألياف المهدبة في تلك « الستارة البندقية » العجيبة في أفواه الحيتان فان الماء وهو يمرّ عند الشفتين لم يكن يلامسها .

وكانت تلك الوحوش الاتينية تعوم محدثة أصواتاً غريبة كأصوات المناجل في الحشيش مخلفة وراءها شمالاتٍ لا نهاية لها من الزرقة على سطح البحر الاصفر . حتى كأنها حصادون بكروا للحصاد ووقفوا جنباً الى جنب وأخذوا في تؤدة وإصرار يدفعون مناجلهم خلال الحشيش الطويل البليل في مروج رطبة نشاشة* .

ولم يكن فيها ما يذكر المرء بالحصادين سوى ذلك الصوت الذي كانت تحدته وهي تشق مروج القشريات . أما اذا رآها المرء من قمم الصواري وبخاصة وهي متلبثة ساكنة لفترة من الزمن فانه يحسب أشكالها السوداء المستقيضة كتلاً من الصخور الجامدة ، لا أي شيء آخر . ومن رأى فصائل هذا اللويأتان في البحر اول مرة ، كان كالغريب الذي يجوب مناطق الصيد العظيمة في

* ان ذلك الجزء من البحر ويعرف بين الحواثين باسم « ضفاف البرازيل » لم يسم كذلك كما سميت « سفاف نيوفونديلاند » بهذا الاسم لوجود مواقع ضحافة . وأعماق غير بعيدة هنالك . وانما دعي بذلك لهذا المظهر الذي يشبه العرج وهو ناتج عن منحرفات هائلة من انقشريات تظل تعوم في تلك العروض حيث الصيادون كثيراً ما يطاردون الحوت الاتين .

الهند ، فانه احياناً قد يمر عن بعد بالفيلة مستلقية دون ان يميزها بل يحسب انها أكوام شاخصة مسودة من التراب . واذا أدرك المرء حقيقتها في النهاية لم يكذب يصدق وهو يراها في هذه الجسامة الهائلة ان عنصر الحياة في جميع أعضائها هو نفس عنصر الحياة التي فطر عليها الكلب او الحصان . ثم انك من بعض النواحي الأخرى لا تستطيع ان تواجه أية مخلوقات بحرية بالمشاعر عينها التي تواجه بها مخلوقات البر . نعم ذهب بعض علماء التاريخ الطبيعي القدماء الى ان لكل مخلوق على البر صنواً في البحر ، والحق أيضاً انك اذا شملت بنظرك المخلوقات في العالمين البري والبحري وجدت هذا الرأي صحيحاً في مجمله . ولكنك اذا أخذت تتأمل التفصيلات ألفت الامر مختلفاً . هل يستطيع البحر ان يدعي بأن لديه سمكة صنواً في وداعتها الوثيقة للكلب ؟ ان القرش وحده هو الذي يشبه بالكلب في الخلقة ، ولكن اي شيطان مرید هذا!

واين البر بعامة يلحظ قطان البحر بعين ملؤها التكره والنفور . ونحن نعلم كذلك ان البحر « ارض غفل أزلية مجهولة الهوية » ، حتى ان كولومبس لم يعن باكتشافها بل تجاوز في ابحاره عوالم مجهولة منها لا تحصى عدداً من أجل ان يكتشف البر الغربي التافه الذي كان مجهولاً . ثم ان أشد الكوارث المفزعة التي وقعت للانسان منذ أقدم الازمان ، وكأنما كانت خبط عشواء . قد أصابت ممن يركبون البحر عشرات الالوف او مئات الالوف . وكفى بلحظة من التأمل لتدلنا على ان هذا الانسان الصغير ، مهما يتجح بعلمه ومهارته . ومهما يزدد حظه منهما في مستقبل مرجو ، سيظل الى الابد ودهر الداهرين مهيناً ضعيفاً يهينه البحر ويقتله ويسحق أفخم فرقاطة وأصلبها من صنع يديه . ومع ذلك كله فان تكرار هذه الامور باستمرار جعل الانسان يفقد إحساسه برهبة البحر الكاملة ، تلك الرهبة التي تفتن باسم البحر منذ بدء البدء .

وأول سفينة قرأنا عنها إنما عامت على صدر طوفان - بحرٍ محيط - أغرق عالماً كاملاً - كأنما ينتقم انتقاماً برتغالياً - دون أن يبقي على أرملة واحدة . ومازال ذلك المحيط يهدر حتى اليوم ، وهو هو الذي حطم سفن العام المنصرم . أجل ايها الأحياء الحمقى ان طوفان نوح لم يفض ؛ فما يزال يغطي ثلثي هذا العالم الجميل .

بأي شيء يفترق البحر عن البر حتى ان المعجزة على احدهما لا تعد معجزة في الآخر ؟ : ضروب الرعب الخارق حلت بالعبريين حين فتحت الارض فاها تحت قدمي قورح وصحبه وابتلعتهن الى الابد^(١) . وها هي الشمس لا تغرب اليوم دون ان يتلع البحر سفائن وملاحها على النحو نفسه ، ثم لا يقال : هذه معجزة!

(١) انظر سفر العدد : ١٦٠ .

لا عجب ان يكون البحر عدواً للانسان فان الانسان اجنبي عنه ولكن ماذا تقول اذا عرفت انه شيطان مريد في معاملته لنسله وأبناء صلبه : لهو أسوأ من المضيف الفارسي الذي ذبح ضيوفه أنفسهم^(١) ، فهو لا يوفر المخلوقات التي تنتج فيه . البحر كأثني النمر الضارية ، هي تدوس ابناءها وتكفأهم اذ تنقلب في الغاب ؛ وهو يدفع بأقوى الحيتان نحو الصخور ويتركها لقي الى جانب حطام السفن المتناثرة . لا رحمة لديه ولا قوة تضبطه الا قوته ؛ البحر الشامس يفمر الارض لاهتاً ناخراً كأنه جوادٌ خربٍ هائج مجنون قد تجندل عنه فارسه .

ثم تأمل مكر البحر ودهائه : معظم مخلوقاته المخوفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في اكثر الاحوال ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل صبغ من اللون اللازوردي . وتأمل ايضاً اللآلء والجمال الشيطاني لدى كثير من فصائله التي تعد أشدها قسوة ، شأن كثير من فصائل القرش ذات الاشكال الانيقة المبرقشة . ثم تأمل كرة أخرى القرم العام في البحر لأكل اللحوم فكل مخلوقاته يتفارسن ويخضن فيما بينهن معركة أزلية منذ بدء الخليقة .

تأمل كل هذا ثم اعطف البصر نحو هذه الأرض الخضراء الوديعة الطيبة اللينة . تأملهما كليهما أعني البحر والبر ، ألا ترى فيهما شبيهاً لشيء مستقر في نفسك ؟ اذ مثلما ان هذا المحيط المهول يحف بهذا البر الأخضر كذلك فان في روح الانسان جزيرة حافلة بالسلام والبهجة - كأنها تاهيتي - ومحفوفة بمرعبات هذه الحياة التي لم تكد تنجلي لنا . رعاك الله! لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابداً!

(٢) الإشارة غير واضحة الدلالة ، فلا نعرف من هو هذا المضيف الذي يتحدث عنه .

السيدج^(١)

خاضت الباقوطة مروج القشريات في أناة وتؤدة ، جاعلة طريقها في اتجاه شمالي شرقي نحو جزيرة جاوة ، والنسيم العليل يحتثها ، فتمايل صواربها الثلاثة السامقة في تلك السكينة الشاملة ، في لطف ودعة تحت لمسات النسيم الواهن ، كأنها ثلاث نخلات وديعات في بسيط من الأرض . وخلال فترات متباعدة في الليالي المقمرة كانت النفاثة المتوحدة الفرارة ماتزال تستبين .

ولكن ذات صباح أزرق شفاف وقد غشى البحر سكون يكاد يتجاوز المعهود دون ان يكون مصحوباً بركود فاطر ، وومض الشمس اللامع في الامواه كأنه اصبح ذهبية ممدودة تتلمس المتعة في تحسس خبايا الماء ، والامواج المنقلة تتهاوس فيما بينها وهي تمشي في رقة ونعومة ، في تلك الهدأة العميقة التي رانت على الكون المنظور لاح لعيني دغة وهو في قمة الصاري الاكبر صولجان عجيب الشان .

برزت على البعد في استرخاء كتلة ضخمة بيضاء ، وارتفعت واشتد ارتفاعها ، وتخلصت مما أحاط بها من لون لازوردي ، والتمعت أخيراً أمام سفينتنا كأنها واجهة ثلجية انزلقت لتوها من المرتفعات . وتوهجت لحظة ثم انكمشت في بطنه وغطست في الماء ، ثم برزت مرة اخرى ولمعت في سكون وبدت كأنها ليست حوتاً إلا ان دغة قال في نفسه : أهذا هو مويبي ديك ؟ وغاص ذلك الشبح مرة اخرى ، غير انه حين تبدي ثانية صاح الزنجي صيحة كأنها الخنجر المستطيل أفرغت كل امرى من غفوته وهو يقول : «هناك! هناك أيضاً! هناك يتبدي! أماننا تماماً! الحوت الابيض! الحوت الابيض!» .

(١) Squid .

وحين سمعها البحارة اندفعوا نحو سواعد الدعامات ساندات الاشرعة مثلما تندفع النحل في موسم الاشتيار نحو الاغصان . ووقف آخاب تحت وهج الشمس اللاذعة مكشوف الرأس عند الدقل الامامي المائل وقد دفع احدى يديه الى الوراء ، على أهبة تحريكها بالأوامر لقيم الدفة ، وحدق بنظرته اللاهفة في الاتجاه الذي عينه دغة في الاعالي بذراعه الممدودة الثابتة .

أترى بروز تلك النفاثة الوحيدة المتوحدة تبعاً قد فعل فعله في نفس آخاب تدريجياً حتى لم يستغرب اللطف والدعة في منظر ذلك الحوت الذي كان يطارده حين لاح لعينيه ؟ أترى خاتمه لهفته ؟ اياً كان الامر فانه ما كاد يستبين تلك الكتلة البيضاء حتى ذهب في حماسة عجلي يلقي أوامره بانزال القوارب توأ .

وسرعان ما كانت القوارب الاربعة فوق الماء ، وآخاب في المقدمة ، والجميع يجذفون مسرعين لادراك الطريدة . وسرعان ما غطست الطريدة في الماء ، فتوقفت مجاذيفنا ونحن نرقب عودتها ، مهلاً في نفس البقعة التي غطست فيها برزت مرة اخرى في ببطء . ومرت بنا لحظة كدنا ننسى فيها كلّ الخواطر عن موبى ديك ، وحدقنا في أغرب ظاهرة جلاها البحر الخفي لعين بشر حتى ساعثنذر . على الماء كانت تعوم كتلة مديدة هلامية تبلغ عشرات اليارات طولاً وعرضاً ، ذات لون ذي تبريق كأنه الزبدة ، وقد تفرعت من وسطها أذرع طويلة لا تحصى ، وهي تتمعج وتتلوى كأنها عش فيه ثعابين الانكونه ، وكأنها تخبط خبط عشواء لتمسك بأي شيء يصادف ان يكون في متناولها . وليس لها وجه واضح الملامح او مقدم ، ولا فيها أماراة محسوسة تدل على ان لها احساساً او غريزة ، وانما هي تتموج فوق اللجج كأنها طيف من شيء حي ، لا شكل له ، شيء لا ينتمي الى احياء هذه البسيطة وانما وقع بينها ووقوع المصادفة العارضة .

واختفت مرة اخرى ببطء في صوت كامتكاك الضرع ، وكان استاربك مايزال يحدق في الامواء المهتزة حيث غاصت ، فصاح بصوت غريب : « أكاد أوتر أنني رأيت موبى ديك وحاربه على ان اكون رأيتك ايها الشبح الابيض ! » .

فقال فلاسك : « أي شيء هو هذا يا سيدي ؟ » .

- « هذا هو السبيديج الحي الهائل الذي يقولون فيه : ما اقل السفن التي شاهدته وكتب لها ان تعود الى موانيها لتحدث عنه » .

أما آخاب فلم يقل شيئاً ، وأدار قاربه وعاد الى السفينة وتبعه الآخرون في صمت كصمته .

مهما يكن شأن الاساطير التي يقرنها صيادو حوت العنبر عموماً بمنظر هذا المخلوق فمن المستيقن ان ما يلمحونه لمحا من شذوذ في تكوينه قد أثر في نفوسهم تأثيراً بعيداً

حتى نسبوا اليه الارهاص بالويل والشؤم . وهو قلما يبدو للعيان حتى انك قلما تجد بينهم من لديه سوى أشد التصورات غموضاً حول طبيعته وشكله ، وان كانوا - وحداناً ومجتمعين - يصرّحون بأنه أضخم ذي نسمة في قطّان المحيطات . وعلى رغم ذلك كله تجدهم يعتقدون انه الغذاء الوحيد الذي يقّات به حوت العنبر . اي ان أنواع الحيتان الأخرى تجد غذاءها فوق سطح الماء ، فيراها الناس وهي تتناول طعامها ؛ إلا حوت العنبر من بينها فانه يصيب طعامه في مناطق مجهولة تحت سطح الماء ، ولا أحد يستطيع ان ينبيء من اي شيء يتألف غذاؤه الا استنتاجاً ، واذا اشتدت عليه وطأة المطاردة أحياناً تقيأ ما يظن انه أصلاء من أذرع السبيدج ، وبعضها يبلغ طوله ما يزيد على عشرين قدماً وعلى ثلاثين . وهم يتوهمون ان الوحش الذي له مثل هذه الأذرع يتشبث بها ممسكاً قاع البحر وان حوت العنبر على خلاف الانواع الأخرى مزوّد بأنياب تمكنه من مهاجمة ذلك الوحش وتمزيقه .

ولا بأس على من تصوّر ان الكراكن الضخم الذي ذكره الاسقف بوتوبودان^(١) قد يكون هو السبيدج . فالاسقف يقول في وصفه له انه يراوح بين البروز والغوص ؛ وهذا الذي قاله مع دقائق أخرى أوردتها ايضاً تجعل وجه الشبه بين الاثنين كاملاً ؛ غير ان من الضروري ان تخفف من غلوه في تقدير حجمه المهول فان ما ذكره يجاوز حد التصوّر والتصديق .

وقد سمع بعض علماء التاريخ الطبيعي على نحو مبهم شائعات عن هذا المخلوق العجيب الذي اتحدث عنه ها هنا فأدرجوه في صنف سمك الحبار ، وهو حقاً ينتمي الى هذا الصنف فيما يبدو اذا اعتبرنا بعض المناحي الظاهرية فيه ، ولكننا ان عددناه في تلك القبيلة وجب علينا ان نعهده وحده «جبارها» العملاق .

(١) لهذا الاسقف كتاب عنوانه «تاريخ الترويج الطبيعي» (١٧٥٢ - ١٧٥٣) يصف فيه الكراكن فيقول ان ظهر هذا الحيوان او الجزء العلوي منه يبدو وكأن محيطه ميل ونصف ميل (وبعض الناس يؤكدون انه اكبر من ذلك) لذا لاح لك لأول وهلة حسبه مجموعة من جزر صغيرة محنوفة بشيء عائم كأنه اعشاب بحرية...الخ .

حبل الصيد

بعد قليل أصف مشهداً من مشاهد التحويت ، ومن اجل ان يحسن القارىء فهم هذا المشهد وما اشبهه من مشاهد ، سأتحدث عنها في مواضع اخرى من هذا الكتاب . أرى ان اتحدث في هذا المقام عن هذا الحبل السحري ، حبل التحويت الذي يكون احياناً مفزِعاً .

كان الحبل الذي يستعمل في السماكة اصلاً يصنع من خير أصناف القنب ، وقد غُيّر ببخار القار دون ان ينتفع فيه مثلما تعالج الحبال العادية . حقاً ان القار اذا استعمل استعمالاً عادياً يجعل القنب ألين مراساً لدى الحبال ، ويجعل الحبل نفسه أصلح لدى البحار في شؤون الملاحة العامة ، ولكن غمس الحبل في القار يبس حبل التحويت فيتسمر لفته لفاً دقيقاً ، وهو ما لا بد للحبل ان يؤديه . وقد يمنح القار للحبل لمعاناً وإحكاماً في الجدل ، ولكن معظم البحريين اخذوا يدركون انه بعامه لا يزيد شيئاً في قوة الحبل او في طاقته على البقاء ابدأ .

وفي السنوات الاخيرة كاد حبل مانيللا ان يحلّ في السماكة الامريكية محلّ القنب في صنع حبال التحويت . وحبل مانيللا أقوى وأشد نعومة و مرونة من القنب وان لم يكن مثله في طول العمر . وأحب ان ازيد على هذا بأنه اجمل وأليق بالقارب من القنب (ولا بدع في قولي «أجمل» فني كل شيء، عنصر جماليّ) . فالقنب قاتم معتم يشبه ان يكون هدياً أما «المانيللا» فانه اشقر الخصلات كأنه قفقاسي .

ويبلغ حبل التحويت في سُمكه ثلثي بوصة ، وقد لا تظنه لاول وهلة قوياً حسبما هو حقاً ، فاذا اختبرته وجدت كل طاقة من طاقاته الاحدى والخمسين تحمل وزناً يبلغ مائة وعشرين رطلاً ؛ فالحبل المبروم يتحمل شداً يوازي ما يقرب من ثلاثة أطنان . أما طول الحبل العادي من حبال صيد حوت العنبر فانه يزيد على مائتي باع . وعند كوثة السفينة يلف حلزونياً في البرميل لا كما يلف انبوب التقطير لولبياً متعرجاً ، بل بحيث يصنع لفافة

واحدة في شكل كتلة دائرية من الجبن ذات طبقات مبسطة او حلزونية متراكبة متحدة في المركز ، ليس فيها تجويف الا في « قلبها » ، او يكون في محور رحاها انبوب دقيق عمودي . وأقل تشويش او التواء في اللف قد يذهب عند ارسال الحبل بذراع هذا او رجل ذاك او جسمه كله لا محالة ، ولذلك تبذل اقصى الحيلة في ايداع الحبل في البرميل حتى ان بعض الرماحين ينفقون غداة كاملة في هذا الشأن ، فيحملون الحبل الى اعلى ثم يشدونه الى اسفل من خلال بكرة نحو البرميل كي ينفوا عنه عند لفة اي التواءات او تعقصات ممكنة .

وتستعمل القوارب الانجليزية برميين لا واحداً بحيث يلف الحبل دائماً في البرميلين كليهما ؛ وفي هذا فائدة ما ، اذ ان هذين البرميين صغيران ومن ثم يقمان موقعاً ملائماً في القارب فلا يهبطانه كثيراً اما البرميل الواحد في القارب الامريكى فان نصف قطره يبلغ ثلاثة اقدام وله من العمق ما يناسب ذلك ، وبذلك يكون ثقيلاً على قارب لا يتجاوز سمك لوح الخشب فيه نصف بوصة . اذ ان قعر قارب التحويت يشبه الجليد المتماسك في مقاومته ، اي يتحمل قسماً غير قليل من الوزن ان جعلته موزعاً ولكنه لا يتحمل كثيراً اذا جعلت الوزن كله في موقع واحد . فاذا غطي برميل الحبل في القارب الامريكى بالخيش المقوى المطلي بدا القارب وكأنه يجر « كعكة » عرس كبيرة ليهدبها الى الحيطان .

وكلا طرفي الحبل مسيبان ظاهران ؛ فأما الطرف الادنى فانه ينتهي بأنشوطة او عروة صاعدة من القاع بمحاذاة جانب البرميل ، وتتدلى على حافته طليقة دون ان تكون عالقة بأي شيء . وهذا النوع من التدبير في الطرف الادنى يعد ضرورياً لسببين ، أولهما ؛ ان يسهل اضافة حبل آخر من قارب مجاور يربط بذلك الطرف ان كان الحوت الجريح قد نأى بعيداً في الاعماق بحيث يخشى ان يستنفد طول الحبل الاصلي المربوط بالرمح . وفي هذه الاحوال ينقل الحوت من قارب الى آخر كأنه طاسٌ من الجعة غير ان القارب الاول يظل دائماً يدوم عن كسب ليعين قرينه . وثانيهما ؛ ان هذا التدبير لا غنى عنه من أجل السلامة اذ لو ان الطرف الادنى من الحبل ربط بالقارب وجرى الحوت فاستنفد طول الحبل كله حتى نهايته في لحظة خاطفة مثلما يفعل أحياناً فانه لن يتوقف ثمة ، واذن لجر القارب البائس حتماً الى الاعماق في أثره ، وفي هذه الحال لا يستطيع من ينشد الضوأل ان ينفعه نشدانه .

وقبل انزال القارب للمطاردة يستخرج الطرف الاعلى من البرميل نحو المؤخرة ويمرر حول المثقلة ، ثم يسحب الى الامام بطول القارب بحيث يقع مستعرضاً على يد كل مجداف حتى انه يمسّ رِغ المجدف حين يحرك مجدافه ويمر بين المجدفين ، وهم متراوحون في جلساتهم عند الحافتين ، ذاهباً الى المعقفات الخُطافية المظفة بالرصاص في أقصى طرف

الجوجو « المروس » حيث يقوم وتد خشبي أو سفود بحجم القلم العادي يحول دون انفصاله . ويتدلى من المعققات في تقويس خفيف فوق مقدمة القارب ثم يمرر داخل القارب ثانية ، وتلف منه عشرة باعات او عشرون حول الصندوق في المقدمة (وتسمى هذه حبل الصندوق) ثم يمضي الى الحافة مقترباً من المؤخرة ، ثم يوصل بالسداة القصيرة اعني الحبل الذي يرتبط مباشرة بالرمح ، وقبل ان يتم هذا الوصل تكون السداة القصيرة قد ذهبت في مسارب ومعميات عديدة ووصف ذلك كله في اسهاب يبعث على الملل .

كذا يطوق حبل الصيد القارب كله بين لفائفه العويصة متشياً متمعجاً في كل وجه ، وقد طوى جميع رجال التجذيف بين حناياه الخطرة ، فلو رآهم أحد ابنا البز الخوارين لتمثلهم حواة من مشعبذي الهنود ، والحيات الناكزة تتلقب وتتحوى حول أذرعهم . وليس يستطيع ابن انثى من البشر اول مرة ان يضع نفسه بين هذه الاحابيل الممرسة وان يتصور وهو يشد صلبه مستوتراً عند المجذاف ان الرمح قد يزرقه زرقاه في أية لحظة مجهولة ، وان هذه الاحابيل المريعة ستدور دورتها كأنها ومضات برق دائري . لن يقع هذا الموقع دون ان تعتريه هزة تجعل النخاع نفسه في عظامه يرتعش كأنه هلام يترجرج . ولكن العادة مألوفة ؛ يا للفرابة! أي شيء تعجز العادة دونها انك لا تسمع وأنت على أريكة في ديوانك ملحاً مستطرفة ومرحاً عابثاً ونكتاً حارة أو أجوية مفحمة بأكثر مما تسمعه فوق قارب التحويت الذي لا يبلغ سمك جداره الشريبي الابيض اكثر من نصف بوصة وهو مشنق في أنشودة المنية ، وكان الملاحين الستة فيه هم الستة المواطنين من كاليه يقفون أمام الملك ادوارد^(١) ، وأولئك الملاحون يجذفون عامدين الى فكي الموت وربما قلت : وحول كل عنق من اعناقهم يلتف حبل المشنقة .

ولملك لو وقفت تتأمل الامر على نحو خاطف لاستطعت ان تعلق لتلك الكوارث المكرورة في التحويت - وقليل منها الذي دون عرضاً واتفاقاً - أعني الكوارث التي تسمع فيها ان هذا المرء او ذاك قد سحبه الحبل من القارب ومضى فقيداً . اذ ان المرء اذا جلس في القارب والحبل ينطلق كان كمن يجلس وسط الأزيز المتنوع الذي ترسله الآلة البخارية وهي تعمل حيث كل ذراع طائر أو اسطوانة دائرة او عجل دوار كأنما يتهب منه ويشتلي مزعاً . بل لعل الأمر في القارب أسوأ من ذلك لان المرء لا يستطيع ان يتلبث ساكناً دون حراك وهو في جوف تلك المخاطر ما دام القارب يتأرجح كالسرير ويميل به الى هنا وهناك

(١) بعد معركة كريسبي عام ١٢١٦ حاصر ادوارد الثالث مدينة كاليه مدة ثرمو على سنة ، ولما انطرت المدينة للتسليم تقدم اليه ستة من ابناها وفي رقابهم الحبال لينتدوا المدينة من مذبحه كان يزعمها ادوارد بهذا القدا .

دون ان يأخذ حذره ، و لولا قدر من رباطة الجأش ومن التوافق الأنبي بين الحزماءه والدأب لما استطاع ان ينجو من ان يغدو « مازقاً »^(١) ويتطوح الى حيث لا تستطيع عين الشمس النفاذة ان تحقه .

وأقول : مثلما ان السكون العميق الذي يسبق العاصفة ويرهص بها ربما كان أحفل بالرهبة من العصفه نفسها ، لان السكون في الحق ليس إلا غلاباً وسجلاً يطوي العاصفة ويحتويها في سريرة ذاته كما تحتوي البندقية المكفوفة الاذى في ظاهرها ما فيها من بارود قاتل ورحاصة وانفجار ، كذلك الحبل ابان استقراره الهاجع الظريف وهو يسترسل متعرجاً حول رجال المجاذيف قبل ان ينشط الى الحركة فان فيه وهو في هذه الحال من الرعب الاكيد اكثر من أي مظهر آخر في هذه المهنة الخطرة . ولم أسترسل ؟ كل الناس يمشون وحبال التحويت تلتف من حولهم ، كلهم ولدوا وأواخي المشانق معقودة حول أعناقهم ، ولكنهم لا يتبينون مخاطر الحياة المتلبدة الماكرة التي لا تغفل ولا تغيب ابدأ الا حين يوهقهم الموت المفاجيء . الوحي ويجذب الانشطة . وان كنت فيلسوفاً وجلست في قارب تحويت لم تحسن في قلبك قدر قلامة ظفر من الرعب اكثر مما تحسن به وأنت جالس في المساء أمام الموقد والى جانبك سفود تقلب به النيران ، لا رمح تصيد به الحيتان .

(١) Mazeppa منوره بيروت في احدى قصائده وقد ربط الى حسان شمس ، واتته الزوج الفانر ليجري به حداً .

اسطبل يصيد حوتاً

اذا كان استاريك قد رأى في طيف السيدج نذيراً بالشؤم فان الامر فيه لدى كويكوج كان غير ذلك .

قال ذلك الهمجي وهو يشخذ رمحه على صدر قاربه الرابي : « عندما هو تراه البيدج ، انت هو في أثره ترى حوته أنبر » .

وكان اليوم التالي مسرفاً في السكون والقيظ ، ولم يكن ملاحو الباقوطة منهمكين في أي شيء ، ولذلك كاد يغلبهم سحر النوم الذي كان يغريهم به ذاك البحر الفضاء . ذلك ان هذا الجزء من المحيط الهندي الذي كنا مبحرين فيه ليس هو ما يسميه الحواتون : « المجال الحافل » أي ان ما فيه من البربور والدلفين والسّمك الطيّار وغير ذلك من القطان المرحين في بحار اخرى أشدّ توثباً واضطراباً ، يُقدّ أقل بكثير من تلك الاصناف الموجودة على موازاة ريو دي لبلاطه او في المجال المساحل عند بيرو .

جاء دوري لاقف على مرقب الصاري الامامي فاستندت بكتفي على الاشرعة الملوكية المسترخية وأخذت أتأرجح متكاسلاً فيما حسبه جواً مسحوراً . أي حزم لا يتلاشى أمام هذا السحراً في تلك الوقفة الحاملة فقدت كل صحو واع ، وبارحت روحي مسكنها الطيني في النهاية ، وان ظلّ جسدي يتأرجح مدة طويلة كأنه الرقاص بعد ان انسحبت منه القوة التي حركته أولاً .

وقبل ان تلفني غشاوة النسيان لحظت ان الرقيبين الواقفين على مرقب المظلين ومرقب الصاري الرئيس قد أدركتهما سنة من نعاس ، حتى كنا ثلاثتنا في النهاية تتأرجح على السواري وقد بارحتنا الحياة ، وازاء كل خطوة نقوم بها خفقة يخفقها رأس الرجل القيم على الدفة وهو مستغرق في نومه ، وكانت الامواج ايضاً قد تركت ذوانبها المسترخية تخفق

وتنوس ، وعلى مدى الماء الذي ذهب في غيبوبة مديدة كان الشرق يهز رأسه الناعس نحو الغرب ، وعين الشمس تومض في الاعالي .

وفجأة أحسست الحب يثور دون عينيّ المغلقتين ، ويداي تتشبعان بالاشرعة كأنهما كلابتان . وقتني عناية خفية مباركة . عدت الى الحياة مذعوراً . حيناً على كعب من يسارنا ، على بعد لا يجاوز اربعين باعاً ، يتدحرج حوت عنبر ضخم في الماء ، كأنه هيكل فرقاطة منكس ، وظهره العريض الأملس ذو اللون الحبشي يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه صفحة مرآة . وخيل اليّ ان هذا الحوت وهو يتموج في ذلك العوض المائي ويطلق في هدوء نفائسه البخارية على نحو متواصل انما يشبه مواطناً مهيباً جسيماً يدخن غليونه في عصر يوم دافئ^(١) .

ولكن هذا الغليون ايها الحوت المسكين كان آخر واحد تستمتع به . لكأن السفينة الناعسة وكل ناعس ينوض فيها مسّتهم جميعاً عصا ساحر فأجفلوا مستيقظين وانطلقت عشرون حنجرة أو تزيد ، من جميع جوانب السفينة هي وحناجر الرقباء الثلاثة في الاعالي ، في وقت معاً ، وكلها تبعث الصيحة المعهودة حين كان الحوت الجسيم ينفث ، في أناة وانتظام ، الماء الأجاج الوهاج في الفضاء .

فصاح آخاب : « انزلوا القوارب! صوبّ الرياح! » وأطاع أوامر نفسه فأنزل الدفة قبل ان يستطيع قيمها ان يدير الدواليب .

الصيحات المفاجئة التي أرسلها الملاحون أفزعت الحوت ، ولا بد ، فقبل ان تنزل القوارب استدار في خيلاء ، وسبح مبعداً في اتجاه الرياح في سكينه واثقة ، محدثاً بعض التفضنات في سبحة ، فقدر آخاب ان الفرع لم يدركه بعد ، وأمر ان تتوقف المجاذيف وان لا يتكلم احد الا همساً ، وجلسنا على حوافي القوارب كأننا هنود أو تتاريو ، وسرينا في اليم مسرعين صامتين اذ كان الهدوء المخيم لا يسمح بنشر الاشرعة وان كان نشرها لا يحدث صخباً ، وفيما نحن ننساب في هذه المطاردة رفع الوحش ذنبه عمودياً في الهواء على مدى اربعين قدماً وغاص محتجباً عن الانظار كأنه قلعة خسفت بها الارض .

وارتفعت الصيحة : « ها هما شطرا الذنب! » وما ان سمعها اسطب حتى استخرج علبه التقاب وأشعل غليونه اذ أصبح التمهّل محموداً . وبعد ان قضى الحوت دورة القمس كاملة برز ثانية وهو متقدم امام قارب الرجل ذي الغليون وان كان أقرب اليه من سائر القوارب . فعلل اسطب نفسه بشرف الفوز وبدا واضحاً حينئذ ان الحوت أدرك انه مطارد ، ومن ثم غدا

(١) كان ملغل وهو مولندي الدماء من ناعبة الام مفرماً بهذه الصورة التي تدل على الدعة البرجوازية .

كل صمت طلباً للحبشة قليل الجدوى فتركنا التجذيف الهين وأخذنا نعمل المجاذيف الكبيرة
 جهرة وأخذ اسطب يشجع ملاحيه على الهجوم وهو ما يزال ينفث دخان غليونه .
 نعم حلّ بالحوت تغير خطير الشأن ، فقد كان على وعي بأنه يعرض نفسه للتهلكة اذ
 كان يجري « بارز الرأس » وقد تتأ بانحراف ذلك الجزء منه من خلال الزيد المجنون الذي
 كان يمحضه* .

وكان اسطب يقول وهو ينفث الدخان بصوت مسموع اذ يتكلم : « ادركوه ، لاحقوه يا
 رجال! لا تتسرعوا ، لديكم وقت كافٍ ولكن ادركوه ، اتبعوه كأنكم هزومات رعد ، وذلك
 حسبكم . ها الآن ادركوه ، نريد ضربة مديدة سديدة يا طاشطيقو . دراك يا طاش يا بني -
 دراك جميعاً . كونوا هادئي الاعصاب ، ظلّوا هادئين - في برود كثمر الخيار . هوناً ، هوناً ،
 لكن ادركوه كأنكم الموت العبوس والشياطين المكشرة وابعثوا الموتى واقفين على أرجلهم
 من قبورهم يا أبنائي . هذا ما نريد . أدركو!»

وردّ الجايهيدي صانحاً : « وو - هو - وا - هي » مرسلأ الى عنان السماء احدى
 صرخات الحرب المعروفة ، وعندها وثب كل مجذف عفواً الى الامام في القارب المجهد مع
 الضربة الاولى الهائلة التي أرسلها الهندي اللهيف .

أجاب آخرون على صيحاته الوحشية بصيحات مثلها فزعق دغة : « كي - هي! كي -
 هي! » وهو منتصب يميل أماماً وخلفاً في مقعده كأنه نمر يتخطر في نفسه .

وصاح كويكوج : « كا - لا - كو - لو » كأنه يتمطق بعد ان حشا فمه بشريحة لحم .
 وهكذا شقت القوارب وجه الماء بالمجاذيف والصرخات بينا كان اسطب ما يزال في موقفه في
 الطليعة يذمر رجاله ويحفزهم على الهجوم ، وهو طوال ذلك كله ينفث الدخان من فمه .
 كانوا كالمجرمين المستبسين يكدون ويجهدون حتى سمعوا صيحة الاستبشار : « قف
 طاشطيقو . عليك به » وطار المزراق . « تجانفوا نحو المؤخرة! » وانحاز المجذفون للخلف
 وفي اللحظة نفسها ذهب شيء ساخن ذو حسيس ماراً عن معاصمهم . ذلك هو الحبل
 السحري ، وكان اسطب قبل لحظة قد استبقى منه في سرعة دورتين إضافيتين حول المثقلة ،
 ولذلك انبعث منه وقد اشتد تسارعه عند نشره ، دخانٌ قثبي أزرق اختلط بنفثات الدخان

* سيرى القارئ في موضع آخر من أية مادة خفيفة يتألف القسم الداخلي من رأس حوث العنبر الضخم . فهو في ظاهره اكبر اجزائه
 حجماً ، ولكنه أضعف سرورة حتى انه ليرفقه في القضاء بيسر . وكثيراً ما ينفذ ذلك وهو ماضٍ بأقصى سرعة . ثم ان الجزء العلوي من
 جبهته واسع كثيراً ، وتكوين الجزء السفلي الذي يشق به الماء مستدق كثيراً حتى انه اذا رفع رأسه موارباً منحرفاً فقد يقال انه حوث
 نفسه من جليوت متفتح الجوزجوز مترهل الى قارب نيويوركي مستدق حاد الجوزجوز .

الصاعدة من الغليون . وحين مضى دائراً حول المثقلة وقبل ان يصل ذلك الحد ، مضى خلال يدي اسطب يجردهما ويخدهما بالجراح اذ كانت قلعتهما الخيش المحشوتان اللتان تلبسان في مثل هذه الظروف لوقاية الايدي قد سقطتا مصادفة . وكان شأنه في هذا كمن يمسك سيف عدوه ذا الحدين من شفرته ، وعدوه يحاول طوال الوقت ان ينتزعه من قبضته .

« بلّ الحبل! بلّ الحبل » - كذلك صاح اسطب للقائم عند البرميل من رجال التجذيف فنزع هذا قبعته وغرف بها من ماء البحر وصبه على الحبل* ، وأرخوا الحبل دورات أخرى حتى استقر في موضعه وعندئذ طار القارب في الماء السامط كأنه قرش مغطى بالزعانف فحل اسطب محل طاشطيقو ، اي ذهب الى المقدمة ، ورجع طاشطيقو الى المؤخرة وليس يتم ذلك دون ترنج وتأرجح في تلك الهيئة المتمايلة .

لو انك رأيت الحبل المتذبذب ممتداً على طول الجانب العلوي من القارب ورأيتَه وقد غدا مشدوداً موتراً اكثر من وتر القيثارة لظننت ان القارب له أرينتان ؛ واحدة يشق بها الماء وثانية يشق بها الهواء وهو يتمخض ماضياً بين العنصرين اللذين يقاومانه معاً . وأخذ شلال دافق من الماء يلعب عند صدر القارب ودوامة تدور في المخر دون توقف ؛ وعند أية حركة خفيفة من داخل القارب ولو كانت تحريك البنصر كان القارب المتذبذب المققع يميل على حافته المتشنجة في الماء . كذلك اندفعوا وكل امرىء منهم تشبث بمقعدِهِ بكل ما أوتيه من قوة لكيلا ينطرح بين الزبد ، وقد تطوى جسم طاشطيقو الفارع على المجذاف الموجه مفرصاً كأنه مشني كي ينزل مستوى مركز الثقل ؛ وخيل اليهم أنهم اجتازوا محيطات اثر محيطات وهم منطلقون في مسيرهم حتى خفف الحوت قليلاً من سرعة هروبه .

وصاح اسطب بالرجل القائم في المقدمة ؛ « شداً شداً » ثم استداروا بوجوههم نحو الحوت وأخذت كل الايدي تسحب القارب نحوه ، بينما كان القارب مايزال ينجرّ قدماً بقوة اندفاع الحوت فلما أصبح القارب على موازاة جانبه أثبت اسطب ركبته في القليط الأرعن ووزق الحوت الطائر بحربة اثر أخرى . ثم ألقى أمره فانحاش القارب متقاعساً عن طريق متمرغ الحوت الرهيب ثم استدار ليحاذيه من أجل القيام بهجمة أخرى .

حينئذ كان الدفق الاحمر ينصب منهراً من جميع جوانب الحوت كأنه جداول تتدفق منحدره من الشلال . ولم يكن جسمه المشخن يتقلب في زيد بل في دم يعبّ ويطفح بالنفاخات مسافة باعات كثيرة في مخر القارب ، وتموجت أشعة الشمس المائلة على هذا

* قد أقول هنا لأدلّ على ان هذا أمر لا غنى عنه بأنهم يستملون في السماكة الهولندية قديماً سحمة يمسرون منها الماء على الحبل المسترسل كما كانت سفن كثيرة أخرى تزوّد بباريق او منشل لهذه الغاية . أما القبة فهي أطلح الادوات جيماً .

الحوض القرمزي في البحر فانعسكت في كل وجه ، حتى ان كل من نظر منهم في وجه صاحبه حسبه أحمر اللون . وطوال ذلك كله كانت تنطلق بألم مبرح من متنفس الحوت نفثة اثر نفثة من الدخان الابيض ، ونفثة اثر نفثة من فم الرانس الشائر وهو يزرقه بالحراب ؛ وكلما جذب حربة معوجة منها (بحبل موصول بها) قومها مرة بعد مرة بضربها ضربات متلاحقة على الحافة ثم قذف بها في جسم الحوت واستعادها وهلم جراً .

فصاح اسطب عندها بالرجل القائم عند المقدمة وقد أخذ غضب الحوت الداوي يبرد ؛ «قرب منه! قرب» فحاذى القارب جانب الحوت ، فلما بلغ اسطب المقدمة أخذ يدس ببطء حربته الطويلة النافذة في الحوت ويبقيها هنالك ويوسعه مخضاً وإنهاراً في أناة ورفق كأنه بحيطته هذه يحاول ان يتحسس ساعة ذهبية كان الحوت قد ابتلمها ، ويخشى هو ان يكسرها قبل ان تعلق بها صنارته . الا ان تلك الساعة الذهبية كانت هي الحياة الدخيلة في الحوت ، وها هي قد طمعت فقد أجفل الحوت من غيبوبته وذهب في حال لا يستطيع وصفها تسمى «حلاوة الروح» فأخذ يتمرغ تمرغاً مفزعاً في دمه ، وتلفع برشاش مجنون لاذع لا يستطيع اختراقه ، حتى ان القارب الناشب في الاخطار انحاز على التو متأخراً وبذل جهداً جاهدأ وهو يتخبط ليخرج من ذلك الغبش الهانج المجنون الى وضح الفضاء والهواء .

وقرّ الحوت بعد تنفض ، وانقلب بمرأى من الملاحين ، من جنب الى جنب ، وهو يبسط فوهة نفائته ويقبضها على نحو متقطع بشهقات وزفرات حادة مصلصلة مبرحة . وأخيراً انطلقت في الهواء المفزع دفقة اثر دفقة من الدم العبيط القاني المتشخر كأنه الدردي الأرجواني المترسب من الخمرة الحمراء ، وسقط مرة أخرى وهوى يقطر جانبيه الهامدين في الأمواه . ذلك قلبه قد انفجرا

قال دغة : « مات يا سيدي! »

فقال اسطب : « نعم فان غليونيه الاثنين قد خمدا » . وسحب هو غليونه من فمه ، ونفض الرماد الهامد فوق الماء ، ووقف لحظة يتأمل الجثة الجسيمة .

المزراق

لا بد من كلمة تقال في شيء، عرضنا له في الفصل السابق .

جرت العادة المستديمة في السماكة ان يفصل قارب التحويت مبتعداً عن السفينة والرائس فيه او قاتل الحوت هو الموجه المؤقت ، والزراق او مقيد الحوت هو الذي يقوم على المجذاف الأمامي ، ويسمى هذا المجذاف باسم مجذاف الزراق . وتتطلب اول حربة يقذف بها الحوت ساعداً أيدياً ومنتناً وثيقاً ، إذ كثيراً ما تكون المسافة التي يقذف فيها المزراق الطويل - وهو راجح ثقيل - عشرين او ثلاثين قدماً . ومهما تكن المطاردة طويلة مضنية فالتوقع من المزراق ان يجذف أثناء ذلك بأقصى طاقة ، بل المتوقع منه ان يضرب للآخرين مثلاً على الحيوية الخارقة بالتجذيف الفذ ، وبالصيحات الجهيرة المكرورة الجسورة . ماذا يعني ان يظل المرء يصرخ بأعلى صوته بينا جميع عضلاته الاخرى متوترة ناشزة ؟ ذلك شيء لا يدركه الا من جرّبه . ولو سألتني عن حالي لقلت لك : انني لا أستطيع ان أجأر في ارقباح وان أعمل في غير اكرتات ، في آن معاً . في مثل هذه الحال من التوتر والصراخ يسمع الزراق المنهوك ، دفعة واحدة ، وظهره الى الحوت ، صوتاً مستثيراً يهيب به قائلاً : « قف . اقدف بها » . وعليه حينئذ ان يفلت مجذافه دون ان يضيعه وان يدور نصف دورة حول مركزه ويخطف المزراق من شعبته ، ويتأتى بما فضل لديه من قوة لغرسه في جسم الحوت . لا عجب اذن اذا نحن اعتبرنا الحواتين مجتمعين ان يجيء المزراق صائباً خمس مرات في كل خمسين مرة مواتية . ولا عجب ان رأينا كثيراً من الزراقين التمساء تنصب عليهم اللعنات الربيلة وتبخس حظوظهم ؛ ولا عجب ان يعتمد بعضهم الى تفجير شرايينه في القارب ، ولا عجب ان غابت حواتات العنبر أربع سنوات وعادت بأربعة براميل . ولا عجب ان رأى كثير من أصحاب السفن ان التحويت صفقة خاسرة ، اذ الزراق هو الذي

ينجح الرحلة وإذا تسرب النفس من جسمه فكيف يجده حين يصبح في ميسس الحاجة اليها
ثم اذا كان المزراق صائماً عمد رائس القارب والزراق في اللحظة الحرجة التالية ، اي
حين يبدأ الحوت في جريبه ، الى ان يتبادلا موضعيهما ، هذا يعدو نحو المقدمة وذاك نحو
المؤخرة ، معرضين نفسيهما وكل من في القوارب للتهلكة .

فاذا تمّ التبادل وقف الرانس او رأس الضباط على القارب الصغير في موضعه الصحيح في
مقدمة القارب .

وأنا أرى هذا كله حمقاً لا ضرورة له ، مهما يكن رأي غيري فيه . ان على الرانس ان
يقف في المقدمة من البداية حتى النهاية وعليه ان يقذف بالرمح وبالحرية ، وليس له ان
يقوم بشيء من التجذيف الا في أحوال يعرفها كل من عمل في التحويت . وانا أعلم ان هذا
قد يتضمن أحياناً بعض الخسارة في جانب السرعة أثناء المطاردة ولكن التجربة الطويلة في
حواتات مختلفة تنتمي الى غير شعب واحد قد أقنعتني ان معظم ضروب الاخفاق في التحويت
لم تتأت من سرعة الحوت في انطلاقه بقدر ما كانت ناجمة عما يعاينه الزراق من انهاك ،
تحدثت عنه آنفاً .

واذا شاء الصيادون ان يوفروا الكفاية المطلوبة للصيد كان على الزراقين في هذا العالم
ان يهبوا واقفين على أقدامهم من أحضان الراحة لا من بين قيود الإعياء .

الشعبة

من الجذع تنمو الاغصان ، ومن الاغصان تتفرع شعبها . كذلك فصول الكتاب تنمو وتتشعب في الموضوعات الحفيلة .

وتستحق «الشعبة» التي ألمعت اليها في الفصل السابق تنويهاً . فهي قناة منشعبة من رأسها ، ذات شكل فريد ، طولها نحو قدمين ، تفرز قائمة في الحافة اليمنى من القارب قريباً من الصدر لكي تتخذ مستنداً للطرف الخشبي من الرمح ، اما طرفه الآخر المشحوذ العاري فانه ينتأ في انحدار من مقدم القارب . وبهذا الوضع يكون الرمح في متناول الرماح الذي يقذفه ، فينتزعه من مستقره حين يحتاجه كما يتناول الصياد بندقيته عن الحائط ، وقد جرت العادة ان يركز في الشعبة رمحان يدعيان الشفرة الاولى والشفرة الثانية ولاءً .

ولكل واحد من هذين الرمحين خيط يصله بحبل التحويت ، والغرض من ذلك قذف الاثنين - ان أمكن - في جسم الحوت ، دون تمهل بين الضربتين حتى اذا سحبا فقد يطاوع احدهما ويستعصي الآخر . ذلك نوع من مضاعفة الفرص . ولكن بما ان الحوت يجري جرياً خاطفاً عنيفاً مضطرباً حين يتلقى الشفرة الاولى يغدو من المستحيل على الزرّاق في الغالب ان يفرس الشفرة الثانية فيه ، ولو كانت حركاته خاطفة كالبرق . ومع ذلك ، فان الشفرة الثانية لما كانت موصولة بالحبل ، والحبل ينساب ، كان لابد لها في جميع الاحوال من ان تقذف خارج القارب على نحو ما ، صوب شيء ما ، والا أصبحت جميع الايدي عرضة لأشد خطر . وفي مثل هذه الاحوال تلقى في الماء . ومما يضمن تحقيق هذا الأمر على وجه سليم وجود اللفائف الاحتياطية حول الصندوق (وقد ذكرتها في فصل سابق) . ولكن ما كل مرة تسلم الجرة . فقد يجيء هذا التدبير الدقيق مصحوباً بكل عارض مؤسف مميت .

ثم اعلم ان الشفرة الثانية حين تقذف خارج القارب تصبح من ثمّ رعباً متديلاً مرهف

الحدّة ، وتتوثب متقلبة هنا وهناك حول القارب والحوّت فتشوش الحبال أو تقطعها وتشير هياجاً هائلاً حيثما اتجهت . وليس في الامكان ضبطها إلا حتى يقتل الحوت ويصبح جثة هامدة .

تأمل اذن كيف تكون الحال حين تنازل القوارب الاربعة حوتاً فذأ في قوته ونشاطه ودرايته ، حين تتدلى من حوله ثماني او عشر سفرات ثانية ، في وقت معاً ، لانه يحوز تلك الصفات ولان آناً من الملمات قد تعرض في تلك الوقعة الباسلة . ذلك ان كل قارب مزود حقاً بعدد كثير من المزاريق تربط الى الحبل ان طاش الاول ولم يمكن استرداده . لقد راعيت وجه الامانة فيما اوردته من أمر هذه الدقائق لانها تعين على ان تجلو كثيراً من الفقرات الهامة مهما تبلغ دقتها ، في مشاهد أنوي رسمها فيما يلي من فصول .

عشاء اسطبط

ذلك الحوت الذي صاده اسطبط تمّ قتله بعيداً بعض الشيء عن السفينة . وكان الجوفي هدأة ، فجعلنا من القوارب الثلاثة قواطر مردفة ، وأخذنا نسحب « حصيلة فوزنا » الى الباقوطة . كنا ثمانية عشر رجلاً ذوي ست وثلاثين ذراعاً ، ومائة وثمانين إصباعاً ، نجهد ساعة اثر ساعة في جرّ تلك الجثة الهامدة المترهلة ، وكأنها تكاد لا تتزحزح أبداً الا بعد فترات طويلة . ذلك شاهد قويّ على جسامه تلك الكتلة التي كنا نجرها . ذلك لان أربعة عمال او خمسة على قنال هانج - هو العظيمة - أو أيّاً كان اسمها^(١) - في الصين يستطيعون وهم على مسرب المشاة ان يجزّوا ينكأ مشحوناً مدى ميل كل ساعة ، أما تلك « البارجة » التي كنا نجرها فقد كانت تدلف ببطء كأنها معبأة كلها بالرصاص الخام .

حل الظلام ، غير ان ثلاثة أضواء مثبتة في مواضع مختلفة من الاشرعة الرئيسية في الباقوطة أرشدتنا رغم خفوتها اي طريق نسلكه ؛ حتى اذا اقتربنا منها رأينا آخاب قد أنزل واحداً من القناديل العديدة على هيكل السفينة ، وحدج الحوت المسحوب لحظة بنظرة خاوية ، وأصدر أوامره المعتادة التي تقضي بالمحافظة عليه ليلاً ، وسلّم القنديل لاحد البحارة ثم مضى الى قمرة ولم يغادرها حتى الصباح .

لقد أبدى آخاب أثناء الاشراف على مطاردة الحوت حيويته المعهودة - ان صح ان اسميها كذلك ، فلما أصبح ذلك المخلوق جثة ميتة ، بدا وكأن استياءً غامضاً او جزعاً او يأساً قد أخذ يعمل في نفسه ، حتى كأنما كان منظر تلك الجثة يذكره بأن موبى ديك لم يقع بعد ، وأنه لو جرّ الى سفينته ألف حوت آخر فلن يخدم ذلك غايته الكبرى المجنونة قطميراً . ولو

(١) تسمى القنال العظيم اوها - هو أو ين - هو في ولاية شاتونج .

أنك سمعت الصوت على ظهر الباقوطة لقلت في الحال ان الايدي كانت تتهياً لالقاء المرساة في الاعماق اذ كانت السلاسل الثقيلة تسحب على ظهر السفينة ، وتدفع فتجبلجول وهي تنفذ من المجازات في الجوانب . غير ان هذه الحلقات المجملجة انما كانت لارساء الجثة الجسيمة نفسها لا لارساء السفينة ؛ وقد ربط رأس الحوت الى مؤخرة السفينة ، وذنبه الى مقدمتها فاضطجع هيكله الأسود الى جانب هيكل السفينة ، فلو رأيتة خلال ظلام الليل الذي كان يحجب الصواري والاشرعة والجمال لحسبت الاتنين : الحوت والسفينة وكأنما ربطا معاً تحت نير واحد ثورين هائلين ، بينا اضطجع أحدهما وظل الآخر قائماً* .

ولئن كان آخاب ذو المزاج المتقلب قد غدا هادئاً صامتاً - او على الاقل ذلك هو مبلغ ما تأدى اليه من حاله ونحن على ظهر السفينة - ، فان الضابط الثاني اسطب زهاه النصر فأبدي من الزعل الحيوي ما لم يعهد منه ، وان ظلّ زعله جميلاً طيباً . فقد تملكه انهماك غير معهود حتى ان رئيسه استاريك الهادئ الرصين وكل اليه حينئذ أمر التفرد بالاشراف على شؤون الحوت . وسرعان ما استبان سبب صغير كان يستثير كل تلك الحيوية لدى اسطب . كان هذا الرجل ذا تفرّد في مطعمه شديد القرم الى لحم الحوت يتلذذ به ويستمرنه طعاماً .

« شريحة ، شريحة ، قبل أن انام . دغة ، اذهب واقطع لي قطعة من العصص » .

وليعلم ان هؤلاء الصيادين البواسل ، حسبما تقضي القاعدة الحربية العظمى ، لا يجعلون العدو يقوم بالنفقات الجارية التي تتطلبها الحرب (على الاقل قبل ان يتحققوا من تباشير الرحلة) الا انك مع ذلك تجد بعض هؤلاء النانتوكتيين بين الحين والحين - يستطيعون ذلك الجزء الذي يؤثره اسطب من لحم حوت العنبر بحيث يشمل ايضاً جميع الطرف المستدق من عجب الذنب .

قطعت تلك الشريحة حوالي منتصف الليل وأعدت ، ووقف اسطب راسخاً تحت ضوء قنديلين مزودين بزيت حوت العنبر يتناول عشاءه العنبري عند رأس المسحاح كأن ذلك

* قد أورد هنا نبذة يسيرة فأقول ، حين يرسى الحوت الى جانب السفينة فان أقوى مقبض تمسكه منه السفينة وأوثقه انما يقع في الجنبين او الذنب ، وبما ان هذا الجزء منه اكثف من سواء فانه يكون انقل ايضاً (الا اذا استثنيت الزعانف الجانبية) ولذلك فان مرونته حتى في حال الموت تجعله ينطس كثيراً تحت مستوى السطح حتى ان المراء لا يستطيع ان يبلغه بيده من القارب لبيع السلسلة حوله . غير أنهم يتغلبون على هذه العقبة بلباقة وحكمة اذ يمدون حبالاً صغيراً قوياً وله في طرفه البعيد عوامة خشبية وثقل في الوسط بينا الطرف القريب مربوط الى السفينة . وحسب تدبير حاذق تجعل العوامة الخشبية بحيث ترتفع على الجانب الآخر من الكتلة بحيث أنها حين تطلق الحوت ، تشغخ بها السلسلة ، فاذا انزلت على طول الجسم ربطت وربطاً محكماً حول الجزء الادق من الذنب اي عند نقطة التثاقه بالجانبين او الشطرين المريميين فيه .

المسحاح مائدة طعام . ولم يكن اسطب وحده هو الأدب الوحيد الذي يحتفل بأكل لحم الحوت تلك الليلة ، فقد تجمعت حول جثة اللويثان آلاف على آلاف من أسماك القرش تمزج تمتعاتها بأصوات المصغ المنبعثة من بين فكّي اسطب ، وتقيم وليمتها الدسمة فوق ترارته وسمنته . وكثيراً ما كان القلة النائمون في «شقادفهم» يستيقظون فزعين حين تلتطم بأذناها هيكل السفينة لطمات حادة على بعد بضع بوصات من قلوب أولئك النوام . وإذا انت حملقت من فوق الحافة رأيتها (مثلما من قبل سمعتها) تتمرغ في الامواه المعتمة المتبلدة ، ثم تنكفيء على ظهورها حين تمزغ قطعاً كروية ضخمة من الحوت تبلغ الواحدة في حجمها قدر رأس الانسان . ويبدو هذا العمل الفذ الذي تقوم به القرشان معجزاً . كيف يتأتى لها ، فوق مثل هذا السطح الذي يبدو في الظاهر مستنعماً على الهجوم ، ان تقوّر هذه اللقم المتساوية في حجوماها ؟ ذلك أمر يظل جزءاً من مشكلة كلية كبرى بين المشكلات . أما الاثر الذي تتركه في جسم الحوت فيمكن ان يشبّه بالتجويف الذي يحدثه النجار وهو يدور ثقباً يثبت فيه «البرغي» .

وسط جميع الرعب الصارخ والشيطانية الهانجة في معركة بحرية ترى القرشان تحدد بشفف نحو ظهر السفينة كأنها كلاب جائمة حول مائدة يعرق عليها اللحم الاحمر عن العظم ، وهي على أهبة ان تنقض على أي رجل قتيل يرمى لها . وبينما الجزارون البواسل فوق المائدة الكبرى - اعني السفينة - في نهم المستلحم القرم يسعى احدهم ليتخذ من لحم أخيه الحي جزءاً يمرقه بسكين حادة مذهبة مزخرقة ، تكون القرشان ذات الافواه المنصّلة بالجواهر تحت المائدة ، تتعارك متنازعة على الجثة الملقاة . وإذا قلبت الوضع كله رأساً على عقب ، فان الحال لا تغير ، أعني ان ما فوق المائدة وما تحتها عمل قرشاني مروع يرتكبه الفريقان . وحيثان القرش ايضاً هي الرفقة الدائمة لكل سفن الرقيق التي تجتاز الاطلسي ، لا تنفك تخب الى جانب السفن ، لتكون في الخدمة اذا كانت هناك صرة يراد نقلها الى اي مكان او عبد ميت يراد دفنه دفناً لائقاً . وقد أستطيع ان أورد هنا مثلاً او مثلين من هذا القبيل يتناولان الشروط المقررة والاماكن والمناسبات التي يجتمع فيها شمل حيتان القرش وتولم ولائمها البهيجة ؛ ومع ذلك كله الذي قلته في حيتان القرش فان المرء لا يتصور زماناً او مناسبة تكون فيها في أعداد لا تحصر وعلى اشد ما تكون مرحاً في أمزجتها وسروراً ، مثل تجمهرها حول حوت عنبر قتيل قد رفيء ليلاً الى حواتة في البحر . فاذا لم تر ذلك المنظر ابدأ فاحبس عليك رأيك الذي اتخذه حول صلاحية عبادة الشيطان ، وكفّاً عن أمنياتك لاستماتته واسترضاه .

ولكن اسطب ، مع ذلك ، لم يتنبه الى تمتعات الحفل الذي كان قائماً دونه مثلما ان اسماك القرش لم تبال بالتمطق الذي كانت ترسله شفتاه الشهويتان .

« طباخ يا طباخ! - أين هو فليس العجوز؟ » - صاح اسطب بعد فترة وقد زاد المسافة مابين رجله تباعداً كأنما يحاول ان يجعل لعشائه قاعدة مأمونة ، وفي الوقت نفسه غرز شوكته في الصحن كأنه يطعن بحريته ، وصاح : « طباخ يا طباخ! - أبحر الينا ، يا طباخ! »

لم يكن الاسود العجوز في حال ابتهاج اذ كان من قبل قد أزعج من سريره الدافئ ، في غير إبان الدعاء الملائم . فعاد يقزل من سطح السفين ، اذ كان شأنه شأن كثير من السود الهرمين قد أصابه شيء ، في « ماعوني » ركبته لانه لم يكن يعنى بنظافتهما عنايته بغيرهما من المواعين . جاء هذا العجوز فليس - كما كانوا يسمونه - يتشاقل ظالماً مؤيداً خطوته بملقطه ، وكان مصنوعاً من طوق حديدي مطرق ، صناعة جاسية . ذلك الأبنوسي العتيق أتى يغالب الاعياء فلما امثل الأمر وقف وقفة متيبسة مقابل مائدة اسطب ، وحنى ظهره المقوس دانياً ، وقد شبك يديه قدامه وأراح جسمه فوق الملقط المشعوب ، ومال برأسه في الوقت نفسه ناحية لعله يسمع ما يقال بأذنه السليمة .

فقال اسطب وهو يرفع بسرعة لقمة محمّرة الى فمه : « طباخ ، ألا تعتقد ان هذه الشرائح المشوية قد بولغ في انضاجها ؟ لقد أبيضتها كثيراً بالتقليب يا طباخ انها شديدة الرقة . ألم تسمعي أقول دائماً ان الشرائح المشوية من لحم الحوت لابد ان تكون سميكة كي يحسن شواؤها . هذه أسماك القرش هناك عند جانب السفينة ألا ترى أنها تفضل ان تكون الشرائح سميكة نيئة ؟ اي ضجة ترسلها الينا! اذهب وتحدث اليها ايها الطباخ . قل لها اننا نرحب بضيافتها اذا هي كانت مهذبة معتدلة ولكن عليها ان تظل هادئة . هبلتني أمي ان كنت أستطيع ان أسمع صوتي بعين ضجيجها . اذهب اليها يا طباخ وبلغها رسالتي . هاك القنديل » . - وناوله قنديلاً كان على مائدته - « اذهب وألق عليها موعظة منك » .

تناول فليس العجوز ذلك القنديل الممدود اليه متبرماً ، وذهب يظلع عبر ظهر السفينة نحو حافتها ، ثم مدّ إحدى يديه بالقنديل ودلّاه فوق الماء ليضوى له المنظر فيستبين جمهوره ، ومدّ يده الاخرى بالملقط وجعل يلوحه في رزانه وجدّ ، وانحنى انحناءة طويلة فوق جانب السفينة ، وبدأ يخاطب أسماك القرش متمتماً بينا كان اسطب ، وقد تسلل من ورائه ، يسمع كل مايقول :

« اكواني المكلوقات : انا مأمور ان أقول إنه توقفوا ديك الدوشة الملنون هناك . سمتوا ؟ اوقفوا ديك طق طق الملنون من الشفتين . سي اسطب يقول انكوا تقدروا تملأوا

كروش ملثونة بئاء كوا حتى فم الكروش . لكن وربينا لازم توقفوا ديك الدوشة الملثون « .
فقاطعها اسطب وهو يشفع خطابه بخبطة مفاجنة على كتفه : « طباخ يا طباخ! أعمى الله
عينيك ، لا تشتم وأنت تلقي موعظة . ليست هذه طريقة صالحة لترد المذنبين الى التوبة
والندم ، ايها الطباخ » .

فاستدار الطباخ متبرماً بهم بالذهاب وقال : « من دا ؟ مادام كده ، انت تقول وأظفة
بنفسك » .

- « لا يا طباخ ، بل امض انت في وعظك ، امض » .

- « جميل . ايتها المكلوقات ، الإكوان المهويين... » .

فصاح اسطب مستحسناً : « أحسنت! تملقها بمثل هذا ، جرب هذه الطريقة » فمضى
فليس يكلمها :

« انتو هيوانات قرش وهو بطبئه شره كثير ، لكن بردة أقول لكم يا إكواني انه الشره
داك - امنأوا اللطم بالدنبل كيف ممكن تسمأوا ان كان بقيتوا مستمرين في اللطم والأض
الملثون هناك ؟ »

فصاح اسطب وهو يشد على رقبتة : « أيها الطباخ لا أحب ان أسمع تلك الشتائم .
تحدث اليها حسب الاصول » .

واستأنف الموعظة مرة أخرى ، « ان الشره بئاء كم يا إكواني لا ألومكم كثير من أجله .
دا طبيئة ، والواهد منا أسير الطبيئة ، لكن لازم هو يتهمكم في داك الطبأ الشرير . دا هي
المسألة . انتو هيوانات قرش - مؤكد ؛ لكن اذا انتو تهكمتمو في القرش اللي فيكو بقيتو
ملايكة ، لان الملاك هو قرش تهكمه الارادة القوية . إكواني ؛ هاولوا انكم تكونوا مهذيين
وانتو بتاكلوا من الهوت داك . أقول ؛ لا تمزقوا الشهم من فم جاركو . مش كل قرش له
هتق مثل القرش الثاني في الهوت ؟ لكن و الله ما واهد فيكم له هق في الهوت . داك الهوت
من هق زول غيركو . أنا آرف انه في منكو ناس الكشم بتأوهم كبير ، اكبر من الكشم بئاء
تانيين لكن احياناً اللي كشمه كبير يكون كرشه زغير . وهذا ماناه انو كبر الكشم مش
أشان انه الواهد يبلا لقمه كبير ، لكن أشان يقطأ شهم ويطأم القرس الزغير اللي ما يقدر
يزاهم السمكات الكبار » .

فقال اسطب ، « أحسنت يا فليس ، تلك روح مسيحية . امض في وعظك » .

- « مفيش فايذة . أولاد كلب ملثونين راه يبقوا يتزاحموا ويتلاطموا ياسي اسطب . ما

بيسمنوا ولا كلمة واهدة . مافي فايذة من الواظ للهيوانات السفاهين دول - زي انت ما

سميتوهم - حتى كروشههم تبقي مليانة ، لكن كروشهم ماليها حدود ، بدون قرار . لكن اذا ملوهم كمان مافيههم يسمنوا نصيهة ، لأنهم بيروهو يغطسوا في المويه وبينوموا فوق المرجان نوم شديد وما بيسمنوا اي شي أبداً أبداً .

- «لعمري انني لأكاد أكون من رأيك في هذه المسألة . لذلك أختم انت بشر البركات يا فليس ثم أذهب انا لتناول العشاء .» .

ولما سمع فليس هذا شبك يديه امامه فوق رؤوس جمهوره السمكي ورفع صوته الأجهش صائحاً :

- «إكواني الملنونين . انملوا دوشة ملنونة كثير قد ما انتو تريدوا . ملوا كروشكم الملنونة حتى تنفجر ثم تموتوا .» .

فقال اسطب وهو يستأنف عشاءه عند المسحاب : «والآن ايها الطباخ قف حيث كنت تقف قبلاً ، هنالك قبالتني وكن على انتباه .» .

- «كلي انتباه» - ذلك ما قاله فليس وانحنى ثانية فوق ملقطه في وضع كالذي أمر به سيده . وانطلقت يد اسطب في الطعام وهو يقول : «سأعود الى موضوع هذه الشرائح مرة أخرى . أولاً ، كم عمرك ، أيها الطباخ ؟»

فقال الاسود العجوز في برم : «شنو دخل الأمر في مسألة الشراية ؟»
- «اخرس! كم عمرك ؟»

فتمتم مكتئباً : «تسنين تقريباً - كذا بيقولوا» .

- «أعمرت هذا العمر كله حتى ناهزت المائة . أيها الطباخ ، ثم لا تعرف كيف تشوي شرائح حوت ؟» ثم ملأ فمه بلقمة أخرى بعد ان لفظ آخر كلمة ، حتى كانت اللقمة كأنها تكلمة للسؤال . «أين ولدت يا طباخ ؟»

- «وراء باب الأنبر في مندية تنوم في روانوك» .

- «ولدت في معدية ؟ هذا غريب ايضاً . أريد ان أعرف اي بلد ولدت فيه يا طباخ ؟»
فصاح بحدة : «مش قلت لك في منطقة روانوك ؟»

- «لا ، لم تقل ذلك ايها الطباخ . ولكنني سأخبرك بما استخلصته يا طباخ . عليك ان تعود الى وطنك لتولد من جديد . انك لا تزال تجهل كيف تسوي شرائح الحوت» .

فحرد واستدار ليذهب وهو يقول مبربراً : «آلي لآنة ان سويت واهدة تانية» .

- «ارجع يا طباخ - هات الملقط ، خذ هذه الشريحة وقل لي هل تظن أنها مسواة كما يجب ؟ خذها ، أقول» - ومدّ اليه بالملقط - «خذها وذقها» .

فوضع الزنجي العجوز قطعة اللحم بين شفثيه لحظة وتلمسها ثم تتمم :
«أهسن شريحة ذقتها في هياتي . طرية ، رخصة جداً» .

واعتدل اسطب متوازناً مرة أخرى وقال : «هل تنتمي الى الكنيسة يا طباح ؟» فقال
العجوز متبرماً : «مريت بكنيسة مرة في كيب تاون» .

«اذن مررت مرة في حياتك بكنيسة مقدسة في كيب تاون ولا ريب أنك سمعت الراعي
الصالح فيها يخاطب مستمعيه بقوله : اخواني المحبوبين أليس كذلك يا طباح ؟ ومع ذلك
فأنت تأتي هنا وتكذب علي هذه الكذبة الشنعاء ، أليس كذلك ؟» وأردف قائلاً : «أين
تراك تتوقع ان تذهب ؟» .

فتمتم وقد استدار نصف دورة قائلاً : «اذهب الى السرير هالاً» .

- «قف! - ارس! - أعني حين تموت يا طباح . سؤال رهيب فما جوابك عليه ؟»
فقال الزنجي في ببطء وقد غير هيأته وسخنته : «لما الأسود الأجوز دا بيموت هو نفسه
ما داير يروه مكان لكن فيه واهد ملاك مبروك بيحي يا كده» .

- «ياأخذه ؟ كيف ؟ في عجلة تجرها أربعة خيول كما أخذوا ايليا ؟ وياخذونه الى أين ؟» .

- «فوق» قال فليس ، ورفع ملقطه مستقيماً فوق رأسه ، وأبقاه هنالك في خشوع

شديد .

- «كذا اذن تتوقع ان تذهب الى قمة الصاري الرئيس ، اكذاك هو يا طباح حين
تموت ؟ لكن ألا تعلم انك كلما أبعدت في الارتفاع زادت شدة البرد - قمة الصاري
الرئيس ، أكذاك ؟»

فقال فليس وقد عاد اليه تبرمه : «داك أنا ما قلته أبداً» .

- «قلت : فوق ، أليس كذلك ؟ والآن انظر انت نفسك الى اين يشير ملقطك . ولكن

لعلك تتوقع ان تصل الى السماء زحفاً من خلال «الثقب الأعلى» يا طباح . لا . لا يا طباح

لن تبلغ هناك الا بالطريق المستقيم اي ان تدور وتذهب من ناحية الاشرعة والحبال . عمل

محضوف بالمجازفة ولكن لايد من ادائه والا فلا ذهاب . لكن لم يذهب أحد منا الى السماء

بعد . أنزل ملقطك يا طباح واستمع الى أوامري . أتسمع ؟ أمسك قبعتك باحدى يديك .

وضع الأخرى على قمة قلبك حين ألقى اليك أوامري يا طباح . ماذا ؟ أهذا موضع قلبك هناك ؟

- ذلك هو حوصلتك . ارفع . الى أعلى - أي نعم - ها قد وجدته ؛ ضع يدك هنالك وانتبه» .

«كلي انتباه» - ذلك ما قاله الاسود العجوز وقد لبى ما أمره به سيده ، وهو يلوي رأسه

الاشمط كأنه يريد ان يضع أذنيه الاثنتين أمامه معاً في آن واحد .

« أنت ترى أيها الطباخ ان هذه الشرائح التي صنعتها كانت غاية في الرداءة ، ولذلك غيبتها انا عن الانظار بأسرع ما أستطيع ، أنت ترى ذلك ، أليس كذلك ؟ لذا إذا سوّيت لي شرائح من لحم الحوت في المستقبل لتقدمها الى مائدتي هذه الخاصة - أعني المسحاب - فاني أخبرك ما يجب عليك ان تصنعه كي لا تزيد في إنفاجها . ارفع الشرائح في يد وضع فحمة حية في يدك الاخرى فاذا فعلت ذلك فاشوها . فهمت ؟ وغداً يا طباخ حين نأخذ في تقطيع الحوت كن على مقربة مني لكي أعطيك رزوس زعانفه ، فتضعها في المخلل أما أطراف شطري الذنب فعليك ان تتبّلها ، يا طباخ . هذا كل ما هنالك . تستطيع ان تذهب » .

وما كاد فليس يبعد ثلاث خطوات حتى استدعاه اليه وقال : « أريد كستلاتة في عشائي غداً مساءً في النوبة الوسطى . سامع ؟ أبحر عني اذن . هالو! قف! انحن قبل ان تذهب . كف عن الحركة مرة أخرى . بيض الحوت لفطوري لا تنسَ » .

فتمتم الرجل المعجوز وهو يظلع مدبراً : « والله كنت أهب ان الهوت ياكله بدل هو ما ياكل الهوت . ملنون أنا ان لم يكن هو قرش اكثر من سيد القرشان كلها » - قال هذه القولة الحكيمة ومضى الى مضجعه .

الحوت بين ألوان الطعام

قد يكون من المستغرب المستهجن ان يقتذي المرء بالحيوان الذي يغذي بشحمه قنديله ، وان يأكله - كما فعل اسطب - على ضوء شحمه المحترق ؛ ولما كان هذا الامر غريباً فلا بد لي من ان أسهب في تبيان شيء من تاريخه ومن الفلسفة الكامنة وراءه .

في الروايات ان لسان الحوت الاثين كان يعد في فرنسا منذ ثلاثة قرون طرفةً لذيذة ، ويكلف طاعمه غالباً . وان طاهياً في بلاط هنري الثامن حصل على مكافأة لطيفة لانه ابتكر مرقاً شهياً يؤخذ مع البربوز المشوي ، وانتم تذكرون ان البربوز من فصيلة الحيتان . ولا يزال حوت البربوز حتى اليوم يعد حقاً أكلة لذيذة اذ يكتب لحمه في كرات بحجم كرات البليارد ، وتتبل وتمزج بالبهارات حتى ليحسبها من رآها كرات لحم السلحفاة او لحم العجل . وكان الرهبان القدامى في دنفرملاين مغرمين بها ، وكان الملك يمنحهم منحة كبيرة من اجل الحصول على البربوز .

والحق ان جميع صيادي الحوت - على الاقل - يعدون لحمه لوناً ربيعاً من الطعام لو لم يكن مبدولاً لهم بكثرة . ولكن المرء يفقد شهوته الى الاكل حين يجلس ازاء سنبوسكة من اللحم تكاد تبلغ مائة قدم طولاً . ولذلك لا يقبل على اكل لحم الحوت في ايامنا إلا من كان بعيداً عن التنوق المسرف مثل اسطب ؛ أما الأسكيمو فليسوا على حظ من التنوق ونحن جميعاً نعلم انهم يعيشون على أكل لحم الحيتان ، ولديهم غلة عتيقة نادرة من زيت القطارات المعثق الفاخر . ويصف زغرندا - وهو من اشهر اطبانهم - قطعاً من الشحم للاطفال لانها رخصة مغذية^(١) . وهذا يذكرني ببعض الانجليز الذين اتفق ان خلفتهم حواته في جزيرة

(١) هذه المعلومات عن الاسكيمو استمدتها ملفل من اسكورسي ، اما اسم الطيب فلعله واحد من الاسماء التي وضعها للسخرية من اسكورسي نفسه مثل « القبطان سليث » وغيره .

جرينلاند منذ عهد بعيد فقد عاش هؤلاء حقاً على كسر وفضلات مفرغة من حيطان أقيت على الشاطئ بعد انتزاع الشحم ، وظلوا على ذلك اشهرأ عديدة . وهذه الفضلات يسميها الهولنديون « الفراطر » - الفاكهة المقلية بالدهن - وهي حقاً تشبهها كثيراً لانها دهماء هشة ورائحتها كرائحة الجوز المعجون او الكمك الهش المبسوس بالدهن ، وهي طازجة لدى ربات البيوت بامستردام منذ عهد . ولها منظر مطمع بالأكل حتى ان اشد المتعيفين ممن لا يعرفونها يكادون لا يستطيعون ان يكفوا ايديهم عنها .

ولكن مما يبغض حظ الحوت فيحرمه من ان يكون لونهاً ثنائي عليه الحضارة هو تراتره وسمنته الفائقة . فهو في البحر كالثور الذي يسمن لينال صاحبه الجائزة ، تحول شحومته دون الاستمتاع به . تأمل حردبته ، فلعلها كانت طيبة للأكل كحردبة الجاموس (وهي تعد لونهاً نادر المثل) لو لم تكن هرمأ شامخاً من الشحم . أما زيت الحوت نفسه فما أشد عذوبته وزيدته ، كأنه لب جوز الهند الابيض الشفاف الذي انعمد بعضه هلاماً في الشهر الثالث من عمره ، الا انه بالغ الدسم فلا يصلح بديلاً من الزبدة . ومع ذلك فان كثيراً من الحواتين لديهم طريقة من خلطه بمادة اخرى ثم الافادة منه . فالبحارة في نوبات الرقابة الطويلة ليلاً كثيراً ما يغمسون البسكويت في مراحل الزيت الضخمة ويقولونها فيه زمناً ، وكم من عشاء لذيذ صنعته لنفسه كذلك .

أما اذا كان حوت العنبر صغيراً فان مخه يعد لونهاً لذيذاً من الطعام . اذ يكسر قحفه بفأس ، ويسقط شطرا المخ ، وتسحب الفلقتان اللتان يفلب عليهما البياض (وكأنهما صحنان كبيران من المهلبية) ثم يخلط بهما الدقيق ، وتسوي منهما أشهى أكلة تشبه في طعمها طعم رؤوس العجول ، وهي لون محبب الى نفوس اهل اللذائذ البوهيميين ، وكلنا يعلم ان بعض الفتيان الفارحين من البوهيميين يكثرون من تناول مخ العجول وبذلك يصبح للواحد منهم تدريجاً مخه الصغير الخاص به ، فيمكنه حينئذ ان يميز بين رأس العجل ورأس نفسه . وهو أمر يتطلب قدرة فائقة على التمييز دون ريب . وهذا هو السر في أن الفتى العبل الفاره الذي نال قسطاً من الذكاء - يمثل - اذ يوضع رأس العجل قدامه - منظرأ باعثاً على الحزن لا مثيل له . ذلك ان الرأس كأنما ينظر نحوه ويقول له بلسان الحال : « حتى انت يا بروتس! » .

وأبناء البر ينظرون الى أكل الحوت في تفرز ونفور ، ولعل هذا غير ناجم من ان الحوت كله دهني . وانما ينشأ فيما يبدو من اعتبار سبق ذكره وهو ان المرء يحب ان يأكل شيئاً من صيد البحر طازجاً وان يأكله على ضوء مستمد منه . لكن لا ريب في ان اول رجل ذبح ثوراً عدت قاتلاً ولعله شئق ، واذا كان الذين حاكموه ثيراناً فمن المؤكد انهم حكموا عليه

بالموت شنعاً ، وهو يستأهل ذلك المصير دون ريب ان كان القاتل يستأهل الاعدام . اذهب الى سوق اللحم مساء السبت وانظر الحيوانات التي تمشي على رجلين تحديق في صفوف الحيوانات الميتة ذوات الارجل الاربعة . أليس هذا المنظر ينتزع ضرساً من فك امرىء قرم الى أكل لحوم البشر ؟ أكلة لحوم البشر ؟ أي امرىء ليس كذلك ؟ لو ان امرءاً همجياً من فيجي ملّح مبشراً نحيفاً وحفظه في بيته ليكون زاداً في مجاعة متوقعة ، لو ان هذا الهمجى الحريص فعل ذلك لكان فعله مقبولاً محتملاً يوم يقوم الناس للحساب اكثر من عمالك انت ايها النهم العفج المتحضر المستتير ، انت يا من تطرح الاوز ارضاً وتولم على أكبادها المنتفخة حين تتناول ، مكبباً من اكباد الاوز السمينة وقد طبق بالشحم والكمأة .

غير ان اسطب يأكل الحوت على ضوء زيتته ؛ أليس كذلك ؟ فهو يضفي اهانة على الأذى ، أليس كذلك ؟ انظر الى مقبض مديتك يا عزيزي النهم المتحضر المستتير وأنت تأكل لحم البقر المحمر ، من أي شيء صنع ذلك المقبض ؟ - ألم يمنع من عظام شقيق الثور الذي تأكله ؟ وبأي شيء تخلل اسنانك بعد ان تلتهم إوزة سمينة ؟ بريشة من ذلك الطائر نفسه . وبأي قلم يخط سكرتير جماعة مكافحة الظلم والتعذيب الواقع على الاوز منشوراته الرسمية ؟ ان الجمعية لم تقرر استعمال قلم الصلب (استيليو) وحده دون سواه إلا منذ الشهر الماضي او الشهرين الماضيين .

مذبحة بين أسماك القرش

حين يصاد حوت العنبر بعد العناء الطويل المضني ، في رحلة صيد بالبحار الجنوبية ، فانه يجنب الى السفينة في ساعة متأخرة من الليل ، واذن فليس في المعتاد - بعامة - ان يبدأ البحارة بتقطيعه وتجزئته . لان هذا عمل شاق لا يتم في سرعة ويتطلب تعاون الايدي جميعاً . ولذلك جرت العادة ان تطلق الاشرعة جميعاً وان تثبت الدفة متجهة نحو اليسار ، وأن يؤمر كل فرد بالتوجه الى مضجعه حتى ينبلج الصبح مع تحفظ واحد : هو أن تبقى حراسة المرساة مستمرة حتى يحين ذلك الوقت اي ان البحارة يظلون مثنى مثنى دورياً يصعدون الى ظهر السفينة ليروا ان كل شيء يجري على ما يرام .

ولكن هذه الخطة لا تفلح أحياناً وبخاصة على خط الصيد في المحيط الهادي ، لان جيوش القرش التي لا تحصى تجتمع حول الجثة المرفأة ، فلو تركت كذلك نحو ست ساعات مثلاً ممتدة لما بقي حتى الصباح شيء سوى هيكلها . أما في اكثر الجهات الاخرى من المحيط نفسه حيث لا تتكاثر هذه الحيوانات الى هذا الحد فان وحشيتها العجيبة يمكن تجنبها والتقليل منها وذلك بالتهويب عليها بمجارف التحويت الحادة . وهو عمل قد لا ينتج عنه سوى اغرائها ببذل مزيد من النشاط ولكن الحال لم يكن كذلك في حال أسماك القرش التي احتشدت حول الباقوطة ، مع ان اي امرى لم يتعود مثل هذه المناظر لو أشرف على جانبها تلك الليلة لأدركه الظن بأن البحر المحيط بها كله انما هو قطعة كبيرة من الجبن وان القرشان هي ديدان متولدة فيها .

ومع ذلك فان الهياج بين هذه القرشان لم يكن ضئيلاً حين تقدم اسطب الى حراسة المرسى بعد ان انتهى من عشاءه ، وحين ظهر كويكوج وبحار من القانمين في المقدمة على ظهر السفينة ؛ ذلك ان هذين البحارين حالما أوقفوا مراحل القطع من فوق جانب السفينة

ودليا ثلاثة قناديل حتى تلقي أشعة طويلة المدى على البحر العكر ، أخذا يزرقان مجارف التحويت الطويلة ويقتلان القرشان قتلاً ذريعاً متواصلًا* وذلك بأن يضربا الفولاذ الحادّ ضرباً نافذاً في جماجمها ، وهي الجزء الحيوي الوحيد منها فيما يبدو . ولكن في ذلك المضطرب المزيد الذي تتقلب فيه جيوش مختلطة متدافعة لم يستطع الراميان ان يصيبا الرمي دائماً . وهذا ما أوحى لهما بايحاءات جديدة عن مدى الوحشية البالغة في خصمهما اللدود . فقد كانت تنهس بمكر وخبث لا تنتزع أمعاء بعضها البعض فحسب وانما كانت كأنها توجه الضربات المرنة وتدور منحنية كأنها تريد ان تعض أمعاء نفسها ، حتى بدت تلك الاحشاء وكأنها ابتلعت مرة اثر مرة ، والقسم الذي يتعلمها واحد لا يتغير ، ثم هو يفرغ ما ابتلع عن طريق الجرح المقابل المفتوح . ولم يقف الامر عند هذا ، بل ان معالجة جثتها وأشباحها لم تكن شيئاً مأموناً ، فقد كانت تعتلج في صميم مفاصلها وعظامها ، فيما يبدو ، قوة شاملة كبرى بعد ان تكون الحياة الجزئية قد بارحتها . فان واحداً من أسماك القرش بعد ان قتل ورفع الى ظهر السفينة لأجل أخذ جلده ، كاد ينتزع يد كويكوج حين حاول ان يطبق مفلق فكه القاتل .

فقال ذلك الهمجي وهو يرفع يده وينزلها متألماً : « كويكوج لا يهتم اي إله صنعه قرشاً سواء أكان رباً من فيجي او من نانوتوكت . لكن الرب الذي صنع قرشاً لا بد ان يكون آلة ملعونة » .

* مجرفة التحويت التي تستعمل للتحويض مصنوعة من اجود الفولاذ . حجمها حجم يدي رجل مسبوطين . وشكلها العام يشبه المجرفة المستعملة في الجنائن الا ان جانبيها مسطحان ونهايتها الملياً أنيق من السفلى . وتظل هذه الاداة على غاية من الهدوء والمضاء فاذا استعملت عرضاً فانها تشخذ كموسى العلالة . اما مقبضها فانه عمود صلب يابس يفرس في نقرتها وطوله يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً .

تقطيع شحم الحوت

ليلة الأحد ؛ وأية راحة أعقبتهما! ان العلماء الأعلام الذين يعتدون في الاحد بحكم الوظيفة هم الحواتون جميعاً . تحولت الباقوطة العاجية الى ما يشبه « السلخانة » وأصبح كل بحار فيها جزاراً ، ولو رأيتنا لحسبتنا نقدم عشرة آلاف ثور ذبيح الى آلهة البحار^(١) .

أما أولاً فقد عالينا مرفاعي الجزيرة الضخمين وغيرهما من الاشياء الثقيلة ، أعني مجموعة من البكرات مطلية باللون الاخضر ، لا يستطيع رجل واحد ان يرفعها - عالينا ذلك العنقود العنبي الضخم الى قمة الصاري الرئيس وربطناه ربطاً محكماً الى رأس الصاري القصير ، وهو أقوى نقطة فوق ظهر السفينة ؛ ثم أوصلنا نهاية الحبل الذي يشبه الماصر بعد ان ذهب متعرجاً خلال تلك المسارب الدقيقة المعقدة الى الدولاب الرافع ، وجعلنا المحالة الضخمة الدنيا في المرفاع تتأرجح فوق الحوت ، ووصلنا كلوب التشحيم الضخم وهو يزن ما يقرب من مائة رطل بتلك الحالة الضخمة ، وتعلق كل من استاربك واسطب فوق درجتين متفاوتتين على جانب السفينة وقد حملا مجرفتيهما الطويلتين وأخذنا يجوفان حفرة في جسم الحوت ليفرزا فيها الكلوب عند أقرب نقطة من الزعانف الجانبية .

ولما انجزنا ذلك حزاً حول الحفرة حزاً نصف دائري ، ثم أعلقا الكلوب ، وأخذت عصبه البحارة تصدح أناشيدها الغريبة وهي تأخذ في الرفع يداً واحدة عند الدولاب الرافع . وسرعان ما مالت السفينة كلها على جنبها وأخذ كل دسار فيها ينتأ كأنه مسك المسمار في بيت قديم تعرض لجو صقيمي . فهي ترتجف وتتققص ، وتنوض رؤوس صواريتها المفزعة نحو السماء . وما تزال تميل نحو الحوت بينما كل خفقة لاهثة من الدولاب الرافع تجيب عليها الامواج بخفقة

(١) هذا فذ بين فصول التمة لانه لا يرمز لشيء وانما هو محض وصف ظاهري .

مسعفة . وأخيراً سمع صوت فرقة سريعة مثيرة ، حينئذ تدرجت السفينة الى أعلى والى الخلف في اندفاق صاخب مبتعدة عن الحوت وأخذ المرفاع المنتصر يعلو أمام الانظار وهو يسحب وراءه الطرف النصف الدائري لأول قديدة شحم نزعت وسلخت عن الحوت . وبما ان الشحم يغلف الحوت كما يغلف البرتقالة لحاؤها ، كذلك فانه يسلخ عن جسمه مثلما يقشر لحاء البرتقالة عنها على نحو حلزوني ، لان قوة الشد التي يمارسها الدولاب الرافع باستمرار تجعل الحوت يتقلب في الماء فينسلخ عنه الشحم بذلك على طول الحز الذي يسمونه « الوشاح » وهو الذي يحزّه في الوقت نفسه الضابطان استاريك واسطب بمجرتيهما . وبنفس السرعة التي يتم بها السلخ ، وبالسليخ نفسه ، يظل الحوت طوال الوقت يرفع ويرفع الى اعلى حتى يلامس طرفه العلوي قمة الصاري الرئيس ، وعندئذ يتوقف الرجال عند الدولاب الرافع عن السحب ، وتظل الكتلة الضخمة التي تقطر الدم مدة دقيقة او دقيقتين تتأرجح جيئة وذهاباً كأنها مدلاة من الفضاء ، وعلى كل امرئ حاصر ذلك المشهد ان يحرص على ان يتفادى تأرجحها والا صكت صدغه وقذفت به رأسياً من فوق ظهر السفينة .

وعندئذ يتقدم احد الزواقين الحاضرين ثمة بسلاح طويل حاد يسمى « سيف التخزين » ، وينتهز الفرصة المواتية فيحدث برشاقة تجويفاً ذا سعة في الجزء السفلي من الكتلة المتأرجحة ، ثم يدخل في هذا التجويف طرف المرفاع الثاني البديل ويعلقه به بحيث يستبقي الشحم استعداداً لما سيلبي ، وعلى الاثر يحذر هذا السيافُ جميع الرجال بأن يبعدوا ، ثم يندفع اندفاعاً محكمة نحو الكتلة ويضربها بضع ضربات جانبية مستينسة نافذة ، فيقطعها نصفين ؛ وبينما الجزء السفلي القصير مايزال مثبتاً فان القطعة العليا الطويلة وتسمى « قطعة البطانية » تتأرجح حرة على أهبة استئزالها ، فيستأنف الرافعون في الامام اناشيدهم ، وبينما يمضي احد المرفاعين في سلخ قطعة ثانية من الحوت ورفعها ، يرتخي المرفاع الثاني ببطء ، وتسقط القديدة الأولى من باب العنبر الكبير الى فضاء خالٍ لا أثار فيه يدعى غرفة الشحم ، وتظل الايدي العديدة الرشيقة في غبش تلك الغرفة تطوي « قطعة البطانية » هذه كأنها كتلة حية من الحيات المتلوية . هكذا يمضي العمل : المرفاعان يرتفعان ويهبطان بالتناوب ، والحوت والدولاب الرافع كلاهما يتحركان صاعدين ، والساحبون ينشدون ، والرجال في غرفة الشحم يطوون ، والضباط يحززون وشاحاً ، والسفينة تتوتر مشدودة ، وكل البحارة يشتمون بين الحين والحين كأنهم يخفنون بلزوجة شتائمهم مقدار الاحتكاك العام .

البطانية

ليس قليلاً هو ذلك الاهتمام الذي تناولت به مسألة جلد الحوت ، وهي مسألة كانت محط جدل ، فقد جادلت في شأنها حواتين من ذوي الدربة ونحن في البحر ، وناظرت حولها علماء طبيعيين مرموقين ونحن على البر ، وظل رأي الاصيل فيها ثابتاً لم يتبدل ، الا انه رأي وحسب .

ما هو جلد الحوت وأين هو ؟ تلك هي المسألة ؛ فقدم تقدم الحديث عن شحمه وبذلك أصبحت ماهيته معروفة ؛ ذلك الشحم يشبه ان يكون لحم بقر متين وثيق الالياف ، إلا أنه أصلب من لحم البقر واشد مرونة واكتنازاً ، ويتراوح سمكه بين ثمانى او عشر بوصات الى اثنتي عشرة او خمس عشرة بوصة .

قد يبدو من المحال لاول وهلة ان يتحدث المرء عن جلد حيوان ما ، ثم يقول فيه انه بمثل هذا التركيب وذلك السمك ، ولكن هذا في الواقع ليس حجة ناقضة تنفي كونه جلدأ ، ذلك ان طبقة الشحم اذا نزعتم عن الحوت لم تبق هناك أي طبقة كثيفة اخرى تلفه ويمكن نزعها عن جسده ، واذا كان الحيوان ملفوفاً بطبقة خارجية - مهما تكن كثافتها - فأى شيء تسمى هذه الطبقة ان لم تسم جلدأ ؟ نعم انك تستطيع ان تكشف بيدك عن جثة الحوت السليمة التي لم يصبها تشويه مادة غاية في الرقة والشفافية ، تشبه من نحو ما أسخف مزقة من غراء السمك ، إلا انها تكاد تشبه في نعومتها ومرورتها «الساتان» - اعني قبل ان تجف - فاذا جفت صلبت وأصبحت هشة فضلاً عن انها تنكمش ويشد سمكها ، ولدي عدد كثير من هذه الجذاذات الجافة أستخدامها فواصل في كتبي التي تتناول الحيتان . وهي شفاقة كما قلت قبلاً ، فكنت اذا وضعتها على الصفحة المطبوعة ، أمتع نفسي اذ أتوهم انها ذات قدرة على التكبير . على أي حال ، من اللاذ ان يطالع المرء ما كتب عن الحيتان بنظارات حوتية ،

ان صحّ التعبير . لكن ما أرمي اليه في هذا المقام هو ان هذه المادة الغروية السخيفة التي أقرّ انها تتلبس جسم الحوت كله لا تصلح ان تعدّ جلداً له ، وانما قد نعدّها جلد الجلد ، ان جاز ان اقول ذلك ، اذ من المضحك ان يقال ان جلد هذا الحيوان الهائل أو هي وأرق من بشرة طفل حديث الولادة . وحسبنا هذا .

فاذا سلمنا ان هذا الشحم هو جلد الحوت ، واذا كان هذا الجلد في حال حوت عنبر سخّم ينتج من الزيت ما يملأ مائة برميل ، واذا اعتبرنا ان هذه الكمية او وزن ذلك الزيت الذي ذكرناه لم يؤخذ إلا من ثلاثة أرباع الجلد كله ، عندئذ نستطيع ان نكون لنا فكرة عن ضخامة تلك الكتلة الحية ، التي يمنحنا محض جزء من إهابها مثل هذه البحيرة من الزيت . فاذا قدرنا ان كل عشرة براميل تساوي طناً واحداً كان لدينا عشرة أطنان صافية تؤخذ من ثلاثة ارباع المادة التي يتكون الجلد كله .

والسطح الظاهر من حوت العبر لا يعد بين العجائب أقلها ، - على كثرة ما لديه من عجائب - ؛ فيكاد هذا السطح كله ان يكون معلماً بعلامات مستقيمة لا تحصى تذهب في جُدَدٍ عريضة ، وتنحرف وتتقاطع وتتقاطع متشاجرة ، كأنها أجمل خطوط النقش الايطالية . إلا ان هذه العلامات لا تبدو وكأنها طبعت على القشرة الغروية التي ذكرتها آنفاً وانما تبدو وكأنها ترى من خلالها أي كأنها منقوشة على الجسم نفسه . وليس هذا فحسب بل ان العين التي تبصر الامور بسرعة خاطفة قد لا ترى في هذه العلامات المخططة سوى مرسوم صالح لتطبع عليه صور أخرى ، كما هي الحال في فنون النقش الواقعي . تلك رموز هيروغليفية اعني انك ان دعوت تلك النقوش العجيبة على جدران الاهرام خطوطاً هيروغليفية ، فهذه هي الكلمة التي تصلح ان تستعمل في هذا الصدد ايضاً . لقد علقّت بذاكرتي الواعية صورة هذه النقوش الهيروغليفية على احد حيطان العنبر ، ولشدّة ما أثر فيّ ولفت انتباهي صحن يمثل الشخوص الهندية القديمة التي نقشت على الحسانك الهيروغليفية المشهورة على ضفاف المسيسيبي الاعلى . وما من احد استطاع ان يفك طلاسم تلك الصخور وكذلك حال هذه العلامات الغريبة على الحوت فانها ظلت مغلقة لا تجد من يحلّ معماها . وهذه الاشارة الى الصخور الهندية تذكرنني بشيء آخر . فالسطح الظاهري من حوت العنبر يمثل للعين عدة ظواهر منها ؛ ان ظهره ، وبخاصة حوافي الظهر ، تبدو في كثير من الاحيان وقد طمس ما عليها من جدد وخطوط منتظمة او طمس معظمها ، وذلك من أثر الكدمات العديدة العنيفة ، فيجيء منظرها شاذاً نادر المتال . وأقول ان تلك الصخور الساحلية في نيوانجلند تلك التي تصوّر أجاسيز انها تحمل علامات من الكشط العنيف بسبب احتكاكها بجبال عائمة من

الجليد ، أقول : ان هذه الصخور غير ضعيفة الشبه بحوت العنبر في هذا المضمار . ويبدو لي ايضاً ان مثل هذه الكدمات في الحوت ربما كانت بسبب احتكاكه بحيتان اخرى معادية ، لانني وجدتها اكثر شيء ظهوراً في الحيتان الضخمة القارحة لا في صغار الحيتان .

لا بد من كلمة او اثنتين حول مسألة جلد الحوت او شحمه . لقد قدمت القول بأنه ينزع عنه في قوائد طويلة تسمى الواحدة « قطعة البطانية » . وهذه تسمية موفقة جيدة الدلالة مثل معظم المصطلحات البحرية ، اذ ان الحوت ملفوف حقاً بشحمه كما لو أنه ملفوف ببطانية حقيقية او عباءة . او قل : انه قد لبس على رأسه وشاحاً هندياً وأرسله حتى غطى سائر جسده ، وبسبب هذه الشملة المريحة التي غطت جسمه استطاع ان يظل مرتاح البال في كل الاجواء والبحار والازمنة والتيارات . ماذا كان يحصل لحوت جرينلاند في بحار الشمال الجليدية الزمهريرية لو لم يكن له تلك العباءة النافعة ؟ نعم ان اسماكاً اخرى تكون بالفة الحيوية والرشاقة في مياه الشمال الاقصى ، ولكن علينا ان نذكر بأنها أسماك باردة الدم لا رنات لها ، تتخذ من معدها أدوات تبريد ؛ هي مخلوقات تدفئ نفسها في ظل جبل من جبال الجليد مثلما يجلس الرحالة في الشتاء ليصطلي أمام موقد في فندق . أما الحوت فانه كالانسان ذو رتتين ودم حار ، فلو جمد دمه لمات . ما أعجب ان يألف هذا الحيوان الكبير الذي لا غنى له كالانسان عن دفء الجسد ، ما أعجب ان يألف المياه القطبية ويظل فيها مغموساً حتى مشفريه . مع ان البحارة اذا سقطوا عن ظهور سفنهم وجدوا احياناً بعد أشهر وقد تجمدوا قائمين في صميم حقول الجليد ، كأن احدهم ذبابة علق في كتلة دبق . ولكن اذا عرف السبب زال العجب ؛ على ان الأعجب من ذلك هو ان نعلم - حسبما شهدت به التجربة - ان دم الحوت القطبي اكثر حرارة من دم زنجي بورنوي في اiban القيظ .

يبدو لي أننا في هذا نرى فضيلة الحيوية المتفردة ، وفضيلة الجدران السمكية ، وفضيلة السعة الداخلية ، وكلها فضائل فذة نادرة . يا ابن آدم ، امتلىء اعجاباً بالحوت واجعله لك مثالا ، كن أنت ايضاً حار الدم وسط الجليد ، عش في هذا العالم وكأنك غريب عنه . على خط الاستواء ابق مبترداً ناعماً ، وفي القطب احفظ دماءك سيالة في عروقك غير متجمدة ؛ احتفظ أيها الانسان في جميع الفصول بدرجة حرارية واحدة كأنك قبة كنيسة القديس بطرس العظمى او كأنك الحوت العظيم!

ما أسهل أن تلقي هذه النصيحة الجميلة وما أضال الرجاء في الإفادة منها ؛ فما أقل المباني التي أثلت على مشال قبة القديس بطرس! وما أندر المخلوقات التي تشبه الحوت ضخامة واتساعاً!

الجنّازة

«جرّوا السلاسل! دعوا الجنّة تتجه نحو الخلف».

لقد أنجز المرفاعان الكبيران مهمتهما ، وأخذ الجسد الابيض المسلوخ المقطوع الرأس يلتصق كأنه ضريح رخامي ؛ تغيّر لونه الا أنه لم يفقد شيئاً في تقدير البصر من حجمه ، ما يزال جبار الجسامة يعوم ببطء مبتعداً نائياً ، وحيثان القرش الجائعة تشق الماء وترششه من حوله ، والطيور النائعة تحوّم تحويماتها الضارية المستلحمة فتكدر الهواء من فوقه ، وتندس مناقيرها في جنبه كأنها خناجر إهانة متوالية ، والشبح الضخم الابيض الذي احتز رأسه يعوم متنائياً متباعداً عن السفينة ، وكلما ابتعد عنها ذراعاً طويلاً ، كانت حيثان القرش من حوله كأنها عشرات الاذرع المربعة ، والطيور كأنها عشرات الاذرع المكعبة تزيد من طنين الهلاك ، وظلّ هذا المنظر المخيف يلوح لأعين من في السفينة التي كانت كأنها ثابتة لا تجري ، مدى ساعات و ساعات ؛ وتحت سماء صافية لازوردية وادعة ، وعلى وجه البحر الساجي الوديع ، تلامسه التسمات الجدلى ، ظلت هذه الكتلة الضخمة من الموت تعوم حتى اختفت في أحضان المدى اللانهائي .

تلك جنازة محزنة ساخرة موهلة في ما تبعثه من أسي وسخر! نسور البحر في كآبة سوداء خاشعة ، وقرشان الجوّ في سلابها او ثيابها البقاء كما يستدعي الحداد . لقلما هرعت لعون الحوت - فيما أخمن - وهو على قيد الحياة لو انه احتاج منها عوناً ، ولكنها جميعاً اندفعت تشهد في خشوع مآدبة جنازته ، يا للضراوة المفزعة فيك أيتها الارض ، حتى أقوى حيثان لا ينجو منها سالماً .

وليست هذه هي النهاية . فما دامت حرمة الجسد قد انتهكت ، فان شبحاً منتقماً يبقى فوقه محلّقاً يثير الفرع . فاذا رأته من بعيد بارجة منخوبة أو سفينة كاشفة واهمة ، وقد أبهم البعد رؤية الطيور المحتشدة ، وظلت الكتلة البيضاء ترى عائمة تحت الشمس ، والرشاش

الابيض يتعالى أزاءها ، عندئذ يفزع المسجل توأ الى سجل الرحلة ، فيقيد انه رأى - وما رأى سوى جثة الحوت المستسلمة - بأصابع مرتعشة : « شعاباً ، وصخوراً وموجات كباراً في تلك التواحي - حذار! » ولعل السفن على مدى سنوات بعد ذلك تظل تجانب ذلك الموقع ، فتقفز عنه مثلما تقفز الاغنام الغبية فوق الفراغ لان راعيها قفز أصلاً وهو يحمل عصا في يده . ذلك هو قانون السوابق ، ذلك هو استغلال التقاليد ، تلك هي قصة البقاء المتشبث العنيد الذي تتمسك به المعتقدات القديمة ، تلك التي لا جذور لها في الارض ، بل وليست سابعة في الفضاء! تلك هي السنن!

كذا اذن : جسم الحوت العظيم في حال الحياة : قد يكون مصدر رعب حقيقي لأعدائه ، وشبهه في حال الموت يصبح رعباً وهمياً لكونه كامل .
أنت ممن يؤمنون بالاشباح يا صديقي ؟ في الكون أشباح أخرى سوى شبح كوك -
لين ورجال أبعد فكراً من الدكتور جونسون يؤمنون بها^(١) .

(١) حكى بوزول كيف ان جونسون غضب من اشاعة نسبت اليه أنه رأى شبحاً في كوك - لين . وكتب مقالة في دحضها .

أبو الهول

ما كان يجوز لي ان أتجاوز عن ذكر قطع رأس اللويثان قبل ان يتم سلخه كاملاً . وقطع رأسه عمل علمي تشريحي يزهو به جراحو الحيتان المدربون كثيراً ، ومن حقهم ان يفعلوا . اعلم أنه ليس للحوت ما قد يسمى رقبة ، بل ان أغلظ جز فيه انما هو ذلك الموضع الذي يلتقي فيه رأسه بجسمه ، وتذكر ان الجراح لا بد ان يأتيه من علي ، فيكون بينه وبين الجثة ثمانية أقدام او عشرة ، وهذه الجثة تكاد تكون مخفية في ماء عكر متضرب ، كثيراً ما يكون صخاباً خبيط الامواج . ولا تنس ايضاً ان عليه تحت هذه الظروف المنحوسة ان يبلغ حزة عدة أقدام عمقاً في لحم الحوت . وفي حالة هذا الاندفاع الفائر لا يستطيع ان ينال نظرة واحدة من الجرح الرغيب المتشجع الذي أحدثه ، ومع ذلك فان عليه ان يتحاشى بمهارة الأجزاء الجانبية المجاورة للمحز ، التي يحرم عليه ضربها ، وأن يسدد الضربة بحيث يشق النخاع في النقطة المبتغاة عند بداية دخوله في الجمجمة ، دون طيش او خلل . اذا عرفت كل ذلك ووعيته أفليس من حقك ان تعجب وأنت تسمع اسطب يتبجح قائلاً انه لا يحتاج الا الى عشر دقائق كي يحتز رأس حوت المنبر ؟

ما إن يقطع الرأس حتى يدحرج نحو الكوثة ويظل هنالك ممتسكاً بحبل الى ان يتم سلخ الجلد ، فاذا تم ذلك وكان الرأس رأس حوت صغير رفع على ظهر السفينة حتى يجري تدبيره في تبصر وأناة ، غير أن هذا أمر مستحيل ان كان اللويثان قارحاً كبيراً لان رأس حوت المنبر يبلغ ما يقرب من ثلث حجمه كله ، ومن العبث ان يحاول أحد تعليق مثل هذا الوزن ، حتى ولو كانت العلائق هي المرفاعين الضخمين في حواته ، فمثل هذا يشبه من يحاول أن يزن هزناً هولندياً بميزان الجوهري .

أما حوت الباقوطة فان رأسه ، بعد ان فصل عنه وسلخ جلده ، رفع ازاء جانب السفينة -

فظهر نحو نصفه فوق الماء بحيث يظل محمولاً في معظمه على المادة التي ألفها . وهناك يظل الرأس الذي يقطر دماً معلقاً على خصر الباقوطة كأنه رأس المارد هولوفرنس يتدلى من نطاق يوديت^(١) . بينا الباقوطة مشدودة منحنية بانحدار فوقه بسبب الانحناء العنيف الذي مال فيه الصاري الأدنى وقد تتأت كل دعامة سائدة فيها على ذلك الجانب كأنها « وئش » مشرف على الامواج .

كان الوقت ظهراً حين نجزت هذه المهمة الأخيرة ، ونزل البحارة لتناول الفداء ، وخيم الصمت على ظهر السفينة الذي كان من قبل صاخباً فأصبح مهجوراً - ؛ رهو نحاسي راسخ كأنه نيلوفر أصفر غامر ، كان ما يزال يفتح أوراقه الخرساء الفضفاضة المترامية فوق وجه البحر .

ومرت فترة قصيرة وإذا بأخاب وحده يصعد من قمته الى أحضان هذا الصمت العميق . فدار بضع دورات على الربعة خلف الدقل الأعظم ، ثم توقف يحدق عند جانب السفينة ، ثم تخطف ببطء الى السلاسل الكبرى وتناول مجرفة اسطبة الطويلة - وكانت ماتزال هنالك بعد أن فصل رأس الحوت عن جسده - وغرزها في الجزء الأدنى من الكتلة المعلقة نصف تعليق ، ثم وضع طرفها الآخر مثلما يوضع العكاز تحت أحد ذراعيه ووقف متكئاً وعيناه مسلطان في تنبه شديد على ذلك الرأس .

كان رأساً أسود مقلساً ، معلقاً في وسط تلك الهدأة العميقة فبدأ وكأنه رأس أبي الهول في الصحراء ؛ فتمتم آخاب قائلاً : « تكلم أيها الرأس الرؤاسي الوقور ، فإن لم يكن لك لحية تزينك فإنك تبدو هنا وهناك أشيب بما علق من طحلب ، تحدث أيها الجبار وخبرنا عن السر فيك . أنت بين القامسين أبعدهم قمساً . ذلك الرأس الذي يتلألأ الآن فوق الشمس العلوية قد جاب قرارة الكون حيث أسماء غفل وأساطيل مجهولة يعلوها الصدا ، حيث آمال حبيسة ومراس كثيرة يدركها البلى ، حيث هذه الأرض الفرقاطة قد تطرمت في وقفعتها المهلكة بعظام الملايين الذين غرقوا ؛ هنالك في دنيا الماء الرهيبة هنالك كان موطنك خير موطن تألفه . لقد كنت حيث لا يبلغ صوت جرس أو جسم غاطس ، كنت تنام الى جانب كثير من البحارة ، بينا الأمهات مسهدات يمنحن حياتهن رجاء أن يلحدن جثثهم . ولقد رأيت الحبيبين الحبيسين يقفزان من السفينة المحترقة ، غرقا والقلب على القلب بين الأمواج

(١) سفر يوديت من الاسفار الابوكريفية . وهو يقص قصة غزو الملك الاسوري هولوفرنس وحصاره لمدينة بيثوليه . وكيف ذهب الأرملة يوديت وخادمتها لإغرائه ولما سكر في مادة أقيمت في اليوم الرابع قطعت رأسه وحملته في جراب الطعام الى المدينة . فتشجح البرانيون وطرردوا الأسوريين .

المصطفقة ، صدقا المهد حين تبتد السماء لهما كاذبة ؛ رأيت الضابط القليل يقذف به القرصان في منتصف الليل عن ظهر السفينة ؛ ساعات قضاها وهو ينحدر في ظلمة الفك الناهم ومايزال قتله يبحرون سالمين - بينا البروق الخاطفة تهز السفينة المجاورة التي كان في مقدورها أن تحمل الزوج الأمين الى ذراعين مبسوطتين مشتاقتين . آه أيها الرأس لقد رأيت ما يكفي ليشق الكواكب ويجعل من ابراهيم الحنيف جانفاً ولم تنبس بحرف « واحد » .

وصاح صوت مزهو من أعلى الصاري الرئيس ؛ « هذا شرعاً ! » فصاح آخاب وقد انتصب فجأة ؛ « صحيح ؟ هذا شيء مفرح » وأخذت تنزاح الفصائم الراجعة عن جبهته جانباً وأضاف ؛ « هذه الصيحة الناعشة في هذا السكون الراكد قد تحول رجلاً خيراً مني عن معتده - كم تبعد ؟ » .

- « ثلاث درجات عن يمين المقدمة يا سيدي وهي ترافق النسيمات نحونا » .

- « خير وأبقى يا رجل . ليت القديس بولس جاء معها وجاءني بالنسيمات لتنعش ركودي . آه أيتها الطبيعة ، وأنت يا روح الإنسان ما أبعد وفاقائك المترابطة عن أن يحقها تعبير ؛ ليس في الكون ذرة تتحرك وتعيش على هذه الكرة إلا ولها صنو ذكي يعيش في العقل » .

قصة السفينة يربعام

انطلقت السفينة والنسمات يداً بيد مصطحبتين ، إلا أن النسمات جاءت أسرع من السفينة ، فأخذت الباقوطة تتمايل .

ومن خلل المنظار تبين لنا - تدريجاً - أن قارب أولئك الغريباء ومراقب الصواري المزودة بحراسها في سفينتهم تدلّ على أنها سفينة تحويت ، ولكن حيث أنها كانت مبعدة نحو مهبّ الرياح ، منطلقة ، غادية فيما يبدو الى مجال صيد آخر ، فإن الباقوطة لم تكن ترجو أن تبلغها ، ولذلك رفعت شارتها لتعرف أي جواب تتلقاه .

لابد من أن أقول في هذا المقام إن لكل سفينة من سفن أسطول التحويت الأمريكي شارتها الخاصة ، شأنها في ذلك شأن السفن الحربية ، وكل الشارات مدونة في كتاب ، وإزاء كل واحدة اسم السفينة التي تحملها ، وقد زوّد كل قبطان بنسخة منه ، ومن ثم كان في مقدور قباطنة التحويت أن يميزوا السفن وهي في البحر ، على مسافة غير قصيرة ، بقدر غير قليل من اليسر .

أجابت السفينة الغربية أخيراً على شارة الباقوطة حين رفعت شارتها ، فإذا بها سفينة اسمها « يربعام » من نانتوكت . وبعد أن بسطت سواريتها المصوبة نحو الخلف ، تحرّفت قليلاً وجعلت وجهتها على زاوية قائمة ضد المهب من الباقوطة وأنزلت قارباً ثم اقتربت ، فأمر استاريك أن يهَيء السلم الجانبي ليكفل صعود القبطان الزائر ، وعندئذ لوح هذا الغريب بيده من مؤخرة قاربه بما يفهم منه أن هذا الاجراء غير ضروري أبداً ، وتبين أن مرضاً معدياً قد انتشر في يربعام وأن قبطانها ما يهيو يخشى أن تنتقل العدوى الى عصابة الباقوطة . نعم إنه هو وملاحو قاربه ظلوا سالمين ، وكانت سفينه على بعد نصف طلقة من الباقوطة والبحر والهواء الواقيان يتدحرجان ويجريان فيما بين الفريقين ، إلا أنه امتثل بوحي ضميره

لإجراءات الحجر الصحي على البر فأبى إياه مطلقاً أن يقارب الباقوطة مقاربة المتصافحين .
ولكن هذا لم يحل أبداً دون الاتصال ، فقد ظلت مسافة بضع ياردات تفصل بين قارب
يربعام والباقوطة ، وظلّ ملاحو القارب باستخدامهم للمجاديف حيناً بعد حين ، يدبرون بقاء
القارب موازياً للباقوطة ، فيما هي تتحرك متناقلة في الماء (وكانت النسماّت قد هبت حينئذ
منعشة) ، وشراع قمة الصاري الرئيس متقاعس للخلف . هذا وإن كان القارب أحياناً ينساق
بعيداً أمامها إذا فاجأته موجة كبيرة مندفعة ، إلا أن ملاحيه الماهرين كانوا يعيدونه توالياً
وضعه الصحيح . وجرت بين الفريقين محادثة كانت عرضة لمثل هذا ولغيره من أسباب
الانتطاق . وأحياناً أخرى كان توقف هذه المحادثة ناشئاً عن أسباب أخرى جدّ مباينة
للأولى :

فقد كان أحد الملاحين في قارب يربعام رجلاً ذا مظهر فريد ، يتجلى تفردّه حتى في
حياة التفرد هو محمّل كل شيء . كان صغيراً قصيراً أميل إلى الشباب ، منقَط الوجه
بالكلف ، يلبس شعراً أصفر سابغاً كثيفاً . ويلتف حوله معطف طويل مفصل تفصيلاً غريباً
شاذاً ، ذو لون كلون الجوز باهت ، وقد طوى كميّه الفانضين فأنحسرا عن معصيه ، وفي
عينيه سهوم عميق مستقر حاد .

وماكاد اسطب يبصر هذا الرجل حتى هتف : « ها هو! ها هو! المهرج ذو المعطف
الطويل الذي أنبأنا عنه بحارة تاونهو! » وكان اسطب يشير بذلك إلى قصة غريبة رويت عن
« يربعام » وعن أحد الرجال بين ملاحيهها ، في وقت مضى حين جرى الحديث بين الباقوطة
وتاونه . وحسب هذه القصة ، ثم ما عرف من بعد ، بدا أن هذا المهرج المذكور قد أحرز
سلطاناً بعيداً عجيباً على كل امرئ في يربعام . وهذه هي قصته :

ترسى في الأصل في مجتمع ملتان مؤلف من الدراويش الرقاصين (Shakers) في
نسكيونا^(١) ، فكان بينهم متنبأ كبيراً ، وكثيراً ما هبط عليهم من السماء في اجتماعاتهم
السرية الهاذية من طاقة في السقف ، معلناً أنه يفتح على التوّ الجام السابع^(٢) الذي يحمله
في جيب صدارته ، إلا أنه من المفروض أن يحتوي على الأفيون بدلاً من مسحوق البارود ؛
وقد تملكته نزوة رسالة فغادر نسكيونا إلى نانتوكت ، حيث انتحل بقوة الخبث الذي يمتاز

(١) نسكيونا على نحو ثمانية أميال إلى الشمال من الباني (نيويورك) ، هناك أسست آن لي وأتباعها أول جمعية شيكرية سنة
١٧٧٦ . وكان الاتباع يرون فيها نجباً ثانياً للسبح في صورة امرأة . وقد جعلوا الملكية مشاعاً بينهم ونذروا البثّل . وقال بعض
من كتبوها بروح عدائية : إنهم يشبهون المانوية ويرقصون عراة ويجلدون بعضهم بعضاً عراة كذلك .
(٢) انظر روثيا يوحنا ١٦ ، ١٧ « ثم سكب الملاك السابع جامه على الهواء . فخرج صوت عظيم من هيكل السماء . من العرش . قائلا : قد
تم » . ويرى بعض الشراخ أن هذا يرمز إلى الاعلام بسقوط رومة .

به الجنون مظهرًا عاقلًا ركيناً ، وتقدم في هيئة بخار غرّ ليكون أحد الزاهيين في رحلة يربعمام للتحويت ، فقبلوه ، ولكن ماكادت السفينة تغيب عن البرّ حتى انفجر جنونه فياضاً فادعى أنه جبريل رأس الملائكة وأمر القبطان أن يقفز من فوق ظهر السفينة ، وأذاع بياناً نصب به نفسه منقذاً لجزائر البحر ، وكاهناً على كل الأوقيانوسات . وقد أعلن هذا كله في رصانة راسخة لا تهن ، واتحدت هذه الرصانة مع أطوار خياله القائم الجسور الشائر ، ومع كل المفزعات المخارقة التي يولدها البحران الهادي فأكسبت « جبريل » هذا في عقل الأغلبية من الملاحين الجهلاء جواً من القداسة . أضف الى ذلك أنهم كانوا يخشونه ، ولما كان مثل هذا الرجل غير ذي نفع عملي على السفينة ، وبخاصة أنه كان يأبى أن يعمل إلا حين يشاء ، فقد كان القبطان الذي لا يؤخذ بمثل شعورته على استعداد لأن يتخلص منه ، وحين أبلغ رأس الملائكة أن هدف القبطان هو أن ينزله في أول مرفأ ملائم فتح كل محتوماته وجاماته ، ودعا على السفينة وكل من فيها بالهلاك المطلق إذا نفذ ذلك الهدف . وكان أثره على حواريه بين الملاحين بالغاً حتى أنهم ذهبوا أخيراً مجتمعين الى القبطان وأخبروه أنه لن يبقى في السفينة منهم أحد إذا هو أبعد جبريل عنها . لذلك اضطر الى أن يتخلى عن خطته . ثم انهم ألوا ألا يسمحوا بأن يتعرض جبريل لمعاملة سيئة أياً كان ما يفعله أو يقوله ، حتى اتفق أن أحرز جبريل حرية كاملة في السفينة ؛ وكانت نتيجة ذلك كله أن رئيس الملائكة قلما احتفل بشأن القبطان والضباط ، ومنذ أن انتشر المرض المعدي زادت سطوته أكثر من ذي قبل معلناً أن - الطاعون الذي سمّاه كذلك - تحت أمره ونهيه ، وأنه لن يتدخل في إيقافه إلا حين يروقه ذلك . فكان البحارة ، أولئك المساكين ، يتملقونه متذللين وبعضهم يداهنه اذا حضر . وأحياناً كانوا يؤدون له فروض الولاء امتثالاً لتعاليمه كأنهم في حضرة إله . مثل هذه الأمور قد تبدو غير قابلة للتصديق ولكنها صحيحة مهما تكن عجيبة . وتاريخ المشعوذين لا يبلغ في إثارته من حيث ما يمارسه المشعوذ نفسه من خداع ذاتي لا يحصر ، إلا مبلغاً يسيراً إذا قيس بقدرته التي لا تحد على مخادعة الآخرين وخبثهم . لكن حان الوقت لنعود الى الباقولة .

قال القبطان آخاب من حافة السفينة يخاطب القبطان مايهيو الذي كان يقف في مؤخرة القارب « أنا لا أخشى هذا المرض المعدي أيها الرجل ، تعال ، اصعد الى السفينة » .

فهب جبريل واقفاً على قدميه ، وقال :

« اذكر الحمى ، الصفراء منها والصفراوية ، واحذر الطاعون المخيف » .

فصاح القبطان مايهيو : « جبريل! جبريل! عليك إيمان... » .

وفي تلك اللحظة دفعت موجة عامدة القارب بعيداً الى الأمام وأغرقت وشوشتها كل حديث .

فقال آخاب حين عاد القارب الى موضعه : « هل رأيت الحوت الأبيض » .

- « اذكر كيف ينشق قارب التحويت ويفرق . احذر الذنب المرعب » .

- « أقول لك يا جبريل مرة أخرى... » واندفع القارب مرة ثانية الى الأمام كأنما تجره الأبالسة ، ولم يقل أحد شيئاً خلال لحظات ، بينما كانت تتوالى موجات ساخبة في تدحرجها ، لا ترفع القارب وإنما تحاول أن تقلبه ، حسبما تجيء أحياناً بعض نزوات البحر العارضة . وفي الوقت نفسه كان رأس الحوت المرفوع يتأرجح بعنف ، وكان جبريل يلحظه بوعي لا تبيحه كثيراً طبيعته الملائكية .

ولما ان انتهت هذه الفاصلة بدأ القبطان مايهيو يقص قصة قاتمة عن موبى ديك ، ولم يمض حديثه مسترسلاً دون مقاطعة من جبريل ، حين كان اسمه يذكر ، ومن البحر المجنون الذي كان كأنه متحالف معه .

وتبدي أن « يربعمام » لم تكن قد غادرت الوطن منذ مدة طويلة وأنها تحدثت الى حوامة أخرى ، فعلم ناسها علماء يقينياً بوجود موبى ديك والدمار الذي أوقعه . وتشرب جبريل هذه الأخبار في جشع فأخذ يحذر القبطان في جد رصين من مهاجمة الحوت الأبيض ، إذا ما ظهر ذلك الوحش ذات يوم ، معلناً في جنونه الهادي أن الحوت الأبيض ليس سوى تجسد يمثل الرب الذي يؤمن به الدراويش الرقاصون ، والدراويش يتلقون التوراة . ولكن بعد سنة أو سنتين روى موبى ديك من مراقب الصواري وأخذ ماسي رأس الضباط يتحرق شوقاً وحماسة للقائه ، وكان القبطان نفسه يرغب في أن لا يحرمه من تلك الفرصة ؛ ورغم شكاوى رأس الملائكة ونذره ، فقد استطاع ماسي أن يقنع خمسة من الملاحين بمرافقته في قاربه ، فاندفع معهم ، ووفق أخيراً - بعد تجذيف كثير مضنٍ وهجمات عديدة خطيرة مخففة - في أن يحقق ضربة صائبة واحدة . وفي الوقت نفسه كان جبريل قد سعد الى قمة الصاري الملوكي وأخذ يقلب ذراعه في حركات مخنقة ويقذف بالتنبؤات عن المصير العاجل للمهاجمين الجزائريين الذين يتعقبون ما زعمه رياً . وبينما كان ماسي الضابط يقف في مقدمة قاربه وهو ينفث هتافاته الوحشية ضد الحوت ، بكل ما أوتيته من طاقة سادرة عرفت بها قبيلته ، ويتأتى لعله يصادف سانحة يقذف فيها حربته المسددة ، عندئذ يا للهول! ارتفع من الماء شبح أبيض عريض ، استل الأنفاس من أجسام المجذفين مؤقتاً بحركته السريعة الخطارة ، وفي اللحظة التالية طار الضابط المنكود وهو ممتلئ حياة متوقدة ، في الفضاء ، ثم

هوى في انحناءة طويلة القوس وسقط في البحر على مسافة تبعد حوالي خمسين ياردة عن القارب ؛ لم تمس شذرة من القارب ولا شعرة في رأس أي مجذف بأذى وإنما غطس الضابط وغاب الى الأبد .

ولابأس أن أستلرد في هذا المقام على سبيل التوضيح فأقول إن هذا النوع من الحوادث المهلكة في صيد حوت العنبر ربما كان مثل غيره من الحوادث الأخرى من حيث تكرره ، فأحياناً لا يصيب الأذى إلا الرجل الذي حاق به الهلاك ، وأحياناً أخرى يفصل مقدم القارب عن جسمه أو يفصل اللوح الذي يقف عليه رائس القارب من موضعه ويذهب مرافقاً جثة الرانس ، ولكن أغرب شيء في الأمر في غير حادثة أنه حين تسترد الجثة لا يرى فيها أي أثر لعنف وإنما كل ما هنالك أن الرجل مات متخسباً .

رأى من في السفينة ذلك المصاب كله وشهدوا كيف هوى ماسي بوضوح . وصاح جبريل بالملاحين الذين ضرب الخوف على قلوبهم يحذرهم من التمادي في صيد الحوت هاتفاً ، «الجام! الجام!» وهذه الحادثة المفزعة وشحت رأس الملائكة بمزيد من نفوذ لأن حواريه السذج اعتقدوا أنه تكهن بالحادث عينه بدلاً من أن يعتقدوا أنه أرسل نبوءة عامة يستطيع أن يرسل مثلها أي إنسان ، واتفق له أن أصاب علامة من بين العلامات الكثيرة التي تقع في مجال الرماية . ومن ثم أصبح رعباً راعباً على السفينة .

وما ان ختم مايهيو قصته حتى طرح آخاب عليه أسئلة لم يملك القبطان الغريب معها إلا أن يتساءل : أيهدف آخاب الى صيد الحوت الأبيض إن سنحت لذلك فرصة ؟ فأجابه آخاب : «أجل» ، فانتصب جبريل على التواقفاً مرة أخرى وحدق في الرجل العجوز وصاح بصوت حاد وإصبعه تشير الى الماء : «اذكر ، اذكر الكافر الجاحد - مات ، وغيبته الأعماق احذر سوء خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد!» .

فاستدار آخاب جانباً ببلادة ، ثم قال لمايهيو : «أيها القبطان ، ها لقد خطرت ببالي الآن حقيبة الرسائل ، ففيها رسالة لأحد ضباطك إن لم أكن مخطئاً . استاربك هاتها من الحقيبة» .

كل حوامة تحتقب عدداً غير قليل من الرسائل لناس على سفن مختلفة ويعتمد تسليمها لأصحابها على المصادفة التي قد تيسر اللقاء بين السفينتين في عرض المحيطات الأربعة ، ولذا فإن معظم الرسائل لا تصل الى حيث وجهت ، وكثير منها لا يتسلمه أصحابه إلا بعد أن يبلغ من العمر سنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر .

عاد استاربك توأ وفي يده رسالة ؛ كانت مئاة مكسرة الحواشي رطبة ، مفضاة بطبقة

من العفونة الكابية البقعاء المخضوضرة لأنها أودعت في قمطر مظلم في القمر - رسالة .
يصلح أن يكون ساعي البريد الذي يحمل مثلها هو الموت نفسه .
فقال آخاب : « ألا تستطيع أن تقرأ العنوان ؟ هاتها يا رجل . نعم ، نعم ، إنه خط باهت -
ما هذا ؟ » وبينما كان يمعن فيها النظر تناول استاربك عصا مجرفة الجزارة الطويلة ، ومشق
بسكينه طرفها ليدخله في طرف الخلاف وبذلك يسلمها للقارب ، دون أن يقترب دانياً من
السفينة .

وفي الوقت نفسه كان آخاب يتمم وهو يرفع الرسالة بيده : « مستر هار ، نعم هاري
(هذا خط دقيق كتبته امرأة - أراهن أنها زوجته) نعم : مستر هاري ماسي ، السفينة يربعم -
لكن هذه باسم ماسي ، وماسي قد مات! » .

فتنهذ مايهيو قائلاً : « مسكين! مسكين! ومن زوجه أيضاً ، لكن لا بأس هاتها » .
فهتف جبريل بأخاب : « لا . احتفظ بها لنفسك فإنك سائر في الأثر عما قريب » .
فصرخ آخاب : « خنقتك اللعنات! - قف يا قبطان مايهيو إزائي حتى تتناولها » . وأخذ
الرسالة المشؤومة من يد استاربك ، ودس طرف العصا فيها ، ثم مدها بها الى القارب .
وحين فعل ذلك توقف المجذفون شاخصين عن التجذيف فانساق القارب قليلاً نحو مؤخرة
السفينة حتى أصبحت الرسالة فجأة ، وكأن ذلك تم بفعل السحر ، قريبة من يد جبريل
المتلهفة ، فأطبق عليها يده توأ ، وتناول سكين القارب ، وغرزاها في الرسالة ، ثم أرسلهما
معاً الى السفينة ، فوقعتا عند قدمي آخاب ، ثم زعق جبريل في رفاقه أن يباعدوا التجذيف ،
وعلى هذا النحو جرى القارب المتمرد مندفعاً نائياً عن الباقوطة .
وحين استأنف البحار - بعد هذه الوقعة - عملهم في جلد الحوت المحوا الى كثير من
الأشياء القريبة وهم يومنون الى هذا الحادث العجيب .

حبل القرد

يكثر الملاحون من الجري رانحين غادين أثناء العمل الصاخب في تقطيع الحوت وحراسته . فقد يتطلب العمل وجود عمال هنا ، ثم يعود فيتطلب وجودهم هناك ، ولذلك لا يقر قرارهم في موضع واحد ، إذ لابد من انجاز كل شيء أينما كان في وقت معاً . وهذا هو نفسه ما يلزم بمن يحاول أن يصف ذلك المشهد ، ولذا كان علينا أن نعاود الخطأ قليلاً ، فقد ذكرنا أن كلوب التشحيم يوثق في التجويف الأصلي الذي أحدثته مجارف الضباط حين جوفت ظهر الحوت أول مرة . لكن كيف يمكن لكتلة ثقيلة راجحة كذلك الكلوب أن تعلق في ذلك التجويف ؟ لقد أدخلها فيه صديقي الحميم كويكوج وكانت وظيفته من حيث هو زراق أن يهبط على ظهر الوحش من أجل تحقيق تلك الغاية المشار إليها ، وتتطلب الظروف - في حالات متعددة - أن يبقى الزراق فوق الحوت حتى تتم عملية تأريب الحوت أو سلخها كاملة . ولتعلم أن الحوت يستلقي وهو يكاد يكون مغموراً كله بالماء إلا الأجزاء المواجهة التي تجري فيها عملية السلخ أو التأريب . وبذا يجهد الحوات المسكين جهده وهو في الأسفل على بعد نحو عشرة أقدام تحت مستوى ظهر السفينة ونصفه على الحوت ونصف في الماء كلما دارت الكتلة الجسيمة من تحته كأنها الطاحونة . أما في هذه المناسبة التي نحن بصدها فإن كويكوج تزيًا بزي أهل المرتفعات ، أي لبس قميصاً وجرياناً ، وبدا لعيني - إن لم يكن في عيون الآخرين - وقد أفاد كثيراً من زيه الجديد ، ولم يتح لأحد مثلي أن يرى ذلك كما رأيته ، وذلك ما سأبينه بعد قليل .

ولما كنت أنا الملاح المقدم في قارب هذا الهمجي ، أي الشخص الذي يحرك المجذاف الواقع عند مقدمة قاربه (وهو الثاني من أمام) ، كانت مهمتي البهيجة أن أراعاه وهو يقوم بزحفه العسير المتشبه الكدّام على ظهر جثة الحوت . لعلك رأيت غلماناً إيطاليين

يعزفون وهم يرقصون قرداً مربوطاً بحبل طويل . كذلك أيضاً وأنا عند شفا جانب السفينة المتحدر ، أرسلت كويكوج أسفل مني في البحر مربوطاً بحبل يسمونه في حرفة التحويت «حبل القرد» ، وهو موثق بقطعة قوية من الخيش تمتد حول كويكوج بها حول خصره .

وكان العمل خطراً لكلينا على نحو ساخر عابث ، إذ عليّ أن أقول قبل المضيّ قدماً إن حبل القرد كان معقوداً من كلا طرفيه : معقوداً حول نطاق كويكوج الخيشي العريض ومعقوداً بنطاق الجلدي الدقيق . ولخير أو لشرّ أصبحنا مؤقتاً مقترنين معقوداً فيما بيننا . فلو أن كويكوج المسكين غطس فلم يبرز أبداً لتطلبت العهود الوثيقة والعادة العريقة أن أنجز في أثره لا أن أبتّ حبل الوصل بيننا ، كان يربط بيننا - إذن - رباط سيامي مديد . وكان كويكوج أحمأ توأمأ لي لا ينفصل مني ، وأنا عاجزٌ عن أن أتخلص من الاحتمالات الخطرة التي تترتب على ذلك الوثاق القنبي .

وتأملت في حالي حينئذ تأملاً قوياً فلسفياً وأنا أرقب حركاته في اهتمام ، فكأنني أدركت بوضوح أن فرديتي انغمرت في شركة متضامنة قوامها اثنان ، وأن إرادتي الحرة قد أصيبت بطعنة نجلاء مميتة ، وأن خطأ امرئ آخر أو سوء طالع قد يغمس ذاتي البرينة في غمرة هلكة وموت دون جنابة أجنبيها . لذلك رأيت في هذا الموقف «فترة خلاء» أو توقف في العناية الإلهية ، لأن يد المساواة السوية لديها لا يمكن أن تجيز مثل هذا الظلم الصراح . ومضيت في التأمل وأنا أنتشله حيناً بعد حين ، من بين الحوت والسفين ، حيث قد يعتمر حشراً ، أقول : مضيت في التأمل فرأيت موقفي هذا هو موقف كل حيّ ذي نسمة تماماً ، إلا أن هذا الحيّ ، في أغلب الأحوال ، يكون مربوطاً بالوثاق السيامي ذاك الى كثرة كاثرة من الأحياء لا الى واحد فقط . فإذا أفلس البنك الذي يعامله أصيب هو بالانهيار ، وإذا أرسل له الصيدلاني السمّ خطأ في حبات الدواء قضى نحبه . حقاً قد تقول لي إن المرء قد ينجو بالحيلة البالغة من مثل هذه المصادفات السيئة في الحياة ومن كثير غيرها . لكن لو أنه أمسك حبل القرد الذي يرتبط به كويكوج في حيلة وتنبه مثلما فعلت أنا ، فهل تراه ناجياً ؟ لقد كان كويكوج يشده أحياناً حتى أكاد أنزلق من فوق ظهر السفينة ؛ ولم يبارح خاطري قط ، مهما تناسيت الأمر ، أنني لم أكن أملك التصرف إلا بطرف واحد من ذلك الحبل* .

ألمعت الى أنني كثيراً ما كنت أنتشل كويكوج المسكين ، من بين الحوت والسفين ،

* كل الحوانات مزودة بحبل القرد هذا ، ولكن الباقولة انفردت دون الحوانات بربط «القرد والقرد» في قرن . ومثل هذا التحسين على المادة السليمة إنما ابتكره شخص في مثل كفاية اسطب ، لكي يهين للزراق المحضوف بالخطر أتوى ما يمكن من فرس السلامة ، وذلك عن طريق الرقابة الأمنية التي يقوم بها مسك حبل القرد من الطرف الآخر .

حيث كان يهوي حيناً بعد حين ، بسبب تدحرج الاثنين وتأرجحهما . ولكن لم يكن الهلاك
عصراً وضغطاً هو كل ما يتعرض له . ذلك أن القرشان لم تغزعاها المجزرة التي جرت لها أثناء
الليل فعادت تحفزها وتفري لهفتها من جديد رؤية الدم الذي بدأ يتدفق من الجثة بعد أن
كان فيها حيبساً ، فاحتشدت تلك الحيوانات المسعورة حولها كأنها النحل في الخلية .

وكان كويكوج واقعاً في حومة ذلك الحشد العاشد من القرشان ، وكثيراً ما كان
يصدها عن نفسه بقدميه الجاهدتين . ذلك شيء يكاد يعز على التصديق لولا أن القرشان
المستكلبة التي تنهس أي لحم كان في سائر الأحوال إذا هي أقبلت على فريسة مثل جثة
حوت - تلك القرشان قلما تمس إنساناً .

على أي حال مادام لها في كل عرس قرص فمن الحكمة أن يأخذ المرء حذره منها
ويتوقاها بعين يقظة . ولم يكن جبل القرد وحده وسيلة وقاية للمحافظة على كويكوج ، نعم
كنت أنتشل به ذلك الرفيق المسكين من جوار فكّ قرش أحسبه قرشاً ضارياً بالغ الضراوة ،
ولكنه كان أيضاً مزوداً بوسيلة أخرى من وسائل الحماية ، فقد تعلق كل من طاشطيقو ودغة
على درجة من درجات جانب السفينة وظلا يلوحان فوق رأسه بمجرفتين ماضييتين من
مجارف التحويت ، فيذبحان بذلك كل ما قد يقع في متناول أيديهما من القرشان . وكان هذا
الذي يقومان به عملاً كريماً خلواً من الغرض ، وأنا أقر أنهما كانا يهدفان الى صالح
كويكوج وسعادته ، ولكن مجرفتيهما الرعناوين ، وهما في حماستهما المتهورة لحمايته
والذب عنه ، ربما أطاحتا بخط عشواء برجل إنسان لا بذنب قرش خصوصاً وأن كويكوج
كان يختفي هو والقرشان أحياناً تحت الماء الكدر المختلط بالدماء . غير أنني أقدر أن
كويكوج المسكين ، فيما هو يتشدد ويلهث ومعه الكلوب الحديدي الضخم - كويكوج
المسكين ، فيما أقدر ، لم يصنع شيئاً سوى أنه كان يصلي لإلهه بوجود وقد ترك حياته وديعة
في أيدي آلهته .

وكننت أقول في نفسي إذ أسحب الحبل ثم أرخيه كلما أخبّ البحر : طيب طيب يا
رفيقي وأخي التوأم . ما هنك بعد كل ذلك ؟ ألسنت أنت الصورة الغالية لكل واحد فينا ولنا
مجتمعين نحن الرجال في دنيا التحويت ؟ ذلك الأوقيانوس الذي لا قرار له وأنت تلهث فيه
هو الحياة ، وهذه القرشان هي أعداؤك ، وهذه المجارف هي أصدقاؤك ، وبين القرشان
والمجارف تقف أنت أيها الفتى المسكين بين الحرج والخطر المؤسفين .

لكن ثبات! فما يزال أمامك تهلل مخبوء من أجلك يا كويكوج ؛ ذلك أن هذا الهمجي
المضني تسلق السلاسل أخيراً ، وشفته زرقاوان وعيناه محمرتان ، ووقف هو يقطر ماء

والرعدة تهزه عند جنب السفينة ، ويتقدم أمين المؤمن منه وهو يلحظه بنظرات الطيبة والتهوين ويسلمه - ماذا يا ترى ؟ أسلمه بعض جرع من كونياك لاذع ؟ كلا! بل يسلمه أيها الأرباب ، يسلمه كأساً من الزنجبيل الفاتر المدوف في الماء!

وقرب اسطب وتساءل في ريبة : « زنجبيل ؟ أتراني أشم رائحة زنجبيل ؟ » وحدق في الكأس التي لم تلمسها شفتا كويكوج بعد . ثم وقف كأنه لا يصدق عينيه ، ثم مشى هادئاً نحو النادل المدعور وقال في بده : « زنجبيل ؟ زنجبيل ؟ هل تتكرم فتخبرني أيها السيد العجان ما هي ميزة الزنجبيل ؟ زنجبيل! أهو نوع من الوقود الذي تستعمله أيها الغلام العجان لتشعل النار في هذا الهمجي الذي ترعشه البرداء ؟ زنجبيل ؟ بحق الشيطان ما الزنجبيل ؟ فحم البحار ؟ خشب النار ؟ كبريت الشيطان ؟ حراق ؟ بارود ؟ أقول بحق الشيطان ما الزنجبيل هذا الذي تقدمه في كأس لكويكوج المسكين هنا ؟ » .

ثم أضاف فجأة : « في تقديم الزنجبيل ما يشعر بدسياسة تحيكها جمعية الدعوة الى تحريم الكحول » ، ثم تقدم من استاربك وكان قد عاد لتوه من أمام وقال : « ألا تنظر في هذا العقار يا سيدي ؟ سمّه من فضلك » ثم أضاف وهو يراقب وجه الضابط : « إن أمين المؤمن يا سيد استاربك قد بلغ من القحة بحيث يقدم هذا الكالوميل والجلاب لكويكوج ، وقد عاد لتوه من عند الحوت . هل أمين المؤمن سيدلاني يا سيدي ؟ وهل لي أن أسأل إن كان هذا النوع من المشروب هو الذي تُبعث به الحياة في جسم رجل نصف ميت غرقاً ؟ » . فقال استاربك : « لا أظن ذلك . فهذا شراب بانس جداً » . فصاح اسطب : « أجل أجل أيها العجان سنعلمك كيف تداوي زراقاً . دعنا من أدويتك وطبك ها هنا . تريد أن تسمنا ليس كذلك ؟ لديك وثائق تأميناتنا على الحياة ولذلك تريد أن تقتلنا جميعاً ، وتحصل على التعويضات . مش كده ؟ » .

فصاح الغلام العجان : « لست أنا الذي جلبت الزنجبيل . العمة إحسان هي التي جاءت به الى ظهر السفينة ، وأمرتني ألا أعطي الزراقين أي قطرة من الكحول ، وإنما أعطيهم جرأة زنجبيل (يريد جرعة) » .

« جرأة زنجبيل . يا وغد بشدة امتالك لأمرها ، خذه ، وعدّ به حالاً الى الخزانة وجئ بما هو خير منه . أرجو ألا أكون مخطئاً بهذا التصرف يا سيد استاربك . إنها أوامر القبطان ، أن يعطى الزراق جروكا »^(١) .

(١) grog ، مشروب روحي قوي .

فأجاب استاريك ، « حبيبك . لكن لا تصفمه مرة أخرى وإنما... » .
- « أوه أنا لا أسبب الألم حين أضرب إلا إذا ضربت حوتاً أو شيئاً من نوعه ، وإنما
هذا الغلام ابن عرس . ماذا كنت تريد أن تقول يا سيدي ؟ » .
« كنت أقول : اذهب معه وأحضر ما تريده أنت نفسك » .
فلما عاد اسطب كان يحمل في إحدى يديه قنينة سوداء ، وفي الأخرى نوعاً من علب
الشاي ، أما الأولى فتحوي كحولاً قوياً وقد سلمها الى كويكوج ، وأما الثانية فكانت التحفة
التي جاءت بها العمدة إحسان وقد أهديت عن طيب خاطر للأمواج .

اسطب وفلاسك بصيدان واحداً

من الحيتان الأثينة ثم يشتركان عنده في حديث

لابد للقارئ من أن يتذكر بأنه كان لدينا طوال هذا الوقت كله رأس ضخّم لحوت عنبر ، معلق على جنب الباقوطة . ولابد لنا من أن نبقية مدّلى هنالك فترة من الزمن حتى تسنح لنا الفرصة فنوليه اهتماماً . أما في الحال الراهنة فإن أموراً أخرى تلح علينا ، وخير ما نصنعه الآن من أجل الرأس أن ندعو الله بأن يظل المرفاعان يتحملان وطأة ثقله .

كانت الباقوطة قد انسابت تدريجاً في الماء الليلة الماضية والغداة التي أعقبتها ، وكانت تلوح على الماء بقع متناثرة من القشريات الصفراء فتدل دلالة غير مألوفة في ذلك الموسم بأن الحيتان الأثينة موجودة عن كئيب . وهي فصيلة من اللويثان قلما يظن أحد أنها تتربص في هذا الموسم في أي مكان قريب . وكان البحارة جميعاً يأنفون من صيد هذه الحيوانات الوضيعة احتقاراً لشأنها ، ولم تكن الباقوطة مفوّضة لتجوب مناطق الصيد طلباً لها أبداً ، وقد مرت بأعداد كبيرة منها قرب جزائر كروزيت دون أن تنزل لصيدها قارباً واحداً ، ومع ذلك كله فمذ أصبح حوت العنبر مجنباً الى السفينة مفصول الرأس فقد صدر الإعلان الذي أدهش الجميع بأن صيد حوت اثنين في ذلك اليوم أمر لابد منه إن سنحت فرصة لذلك .

وسرعان ما سنحت الفرصة ، فقد رؤيت نفاثات طويلة في اتجاه الريح ، ونزل قاربا اسطب وفلاسك لمطارقتها ، وظل الملاحون يجذفون مبعدين حتى كادت رؤية القارين تعز على الحراس القائمين فوق المراقب ، وفجأة رأوا على بعدٍ عرمةً عالية من الماء الأبيض المختبط ، وجاء النبأ بعد ذلك من الأعالي يقول إن أحد القارين أو كليهما قد علق بالحوت ، ومرت فترة والقاريان واضحان للأنظار وكأن الحوت يسحبهما على استقامة نحو السفينة ، واقترب الوحش من هيكل السفينة كثيراً حتى خُيل للمناظرين أنه يدبر مكيدة .

ولكنه انقضى فجأة في درودور مائي على مسافة ثلاثة أذرع من الألواح واختفى عن الأنظار تماماً كأنه قمس تحت قاع السفينة ، فانبعثت صيحة من السفينة تقول للقاريين : « اقطعوا الحبل ، اقطعوا » وكان القاريان في لحظة على وشك أن يصطدما بجانب السفينة اصطدامة قاضية ولكن كان مايزال لدى القاريين فضل من حبليهما في البرميلين ، ولم يكن قمس الحوت بالغ السرعة ، فحلاً ما فضل من الحبلين ، وجذفا في الوقت نفسه ، بكل ما لديهما من قوة ليسبقا السفينة ، وكان هذا الجهد في مدى بضع دقائق حرجاً بالغ الحرج إذ لما كان الحبلان المشدودان يرخيان في اتجاه واحد ، والمجاذيف تعمل في اتجاه آخر ، فقد كان الشد المعاكس يهددهما بالانزلاق تحت السفينة ولكن كل ما كانا يريدان كسبه هو بضعة أقدام يفوتان بها السفينة ، فظلا متشبثين بذلك حتى أحرزاه . وعلى التو أحست السفينة برجفة سريعة تسري كالبرق على طول قاعها حين كان الحبل المشدود يحنّ من تحتها ، ثم فجأة ظهر للأنظار تحت مقدمتها وهو يكدم ويهتز ، ثم أخذت القطرات ترفض عنه حتى كانت كأنها كسر من زجاج تتساقط على الماء ، بينما ظهر الحوت للأنظار أيضاً بعيداً عنهما . ومرة أخرى أصبح القاريان طليقين قادرين على اللحاق . إلا أن الحوت المعبي خفف من سرعته ، وغير وجهته على غير هدى وذهب حول مؤخرة السفينة وهو يجبر القاريين خلفه حتى أنها جميعاً كونت دائرة كاملة .

وزاد الملاحون في الوقت نفسه من جرّ الحبلين حتى جانبنا الحوت من ناحيته وأغمد فيه كل من اسطب وفلاسك حربتيهما بالتناوب . وظلت المعركة تدور حول الباقوطة ، بينما اندفعت جموع القرشمان التي كانت تحتشد من قبل حول جثة حوت العنبر نحو الدم العبيط المهراق ثمة ، وهي تجرع جرعات الظامئ من كل دفقة جديدة ، مثلما فعل الإسرائيليون العطاش عندما انبجست لهم اثنتا عشرة عيناً من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه .

وأخيراً تكاثف نفثه وتقلب وتقيأ على نحو مخيف ، واستمر على ظهره جثة هامدة .
وبينا كان رائسا القاريين منهمكين في إعداد حبال لربط ذنبه ، وهما يحاولان بوسائل أخرى أن يضعوا الجثة وضعا يمكن من جرّها ، جرى بينهما حديث ذو شجون :
قال اسطب دون أن يبارحه بعض الاشمزاز إذ تصور أنه صاد حوتاً وضيعاً : « عجباً ما الذي يريده الرجل المعجوز من هذه الكتلة من الشحم الخنزيري القذر » .

فأجابه فلاسك وهو يلف حبالاً احتياطياً في مقدم القارب : « ماذا يريد به ؟ ألم تسمع أبداً أن السفينة التي ترفع رأس حوت عنبر على جانبها الأيمن ورأس حوت أئين في الوقت نفسه على جانبها الأيسر ، ألم تسمع أبداً يا اسطب أنها من بعد لا تنقلب أبداً ؟ » .

- «ولم لا؟» .

- «لا أدري ولكنني سمعت ذلك الشبح الصمغي الأمغر فيض الله يقول ذلك ، ويبدو أنه يعرف كل شيء عن سحر السفن وتعاويذها ، ولكنني أحياناً أحسب أنه سيسحر السفينة التي ما لا تحمد عقباه . أنا لا أميل إلى ذلك الفتى يا اسطب . هل لاحظت أن عمامة شعره مضمفورة في صورة رأس ثعبان يا اسطب؟» .

- «داهية تفرقه! أنا لا أنظر إليه أبداً ، ولكن إن أتيت لي ليلة مظلمة وكان هو عند الحاقّة ولم يكن ثمة أحد... انظر إلى أسفل يا فلاسك» - وأشار إلى الماء وهو يحرك يديه كليهما حركة غريبة «أيوه! أأفعل ذلك يا فلاسك؟ أنا أرى فيض الله هذا شيطاناً متنكراً . هل تصدق تلك الحكاية الخرافية التي شاعت عن أنه أخفي مهرّباً على السفينة؟ أنا أقول إنه الشيطان . أما لماذا لا ترى ذنبه فذلك لأنه يخفيه عن الأنظار وأظن أنه يحمل ذنبه ملفوفة في جيبه ؛ عليه اللعنة! خطر لي الآن وأنا أتصور حاله أنه يحتاج دائماً دسراً ليحشوها في «بوز» حذائه .

- «إنه ينام في حذائه ، أليس كذلك ، إذ ليس لديه أرجوحة ولكنني رأيته الليالي يضطجع في كبة حبل ملفوف» .

- «لا ريب في ذلك ، وكله بسبب ذيله اللعين ، فهو يلفه في نقرة الكبة الملفوفة» .

- «تري أي شيء يفيد منه الرجل العجوز؟» .

- «لعله يبغى مقايضة أو مساومة فيما أظن» .

- «مساومة؟ في أي شيء؟» .

- «إنك لتعلم أن الرجل العجوز متوجه الهمة نحو ذلك الحوت الأبيض ، والشيطان

يحاول أن يلعب بعقله ويجعله يقايض بساعته الفضية أو بروحه أو بأي شيء من هذا القبيل وعندئذ يسلمه موبى ديك» .

- «أف يا اسطب انك لتوغل بعيداً في تفكيرك؟ كيف يستطيع فيض الله أن يفعل

ذلك؟» .

- «لست أدري يا فلاسك ولكن أقول لك إن الشيطان فتى غريب ، شرير كذلك ، إنهم

ليخبرون كيف ذهب يتجول في سفينة العلم القديمة ذات مرة وهو يبصص ذنبه بطريقة شيطانية يسرة كأنه أحد السادة وسأل إن كان الحاكم العجوز في البيت . وكان حقاً في البيت ، فسأل الشيطان ماذا تريد؟ فتقدم الشيطان وهو يتلمب بحوافره وقال له : «أريد جون» . فقال الحاكم العجوز : «لأي غرض؟» فقال الشيطان وقد تنمر غضباً : «وما شأنك

أنت ؟ أريد أن أستخدمه » . فقال الحاكم : « خذه » . وحق الإله يا فلاسك ، لئن كان الشيطان لم يعطِ جون الكوليرا الآسيوية قبل أن يستطيع استمالته فإني رهن بأكل هذا الحوت في لقمة واحدة . لكن حدد البصر - ألم تستعدوا أنتم بعد ؟ حسن ، إذن فلنتقدم مجدفين وليبقِ الحوت على موازاتنا » .

فقال فلاسك حين أخذ القاريان يتقدمان بيده ومعهما حملهما نحو السفينة : « أظنني سمعت مثل هذه القصة التي حكيتها ولكن لا أذكر أين سمعتها » .
- « في الاسبانيين الثلاثة ؟ في مغامرات الجنود الحمقى ؟ هل قرأتها هناك يا فلاسك ؟
أظنك هناك قرأتها » .

- « لا ، لم أر هذا الكتاب أبداً ، غير أنني سمعت به . لكن خبرني يا اسطب هل الشيطان الذي كنت تتحدث عنه آنفاً هو نفس الشيطان الموجود على الباقوطة ؟ » .
« هل أنا نفس الرجل الذي أعان على قتل هذا الحوت ؟ أليس الشيطان يعيش الى الأبد ؟ من سمع أبداً أن الشيطان مات ؟ هل رأيت قسيساً تسلب ثياب الحداد من أجل الشيطان ؟ وإذا كان لدى الشيطان مفتاح يدخل به الى قمرة أمير البحر أفلا تظن أنه يستطيع أن يتسلل من ثغرة في سفينة ؟ ما قولك في هذا يا سيد فلاسك ؟ » .
« كم تقدر عمر فيض الله يا اسطب ؟ » .

فأشار الى السفينة وقال : « هل ترى الصاري الرئيس هناك ؟ حسن . هذا هو العدد واحد . خذ كل الأطواق الموجودة في عنبر الباقوطة ثم اقرنها معاً في صف مع ذلك الصاري لتعد أصفاراً ، فإن هذا لا يمثل رقم البداية في عمر فيض الله ؛ ولو حشدت الحدادين جميعاً ليصنعوا أطواقاً كل طوق منها بمشابة صفر ، لما كانت الأطواق في الكون كافية لتمثل المطلوب من الأصفار » .

- « لكن افهم يا اسطب ، أظنني قبل قليل سمعتك تتبجح بأنك تريد أن تقذف بفيض الله الى البحر ، إن سنحت لك فرصة مواتية . فإن كان هو معصراً بقدر هذه الأطواق التي تحكي عنها ، وإن كان سيعيش الى الأبد فما جدوى أن تلقيه عن ظهر السفينة ؟ خبرني » .
- « أغمسه غمسة ممتازة على أية حال » .

- « ولكنه سيزحف ثانية » .

- « أغمسه مرة أخرى ، وأظلل أغمسه كلما ظهر » .

- « هب أنه خطر في رأسك أن يفمسك أنت ، نعم وأن يفرقك ، فماذا لديك ؟ » .

- « كم أود أن أراه يجرب ذلك ، إذن لحملت فيه بعينين حمراوين حتى أنه لن يجرو » .

على أن يبرز وجهه في قمرة أمير سفينتنا مرة أخرى لفترة طويلة ، وإذن لظل وحيداً في أسفل عنبر^(١) هناك حيث يقطن ، فلا يظهر على الربعات العليا هنا حيث يتسلل كثيراً . لعن الله الشيطان يا فلاسك . أتظنني أخشى الشيطان ؟ من ذا الذي يخافه سوى الحاكم المعجوز الذي لا يجرو أن يقبض عليه ويفلّ يديه بأصغاد مضاعفة ، وذلك هو ما يستأمله ، وإنما يخليه طليقاً يخطف الناس ، أجل بل وعقد عهداً معه يقضي بأن كل من اختطفه الشيطان سواء هو له ؛ أي حاكم هو؟ .

- « وهل تظن أن فيض الله سيخطف القبطان آخاب ؟ » .

- « هل أظن ؟ عما قليل ستعلم ذلك يا فلاسك ، لكنني الآن ذاهب لأسلط عليه عيناً يقظة ، وإذا رأيت شيئاً مريباً يجري أمسكت به من مخنقه وقلت له : اسمع يا « بعل ذباب » إياك أن تفعل ذلك ، وإذا أتى بأي لفظ ، فوالله لأدسنّ خطافاً في جيبه بحثاً عن ذنبه ثم أخذها الى المسحاح ، وهناك ألويه لياً عنيفاً وأدفعه دفعاً حتى ينقطع ذنبه من معقده ، سامع ؟ وأنا أقدر أنه حين يجد نفسه أتر بهذه الطريقة الملتوية فإنه سينسلّ هارباً دون أن يحسّ بلذة الرضا عن وجود ذنبه بين رجليه .

- « وماذا ستصنع بالذنب يا اسطب ؟ » .

- « أصنع به ؟ أبيعه سوطاً وأقول إنه سوط بقريّ حين نعود للوطن ، وماذا غير

ذلك ؟ » .

- « هل تعني ما تقول وما كنت تقوله طوال هذه العودة يا اسطب ؟ » .

- « أعني أو لا أعني ، ها نحن وصلنا السفينة » .

نودي على القاريين أن يسحبوا الحوت الى الجانب الأيسر من السفينة حيث سلاسل الكلاليب وغيرها من الضروريات كانت قد أعدت لتأمين ربطه .

فقال فلاسك : « ألم أقل لك ذلك ؟ نعم ستري رأس هذا الحوت الاثين قد رفع تواء إزاء

رأس حوت العنبر » .

وقد صدق قول فلاسك في الوقت المناسب . وبعد أن كانت الباقوطة تميل بانحدار

شديد نحو رأس حوت العنبر استعادت استواءها كما كانت قبلاً حين توازن الرأسان ، وإن كانت تن تحت هذا العبء الثقيل . إنك إذا علقت على أحد جانبيك رأس الفيلسوف لوك ملت الى ذلك الجانب وعندئذ ما عليك إلا أن ترفع رأس الفيلسوف كانت ، على الجانب

(١) orlop وهو أوطى ريمة في السفينة .

الأخر فيتم التوازن ، ولكنك تقع في ورطة بانسة . بعض العقول تظل الى الأبد وهي تراعي هذا التوازن في حملتها ؛ يا لكم من حمقى! ألقوا هذه الرؤوس التي تشبه الغيم المتلبد من فوق ظهر السفينة وعندئذ تومون بخفة ولا تضلّون .

إن ما اتبع من اجراءات تمهيدية في التخلص من جثة حوت العنبر ، يجري أيضاً في حال جفة الحوت الاثين حين يجنب الى السفينة . إلا أن رأس حوت العنبر يقطع جملة واحدة ، أما رأس الحوت الاثين فيؤخذ منه المشفران واللسان ، وترفع جميعاً الى ظهر السفينة مع تلك العظمة السوداء المعروفة المتصلة بما يسمى « التاج » . ولكن البحارة لم يعملوا أي شيء من هذا القبيل حينئذ وإنما علقت الجثتان كلتاهما وتدلنا عند الكوثة ، فأصبحت السفينة المحملة بالرأسين تشبه بقلأ يحمل عدلين باهظين .

وطوال ذلك كله كان فيض الله يلحظ رأس الحوت الاثين في سكون ، وينقل نظراته دائماً وأبداً من التفضنات العميقة هنالك الى الخطوط في رأسه ؛ واتفق أن وقف آخاب بحيث انطبق ذلك البارسي على خياله ، وإذا كان للبارسي خيال أي خيال فإنه اشبتك مع خيال آخاب وزاد في طوله . وحين مضى الملاحون يجهدون كانوا يتطارحون الحديث في تأملات لابية^(١) حول الأمور التي مرت جميعاً .

(١) نسبة الى (اللاب) سكان لابلاند ، واللاب كلمة سويدية تعني (البدو) وهم في الأصل قبيلة مفولية أنجأنهم الهجمات المتوالية الى أقاصي الشمال من اسكندنافيا وروسيا ؛ وقد جعلهم تجوالهم ومناخ بلادهم والحرف التي يحترفون يؤمنون بالسحرة والسواحر والتمائم والرق .

رأس حوت العنبر - موضع مفارقة

ثمة حوتان كبيران تجاور رأسهما فلتربطهما معاً ولنقرن إليهما رأساً من رؤوسنا . وحوت العنبر والحوت الاثين حسب الجسامة هما أبرز الحيتان ، وهما الحوتان الوحيدان اللذان يصيدهما الانسان بانتظام ، ويمثلان لدى الحوات النانتوكتي طرفي الانواع المعروفة من الحيتان جميعاً . وبما أن الاختلاف الظاهري بينهما ملحوظ على أشده في الرأسين ، وبما أن كلا الرأسين متدل من جانب الباقوطة في هذه اللحظة ، وبما أننا نستطيع أن نتنقل بحرية بين الواحد والثاني وذلك بأن نعبر ظهر السفينة وحسب ، فإني أحب أن أعرف أين يمكنك أن تنال فرصة خيراً من هذه لتدرس علم الحيتان دراسة عملية ؟

وأول ما يلفتك هو المفارقة العامة القائمة بين هذين الرأسين ، كلاهما جسيم دون ريب إلا أن في رأس حوت العنبر اتساقاً رياضياً ، يفتقر إليه رأس الاثين افتقاراً مؤسفاً . وفي رأس حوت العنبر حظ أوفر من قوة الشخصية فإذا رأيته حكمت له لاإرادياً بالتفوق الهائل في أمر الرفعة الشاملة ؛ ومما يزيد من هذه الرفعة في الطرف الراهن لون رأسه الهجان عند قمته فهو يشبه مزيجاً من الفلفل والملح ، وتلك شارة السنّ العالية والتجربة الواسعة . فهو - بإيجاز - ما يسميه الصيادون في مصطلحهم « حوت أشيب » .

ثم لنلحظ أقل أوجه التباين بين الرأسين أعني أهم جارحتين وهما العين والأذن ؛ في مكان قصي على جانبي الرأس ، وفي موضع نازل قرب الزاويتين عند فكي الحوت إذا فتشت بدقة وجدت آخر الأمر عيين لا أهداب لهما ولقد تحسبهما عيني مهر صغير ، وهما لا يتناسبان في صفرهما أبداً مع ضخامة الرأس .

وبما أن عيني الحوت قد ركبتا في جانبي رأسه فمن الواضح أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً واقعاً أمامه تماماً ، مثلما أنه لا يستطيع أيضاً أن يرى ما خلفه ، أعني أن موضع عينية

حيث تقع أذنا الإنسان ، وتستطيع أن تتخيل كيف تكون حالتك وأنت تتلمى الأشياء الجانبية بأذنيك ، وستجد أنك لا تقدر أن تحرز سيطرة بصرية إلا على نحو ثلاثين درجة من الرؤية أمام الخط الجانبي المستقيم للنظر ، وثلاثين درجة الى الوراء ، وإذا كان عدوك يتجه نحوك عمودياً من أمامك ، وقد رفع خنجره في وضح النهار ، لم تستطع أن تراه ، بأكثر مما تراه لو كان يتسلل إليك من ورائك ؛ وإذن لكان لك وراءان ، إن صح التعبير ، إلا أن لك في الوقت نفسه أمامين (جانبيين) إذ ما الذي يجعل الأمام أماماً بالنسبة للإنسان ، ماذا سوى عينيه حقاً ؟

ثم إن أكثر الحيوانات الأخرى التي تخطر على بالي قد ركبت العينان فيها بحيث تمتزج فيهما قوة النظر حتى تتكون لدى الدماغ فيها صورة واحدة لا صورتان ، أما الموقع الفذ لعيني الحوت ، وقد فصلت بينهما عدة أقدام من رأس مصمت ناتئ بينهما كأنه جبل كبير يفصل بين بحيرتين في واديين ، فإنه يفصل تماماً الانطباعين اللذين تتلقاهما الجارحتان كلٌّ على حدة . ولذلك فلا بد للحوت من أن يرى صورة واضحة من هذا الجانب وأخرى واضحة من ذلك الجانب بينا يكون ما بينهما ظلام عميق أو خلاء مديد ؛ وإذن فقد نقول : إن الإنسان ينظر الى الكون من مرقب كالصندوق فيه نافذة واحدة ذات فروازين . أما الفروازان عند الحوت فقد وضعا منفصلين فخلقنا بذلك نافذتين متميزتين ، وشوها المنظر على نحو مؤسف . وهذه الميزة في عيني الحوت شيء لا بد من تذكره في التحويت ، ولا بد للقارئ من أن يتذكره في بعض المناظر التالية .

وقد نأخذ هنا في ذكر مسألة غريبة محيرة كثيراً تتعلق بهذا الأمر البصري المتصل باللوياتان ، غير أنني سأقنع في هذا المقام بلمحة يسيرة فأقول : مادامت عينا الإنسان مفتوحتين في الضوء فالرؤية عمل غير اختياري ، أي أنه لا يملك إلا أن يرى آلياً ما قد يقع أمامه من أشياء . ومع هذا فإن تجربة أي امرئ تدله بأنه يستحيل عليه أن يتفحص شيئين تفصلاً دقيقاً كاملاً - كبيرين كانا أو صغيرين - في لحظة واحدة ولو كان الشيطان متجاورين متلامسين ، وإن كان يستطيع في لمحة واحدة أن يشمل جميع ما يقع تحت عينيه . ولكن إذا فصل الشيطان أحدهما عن الآخر ، ورسم دائرة عميقة السواد حول كل منهما ، فإنه إن شاء أن يرى أحدهما بحيث لا ينسأه أبداً كان عليه أن ينفي الشيء الآخر من وعيه نفسياً تماماً . فكيف يكون الأمر إذن في حال الحوت ؟ حقاً إن عينيه كليهما لا بد أن تعملتا في وقت معاً ولكن هل يكون دماغه يا ترى أشد إحاطة وجمعاً ولباقة من دماغ الإنسان حتى انه ليستطيع في نفس اللحظة من الزمن أن يتفحص في دقة منظورين متميزين يقع أحدهما على

أحد جانبيه ويقع الآخر على الجانب المضاد ؟ فإن كان يستطيع ذلك فذلك فيه شيء عجيب ، كالرجل الذي يقدر أن يتنقل في مسألتين رياضيتين متمايزتين من مسائل اقليدس ، في وقت معاً . وإذا أنت تدبرت هذه المقارنة بدقة لم تجدها نابية مفتعلة .

وبعض الحيتان إذا هاجمتها ثلاثة قوارب أو أربعة أخذت تتقلب وتتذبذب في حركتها على نحو شاذ غريب ، وأدركها الهلع واستبدت بها المخاوف المستغربة كثيراً ، وأنا أظن أن هذا ينجم بطريقة غير مباشرة من الحيرة المحيرة الجازعة التي تعترى إرادتها ، وهي حيرة يوقمها فيها انقسام قوة الابصار في اتجاهين متضادين ؛ ولعل هذا الرأي خاطرة من خاطرات الوهم ، إلا أنها كثيراً ما كانت تبدو لي تفسيراً لما يعيب بعض الحيتان من هلع .

ولا تقلّ أذن الحوت في غرابتها عن عينه ، وإذا لم يكن لك معرفة وثيقة بجنس الحيتان فإنك قد تجوب بنظرك جميع نواحي هذين الرأسين مدة ساعات ثم لا يقع نظرك على أذنه . فليس للأذن أي صوان خارجي ، وفتاتها صغيرة دقيقة حتى لا يكاد القلم يدخل فيها ، وموقعها على مسافة قليلة خلف العين ، وبين الحوتين ، العنبر والأثين ، فرق في الأذن لا بد من مراعاته ؛ فأذن حوت العنبر ذات فتحة خارجية ظاهرة أما أذن الثاني فإنها مخفية وراء غشاء حتى لا ترى من خارج .

أليس عجيباً أن لا يبصر الكون مخلوقاً جسيماً كالحوث إلا بعين كعينه صفراً ، ولا يسمع الرعد إلا بأذن أصغر من أذن الأرنب ؟ ولكن لو كانت عيناه واسعتين كعدستي تلسكوب هرشل الضخم^(١) ، وكانت أذناه رحبتين كدهاليز الكاتدرائيات ، أكان ذلك يجعله نظره أبعد مدى وسمعه أحد ؟ أبدأ . إذن فلم تسعى أن «توسع» عقلك ؟ خير لك أن تجعله دقيقاً نحيلاً .

ثم تعال بنا نستعمل كل ما لدينا من عتلات وآلات بخارية كي نقلب رأس حوت العنبر حتى يصبح عاليه سافله ، ثم لنصعد الى قمته على سلم ونحدق النظر في فمه ؛ - ولو أن الجسم قد فصل منه لاستطعنا على ضوء قنديل أن نهبط الى معدته التي تشبه كهف الماموث بكوتكي^(٢) ، وهو كهف وسيع . ولكن دعنا نستمسك بهذا الثاب ونلقي النظر حيث نحن على ما حولنا . ما أجمل هذا الفم الطاهر البريء ! إنه مخطط من أدناه الى أعلاه ، أو قل مغلف بغشاء أبيض وضئء أملس مصقول كأنه ثوب الزفاف .

ولكن هيا اخرج من موضعك وانظر الى هذا الفك السفلي المشووم الذي يبدو كأنه

(١) هو السير ولیم هرشل (١٧٣٨ - ١٨٢٢) صنع تلسكوباً كبيراً عام ١٧٨٩ وبه اكتشف الفلك السابع للكوكب زحل .

(٢) اكتشف هذا الكهف ادمند لي عام ١٨٢٤ - ١٨٢٥ .

غطاء طويل ضيق فوق صندوق سموط ضخم ، ذو عضادة عند إحدى نهايتيه بدلاً من جانب واحد . فإذا رفعتة حتى جعلته فوق مستوى رأسك وعرضت أمامك صفي أنيابه بدا لك وكأنه متراس فظيع ، وهو كذلك - ويا للأسف - لدى كثير من الأدميين المساكين في حرفة التحويت حين تطبق عليهم هذه « الرزات » بقوة نفاذة . ولكنه أشد فظاعة ، حين تبصره حوتاً ضجراً وأنت على بعد قامات تحت الماء ، وقد عام هنالك معلقاً ، وفكّه الهائل الذي يبلغ طوله خمسة عشر قدماً معلق مدلى على زاوية قائمة مع جسده كأنه صاري اليوم في السفينة . هذا الحوت ليس ميتاً وإنما هو فاتر العزم وحسب ، أو لعله منحرف المزاج ، سوداوي . وهو متراخ منبطح حتى أن عضادتي فكّيه قد استرختا ، وجعلته يبدو في ذلك اللون من الورطة القبيحة عاراً على بني جنسه ، وهم دون ريب يستنزلون عليه داء الكزاز ، ولا بد .

وإذا حضر فنان في شؤون الحيتان فإنه يستطيع أن يفكّ عضادتي هذا الفك بسهولة ، وبذلك يفصل هذا الفك السفلي في معظم الأحوال ويرفع الى ظهر السفينة لانتزاع الأنياب العاجية وللحصول على تلك العظمة الحوتية الصلبة التي يبدع بها الصيادون جميع أنواع الأدوات العجيبة ومنها : القنوات وقوائم المظلات ومقابض سباط الخيالة .

ويجر الفك سعداً على نحو طويل شاق كأنه الأنجر . وحين يحل الوقت المناسب ، أي بعد بضعة أيام تنقضي على الأعمال الأخرى ، يبدأ أطباء الأسنان المتمرسون وهم كويكوج ودغة وطاشطيقو بسحب أنيابه ، فيحسر كويكوج اللثة بمجرفة جزارة حادة ، ثم يربطون الفك الى حلقات في الدر ، ثم يسلطون عليه مرفاعاً موقفاً من الأعلى ويسحبون بقوته الأسنان مثلما تسحب ثيران متشجن جذم السنديانات الهرمة من الغابات البرية . وتبلغ الأسنان اثنتين وأربعين وتكون في الحيتان الهرمة نخرة دون أن تتعفن ، غير أن الحيتان لا تحشوها حسبما يفعل الأدميون . ثم ينشر الفك بعد ذلك في صفائح ويكدّس كما تكدّس الدعامات لبناء الدور .

رأس الحوت الأثين - موضع مفارقة

لنلق نظرة طويلة كاشفة ونحن نعبّر ظهر السفينة على رأس الحوت الأثين . مثلما ان رأس حوت العنبر النبيل قد يقارن في شكله العام بعربة الحرب الرومانية (وخاصة المقدمة حيث يستدير في سعة واستفاضة) فكذلك رأس الحوت الأثين لدى النظرة الشاملة يحمل شبيهاً جافياً بحذاء ضخم ذي «بوز» كأنه مقدّم الجليوت . ومنذ مائتي سنة شبه شكله رحالة هولندي بقالب الحذاء ، وفي هذا القالب أو الحذاء تستطيع المرأة العجوز التي تذكر في حكايات الأطفال أن تسكن آمنة مطمئنة هي وجميع ذريتها .

وما ان تقترب من هذا الرأس الكبير حتى يتخذ له جوانب مختلفة حسب موقفك وأنت تنظر إليه ، فإذا وقفت عند ذروته وتطلعت الى وقبي نفثه اللذين شقا على شكل f حسبت الرأس كله كماناً ضخماً جهيراً ، وحسبت الوقبين ثقبين في الصندوق الذي يخرج منه الرنين . ثم إذا أثبت عينيك في ذلك التطعيم الغريب المقترزع الذي يشبه المشط ، على قمة الرأس - ذلك الشيء الأخضر المحلزن الذي يسميه أهل جرينلاندا : «تاج» الحوت الأثين ويسميه صيادو البحار الجنوبية «قلنسوة» ذلك الحوت - إذا أثبت بصرك على هذا الشيء وحده حسبت الرأس جذع سديانة ضخمة في مقرعها عش طائر . وأنت على أي حال إذا رقيت هذه السرطانات الحية التي تعشش في قلنسوته فلا بد من أن يخطر لك مثل ذلك الخاطر إلا إن كان خيالك قد قيّدته لفظة «تاج» التي تطلق عليه أيضاً ، وفي مثل هذه الحال سيلذك أن تفكر كيف أن هذا الحيوان الجبار ملك متوج من ملوك البحار وقد عصّب بإكليبه على هذا النحو العجيب . ولكن إن يكن هذا الحوت ملكاً فإنه امرؤ متبرم عبوس لا يشرف تاجاً أو إكليلاً . تأمل هذه الجحظة المدلاة ، أي عبوس وتجهم مستفيض هنالك عبوس وتجهّم لو قاس النجار مداهما لجاء حوالي عشرين قدماً في الطول وخمسة أقدام في السُمك ، عبوس وتجهّم تبلغ غلّته خمسمائة جالون من الزيت أو تزيد .

ومن المؤسف أن يكون هذا الحوت المنكود أعلم الشفة ، ويبلغ عَلمُهُ قدماً واحداً في سمته ، ولعلّ أمه ذات يوم من أيام الحمل كانت تبحر عند ساحل بيرو ، حين شقت الزلازل الشاطئي فانفحق . ومن فوق هذه الشفة العلماء نزلق في داخل فمه كما نفعل فوق عتبة زلقة ، ولعمري لو كنت في ما كناو لحسبت. هذا الفم قضاء كوخ هندي . رياه! أهذه هي الطريق التي سلكها يونان ؟ سقفه يبلغ حوالي اثني عشر قدماً وينتهي بزاوية حادة كأن هنالك رافدة رئيسة ؛ أما الجوانب المضلعة المقوسة الشفراء فإنها تقدم لنا تلك الألواح التي تشبه السيف العريض من عظم الحوت وهي نصف رأسية ، ومنها على كل جانب ثلاثمائة ، أصولها في الجزء العلوي من الرأس أو عظمة التاج أو ما سميت « السارة البندقية » وذكرته عابراً من قبل . وقد هدّبت أطراف هذه العظام بألياف شعرية يصفي الحوت الأثين الماء من خلالها ، وبين مشابكها يحتفظ بالسّمك الصغار حين يتجه مفتوح الفم خلال حقول من القشريات في موسم الغذاء . وفي الستائر العظمية الوسطى ، حسبما هو ترتيبها الطبيعي ، علامات وانحناءات وتجويفات وقتن كلها غريبة ومنها جميعاً يحسب بعض البحارة عمر ذلك الحيوان ، كما يقدر عمر السنديانة من رؤية الحلقات الدائرية في جذعها . وهذا التقدير غير موثوق كثيراً ولكن فيه رائحة من الاحتمال القياسي ؛ وإذا سلمنا به - على أية حال - فليتنا أن نقدر للحوت الاثين عمراً كبيراً لا توحى به النظرة الأولى ولا تجده معقولاً .

ويبدو أن الناس حين فكروا في هذه «الستائر» ، في الأيام الغابرة ، ذهبوا فيها مذاهب من الوهم غريبة ممعنة في الغرابة فقد دعاها رحالة في مجموعة بركاس «المجاسن» العجيبة داخل فم الحوت ، ودعاها آخر «شعرات الخنازير» وقال ثالث في بعض رحلات هكليوت مستخدماً لغة أنيقة : «على كل جانب من جانبي هذه المعلمة العليا ما يقرب من مائتي زعنفة وخمسين ، وتتقوس فوق لسانه على جانبي فمه» .

هذه «الزعانف» أو «شعرات الخنازير» أو «المجس» أو «الستائر» أو أيأ ما دعوتها هي - كما يعلم الناس جميعاً - تزود السيدات بالمشاد ، وغيرها من وسائل «التحضير والتكوير» . إلا أن الطلب على هذا النوع بخاصة أخذ منذ عهد بعيد بالتناقص ، وقد بلغت عظام الحوت ذروة مجدها في عصر الملكة آن ، إذ كان لبس الفرنتل حينئذ شائعاً . وكانت السيدات في تلك الأيام يتخطن برشاقة بين فكي حوت - إن جاز القول - ونحن اليوم بمثل انسيابهن السادر نظير عند سقوط المطر متخذين فكي الحوت أداة وقاية إذ ما المظلة إلا خيمة منشورة على عمود من تلك العظام .

لكن انس لحظة ما قيل عن «الستائر» والمجسات ، وانظر وأنت واقف في فم الحوت

الأئين حولك مستأنفاً ؛ فإذا رأيت هذه الأعمدة ذات الأقواس من العظم مرتبة على نسق ألا تظن أنك داخل أرغن هارلم^(١) وأنت تحدد في الألوف من أنابييه ؟ أما البساط الذي يفترشه الأرغن فإنه سجادة من أنعم ريش الدندي - هو اللسان الذي يلتصق بباطن الفم . فهو سمين رخص قابل لأن يتمزق قطعاً إذا رفعته الى ظهر السفينة . هذا هو اللسان نفسه أمام أعيننا أشمله بلمحة وأقول إنه « غلال ستة » أعني أنه يعطي من الزيت ما يملأ ستة براميل .

وكان عليك قبل ذلك أن تستوضح لنفسك صدق ما بدأت به - أعني حين قلت إن رأسي حوت العنبر والحوت الأئين يكادان يكونان مختلفين تماماً . وأجمل ما فصلته فأقول : ليس في رأس الحوت الأئين نبع غزير من الزيت ولا أنياب عاجية وليس فكه الأسفل على صورة ضبة طويلة نحيلة . وليس في حوت العنبر ستائر من العظم ولا جحفلة ضخمة ويكاد أن يكون دون لسان ثم ان للحوت الأئين وقبين للنفث ، وليس لحوت العنبر إلا وقب واحد .

ألق آخر نظرة على هذين الرأسين الوقورين المقلسين ماداما هنا معاً لأن أحدهما سيفطس في الماء بعد قليل لينسى أبداً ولن يتأخر الثاني بعده طويلاً .

هل تستطيع أن تتصور التعبير على وجه حوت العنبر ؟ إنه التعبير الذي مات وهو يحمله ، إلا بعض التجميدات المستطيلة في جبهته فإنها قد انبسطت ؛ وأنا أظن أن جبهته العريضة مليئة بالاطمئنان كأنها سهب من السهوب ، وأنها تولدت عن لامبالاته التأملية نحو الموت ؛ لكن الحظّ التعبير على رأس الحوت الآخر ؛ انظر تلك الشفة السفلى المدهشة وقد لزت عرضاً الى جانب المركب حتى أصبحت تعانق الفك بقوة أسر ، ألا يحدثك هذا الرأس كله عن تصميم عملي هائل في مواجهة الموت ؟ أنا أرى أن هذا الحوت الأئين كان رواقياً وأن حوت العنبر كان أفلاطونياً يمكن أن يعتنق مذهب اسبنوزا في السنوات الأخيرة من عمره .

(١) أقيم هذا الأرغن ١٧٢٥ - ١٧٢٨ وفيه ٥٠٠ أنبوبة ، قطر النليظة منها ١٥ إنشاً وأطولها تبلغ ٢٢ قدماً .

المنجنيق

قبل أن نغادر في هذا المجال رأس حوت العنبر أود لك ، وأنت الفسيولوجي العاقل ، أن تنتبه بخاصة الى جانبه الأمامي في اكتنازه وتحشده ، وأرى أن تستطلع رجاء أن تكون لنفسك تقديراً معتدلاً لبيقاً عن أي قوة منجنيق مستقرة فيه . ها هنا مسألة حيوية فإما أن تسوي هذا الأمر بنفسك أو تظل كافرأ يحدث قد يكون من أشد الأحداث رعباً في التاريخ المدون وإن لم يكن أقلها حظاً من الصحة .

إنك لتلاحظ أن مقدم رأس حوت العنبر وهو سابح في وضعه العادي يمثل خطأ يكاد يكون رأسيًا على الماء ، وأنت تلاحظ أن الجزء السفلي من ذلك المقدم ينحدر متقاعساً بعض الشيء نحو الخلف كي يهيئ مدخلاً يندس فيه الثقب الذي يتلقى الفك السفلي الشبيه بالسارية ، وأنت تلاحظ أن الفم واقع تماماً تحت الرأس ، كما لو كان فمك تحت ذقنك ، ثم أنت ترى فوق ذلك كله أن ليس للحوت أنف ظاهر ، وأن ما لديه من أنف - وهو وقب النفث - واقع في قمة رأسه ، وترى أن عينيه وأذنيه على جانبي الرأس على بعد يساوي ثلث طوله من أمام ، ومن ثم تجد أن مقدم رأس حوت العنبر حانط مصمت جامد ليس فيه جارحة ما أو تنوء حساس من أي نوع كان . زد على ذلك أنك لا بد لك من أن تقدر أن ليس ثمة أي أثر طفيف للعظم إلا في الطرف السفلي المنحدر المتجه نحو الخلف من مقدم رأس الحوت ، وأنت لا تبلغ التطور الحقيقي الكامل إلا بعد أن تقطع ما يقرب من عشرين قدماً من الجبهة ، فهذه الكتلة الضخمة اللاعظمية تشبه حزمة واحدة . وستحدث عما قليل في أنها تحتوي ألطف أنواع الزيت ، ولكن لنحدثك ها هنا عن طبيعة المادة التي تخلف هذا التأنث الظاهري بغلاف منيع لا ينفذ فيه شيء . وصفت لك في موضع سابق كيف أن الشحم يتلبس جسم الحوت مثلما يغلف اللحاء البرتقالية ، وكذلك هو الحال في الرأس مع فرق

واحد ، وهو أن هذا الغلاف حول الرأس غير كثيف ولا يعتمد في جساوته على عظم ، وذلك شيء لا يستطيع أن يقدره حق قدره من لم يتمرس به . فلو قذف بأقصى شبة سنان وبأنفذ حربته ، وكان الزراق أقوى الناس ذراعاً ، لندت عنه طائشة عاجزة حتى كأن جبهة الحوت قد رصفت بحوافر الخيل ، ولنست أظن أن فيها إحساساً ما .

ثم تصور لنفسك شيئاً آخر : عندما يصادف أن تندفع سفينتان من سفن شركة الهند الشرقية ضخمتان مشحوتتان إحداهما نحو الأخرى في أحواض السفن فماذا يصنع البحارة ؟ إنهم لا يضعون بينهما عند وشك الاحتكاك المرتقب أية مادة صلبة كالحديد أو الخشب ، لا . وإنما يمسون حزمة ضخمة مستديرة من الجبال والفلين ملفوفة في أكثف نوع وأمتنه من جلد الثور ، فتلك الحزمة تمتص - بشجاعة ودون أن يصيبها أذى - كل ارتطام لو حدث لكسر ما فيهما من أمخال سنديانية وعتلات حديدية ، وهذا في ذاته يكفي ليوضح هذه الحقيقة الناصعة التي أرمي إليها ، ولكنني أضيف شيئاً آخر : لقد خطر لي افتراضاً شيء استنتجته من أن في السمك العادي ما قد يسمى مئانة العوم وهي قابلة لأن تنبسط وتنتقبض حين تشاء ، وليس للحوت مثل هذه الأداة فيما أعلم ؛ غير أنني أعلم أنه ينزل رأسه كله تحت سطح الماء ثم يرفعه توأ ويسبح وهو قد أخرجه عالياً من الماء وذلك شيء لا يفسر إن لم تكن مئانة العوم فيه ؛ وحين قدرت هذا وقدرت المرونة الطليقة في غلافه وقدرت الداخل الفذ من رأسه ، أقول : حين قدرت هذه الأمور خطر لي افتراضاً أن تلك الخلايا الرئوية الغريبة قد تكون ذات صلة بالهواء الخارجي ، صلة لا ريب فيها وإن ظلت حتى اليوم مجهولة ، فذلك هو الذي يجعلها قابلة للانقباض والانبساط الهوائي . وإذا كان ذلك كذلك فتخيل لنفسك صمود تلك القوة التي يسهم فيها أشد العناصر لطافة وقدرة على التخريب .

تأمل ما هنالك : من خارج جدار جامد عاتٍ لا يخترقه شيء ولا يصيبه أذى ، ومن داخل شيء ، بالغ الخفة والطفو ، وكونهما معاً كذلك أمر مثير يقيناً ، ووراء ذلك كله تعوم كتلة من الحياة الهائلة ، لا تحتاج في تقدير الإنسان من التقدير إلا ما تحتاجه حزمة الحطب ، لا تحتاج إلا حبلاً يطوقها ، وكل هذه الكتلة الهائلة تخضع لحركة واحدة كأنها أصغر حشرة . فإذا فصلت لك من بعد كل مميزات القدرة الحالة في هذا الحيوان المديد وكل المراكز التي تتجمع فيها عندما أريك بعض منجزاته الفكرية التي لا يعيرها الناس اهتماماً فإنني واثق من أنك حينئذ تكون قد نفقت عنك كل تسرع الي التكذيب الجاهل وأخذت تركزن الي ما أقول : فإن قلت لك إن حوت العنبر قد شق طريقاً خلال برزخ بنما

ومزج الأطلسي بالهادي فإنك لن تطرف لك جفن استغراباً . ذلك أنك إن لم تملك الحوت فإنك في جانب الحقيقة ماتزال غراً ريفياً أو فتى عاطفياً ، ولكن الحقيقة الناصعة شيء لا يواجهه إلا مَرَدَّة السمندل فما أقل نصيب الأغرار منها! ما الذي حدث للشباب المضعوف الذي رفع الحجاب المخوف عن وجه الإلاهة في سيس^(١) ؟

(١) في الأصل : ليس . وهو خطأ ، والقصة من قصيدة لشاعر تمكي حكاية شاب ساذج ذهب الى سيس بمصر ليدرس أسرار الكهان . وقد حذروه من تمثال « الحقيقة » الملقب بحجاب فما أصاخ لهم ، وفي اليوم التالي وجده الكهنة ممدداً غائبا عن الوعي أمام تمثال إيزيس .

دن هيدلبرج الكبير

آن لنا أن نصف كيف تفرغ «دنية» الحوت ولكن عليك أن تعلم شيئاً عن التركيب الداخلي لهذا الذي يجري فيه التفريغ حتى يحيط به فهمك . فاذا اعتبرت رأس الحوت مستطيلاً صلباً فقد تستطيع أن تقسمه على سطح مائل في إسفيني زاوية quoin* يمثل الأدنى منهما التركيب العظمي وهو يؤلف الحقف والفكين ، ويمثل الأعلى كتلة دهنية لا عظام فيها أبداً ، ونهايتها العريضة تشكل جبهة الحوت المديدة الرأسية في ظاهرها . وعند منتصف الجبهة ينقسم اسفين الزاوية الأعلى أفقياً في قسمين متساويين أو يكادان ، وهما من قبل ينقسمان قسمة طبيعية بجدار داخلي من مادة وترية كثيفة .

والجزء السفلي من هذين القسمين يسمى «القرص» وهو خلية كبيرة من الزيت تتكون من التعارض والتشابك الذي يتم بين عشرة آلاف من خلايا مرشحة ، ومادتها في جميع أجزائها نسيج بيض مرنة متينة ، ويسمى القسم العلوي منهما «الدنية» وقد تعد بمثابة دن هيدلبرج الكبير في حوت العنبر . وبما أن هذا الصهريج الكبير المشهور واقع في تجويف الرأس الأمامي فإن جبهة الحوت الواسعة المتفضنة تمثل وسائل غريبة لا تحصى لتزيين هذا الدن العجيب بزينة تعد شعاراً عليه . ومثلما أن دن هيدلبرج^(١) كان دائماً طافحاً بأجود خمور وديان الرايين ، فكذلك دن الحوت يحوي أثمن غلة زيتية فيه ، أعني ما يسمى «زيت الحوت» الذي يغالي الناس فيه ، في حالته الصافية الخالصة العطرة . ولا توجد هذه

* أن هذا المصطلح quoin ليس مما وضعه اقليدس . وإنما ينتمي الى الرياضيات البحرية . ولا أعرف أحداً عرفه من قبل . وهو جسم صلب يختلف عن الاسفين العادي في أن حذاه الحاد يميل ميلاً متحدراً من جانب بدلاً من أن يكون الاستدقاق من جانبيه . وهو شيء . يشتمله أصحاب المطابع .

(١) وصف هذا الدن Tun بأن طوله ٢١ قدماً وارتفاعه ٢١ قدماً .

المادة الثمينة بهذا الصفاء في أي جزء آخر من أجزاء الحوت . وما دام الحيوان حياً فإنها تظل سيالة تماماً فإذا عرضت للهواء بعد الموت فسرعان ما تأخذ في التصلب مرسله فروعاً بلورية كالتي يكونها الثلج الرقيق اللطيف على الماء أول ما يأخذ في التجمد . وإذا كان الحوت كبيراً غلّت «دنيته» ما يقرب من خمسمائة جالون من الزيت وان كان قسط منها يندلق أو ينز أو يتقطر أو يضيع دون أن يمكن استرجاعه أثناء العمل المحفوف بالحرص على استنزافه دون تضييع كثير ، لأسباب وظروف لا يستطاع توقّيها .

بأي مادة رقيقة ثمينة كانوا يطنون دن هيدلبرج من داخل ؟ لست أدري ولكن تلك البطانة في نعومتها وفراحتها لا يمكن أن توازي بذلك الفشاء البلوري الحريري الذي يكون الطبقة الداخلية في «دنية» حوت العنبر كأنه بطانة من «البليس» المرهف الرقيق .

وإذا تأملنا تلك الدنية في حوت العنبر وجدناها تحتضن قمة الرأس كله على طولها ، ورأس الحوت - كما ذكرنا من قبل - يمثل ثلث طول الحيوان كله ، فإذا قدرنا طول حوت ذي حجم معقول بشمانين قدماً كان عمق دنيته يزيد على ستة وعشرين قدماً حين يرفع طولاً عند جنب السفينة .

وعند فصل رأس الحوت عن جسده يقرب الجزار أدواته من الموضع الذي تخرق فيه من بعد فوهة لخران الزيت ، ولذلك كان عليه أن يكون شديد الحيطة لئلا تنقض ضربة من ضرباته المعجلة الطائشة فتهاجم ذلك المعبد وتدلج ما فيه من محتويات بالغة القيمة ، وهذا الطرف المفصول هو الذي يرفع أخيراً من الماء ويظل كذلك بقوة مرفاعي الجزار اللذين تمثل أربطهما القنبية على جانب منه غابة من الحبال في تلك الجهة .

وحسبنا ما قلنا ، ولذا أرجو أن تنبه إلى تلك العملية العجيبة ، التي تكاد تكون ضربة قاضية ، أعني حين يُبزل ذلك الدن الهيدلبرجي الكبير .

حوض ودلاء

يصعد طاشطيقو الى أعلى رشيماً كأنه قطة ، ويجري مستقيماً على نهاية ساعد الباحة الكبرى المشرفة ، الى الجزء الناتئ منها فوق الدن المرفوع ، دون أن يخني قامته المنتصبه ، ومعه مرفاع خفيف يسمونه « السوط » يتركب من جزءين فقط ويمر من خلال كتلة فيها بكرة واحدة ، ويدلي هذه الكتلة بحيث تتعلق من نهاية الباحة ، ويرأوح أحد طرفي الحبل حتى يعلق مستمسكاً بيد تلتقطه على ظهر السفينة ، ثم يهوي الهندي في الفضاء وقد وضع يداً على يد نازلاً الى الجزء الآخر حتى يحط في رشاقة على قمة الرأس ، وهناك يظل عالياً ومن دونه سائر أفراد عصبته وهو يصرخ نحوهم طروباً مرحباً ، كأنه مؤذن يدعو الصالحين للصلاة من قمة منذنة . وترسل إليه مجرفة حادة قصيرة المقبض ، فيفتش مجتهداً عن المكان الملائم الذي يبدأ عنده فتح ثفرة في الدن . ويأخذ في هذا العمل بأشد حيلة كأنه باحث عن ركاز في بيت قديم فهو يدق على الجدران ليعلم أين أودع الذهب ، وحين ينتهي هذا البحث الحذر يُربط دلو قوي مطوق بالحديد ، يشبه دلو الآبار تماماً ، الى أحد طرفي « السوط » ، ويمد الطرف الثاني عبر ظهر السفينة ، وتمسكه هنالك يدان أو ثلاث أيدي لبيقة ، فترفع الدلو بحيث يصبح في متناول الهندي الذي قد أوصل اليه رجل آخر سارية طويلة ، فيدخل طاشطيقو السارية في الدلو ، وينزله الى داخل الدن حتى يختفي فيه تماماً ثم يلقي أمره الى البحارة الواقفين عند السوط فيرتفع الدلو ثانية وقد طفح كأنه سجل ملأته الخادم الحلابة بالحليب الطازج . وينزل الدلو المفعم من هذا الارتفاع بحرص فتمسك به يد متأهبة لتلقيه وتفرغه في برميل كبير ، ثم يعود مرتفعاً صاعداً ويقوم بالدورة نفسها حتى لا يبقى في الحوض العميق شيء ؛ وقبيل النهاية يدس طاشطيقو السارية الطويلة بشدة ويعمق السبر في الدن حتى يغيب منها فيه نحو عشرين قدماً .

أمضى أفراد عصابة الباقوطة بعض الوقت في التفرغ والتعبئة على هذا النحو حتى ملأوا عدداً كبيراً من البراميل بالزيت الشدي ، وعندئذ حدثت حادثة غريبة : أكان طاشطيقو ذلك الهندي المتوحش ساهياً قليل الاكتراث فجعل قبضته ترتخي أو تنزلق عن المرفاعين الكبيرين المربوطين بالحبال اللذين يشدان الرأس ؟ أكان الموضع الذي يقف فيه خواناً موحلاً ؟ هل أراد الشيطان الشرير أن يقع ما وقع دون أن يبدي أسباباً لذلك ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لا أحد يدري ، ولكن فجأة فيما كان الدلو الثمانون أو التسعون يصعد فاهقاً - رياه! يا لطاشطيقو المسكين! لقد هوى على أم رأسه في الدن الهيدلبرجي ، واختفى عن الأنظار في بقبة زيتية مفزعة ، كأنه الدلو الثاني الهابط في بئر حقيقية .

وكان دغة أول من فاء الى نفسه من ذلك الموقف المذهل الذي ملك الأنظار جميعاً فصاح : « أنت في الأعلى ، وراح الدلو تلك الوجهة » ووضع احدى قدميه فيه ، كي يثبت قبضة يده اللزجة على « السوط » نفسه ، وجرت الروافع به صاعداً الى قمة الرأس قبيل أن يبلغ طاشطيقو قعره الأدنى . وفي الوقت نفسه جرى هياط ومياط ، فقد تطلع البحارة من فوق حافة السفينة فرأوا الرأس الذي كان ميتاً جامداً ينبض ويتحرك تحت مستوى السطح المائي بقليل ، كأنه قد تملكته في تلك اللحظة فكرة خطيرة ؛ مع أن كل ما حدث هو أن طاشطيقو المسكين كان دون وعي يكشف بذلك الكفاح الذي يبذله عن مدى خطورة العمق الذي انحدر اليه .

وفي تلك اللحظة ، بينما كان دغة على قمة الرأس ينظف السوط الذي علق به بعض الأثر من مرفاعي الجزيرة ، سمعت صرخة تصدع حادة ، ويا للفرع الشامل الذي لا يحده وصفاً انفلت أحد الكلوبين الكبيرين اللذين يمسكان الرأس ، فأخذت الكتلة الضخمة تتأرجح متراوحة في اهتزازات عنيفة ، حتى ترنحت السفينة السكري واضطربت ، كأنما صدمها جبل من جليد ، وبدا الكلوب العالق الذي يعتمد عليه الشد كله على وشك أن ينفلت ، وذلك أمر غير بعيد لشدة حركة الرأس .

فهتف البحارة بدغة : « انزل ، انزل » . ولكن دغة جعل احدى يديه تمسك أحد المرفاعين الثقيلين فإذا سقط الرأس ظلّ هو معلقاً ، وبعد أن نظف الرجل الزنجي الجبل الملوث ، قذف الدلو في البئر التي تهاوت ، وهدفه أن يمسك الزراق الدفين بالدلو ثم ينتشله .

فصاح اسطب : « بحق السماء أيها الرجل أنت تقذف « خرطوشة » لتصيب هدفاً ؟ كفاً كيف يمكن لك أن تعينه وأنت تحشّر هذا الدلو المطوق بالحديد على قمة رأسه ، حسبك يا هذا! »

فانبعث صوت كأنه انفجار صاروخ يقول : « أبعد عن المرفاع » .

في تلك اللحظة نفسها هوت الكتلة الضخمة في الماء بصوت كهزيم الرعد كما لو أن الصخرة الأفقية في نياجرا انحدرت في دوامة^(١) ، وذهب الهيكل المنفلت منها فجأة مبعداً حتى غمر الماء طوقه النحاسي المتلألئ ، وحبس جميع البحارة أنفاسهم ودغة يتأرجح فتارة هو فوق رؤوسهم وتارة هو فوق الماء ، وهم يرونه خلال ضباب الرذاذ الكثيف رؤية خافتة متشبهاً بالمرفاع الخطار بينما كان طاشطيقو المرزأ المووود يغطس في القرارة السحيقة . وما كاد الضباب المعشي ينجلي حتى رأى البحارة زولاً عارياً يحمل في يده سيف التخزين ، وهو معلق لحظة فوق الحافة . وفي اللحظة التالية اصطفق الجسم بالماء فدل الاصطفاق على ان صديقي كويكوج الجريء المقدام قد غاص لينتشل الغريق ، فاندفع البحارة جملة الى جانب السفينة وأحصت كل عين كل حركة تمعج ، حين ولت اللحظة في أثر أختها ، دون أن يبدو للفارق أو للفاطس أدنى أثر . ووئب بعض الرجال عندئذ في قارب وجذفوا به مبعدين قليلاً عن السفينة .

فصاح دغة دفعة واحدة من محطه الهادئ المترجح فوق الرؤوس : « ها! ها! » ونظرنا بعيداً من عند جنب السفينة فرأينا ذراعاً تشق الأمواج الزرق ؛ منظر غريب أن يراه المرء كأن ذراعاً برزت من بين الحشيش النامي فوق بعض القبور .
فصرخ دغة صراخاً مرححاً مستبشراً وهو يقول : « هما معاً! الاثنان ، الاثنان! » وبعد هنيهة رأينا كويكوج يكافح جريئاً مقدماً بيد واحدة وهو يمسك شعر الهندي الطويل باليد الأخرى ، وسحب الرجلان الى القارب ونقلتا توأ الى ظهر السفينة أما طاشطيقو فأبطأ في الافاقة ، وأما كويكوج فكأنما بارحت الخفة الرشيقة جسمه .

كيف تم هذا الانتقاذ السامي النبيل ؟ بعد أن غطس كويكوج وراء الرأس الهابط في بطن ، أحدث بسيفه الماضي طعنات جانبية قريباً من القعر كي يشق فوهة كبيرة من هنالك ، ثم أغمد سيفه وأخذ يطعن بذراعه الطويلة ، في قرار ذلك التجويف نحو سقمه ، وبذلك استخرج منه طاش البانس جزأ برأسه ، وقد أقر أنه مذ ذراعاه يبحث عنه أول مرة ، علقته يده برجل طاش وكان يعلم أن سحبه برجله عمل غير صحيح وأنه ذو عواقب وخيمة ، فرد الرجل وأخذ يدفع الهندي ويميله حتى قلب وضعه ، فلما جرب إخراجه مرة أخرى ولد ولادة طبيعية ، أي خرج رأسه أولاً ولم يولد يتناً ، أما الرأس الكبير نفسه فإنه وفي بما يتوقع منه .

(١) سقطت قطعة من هذه الصخرة في الشلالات . في ٢٥ حزيران ١٨٥٠ .

وبفضل شجاعة كويكوج ومهارته العظيمة في فن التوليد تم خلاص طاشطيقو أو استخلاصه بنجاح في وجه أشد العقبات شكاسة وأبعثها على اليأس ، وذلك درس يجب ألا ينسى بحال ، ولا بد من أن يدرّس التوليد حيث تدرّس فنون النزال والملاكمة وركوب الخيل والتجديف .

إني لأعلم أن بعض الناس من أهل البر لا يصدقون هذه المغامرة الغريبة التي قام بها الجايهيدي ، وان كانوا هم أنفسهم قد رأوا أو سمعوا بسقوط أحد الناس في سهريج أو بئر ، فتلك حادثة غير نادرة الوقوع ، وفيها من أسباب الانزلاق أقل مما في قصة هذا الرجل الهندي ، اذا نحن قدرنا الزلق البالغ في حافة البئر العنبري .

ولعلّ قائلأ أريبأ يقول ، كيف كان ذلك ؟ لقد كنا نظن أن رأس حوت العنبر - وهو الجزء المصقى المحكم الألياف - هو أخف أجزاء الحوت ، وأشدّها قابلية للطفو كالفلين ، فكيف جعلته يطفس في عنصر أشدّ منه كثافة نوعية ؟ هذه واحدة نأخذها عليك! فأقول ، كلا بل هذه « قفشة » في صالحني ضدّكم . لأن طاش المسكين حين وقع ، كانت دنية الحوت قد أفرغت تقريباً مما فيها من مادة خفيفة ولم يبق فيها إلا شيء يسير سوى جدار البئر الكثيف الفضلي - وهي مادة مزدوجة اللحام مطرقة - كما ذكرت قبلاً - أثقل كثيراً من ماء البحر ، وقطعة منها تهوي فيه غائصة كأنها الرصاص . ولكن نزوع هذه المادة للغوص السريع في الحادثة الراهنة كان يعوقه مادياً أجزاء أخرى من الرأس بقيت دون أن تنزع منه ولذلك غاصت في بطن شديد وأناة بالغة ، فمنحت كويكوج فرصة صالحة لكي يؤدي عملية التوليد الرشيقه « على الحارك » - إن صحّ القول - فالحق أنها كانت ولادة سريعة .

ولو أن طاشطيقو هلك في ذلك الرأس لكان هلاكه ثميناً نفيساً إذ يكون قد ضمخ بأشد زيت عنبر شديّ بياضاً وألقاً ، ويكون قد كفن وألحد ودفن في الغرفة السرية الداخلية في قدس أقداس الحوت ، ولا تفوق هذه الخاتمة في عذوبتها إلا خاتمة أخرى - هي ذلك الموت اللذيذ الذي واجهه مشتار عسل في أوهايو ، فقد كان يبحث عن العسل في شعبة شجرة جوفاء فوجد منه كمية وفيرة ، حين أنه مال عليها وبالغ في الميل تشبثت به وامتنعت في جوفها فمات محتطاً مطيباً ، كم من الناس فيما تظنون سقطوا بالمثل في رأس افلاطون العسليّ وهلكوا هذا الهلاك المستعذب ؟

جبهة كالسهوب اتساعاً

لم يرق حتى اليوم عالم بالقوى العقلية أو عارف بالفراسة بقراءة الخطوط على وجه الحوت والتنبؤات في رأسه ، ومثل هذا العمل ذو ثمرات مرجوة كأن يفهم لافاتر الغضون في جبل طارق أو كأن يصعد جول سلماً ويمارس النظر في قبة البانشيون . ثم إن لافاتر لم يهتم فحسب بمختلف وجوه الأدميين في مؤلفه المشهور بل درس بامعان وجه الخيول والطيور والأفاعي والأسماك . وأسهب في تبيان صور التعبير التي استبانها ثمة . وكذلك جول وتلميذه سبورتزهايم^(١) فانهما لم يعجزا عن إلقاء بعض اللمحات حول الخصائص العقلية في كائنات أخرى عدا الانسان . ولذا سأبذل جهدي لتطبيق هذين الفرعين شبه العلميين على الحوت ، وان لم يكن لدي من القدرة ما يجعلني طليعة الباحثين في هذا الباب ، لكنني أجرب كل شيء ، وأنجز من ذلك قدر الطاقة .

إذا تأملت الحوت من زاوية الفراسة وجدته مخلوقاً شاذاً غريباً إذ ليس له أنف متحيز ، والأنف ملتقى الملامح وأبرزها وضوحاً ، وربما كان هو الذي يعدل فيما توحى به الملامح مجتمعة من تعبير ويسيطر في النهاية عليه ، فإذا لم يكن له وجود ، أي إذا لم يصبح بارزاً ظاهراً فان ذلك يؤثر في قسمت الحوت تأثيراً كبيراً . ولا يتسق أي وجه من الناحية الفراسية دون عرنين أشمّ مثلما أن المنظر الطبيعي لا يكتمل دون مسلة أو قبة أو نصب . أجدع أنف زيوس من التمثال الرخامي الذي صنعه فيدياس ، فأية بقية جدعاء محزنة تبقى منه!! ومع ذلك فإن اللويathan ذو جسامه جبارة وتناسب متسق جليل حتى أن النقص الذي يبدو بشعاً كريهاً في تمثال زيوس لا يعد وصماً في الحوت أبداً . بل أنه يضي عليه عظمة

(١) لافاتر (١٧٤٦-١٨٠١) وجول (١٧٥٨-١٨٢٨) وسبورتزهايم (١٧٧٦-١٨٢٨) والأول ألف في الفراسة والآخران كانا طبيبين في فيينا يملكان دراسات على وظائف الدماغ .

وجلالاً ، ولو كان له أنف لكان حشواً منفراً . وإذا قمت برحلة فراسية حول رأسه الضخم في «فلوكتك» فإن تصوراتك الرفيعة عنه لن تلحقها زراية أبداً إذا خطر لك أنه ذو أنف راغم . ذلك تصوّر وبيل ولكنه قد يكون ملحفاً في تطفله على خاطرك حتى وأنت تبصر أعظم الأمرين جيروتاً فوق عرشه .

لعل أبلغ منظر أثاراً في النفس من ناحية الفراسة ومن بعض وجوهه الخاصة في حوت العنبر هو المنظر الكامل لمقدم رأسه ، فذلك شيء رائع جليل .

إذا شئت أن تتصور جبهة الأدمي حين تكون جميلة وجدتها تشبه المشرق حين يوقظه الصباح ؛ ولجبهة الثور المجددة وهو في هدأة المرعى مسحة من جلال ؛ وجبهة الفيل ذات فخامة وهو يدفع مدفعاً ثقيلاً بين شعاف الجبال . وسواء أكانت الجبهة العجيبة لأدمي أو لحيوان فإنها تشبه الطرة الذهبية الضخمة التي كان أباطرة الرومان يثبتونها على «فرماناتهم» ، ومغزاها : «الله - صنعه اليوم يدي» . ولكن الجبهة في أكثر المخلوقات وفي الانسان نفسه كثيراً ما تكون شريطاً من بروز جبلي ممتد على طول خط الجليد ، ولما ترتفع الجباه سامقة ارتفاع جبهة شيكسبير أو ملانكثون⁽¹⁾ ، ثم تهبط هبوطاً دانياً حتى تكون العينان مثل بحيرتين جبليتين صافيتين خالدين لاتموج فيهما ، وكأنك تقتفي في تجاعيد الجبهة فوقهما أثر الأفكار الوعلية التي نزلت هناك لتشرب كما يقتفي صيادو المرتفعات آثار أقدام الوعول في الثلوج . ولكن هذه العزة المستعالية المتألهة المستقرة في جبهة حوت العنبر الكبير قد امتدت واتسعت ، حتى أنك إذا حدثت فيها وأنت تواجه الرأس من أمام شعرت بالإله والقوى الجبارة هنالك بأكثر مما تشعر بها وأنت تنظر الى أي شيء آخر في الطبيعة الحية . ذلك لأنّ نظرك لا يقع على شيء واحد إذا لاينكشف له أي ملمح على حدة ، فلست ترى أنفاً أو عينين أو أذنين أو فماً ، لست ترى وجهاً ، إذ ليس للمحوت وجه محدد السمات ، ليس له إلا جلد عريض واحد يسمى جبهة ، وقد غضتته الألفاز ، وكتبت في أخاديه الصامته مصاير القوارب والسفن والناس . وإذا أخذته بنظرك من جانبه لم يختفر عنك شيء من هذه الجبهة العجيبة ، وإن كانت أبهته ، إن أنت نظرت اليه من جانب ، أقلّ أثاراً في نفسك ، إذ أنّ النظر من جانب يجعلك ترى بوضوح ذلك الانخساف الأفقي شبه الهلالتي في منتصف الجبهة ، وهو ما يعده لافاتر في الإنسان سمة على العبقرية .

أتى ذلك ؟ عبقرية في حوت العنبر ؟ هل حدث أن ألق حوت العنبر كتاباً أو ألقى

(1) فيليب ملانكثون أحد المصلحين ، وقد عرضت صورة رأسه في أحد كتب الفراسة (في القرن التاسع عشر) وإلى جانبها صورة رأس أحد المجرمين .

خطاباً ؟ كلاً بل إن عبقريته العظيمة لتجلى في امتناعه عن أداء ما يشبه وجودها فيه . وأشد ما يعلن عنها صمته الهرمي ، وهذا يذكرني بأهل الشرق القديم في مطلع التاريخ ، فلو أنهم عرفوا حوت العنبر لألتهت أفكارهم الطفولية الوثنية ، فقد ألهموا التمساح في النيل لأنه لا لسان له ، وحوت العنبر دون لسان أو ذو لسان موغل في الدقة والصغر حتى أنه لا يستطيع أن يبرزه ، فلو أن شعباً عظيم الثقافة خيالي النزعة انجذب بعد اليوم الى عهد طفولته وعاد الى آلهته وعصرها الذهبي الجميل ، وبعثها من رقدتها وأمطأها العرش في هذه السماء التي غدت اليوم أنانية ، في هذا الريد الذي لم تعد تسكنه الأرواح والأشباح ، فكن على يقين من أن حوت العنبر سيحرز بينها قصب السبق ويستوي على عرش زيوس نفسه .

لقد فك شمبوليون^(١) معميات التجاعيد الهيروغليفية فوق جباه الفرانيس ، ولكن أتى لنا بشمبوليون آخر كي يفك الأحرف الهيروغليفية في وجه كل إنسان وكل مخلوق . وما القراسة إلا خرافة عابرة ، كسائر علوم الإنسان . فإذا عجز السير وليم جونز^(٢) الذي كان يقرأ في ثلاثين لغة عن قراءة أبسط وجه لريفني ساذج في معانيه العميقة المتوارية فكم رجل من مثل اسماعيل الأمي يرجو أن يقرأ الخطوط المسمارية الرهيبة على جبهة الحوت! إنني لأضع هذه الجبهة تحت أعينكم فاقرواها إن قدرتم .

(١) جان فرنسوا شمبوليون (١٧٩٠ - ١٨٢٢) قرأ حجر الرشيد .

(٢) مستشرق انجليزي (١٧٦٩ - ١٧٩٤) ترجم كثيراً من الأدب العربي والفارسي والهندي الى الانجليزية .

لب الجوزة

إن كان حوت العنبر من الناحية الفراسية أبا هول فإن دماغه في رأي عالم القوى العقلية يبدو أنه الدائرة التي يستحيل تربيعها .

في الحوت الذي اكتمل نموه يبلغ طول الجمجمة عشرين قدماً على الأقل . افضل الفك السفلي يصبح المنظر الجانبي لهذه الجمجمة كالمنظر الجانبي لسطح مائل ميلاً معتدلاً ، مستند كله الى قاعدة مستوية ، وقد رأينا فيما سبق أن هذا السطح المائل أثناء الحياة مملوء حتى أقصى ميله وأنه يكاد يكون مربعاً بكتلة هائلة متراكبة من اللحم والزيت . وعند النهاية العليا تكون الجمجمة وعاء يفرشه ذلك الجزء من تلك الكتلة ، وتحت قاعدة هذا الوعاء ، حيث يوجد تجويف آخر نادراً ما يزيد على عشر بوصات طولاً ومثلها عمقاً ، يستقر دماغ هذا الحيوان وهو لا يتجاوز الحفنة في حجمه . ويقع الدماغ على بعد عشرين قدماً على الأقل من جبهته الظاهرة ، فقد اختبأ وراء استحكامات واسعة كأنه القلعة الجوهانية في حصون كويك المترامية الأطراف . فكأنه علبة جواهر نفيسة وقد أودعت في صوانها حتى إنني عرفت بعض الحواتين ينكرون جازمين أن يكون لحوت العنبر أي دماغ سوى ذلك الشبيه الملموس الذي يمثله خزان الزيت ومساحته بضع ياردات مكعبة ، وبما أن هذا الجزء العجيب منه يقع في مكانن ومسارب وتلافيف غريبه فإنه يبدو لهم مركزاً لذكائه فذلك أنسب لما يتصورونه عن مبلغ جبروته وقوته .

من الواضح اذن أن رأس هذا اللويathan من ناحية علم القوى العقلية ، وهو في حال الحياة السليمة ، إنما هو خداع محض فأنت لاتستطيع أن ترى أية إشارات على دماغه الحقيقي ولاتستطيع أن تحسن بها ، فالحوت ككل الأشياء التي تتميز بالقوة يلبس للعالم وجهاً خادعاً .

ولو أفرغت جمجمته من حمولتها الزيتية وألقيت نظرة من خلف على الطرف الخلفي ، وهو الطرف الأعلى ، لراعى الشبه بين هذه الجمجمة والجمجمة الآدمية إذا نظرت إليها من ناحية القذال ومن زاوية مشابهة . حقاً إنك لو وضعت هذه الجمجمة المعكوسة (بعد أن تجعل لها مقياساً قريباً من حجم الجمجمة الآدمية) بين صف من جماجم الآدميين لما استطعت - رغباً عنك - أن تميزها منها . وإذا رأيت الإنخسافات على أحد أجزاء قمحودته فأنتك تقول في صيغة فراسية : هذا الإنسان ليس لديه تقدير واحترام ذاتي . وإن نفيت عنه هاتين الصفتين وتبدرت معهما الصفة الإيجابية فيه من جسامه وقوة استطعت أن تكون لنفسك - على خير ماتستطيع - أصدق تصوّر عما تعنيه القوة ، أسمى القوة ، وإن لم يكن ذلك أشد التصورات إثارة للسرور والابتهاج .

ولكن إن كنت تظن أن الحوت لا يمكن وضعه في صنف لائق به بسبب من الأبعاد النسبية في دماغه نفسه ، فأني أقترح عليك فكرة أخرى : إذا تأملت في إمعان السلسلة الفقرية في جل ذوات الأربع هالك الشبه بين الفقرات وبين عقد منظوم من جماجم قمينة ممسوخة ، وكلها تشبه الجمجمة الحق شهباً عارضاً ، وقد تصوّر الألمان أن الفقرات جماجم توقفت تطورها ، ولكن الشبه العجيب الظاهري الذي أقول به لم يكن الألمان أول من لاحظوه . بل نبهني إليه ذات مرة صديق أجنبي في هيكل عدو له كان قد قتله وكان يرصع بفقراته مقدم زورقه الأسنى كأنه يتخذ منها نقشاً بارزاً . وأنا أقدر أن علماء القوي العقلية قد أغفلوا شيئاً هاماً حين لم يدفعوا بحثهم قدماً من المخيخ نحو القناة الشوكية ، لأنني أعتقد أن جانباً كبيراً من طبع المرء إنما يدل عليه عظم فقاره ، ولو خيرت لتفحصت صلب المرء بدلاً من جمجمته أيّاً كان هو ، وأنا أرى أن خيطاً دقيقاً من سلسلة الظهر لا يمكن أن يحمل روحاً مكتملة سامية . وإني لأشعر بالابتهاج من سلسلة ظهري مثلما أبتهج بالعصا الجريئة التي أرفع عليها ذلك العلم كي يراه العالم .

طبّق هذا العلم الفقري من علم القوي العقلية على حوت العنبر : أمّا تجويفه القحفي فإنه مستمرّ مع الفقرة العنقبة الأولى ، وتمتد قاعدة القناة الشوكية في تلك الفقرة على عرض يبلغ عشر بوصات ، وارتفاعها ثماني ، وهي تؤلف مع القاعدة شكلاً مثلثاً ، فإذا مرت القناة الشوكية خلال سائر الفقرات أخذت تستدق حجماً إلا أنها تظلّ على مدى مسافة غير قليلة ذات سعة كبيرة . ولاريب في أن هذه القناة ممتلئة بتلك المادة الغريبة نفسها ذات الألياف - أي النخاع الشوكي - شأنها في ذلك شأن الدماغ ، ولها بالدماغ صلة مباشرة ، ثم إن النخاع الشوكي يظلّ ، على مدى عدة أقدام بعد انبثاقه من تجويف الدماغ ، ذا محيط متشق

لا يتناقض ويكاد يكون محيطه مساوياً لمحيط الدماغ ، وفي مثل هذه الظروف أيكون من غير المعقول أن نتعرف الى صلب الحوت من زاوية علم القوى العقلية ونرسم له صورة ؟ إننا إذا نظرنا اليه من هذه الزاوية وجدنا الجسمامة النسبية في نخاعه الشوكي تعوض عن الصغر النسبي في دماغه نفسه .

غير أنني أترك هذه اللمحة لتفعل فعلها كيف شاءت لدى علماء القوى العقلية ، واتخذ هذه النظرية التي تدور حول النخاع الشوكي لحظة لأطبقتها على حردبة حوت العنبر ، فإذا لم أكن مخطئاً قلت : إن هذه الحردبة الجليلة تقوم فوق إحدى الفقرات الضخمة وإذن هي من وجه ما التحدب الخارجى لتلك الفقرة ، وبسبب موقع تلك الفقرة العالية سوف أدعوها عضو الثبات ، عضو رباطة الجأش في حوت العنبر ، وسوف يأتيك النبأ اليقين عن ركائفة الحوت العظيم ورباطة جأشه .

الباقوطة تلتقي بالسفينة «العدراء»

حلّ اليوم الموعود والتقىنا السفينة «العدراء» - يونجفراو- ، ورائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن . لقد كان الألمان والهولنديون ذات يوم هم سادة مهنة التحويت ، أما اليوم فقد أصبحوا من أقلّ الناس فيها شأنًا ، إلا أنك ماتزال ترى غرضاً هنا وهناك على عروض وأطوال متباعدة علماً ألمانيّاً أو هولنديّاً في المحيط الهادي .

وكانت «العدراء» لسبب ما ، تواقفة كي تلتقي بنا وتسلمّ علينا ، وقد كانت على مسافة من الباقوطة حين دارت وأنزل بخارتها قارباً ، وعمد قبطانها نحونا واقفاً في جزع ولهفة عند مقربة القارب بدل أن يقف في مؤخرته .

فصاح استاربك وهو يشير الى شيء كان يتأرجح في يد الألماني : «ماذا في يده؟ مستحيل! جهاز التزيت!» .

فقال اسطب : «لا . ليس هو . هذه غلاية قهوة ياسيد استاربك ، لقد جاء ليقدم لنا قهوتنا ، ذلك اليرمان . ألسنت ترى تلك الصفيحة الكبيرة التي يحملها على جنبه ، هذا وعاء الماء المغلي لقد أصاب اليرمان وعرف ما نحتاج» .

فصاح فلاسك : «دع ترهاتك ، هذا جهاز تزيت وتلك صفيحة للزيت ، لقد نفذ الزيت لديهم وجاء يستجدينا منه شيئاً» .

قد يبدو غريباً أن تستمد سفينة زيت زيتاً في مجال من مجالات التحويت ، ومهما يناقض هذا الوضع المثل القديم القائل : «كناقل التمر الى هجر - والفحم الى نيوكاسل» ، فإنه أمر يحدث أحياناً ، وكان القبطان دريك دي دير في تلك الحال يحمل دون جدال جهاز تزيت كما قال فلاسك .

فلما اعتلى ظهر السفينة حياها آخاب تحية مقتضبة دون أن يتنبه الى ما يحمله في يده ،

ولكن الرجل الألماني سرعان ما دلّ في لهجته المكسرة على جهله التام بشأن الحوت الأبيض ، وأدار دفة الحديث نحو جهاز التزيت و صفيحة الزيت ، وألمع الى أنه أحياناً يذهب الى سريره ليلاً في ظلام دامس - فقد نفذت آخر قطرة لديه من زيت برمن ، ولم يصيدوا أية سمكة عابرة تزودهم بما يعموزهم ، وختم كلامه بأنه ألمح الى أن السفينة هي حقاً مايسمونه في حرفة السماكة باسم « السفينة النظيفة » (أي الخالية) وأنها لذلك تستحق أن تسمى العذراء أو يونجفراو .

و غادر السفينة بعد أن زود بما يحتاجه ، ولكنه لم يكن قد بلغ جانب سفينته حتى ارتفعت النداءات من قمم صواري السفينتين في وقت معاً بأن الحيتان هناك ، وكان دريك جدّ تواق للمطاردة ، بل استدار بقاربه ولحق بالحيتان وهي أجهزة التزيت الحقيقي .

وبما أن الطراند شوهدت في الجانب الأيسر وفق المهب فقد استطاع قاربه والقوارب الألمانية الثلاثة الأخرى التي لحقت به توأ أن تحوز السبق أمام قوارب الباقوطة ، وكانت الحيتان ثمانية عدداً ، وهو سرب معتدل لاهو كبير ولا هو صغير ، وإذا أحست بالخطر تقدمت معاً بسرعة فائقة أمام الريح وجوانبها تحكّت متقاربة كأنها أزواج من الخيول في وثاق . وخلفت وراءها مخرأ واسعاً كبيراً كأنها كانت تفرش على وجه الماء رقاً كبيراً واسعاً .

وعلى بعد عدة قامات في المؤخرة ، في حومة ذلك المخر السريع ، كان يسبح حوت ضخم محدب مسن ، وبدا لبطنه النسبي في تقدمه وللرصعات الصفراء الشاذة التي تعلوه كأنما هو مصاب باليرقان أو بمرض آخر . وربما لم يكن هذا الحوت ينتمي الى الرعيل المتقدم ، إذ ليس في طباع هذه الحيتان الوقورة أن تنتحل مظاهر التبجيل والاحترام . ومع ذلك فقد لزم مخرها لا يبرحه وإن كان الماء الذي تدفعه تلك الحيتان كان يعيقه إذ كانت العظمة البيضاء ، وهي البروز الناذ عند خطمه العريض ، قد تفرطحت كأنها البروز التي تتكوّن حين يلتقي تياران متضادان . وكانت نفثته قصيرة بطينة مجهدة ، تنبعث كأنها دفقة مخنقة ، وتصير الى مزق متناثرة ، تتلوها اضطرابات شيطانية غريبة فيه ، فتؤثّر على طرفه الآخر المغموس في الماء ، فتجعل الماء من خلفه ينعقد حبباً .

وقال اسطب : « من لديه دواء مسكّن ؟ هذا الحوت تؤلمه معدته ، ربّاه! تصوّروا أن يشمل الألم معدة حجمها نصف فدان . الرياح الوبيلة تقيم في جوفه عيداً جنونياً أيها الفتيان . هذه أول ريح ردينة أعرفها تهب من خلف . تأملوا رأيتم حوتاً ضلّ ضلاله من قبل ؟ يقيناً لقد فقد سكّانه الذي يهديه سواء السبيل » .

ومضى هذا الحوت الهرم ينهض مثاقلاً بعبء السنين كأنه بارجة تطرمت بالمشحونات ذاهبة في ساحل هندوستان ، وقد حملت على ظهرها ملكه من خيول مُفرّعة ، فهي تميل وتنفس وتتدحرج وتترنح في طريقها ، وبين الحين والحين كان ذلك الحوت يدور دورة جزئية على أطراف أضلاع المعوقة ، فيبين أن سبب الإنحراف في مخره إنما تأتي عن أن زعنفته اليمنى لم يبق منها إلا جذم شاذ . هل فقد تلك الزعنفة في إحدى المعارك ، أو ولد دون زعنفة ؟ من العسير أن يجزم المرء في ذلك .

فقال فلاسك القاسي القلب وهو يشير الى حبل التحويت الموضوع الى جانبه : « انتظر قليلاً أيها الفتى الغاني وسأعوضك عن ذراعك الميهض مقلعاً » .
فصاح استاريك : « احذر أن يمقلعك به . هيا هيا وإلا أدركه الألماني دونك » .

قصدت القوارب المتنافسة مجتمعة محتشدة العزيمة قصد ذلك الحوت ، إذ كان هو أكبر الحيتان ومن ثم أغزرها غلّة وقيمة ، ثم كان هو أدناها من القوارب ، بينما كانت الحيتان الأخرى تجري بأقصى سرعة ، حتى كانت تكاد تتحدى في تلك الهولة كل رجاء بإدراكها ، وعند تلك النقطة مرقت قوارب الباقولة مخلفة وراءها القوارب الألمانية الثلاثة التي أنزلت متأخرة ، إلا أن الإنطلاقة الأولى التي ذهب فيها قارب دريك ، جعلته يبقى في الطليعة ، وإن كانت كل لحظة تدني منافسيه الأجنب منه ، وكان كل ما يخشونه ، لشدة اقترابه من هدفه ، أن يقذف بحديدته قبل أن يدركوه ويتقدموه ، فأما دريك نفسه فيبدو أنه كان واثقاً من أن الأمر في صالحه ، ولذا كان بين الحين والحين يهز المزية في وجه القوارب الأخرى في إيماة ساخرة .

فصاح استاريك : « ياللكلب الفظ المنكر للجميل ! إنه ليسخر مني ويهاجمني بالمزية البائسة نفسها التي ملأتها له قبل دقائق » - ثم عاد الى همساته الجادة القديمة يقول : « باعدوا التجذيف ياكلاب الصيد! هيا استكلبوا! » .

فقال اسطب يخاطب ملاحيه : « سأخبركم بحقيقة الأمر يارجال . حقيقة الأمر أن الهياج الأحق ليس من مبدأي ، غير أنني لا أمانع في أن ألتهم ذلك الوغد اليرمان - ادفعوا - ألا تريدون ؟ هل تسمحون لهذا الخبيث أن يسبقكم ؟ أتحبون شرب البراندي ؟ إذن فإن المتميزين فيكم سيحصلون على برميل منه . هيا لِم لا يفجر بعضكم شرايينه حمية ؟ من ذا الذي منكم قد ألقى مرساة في الماء فنحن كأننا قد رسونا ، لانتحرك قيد أنملة ، لقد سكنت قواربنا . هيللا! هذا حشيش قد نما في قمر القارب لطول لبثه ، وحق الرب لقد أخذ الصاري لطول انفراسه الساكن يرسل براعم . لا يافتيان هذا لا يحقق شيئاً ، انظروا الى ذلك اليرمان! المسألة برمتها يارجال هي : هل تنفثون النار شداً وحماسة أو لا تنفثون ؟ »

فصاح فلاسك وهو ينطّ صاعداً هابطاً : « آه انظروا الزيد الذي يكونه - يالها من حردبة كأنها قرمة ضخمة من خشب . احتشدوا حول اللحم الحنيد ، هيا ، آه يافتيانني! اقفزوا! سيكون عشائكم من كعك الجردك والحلزون ، أنتم تعلمون يافتيانني ، الحلزون المشويّ وفطير المفين . برينكم اقفزوا ، ثبوا ، هذا الحوت من ذوات المائة برميل ، إياكم أن يفلتكم ، بالله لا تدعوه يفوتكم! انظروا الى ذلك اليرمان! آه ، ألا تجذّفون من أجل نصيبكم من العصيدة يافتيانني! يا له من نقيح! ياله من منتقع! ألا تحبّون زيت العنبر ، هاهي ثلاثة آلاف دولار من الزيت يارجال! أمامكم بنك ، بنك كامل ، بنك انجلترا هيا! هيا! هيا ، لأي شيء يتأهب اليرمان الآن ؟ » .

في تلك اللحظة كان دريك يهّم أن يطرح المزيّة على القوارب المتقدّمة ، ويلقي عليها بصفيحة الزيت ، ولعلّ غايته كانت مزدوجة أي أن يعوّق منافسيه وأن يزيد من سرعه قاربه بما تحدّثه الرجة الخلفية فيه من زخم للإندفاع قدماً .

فصاح اسطب : « ياله من قارب هولندي لاخلق له! جذّفوا يارجال كأنكم خمسون ألف صف من شواني حربيّة بحارتها شياطين حمر الشعور . ما قولك ياطاشطيقوا ؟ أنت المرء يكسر عموده الفقري اثنتين وعشرين قطعة من أجل اسم بلدك العريق ؟ ماقولك ؟ » .

فصرخ الهندي : « أقول : جذّفوا كأن لعنة الله حلّت بكم! »

بدأت قوارب الباقوطة الثلاثة وقد هاجها زجر الألماني تصطف جنباً لجنب حتى تكاد تدنو منه صفّاً واحداً ، وهي على ذلك النسق ، ووقف الضباط الثلاثة في خيلاء ، وقفه رائس القارب حين يكون في موقف جميل طليق بطولي وهو يدنو من فريسته ، وهم بين الحين والحين يسندون صاحب المجذاف من ورائه بصيحة جذلي قائلين : « هنالك ينزلق الحوت ، مرحي للنسمات التي تعين المجاذيف! ليستط اليرمان ، ادفعوا قواربكم من فوق! »

لكنّ دريك ذهب في انطلاقة أصيلة مصمّة حتى كاد يكون رغم كلّ ما أبداه منافسوه من بطولة هو الفائز في السباق ، لولا أن القدر العادل نزل عليه في صورة سرطان علق صاحبه المجذاف الأوسط . وبينما كان هذا الملاح « العبيط » يحاول أن يخلص مجذافه ويكاد قارب دريك ينقلب من تلك المحاولة وهو يردد نحو رجاله في غضب هائج ، كان ذلك كلّه فرصة طيبة يفتنمها كلّ من استاربك واسطب وفلاسك . فانقضوا الى الأمام انقضاضة مستينسة - دون صحب - واصطبقوا أمام موقع الألماني في صفّ موارب وبعد لحظة كانت القوارب الأربعة في المنخر القريب من ذنب الحوت معاً في اتجاه كأنه قطر المربع ، بينما كانت تتناثر على الجانبين منها نفاخات الزيد الذي يثيره اندفاعه .

كان منظراً مفزعاً هائجاً داعياً للإسفاق والرتاء ، إذ كان الحوت عندئذ يشدّ وقد أخرج رأسه ، وأخذت نفثاته تبعث أمامه بنفثات متكررة متألّمة ، بينما كانت زعنفته الوحيدة البائسة ترف على جانبه في عذاب الفزع ، وكان هو في هربه المتلجج المضطرب يهيم متلذّداً تارة لليمين وتارة لليسار ، وكلّما هذ موجة مخبّة غاص في البحر متشنّجاً أو قلب على أحد جانبيه زعنفته الوحيدة الرفاقة نحو الفضاء . لقد رأيت طيراً مقصوص الجناح يدوم في الفضاء تدويماً مفزعاً متردّداً محاولاً دون جدوى أن ينبج من مغالب الشواهين القناسة . غير أنّ للطائر صوتاً فهو يعبر بمصيحاته الحزينه عن خوفه ، أما خوف هذا الوحش البحري الأخرس الجسيم ، فإنه كان محبوساً مسحوراً فيه ، إذ لم يكن له صوت إلاّ الشهقات المختنقة من خلال فويهة التنفس ، وهذا ماجعل منظره مشيراً للرتاء الى حدّ يعجز عنه التعبير ، ومع ذلك فقد كان في جسامته المدهشة وفكّه المتراسي وذنبه الهائل مايفزع أقوى امرى، مشفق .

ولمّا رأى دريك أنه لم يبقَ إلاّ بضغ لحظات حتّى تكسب قوارب الباقوطة الجولة دونه وبذلك ينهزم خائباً دون طريدته آثر أن يجازف بإلقاء ماقد يبدو له رمية بعيدة قبل أن تفوته آخر فرصة الى الأبد .

وماكاد زرّاقه يقف لتسديد الضربة حتّى قفز النمرور الثلاثة كويكوج وطاشطيقوا ودغة ، بدافع الفريزة ، على أقدامهم ووقفوا صفّاً موارباً ، وسدّوا حرايهم في الوقت نفسه ، وقذفوا من فوق رأس الزرّاق الألماني بحرايهم النانتوكتية الثلاث فانفرت في جسم الحوت ، وارتفعت أبخرة الزيد والنار البيضاء تعشي العيون! وارتطمت القوارب الثلاثة لدى هياج الحوت عند أول انطلاقة رأسيّة يأتيها بالقارب الألماني ارتطاماً قوياً حتّى أنّ دريك وزرّاقه المفلوب على أمره اندلعا منه ، ومرّت من فوقهما القوارب الثلاثة الطائرة .

وإذ ألقى عليهما اسطب نظرة عابرة وهو منطلق صاح بهما : « لا تخافا أيّها العزيزان ، يا غلبتي الزيد ، ستجدان من يلتقطكما توّأ ، تمهلاً ، فقد رأيت بعض القرشان في المؤخرة - تلك الكلاب التي نذرت نفسها لخدمة القديس برنارد كما تعلمان - وهي تنقذ المسافرين التعمساء! مرحى ، فهذا هو السبيل الذي نسلكه الآن ، كلّ قارب فإنّما هو شعاع من أشعة الشمس يهدينا سواء السبيل ، مرحى! - ها هنا نحن نجري كأننا ثلاث « غلايات » من القصدير معلّقة في ذيل كوجر (أسد جبلي) مجنون . هذا يذكرني كيف يربط المرء الى الفيل في التلبار على أحد السهول ، هذا يجعل برامق العجلات تطير ، أيّها الشبان ، حين يكون الربط على هذا النحو . وقد ينتشر المرء من عربة التلبار حين تصطدم بتلة . مرحى!

هذا ما يشعر به المرء وهو ذاهب الى دافي جونز - وهو منطلق على سطح مائل لآخر له .
مرحى! فهذا الحوت يحمل البريد السرمدى! »

إلا أن منطلق ذلك الحيوان كان قصيراً فقد شق فجأة وقمس في هرج وضجيج وطارت
الجبال الثلاثة في اندفاع ذات صرير حول المثقلات بقوة كأنها تريد أن تفرز فيها محزراً .
وبلغ الخوف من الزراقين مبلغاً إذ خشوا أن يستنفد هذا القمس السريع بقية الجبال .
فاستخدموا كل قوتهم اللبقة فأمسكوا بالثنيات المطوية التي تبعث الدخان كي يعوقوا
استرسال العنبل ، وأخيراً أصبحت حوافي المقادم مستوية والماء أو تكاد ، وارتفعت
كوثلاتها في الفضاء عالية ، وذلك بسبب الشدة العمودي الذي تحدته الخطاطيف المروسة
بالرصاص في القوارب من حيث تسترسل الجبال الثلاثة على استقامة الماء .

ويبقى الملاحون بعض الوقت على تلك الحال حين كف الحوت عن الغوص وهم يخشون
أن يرخوا مزيداً من الثنيات ، وإن كان الموقف حرجاً بعض الشيء . ومع أن القوارب قد
كان يمكن أن تهوي ويذهب أثرها بهذه الطريقة فإن هذه « الوقفة » كما يسمونها ، إن هذا
الجذب الى أعلى بقوة الحراب الحادة التي نفذت في لحمه الحي من خلف ، هو ما يعذب
اللويئات في الغالب ويضطره الى البروز من الماء كي يتلقى الحربة النفاذة من أيدي أعدائه .
ولاحاجة بنا الى الحديث عن مافي هذا الأمر من أخطار ولكن هناك من يرتاب في أن تكون
هذه الطريقة خير الطرق جميعاً ، إذ من المعقول أن يفترض المفترضون أنه كلما طال بقاء
الحوت الجريح تحت الماء زاد حظه من الإنهاك ، لأن امتداد سطحه - وسطحه إذا كان حوت
عنبر كبيراً مكتمل النمو لا يقل عن ألفي قدم مربع - يجعل ضغط الماء عليه كبيراً . ونحن
نعلم أي ضغط جوي مدهش تقع تحته ونحن هنا فوق الأرض لا في الماء ، فأني عبء كبير
يتحمله حوت ، وقد احتقب فوق ظهره امتداداً يبلغ ماتني قامة من الماء ، إنه ولا شك ضغط
يساوي وزن خمسين ضغطاً جويّاً ، وقد قدر أحد الحوتيين أنه يبلغ وزن عشرين سفينة
حرية بكل مافيها من مدافع ومخازن ورجال .

واضطجعت القوارب الثلاثة هنالك في رفق على سطح الماء المتدحرج وهي تحذق في
الظهيرة الأبدية الزرقاء ، ولم تنبث من أعماق الزرقة أنه أو صيحة ما ، لا ولم تنطلق اهتزازة
أو نفاخة ماء ، فلو أن أحد أبناء البر شهد هذا المشهد أكان يخطر له أن أشد الحيوانات
البحرية وحشية يتلوى ويتعصص بالعباب المبرح تحت ظاهر ذلك الصمت وتلك السكينة
المطمئنة ؟ كان الجبل كله عند مقدم القوارب قد غاص تحت الماء فلا يرى منه عمودياً فوق
السطح أكثر من ثماني بوصات . من يصدق أن تلك الخيوط الثلاثة السحيلة كانت تعلق ذلك

الليوثان الجسيم كما يعلّق وزن كبير الى ساعة... يعلّق؟ وبأي شيء، يعلّق؟ بثلاث قطع من الخشب . أهذا هو الحيوان الذي قيل فيه ذات مرة بلهجة مزهوة : «أتملأ جلده حراباً ورأسه بألال السمك؟ (أيوب ٤١ : ٧) - سيف الذي يلحقه لايقوم ، ولارمح ولازراق ولادرع . يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعمود النخر ، لايستفزّه نبل القوس ، حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش ، يحسب المقمعة كقش ، ويضحك على اهتزاز الرمح» (أيوب ٤١ : ٢٦ - ٢٩) . أهذا هو ذلك الحيوان؟ أحقاً أنه هو؟ ما أعسر أن تخيب نبوءة الأنبياء ، ذلك أن هذا اللويثان الذي تبلغ قوة ذنبه قوة ألف فخذ مجتمعة قد وارى رأسه تحت جبال من الماء ليحتمي من حراب السماكة في الباقوطة!

في تلك الساعة من الأصيل ، وقد أخذت أشعة الشمس تنحدر ، كانت الأخيلة التي ترسلها القوارب الثلاثة تحت الماء طويلة عريضة بحيث تظلّل نصف الخميس الذي كان يقوده أحشويرش . من يدري كم كانت تلك الأشباح الضخمة مفزعة للحوت الجريح وهي تمرق فوق رأسه!

«تأهبوا يارجال ، فإنه يتحرك» - ذلك ماقاله استارباك عندما أخذت الحبال الثلاثة تتذبذب فجأة في الماء ، وهي تنقل الى السطح بوضوح - كأنها أسلاك مغناطيسية - نبضات الحياة والموت في الحوت ، حتى لأحسن بها كل مجذّف في مقعده . وفي اللحظة التالية ، ارتاحت القوارب الثلاثة بعض الشيء من قوة الشد عند مقدماتها الى أسفل ، فانتفضت في وثبة مفاجئة ، مثلما ينهال كتيب من جليد حين يفرغ منه قطع كثيف من الدببة البيض منطلقاً نحو البحر .

فصاح استارباك مرة أخرى : «اسحبوا ، أجدبوا فهو يصعد» . قبل لحظة لم يكن يسحب من الحبال مايزيد على شبر ، ولكن سرعان ما تلوّق في لفافات سريعة طويلة وألقيت وهي تقطر ماء في القوارب ، وسرعان ماشقّ الحوت سطح الماء على بعد من الصيادين يساوي طول سفينتين معاً .

وقد دلّت حركاته بوضوح على ماأصابه من إعياء بالغ . في أكثر حيوانات البر صمّامات في كثير من عروقها ، فإذا جرحت حصر الدم مؤقتاً في بعض الاتجاهات فلم ينزف جملة . وليس كذلك الحوت ، فإن من خصائصه أن عروق الدماء فيه ليس لها صمّامات ، فلو نفذ فيه حد صغير كرأس الرمح ، أصيب حالاً بنزيف قاتل يأتي على كل مافي شرايينه وأوردته ، فإذا تذكّرت شدة وطأة الماء فوقه وهو على عمق بعيد تحت السطح قلت إن حياته تنسكب منه في جداول مسترسلة . ولكن كمية الدم فيه كبيرة ومنابعها الداخلية فيه

عديدة بعيدة الغور حتى ليظل ينزف وينزف مدة غير قصيرة ، كالنهر في اليباب القاحل يظل يجري ومنابعه من آبار نائية غامضة في التلال . حتى حين جذبته القوارب وغامرت بالاقتراب من شطري ذنبه المتناوحين ، وقذف الزراقون حراهم فيه ، حتى حينئذ أخذت تنطلق في الأثر نفثات دموية دائبة تخرج من الجرح الجديد ، وظلّ النزيف مستمراً ، أما نفثاته الطبيعية في رأسه فإنها كانت ترسل بين فترات متتابة بخارها المضرع في الفضاء ، ولم يخرج من تلك الفوهة الفوها أي دم حتى ذلك الحين ، ومعنى ذلك أن كلّ الضربات لم تصب جانباً حيويّاً فيه ، أي أن الضربات لم تمسّ «حياته» - كما يقولون بحق .

وعندما أحاطت به القوارب مقتربة انكشف كلّ الجزء العلوي من جثته ، وكان أكثرها يبقى في العادة منغمساً في الماء . وبدت للنظر عيناه أو المكانان اللذان كانت فيهما عيناه . حين تنطرح على الأرض أعتى أشجار الزان يتجمع في ثوب عقدها كتل غريبة سيئة النشأة . كذلك من المحجرين اللذين كانت تحتلّهما عينا الحوت جحظت نفثاخان: ضريرتان ، من رأهما قدّر أن الحوت يستحقّ الرثاء على نحوٍ فظيع . ولكن لارثاء ولاشفقة . رغم شيخوخته وأنه أقطع ذو ذراع واحدة ، أعمى سملت عيناه ، لا بدّ أن يعاني الموت وأن يذبح لكي ينوّر ليالي الأعراس ، وغيرها من أفراح الناس ، ولكي يبعث الضياء في الكنائس المقدّسة التي تبشّر بالتسامح والتراحم المطلق بين المخلوقات جميعاً . مازال يتقلّب في دمانه . وأخيراً كشف - بعض الكشف - عن هنة بارزة أو تنوء غريب غير ذي لون في أسفل جنبه بقدر حجم «البوشل» .

فصاح فلاسك : «هدف جميل ، خلّوني أنخسه فيه مرة واحدة» .
وصاح استاريك : «كفى! لا حاجة لذلك!» .

لكنّ استاريك ذا القلب الرحيم كان قد أبطأ متوانياً ، وانطلق مزراق فلاسك فأنهر جرحاً رغبياً فيها وأخذ الدم المتقيح يشعب منها كأنه نفثاة ، فأصاب الحوت من الحدة النافذ ألم لا يطاق ، وانقضّ على غير هدى وقد تملكه غضب جامح ، والدم الكثيف المتخفّر ما يزال يتدفّق منه ، انقضّ على القوارب وهو يلطّخها وملاحيتها بوابل من الدم العبيط ، وقلب قارب فلاسك وهشمّ مقدمته . كانت ضربة الموت . ذلك أنّ الإعياء حينئذ كان قد استنزف قواه لكثرة ما فقد من دماء . فتدحرج بعيداً عن الحطام الذي أحدثه خائراً مكدوداً ، واستلقى على جنبه لاهتاً وهو يرفّ بجذم زعنفته في عجز ، ثمّ تدحرج وتقلّب كأنه دنيا آفلة ، وبرزت أحشاؤه البيض للعيان ، وتمدّد كالحشية وقضى نحبه . تلك الشهقة الأخيرة تعبير الرحمة والرثاء . كانت نفثة الموت الطويلة الأخيرة التي أسلم بها

الروح كأنها نافورة قوية تحركها أيد خفية لتستخرج منها الماء تدريجياً ، فإذا بالرشاش فيها يهبط ويهبط حتى الأرض مرسلأ غرغرات حزينة شبه مختنقة .

وبينما كان البخارة يرقبون وصول السفينة ، أبدت جثة الحوت أمارات تدلّ على أنها تفوس وذخائرها جميعاً مودعة فيها . وفي الحال أمر استاربك أن يحاط بالحبال في مواضع مختلفة ، وبذلك أصبح كلّ قارب مغلم عوم ، وأصبح الحوت الغاطس معلقاً بالحبال على مدى بضع بوصات دون مستوى القوارب . وعندما اقتربت السفينة نقل الحوت الى جانبها بمنتهى الحكمة والأناة ، وربط اليها ربطاً محكماً بأقوى السلاسل الجانبية وأصلبها إذ كان من الواضح أنّ الجثة إذا لم تربط ربطاً مصطنعاً فإنها ستفوس الى الأعماق .

واتفق أنه حين بدأ التقطيع فيه بالمجرفة ، وجد رمح مريش مهترى يطوله الكامل متغلفلاً في لحمه في الجزء الأسفل من تلك الهنة الناتئة التي تقدّم ذكرها . إنّ بقايا الرماح كثيراً ما توجد في جثث الحيتان المصيدة وقد التأم اللحم من حولها تماماً ، ولا يحدث نتوء من أيّ نوع يدلّ عليها ، لذا كان لابد من وجود سبب مجهول في الحالة الراهنة يفسر التقيح الذي مرّت الإشارة اليه . وأغرب من ذلك أن وجد سنّ حربة من الصخر فيه غير بعيد عن الحديد المدفونة ، واللحم من حولها صلب سليم . من قذف بتلك الحربة الحجرية ؟ ومتى كان ذلك ؟ قد يكون الذي قذفها هندياً شمالياً غربياً قبل أن تُستكشف امريكا .

من يدري أيّ أعاجيب أخرى كان يمكن أن تُستخرج من ذلك المخدع الوحشي ؟ لكن العمل في الإستكشاف والتنقيب توقّف فجأة إذ جرّت السفينة - وهو أمر لاسابقة له - الى عرض البحر جرأً جانبياً ، وذلك لأنّ ثقل الجثة جعلها تتجه بشدة نحو الفرق . غير أنّ استاربك الذي كان يوجّه الأمور التزمها حتى النهاية ، التزم بها بعزم وإصرار حقاً ، حتى أنّ السفينة حين أصبحت في النهاية على وشك أن تنقلب إذا ظلّت مرتبطة السواعد الى جثة الحوت ، وحين صدر الأمر بالابتعاد عنها ، كانت قوّة الشدّة على رؤوس الخشب التي ترتبط بها سلاسل الجنب والحبال كبيرة ، حتى كان من المحال طرحها ، وفي الوقت نفسه أصبح كلّ شيء في الباقوطة مائلاً . وكان الاجتياز الى الجانب الآخر من ظهر السفينة يشبه المشي صعوداً على سقف بيت هرمي ، وأنت السفينة وتقطعت أنفاسها متحسرة . ونفر كثير من زينتها العاجية المرصعة في هيكلها وفي غرفها ، من مواضعها ، بسبب وضعها الشاذ . وجلبت الأمخال والعتلات لتعمل في سلاسل الجانب التي لا تتحرك ، لكي تتحرك فيمتدل جنوحها من رؤوس الأخشاب ، فذهبت المحاولة سدى . وكان مستوى

الحوت قد انخفض حتى أن الاقتراب من طرفيه المغمورين لم يكن ممكناً ، بينما كان يبدو في كل لحظة أن أطناناً كاملة من الوزن كانت تضاف الى الشقل الغائص ، وبدت السفينة وكأنها تهم أن تنقلب .

فصاح اسطب مخاطباً الجثة : « توقفي! توقفي! بحقك لاتتملكك سرعة شيطانية للفرق ولا بحق الرعد يارجال لابد أن نعمل شيئاً وإلا رحنا في داهية ، دعوا التحريك بالأمخال هناك . كفى ، توقفوا عن العمل بالعتلات ، وليذهب أحدكم مسرعاً ويحضر كتاب الصلوات ، وسكيناً صغيرة يقطع بها السلاسل . »

« سكين ؟ أيوه أيوه » كذلك صرخ كويكوج ثم أمسك بلطة النجر الثقيلة ثم مد جسمه من أحد المجازات الجانبية وأعمل الفولاذ في الحديد وبدأ يقطع أكبر السلاسل الجانبية وبعد ضربات قليلة يقدح منها الشرر أثر الشدة الزائد في بقية السلاسل ، وعام كل رباط على الماء في انقسام مخيف واعتدلت السفينة وغاصت الجثة في الأعماق .

إن الفوص العارض المحتوم الذي تعرض له هذا الحوت العنبري المصيد حديثاً شيء غريب حقاً ، ولم يستطع أي صياد أن يجد له تعليلاً مقبولاً ، ذلك أن حوت العنبر يعوم في العادة بخفة كبيرة ، وقد ارتفع جانبه أو كرشه فوق سطح الماء . فإذا كانت الحيتان الوحيدة التي تغوص هي المعمرة الهرمة الهزيلة الكسيرة القلب لأن دثارها من الشحم قد تناقص وثقلت عظامها وأصبحت منقرسة فإنك تستطيع أن تؤكد أن غوصها ناجم عن كثافة نوعية غير عادية نتيجة لفقدها المادة المخفة فيها ، لكن الأمر ليس كذلك ، فإن الحيتان الفتيان - هؤلاء الأبطال الأنجاد الرشيقون - وهم في خير أحوال الصحة ، وضروب الطموح تملأ نفوسهم - يفوصون أيضاً حين يقتتلون في ريان العمر وزهرة الحياة والشحم يكتنفهم طبقاً فوق طبق .

وقد يقال إن حوت العنبر أقل تعرضاً لمثل هذا الحادث من حيتان الفصائل الأخرى ، فإذا غاص حوت عنبر واحد ، غاص في مقابله عشرون من الحوت الأثين ، وهذا الفرق في الأنواع يعود دون ريب ولحد كبير الى كبر حجم العظم في الحوت الأثين ، فإن « ستائره » وحدها تزن أحياناً ما يزيد على طن ، وهذا عائق قد برئ منه حوت العنبر تماماً ، غير أن هناك أمثلة يرتفع فيها الحوت الغائص مرة أخرى بعد مضي عدة ساعات أو عدة أيام ، وهو أكثر خفة مما كان حين كان على قيد الحياة ، وسبب هذا واضح جلبي ، إذ تتولد فيه الغازات فينتفخ ويتمدد حجمه كثيراً ويصبح كأنه منطاد حيواني ، ولو سلطت عليه مجموعة من سفن الحرب لمجزت عن أن تبتليه تحت الماء . وإذا أبدى الحوت الأثين أماراً على أنه أخذ

يفوص ، في التحويت الساحلي أو في مواطن السبر بين خلجان نيوزيلنדה ، فإنهم يربطون به معومات وكثيراً من الحبال حتى إذا غاب الجسم في الأعماق عرفوا أين يبحثون عنه إذا هو ارتفع مرة أخرى .

ولم يمض وقت طويل على غرق تلك الجثة حتى ارتفعت صيحة من قمم صواري الباقولة معلنة أن السفينة يونجفراو قد أخذت تنزل قواربها من جديد . وإن كانت النفاثة الوحيدة التي لاحت بمنأى من البخارة لم تكن سوى نفاثة الحوت المسنم ، وهو ينتمي الى نوع من الحيتان لا يصاد لقدرته الخارقة على السباحة ، ومع ذلك فإن نفاثة الحوت المسنم شبيهة بنفاثة حوت العنبر حتى ليخلط بينهما الصيادون الأغرار ، ومن ثم أصبح دريك وكل جماعته في طراد جريء لذلك الوحش الجسور المقدم ، وحشدة «العدراء» كل أشرعتها التي صنعت بحيث تناسب أرنياها الأربع واختفى الكل في وجهة الريح بعيداً في مطاردة جريئة مفعمة بالأمال .

واهاً يا صديق! ما أكثر الحيتان المسنمة وما أكثر القباطنة من أمثال دريك!

ما في التحويت من شرف ومجد^(١)

بعض الأشياء تكون فيها الفوضى العامة هي المنهج الصحيح .
كلما غصت في أمر التحويت ودفعت أبحاثي قدماً الى « رأس النبع » ازدادت إعجاباً
بمبلغ ما فيه من شرف عظيم تليد ، وحين أجد بخامة أرباباً وأبطالاً وأنبياء من جميع الأنواع
قد سكبوا عليه تمجيداً وتمييزاً يطير بي خاطر الى أنني أنتهي الى تلك الأخوة المزخرفة
بالأمجاد وإن لم أكن من أرومتها في الصميم .

كان برسيوس الشهم ابن جوبتر أول حوات ، ومن دواعي الشرف الأزلي في حرفتنا
أن أول حوت هاجمه اخواننا الأسلاف لم يقتل بدافع خسيس . تلك الأيام كانت أيام
فروسية في حرفتنا حين كنا لانحمل السلاح إلا لنفيث الملهوف والمكروب لا لنملاً
المزيت للناس . وكل أمرى يعرف تلك القصة الجميلة ، قصة برسيوس وأندروميده ،
وكيف أن أندروميده الجميلة ابنة أحد الملوك ربطت الى صخرة على ساحل البحر ، وبينما
كان اللويثان يهّم بأخذها تقدم برسيوس أمير الحواتين بجأش رابط ، وزرق الوحش
برمحه ، وخلّص الفتاة منه وتزوجها . ذلك عمل فني مثير للإعجاب قل أن يؤدبه خير
الزراقين في أيامنا هذه ، أعني أن يذبح أحدهم الحوت بمزراق واحد ضربة واحدة .
وليس لأحد أن يرتاب في هذه القصة التي تنتمي الى عهد نوح . إذ ظل الهيكل الجسيم
من أحد الحيتان شاهداً على مدى أجيال عديدة في أحد المعابد الوثنية بمدينة يوبا ،
وهي يافا الحديثة على الساحل الشامي ، وكانت أساطير تلك المدينة وجميع سكانها
يؤكدون أن ذلك الهيكل هو عظام الوحش الذي قتله برسيوس . وعندما استولى الرومان

(١) عند ملغل في الفصل ٢٤١ من كتبوا عن الحيتان وفي الفصل ٤٥١ أشهر الحيتان ، وما هو في هذا الفصل يتحدث عن أشهر الحواتين .

على يافا حملوا ذلك الهيكل معهم في موكب النصر . أما ما يبدو فريداً هاماً - على نحو لافت - في القصة فهو هذا . من يوبا نفسها أبحر يونان .

وتشبه مغامرة برسيوس وأندروميده قصة أخرى شهيرة يظنّها بعض الناس في الحقّ مستمدة منها على نحو غير مباشر ، تلك هي قصة القديس جورج والتنين ، وأنا أزعّم أنّ ذلك التنين كان حوتاً ، إذ أنّ التواريخ القديمة تخلط بين الحوت والتنين على نحو غريب ، وكثيراً ما يكون الواحد منهما بديلاً للآخر . يقول حزقيال : « أنت تشبه أسد الأمواه وتنين البحر^(١) » ، وهو يعني الحوت - صراحة - . وفي الحقّ أنّ بعض نسخ التوراة ترد فيها لفظة « حوت » نفسها . ثمّ أنه لما يتقص من مجد العمل الخطير الذي قام به القديس جورج أنّ يتصدّى لزاحف من زواحف البر بدلاً من أن ينازل وحش الأعماق الكبير ، فإنّ أي امرئ قد يقتل أفعى ولكن ليس في صدر أحد قلب يمشي مشية باسلة الى حوت إلا أنّ يكون امرءاً من قبيل برسيوس أو القديس جورج أو كوفن .

وليس للرسوم الحديثة التي تمثّل هذا المنظر أن تضلّنا ، إذ أنّ المخلوق الذي واجهه ذلك الحوت الجسور في غابر الأيام يرسم على صورة مبهمّة تشبه العنقاء ، وتمثّل المعركة في البرّ والقديس على ظهر جواد ، بل علينا أن نعتبر الجهل الكبير الذي كان يسود تلك الأيام حين كان الفنانون يجهلون الشكل الصحيح للحوت ، وأنّ تتصوّر أنّ حوت القديس جورج قد يكون زحف من البحر الى الشاطئ ، وأنّ تقدر أنّ الحيوان الذي كان القديس يمتطيه قد يكون صيلاً ضخماً أو حصان بحر ، فإذا تذكّرنا كلّ هذه التقديرات كان من حقّنا أن نعتقد أنّ ما يسمّى التنين لم يكن سوى اللويثان العظيم نفسه ، وإنّ اعتقادنا هذا لا يبدو متنافراً وتلك القصة المقدّسة ، معارضا لأقدم رسوم ذلك المشهد . بل الحقّ لو أنّك وضعت القصة كلّها أمام الحقيقة الصارمة النافذة لجات مثل ذلك الصنم الذي كان يمثّل السمكة والانسان والطير ، صنم الفلسطينيين الذين كانوا يسمّونه داجون^(٢) ، وقد نصب أمام تابوت العهد الاسرائيلي ، وقد سقط منه رأس حصانه وراحته يديه ولم يبقَ إلا جذمه أو ذلك الجزء السمكي منه . فمن أرومتنا النبيلة حوات يعدّ حامياً قيماً على انجلترا ونحن - حواتي ناتتوكت - يجب أن ندرج أسماءنا في جمعيّة القديس جورج النبيلة المحتد . ولذا وجب على الفرسان المتتمين الى تلك الجماعة الشريفة (وأجرؤ أن أقول : ليس لأحد منهم أيّ شأن بالحوت كما كان حال

(١) في حزقيال ٢٢ : ٢٢ « أشبهت جبل الأمم وأنت نظير تمساح في البحار .

(٢) انظر سفر القضاة ١٦ : ٢٣ ومسودّ الأول ٢٠٥ : ٥ .

راعيهم) أن لا يرمقوا ناتوكياً باحتقار ، إذ أننا حتى في ستراتنا الصوفية وسراويلنا المقيرة أحقّ بشعار القديس جورج منهم .

وأنا في حيرة من أمري هل أسمح لهرقل أن يعدّ واحداً منا أو لا يعدّ . نعم إن الأساطير اليونانية تقول إن هذا البطل القديم الذي يشبه كروكت وكت كارسون من أبطالنا^(١) ، ذلك المفتول الساعد الذي اضطلع بتحقيق الأعمال البهيجة المجيدة قد ابتلعه الحوت ثم قذف به ، ولكن تُرى إذا دققنا في الأمر فهل هذا يجعل منه حوتاً ؟ ذلك شيء يظلّ محطاً للجدل . إذ ليس فيما بلغنا أنه زرق الحوت برمحه إلا أن يكون قد فعل ذلك وهو في جوفه ، ومع ذلك فقد نعدّه حوتاً على نحوٍ لإرادي ، وعلى أية حال فإنّ الحوت أمسك به ، وإن لم يمسك هو بالحوت ، وأنا أميل إلى أن أدعيه واحداً من بني عشيرتنا .

غير أنّ الثقات - على تضارب في الرأي فيما بينهم - فريقان : فريق يرى إن هذه القصة الإغريقية عن هرقل والحوت مستمدة من قصة عبرية أقدم منها عن يونان والحوت ، وفريق يقول بل القصة العبرية مقتبسة عن اليونانية ، وكلا القولين متشابهان ومادما ندعي البطل الذي يشبه الآلهة فلم لاندعي النبي ؟

ليس الأبطال والقديسون وأشباه الأرباب والأنبياء هم وحدهم الذين يشتمل عليهم سجل عائلتنا ، ولا بدّ أن نذكر اسم سيّدنا العظيم ذلك أنّ نبع إخوتنا لا يتقاعس عن منزلة الأرباب العظام كما كان الملوك في غابر الأيام . تلك القصة الشرقية العجيبة يجب أن تتلى على الأسماع نقلاً عن الشاستر الذي يمنحنا فشنو المخوف أحد ثلاثة أشخاص يتجسّدوا ربّ الهندوس ، وفشنو هذا الآلهي هو سيّدنا ، فشنو هو الذي فصل الحوت وميّزه وجعله مقدساً إلى الأبد في التجسد الأوّل من تجسّداته الأرضية العشرة . ويقول الشاستر : عندما قرّر براهما ربّ الأرباب أن يعيد خلق العالم بعد أحد انحلالاته الدورية ، ولد فشنو ليهيمن على هذا العمل ، ولكن الفيدا أو أسفار الحكمة الغيبية التي كانت قراءتها أمراً لزاماً على فشنو قبل أن يبدأ الخلق ، والتي كانت تحتوي ولا بدّ أشياء في صورة تلميحات عملية للمهندسين المعماريين الشبان ، أقول : هذه الكتب كانت في قاع البحر فتجسد فشنو حوتاً وقمص فيه إلى قرارة الأعماق السحيقة وخلّص تلك الكتب المقدسة . ألم يكن فشنو هذا حوتاً ، إذن ، مثلما يسمّى راكب الفرس فارساً ؟ برسسيوس ، القديس جورج ، هرقل ، يونان ، فشنو! هذا سجل العضوية لك أيّها الحوات . أيّ نادٍ إلا ويستطيع نادي الحواتين أن يبذره ؟

(١) دافيد كروكت (١٧٨٦ - ١٨٢٦) وكت كارسون (١٨٠٩ - ١٨٦٨) الأوّل سيّد دبية انتخب في الكونجرس رغم أنه أمني ، أمّا كارسون فذهب في رحلت استعمارية عديدة إلى كاليفورنيا وشارك في الحرب المكسيكية .

النظر في يونان من زاوية تاريخية

في الفصل السابق جرت الإشارة إلى القصة التاريخية ، قصة يونان والحوث . غير أن بعض أهالي ناتوكت لا يثقون بتلك القصة . لكن كان في الإغريق والرومان أيضاً شكيون برزوا من بين الوثنيين المستقيمين أبناء زمانهم ، وشكوا في قصة هرقل والحوث وفي آريون والدلفين^(١) ، ورغم ذلك فإن شكهم لم يحول تلك الموروثات قيد شعرة عن كونها حقائق واقعة . وأبدي حوات عجوز من ميناء ساج سبباً كبيراً استدعى منه التشكك في القصة العبرية وذلك هو : كان لديه نسخة أنيقة من هذا الطراز القديم الذي كانت تكتب به نسخ التوراة مزينة بلوحات عجيبة غير علمية ، تمثل أحداها حوث يونان وفي رأسه نفاثتان - وهي قصة خاصة لاتصدق إلا على نوع اللويثان (أي الحوث الأثين وأنواع فصيلته) وقال المتيادون فيما يتصل به : « لو دحرجت في حلقه قطعة تقود لاختنق » إذ أن بلعومه بالغ الصغر . إلا أن الأسقف جب كان لديه جواب قبلي جاهز يردّ به على هذا الاعتراض . يقول الأسقف : ليس من الضروري أن نقول أن يونان قبر في جوف الحوث وإنما ركن مؤقتاً في جانب من فمه . وهذا شيء جدّ معقول من الأسقف الطيب ، إذ الحق أن فم الحوث الأثين يتسع لزوج من مائدتي الورق يجلس حولهما اللاعبون مرتاحين . ومن الممكن أيضاً أن يونان انجحر في تجويف خرس ، ولكن حين نتدبّر الأمر ونخلي الظنون نرى أن الحوث الأثين ليس له أضراس .

وسبب آخر قدمه ذلك الساجي (أي المنتمي إلى ميناء ساج) يعلل به قلّة إيمانه بأمر هذا النبي ، شيء يشيز في غموض إلى جسده المحبّس المخنوق والعصارات المعدية التي يفرزها الحوث ، إلا أن هذا الاعتراض يتهاوى على الأرض لأن أحد المفسرين الألمان يظن أن يونان

(١) تقول الاسطورة إن آريون الشاعر كذّف بنفسه في البحر هرباً من الملاحين الذين حاولوا أن يبتزوه مامعه . لكن قبل أن يفتن عزف على عوده فاجتعب عدد من الدلافن حول السفينة ، فامتلى ظهر أحدها ودجا به سالماً إلى البر .

لجأ ولابداً الى جسم حوت ميت عائم ، مثلما أن الجنود الفرنسيين في حملتهم على روسيا جعلوا من جثث خيولهم خياماً وقبعوا تحتها . ثم أن بعض الشراخ المفسترين في القارة الأوروبية قد حدثوا بأن يونان حين ألقي عن ظهر السفينة المقلمة من يافا دبر الهرب توأ الى سفينة أخرى قريبة ، سفينة لها رأس في شكل الحوت ، وأنا أضيف أنها ربّما كانت تسمى «الحوت» مثلما أن بعض السفن اليوم تسمى «القرش» أو «النورس» أو «النسر» . ولم تعدم القصة مؤولين علماء ارتأوا أن الحوت المذكور في سفر يونان إنما يعني «حافظ الحياة» - أي كيس منتفخ بالهواء سبح اليه النبي حين أحاطت به الأخطار فنجوا من الموت بالماء . مسكين هو ذلك الساحي ، فقد هزم في كل مجال إلا أن لديه سبباً آخر يسوغ به عدم إيمانه وهذا هو إن لم تخني الذاكرة : أن الحوت ابتلع يونان في البحر المتوسط وبعد ثلاثة أيام قذف به الحوت على بعد ثلاثة أيام من نينوى - وهي مدينة على نهر دجلة - وهي تبعد عن أول ميناء على ساحل البحر المتوسط بأكثر من ثلاثة أيام . فكيف كان ذلك ؟

لكن ألم يكن لدى الحوت من طريقة أخرى يقذف بها النبي الى البرّ في مدى تلك المسافة القصيرة من نينوى ؟ نعم لعله حمله ودار به عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن هبّ أننا تجاوزنا عن رحلته قاطعاً المتوسط ثم رحلته في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فمثل هذا الظنّ يشمل إبحاراً كاملاً حول افريقية في ثلاثة أيام هذا إذا أغضينا أيضاً عن أن مياه دجلة عند موقع نينوى ضحلة جداً لاتسمح لحوت أي حوت بالعموم فيها . ثم أن القول بأن يونان دار حول رأس الرجاء الصالح في مثل ذلك التاريخ المبكر ينتزع شرف استكشافه من بارتولميو دياز مكتشفه المشهور ويجعل من التاريخ الحديث زوراً كاذباً .

إلا أن جميع هذه الحجج الحمقاء التي قدّمها ذلك الساجي العجوز إنما تشهد بالخلاء الجوفاء في عقله ، وهو أمر لايزال يستدعي الشجب والتقريع إذ لم يكن لديه من العلم إلا القليل الذي التقطه من يد الشمس والبحر . أقول إنه ربّما يبدي كبرياءه الحمقاء المارقة ، وثورته الكريهة الشيطانية ضدّ رجال الدين المبجلين ، إذ أن قسيساً برتغالياً كاثوليكياً قدّم الفكرة التي تقول : بأن يونان ذهب الى نينوى عن طريق رأس الرجاء الصالح مثبتاً بذلك حصول المعجزة على نحو ضخم . وكذلك كان . ثم أن المسلمين الأتراك المتدينين من ذوي البصيرة المستنيرة لايزالون حتى اليوم يؤمنون بقصة يونان التاريخية . ومنذ حوالي ثلاثة قرون ذكر رحالة انجليزي وردت رحلته في «رحلات هاريس» أن مسجداً بني باسم يونان وكان فيه قنديل معجز يضيء دون زيت^(١) .

(١) ليس في الرحلة المشار اليها أي شيء من قنديل معجز . وإنما كل ماورد فيها أن المسجد فيه فسمدانات كبيرة في زواياه الأبرج وفيه قناديل عديدة ، والمكان الذي يتحدث عنه الرحالة يقع على مقربة من نينوى .

قذف الحربة

إذا أريد لدواليب العربات أن تجري في يسر وسرعة دهنت بالشنم ، ولمثل هذه الغاية نفسها يقوم بعض الحواتين بعمل مشابه لقواربهم إذ يشخمون قواعدها . وهو عمل لا ضرر منه ولملّه يكون ذا فائدة لا يستهان بها ، دون ريب ، إذا تذكرنا أنّ الزيت والماء خصمان لا يتمازجان ، وأنّ الزيت سهل الانزلاق ، وأنّ الغاية من التزيت هي جعل القارب ينساب منزلقاً في إقدام . وقد كان كويكوج شديد الإيمان بتشحيم قاربه ، وذات صباح أنفق جهداً غير عادي في هذا السبيل بعيد أن اختفت السفينة الألمانية « العذراء » عن الأنظار ، فزحف من تحت قاعدته حيث كان مدلى من جانب السفينة ، ودهنه باعتناء كأنه كان يبحث جاهداً ليحصل على خصلة من شعر في سطحه الأصلع ، وبدا كأنه يعمل امتثالاً لنذرٍ ما ، وهذا ما صدقته الأحداث من بعد .

ظهرت الحيتان قرب الظهيرة ، وحالما اتّجهت السفينة مبصرة نحوها دارت وهربت في سرعة بالغة ، هربت في اضطراب كأنها سفن كليوبتره هاربة من أكتيوم . ومع ذلك استمرت القوارب في ملاحقتها ، وفي مقدّمتها قارب اسطب ، وبعد نصب ناصب استطاع طاشطيقو أن يفرس في أحد الحيتان رمحاً . لكن الحوت المصاب لم يقمس غائصاً وإنما مضى في هربه الأفقي ، وقد زاد من سرعته . وإذا استمرّ الضغط متوالياً على الشفرة المفروسة فيه كان من المحتوم ، إن عاجلاً أو آجلاً أن تنقلع من جسمه ، وأصبح لزاماً زرق الحوت الهارب بالحراب أو الرضى بتضييعه ، ولكن دفع القارب نحو جنبه أمر مستحيل إذ كان يسبح بشدة وهياج . فماذا بقي ؟

لدى الحوات المدرّب شؤون عجيبة وأفانين من المهارة والخداع وخفة اليد وما لا يحصى من الحيل ، يضطر لاستغلالها عند الحاجة ، ولكن لاشيء فيها يفوق تلك الحركة البارعة

بالحرية ، ويسمونها « قذف الحرية » pitchpoling . وليس يدانيتها في هذا سيف صغير أو سيف عريض في كل ما يمكن أن يؤديه من فنون . وليست هي لازمة إلا في حال حوت عامد هارب ، وأعظم مافيهما أنها تقذف مسددة فلا تطيش ، على مسافة عجيبة ، من قارب يترجرج ويضطرب في عنف ، في أقصى حالات المخر شداً . وإذا حسبت النصل الفولاذي والقناة فيها وجدت طولهما معاً بين عشرة أقدام واثني عشر ، والقناة فيها أشد دقة من قناة الرمح ، وتصنع من خشب خفيف هو الصنوبر ، ويربط بها حبل صغير يسمونه « السداة » ، ذو طول غير قليل يمكن قاذفها من جرّها الى يده بعد أن تصيب هدفها .

وقبل أن نمضي خطوة أخرى ، من الهام أن نذكر في هذا المقام أن الرمح يمكن غرسه بالطريقة نفسها مع الحرية ولكن ذلك قلماً يحدث ، فإذا حدث كان النجاح فيه نادراً ، وذلك لثقل الرمح وقصره إذا قورن بالحرية ، والثقل والقصر يصحان نقصين خطيرين عندئذ . ولذا كان من المسلم به أن يسرع الصيادون للحاق بالحوث قبل أن يحاولوا « قذف الحرية » .

تأمل اسطب . ذلك الرجل ، في بروده الساخر العامد وفي اتزانه لدى أعتى الأخطار ، كان يعدّ متميّز المهارة في قذف الحرية . انظر اليه ، إنه يقف منتصباً في المقدمة المترجرجة من القارب الطائر ، وعلى بعد أربعين قدماً أمامه يمضي الحوث ساحباً ماوراء وقد غاب في بياض الزيد . يروز اسطب الحرية الطويلة في خفة ، ويرمق طولها مرة أو مرتين ليرى إن كانت مستقيمة ، ثم يلف السداة في يد وهو يصفر ، لكي يبقى طرفها الآخر في قبضته تاركاً بقيتها دون أن يعوقها عائق ، ثم يمسك بالحرية أمام وسط حزامه تماماً ويصوبها نحو الحوث ، فإذا وثق أنه بمرمى منه ، خفض طرفها الخشبي في يده وبذلك يرفع حذها حتى تقف متزنة على راحته ، على ارتفاع خمسة عشر قدماً في الفضاء ، وهو يذكرك بالحاوي الذي يوقف عصا طويلة فوق ذقنه . وفي اللحظة التالية تقطع الشفرة اللامعة المسافة المزبدة في دفعة سريعة لاتوصف ، وفي حركة قوسية رفيعة ، وتهتز متأطرة في بؤرة الحياة من جسم الحوث ، فينفث الدم القاني بدلاً من الماء الناصع .

وصاح اسطب : « تلك الضربة قد أطارت السداة عن فوته . هذا هو اليوم الرابع من تصوّز ، اليوم الخالد ، وكلّ الينابيع تتحوّل خمراً اليوم ! ياليت هذا الدفق كان ويسكي أورليانز المعثّق أو ويسكي أوهايو أو ذلك الويسكي العتيق الذي يعجز الوصاف في مونجاهيلا^(١) . إذن طاشطيقو ، أيها الفتى لجعلتك تمسك صفحة تتلقّى فيها دفق النفاثة ،

(١) في بنسلفانيا الغربية .

ودارت علينا جميعاً الراح . أجل أيتها القلوب الحيوية إذن لتطربنا البنش المختار في رحي
الوقب من نشاته ، وجعلنا منها كأساً حياً وعبنا منها الشراب الحي عباً .
وفيما يمضي هذا الحديث اللاهي يعاد قذف الحربة مرة أتر مرة ، وتعود الى صاحبها
عودة كلب الصيد حين يكون مربوطاً في وثاق . ويخبو هياج الحوت المعذب ، ويرتخي
حبل الجر ، ويعتزل قاذف الحربة نحو المؤخرة ، ويطوي يديه ويرقب الحوت في صمت وهو
يلفظ أنفاسه .

النافورة

على مدى ستة آلاف عام - ولا أحد يدري كم مليوناً من الأجيال قبل ذلك - ظلت الحيتان العظيمة تبعث نفثاتها في عروض البحار جميعاً ، وترسل الرذاذ والسحب فوق حدائق الأعماق بما لديها من أوعية تطلق السحاب ورشاشات تنثر القطرات . وعلى مدى بضعة قرون ماضية ظلّ آلاف الصيادين يشهدون عن كئيب نافورة الحوت ، ويرون الى ماتقوم به من طش ورش ، وذلك ماكان وماهو كائن حتى هذه اللحظة المباركة (الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة والربع من بعد ظهر السادس عشر من شهر كانون الأول - ديسمبر - عام ١٨٥١ بعد الميلاد) ومع ذلك فلايزال السؤال قائماً ، أهذه النفثات ماء حقاً - بعد كل ذلك - أم ليست إلا بخاراً ؟ ذلك أمر يستحق التنويه يقيناً .

لننظر الى هذه المسألة مع بعض أمور أخرى هامة ، تصحبها اتفاقاً . كل امرئ يعلم أنّ الفصائل المزعجفة تتنفس عامة - حسب تكوين الأوكياس الرئوية فيها - الهواء الذائب في المادة التي تسبح فيها ، ومن ثمّ فإنّ سمكة الرنجة أو الكد قد تعيش قرناً من الزمان دون أن ترفع رأسها مرة واحدة فوق سطح الماء ، أمّا الحوت فإنّ بنيته الداخلية الفريدة قد جعلت له رئة عادية تشبه رئة الإنسان ، ولذلك فإنه لايحيا إلا اذا استنشق الهواء الطليق من الجو ، ولذا يضطر الى أن يزور العالم العلويّ زورات دورية ، ولكنه لايستطيع أن يستنشق الهواء أبداً عن طريق فمه ، لأنه إن كان حوت العنبر في حال طليعية كان فمه دفيناً على بعد ثمانية أقدام من سطح الماء ، كذلك فإنّ قصبته الهوائية غير متصلة بفمه ولذا فإنه لايتنفس إلا من خلال فوهة التنفس وحدها ، وتقع هذه في قمة رأسه .

فاذا قلت إنّ التنفس لدى أيّ مخلوق هو وظيفة لاغنى عنها للحياة بمقدار مايستطيع أن يستخلص من الهواء عنصراً معيناً ، يصبح بالتالي على صلة بالدم ، فيعطي الدم مبدأ

الحياة ، فليست أظنني مجاناً للصواب ، وإن كان في مقدوري أن أستعمل حشواً من الألفاظ العلمية . فإذا صدقت ذلك ، استتبع هذا أنه لو كان دم الإنسان كله يمكن «تهويته» بنفس واحد لاستطاع أن يختم على خيشومه ، فلا يستدعي نفساً آخر إلا بعد قسط كبير من الزمن . أي لاستطاع أن يعيش دون تنفس . قد يبدو هذا شيئاً غريباً ولكنه على وجه الدقة هو حال الحوت ، فإنه يبقى - بين فترات التنفس - على وجه منظم ساعة كاملة أو أكثر (في قعر المحيط) دون أن يسحب نفساً واحداً أو يستنشق ذرة من هواء ، ولا تنس أنه ليست لديه أكياس رئوية . فكيف كان ذلك ؟ بين أضلاعه وعلى كل جانب من جانبي عموده الفقري تجده مزوداً بشبكة فذة معقدة من الأوعية الشعرية ، وهذه الأوعية تتنفخ تماماً - عندما يفادر سطح الماء - بدم مشبع بالأكسجين ، وبذلك يحمل مخزوناً فائضاً من الحياة فيه لمدة ساعة أو أكثر تحت آلاف القامات من الماء ، مثلما أن الجمل الذي يجتاز اليباب القفر يحمل مخزوناً من الماء في معدة الأربع الزائدة كي يستعمله عند الحاجة . إن هذه الشبكة المعقدة أمر يقيني لامشاحة فيه ، وأنا أن افترض المبني عليها يبدو معقولاً صحيحاً فيبدو لي أكثر شيء ، إقناعاً حين أتأمل إصرار ذلك الحوت على أن «يبرز نفثاته» كما يقول البخارة ، وهو إصرار لأجد فيه وجهاً آخر من تفسير . وهذا هو ماعنيه : إذا صعد حوت العنبر الى السطح دون أن يدفعه تحرش أو إزعاج ، فإنه يبقى هناك فترة من الوقت تضاهي تماماً فترات بقائه الأخرى حين يصعد مطمئناً دون تحرش أو إزعاج . افرض أنه يقف إحدى عشرة دقيقة ، وينفث سبعين مرة ، أي يستنشق سبعين نفساً ، فإذا صعد الى السطح مرة أخرى فهو على يقين من أنه لا بد أن يسحب سبعين نفساً دون نقص أو زيادة ؛ فإذا أفزعته بعد أن تزود ببضعة أنفاس واضطرتته الى الفوص فإنه يتسلل دائماً الى أعلى ليستوفي نصيبه الكامل من الهواء ، ولن يعود في النهاية ليقتضي الدورة التي يقضيها تحت الماء إلا إذا استكمل الأنفاس السبعين . ثم لاحظ أن هذه النسب تختلف من فرد لفرد ، ولكن الفرد الواحد يحتفظ بنسبة لا تتغير . لم يصر الحوت على أن يبرز «نفثاته» إلا أن يكون هدفه هو أن يملأ مستودع الهواء لديه قبل أن يذهب الى الأعماق للمكث الطويل ؟ من الجلي أيضاً أن اضطراؤه الى الصعود يمرضه لكل المخاطر المميتة التي يتمخض عنها الصيد ، إذ لا يمكن لهذا اللويثان الجسيم المديد أن يصاد بالصنارة أو بالشبكة حين يبهر على عمق ألف قامة بعيداً عن ضوء الشمس ، ليست مهارتك اذن - أيها الصياد - هي التي تكفل لك النصر ، وإنما هي الضرورات الكبيرة .

والتنفس في الانسان مستمر ، وكلّ نفس يدوم ضربتين أو ثلاثاً من ضربات القلب ،
فمهما وجه الانسان اهتمامه الى عمل آخر ، مستيقظاً أو نائماً ، كان لابد له من أن يتنفس
والآ قضي نجه ، أما حوت العنبر فإنه لا يتنفس في التنفس إلاّ سبّع عمره .

لقد قلنا إنّ الحوت لا يتنفس إلاّ من خلال فوهة النفث ، فإذا صحّ أن نقول أنّ نفثاته
ممتزجة بالماء فأني أرثني أننا هنا تقع على السبب الذي جعل حاسة الشمّ عنده معطّلة ، إذ
ليس فيه عضو يوازي الأنف إلاّ فوهة النفث . ومادام يسدّ منفذها عنصران فلا يتوقّع لها أن
تكون فيها القدرة على الشمّ . ولكن بما أنّ النفث لغز - أهو ماء أو بخار - فليس هناك يقين
مطلق يمكن أن نبلغه حول هذه القضية ، ومع ذلك فمن المتيقّن أن ليس للحوت أدوات للشمّ
متميّزة ، ولكن ما حاجته اليها وليس في البحر ورد أو بنفسج أو عطر الكولونيا ؟

ثمّ ليس للحوت صوت . وذلك لأنّ قصبته الهوائية لا تفتح إلاّ على أنبوب القناة
النفثية ، وتلك القناة الطويلة - مثل قناة إيرى العظمى - مزوّدة بنوع من الهويسات (تنتفح
وتنفلق) لتحتفظ بالهواء في الأسفل وتطرّد الماء صعداً ، لهذا لم يكن له صوت ، إلاّ أن
تهينه فتقول حين تسمعه يدمدم على نحوٍ غريب ؛ إنه أخفّ يتحدّث من أنفه . ولكن - مرّة
أخرى - ما شأن الحوت بالكلام ؟ لقلّما عرفت كائناً عميقاً لديه مايقوله لهذا العالم إلاّ إن
اضطر ليتمتم شيئاً بعينه ليحصل على وسيلة عيش . آه ؛ ماأسعد أن يكون العالم ذا أذن
صاغية واعية!

وقناة النفث في حوت العنبر إنّما غايتها الكبرى هي نقل الهواء ، فهي تمتد على مدى
عدة أقدام امتداداً أفقيّاً تحت السطح الأعلى من رأسه مباشرة ، منحرفة بعض الشيء الى أحد
الجانبين ، وهذه القناة القريبة تشبه أنبوب الغاز الذي يمدّ في أحد جانبي شارع من شوارع
مدينة من المدن . ثمّ يعود السؤال : هل أنبوب الغاز هذا أنبوب للماء أيضاً ؟ أيّ عبارة
أخرى ؛ هل نفثة حوت العنبر إنّما هي الزفير المطرود أو أنّ هذا الزفير يخلط بالماء عند القم
ويطرّد من خلال الفوهة ؟ من المؤكّد الثابت أنّ النّم يتّصل - على نحوٍ غير مباشر - بقناة
النفث ، ولكن لايمكن أن نثبت أنّ الصلة إنّما هي للتخلّص من الماء من خلال الفوهة . ذلك
لأنّ أقصى الضرورات التي تضطر الحوت أن يفعل ذلك إنّما تتم حين يتفدّى فيأخذ قسطاً من
الماء عرضاً ، غير أنّ طعام حوت العنبر بعيد جداً عن سطح الماء ، وهناك لايستطيع أن
ينفث حتى لو شاء أن يفعل . ثمّ إنك اذا تأملتّه عن كسب ، وعيّنت الوقت بساعتك حين
لايكون عرضة للتحرش والإزعاج ، وجدت تناوباً لا يخلت بين فترات نفثه والفترات العادية
من تنفّسه .

و لكن لِمَ تُغَيِّتُ الناس بكل هذا التفلسف حول الموضوع ؟ أفصح ! لقد رأيته ينفث ، ذن فقل جهراً ماهو نفثه ، ألا تستطيع أن تميز الماء من الهواء ؟ سيدي العزيز ليس من السهل في هذا العالم أن تقطع بقول فصل في هذه الشؤون الواضحة . لطالما وجدت أن الشؤون الواضحة أعقد الشؤون ، أما نفاثة الحوت فقد تقف فيها ثم تظل حائراً في أمرها وماهيتها .

جسمها الأوسط مختفٍ في الضباب الثلجي اللامع الذي يغلفها . وكيف تستيقن إن كان الذي ينبعث منها ماء ، وأنت حين تقارب الحوت لترى نفاثته بدقّة فإنه يكون دائماً في هياج هائل ، والماء يعبّ حوله من كلّ جانب كأنه شلال . وإذا ظننت في مثل هذه الأحوال أنك قد لحظت حقاً قطرات من الرطوبة في النفاثة ، فكيف تعلم أنها لم تتكثف من بخاره ، أو كيف تعلم أنها ليست القطرات المماثلة التي تندسّ من خارج في نسيج فوهة النفث ، وهي مندسة في القمّة من رأس الحوت ؟ فهو دائماً يحمل حوضاً صغيراً من الماء فوق رأسه مثلما ترى تحت الشمس المتوهجة أحياناً قلناً في صخر يملأه ماء المطر ، وهو يحمل ذلك الحوض الصغير حتّى وهو يسبح مطمئناً في صفاء الظهيرة وهدأة الكون ، وحردبته سامقة قد جففتها الشمس كأنها سنام الجمل في الصحراء .

وليس من باب الكياسة في الصياد أن يزداد فضوله حول الطبيعة الحقّ لنفاثة الحوت . إذ ليس ممّا يغني عنه أن يحملق فيها أو أن يدسّ فيها أنفه . إنك لاتستطيع أن تذهب بجرتك الى هذه النافورة وتملاها وتعود بها ، إذ أنك حين تقترب اقتراباً غير كبير من المرق الخارجية ذات الأبخرة في النفاثة ، وهذا أمر يحدث كثيراً ، فإن جلدك يؤلمك ألماً مبرحاً من لدغ الشيء الذي لامسه . وأنا أعرف شخصاً اقترّب من النفاثة كثيراً - ولا أدري هل كانت غايته علمية أو غير علمية - فتسلّخ جلده عن خذه وساعده . ومن ثم ذهب الحواتون الى أن نفاثة الحوت سامة فهم يحاولون أن يتجنّبوها ما استطاعوا . وشيء آخر : سمحتهم يقولون ولا أشك فيما قالوه ، إذا أرسلت النفاثة نفثها في العينين أصابتها بالعمى . يبدو لي اذن أنّ أحكم مايمكن أن يصنعه الباحث هو أن يترك هذه النفاثة القاتلة في حال سبيلها .

وإذا عجزنا عن البرهان والتأكيد فإننا لن نعجز عن الفرض . وهذا هو الفرض الذي أطرحه : إنّ النفث ليس إلاّ ضباباً ، وقد توصلت الى هذا الاستنتاج عن طريق تأملات تسمّى الرفعة العظيمة والروعة البالغة لدى حوت العنبر طبعاً وسليقة ، هذا الى أسباب أخرى . فأنا لا أعدّ هذا الحوت كائناتاً عادياً ضحلاً مستيقناً من ذلك بمثل يقيني الذي لا ينازعي فيه مجادل أنه لا يوجد عند الشواطئ أو على مقربة من البرّ ، أمّا سائر الحيتان فإنّها قد تفعل ذلك

أحياناً فهو إذن يجمع بين الثقل والعمق وأنا مقتنع أن رؤوس الكائنات الثقيلة العميقة ، مثل أفلاطون وبيرون^(١) والشيطان وجوبيتر ودانتي ، يخرج منها دائماً بخار شبه منظور حين تأخذ في التفكير العميق . وحين كنت أكتب مقالاً في الخلود دفعني الفضول الى أن أنصب مرآة أمامي وقبل وقت طويل رأيت في المرآة تلوياً متعقداً غريباً وتموجاً في الجو من فوق رأسي ، كان ذلك هو رطوبة شعري التي لا تتبدل وأنا مستغرق في الفكر العميق بعد ستة أكواب من الشاي الساخن في المقصورة العلوية المستوففة بالخشب في بيتي . هذه - فيما يبدو - حجة تؤيد الفرض الذي وضعته آنفاً .

وما أشد ما يسمو بخيالنا عن الوحش القوي ذي النفث الضبابي أن نراه يسبح في جلال خلال هدأة البحار الاستوائية ، وقد تظلل رأسه الجريم اللطيف بظلة من بخار ولدته أفكاره التي لا يمكنه إبلاغها لغيره ، وأن ذلك البخار يرى أحياناً وقد وشحه قوس قزح ، حتى كأن السماء نفسها أمنت على أفكاره ووقعت بالقبول ، ولعلك تعلم أن قوس قزح لا يلم بالفضاء الصافي وإنما يبعث الألق في البخار ، وكذلك إذا تكاثف ضباب الشكوك القاتمة في عقلي تخللته أنوار الحدس الالهية منورة ذلك الضباب بشماع سماوي . شكراً لله على هذا لأن الناس جميعاً تعترهم الشكوك ، وكثيراً منهم يعترهم الجحود ، ولكن قل أن تجد في الناس من ينالون الحدس مع الشك أو الجحود . الشكوك في الأمور الأرضية ، والحدس في الأمور السماوية . هذا المزيج لا يصنع مؤمناً خالصاً ولا كافرأ خالصاً وإنما يصنع إنساناً يرى الحاليتين دون تفرقه أو تمييز .

(١) Pyrrho فيلسوف يوناني (حوالي ٣٦٠ - ٢٧٠ ق.م) كان يقول من المعال مرة الأخرى - في -

الذنب

غيري من الشعراء قد نظموا قصائد غزل يتخون فيها بعين الغزال الساجية ، وبريش الطير الجميل الذي يظلّ أبداً محلّقاً ، أما أنا فأنتى سأنتى بذنب ، وهو نصيب أقلّ مجدأ .

إذا قدرت أن أكبر ذنبي حجماً في حوت عنبر يبدأ من حيث يصبح جذعه يستدق بحيث يغدو في مثل محيط الجسم الإنساني ، فإنه يضمّ على سطحه وحده مساحة تبلغ خمسين قدماً مربعاً على الأقل . وعند العجب ينشطر الجسم المستدير المكتنز في شطرين أو راحتين عريضتين ثابتتين مسطّحتين ، تستدقان تدريجياً حتى يصبح سمكهما أقل من بوصة واحدة ، وعند موضع الانشعاب تتداخل هاتان الشطيرتان قليلاً ثم تتجافيان إحداهما عن الأخرى كالجنّاحين ، مخلّفتين فيما بينهما فضاء واسعاً ، ولن تجد في أيّ شيء حيّ خطوط جمال محدّدة المعالم في حسن بديع كما تراها في الحوافي الهلالية من هاتين الشطيرتين ، ويزيد الذنب في أقصى ما يبلغه من عرض في حوت مكتمل النمو على أربعين قدماً .

ويبدو هذا العضو كله طبقة كثيفة منسوجة من عضلات متلاحمة ، ولكن اقطع فيها قطعاً تجد أنها تتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا . أما الأنسجة في الطبقتين العليا والدنيا فإنها طويلة أفقية ، وأما التي في الطبقة الوسطى فإنها بالغة القصرمتّجهة اتّجهاً عرضياً بين الطبقتين المحيطتين بها . وهذا التركيب الثلاثي يمنح الذنب قوة ، شأنه شأن أيّ تركيب آخر . ومن كان يعرف الأسوار الرومانية القديمة وجد أن الطبقة الوسطى توازي على نحوٍ غريب الصفة الرفيع من البلاط الذي يتناوب دائماً مع الحجر في تلك الآثار العجيبة من مخلفات القدامى ، وهو ولا ريب ذو أثر كبير في القوة العظمية التي تتمتع بها تلك الأسوار .

ولكن كأنما هذه القوة المحلّية الكبيرة في الذنب الوتري غير كافية ولذلك كان جسم اللويثان كلّهُ مزوداً بسدئٍ ولحم من الأنسجة والألياف العضلية تمر من كلّ جانب من جانبي أحشائه ، حتّى يبدو أنّ قوّة الحوت كله ، المترافدة التي لا يستطاع قياسها ، كأنما تتجمّع في الذنب عند بؤرة واحدة . ولو كانت المادة تصاب بالفناء فهذه المادة موضع ذلك .

وهذه القوة المدهشة لاتنحو أبداً لعرقلة التنفّس الرشيق في حركاته ، حيث اليسر الرشيق يتموّج من خلال جبروت القوة . بل العكس هو الصحيح ؛ فإنّ تلك الحركات تستمد جمالها الباهر منها ، فالقوّة الحق لاتشوّه الجمال أو الانسجام وإنّما تمنحهما للشئ القوي ، وفي كلّ شيء جميل أسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً . أزل الأوتار العضلية الملتفة التي يبدو وكأنها تريد أن تنفر من الرخام في تمثال هرقل فقد يضع سحره بذلك . وعندما أزاح أكرمان التقي المخلص الكفن الكثاني عن جثة جوته العارية هاله أن يرى صدره الضخم ، وبدا له كأنه قوس نصر روماني^(١) . وعندما يرسم أنجلو صورة الإله في شكل إنساني فتأمل ما فيه من قوّة وعنفوان . ومهما تبرز الصور الإيطالية الخشوية الناعمة المتموّجة من حبّ إلهي في صورة المسيح ، وهي الصور التي تجسّدت فيها فكرة المسيح تجسّداً موقفاً ، فإنها - لخلوها من كلّ عضلٍ مفقود - لاتوحي بشيء من القوة إلّا القوة السالبة المؤنّثة ، قوّة الخضوع والصبر التي أجمع العارفون على أنها تمثّل الفضائل العملية المتميّزة في تعاليمه .

وهذا العضو الذي أتحدث عنه قد بلغ من المرونة اللبقة حدّاً بعيداً ، حتّى لو تحرك في لهوٍ أو جدّ أو غضب أو في أيّ حال ، فإنّ تشنّياته موسومة برشاقة بالغة لاتختل ، وفي هذه الرشاقة لا تفوقها حتّى سواعد الجنّيات .

وتختص به خمس حركات كبيرات ، أولاها ؛ حين يستعمل زعنفة تعين على الحركة والتقدم ، وثانيتهما ؛ حين يتخذ كاسراً للدرع في الحرب ، والثالثة في الجرف والكسح ، والرابعة في استرخائه ، والخامسة في رفع الشطيرتين على اتّجاه عمودي .

أولاً ؛ بما أنّ ذنب اللويثان أفقي في وضعه فإنه يتحرك على نحوٍ يختلف عن أذنان جميع الحيوانات البحرية الأخرى . فإنه لا يتمصّ أبداً فالتعصّ في الإنسان والسّمك من أمارات النقص . أمّا الحوت فإنّ ذنبه هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما أنه يلتف كالدرج أماماً

(١) يقول أكرمان « سجي الجسم عارياً لايلفه إلا كفن أبيض... وأزاح فردريك الكفن عنه فهالتني الروعة المتألهة في الأعضاء . كان الصدر قوياً واسعاً مقوساً... أمامي إنسان كامل في جمال رائع » .

تحت الجسم ، ثم يقفز بسرعة الى الخلف فهو الذي يمكن الحوت من حركة الانطلاق الفريد
 الواثق حين يسبح بعنف وهياج . أما زعانفه الجانبية فإنها تعينه على المخر ليس إلا .
 ثانياً ، ربما كان أمراً ذا أهمية ما أن نعلم بأن حوت العنبر حين يقاتل حوت غير آخر
 فإنه لا يستخدم إلا رأسه وفكيه ، ومع ذلك فإنه في صراعه مع الإنسان لا يستخدم إلا ذنبه -
 في الدرجة الأولى - في استهانة وازدراء . فإذا ضرب قارباً حتى شطري ذنبه بسرعة عنه ، ثم
 سدّد الضربة اليه عند التراجع فقط . فإذا تمّت الضربة في الهواء الطلق وبخاصة إذا هوت
 على هدفها فإنها ضربة لاتصد ولا تقاوم ، وتعجز عن أن تتحملها أصلاح الإنسان وألواح
 القارب ، ولا نجاة للمره إلا بأن يتحاشاها ، ولكن إن وقعت جانبيه خلال الماء فإن النتيجة
 الخطيرة التي تنجم عنها بعامه لخفة قارب التحويت من ناحية ولمرونة مادتها من ناحية
 أخرى إنما هي كسر ضلع أو خلع لوح أو اثنين أو إحداث وخز في الجنب ، وكثيراً ما تحدث
 هذه الضربات الجانبية خلال الماء في حرفة التحويت حتى أنها لتمتد عبث أطفال ، فقد يخلع
 أحدهم سترته ويسدّ الجرح أو الثقب .

ثالثاً : يبدو لي ، وإن كان ما يبدو أمراً أعجز عن تأييده بالحجة ، أن حاسة الشم في
 الحوت تتركز في جنبه ، إذ فيه - من هذه الناحية - رهاقة لا يوازيها إلا الرهاقة في خرطوم
 الفيل ، وتتجلى هذه الرهاقة على نحو كبير في الجرف والكنس حين يحرك الحوت ، بلطف
 العذاري وبأناة ناعمة ، شطيرتي ذنبه الضخمتين من جانب الى جانب على سطح الماء ، ولو
 أنه أحسّ بشاربي بخار فويل لذلك البخار ولشاربيه ولكل ما لديه . ماذا في تلك اللمسة
 التحسسية من رقة وإرهاق لو كان في ذلك الذنب قوة ممسكة لأخطرت توأ على بالي فيل
 درموندس الذي كان يتردد على سوق الأزهار ، وينحني محيياً العذاري ويقدم لهن طاقات
 من الزهر ، ويداعب حجراتهن^(١) . وفي غير مناسبة واحدة يشعر المرء بالرتاء أن لا يكون
 ذلك الذنب ذا قوة على القبض والإمساك ، ذلك أتني سمعت بفيل آخر كان إذا جرح في
 القتال ، طوى خرطومه وانتزع به النصل من جسمه .

رابعاً : إذا تسلّلت خلصة نحو الحوت وهو يظنّ نفسه آمناً مطمئناً في وسط البحار النائية
 وجدته صليباً لايفك من الاستشعار بمرّته وجسامتها الجسيمة ، وهو يلعب على المحيط كأنه
 السنور وكأن المحيط مصطلاه . ولكنك ترى قوته في لعبه ، فإنه يرفع الراحتين العريضتين من
 ذنبه عاليتين في الفضاء ، ثم يلطم وجه الماء فيتردد هزيم اللطمة على مدى أميال حتى لتظنّ أن

(١) مثل هذه القصة عن الفيل روى سوتلين وكذلك تجدها عند بليني وبلوطارخس . ولكن لم يذكر أحد منهم هذا الاسم

مدفعاً ضخماً قد انطلق ، وإذا لحظت الأكاليل الخفيفة من البخار الصاعد من الفوهة في طرفه الآخر ظننت أن هذا هو الدخان المنبعث من الثقب حيث تدسّ النار في البارود .

خامساً : حين يكون الحوت في وضع عاديّ من العوم ، تكون الشطيرتان على بعد غير قليل تحت مستوى ظهره ، ولذلك تكونان محجوبتين تماماً عن الأنظار تحت الماء ، فإذا هم أن يفوس في الأعماق نصب شطيرتي الذنب مع ثلاثين قدماً - على الأقل - من جسمه في الفضاء وبقي يتذبذب كذلك لحظة حتى يفوس سائره مخفياً عن النظر . وإذا أنت استثنيت قفزته الرائعة خارجاً من الماء - وذلك ماسوف أصفه في موضع آخر - فإن رفعة شطيرتي ذنبه منصوبتين في الفضاء ربّما كان أعظم منظر يراه المرء في الطبيعة الحيّة . من الأعماق التي لا قرارة لها يبدو الذنب الضخم وكأنه يحاول أن يتشبّه متشبّحاً بالسماة السابعة . كذلك رأيت الشيطان المهيب في أحلامي يدفع بمخلبه الممذّب الجسيم من خلال بحار النار في السعير ، ولكن الحكم في مثل هذه الأمور وأنت ترمقها هو حالك النفسية عندئذ فإن كنت في حالة دائيّة خطرت لك الشياطين وإن كنت في مثل مزاج أضعيا تذكرت الملائكة الأبرار . ذات مرّة كنت أفق على قمة الصاري في سفيتي عند الشروق وقد صبغت الشمس الأفق والبحر بلون قرمزي ، فرأيت قطيعاً كبيراً من الحيتان قبّل المشرق كلها عامدة في وجهتها نحو الشمس ، وظلّت لحظة تتذبذب في انسجام وشطائر أذنانها منتصبه ، وقد خطر لي حينئذ أنّ مثل هذا التجسد العظيم لعبادة الآلهة لم يشهد له مثيل ولا حتى في فارس موطن عبّاد النيران . ومثلما أنّ بطليموس محب الأب قد شهد للفيل الإفريقي^(١) فإني عندئذ شهدت للحوت بأنه أشدّ المخلوقات تقوى وورعاً . إذ يقول الملك يوبا إنّ الأفيال الحربية في القديم كثيراً ما كانت تستقبل الصباح وخرطومها مرفوعة وهي في أعرق سكون .

إنّ هذه السانحة للمقارنة بين الحوت والفيل في هذا الفصل ، من حيث بعض مظاهر الذنب في أحدهما والخرطوم في الآخر ، يجب ألا تجعل هذين العضوين المتضادين موضع المساواة ، أو تجعل صاحبيهما كذلك ، وشئان ماهما ، لأنّ أقوى فيل لا يعدو أن يكون كلباً صغيراً إزاء الحوت ، ولا يعدو خرطومه إذا قارنته بذنب الحوت أن يكون سويقة زنبقة . وإذا قارنت ضربة الفيل بضربة الحوت ، وجدت أعتى ضربة للفيل بخرطومه لاتعدو أن تكون هشة عابثة بمروحة ، أما شطيرتا ذنب الحوت الثقيلتان فإنهما

(١) يقول فلوطارخس أنّ بطليموس هذا شهد بأنّ الآلهة تحب هذا الحيوان - أي الفيل - وقال يوبا إنه يبدها ويختل متلفراً في البحر ويهدد الشمس الشارقة موجهاً نحوها خرطومه .

تحدثان دماراً وتحطيماً ، وكم من مرة أطارتا في الفضاء قوارب كاملة بكل ما فيها من مجاذيف وملاحين مثلما يقذف الحاوي الهندي الكرات* .

وكلّما ازددت تأملاً في هذا الذنب الجبار زاد أسفي لمعزي عن وصفه . فله حركات في بعض الأحيان لو تلبّست يد إنسان لزانتها ومع ذلك تظلّ لغزاً لا يفسّر . وهي حركات وإيماءات صوفية يمارسها في القطيع الكبير أحياناً على نحوٍ فذّ ، حتى لو سمعت بعض الميادين يقولون أنها شبيهة بالإشارات والرموز التي يستعملها الماسونيون ، وإنّ الحوت حقاً يتحدث بهذه الوسائل الى الكون في ذكاء وفطنة . وليست تموز الحوت حركات أخرى في جسمه بعامة ، حافلة بالفراية ولايستطيع تعليلها أمهر مهاجميه ، فكيفما أخذته بالتحليل والتشريح لم أتجاوز في العمق سمك بشرته ، فأنا أجهله وسأظلّ أجهله أبداً وإذا لم أعرف حتى ذنبه فكيف أفهم رأسه ، ثمّ - وهذا أبلغ - كيف أدرك وجهه حين لا يكون له وجه ؟ ويبدو لي أنه يقول : سترى أجزائي الخلفية ، سترى ذنبي أمّا وجهي فلن تراه^(١) ، ولكنني لا أستطيع أن أستبين أجزاءه الخلفية تمام الإستبانة ومهما يقل هو عن وجهه فإنّي أقول ثانية أنه لا وجه له .

* كلّ مشاركة في الجسامة عامة بين الحوت والفيل منافية للطبيعة ، إذ الفيل إنّما يقف من الحوت معلماً يقف الكلب من الفيل . ومع ذلك فإنّ بعض أوجه الشبه المريب متوفرة ثمة ، ومنها المنث فمن المعروف أنّ الفيل يأخذ الماء بخرطومه ثمّ يرفعه وينفضه مسترسلاً .
(١) قارن هذا بما جاء في سفر الخروج ٢٢ ٢٤ « وقال الربّ هو ذا عندي سكان . تقتف على الصخرة ، ويكون متى اجتاز مجدي أنّي أسمك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ثمّ أرفع يدي فتنتظر ورائي . وأمّا وجهي فلا يركا » .

اسطول ضخيم من الحيتان

تكوّن شبه جزيرة مالقا الطويلة الضيقة في امتدادها جنوباً شرقياً من مقاطعات برما آخر نقطة جنوبية في آسيا جميعاً ، ويمتد من شبه الجزيرة تلك على خط مسترسل ، جزائر سومطرة وجاوة وبالي وتيمور ، وهي تكوّن مع جزائر أخرى كثيرة سداً مديداً أو برزخاً يربط ربطاً طويلاً بين آسيا وأستراليا ، ويفصل بين المحيط الهندي المديد المسترسل والأرخبيلات المشرقية المرصعة ترصيعاً كثيفاً . وتتخلّل هذا البرزخ موانئ خفية عديدة تفيد منها السفن والحيتان ، ومن أبرزها مضائق سندا ومالقة ، فالسفن العائدة نحو الصين من الغرب تنفذ على وجه الخصوص من مضائق سندا الى البحار الصينية .

ومضائق سندا الضيقة هذه تفصل سومطرة عن جاوه ، وتتوسط البرزخ الجزري المديد ، ويرفدها نتوء بارز أخضر يعرفه البحارة باسم رأس جاوه ، وهي تمثّل بوابة متوسطة شارعة نحو امبراطورية شاسعة مسورة ، وإذا اعتبرنا الثروة الثرة التي تتمتع بها آلاف الجزر في ذلك البحر الشرقي من أفاويه وحرائر وذهب وجواهر وعاج فيبدو أنّ من عناية الطبيعة ذات المغزى أن تكون هذه الكنوز حسب طبيعة تكوين البلاد تحمل مظهراً على الأقل - وإن كان قليل الغناء - يدل على أنها محروسة من جشع العالم الغربي . وليس على سواحل مضائق سندا مثل تلك القلاع المسيطرة التي تحرس مداخل البحر المتوسط وبحر البلطيق والبحر الأسود فهؤلاء الشرقيون على خلاف الدنماركيين لايتطلبون الولاء الخانع الذي تبديه مواكب السفن المسترسلة حين تخفض أشرعتها العليا أمام الريح ، وهي السفن التي ظلّت على مدى قرون في الماضي تمر ليلاً ونهاراً بين جزيرتي سومطرة وجاوة ، محمّلة بأغلى بضائع الشرق . ولكن إن كان هؤلاء الشرقيون يتنازلون راضين عن مثل هذه الشعائر فإنهم لايتنازلون أبداً عن استدعاء جزيرة أبهظ .

فمنذ زمن غابر لا تحفُّه الذاكرة كانت زوارق القراصنة الملايوية تهجم وهي كامنة بين الكهوف والمنافذ المظلمة من جزيرة سومطرة على المراكب المبحرة خلال المضائق ، مطالبة في إلحاف وعنف بجزية تحصلها على رؤوس الحراب ، وكم نال هؤلاء من عقوبات دموية متكررة على أيدي المراكب الأوروبية الجوابية ، تضاءلت بها قحة هؤلاء القراصنة في السنوات الأخيرة ، إلا أننا حتى اليوم ما نزال نسمع أن مراكب انجليزية وأمريكية وقعت في تلك المياه فهوجمت ونهبت دونما رحمة .

كانت السفينة الباقوطة تدنو من تلك المضائق في ربح طليقة رخاء ، وآخاب يهدف الى أن ينفذ خلالها الى بحر جاوه ثم يذهب في التطواف شمالاً في مياه يعرف البحارة أنها مثابة حوت العنبر هنا وهناك ، ثم يساحل موازياً جزائر الفلبين ويقترّب من شاطئ اليابان البعيد لكي يدرك موسم التحويت في إبانته . وبذلك تكون الباقوطة الجوابية قد أتمت بجلّ مواقع التطواف المعروفة لصيد حوت العنبر في العالم ، قبل أن تهبط على خط الصيد في المحيط الهادي حيث كان آخاب يقدر في إصرار أنه سينازل مويبي ديك ، وإن أدركته الخيبة في مطاردته له في سائر المواقع ، سينازله في البحر الذي شهر بأنه يعتاده وفي موسم يفترض دون شطط أنه يلتمّ به .

وأنتى ذاك ؟ في هذا البحث الدائري ألا يريد آخاب أن يفيء الى البر ؟ أيشرب بخارته هواء ؟ يقيناً لا بد له من أن يتوقّف للحصول على الماء . كلا إنّ الشمس التي تجري لمستقرّها ظلت طويلاً تجري في فلكها اللاهب ولا تتريد زاداً إلا زادا الكامن في نفسها . وكذلك هو آخاب . تأملوا هذا الأمر في الحواتات أيضاً . بينما تحمّل سائر السفن بمواد غريبة لكي تنقل الى أرفصة الموانئ الأجنبية فإن سفينة التحويت التي تجوب العالم لا تحمّل من المشحونات إلا نفسها وملاحيها ، وأسلحتهم وحاجاتهم ، وقد عبأت في عنبرها الوسع ماء بحيرة كاملة . لقد تطرمت بالمواد النافعة ولكن لم تزوّد بما لا تحتاج اليه من صوابير الرصاص الخام والحديد المطاوع . إنها تحمّل زاد سنوات من الماء ، ماء نانتوكت الصافي الفاخر ، وهو ماء يؤثر النانتوكتي في المحيط الهادي بعد أن يبحر ثلاث سنوات أن يشربه دون السائل الأجاج الذي عبّئ أمس فحسب في البراميل من جداول بيرو أو الهند . ومن ثمّ فإنّ السفن الأخرى قد تذهب من نيويورك الى الصين وتزوّب فتقف عند عشرين ميناء ، أما سفينة التحويت فإنها طوال فترة تجوالها قد لاترى ذرة واحدة من اليابسة ، وقد لا يرى بحارتها من الناس إلا من كان بحاراً مثلهم في عرض البحر ، حتى لو أنك أخبرتهم أنّ طوفاناً جديداً قد طغى على الأرض لأجابوك قائلين : « حسناً أيها الفتيان ها نحن لدينا سفينة نوح ! » .

اصطيدت حيتان عنبر كثيرة بإزاء الساحل الغربي من جاوة في الجوار القريب من مضائق سندا ، وكانت معظم المواقع من حول ذلك الموقع لدى الصيادين محطاً ممتازاً للتطواف حقاً . ولذا فإن الباقوطة كانت كلما اقتربت من رأس جاوه ذكر الرقباء مراراً وأنذروا بأن يظلوا على رقبة واعية . وأطلت الهضاب الخضرة النخيلية من اليابسة عن ميمنة القيدوم ، وأخذ البحارة يتنسمون بأنوف جذلي أرواح القرفة دون أن تبدو للأعين نفاثة واحدة . وكانوا ينفون من أذهانهم كل خاطرة بالانتقاض على صيد ما في تلك النواحي ، وقاربت السفينة أن تدخل المضائق ، حين ارتفعت الصيحة المعتادة المنعشة من قعم الصواري ، وقبل وقت طويل اكتحلت أبصارنا بمرأى ذي مغزى فريد .

ولأستهل الحديث هنا فأقول : بما أن هماماً لاتنكل توجهت الى صيد الحيتان في الأيام الأخيرة ، هماماً طاردها في عرض المحيطات الأربعة جميعاً فإن تلك حيتان لم تعد تحافظ على خطتها بالإبحار في شراذم صغيرة متباعدة - كما كانت تفعل فيما مضى - وإنما أصبح الصيادون يواجهونها كثيراً وهي سائرة في قطمان كبيرة تضم أحياناً أعداداً كثيرة ، حتى لتكاد توحي أن شعوباً عديدة منها قد أقسمت بمحرجات الإيمان وتعاهدت قاطعة على أنفسها أغلظ الموائيق على أن تتبادل فيما بينها العون والحماية . والى تجمع حوت العنبر في قوافل ضخمة يمكن أن يعزى عدم ظهورها في خير مواقع التطواف ، حتى أنك قد تبحر أحياناً أسابيع وأشهرأ جملة دون أن تحيي نظرك نفاثة واحدة ، وفجأة يحييك أحياناً ماقد يبدو لعينيك آلافآ وآلافآ .

كانت سلسلة مسترسلة من نفاثات الحيتان مرتفعة تلتصق في فضاء الظهيرة ، مديدة على طول المقدمتين ، على مسافة نحو ميلين أو ثلاثة ، مكونة نصف دائرة واسعة المحيط ، محتضنة نصف مستوى الأفق . ونفاثة حوت العنبر المفردة المائلة الى الأمام تمثل غابة ملتفة كثيفة من الضباب الأبيض ، وتظل ترتفع وتهبط في اتجاه الريح ، وهي بذلك لاتشبه نفاثة الحوت الأئين المستقيمة العامودية المزروجة التي تنشطر عند القمة ثم تهبط في فرعين كأنها غصنان منشعبان ساقطان عن شجرة الصفصاف .

وعندما رأينا ذلك الحشد من النفاثات البخارية ، من على ظهر الباقوطة وهي تسمو فوق هضبة بحرية ، والنفاثات تتلوى كل على حدة في الفضاء ، وتتجلى من خلال جو مختلط من سديم مائل الى الزرقة ، رأيناها كأنما هي آلاف من المداخن الجذلي في عاصمة مكتظة بالسكان يرقبها امرؤ يركب جواده فوق الأعالي ، في صباح يوم عاطر من أيام الخريف .

ومثلما تتقدم الجيوش الزاحفة نحو مضيق محفوف بالخطر في الجبال ، فتزيد من سرعتها وكلها لهفة لكي تخلف ذلك الممر الخطر وراءها وتفضي الى الاطمئنان النسبي فوق

السهل ، كذلك بدا ذلك الأسطول الضخم من الحيتان مسرعاً في تقدمه خلال المضائق ، مضيماً جناحي الدائرة النصفية سابقاً قدماً حول مركز ثابت إلا أنه هلاكي الشكل .

وإذ حشدت الباقوطة كلَّ أشرعتها شدت في آثارها ، وتناول الزرقاون رماحهم وأخذوا يجهرون بالهتاف من عند رؤوس قواربهم التي ماتزال معلقة ، ولم يكن لديهم ريب في أن لو استمرت الرياح ، فإن ذلك الجيش اللجب الذي كان يطارد خلال مضائق سندا سينتشر في البحار الشرقية ليشهد فحسب القضاء على عدد غير قليل من أفرادهِ . ومن يدري أن موبى ديك نفسه قد يكون سابقاً سبجاً طويلاً في تلك القافلة المحتشدة ، كأنه الفيل الأبيض المعبود في موكب التتويج عند السياميين! وهكذا أبحرنا قدماً وقد كدسنا الأشرعة الخفيفة الجانبية أحدها فوق الآخر ، ونحن نسوق تلك الحيتان أمامنا ، وفجأة سمعنا صوت طاشطيقو ينهنا جهراً بأن شيئاً يجري في أثرنا .

وتطلعنا الى الخلف فرأينا هلالاً آخر كالذي كان يتقدمنا ، وبدا كأنه مصنوع من أبخرة بيضاء متباعدة ، ترتفع وتهبط بما يشبه نفثات الحيتان ، إلا أنها لا تجيء تماماً وتذهب ، وإنما تظل شاخصة دون أن تختفي في النهاية . وصوب آخاب منظاره نحو المنظر ، فأدار نفسه بعجلة حول رجله المندسة في محجتها وصاح : «هيا اصعدوا ، وهينوا الأرضية والدلا ، لبل الأشرعة - هؤلاء من أبناء الملايو ، سيدي ، وهم في أعقابنا » .

كان أولئك الاسيويون الخبيثاء عندئذ في طراد متحمس ، كأنما كانوا قد أطلالوا الكمون خلف السنة البرّ الى أن أتيح للباقوطة أن تلج المضائق ، فهم بحماستهم يعوضون عما فوته عليهم الغلوة في الحذر . ولكن عندما دخلت الباقوطة السريعة نفسها بعون من ربح مسعفة في طراد وشدة ، فما كان أطف أولئك الصُحُم المغممين بالأخوه والحب لبني الإنسان وهم يعينونها على الإسراع نحو هدفها المبتغى - وهم سيات ومهاميز تحفها وتسوطها . ووضع آخاب المنظار تحت إبطه وأخذ يذرع ظهر السفينة ذاهباً جانبياً ، فإذا أدار وجهه صوب المقدمة رأى الوحوش التي يطاردها ، وإذا انفلت نحو المؤخرة رأى القرصان الظالمين للدماء يطاردونه ، مثل هذه الخواطر مرت بباله . وعندما رمق بطرفه الأسوار الخضمر على جانبي الممر الذي كانت السفينة تبخر فيه ، وتصوّر لنفسه أن طريقه الى الانتقام تمتد خلال تلك البوابة وكيف أنه كان من خلالها يُطارِد ويُطارِدُ الى مصيره المحتوم ، وإن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن قطيعاً من القراصنة المتوحشين الغلاظ والشياطين الدهريين اللإنسانيين كانوا يهيجونه ويحمسونه بلعناتهم الجهنمية - أقول : عندما مرت هذه الأخيلة جميعاً خلال رأسه أصبح جبينه

شاحباً عبوساً كأنه الشاطئ الرملي الأسود بعد مدّ طاعٍ كان يأكل من جوانبه ، دون أن يقدر ذلك المدّ على جرّه من مكانه لأنه ثابت مكين .

إلا أنّ أفكاراً كهذه لم تزج البحارة السادرين إلا قليلاً ، وعندما مضت الباقوطة في شوطها وسقط القراصنة في مؤخرتها إعياءً وتخاذلاً ، وانطلقت أخيراً من جانب رأس كوكاتو الأخضر على ساحل سومطرة نافذة في النهاية على صدر المياه الرحيب من دونها ، عندئذ بدا أن الزرايين أسفوا لأنّ الحيتان فاتت السفينة بأكثر مما ابتهجوا لأنّ السفينة قد كسبت الجولة من أبناء الملايو . ولكننا مضينا في آثار الحيتان وقد بدا لنا أنّها عندئذ قد خفّت من سرعتها ، فاقتربت السفينة منها تدريجياً ، وسكتت الريح ، فصدرت الأوامر بأن نقفز نحو القوارب ، وماكاد قطع الحيتان - بغريزة عجيبة فيما أقدر - يحسّ بالقوارب الثلاثة تلاحقه ، وإن كانت المسافة بينها وبينه تبلغ ميلاً ، حتى انتظمت صفوفه من جديد وتشكّلت في صفوف وطواير متلاصقة ، وبدت نفاثاتها جميعاً وكأنها صفوف لامعة من «السنجات» المكسّسة ومضت في شداها مضاعفة من سرعتها .

وشمرنا عن سواعدنا وسيقاننا وقفزنا نحو القوارب الدرارية ، وبعد عدة ساعات من التجديف كدنا نجح الى التخلّي عن المطاردة ، حين حدثت حركة اضطراب عامة معوقة بين الحيتان ، فجاءت أمارة شاحذة للهمم تحدّثنا أنّ الحيتان قد أصبحت أخيراً تحت تأثير ذلك النوع من الحيرة الغريبة التي يملها التردد القاصر ، وإذا لحظها الصيادون في الحوت قالوا إنه قد ثارت به الصفراء . وإذا تلك الصفوف العسكرية المتراصّة التي كانت تتقدّم حتى ذلك الحين في سرعة وثبات قد اختلّت فأصبحت كأنها فلّ منهزم شرّ انهزام ، وبدت كأنما قد جتّت ذعراً وذهولاً ، كأنما أفيال الملك بورس في المعركة الهندية بينه وبين الاسكندر^(١) ، وتشتّت في جميع الوجّهات على شكل دوائر مضطربة تسبح هنا وهناك دون هدى ، وتنفث نفاثات قصيرة كثيفة ، وتفضح بذلك كله ارتباكها الناجم عن الهلع . ولعلّ أغرب ما عايناه هو أنّ بعضها كأنما أصيب بالشلل ، فعام على الماء منطرحاً مخذولاً كأنه سفن على الماء محطّمة معطّلة . ولو كانت تلك الحيتان قطعياً من الضائنة الحماء ، وقد طاردتها في مرعاها ثلاثة من الذئاب الشرسة ، لما انفضح فيها هذا الهلع البالغ على هذا النحو ، ولكن هذا الخور العارض سمة تكاد تعمّ كلّ الكائنات التي تعيش في القطيع ، فالجواميس البرية في الغرب الأمريكي ، وذوات الأعراف كألباد الأسود تحشّد في أعداد تبلغ عشرات الألوف ، وتفرّ

(١) حدثت المعركة عند نهر Hydaspes عام ٣٢٧ ق م .

هاربة أمام خيال واحد . وتأمل أيضاً جميع بني البشر ، كيف يكونون محتشدين في حظيرة يسمونها قاعة المسرح فإذا أنذروا محض إنذار طفيف باشتعال النار اندفعوا في هياط ومياط نحو المنافذ ، متجمهرين متكديسين يطاء بعضهم بعضاً ، ويدفع أحدهم الآخر الى الموت دون إشفاق . خير لك إذن أن تحبس دهشتك إذا رأيت منظر الحيتان الغريب وقد ثارت بها الصفراء ، إذ ليس في حيوانات الأرض حمقٌ وطيئشٌ إلا الإنسان يبذره على قدر لا يحده .

ومع أنّ كثيراً من الحيتان - حسبما تقدم القول - كانت تتحرك حركة عنيفة ، فعلينا أن نلاحظ أنّ القطيع من حيث هو لم يتقدم ولم يتأخر وإنما بقي مجتمعاً في مكان واحد . فتفرقت القوارب حالاً ، كما يحدث في مثل هذه الأحوال ، وكلّ منها يعمد الى حوت منفرد في طرف من أطراف القطيع . وبعد حوالي ثلاث دقائق كان رمح كويكوج قد انطلق ، فنشر الحوت المصاب رذاذاً معشياً في وجوهنا ، ثم انطلق يجري بنا كأنه البرق عامداً نحو قلب القطيع ، ولم تكن تلك الحركة من الحوت المضروب في تلك الظروف أمراً عادياً غير مألوف بل إنها شيء يتوقعه المرء حيناً بعد حين ، إلا أنها تمثل الجانب الأخطر من صروف حرفة الصيد ، إذ كلما جرك الحيوان المنطلق متوغلاً بك في أعماق القطيع الهائج فقد ودعت حياة الحذر والحيلة ، ولم يعد لك وجود إلا في اختلاجة من البحران الهادي .

وفي حالة من العمى والصمم انطلق الحوت غانماً كأنما محض القدرة على الاسراع تخلصه من العلة الحديدية التي ألخت عليه ، أما نحن فشققنا في جسم البحر جرحاً أبيض ونحن في انطلاقنا مهذدون ، من جميع الجوانب ، بالحيوانات المهتاجة الممسوسة التي تندفع حولنا يمنة ويسرة ، وقاربنا المحصور كأنه سفينة تألّبت عليها جزر الجليد في عاصفة ، فجهدت كي تمخر خلال القنوات والمضايق المعقدة ، وهي لاتعرف في أية لحظة يطبق عليها الجليد ويحطمها .

ولكن كويكوج لم يعرف الخوف أبداً فمضى بنا في جسارة ورجولية ، أنا يزور عن هذا الوحش الذي اعترض طريقنا عامداً لدى تقدمنا ، وأنا يحيد عن ذاك الذي جعل شطيرتيه الضخمتين مشبوحتين الى أعلى ، بينما وقف استاربك طوال ذلك الوقت كله في مقدمة القارب ، والحربة في يده ، يبعد من طريقنا بالوخز والنخس أي حيتان يمكن أن تبلغها النصال القصيرة ، إذ لم يكن الوقت يسمح باستعمال الطويلة منها . هذا ولم يكن القائمون على المجاذيف متواتين خاملين وإن كانت مهمتهم المعتادة قد أصبحت غير لازمة ، فوجهوا همهم في الدرجة الأولى الى إرسال الصيحات : « ابعدهم يا كومودورا ! » - كذلك صاح أحدهم في « هجين » فزحف جسمه فجأة فوق سطح الماء ، وكاد في لحظة خاطفة ينطأ في البحر .

- « انزل ذنبك يا هذا » - ذلك مقاله آخر مغاطباً هجيناً آخر كان على مقربة من الحافة يروّح في هدوء عن نفسه بطرفه الآخر الذي يشبه المروحة .

كلّ قوارب التحويت مزوّدة بوسائل غريبة اخترعها في الأصل هنود نانتوكت وسمّوها : « الدرق » ، والدركة مربعان ثخينان من الخشب متساويان في الحجم يسمّران بقوة معاً حتى يتقاطعا عند جانبيهما في زاوية قائمة ، ثم يوصل بوسط هذه الدركة حبل ذو حظّ من الطول ، ويجعل الطرف الآخر من الحبل في صورة أنشودة حتى يمكن أن يوثق برمّح في لحظة . وهذه الدركة تستعمل أكثر ما تستعمل بين الحيتان التي ثارت بها الصمراء ، إذ حينئذ تكون الحيتان القريبة من حول الصيادين ممّا لا يستطيعون مطاردته في آنٍ واحد . ثم إن حيتان العنبر لا تصادف كلّ يوم ، فعليهم إذن أن يقتلوا منها ما يقدرّون على قتله . وإذا لم يقتلوا حالاً كان عليهم أن يبيضوا أجنتها حتى يقتلوا من بعد على هينتهم . ومن ثمّ كانت الدرق في مثل هذه الأوقات شيئاً ضرورياً . وكان قاربنا مزوّداً بثلاث درقات ، وفقنا في قذف الأولى والثانية منها ، ورأينا الحيتان تندّ مترنّحة وقد قيّدتها المقاومة الجانبية الهائلة من الدركة التي تشدّها . فتشجّت كأنها مجرمون ربطوا بالسلاسل والكلبشات ، ولكنّا حين شننا أن نطرح الثالثة علقّت ونحن نهم بقذف تلك القطعة الخشبية الخشنة ، تحت أحد مقاعد القارب فنزعت معها وذهبت به ، وأسقطت المجدّف في قاع القارب حين انزلق المقعد من تحته ، وهجم البحر من الجانبين على الألواح الجريحة ولكنّا حشونا في الثقب ثلاثة من السراويل والقمصان وحلنا دون تسرّب الماء آنئذ .

كان شيئاً يشبه المستحيل أن نلقي بتلك الرماح الموصولة بالدركات لولا أننا حين تقدّمنا خلال القطيع ضاقت الطريق بنا وبالحوّت . ثمّ أننا حين أوغلنا في التقدّم من محيط الاضطراب بدت لنا الفوضى المفزعة آخذة بالاضمحلال ، حتّى أننا حين نزعنا أخيراً الرمح المتأطرّ واختفى الحوت الذي يجزّنا في اتجاه جانبي ، انسابت بنا الطريق ، بتلاشي القوة من زخمه المتبدّد ، بين حوتين في صميم القطيع كأننا انحدرنا فوق سيل جبلي الى بحيرة مطمئنة في سرارة الوادي . هنالك كنّا نسمع العواصف في الوهّات المزمجرة بين حيتان الظواهر والأطراف ولكن لانلمسها ، وكان البحر في هذه الرحبة المتوسطة قد ليس سطحاً ناعماً رقيقاً كأنه الساتان ، وهو مايسمونه « السطح المصقول » وهو ينجم عن الرطوبة الدقيقة التي يقذفها الحوت في حالة هدونه . أجل ، كنّا في تلك الهدأة المسحورة التي يقولون إنها تكمن في وسط العاصفة والاضطراب . ومن تلك المسافة المذهولة رأينا تضرّب الدوائر الخارجية المتحدّة في مركزها ، وشاهدنا أسورة متالية من الحيتان ، في

كل صوار ثمانية أو عشرة ، تدور وتدور في سرعة كأنها أزواج كثيرة من الخيول تدور في حلقة ، وتصاقت جنباً لجنب حتى أن أي فارس ميدان جبار قد يستطيع في يسر أن ينحني فيمس الوسطى منها وينتقل على ظهورها ذاهباً جانياً . وتكاثفت جماهير الحيتان المطمئنة ، وزاد في الحال عدد التي أحاطت بمحور القطيع المحصور ، لذا لم تكن لتسبح لنا في الحال فرصة ممكنة للهروب . وكان علينا أن نرقب ثغرة في ذلك الجدار الذي يسد علينا الطريق ، ذلك الجدار الذي أذن لنا بالدخول لينطلق من حولنا ويجعلنا سجناء . وإذا لبنا في وسط البحيرة كانت تعادنا بين الحين والحين بقرات وعجول أليفة صغيرة ، أعني إناث القطيع المنتهزم وأطفاله .

وإذا أخذنا في حسابنا المسافات الواسعة التي تعرض بين الدوائر الخارجية الدوارة ، والمسافات بين الأصورة المختلفة في كل دائرة من تلك الدوائر ، كانت المساحة الكلية التي يشغلها كل ذلك الرعيل في تلك الأونة تضم مليون مربعين أو ثلاثة أميال مربعة ، على الأقل . وعلى أي حال فقد كان يمكننا أن نستكشف ، من قاربنا الوطني ، نفاثات حيطان تتلاعب في الفضاء وتكاد تمس حافة الأفق ، غير أن مثل هذا في مثل ذلك الوقت قد يكون شيئاً خادعاً مضللاً . وأنا أذكر هذه الحادثة لأن البقرات والعجول كانت كأنما وضعت عن قصد في وسط الحظيرة وصينت فيها ، وكأنما الامتداد الشاسع الذي يشغله القطيع إنما منعها من أن تفهم وجه العلة في ترقفه ، أو لعلها لحدافة أسنانها وغرارتها وبراءتها وضعف تجاربها ، أو لأي سبب آخر ، كانت تجيء من حوافي البحيرة لتزور قاربنا الذي اضطر للاستقرار ، وتبدي جرأة وثقة عجيبتين أو تبدي هلعاً مسحوراً ليس من الممكن أن لايندهش له الرائي . كانت ككلاب المنازل تجيء لتشم من حولنا وتعمد إلى حوافي قواربنا فتمسها ، حتى لكدت أظن أن ضرباً من السحر قد دجنها فجأة . وكان كويكوج يربت على جباها ، وكان استاربك يخدش بحريته ظهورها إلا أنه تجنب أن يزرقتها مؤقتاً تحسباً للنتائج .

غير أن عالماً آخر تحت هذا العالم العجيب الواقع على السطح ، عالماً أغرب وأعجب ، واجه أعيننا ونحن نحدق فوق القارب ، في تلك الأقبية المائية تعلقت عائمة أشكال من أمهات الحيتان المرضعات ، وأخريات تدل استفاضة خصورهن على أنهن سيصبحن أمهات عن قريب . وكانت البحيرة كما ألمحت ، شفاقة كثيراً على مدى عمق غير قليل ، ومثلما أن أطفال آدميين يحدقون في هدوء وثبات بعيداً عن الثدي وهم يرضعون كأنما يحيون حياتين في آن معاً ، وبينما هم يمتكون الغذاء الجسدي مايزالون روحياً يستطيعون ذكريات غير

أرضية ، كذلك كان يفعل صغار أولئك الحيتان ، كانوا كأنما ينظرون نحونا إلى أعلى ولكنهم لا ينظروننا كأننا كنا عشباً من أعشاب الخليج في أنظارهم الوليدة الحديثة المهد بالنظر . أما الأمهات فكن عائمات على جوانبهن وكن يبدون أيضاً وكأنما ينظرن إلينا نظراً ساجياً . وقد يبلغ أحد أولئك الأطفال . وبعض الدلائل الغريبة توحي بأن عمره لا يتجاوز يوماً واحداً . أربعة عشر قدماً طويلاً ونحو ستة أقدام عرضاً . كان مرحاً بعض المرح وإن لم يكد جسمه ينفلت من ذلك الوضع المتعب الذي كان قد اعتاده وهو في المشيمة ، حيث الحوت الجنين يلتقي رأسه والذنب ويتحفظ للانطلاق الأخيرة ، وهو مستلق كأنه قوس محارب تتري . أما زعانفه الجانبية الرقيقة وراحتا شطيرتيه فماتزال تحمل ذلك الظهر المتغضن المتكرمش الذي تحمله أذنا طفل حديث عهد بالمجيء من تلك المناطق الخفية .

وصاح كويكوج وهو ينظر من فوق حافة القارب : « حبل! حبل! بسرعة ، بسرعة ، من ربطه . من أثبته ؟ حوتان واحد كبير وواحد صغير! » .
فصاح استاريك : « ما يكرهك أيها الرجل ؟ » .
فقال كويكوج وهو يشير إلى أسفل : « انظر - ه - هنا » .

مثلما أن الحوت المصاب قد يحلّ من الحبل الملفوف في اليرميل منات القامات ، ومثلما أنه بعد القمس يعوم ثانية ويرجع الحبل الملفف مسترخياً مترفعاً في خفة متلويماً نحو الفضاء ، كذلك شاهد استاريك لفافات طويلة من حبل السرة في « السيدة لويثان » ، لا يزال الوليد الرضيع يبدو موثقاً بها إلى أمه . وليس يندر في الصروف العاجلة من حياة الصيد أن يصبح هذا الحبل الطبيعي ، وقد انفلت الطرف المتصل بالأم منه ، عالقاً منشبكاً بحبل القنب ، وبهذا يقع الوليد في الاحبولة . لقد انكشف لنا أدق أسرار البحر في تلك البركة المسحورة ، ورأينا مناظر العشق والوصال في الماء بين الفتيان والفتيات من الحيتان* .

هكذا كانت تلك الحيوانات الغامضة في المركز مقبلة على التمتع بشؤون السلم والطمأنينة في حرية ودون وجل بل تعريد جادة في التبدل والطرب ، مع أنها محاطة

* ليس للولادة لدى حوت المنبر . كما هي الحال لدى سائر فئان الحيتان ، موسم معين ، وهو بذلك يختلف عن معظم الأسماك . فيمد حمل لمله يبلغ نسبة أشهر تلد أنثى الحوت واحداً ، وإن كانت هناك أمثلة قليلة معروفة وضمت فيها توأمين . حدث تنهياً له من أجل الرضاع حلمتان تقمان في وضع غريب ، كل واحدة منهما على جانب من جانبي الاست . أما الثديان فنسأهما فيمتدان إلى أعلى من ذلك الموقع . فإذا اتفق أن قطعت هذه الأجزاء الحيوية في المرتع بضربة من حرية الصياد فإن لبن الأم المنسكب ودمها يضضبان الماء المتشابوب على مدى قصبات عديدة . واللبن حلو بالغ الحلاوة دسم ، وقد ذاقه الآدميون ، وقد يحسن لو مزج بشراب الفريز . وإذا غاض بالحيتان التقدير المتبادل فيما بينها حيث بعضها كائنة « الموت للإنسان » .

بدائرة وراء دائرة من الهلع والمخاوف . وحتى في هذا أراني أنا نفسي وسط هادر
إعصاري من ذاتي ، ماأزال إلى الأبد ألهو في سكينه مطمئنة ، وبيننا تدور من حولي أفلاك
ثقيلة الجرم من ويل لا يأفل ، فإني ماأزال أنتقع نفسي . هناك في الأعماق وفي قرارة الذات
- في وداعة الجذل الخالد .

وبينا سبحنا كذلك في غيبوبة كانت المناظر المفاجئة العارضة الهانجة على البعد
تدل على نشاط القوارب الأخرى التي ماتزال منهمكة في قذف الحيتان بالدركات عند
الحذ الذي تقف عنده جيوش الحوت ، أو لعلها ماتزال تشن الغارة خلال الدائرة الأولى ،
حيث المكان واسع والتقهقر المناسب ميسور لها . ولكن منظر الحيتان المغضبة المضروبة
بالدركات ، وهي بين الحين والحين تنطلق على غير هدى عبر الدوائر جيئة وذهوباً ، لم
يكن شيئاً بالنسبة لما علقت به أبصارنا أخيراً . من العادة أحياناً حين يصمم الصياد نحو
حوت مسرف في القوة والحركة بقدر يزيد على المؤلف أن يسعى لأن يعرقله - إن صحَّ
القول - وذلك بأن يقطع أطناب ذنبه الهائلة أو يشوهها ، وهذا يتم بقذف مجرفة قاطعة
ذات نصاب قصير مربوط إليها حبل لتسحب ثانية . وقد علمنا من بعد أن حوتاً جرح
في ذلك الجزء من جسمه جرحاً مشوياً غير بالغ - فيما يبدو - فنذ منطلقاً من وجه
القارب حاملاً معه نصف حبل الرمح ، وأخذ يندفع بين الدوائر الدوارة بسبب الأثم
المبرح في جرحه كأنه أرنولد الأرعن وحده في معركة سرتوغا حاملاً الوبال معه أتى
توجهه^(١) .

لقد كان جرح ذلك الحوت مؤلماً وكان منظره مخيفاً مفزعاً على أية حال ، غير أن
الرعب الذي يبدو أنه بقه في سائر القطيع إنما كان ناجماً عن سبب خفي علينا بادئ الأمر ،
ونحن على بعد يحول دون معرفته ، ولكن بعد برهة لحظنا أن هذا الحوت ، بقوة مصادفة من
أغرب المصادفات التي لا يلبثها الخيال في حرفة التحويت ، قد أصبح محتبلاً بحبل الرمح
الذي كان يجره معه . وأنه أيضاً هرب والمجرفة القاطعة قد غرزت فيه ، وبينما كان الطرف
المنفلت من الحبل المربوط بذلك الرمح قد امتسك ثابتاً في لفائف حبل الرمح حول ذنبه ،
فإن المجرفة القاطعة نفسها قد انفلتت من لحمه ، حتى إذا خرج به الأثم الى حذ الجنون
أصبح يتضرب خلال الماء داقاً بذنبه المرن دقاً عنيفاً ، مؤرجحاً المجرفة الحادة من حوله ،
جارحاً وقاتلاً رفاقه أنفسهم .

(١) هو بندكت أرنولد ، وكانت المعركة المذكورة عام ١٧٧٧ وقد أتهم بأنه كان يومئذ مسخوراً . فمرس نفسه بحماقة للكثيبة
الألسانية .

ويبدو أن هذا المنظر المرعب قد أيقظ جميع القطيع من فزعه الساكن ، فبدأت أولاً الحيتان التي تمقل إطار بحيرتنا تتجمهر بعض التجمهر ، ويرتطم أحدها بالآخر ، كأنما ترفعها أمواج شبه معيبة من بعيد ، ثم بدأت البحيرة نفسها ترتفع وتمتجج في فتور ، واختفت عن الأنظار مخادع الأعراس وغرف الحضانة القائمة تحت الماء ، وبدأت الحيتان في الدوائر المركزية تقصر مداراتها وتسبح في جموع متكاثفة . أجل بدأت الهدأة الطويلة تزول وسمعت في الحال همهمة تأتي خافتة ، وجاء جيش الحيتان كله يتهاوى على المركز الداخلي كأنما كانت الحيتان تريد أن تكدس نفسها في جبل واحد ، كأنها كتل صاخبة من جبال الثلج حين يجري بها نهر هدمن العظيم في الربيع . وعلى التو تبادل استتاريك وكويكوج مكانيهما ، فحل استتاريك في المؤخرة .

وهمس في حماسة وقد أمسك بالدفة ، «المجاذيف! المجاذيف! اقبضوا على مجاذيفكم وامسكوا أرواحكم ، الآن ، يا لله يا رجال تأهبوا! رده يا كويكوج! الحوت هناك! انخسه! اضربه! قف - قف وابق واقفاً - ثبوا يا رجال جذفوا يا رجال . ولا تخشوا ظهورها ، اسحبوها ، دقوها! » .

أصبح القارب بين جرمين أسودين جسيمين لو تقاربا لسحقاه ، ولكن ظل بين طوليهما المديدين مضيق ضيق ، غير أنا في محاولة مستيثة انطلقنا أخيراً نحو منفذ فسيح مؤقت ، ثم جذفنا بسرعة وتطلعنا بجدة في الوقت نفسه لبلوغ منفذ آخر ، وبعد عدة مرات نجونا فيها ولم نكد ، انساب بنا القارب بسرعة في النهاية الى دائرة كانت قبل قليل إحدى الدوائر الخارجية ، لكن أخذت تجتازها آنذر الحيتان التائهة وهي تهدف جميعاً الى مركز واحد . وقد اشترينا هذه النجاة الموقفة بشمن بخس هو فقدان قبعة كويكوج ، إذ بينا كان في مقدم القارب ينخس الحيتان الهاربة طارت قبعة عن رأسه في دوامة هوائية أحدثتها شطيرتا ذنب عريضتان كانتا قريبتين منه حين تموجتا فجأة . وعلى ما كان التقلقل العام يحمل من فوضى واضطراب فإنه سرعان ماتمخض عما بدا حركة منتظمة ، إذ ما ان احتشدت الحيتان أخيراً معاً ، في بنيان متراص حتى استعادت هربها قدماً بسرعة متزايدة ، وأصبحت كل مطاردة دون جدوى ، ولكن القوارب ظلت تتلبث في آثارها لتلتقط الحيتان التي قد تسقط في المؤخرة من جراء الضرب بالدرق ولكي تؤمن الاستيلاء على حوت كان فلاسك قد قتله وأعلمه ، والمعلم في هذا المقام عمود في رأسه خرقة ، يحمل منه كل قارب ثلاثة أو أربعة ، فإذا كان هناك مزيد من الصيد غرس قائماً في الجسم العائم - جسم الحوت القليل - لكي يدل على

مكانه في البحر ولكي يكون أمانة على السبق إلى الاحتياز لو اقتربت منه قوارب أية سفينة أخرى .

كانت نتيجة هذه المطاردة تصور إلى حد ما صدق تلك القولة الحكيمة في حرفة الصيد : « كلما كثرت الحيتان قلّ الصيد » ، فإنه لم يقتل من الحيتان التي قذفت بالدرق إلا واحد ، أما سائرهما فدبرت النجاة عندئذ ، وسنرى من بعد أنها كانت من نصيب مركب آخر غير الباغطة .

مدارس ونظارها

قدم لنا الفصل السابق خبراً عن قطع حيتان العنبر ، وهناك أيضاً ورد السبب المحتمل الذي يفري الحيتان بهذه التجمعات الضخمة .

وقد يصادف البحارة مثل تلك الحشود الكبيرة أحياناً ولكن لعلّ القارئ قد عرف أن هناك عصابات سفيرة متباعدة لاتزال حتى اليوم ترى بين الحين والحين ، وتضم الواحدة منها من عشرين إلى خمسين حوتاً . وهذه العصائب تسمى «مدارس» وهي بعامة نوعان : نوع مؤلف كله من إناث الحوت ، ونوع لا يأوي إليه إلا الفتيان الأشداء أو «الثيران» حسبما تسمى في مالوف البحارة .

ولابد لك من أن ترى في الاشراف الفروسي على مدرسة الإناث ذكراً ناضجاً غير مسنّ إذا ألمّ ما يفزع أبدى عن شهامته بالانحياز في المؤخرة ، وضمن هرب السيدات آمناً تحت حمايته . والحق أن هذا السيد تركيُّ مترف يسبح خلال العالم المائي وقد أحاط به كل ما في «الحريم» من مسليات وتوددات .

والفارق بين هذا التركي وجواريه لافِت للنظر ، ذلك أنه دوماً من ذوي الجمامة المفرطة أما السيدات فلا يبلغن أكثر من ثلث حجم حوت عاديّ وهن في أشد أحوالهن نضجاً . غير أنهن إذا قورن به رقيقات مرهفات وأستطيع أن أقول أن الخصر منهن لا يتجاوز ست ياردات ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن لهن الحق عن طريق الوراثة - على الجملة - بنيل تقدير جيد في باب السمنة .

ومن الأمور العجيبة المشيرة أن يرقب المرء هذا الحريم وسيده وهم في تجوالاتهم المسترخية ، وهم كعشاق البدع والأزياء يتنقلون دائماً في بحث متمهل عن التنوع ، تراهم على خط الصيد في الوقت المناسب ، طلباً لموسم الغذاء في المناطق الاستوائية وهو في

إبانه ، ولعلمهم أن يكونوا قد عادوا لتوهم من قضاء صيف في البحار الشمالية وبذا يتحاشون كل ما قد يجيء به الصيف من إعياء وحرارة مزعجة . فإذا قطعوا النزهة عند خط الاستواء وقتاً ما ، ذاهبين آبيبن في تسكع ، عمدوا إلى المياه الشرقية يستبقون فصل الابتعاد هنالك وبذلك يتجنبون أيضاً شدة الحرارة في ما تبقى من العام .

وفيما هم يتقدمون باطمئنان في إحدى هذه الرحلات ترى «سيدي» الحوت إذا رأى أي مناظر غريبة مريبة يضع على أسرته الظريفة عين اليقظان الحذر ، فلو أن حوتاً شاباً متوقفاً لا يحسب حساب النتائج جاء في تلك الطريق وتجراً فاقتراب اقتراب السرار من إحدى السيدات فأى غضب مريع ذاك الذي يلطم بالباشا فيهاجمه ويطرده بعيداً ! حقاً لم يثن الأوان بعد لمثله من الفتيان الجامحين الخلعاء أن يؤذن لهم بالعدوان على قداسة السعادة المنزلية ، ولكن مهما تكن غيرة الباشا فإنه لا يستطيع أن يصد أشد الفتاك عن فراشه إذ أن فراش الحيتان وأسفاه مشاع! وكثراً ماتكون السيدات سبباً في أشد أنواع المبارزات وأهلها بين المعجبين المتنافسين ، وكما هي الحال على البر كذلك يحدث بين الحيتان فإنهم كثيراً ما يقتتلون حتى الموت في سبيل الحب . فيتبارزون بالفك الأسفل الطويل وأحياناً يشبكون الفكين السفليين أحدهما بالآخر ، ويكافحون من أجل السيادة كأنهم حيوانات العلك التي تعترك فتتشابك شعاب قرونها لدى اعتراكها . وغير قليلة هي الحيتان التي يحرزها الصيادون وفيها جراح عميقة من جراء هذه المراكات - من رؤوس مثلمة ، وأضراس مكسرة ، وزعانف مبتورة ، وفي بعض الأحيان ، أفواه محرفة ملوية عن مواضعها . ولكن هب أن الذي يغزو السعادة المنزلية ولّى هارباً عند أول اندفاعه قام بها سيد الحريم ، فإن مراقبة ذلك السيد في تلك الحال أمر سار ممتع ، فهو يدس جثته الجسيمة بلطف بين حريمه وهناك يقضي وطره في عريضة ومرح ، وقتاً ما ، وهو ما يزال بمرأى من الشاب يعذبه بما لم ينل ، كأنه سليمان التقى يتعبد في خشوع بين جواريه الألف . فإذا كانت بعض الحيتان الأخرى بمرأى من الصيادين فإنهم قلما يطاردون هذه الحيتان التي يشبه أحدها التركي الجليل ، لأن أمثال هذا التركي الجليل يسرفون في تبديد متهم ولذلك يكون دهنهم قليلاً . أما الأبناء والبنات الذين يبرزون بهم فعليهم أن يعنوا بأنفسهم ، أو قل إنهم لا ينالون إلا عطف الأمومة . إذ أن سيدي الحوت ، كبعض العشاق الجوابين من الحيوانات المنهومة الرمامة الأخرى التي يمكن أن نسميها بأسمائها ، ليس لديه ميل لتربية الأطفال ، مهما يكن ميله لمخدع الحب كبيراً ، وبما أنه رحالة كبير فإنه يخلف أبناءه المجهولين في جميع أنحاء العالم ، وكل طفل منهم غريب ، ومع ذلك فإنه في الوقت المناسب حين تخبو فيه حمية الشباب وحين تزداد

السنون والعشرات ، وحين يهجم التأمل بالسهم والوجوم ، وباختصار ، حين يستولي على التركي المتخّم الاسترخاء العام والخمول عندئذ فإن حبّ الراحة والفضيلة يَفْقُبُ لديه حبّ العذاري ، ويدخل التركي في دور العفة والتوبة والندم ، من أدوار عمره ، فيطلق حريمه ويسرحهن ، وإذ يغدو قدوة في سلوكه ، امرءاً عجوزاً متبرماً ، فإنه يذهب وحيداً بين خطوط الزوال وخطوط العرض مردداً أدعيته وصلواته ، محذراً كل حوت شاب من أخطاء الحب وورطاته .

وإذ يسمي الصيادون حريم الحوت باسم «المدرسة» فإنهم يسمون سيد تلك المدرسة وراعيها باسم « ناظر المدرسة » . وإذن فليس من الدعة والخلق النبيل أن ينطلق بعد أن كان هو نفسه في المدرسة ، ليفشي في الناس وجه الحماقة والجهل فيما تعلمه ، دون أن يبث ماتعلمه على وجهه ، مهما يكن موقفه جذاباً في صورته النقدية اللاذعة . أمّا تلقيبه بلقب ناظر المدرسة فيبدو أنه اكتسبه على نحو طبيعي من الإسم الذي أطلق على الحريم أنفسهن ولكن بعضهم استنتج أن المرء الذي أضفى عليه هذا اللقب أول مرة قرأ ، ولابد ، مذكرات فيدوم^(١) وعلم أي نوع من نظار المدارس الريفية كان ذلك الفرنسي المشهور في شبابه ، وماذا كانت طبيعة تلك الدروس السحرية الغامضة التي كان يبثها بين بعض تلامذته .

وهذه العزلة والوحدة التي يفيا إليها ناظر المدرسة في سنّ كبيرة تصدق على حيتان المنبر التي أدركها الهرم . فإذا وجدت حوتاً منفرداً - وهم يسمّونه اللوثايات الناسك - فقدّر بوجه عام أنه حوت عجوز وهو مثل دانيال بون^(٢) المبجل ذو اللحية المطحلبة لا يطيق أحداً على مقربة منه سوى الطبيعة نفسها ، أمّا التي يتخذها له زوجاً في متأبد المياه الموحشة ، فهي خير الزوجات ، وإن كانت تحتفظ بأسرار ونزوات متقلّبة .

أمّا المدارس التي لاتضمّ سوى ذكور شباب أقوياء ، ممّن تقدّم ذكرهم ، فإنها تمثّل مفارقة بالغة لمدارس الحريم ، إذ بينما نجد إناث الحيتان خوّارة هلوعة على نحوٍ جليّ متعيّز فإنّ الحيتان الشبان - أو الثيران ذوات الأربعين برمياً كما يسمّيه الصيادون - هم أهدأ

(١) فرنسو يوجين فيدوك (١٧٧٥ - ١٨٥٧) قضى فترة عسكرياً معامراً ثم انضم لبرئيس باريس عام ١٨٠٩ وبعد استغفانه بقليل ظهر كتاب عنوانه «مذكرات فيدوك» (١٨٢٨) يقصّ كيف أصبح معلماً في مدرسة ريفية للبنات حتّى أنّ في لبوس راهب ويقدم نمانح فاضحة .

(٢) دانيال بون (١٧٢٤ - ١٨٢٠) معتر ، كان قد بلغ الثانية والتسعين من العمر عندما هاجر من كتوكي الى مسوري لأنّ الولاية الأولى اكتظت بالسكان فأصبح لهما عشرة لكل ميل مربع!!

الحيثان شراسة وعناداً وأهدّها خطراً عند اللقاء ، حتى كانت مضرب المثل في ذلك ، وإذا استثنيت تلك الحيثان الغربية ذوات الرؤوس الشمطاء المجلّلة بالشيب التي قد تصادفها أحياناً فإنّ هذه الحيثان الفتية تماثلك كأنها شياطين عابسة قد اسخطها نقرس نزل بها عقاباً .

ومدارس الثيران ذوات الأربعين برميلاً أكبر من مدارس الحريم ، وهم كجمهور من طلبة الكليات الشبان مترعون الى القتال والمرح والعبث ، يتعمّرون حول العالم على مستوى بالغ من قلّة المبالاة والعبث ، حتى أنّ أي صاحب شركة تأمين ذكي فطن لا يؤمن لهم على حياته بأكثر ممّا يؤمن على حياة فتى خليع من طلبة بيل أو هارفارد . وسرعان ما يكفون عن هذا الهياج الفائر فإذا كبروا بقدر ثلاثة أرباع النمو الكامل فإنّ شملهم يتصدّع ويذهبون فرادى بحثاً عن الاستقرار ، أعني بحثاً عن حريم .

وثمة مسألة أخرى من الفرق بين مدارس الذكور ومدارس الإناث تميّز جنساً عن جنس . هب أنّك ضربت ثوراً ذا أربعين برميلاً - يالللشيطان المسكين! فإنّ جميع رفاقه يتخلّون عنه ، ولكن اضرب واحدة من أفراد مدرسة الحريم تجد صواحبها يلتفتن حولها بكل إمارات الإهتمام ، وأحياناً يتلبّثن على مقربة منها ويبقين كذلك مدة طويلة حتى يقعن هنّ أنفسهن فرانس للصيادين .

سمكة مؤنقة وسمكة مخلاة

إن الإشارة التي تناولنا بها الاعلام وعصا العلم في الفصل الواقع قبل الفصل الأخير يتطلب بعض بيان عن قوانين حرفة التحويت وأنظمتها ، لأن العلم فيها قد يحسب رمزاً كبيراً وشارة فخيمة .

كثيراً ما يحدث حين تكون عدة سفن أخرى آخذة في التطواف مجتمعة أن تصيب إحداها حوتاً ما وينجو هارباً ، فتلقاه في النهاية سفينة أخرى ويقتله بخارتها ويجزونه اليها ، وهذا نفسه يتضمّن على نحوٍ غير مباشر عدة أحداث وسوانح صغيرة تشترك جميعاً في هذا المظهر العظيم . فمثلاً - بعد مطاردة للحوت مضمية محفوفة بالخطر وبعد أسره - قد تغفلت جثته من السفينة بسبب عاصفة عنيفة فتجرف بعيداً في اتجاه الريح ، فتستعيدتها حوارة أخرى تربطها الى جانبها في هدأة الريح بكلّ ارتياح دون أن تغامر بحياة امرئ أو بقطعة حبل . وهكذا كان من الممكن أن تتور بين الصيادين أشدّ ضروب الكدر والمنازعات الحادة لولا أنّ هناك قوانين مكتوبة أو غير مكتوبة ، قوانين عامة لا ينازع فيها أحد ، تطبق على جميع القضايا والأحوال .

ولعلّ القانون الرسمي الوحيد للتحويت الذي سنّته السلطة التشريعية هو القانون الهولندي ، فقد أصدره مجلس الطبقات عام ١٦٩٥ ب . م . وليس هناك شعب آخر قد كتب قانوناً للتحويت أبداً ومع ذلك فإنّ للصيادين الأمريكيين مشرعيهم وقضاتهم في هذه المسألة . فقد أوجدوا نظاماً يفوق في شموله ومحكم عبارته مجموعة قوانين جستنيان ، وقوانين الجمعية الصينية ، لقمع التدخل في شؤون الآخرين ، أجل إنّ تلك القوانين يمكن أن تحفر على دائق من عملة الملكة آن أو على كلاب رمح التحويت وقد تلبس حول العنق لشدة صغرها :

(١) السمكة الموثقة تنتمي الى الفريق الذي أوتقها .

(٢) السمكة المخلاة صيد حلال لمن أسرع الى صيدها .

ولكن مايجلب الأذى في هذا القانون الطريف ذلك الإيجاز المعجب فيه إذ يحتاج مجلداً ضخماً من التعليقات لشرحه وتفسيره .

أولاً ما السمكة الموثقة ؟ تعد السمكة الموثقة سواء أكانت حية أم ميتة حين تكون موصولة بسفينة فيها ناس أو قارب ، موصولة بأية وسيلة يمكن أن يسيطر عليها القائم في السفينة أو القارب أو القائمون فيهما ، وقد تكون تلك الوسيلة سارية أو مجدافاً أو حبلاً طوله تسع بوصات أو سلك تلغراف أو خيطاً من نسيج العنكبوت ، فذلك كله سواء . وكذلك فإن السمكة موثقة حين تحمل علماً أو أي رمز آخر معترف به يدل على التملك مادام الفريق الذي أعلمها يبدي بصراحة قدرته في أي وقت على أن يأخذها فيجنبها الى سفينته كما يبدي نيته في ذلك .

هذه تعليقات علمية ، غير أن تعليقات الحواتين أنفسهم تشمل أحياناً كلمات نابية وكلمات ضاربة بجمع اليد . حقاً إن هناك تسامحاً في بعض الأحوال بين المستقيمين الشرفاء من الحواتين ، حيث يكون من الظلم الأخلاقي الصراح أن يدعي فريق امتلاك حوت كان طارده من قبل أو اصطاده فريق آخر . ولكن بعضهم ليس حيي الضمير بأية حال .

منذ حوالي خمسين سنة كانت هناك قضية غريبة حول حوت لقطه ، جرى الترافع فيها بإنجلترا حيث عرض المدعون أنهم بعد مطاردة شاقة لأحد الحيتان في البحار الشمالية وعندما وققوا - هم المدعين - حقاً في زرق الحوت برماحهم اضطروا أخيراً بسبب خوفهم من المجازفة بحياتهم أن يهجروا قاربهم نفسه فضلاً عن الحبال . وبعد وقتٍ أحضر المدعى عليه (وهم بخارة سفينة أخرى) الحوت مضروباً مقتولاً موقفاً وعرضوه آخر الأمر أمام أعين المدعين . وعندما ووجه المدعى عليهم بالاحتجاج قام قبطانهم يكايد المدعين ، وأكد لهم ، أنه قد يحتفظ بحبلهم ورماحهم وقاربهم وهي التي بقيت عالقة بالحوت وقت القبض عليه على نحو يشبه ترنيمة تمجيدية للعمل الذي قام به ، وعلى ذلك طالب المدعون برذ قيمة الحوت والحبل والرماح والقارب .

وكان السيد أرسكين محامياً للمدعى عليهم ، وكان القاضي هو اللورد ألين بري ، وفي سياق الدفاع ذهب أرسكين الفطر ليوضح موقفه بالإشارة الى قضية زنا ، أخفق الزوج فيها عن أن يرذ زوجته عن غيها ، فتركها أخيراً على وجه بحر الحياة ، ومرت السنون ، فأدرسته الندامة على ما فعل ، وشرع في إجراء يستعيد بموجبه ملكيتها ، غير أن أرسكين كان في

جانب الزوجة وقد أيد موقفه بقوله : «صحيح أن الزوج اصطاد زوجته في البداية وأنه قد أوثقها اليه برباط ، وأنه لم يهجرها أخيراً إلا حين ازدادت وطأة خلاعها وانغماسها فيها ، ولكن هجرها مافي ذلك ريب حتى أصبحت سمكة مخللة مسرحة ، ولذا فحين اصطادها رجل آخر ، أصبحت تلك السيدة ملكاً لذلك الرجل مع أي رمح وجد مفروساً فيها» .

في هذه القضية الراهنة احتج أرسكين بأن مثل الحوت والسيدة يوضح أحدهما الآخر بالتبادل .

وإذ استمع القاضي المتبحر الى هذه المرافعة والى المرافعة المعاكسة قرّر جازماً مايلي :-

أما القارب فإنه يحكم به للمدعين لأنهم لم يغادروه إلا طلباً للنجاة بأنفسهم ، وأما فيما يتصل بالحوت موضع النزاع وكذلك الرماح والحبل فإنها من حق المدعى عليهم ، الحوت لأنه كان سمكة مخللة حين وقع عليه الاحتياز الأخير ، والرمح والحبال ، لأن الحوت حين هرب بها فقد أوقع عليها حق التملك الذاتي ، وكل من استولى على الحوت من بعد كان له حق فيها . فالمدعون استولوا من بعد على الحوت ، إذ فتلك الأدوات المذكورة من حقهم .

لو أنّ امرأً عادياً نظر في هذا القرار الذي أصدره ذلك القاضي المتبحر فقد يعترض عليه ولكن إذا تعمق المرء المسألة حتى جذورها وجد أن المبدأين الكبيرين اللذين جعلنا مادتين في شريعة التحويت ، وسبق إيرادهما ، وهما اللذين طبّقهما وبينهما اللورد ألين بري في القضية المذكورة أعلاه ، أقول هذان القانونان اللذان يتعلّقان بالسمكة الموثقة والسمكة المخللة إذا تدبّرهما المرء وجدتهما أساسيين في كلّ التشريعات الإنسانية ، إذ أن هيكل التشريع ، على تعقيد الزخارف في مبناه ، يشبه هيكل الفلسطينيين في أنه لا يقوم الا على دعامين اثنتين .

أليس معنى هذا أننا نقول بكلّ لسان : التملك نصف القانون بغض النظر عن كيف حدث التملك ؟ ولكن كثيراً ما يكون التملك هو القانون كلّ . ماهي أعصاب الأرقاء الروسيين والعبيد الجمهوريين ، وأرواحهم ، سوى أن تعدّ سمكة موثقة ، والتملك فيها هو كلّ القانون ؟ وأي شيء هو تلك البناية الرخامية المعلمة على بابها بصفحة معدنية تحمل الاسم الأفقي الذي يملكها دون أن يطاله قانون ، أليست هي سمكة موثقة ؟ وماهي تلك الفائدة الهدامة التي يتقاضاها «مردخاي» السمسار من «تعييس أفندي» المفلس على قرض يريد به تعيس أفندي أن ينقذ عائلته من الموت جوعاً ، أي شيء هي تلك الفائدة الهدامة إلا أن تكون سمكة موثقة ؟ ما هو دخل رئيس أساقفة «خلاص النفوس» البالغ مائة ألف دولار الذي يتزّه من الخبز العزيز والجبنه النادرة مما يتفنّد به منات الألوف من العمال المهيزي

الأجنحة (وكلهم واثق من بلوغ السماء دون عون من خلاص النفوس) ماهي تلك المانة الألف المكورة إلا أن تكون سمكة موثقة؟ والمدن والقرى التي ورثها دوق دندر أليست هي سمكة موثقة؟ وماذا يرى ذلك الحوات المشهور، جون بل^(١) في ارلنده، سوى أن تكون سمكة موثقة؟ وأي شيء هي تكساس لدى ذلك الحراب الرسولي، الأخ يوناثان^(٢)، إلا أنها سمكة موثقة؟ أليس التملك فيما يتعلق بهؤلاء، جميعاً هو القانون كله؟

هل كانت أمريكا عام ١٤٩٢ إلا سمكة مخلاة غرز فيها كولومبس العلم الاسباني ليعلمها ويحتازها من أجل سيده وسيدته؟ وماذا كانت بولنده لدى القيصر؟ ويونان لدى تركيا، والهند عند انجلترا؟ وماذا تكون مكسيكو في النهاية لدى الولايات المتحدة؟ كل هذه أسماك مخلاة.

وهل حقوق الإنسان وحرّيات العالم إلا سمكة مخلاة؟ وهل عقول الناس جميعاً وآراؤهم إلا سمكة مخلاة؟ وأي شيء هو مبدأ الإيمان الديني فيهم إلا أن يكون سمكة مخلاة؟ وماهي أفكار المفكرين في نظر ذوي الشقشقة اللاغية الخادعين، أليست هي سمكة مخلاة؟ والكرة الأرضية العظمى نفسها أليست سمكة مخلاة. وأنت أيها القارئ، هل أنت إلا سمكة مخلاة وسمكة موثقة أيضاً^(٣)؟

(١) اسم يطلق على انجلترا .

(٢) اسم يطلق على الولايات المتحدة . وقد ضمت تكساس الى الإتحاد عام ١٨٤٥ .

(٣) وإذا كان مبدأ السمكة الموثقة ينطبق على هذا النسو ، فإن سنوه مبدأ السمكة المخلاة أكثر انطباقاً ، أعني أنه ينطبق انطباقاً عاماً شاملاً .

رؤوس أو أذنان

“De balena vero sufficit, si rex habeat caput, et regina caudam”

Bracton I. 3. c. 3.

الجملة اللاتينية المقتبسة من كتب القوانين الانجليزية إذا أخذت في قرانها تعني أن البليئة (الحيستان) التي يعطادها أي صياد على ساحل تلك البلاد ، لابد أن يكون الرأس منها للملك الحوات الأعظم ، ورئيس الشرف للحواتين ، أما الملكة فيقدم لها الذنب في احترام . وهي قسمة في الحوت تشبه قسمة التفاحة في نصفين ، لاتبقي على شيء بعد ذلك . وبما أن هذا القانون ، في صورة معدلة ، لايزال ساري المفعول بانجلترا حتى اليوم ، وبما أنه يمثل من جوانب مختلفة شذوذاً غريباً على القانون العام المتصل بالسمة الموثقة والمخلّاة ، فإنني أرى أن أتصدى له في هذا المقام في فصل مستقل على نفس المبدأ الرقيق الذي يدفع السكك الحديدية الانجليزية لأن تكون على حساب عربة منفصلة ، تجعل خصيصاً للعائلة المالكة . وكى أبرهن - وإن كان برهاناً غريباً - على أن القانون المذكور مايزال ساري المفعول أتقدم في المقام الأول لأضع بين أيديكم حادثة جرت خلال السنتين الأخيرتين :

يبدو أن بعض البحارة الشرفاء من دوفر أو ساندوتش أو لعلمهم من سانك بور (المواني الخمسة) وقفوا بعد مطاردة قاسية الى قتل حوت لطيف وجره الى الشاطئ. بعد أن رأوه عن بعد وهم على البر. والمواني الخمسة تعد جزئياً أو على نحو ما تحت حكم رجل شرطة أو «قواص» اسمه لورد واردن . وبما أنه يتسلم منصبه من التاج مباشرة ، فيما أعتقد ، فإن جميع الأرباح التي تدرها مقاطعات المواني الخمسة تصبح له بموجب التنازل . وهذه وظيفة يستحياها بعض الكتاب «السنمور» - وظيفة بمرتب دون عمل

متكافئ. - ولكنها ليست كذلك لأن لورد واردن ينشغل منهمكاً أحياناً في الاحتيال على احتياز العوائد والأجور التي هي له بحكم احتياله على احتيازها .

هؤلاء الملاحون المساكين الحفاة الذين لوحتهم الشمس ، وشمروا سراويلهم فوق سيقانهم النحيلة التي تشبه سمك الإنكليس ، جزوا السمكة السمينة حتى طرحوها على البر ، وقد رجوا لأنفسهم مبلغ ١٥٠ جنيهاً من زيتها وعظمها ، وأخذوا وهم سابحون في خيالاتهم يحتسون الشاي العزيز مع زوجاتهم ، والجة الطيبة مع ندمانهم ، بقوة مايخص كلاً منهم من نصيب ، وعندئذ تقدم منهم سيد عالم مسيحي ممعن ، وله في الإحسان قدم ، يحمل تحت إبطه نسخة من قوانين بلاكستون ووضعها على رأس الحوت وقال : « كفوا عنه أيديكم! هذا الحوت ياسادتي حوت موثق ، وأنا أحوزه باسم لورد واردن » . وعلى الأثر أخذ كل واحد من هؤلاء البخارة المساكين وهم في حيرة مشوبة باحترام - فهم يمثلون الخلق الانجليزي الأصيل - يحك رأسه بشدة دون أن يعرف مايقول ، وينقل نظره في الوقت نفسه كئيباً بين الحوت والرجل الغريب . ولكن هذا كله لم يحسن الوضع بحال ولا رقق القلب القاسي بين أضلاع ذلك العالم الغريب الذي يحمل نسخة من تشريعات بلاكستون ، وبعد هنية تجرأ أحدهم على الكلام بعد أن حك رأسه طويلاً مستثيراً أفكاره :

- عفواً سيدي من هو اللورد واردن ؟

- هو الدوق .

- ولكن الدوق لاشأن له بأخذ السمكة .

- إنها له .

- لقد تحمّلنا التعب الكبير والخطر والكلفة ، فهل يذهب هذا كله لمنفعة الدوق

ولانتقاضى شيئاً لقاء الألم والتعب إلا الدمامل والقروح ؟

- إنها له .

- هل الدوق من الفقر بحيث يضطر الى هذه الطريقة المستينة للحصول على الكفاف ؟

- إنها له .

- لقد كنت أرجو أن أنقذ أسي التي طال بها العهد وهي طريحة الفراش بما أناله من

حصّة في هذا الحوت .

- إنها له .

- ألا يقتنع الدوق بربعها أو بنصفها ؟

- إنها له .

بإيجاز أخذ الحوت ويبيع وتسلم النقود «جناب» دوق ولنجتون . وسمع بالقصة قسيس شريف بالمدينة فظن أنه إذا نظر إليها تحت أضواء معينة فإنها قد تبدو قضية تعسة تحت تلك الظروف ، ولو الى حد قليل ، فرفع باحترام خطاباً الى جناب الدوق يرجوه أن يولي قضية البحارين التعمساء شيئاً من نظر ، فأجاب الدوق بما معناه (وكلتا الرسالتين نشرتا على الناس) أنه قد فعل ما فعل ، وتسلم المال ، وهو يكون ممتناً للقسيس المبجل لو أنه في المستقبل كفّ (أي القسيس المبجل) عن التدخل في شؤون الآخرين . أهذا هو العسكري العجوز الذي يقف عند زوايا الممالك الثلاث يبتز الصدقات من الشحاذين في كل وجه ؟

لابد أن يدرك القارىء أن الحق المزعوم للدوق في هذه القضية إنما هو مستمد من حق الملك نفسه ، وعلينا أن نبحث بأي مبدأ منح الملك في الاصل هذا الحق . أما القانون فقد قدمنا ذكره ، وأما السبب فيه فقد قدمه بلودون حين قال : «الحوت المصيد حق للملك والملكة» ، لامتيازاه وتفوقه في الجودة ، ويرى أعمق الشراح أن هذا التفسير كان هو الحجة المعتمدة في مثل هذه الشؤون .

ولكن لم يختص الملك بالرأس والملكة بالذنب ؟ هاتوا سبباً لذلك يا حضرات المشرعين!

هنالك مؤلف اسمه وليم برين ، وهو أحد المؤلفين في شؤون القضاء الملكي ، كتب مقالاً في مال الملكة وفي حق النفقة للملكة ، وكان مما قاله : «الذنب من نصيب الملكة حتى تمتلئ خزانها بعظم الحوت» . هذا شيء ، كتب يوم كان العظم الأسود اللون في الحوت الأثين - أو حوت جرينلاند - يتخذ كثيراً في صدارات السيدات . ولكن هذا العظم نفسه لا يوجد في الذنب وإنما في الرأس وهو خطأ مؤسف لقانوني حكيم مثل برين . لكن هل الملكة حورية بحر ياترى حتى تزود بذنب ؟ قد يكمن في هذا كله معنى رمزي .

هناك سمتان يسميهما كتاب القانون الانجليزي سمتين ملكيتين وهما : الحوت والحفش ، وكتاهما من الأملاك الملكية في ظروف معينة ، وهما اسمياً يمدان دخل التاج العادي بالعشر العاشر ، ولا أعرف أي مؤلف آخر ألمح الى هذه المسألة ، ولكن يبدو لي استنتاجاً أن سمكة الحفش يجب أن تقسم كما يقسم الحوت ، فيأخذ الملك رأسها وهو شديد الكشافة مرن ، وإذا اتخذنا ذلك رمزاً فقد نزع من زاوية فكها أن هناك تشابهاً وتناظراً بين الرأسين ، وهكذا يبدو أن لكل شيء سبباً حتى في القانون .

الباقوطة تلثقي ببرعم الوردة

«كان من العبيث ان تفتش عن العنبر في كرش ذلك
الحوت، وإن كان الفتن الخائق لا يحول دون تفتيشه»^(١)
السيرت، براون V. E.

مضى أسبوع أو اثنان على آخر منظر وصفته من مناظر التحويت وكنا نبحر في بطء
فوق بحر هامد كثير البخار في منتصف النهار ، حتى برهنت الأنوف الكثيرة فوق ظهر
الباقوطة على أنّ قدرتها على اليقظة والاستكشاف أكبر من قدرة العيون الست في الأعالي
فقد شمنا في البحر رائحة متميزة غير ممتعة كثيراً .

فقال اسطب : «أراهن الآن أنّ من حولنا في مكان ما بعض الحيتان التي أصبناها أمس
بالدوق ، وقد كنت أقدر أنها ستقلب قبل مضي وقت طويل» .

وفي الحال انقشعت الأبخرة من حولنا الى جانب ، ورأينا على بعد سفينة دلت أشرعتها
المنشورة على أنها قد أجنبت إليها حوتاً . واذا اقتربنا منها منسابين رأينا في قممها علماً
فرنسياً ، واتضح لنا من عصائب طيور البحر الرخمية المدومة كأنها سحب ، الملتفة المرنقة
المنفضة من فوق الحوت المجنّب ، أنّ ذلك الحوت لا بدّ من أن يكون مايسميه الصيادون
«الحوت المنفجر» ، أي الحوت الذي مات في البحر دون أن يصيبه أذى وعام جثة مشاعاً
فوق الماء . وقد يدرك المرء أية رائحة كريهة كانت تفتح بها تلك الكتلة ، لعلها أسوأ من
رائحة مدينة آشورية في أيام الطاعون حين يعجز الأحياء فيها عن دفن الموتى . وبعض الناس
يرونها في الحق شيئاً لا يطاق حتى إنه ليست ثمة شهوة تغريهم بأن يرسوا سفينتهم الى
جانبها ، غير أنّ هناك من يرضون بذلك على الرغم من أنّ الزيت الذي يؤخذ من مثلها من
صنف حقير القيمة ولا علاقة له أبداً بعطر الورد في طبيعته .

وعندما اقتربنا منها على هبات النسيم المتلاشي رأينا تلك الحوامة الفرنسية قد أجنبت

(١) خطأ مثل هنا لأدوج في هذه الإقتباس كلمة « لا » .

اليها حوتاً ثانياً ، وبدا لنا أن هذا الثاني أشدّ تشناً من الأول ، بل تجلّى لنا في الحقيقة أنه نوع من تلك الحيتان التي تستثير الريبة إذ يبدو أنها تجفّ وتموت بسبب نوع مهول من سوء الهضم أو عسره ، فتظنّ أجسامها الميتة مفلسة تماماً أو تكاد من أيّ قطرة زيت . ومع ذلك فسوف نعرف في موضع ملائم من هذا الكتاب كيف أنّ الصياد العارف لن يشيح بوجهه عن مثل هذا الحوت ، مهما يتجنّب الحيتان المتفجّرة بعامة .

وقد كاثبت الباقولة تلك السفينة الغربية الى حدّ أنّ اسطب أقسم أنه تعرّف الى عصا مجرّفته القاطعة في حبال كانت مَعقودة حول ذنب أحد هذين الحوتين .

وضحك في تماجن وهو يقف في مقدم السفينة وقال : «ها إنّ فتى ظريفاً يعرض لكم ، ذلك الثعلب ماكر! أنا أعلم حقّ العلم أنّ هؤلاء «الضفادع» الذين نسميهم الفرنسيين قليلو الدربة في شؤون الصيد ، أحياناً ينزلون قواربهم وراء الموجات الكبيرة ظناً منهم أنّها نفاثات حيتان العنبر ، نعم وأحياناً يحرون من مينائهم وعنبر سفينتهم مليء بصناديق من شمع الشحم وحقائب من مقاريض الذبالة إذ يتكهنون بأنّ الزيت الذي يحصلون عليه لن يكفي ليفطي الذبالة التي يستعملها القبطان . أجل نحن جميعاً نعرف هذه الأمور ، ولكن انظروا ها هنا «ضفدع» بائس قد قنع بما خلفناه أعني الحوت الذي ضربناه بالدرق ، نعم هو قانع بأنّ يتشر العظام الجافة من تلك السمكة الثمينة التي حصل عليها هنالك . يا للمسكين البائس ، أقول ليأت أحدكم بقبّعة ويمرّها علينا ونقدّم له فيها هدية من زيت قليل على سبيل الإحسان ، إذ أنّ أيّ زيت سيحصل عليه من ذلك الحوت المضروب بالدرق لن يصلح للوقود في سجن ، لا ولا في زنزانة امرئ محكوم بالإعدام ، فأما الحوت الآخر فأنا أرى أنّي أحصل على كمية من الزيت أكثر من التي يحصل عليها هو من تلك الرزمة من العظام إذا أنا قطعت هذه الصواري الثلاثة من سفينتنا وعصرت ما فيها من زيت . ويخطر لي الآن أنه قد يحوي شيئاً أثنى من الزيت بكثير ، أعني العنبر ، ترى هل فكّر صاحبنا الشيخ في هذا ؟ ذلك أمر يستحقّ التجربة . أجل ، أنا لها . » وما أنّ أكمل حديثه حتّى توجه نحو الربعة خلف الدقل الأعظم .

في هذا الوقت كان الهواء الفاتر الضعيف قد استحال الى سكون تام ، حتّى أنّ الباقولة شاءت أم أبوت وقعت ضمن ربة الرائحة المنتنة ، ولم يكن لها من أمل في النجاة منها إلاّ إذا انتعش هبوب النسيم . فخرج اسطب من القمرة ونادى ملاحي قاربه وجذّفوا متجهين نحو السفينة الغربية ، وإذا كان يعترض مقدّماتها لحظ أنّ الجزء العلوي من رأس مقدّماتها (حسب مايمليه الذوق الفرنسي الذي يحبّ البهرجة) محفورٌ على شكل سويقة ، ضخمة منكّسة الرأس ، مدهونة باللون الأخضر وتحمل في موضع الشوك إبراً من نحاس قد تتأت منها هنا

وهناك ، وتنتهي جميعاً ببصيلة منتظمة مطبقة ذات لون أحمر لامع ، وعلى اللافتة القائمة عند رأسها قرأ بحروف كبيرة مذهبة «زَرَّ الورد» أو برعم الورد ، وقد كان هذا اسماً رومانياً لتلك السفينة العطرة .

ومع أن اسطب لم يفهم الكلمة الفرنسية التي تعني «زَرَّ» في ذلك النقش فإن كلمة «ورد» وصورة البرعم البصلي في رأسها ، حين وضعهما جنباً إلى جنب ، وضحا له كل شيء ، توضيحاً كافياً .

فصاح وهو يزَمُّ أنفه بيديه : «برعم ورد خشبي ، أليس كذلك؟ هذا أحسن ولكن آية رائحة تنبعث من هذه الوردة!!»

ومن أجل أن يقيم اتصالاً مباشراً بينه وبين الناس على ظهر تلك السفينة كان عليه أن يجذف حول صدر السفينة إلى الجهة اليمنى منها ، وبذلك يقترب من الحوت المتفجر ويرسل الحديث من فوقه .

وحين بلغ هذا الموقع وإحدى يديه ماتزال على أنفه جأراً قائلاً : «انتم يازرَّ الورد! أفيكم يازرَّ الورد أحد يتكلم الانجليزية؟» .

- «نعم» أجابه من حافة السفينة رجل من أهالي جزر بحر المانش ، واستبان من بعد أنه رأس الضابط .

- اذن فيا زَرَّ الورد ، هل رأيتم الحوت الأبيض؟

- أي حوت؟

- الحوت الأبيض ، حوت عنبر ، موبي ديك ، هل رأيتموه؟

- لم نسمع بمثل هذا الحوت أبداً ، القشوط الأبيض! الحوت الأبيض ، كلا .

- حسناً ، وداعاً الآن ، وسأعود اليكم ثانية بعد قليل .

ثم جذف مسرعاً نحو الباقوطة ورأى آخاب منحياً فوق إفريز الرابعة خلف الدقل منتظراً جوابه ، فأتخذ من يديه بوقاً وصاح : «كلاً ياسيدي ، كلاً!» وعلى الأثر انسحب آخاب وعاد اسطب إلى السفينة الفرنسية .

وحينئذ لحظ أن ذلك الرجل المانشي الذي كان قد تفلغل بين السلاسل وأخذ يستعمل المجرفة القاطعة قد وضع أنفه في مايشبه الكيس .

فقال له اسطب : «مابال أنفك؟ هل هشمته؟» فأجابه الرجل المانشي الذي لم يكن يستسيغ كثيراً المهمة الموكولة إليه قائلاً : «لتمنيت أنه كان مهشماً أو أنه لم يكن لي أنف أبداً! ولكن مابالك تمسك أنفك أنت؟» .

- آه ، لاشيء ، إنه أنف من شمع ولا بد أن أضع عليه يدي لنلا يسقط . يوم جميل ،
أليس كذلك ؟ أقول إن الهواء كأنه مرّ على روضة حزن ، ألقي لنا ضميمة من الزهر بحقك
يازرّ الورد » .

فاستبدت بالمانشي غضب مفاجيء ، وجأر قانلاً : « بحقّ الشيطان ماذا تريد منا ؟ » .
- « آه رُوقُ رُوقُ ، نعم ، هذه هي الكلمة ، لم لا تكذّب هذين الحوتين في الثلج وأنت
تعمل فيهما . دعنا من المزاح . هل تعلم يا برعم الورد أن من العبث أن تجرّب الحصول
على شيءٍ من زيت من مثل هذين الحوتين ؟ أما ذلك الذي جفّ وتقدّد فليس في جثته كلّها
ملء محجم من زيت » .

- « أعرف ذلك جيّداً ولكن من لي بالقبطان فإنه لا يصدق ذلك ، هذه أولى سفراته وكان
من قبلها يصنع عطر الكولونيا ، لكن اصعد لنا وواجهه فلعلّه يصدقك إن لم يصدقني ،
وبذلك تخلّصني من هذا السمج القذر » .

- « في خدمتكم بكلّ معروف يرضيك يا صديقي العذب الظريف » ذلك ما قاله اسطب
وصعد على الأثر الى ظهر السفينة وهناك عرض مشهد غريب . فقد كان البخارة يلبسون
قبعات مزخرقة بخيوط حمراء على شكل خصل مزهرة ، وهم يأخذون المرافع استعداداً لرفع
الحوتين إلا أنهم كانوا يعملون في بطنهم ويتكلمون في عجلة ومهما قلت فيهم لم تعدم أن
تراهم منحرفي المزاج ، قد صدقوا أنوفهم جميعاً من وجوههم الى أعلى كأنها صواري البوم
وبين الحين والحين يكفّ كلّ اثنين منهم معاً عن العمل ويجريان نحو قمة الصاري ليستنشقا
الهواء الطلق ، وبعضهم يظنون أنهم سيصابون بالطاعون ، فهم يغمسون الدُسر في قار الفحم
ويرفمونها عند خياشيمهم بين فترة وأخرى . وآخرون قد كسروا أعواد غلايينهم وجعلوها
قصيرة جداً لاتتمدى أحواض الفلايين إلا ما يطبق عليه الفم وجعلوا ينفخون دخان التبغ بقوة
حتى يظل يملأ أنوفهم على الدوام .

انصبّ على رأس اسطب سيل من الصيحات واللعنات صادرة من غرفة القبطان عند
الكوئلة ، فتطلّع في تلك الوجهة فرأى وجهاً محتقناً بالغضب يطلّ من خلف الباب وكان موارب
الفتحة في داخل ، ذلك هو الجراح المعذب الذي احتجّ على تلك الإجراءات في ذلك اليوم ،
وعبثاً ما فعل ، فانزوى في غرفة القبطان (وهو يسمّيها الكابينة cabinet) لكي يتجنّب الوباء
إلا أنه لم يكف عن أن يجهر بتوسلاته وتسخطاته أحياناً .

وإذ رأى اسطب ذلك كلّه دبّر خطته في إحكام ، والتفت الى المانشي وحادثه قليلاً ،
وفي أثناء الحديث كشف الضابط الغريب عن مقته لقبطانه ، ونمته بأنه جاهل مغرور ، جرّم

جميعاً في تلك الحماة الردغة المنتنة التي لن تجدي عليهم شيئاً ، وسير اسطب غوره بعناية فأدرك أنّ هذا المانشي ليست لديه أدنى خاطرة عن شيء اسمه العنبر فطوى كلّ شيء عن هذا الموضوع في صدره ، أمّا فيما عدا ذلك فكان صريحاً معه يبادلُه الثقة التامة ، حتّى دبر الاثنان في سرعة خُطّة صغيرة لكي يخدعا القبطان ويعبثا به في آنٍ معاً دون أن يعنّ له أبداً أن يتشكك في إخلاصهما . وتقضي هذه الخُطّة الصغيرة أن يقف المانشي فيقول للقبطان - تحت ستار الرحمة لما يقوله اسطب - كلّ ما يبغني أن يقوله على أنه كلام اسطب نفسه ، وأمّا اسطب فينطق بأيّ هذر يسبق الى طرف لسانه خلال تلك المقابلة .

حينئذ برز ضحيتهما المرتقب من قمرته ، فإذا به رجل أسمر قمي إلا أنه سمح التقاطع إذا قست الى قباطنة البحر ، وله سبلة كبيرة وشاربان ولبس رداء مخملياً أحمر قطنياً وعلى جنبه أختام تتدلى من سلسلة ساعته . فقام المانشي بتعريف اسطب الى هذا السيد في جوّ مهذب ، واتخذ المانشي صورة المترجم بينهما ظاهرياً وقال : « ماذا أقول له ؟ » .

فقال اسطب وهو يحدّج الرداء المخملي والساعة والأختام : « لك أن تبدأ القول بأن تخبره أن منظره يبدو لي منظر طفل وإن كنت لا أدعي أنني أصلح حكماً » .

فقال المانشي بالفرنسية وهو يحوّل نظره نحو قبطانه : « يقول لك إنه بالأمس فقط تحدثت سفينته الى سفينة مات قبطانها ورأس ضباطها وستة من ملاحها بسبب حمى علقت بهم من حوت منفجر أجنبيوه الى سفينتهم » .

فأجفل القبطان لدى سماعه ذلك واستبدّ به التلهّف لمعرفة المزيد . فقال المانشي لأسطب : « ثمّ ماذا ؟ » .

- « مادام يستسهل المسألة فأخبره أنني حدّقت فيه البصر باهتمام وأصبحت واثقاً أنه لا يصلح لقيادة سفينة بأكثر مما يصلح لذلك قرد من ستياغو . بل الحقّ أخبره على لساني أنه قرد من نوع البايون » .

- « إنه ليحلف غير آل أيها السيد إن الحوت الثاني أيّ الذي جف وتقدّد أخطر كثيراً من المنفجر ، وباختصار أنه - أيها السيد - ليستحلّفنا اذا كان لحياتنا من قيمة لدينا أن نسيب ذلك الحوت » .

وعلى التوجرى القبطان الى الأمام وأمر ملاحيه بصوت جهير أن يتوقفوا عن رفع المرافع وأن يرخوا الحبال والسلاسل التي تربط الحوتين الى السفينة .
وعندما عاد القبطان اليهما قال الرجل المانشي : « ثمّ ماذا ؟ » .

- «دعني أرى ، أجل ، تستطيع أن تقول له الآن أنني ، في الواقع ، أخبره أنني قد ضحكت عليه وإني (منتحياً جانباً متحدتاً لنفسه) ربّما ضحكت أيضاً على شخصٍ آخر» .

- «يقول ياسيدي أنه ليحصن بالسعادة إذا استطاع أن يؤدي لنا معروفاً» .

فلما سمع القبطان ذلك أقسم أنّهما هما الممتنان الشاكران (يعني نفسه والضابط) وأنهى كلامه بدعوة اسطب الى قمرة ليشرّب زجاجة من نبيذ بوردو .

قال المترجم ، «يريدك أن تشرب معه زجاجة نبيذ» .

- «أبلغه شكري القلبي ولكن قل له أنه ليس من مبدأي أن أنادم رجلاً خدعته وضحكت عليه ، قل له في الواقع أنني لا بد أن أنصرف» .

- «يقول ياسيدي أنّ مبادئه لا تسمح له بأن يشرب ، ولكن إن كان لابد ياسيدي أن يعيش يوماً آخر ليشرّب فيه فمن الخير له أن ينزل القوارب الأربعة لتسحب السفينة بعيداً عن هذين الحوتين ، لأنهما لن يبتعدا بسبب سكون الهواء» .

في هذا الوقت كان اسطب قد أصبح فوق جانب السفينة ونزل في قاربه ، ونادى الرجل المانشي يقول له - بما أنّ لديه حبلٌ جرّ طويلاً في قاربه فإنه سيبتذل ما في وسعه لمساعدتهم بجرّ أخفّ الحوتين من جانب السفينة ، وبينما انهمكت القوارب الفرنسية في سحب السفينة بعيداً في وجهه ، كان اسطب بكرمٍ نفسٍ يجرّ الحوت في وجه آخر ، وقد تظاهر بأنه يرخي حبلًا طويلاً مفرط الطول .

وسرعان ما انبعت النسيم ، وتظاهر اسطب بأنه قد نأى عن الحوت ، ورفعت القوارب الفرنسية الى السفينة فازدادت بعداً ، بينما انسابت الباقوطة بين السفينة الفرنسية وقارب اسطب ، وعلى الأثر جذب اسطب بسرعة متجهاً نحو الجفّة العائمة ونادى الباقوطة لينبئها بما اتواه ، وابتدأ توتاً يحصد ثمرة مكره الملتوي . فأمسك بمجرقة قاربه الحادة وابتدأ التنقيب في الجفّة في مكان يقف خلف الزعنفة الجانبية قليلاً ، ولو رأيت لهكدت تصوّره يحفر مخدعاً هنالك في الماء ، وعندما أمضى وقتاً وهو يضرب بمجرقته على الأضلاع الضامرة كان كمن يستلّ بلاطاً وخزفاً رومانياً قديماً مدفوناً في طفّل انجليزي كثيف . وقد كان ملاحو قاربه في هياج شديد يعينون رئيسهم باحتدام ورجبة ، ويبدو عليهم القلق والترقب كأنهم باحثون عن الذهب .

وطوال ذلك كله كانت طيور لاتحصى تخوت وتنتفض وتصرخ وتزعق وتشتاتل من حولهم ، وأخذت خيبة الأمل تبدو على ملامح اسطب وبخاصة حين ازداد سطوع التنّ الفظيع ، ولكن فجأة من جوف هذا الطاعون الديهي، انسلّ جدول دقيق من المطر جرى خلال

مدة الروائح الكريهة دون أن يختلط بها مثلما أن نهراً يجري في آخر ويحاذيه ويمضي وقتاً قبل أن يتمازج النهران ويتلاشى أحدهما في الآخر .
فصاح اسطب في سرور وهو يتحسّس شيئاً في المناطق الداخلية : « وجدته ، وجدته ، هميان! هميان! » .

وألقى مجرفته ودرّس في الداخل كلتا يديه فعادتتا بحفنتين من شيء يبدو منتفخاً كأنه صابون وندسور المكتنز أو جبة قديمة دسمة رقشاء ، إذا اطلعت عليه رأيته دهني القوام طيب الشذا ، وقد يثوخ فيه إبهامك في يسر ولونه بين الصفرة ودكنة الرماد . هذا أيها الرفاق الطيبون هو العنبر ، وكلّ أوقية منه تسوى لدى أيّ صيدلي جنيهاً ذهبياً . وقد استخلص اسطب منه حوالي ست حفنات إلا أنّ ما فقد منه في البحر - دون إهمال - كان أكثر ، وكان من الممكن الحصول على ما هو أكثر من ذلك لولا أوامر آخاب الجمهورية الجازعة التي اسطب بأن يكفّ ويعود الى ظهر السفينة وإلا قالت لهم السفينة : وداعاً .

العنبر الرمادي

هذا العنبر مادة غريبة بالغة الغرابة إلا أنها سلعة هامة في التجارة حتى أن قبطاناً من أسرة «التابوتيين» في ناتوكت جرى استجوابه حولها عام ١٧٩١ في قفص الإتهام بمجلس العموم البريطاني . ذلك أن الأصل الصحيح للعنبر الرمادي كان في ذلك الحين وظلّ الى تاريخ متأخر نسبياً ، مشكلة لدى العلماء ، مثل العنبر نفسه ، والكلمة الدالة عليه هي am-bergris وهي مركبة من كلمتين amber بمعنى العنبر ، و gris كلمة فرنسية تعني الرمادي . فالعنبر بعامة قد يوجد أحياناً على ساحل البحر ، وقد يستخرج من الأرض في البر ، أما العنبر الرمادي فلا يوجد إلا في البحر ، ثم أن العنبر بعامة مادة صلبة شفافة هشة لارائحة لها تتخذ منها أنابيب الفلايين وأنواع من الخرز والزينة ، وأما العنبر الرمادي فإنه ناعم شمعي ذو رائحة نفاذة وشذا طيب حتى أنه يستعمل على الأكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والأدوية المستعملة للشعر . ويستعمله الأتراك في الطبخ ويأخذونه معهم أيضاً الى مكة للغاية نفسها التي يحمل المسيحيون من أجلها البخور الى كنيسة القديس بطرس في روما ، وبعض تجار النبيذ يضعون منه في النبيذ حبات يسيرات لتطيب رائحته .

من كان يظن أن السيدات الجميلات والسادة المتأنقين يتلذذون بخلاصة عطرية توجد في الأحشاء المهينة من حوت عليل! ولكن ذلك هو واقع الأمر . وبعض الناس يظنون أن العنبر هو سبب عسر الهضم في الحوت وبعضهم يظنونه نتيجة له . ومن العسير أن نقول كيف يمكن معالجة ذلك المرض ، إلا إذا جرّعناه ملء ثلاثة قوارب أو أربعة من أقراص براندرث ، ثم هربنا من وجه الخطر كما يفعل العمال لدى تفجير الصخور .

وقد أنسيت أن أقول إنه وجدت في هذا العنبر الرمادي أقراص صلبة مستديرة عظمية

ظنّها اسطب بادئ الأمر أزرار سراويل بعض البحارة ، ثمّ تبيّن بعد ذلك أنّها ليست سوى قطع من عظام السبيدج الصغير حتّلت على ذلك الوجه .

أقليل هذا ؟ أقليل أن يوجد عدم الفساد من هذا العنبر الرمادي العطر الشاذي في صميم ذلك الفساد ؟ تفكّروا في قول القديس بولس في رسالته الى أهل كورنثوس حول الفساد وعدم الفساد (١ كورنثوس : ٤٢) وكيف أنّا نزرع في هوان ونقام في مجد (٤٣) . وهو كذلك يذكّرنا بقول براكيلس حول ماهية الشيء الذي يستخرج منه أجود المسك^(١) . كذلك لا تنسوا الحقيقة الغريبة وهي أنّ ماء الكولونيا بين جميع الأشياء ذات الرائحة الكريهة هو أردوها جميعاً في مراحل صنعة الأوتلية .

قد كنت أرغب في أن أختّم هذا الفصل بالاستشهاد المتقدم ولكنّي لأستطيع نظراً لأنّي أتوق لأنقض تهمة توجّه كثيراً الى الحواتين وقد يعدها بعض أصحاب العقول القائمة على التحيز مؤيدة على نحو غير مباشر بما ذكرناه عن الحواتين اللذين كانا مجنّبين الى السفينة الفرنسية . في موضع آخر من هذا الكتاب أبطلنا الطعن العياب القائل أنّ مهنة التحويت عمل قدر دنس في مجمله ، غير أنّ هناك شيئاً آخر نقضه بالبرهان ، فالناس يلمّحون الى أنّ جميع الحياتان دائماً كريهة الرائحة فكيف نشأت هذه الوصمة البغيضة ؟

أرى أنّها تعود بصراحة الى أوّل مرة وصلت فيها سفن التحويت من جرينلاند الى لندن قبل ما يزيد على قرنين . ذلك أنّ هؤلاء الحواتين لم يكونوا يستخرجون الزيت - ولاهم يستخرجونه حتى اليوم - وهم في عرض البحر ، كما تفعل السفن في البحار الجنوبية دائماً ، وإنّما هم يقطعون الشحم الطازج في قطع صغيرة ويدسّونه من خلال ثقوب مفدّمة في براميل كبيرة ويحملونه الى الوطن على هذه الحال . لأنّ قصر الصيف في تلك البحار الجليدية وتعرض الحواتين لهبوب العواصف العنيفة فجأة يحول دون إيثار طريقة أخرى . وتكون النتيجة أنّ الملاحين إذا دخلوا المستودع وأنزلوا واحدة من تلك المقابر الحوتية في حوض جرينلاند انبعثت رائحة تشبه بعض الشيء الرائحة التي تنطلق عند حفر مقبرة قديمة لتأسيس مستشفى للولادة .

وأنا أستخلص - من بعض النواحي - أنّ هذه التهمة الخبيثة ضدّ الحواتات قد تعزى بالمثل الى وجود قرية هولندية على ساحل جرينلاند في الأيام المواضي ، تدعى شميرنبرج أو سميرنبرج والاسم الثاني هو الذي يستعمله العلامة فوجو فون سلاك^(٢) في كتابه الضخم

(١) يشير الى قوله ، من البراز والروث يستخرج أجود المسك .

(٢) اسم من أسماء السخرية التي أطلقها ملغل على اسكورسي .

في الروائح ، وهو كتاب معتمد في ذلك الموضوع . واسمه يوحى (إذ أنّ كلمة سمير تعني الشحم وبرج تعني نزع) إنّ هذه القرية قد أنشئت هنالك لكي تكون موقعاً صالحاً لنزع شحم الحيتان وإذابتها ، ممّا يصيده اسطول التحويت الهولندي ، دون الحاجة الى أخذها لهولندا لتحقيق تلك الغاية ، وكانت القرية مجموعة من المواقد ومرآجل غلي اللحم وغانبر الزيت ، وعندما كانت الأعمال فيها تقوم على قدم وساق فإنها كانت تبعث في الواقع رائحة غير مريحة أو ممتعة . ولكنّ هذا كلّه يختلف تماماً عن سفينة التحويت التي تصيد حوت العنبر في البحار الجنوبية فهي إذا قامت برحلة مداها أربع سنوات ، فإنها بعد أن يطفح عنبرها بالزيت ربما لم تستنفذ خمسين يوماً في شؤون الغليان ، فإذا أصبح الزيت معبأ في البراميل فإنه يصبح دون رائحة تقريباً . والحق أنّ فصيلة الحيتان ، حية كانت أو ميتة ، إذا عولجت معالجة نظيفة فإنها ليست من الكائنات ذوات الرائحة المستكرهة ولا الحواتون يميّزون بقوة الشمّ مثلما كان أهل القرون الوسطى يميّزون اليهودي من سواء في الجمهور . ولا يمكن للحوت أن يكون في الحق إلا شذي الرائحة مادام يتمتع بصحة جيدة ويأخذ نفسه بالرياضة الكثيرة وهو يعيش طليقاً غير حبيس في بيت ، وإن كان قلماً يتاح له حقاً أن يكون في الهواء الطلق ، وأنا أقول إنّ شطيرتي ذنب حوت العنبر حين تنتصبان فوق الماء ترسلان رائحة كالتّي تبعث من سيّدة مضمّخة بالمسك تجرّ ذيوله في بهوٍ دافئ . فإذا تمثّلت ضخامة الحوت فبأيّ شيء أشبهه من حيث شذاه العطر ؟ ألا أشبهه بذلك الفيل الشهير ذي النابيين المجوهريين المضمّخ بالمّر الذي خرج به الهنود من إحدى مدنهم ليستقبلوا به الاسكندر الكبير مرّتين^(١) ؟

(١) بعد قهر بؤرس قدم كثير من أمراء الهند الطاعة للاسكندر . وأهدوه عدداً من الأفيال .

طريح بين الأمواج

لم يمضِ على لقائنا الحوامة الفرنسية إلا بضعة أيام حين وقعت حادثة مشهورة هامة لأقل الملاحين على الباقوطة أهمية وشهرة . حادثة مؤسفة جداً مؤسفة ، انتهت الى أن تزود السفينة ، التي خطّ القدر لها مصيرها المحتوم والتي كانت تغدو أحياناً طياشة في مرحها وحبورها ، بنبوءة حيّة لاتنفلك تصاحبها أنى اتجهت عن أية عاقبة محطمة قد تكون من نصيبها .

ليس كل امرئ في الحوامة يبلغ أن ينزل في القوارب وإنما يبقى بعض العاملين الذين يسمون « قوام السفينة » ومجالهم أن يعملوها حين تأخذ القوارب في مطاردة الحوت . وهؤلاء القوام بعامة من الأشداء كالذين تألف منهم عصبة الملاحين في القوارب ، فإذا اتفق أن كان في السفينة امرؤ بالغ النحافة ، عوير رعديد ، فمن اليقيني أن يظلّ مثل هذا المرء مع القوام ، وهذا هو ما حدث في الباقوطة للزنجي القميّ المسمى باسم بيبين ، فإذا رخم أصبح بيب . مسكين هو بيب! لقد سمعتم به من قبل ، ولا بد أنكم تذكرون طنבורه في تلك الليلة الصاخبة التي كانت مشبعة بالمرح والكآبة معاً .

وإذا اطلعت على ظاهر الرجلين : بيب والمجان وجدتهما « مهري زهان » أحدهما مهر سيسبي أسود والآخر أبيض ، حجمان متشابهان وإن اختلف اللونان ، وقد أطلقا في شوط دائري واحد . ولكن بينما كان الفتى المجان المنكود بليداً خامل الذكاء جبلة وطبعاً ، كان بيب في أعماقه ذكياً أمتعياً - وإن كان مسرفاً في رقة القلب - وأمعيته من ذلك النوع الطريف الأصيل المرح الذي تميّز به قبيلته . وهي قبيلة تستمتع بجميع أيام الإجازات والأعياد استمتاعاً جميلاً طليقاً لاتوازيها فيه أية قبيلة أخرى . إذ أن التقويم السنوي لدى السود يجب ألا يكون سوى ثلاثمائة وخمسة وستين نيروزاً وذكري حرية . ولا تبتموا

ساخرين إذا قلت إن هذا الأسود كان ألمعياً ذكياً لأن للسواد نفسه لمعاناً : وشاهدي على ذلك الأبنوس اللامع الذي تزين به غرف الملك . غير أن بيب كان يحب الحياة وماتكفله الحياة من ضمانات مطمئنة ، حتى أن العمل المرعب الذي وجد نفسه في ربقته ، على نحو ما دون أن يجد لذلك تعليلاً ، قد شوّه لمعانه تشويهاً مؤسفاً ، هذا مع أنني سأبين بعد قليل أن ما أخدم فيه مؤقتاً قدر له في النهاية أن يضيء ، في شحوب بقوة نيران شاذة غريبة ، فإذا لمعانه يصبح ، على نحو لا يصدق ، عشرة أمثال ما كان له من لألاء طبيعي يوم كان يحيي ليالي الطرب الكثيرة على العشب الأخضر في مقاطعة تولاند من نانتوكت . وعلى المدّ المستوي النعيم قد حوّل ، بهأهاته المرحّة ، جميع الأفق المستدير الى طنبور واحد تدقّ فيه أجراس النجوم . في وضوح النهار تتألق النقطة الماسية الصافية بلألاء سليم إذا جعلتها معلقة إزاء عنق أزرق العروق . غير أن الجواهري الذكي يعرض عليك الماسة في أشدّ أحوالها لألاء أخاذاً حين يضعها إزاء جسم معتم تمّ يسلطّ عليها ضوءاً من الغازات الصناعية لا ضوءاً من أشعة الشمس ، ثمّ ينبعث ذلك الإشراق الناري المتوهج ، الرانع على أنه ابن الأرض ، ثمّ تبدو الماسة التي تشعّ اشعاعاً شيطانياً وكأنها جوهرة تاج سرقت من أحد ملوك الجحيم بعد أن كانت أقدس رمز للسماوات البلورية . ولكن لنعد الى سياق القصة .

وأتفق أن المجدّف في المؤخّرة من قارب اسطب في حادث استخلاص العنبر الرمادي أوهى يده ، وعجز عن العمل ، فمهد الى بيب أن يخلفه مؤقتاً في القارب . وأبدى بيب أول مرة نزل فيها في القارب بصحبة أسطب كثيراً من التوقّر العصبي (النرفزة) ولكنه لحسن حظّه حينئذ نجا من احتكاك مباشر بالحوث ، ولذا انتهى دون أن يعلق به خزي كبير ، وإن كان اسطب اهتمّ من بعد وقد لحظ حاله بأن يشجّعه لكي يستشير شجاعته الى أقصاها إذ قد يجد نفسه بحاجة اليها .

وعند إنزال القوارب كرة أخرى ، جدّف الملاحون به نحو الحوث فلمّا تلقى هذا الحديد المزروق رداً عليها باللطمة الممهودة منه واتفق أن وقعت تماماً حينئذ تحت مقعد بيب المسكين . فجعله الفرع اللاإرادي في تلك اللحظة يقفز من القارب والمجدّاف في يده وبهذه الطريقة وقع ذلك الجزء من جبل التحويت المسترخي فوق صدره إذ جرّه على صدره وهو يهوي ، فإذا هو محتبل به حين ذهب يغوص في الماء . في تلك اللحظة أخذ الحوث المصاب يجري بشدّة ، وأخذ الحبل يشتدّ مستقيماً بسرعة . وعلى التوجّاه بيب التمس مكللاً بالزبد عند معقفات القارب الخطافية وقد جرّه الحبل الى هنالك دون شفقة بعد أن لفّ عدة لفّات حول صدره وعنقه .

كان طاشطيقو يقف في مقدمة القارب ، وكانت تملأ صدره حرارة الصيد ، وكان يمقت بيب إذ يرى فيه رعديداً جباناً ، ولكنه استل مدية القارب من غمدها وسدده شفرتها فوق الحبل والتفت الى اسطب وصاح متسائلاً : « أقطع ؟ » بينما كان وجه بيب المزرق المختنق كأنما يقول له : « اقطع بالله عليك » . كل شيء مرّ لمحاً . في أقل من نصف دقيقة حدث كل ذلك .

« لعن . اقطع » - بذلك زمجر اسطب ، وبذلك ضاع الحوت ونجا بيب .

وما أن عاد الزنجي القميء الى وعيه حتى احتوشته صيحات الملاحين ولعناتهم ، وفي هدوء ترك اسطب هذه اللعنات المصنوبة على غير نظام تتبخّر ، ثم تناول بيب بلعنة الرئيس للمرؤوس ، على نحو واضح صريح مقيد بتقاليد المهنة ، وإن كان مشوباً بشيء من الفكاهة ، ثم قدّم اليه وقد انتهى من ذلك ما يقدمه الرفيق لرفيق من نصيحة نافعة . وخلاصة تلك النصيحة : لا تقفز من القارب يا بيب إلا - ثم كان ما ورد بعد « إلا » غير محدد شأن أعمق النصائح دأماً . حقاً إن الشعار الحق للملاح بعامته هو « الزم القارب » ولكن في بعض الحالات يصبح : « اقفز من القارب » خيراً منه . غير أن اسطب كأنما كان يدرك في النهاية أنه إن قدم لبيب نصيحة مركرة قائمة على وحي الضمير الحساس فإنه يترك له ندحة ليقفز في المستقبل ولذا فإنه تخلى فجأة عن النصح وختم كلامه بأمر جازم : « الزم القارب يا بيب وإلا وحق الإله لا أنقذتك إذا قفزت . تذكر هذا . لسنا لنفقد الحيتان بسبب أمثالك ، الحوت يأتينا بثمان يبلغ ثلاثين مرة قدر ثمنك في ألباما يا بيب! لا تنس ذلك وإياك أن تقفز مرة أخرى » . ولعل اسطب كان يلصق بطريق غير مباشر الى أن الصرء قد يحب أخاه الانسان ، غير أن الإنسان حيوان جماع مال ، وهذا الميل فيه يعترض مافيه من حنو وطيبة . لكن المقدّر كائن ، فقد قفز بيب مرة أخرى في ظروف شبيهة بظروف الحادث الأول إلا أن الحبل لم يصدده في الثاني ، ومن ثم فإن الحوت أخذ يجري شداً فخلف بيب على سطح الماء كأنه حقيبة مسافر منسية . وأسفاً! فقد كان اسطب وفيّاً بما قال . كان يوماً جميلاً كريماً أزرق اللون ، والبحر اللامع الصقيل هادي منعش ممتد على انبساط دائري حتى حوافي الأفق كأنه الغشاء الداخلي لأمعاء الشور وقد مذ الى أقصاه . وبدا رأس بيب الأبنوسي وهو يصعد ويهبط في ذلك الماء ، كأنه رأس من القرنفل ، ولم ترتفع أية مدية حتى سقط سريعاً نحو مؤخرة القارب ، وأدار له اسطب ظهره الجافي المتزمت ، أما الحوت ففدا مهيض الجناح . وفي مدى دقائق ثلاث أصبح يفصل بين بيب واسطب ميل من محيط لاشاطيء له . ومن وسط البحر حول بيب المسكين رأسه الأسود الهش الممقوص نحو الشمس ، طريح موج آخر وحيداً ، وإن كان أسمى الطريحين وأشدّهما لمعاناً .

إذا كان الجو ساكناً كانت السباحة في المحيط الرحب سهلة على السباح الدرب .
كالركوب في عربة في الربيع على البر . إلا أن الشعور بالوحدة الموحشة لا يطاق ، يالله! من
يدرّي كيف يكون الانطواء الذاتي الحادّ في قلب تلك الأبعاد القاسية التي لا قلب لها . تأملوا
البحارة حين يستحمّون في هدأة الجو في رحبة البحر ، تأملوا كيف ينشبون أيديهم في
سفيتهم ولا يبارحون جوانبها .

أترى اسطب خلّى ذلك الزنجي الصغير المسكين يواجه مصيره حقاً ؟ كلا ، بل إنه لم
يقصد ذلك على الأقل . كان على أثره قاربان وطنّ دون ريب أنهما سيسرعان الى بيب
ويلتقطانه ، هذا مع أن تعريض المجذفين أنفسهم للتهلكة بسبب من جبن أو هلع أمر
لا يظهره الصيادون دوماً في مثل هذه الأحوال ، ومثل هذه الأحوال تعرض على غير قلّة .
ويكاد الناس يجمعون في حرقه الصيد على أن من يسمّى جباناً يقابل بالمقت الصارخ الذي
يقابل به الجبان في الأساطيل الحربية والجيوش .

ولكنّ اتفق أن هذين القارين رأيا فجأة حيتاناً قريبة من أحد الجانبين فاستدارا دون أن
يريا بيب ، وأخذا يطاردان الحيتان ، وأصبح قارب أسطب عندئذ نائياً ، وكان هو وملاحوه
متهممين عامدين نحو الحوت ، فبدأ أفق بيب المستدير ينداح من حوله وينسط على نحو
تاعس . وبمحض المصادفة أنقذته السفينة نفسها أخيراً . ومنذ ذلك الحين أصبح الزنجي
الصغير أبله مروراً ، أو هذا هو ما قالوه فيه على الأقل . لقد ردّ البحر جسده المحدود في
سخرية ، ولكنه أغرق اللامحدود من روحه وإن لم يفرقه إغراقاً تاماً . بل أوثر أن أقول إنه
انساق حياً الى الأعماق العجيبة حيث أشكال غريبة من العالم الأولي العاري تنساب يمنة
ويسرة أمام عينيه الشاخصتين . وإذا الحكمة ، ذلك الانسان البحري البخيل ، قد فتحت له
كنوزها المكنوزة ، وبين أبعاد الخلود الجذلة التي لا قلب لها ولا تشيخ أبداً رأى بيب
الحشرات المرجانية الكثيرة التي حلّت فيها الألوهية ، والتي تخرج من جلد الماء وتدفع
الأفلاك الهائلة ، رأى قدم الإله على دواسة الحياكة في المنسج وناجاها . ومن ثمّ دعاه رفاقه
مجنوناً . وجنون الانسان لدنيّة السّماء . فإذا انخلع عن العقل وصل الى الكشف السماوي
الذي يبدو في نظر العقل هذياناً وجنوناً ، وسواء أكان ذلك لخير أم لشر فإنه يشعر أنه
كالإله لا يبالي ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون .

أما فيما تبقى فلا تعنفوا كثيراً في لوم اسطب . فمثل هذا أمر مألوف في حرقه الصيد ،
وسوف أقصّ عليكم في سياق قصتي هذه ما أصابني أنا من شعور بالفياع والخذلان .

عصر الاكر الشحمية

كلف حوت اسطب غالباً ولذلك جزّ الى جانب الباقوطة وجرت عليه عمليات التقطيع والرفع التي وصفت من قبل حسب نظام لا يخلت حتى لقد تم استخراج مافي دن هيدلبرج أو «دنية الحوت» .

وبينا كان بعض الرجال منهمكاً في هذه المهمة الأخيرة كان آخرون يعملون في جزّ البراميل الكبرى حالما تملأ بالزيت ، وحين يحلّ الوقت الملائم فإنّ هذا الزيت يدبّر بعناية قبل أن يذهب الى مصانع التصفية وهي ما ستحدث عنه عما قليل .

كان الزيت قد برد وتكوّرت فيه البلّورات حتى أنني حين جلست أمام حوض كبير منه (كأنه حمام قسطنطين) أنا وعدد من الآخرين ، وجدته قد تجسّد كئلاً تتدحرج هنا وهناك في القسم السائل منه . وكانت مهمتنا أن نعتصر تلك الكتل حتى تصبح سائلة ، مهمة عذبة دهنية! لاجب إن كان هذا الزيت في الأيام الخوالي دهاناً للزينة أثيراً . أيّ منظف! أيّ مزين! أيّ ملطف! أي مهدئ لذيذ! بعد أن وضعت يديّ فيه بضع دقائق احسست أصابعي كأنها سمك الانكليس فقد بدأت تتلوى وتتمعج .

كنت أجلس على الدكّة متقاطع الرجلين في ارتياح ، بعد الإنهاك المرير عند الدولاب الرافع ، تحت سماء ناعمة زرقاء ، والسفينة تحت شرّاع مسترخٍ تنساب في جلال ، كنت اغسل يدي بين تلك الكرات الناعمة اللطيفة من تلك الأنسجة المنقاة ، التي تحاك في خلال ساعة أو تكاد ، كانت تتعلّق تحت أصابعي وتمجّ كلّ خصبها كما تدفق الأغراب الناضجة خمرها ، كنت أستنشي ذلك العطر الخالص الذي لم تشبه شائبة - حقاً وصدقاً - كأنه رائحة البنفسج في الربيع . أصدقكم القول إنني عشت لحظة وكأني في حقل مسكيّ ، نسيت كلّ شيء عن قسمنا المفزع الذي أقسمناه ، في ذلك الزيت الذي لا يحده تعبير غسلت من

القسم المعقود يدي وقلبي معاً ، لكدت أؤمن بالأسطورة البراقليسية القديمة التي تقول إن زيت العنبر ذو فضل فذ في تخفيف حدة الغضب ، حين كنت أستحم في ذلك الحمام شعرت ، شعوراً سماوياً - بأني باري، من كل نية سيئة أو من كل نكد أو حقد أو أي شيء من ذلك .
عصراً! عصراً! طوال الصباح كله . عصرت ذلك الشحم حتى كدت أذوب فيه ، عصرت ذلك الشحم حتى استولى علي نوع فذ من الجنون ، ووجدتني أعتصر - دون أن أدري - أيدي زملائي العاملين معي في الحوض ، طائفاً أن أيديهم كرات لطيفة . ولد هذا العمل في شعوراً فياضاً ودياً حبيباً متحجباً حتى أنني في النهاية أصبحت أشد على أيديهم وأنظر في عيونهم في حنان كأنني أقول لهم : آه يارفاقي الأعزاء لم نظل بعد اليوم نستطعم أي صور الجفاء الاجتماعي أو نتعزف الى أقل الحسد أو نكد الطبع! هيا بنا نشد على أيدي بعضنا بعضاً ، لا بل نعصر أنفسنا بعضها في بعض ، لنعصر أنفسنا جميعاً نحن الأدميين في حليب اللطف الوديوع وزيته .

ليتني أستطعت أن أظن أعتصر ذلك الشحم الى الأبد! اذ دلّنتي التجارب الكثيرة الطويلة المكرورة أن المرء في كل الأحوال يجب أن يطمئن في آخر الأمر من خياله الواهم الذي يزين له أن الغبطة أمر ميسور ، أو على الأقل أن ينقل هذا الخيال عنها الى مجال آخر ، عليه أن لا يطلب الغبطة في شؤون الفكر أو الخيال وإنما يطلبها في الزوجة والقلب والفراش والمائدة والسرير والموقد والريف ، ومنذ أدركت ذلك كله أصبحت على استعداد لحالة الاعتصار أبداً . وفي تخيلاتني عن رؤى الليل رأيت صفاً طويلاً من الملائكة في الفردوس وفي يد كل ملك منهم جرة من زيت حوت العنبر .

يحسن بي أن أحدثكم ، في معرض حديثي عن زيت حوت العنبر ، عن أشياء ذات صلة وثيقة به ، تعرض في اعداد حوت العنبر لأعمال الإذابة والتصفية .

يجيء أولاً مايسمى «الردهة البيضاء» وتؤخذ من الجزء المستدق من الحوت ومن الأجزاء الأكثر سمكاً في شطيرتي ذنبه ، وهي صلبة متينة ذات ألياف متعقدة - حزمة من العضل - ولكنها مع ذلك تحتوي بعض الزيت ، وبعد أن تفصل هذه «الردهة البيضاء» عن الحوت تقطع في مستطيلات يمكن نقلها قبل أن تذهب الى المفرمة ، وهذه المستطيلات تبدو كأنها قطع من رخام بركشير .

أما «حلاوة البرقوق» فهو الاسم الذي يطلقونه على نوع من المزج من لحم الحوت ،

تظل عالقة هنا وهناك ببطانية الشحم وكثيراً ما تشاركها دهنيّتها الى حدّ غير قليل . وهذه « الحلاوة » شيء منعش بهيج جميل للناظر ، وهي - حسبما يوحي اسمها - ذات صبغ بالغ الخصب والبقع ، وقاعدتها ثلجية ذهبية مولّعة ، منقطة ببقع من أعمق لون قرمزي وأرجواني ، إنها برقوق من اليواقيت في صور من البرتقال . وقد ينهك العقل عن أكلها فلا تكاد تملك نفسك دون ذلك ، وإنّي لأعترف أنّي تسلّلت خلف الصاري الأمامي لأجرب طعمها ، وإذا ذقتها تصورت أنّ مذاقها يمكن أن يكون كمذاق شريحة لحم ملكي انتزعت من فخذ لويس السمين إذا افترضت أنه قتل أوّل يوم بعد موسم صيد الغزلان ، وإنّ ذلك الموسم عينه كان معاصراً لقطاف جميل غير عادي من الكروم في مقاطعة شمبانيا .

وهناك مادة أخرى فريدة غاية في تفردها ، تبرز خلال هذا العمل ولكنني أحسّ بالحرَج من أن أصفها وصفاً كفاء بتحديددها ، يسمونها « الرديّة » ، وهو اسم من وضع الحواتين وينطبق على طبيعة تلك المادة فهي رديّة نشاشة غروية يقصر عنها التعبير ، وأكثر ما توجد في براميل الزيت بعد العصر الطويل وما يتلوه من تعبنة ، وأنا أراها الأغشية الرقيقة المدهشة في رقتها ، المتمزقة التي تكون في القحف ، وقد تضامّت والتحمت .

« والفري » كلمة صالحة في حال الحوت الأثين ولكن يستعملها أحياناً صيادو حوت العنبر ، وهي تدلّ على مادة سوداء لزجة غروية تنزع عن ظهر حوت جرينلاندا أو الحوت الأثين ، وكثير منها ينفّط قمم تلك النفوس المتدنية التي تذهب لصيد ذلك اللويئات المهيّن .

ثمّ النَّشاش : وهي لفظة ليست من صميم معجم التحويت ولكن إذا استعملها الحواتون أصبحت كذلك ، والنشاش لدى الحوات شريحة قصيرة ركيّنة من مادة ليفية تقطّع من الجزء المستدقّ من ذنب الحوت ومعدّل سمكها بوصة واحدة ، أمّا سائرهما فيكون في حجم الجزء الحديدي من الفأس ، فإذا حرّكت حدها على ظهر السفينة الزيتي عملت عمل الميكشط الجلدي الذي نُحِتَ به بقايا الدهن والشحم وإذا دلّكت بها متلطفاً كشدت كلّ زهومة عالقة ، كأنها تفعل ذلك بقوة السحر .

ولكن خير طريقة تعلم بها جميع هذه المسائل الخفية هي أن تهبط حالاً الى غرفة الشحم وتحدّث حديثاً طويلاً الى نزلانها . لقد قلنا من قبل أنّ هذا المكان هو الموضع الذي تتسلّم فيه قطع « البطانية » حين تنزع وتسلخ عن الحوت ، وحين يجي الوقت الصالح لتقطع محتوياتها تصبح هذه الغرفة مشهد رعب لدى كلّ مبتدىء وبخاصة في الليل ، وقد تركت على أحد الجوانب فسحة يفيئها قنديل باهت ، فارغة ليحتلّها العمال ، وهم عادة

يذهبون اثنين اثنين أحدهما يحمل حربة وخطافاً والآخر يحمل مجرفة . وحربة التحويت تشبه سلاحاً للتخزين يستعملونه في الفرقاطة ويسمونه حربة أيضاً . أما الخطاف فيشبه سنارة القارب ، وصاحب الخطاف يعلق خطافه بقطعة من الشحم ، ويحاول أن يحول دون انزلاقها ، بينا السفينة تتأرجح وتتمايل . وفي الوقت نفسه يقف صاحب المجرفة على القطعة نفسها فيجزئها عمودياً في قطع كبيرة يستطاع حملها . وهذه المجرفة حادة بقدر ما يستطيع المسنّ شحذها ويكون صاحب المجرفة حافي القدمين ، وقد ينزلق الشيء الذي يقف عليه أحياناً دون أن يستطيع تثبيته ، فهل تستغرب كثيراً أن يقطع أحد أصابع قدميه أو أقدام مساعديه ؟ إن أصابع الرجلين قليلة لدى رجال غرفة الشحم المجربين .

الكازاك^(١)

لو أنك خطوت على ظهر الباقوطة في لحظة حرجة بعد صلاة الجنائز على ذلك الحوت ، ولو تمشيت حتى بلغت قريباً من الدولاب الرافع ، فأنا على مثل اليقين أنك كنت ترى ، بقسط غير قليل من الفضول ، شيئاً غريباً لغزياً بالغ الغرابة ، تراه هنالك وقد تمدد طولاً على المصارف اليمنى . ولو أنك شهدت النافورة العجيبة في رأس الحوت الضخم ، أو ضخامة فكّه السفلي الذي يتحرك على غير عقب ، أو المعجزة المائلة في ذنبه المنتظم ، لم يدهشك أحد هذه الأمور كما تدهشك التماحة عابرة ترى فيها ذلك المخروط الذي لاتجد له تعليلاً ، أطول من أطول رجل كنتوكي ، قطره عند القاعدة يقارب القدم ، أسود حالك السواد مثل وجود ذلك الصنم الأبنوسي الذي كان يتعبد له كويكوج . والحق أنه صنم أو قل كان يشبه الصنم في الأيام القديمة كذلك الصنم الذي وجد في الحدائق السرية التي كانت تملكها الملكة معكة في يهوذا ، وبما أنها كانت تعبده فقد خلعا ابنها آسا من الملك وقطع معبودها وأحرقه لإظهار مقتته له في وادي قدرون ، حسبما قصّ علينا ذلك سفر الملوك الأول في الإصحاح الخامس عشر ، على نحو مبهم .

تأمل البحار الذي يسمونه «القرام» ، يأتي عامداً ومعه اثنان يساعدهان ، ويحمل «المعظم» كما يسميه الملاحون ، ويترنح تحته وظهره محني ويمضي متثاقلاً كأنه جندي يحمل رقيقاً له سقط ميتاً في الميدان . ثم يمدّه على ربعة المنارة ويأخذ بإزالة إهابه الأسود عنه على نحو اسطواني مثلما يسلخ الصياد الإفريقي جلد الحية الكبيرة . فإذا فعل ذلك قلب الجلد مثلما تقلب رجل السروال فمطها ما امتدت حتى يجعل قطرها ضعفي ما كان ، وأخيراً

() Cassock وهو رداء القسيس .

يلقها ممدودة على الحبال كي تجف ، وبعد قليل ينزلها ويزيل منها نحو ثلاثة أقدام من جهة الطرف المستدق ، ثم يثقب فيها شقين لدخول الذراعين في الطرف الآخر ثم ينساب فيها طولاً . وعندئذ يقف « الفرام » أمامك وقد ارتدى ماتتطلبه شعائر حرفته من زبي كهنوتي . ولأحد من أبناء مذهبه يعرف متى اتخذ هذا الزي ، إلا أنه الرداء الوحيد الذي يقيه وقاية كافية حين يذهب في أداء ماتتطلبه وظيفته من مهمات .

وتشمل تلك الوظيفة فرم القطع الكبيرة من الشحم لتوضع في المراحل ، وهو عمل يقوم به « الفرام » فوق وضم خشبي في شكل حصان قد غرس من آخره في هيكل السفينة ، وتحت برميل واسع تسقط فيه القطع المفرومة سريعاً كأنها صفحات تسقط عن منصة خطيب سابح في ملكوت الغيب . رجل يلبس الزي الأسود الوقور وقد وقف على منبر سام وأكب على صفحات التوراة ، ما أجدر هذا الفرام أن يكون مرشحاً لرئاسة الأساقفة ، وما أحرأه أن يكون فتى في حاشية البابا*!

* صحائف التوراة صحائف التوراة تلك هي الصيحة الراسخة التي يرسلها الضباط الى الفرام . وهي تحه على أن يكون شديد العناية فتحي . القطعة أرق ما تكون ، فهذا يمكن الاسراع في غلي الشحم ، وزيادة الكمية المأخوذة منه زيادة ملحوظة ، وربما أعان ذلك على تحسين نوعه .

معامل التصفية

تتميز الحوامة الامريكية تميزاً ظاهراً بما فيها من معامل تصفية فضلاً عن أن قواربها تكون مرفوعة . فهي تقدم للناظر أغرب شذوذ تقع عليه عيناه في صورة مبنى مرصوص قوي مجاور للخشب والقنب ، ومنها جميعاً تتكون السفينة كاملة ، وكأنما نقل اليها من الحقل الفضاء أتون آجر وجعل فوق الواحها .

وتقع معامل التصفية بين الصاري الأمامي والصاري الرئيس وهو أوسع جزء في ظهر السفينة ، والأخشاب تحتها ذات قوة متميزة سالحة لحمل ثقل من كتلة صلبة من الآجر والملاط تبلغ نحو عشرة أقدام طولاً في ثمانية عرضاً في خمسة ارتفاعاً . ولا ينفذ الأساس في ألواح الظهر غير أن المبنى مؤمن الثبات على السطح بزوايا ثقيلة من الحديد تطوقها من جميع جوانبها وتعبتها بالدراسخة في الخشب .

أما حوافها فإنها محفوفة بخشب وعند القمة تغطيتها تماماً فوهة واسعة منحدرية مسدودة ، فإذا رفع سددها ظهر مرجلان من مراحل التصفية ، وكل واحد منهما يتسع لعدة براميل . فإذا لم يكونا في حال استعمال ظللاً نظيفين على نحو فذ . وأحياناً يجلبان بحجر الصابون والرمل حتى يلتمع داخلهما كأنهما قدحا فضة يتخذان للشرب ، ويندس في نوبات الحراسة الليلية بعض شيوخ الملاحين الأوغاد ويتطوون طلباً لسنة من نوم . وحين يستخدم الرجال في «تبييض» المرجلين وفي كل مرجل رجل ، تجري بينهما وهما متصاقبان مناجيات بأسرار كثيرة فوق الحوافي الحديدية ، وهذا أيضاً مكان صالح للتأمل الرياضي العميق ، ففي مرجل التصفية الأيسر بالباقوطة وحجر الصابون يلتف دائراً من حولي بنشاط ، خطر لي أول مرة بطريقة غير مباشرة حقيقية فذة في الهندسة وهي أن جميع الأجسام التي تنساب على قوس ، كحجر الصابون الذي استعمله مثلاً ، ستسقط

من أية نقطة في الوقت نفسه بالضبط .

فإذا أزيل لوح النار من أمام معامل التصفية ، انكشف المبنى العاري من ذلك الجانب وقد نفذت فيه فوهتان حديديتان للتناير تحت المراحل مباشرة ، وقد نصب علي هاتين الفوهتين بابان ثقيلان من حديد ، ويحال بين حرارة النار الشديدة وبين الوصول الى ظهر السفينة بواسطة حوض ضحل يمتد تحت جميع السطح الذي يحرق بالمعامل ، ويظل هذا الحوض يمد بالماء بسرعة كسرعة تبخره عن طريق نفق نافذ من الخلف . وليس هناك مداخن نافذة الى الخارج ، وإنما تفتح مباشرة من الجدار الخلفي . وهنا لنعد لحظة .

حوالي الساعة التاسعة ليلاً بدأت معامل التصفية في الباقوطة عملها ، أول مرة في هذه الرحلة الراهنة ، وكان قد عهد الى أسطب أن يشرف على العمل .

«أنتم جميعاً مستعدون هناك ؟ انزعوا سداد الكوة ، وابدأوا ، وأنت أيها الطباخ ، أشعل النار . » وكان ذلك أمراً سهلاً لأن النجار كان يلقي النشارة طوال الرحلة في الأتون . ولنقل في هذا المقام أن أول نار توقد في معامل التصفية في سفرة التحويت لا بد أن تُمد بالخشب بعض الوقت ، ثم لا يستعمل الخشب أبداً إلا أن يكون وسيلة لإشعال الوقود الرئيسي في سرعة . وفي إيجاز أقول إن الشحم الهش المتكمش الذي أصبح يسمى المِرْع أو الأرب ما يزال فيه قسط وفير من خصائصه الدهنية ، وهذه المِرْع تتخذ وقوداً للنيران ، وهكذا يمدّ الحوت النيران بوقوده ويحترق بلهب جسمه كأنه شهيد أقي في النار فهو يغذيها بدمه ، أو كأنه كاره للبشر فهو يستهلك ذاته في أتون كرهه . ليت الحوت يستهلك دخان ذاته ، لأن دخانه مرعب اذا استنشقي ، ولا بد للمرء من أن يملأ به صدره ، وليس هذا فحسب بل عليه أن يعيش فيه بعض الوقت ، وله رائحة هندية غريبة لاتوصف كالرائحة التي تكمن في جوار محارق الجثث . رائحة كرائحة الجانب الأيسر من يوم الحساب ، وهي حجة تشهد بهول جهنم .

وعند منتصف الليل كانت المعامل في أقصى نشاطها ، فقد تخلّصنا من جثة الحوت ، وأبحرنا ، والرياح رخاء وظلام المحيط الموحش متراكم حالك ، ولكن ألسنة اللهب الحادة لعقت ذلك الظلام ، وكانت بين الحين والحين تمتد متطاولة من الوقود السناجي وتضوي كل حبل عالٍ من حبال السفينة كأنها النار اليونانية المشهورة . ومضت السفينة اللاهبة في طريقها كأنما قد فوّض اليها القيام بعمل انتقامي ، كذلك السفن الصغيرة المحملة بالقار والكبريت ، سفن كاناريس الهيدري الجسور وقد انطلقت في منتصف الليل من موانئها

جاعلة صفحات اللهب عوضاً عن الأشعة ، انقضت على الفرقاطات التركية وطوتها في أحشاء النيران^(١) .

وحين أزيل السداد عن فوهة المعامل ، أصبح أمامها موقد واسع ، يقف عنده الزرقون الوثنيون الذين يشبهون التتر في صورهم ، وهم دائماً الوقّادون في سفن التحويت ، وفي أيديهم سفايد ضخمة مشعّبة بها يلقون في المراحل السامطة كتلاً من الشحم ذات أليط أو يؤرثون بها النيران تحت المراحل حتى تنطلق أفاعي اللهب متلوّية متحوّية من الأبواب وتنهس أقدامهم . والدخان يتحصّد منطلقاً دفعاً دفعاً في لونٍ كدريّ ، وكلّما مالت السفينة ميلاً مال معها الزيت المغليّ ، وبدا كأنه ذو لهفة ليثب في وجوههم ، وفي مقابل فوهة المعامل على الجانب الآخر من الموقد الخشبي الوسيح يقوم الدولاب الرافع ، ويتخذ مرتفعاً أو مضطجماً ، هنالك يحوم الحراس حين لا يكون لديهم عمل آخر وهم يحدقون إلى حمرة النار اللاهبة حتى تحسن أعينهم أنها تلدّعت في محاجرها . وعلى ضوء اللهب المتقلّب المتموج في المعامل ظهرت - ظهوراً غريباً - ملامح أولئك البحارة الصحم وقد سودها الدخان والعرق ، وتبدّت لحاهم المتليّدة ، على مفارقة ساطعة إزاء اللمعان الوحشي في أسنانهم ، وقصّ أحدهم على الآخر قصة مفامراته المستهترّة ، وحكوا حكايات الرعب في كلمات ضاحكة ، وتموج ضحكهم الوحشي سعداً من أفواههم كأنه ألسن اللهب في الأتون ، وفي الطليعة وقف الزرقون يحركون أجسامهم وفق تحريكهم للأشواك الضخمة المشعّبة والمفارف ، كلّ هذا والرياح تجأر والبحر يتوثّب والسفينة تنن وتغوص ، ثم رغم ذلك تطلق جهنم التي في جوفها بعيداً بعيداً في حلقة البحر والليل ، وتلك اللجام العظمي الأبيض في فمها ، باستخفاف ، وتبصق من حولها في جميع الجهات ، باستهتار : هذه الباقوطة المشحونة بالمتوخّشين ، المحمّلة بالنار وبجسّة تحترق ، الغائصة في حلقة الظلمات بدت وكأنها الصنو الماديّ لروح أمرها المجنون المتشبّث في جنونه بغاية لا يحيد عنها .

كذلك تبدّت لي حين وقفت عند دفتها وظللت الساعات الطوال أوجه في صمت تلك السفينة النارية في طريقها على الماء وكان الظلام حينئذ يلفني أنا أيضاً بردائه ، فاستطعت أن أستبين من موقفي ما يسبح فيه الآخرون من حمرة وجنون وصفرة كالحة ، واسترسل أمامي منظر الأشكال الشيطانية ، وهي تثب ونصفها في الدخان ، ونصفها الآخر في النيران ،

(١) قسطنطين كاناريس (١٨٧٠-١٨٧٧) هاجم في ١٨-١٩ حزيران ١٨٧٢ السفن التركية . والهيدري نسبة الى HYDRA التي اتخذها الثوار اليونان مركزاً لهم .

فولدت رؤيتها في روعي رؤى معائلة حالما بدأت استسلم لذلك النعاس الذي لأجد له تعليلاً ، النعاس الذي يعقد أجناني كلما كنت عند الدقة في منتصف الليل .

لكن في تلك الليلة بخاصة حدث لي شيء غريب (ومنذ ذلك الحين ظلّ لغزاً لأستطيع تفسيره) ، أجفلت من نومة غرار وأنا واقف فاستيقظ شعوري على شيء خاطيء فادح خطؤه ، كنت أستند بجنبي على المخل الذي يدير السكان ، وهو من عظم فك الحوت ، فأفقت على لطمة منه ، وعلى ظنين الأشرعة المهمهم في أذني وقد بدأت الريح تهزها ، ظننت عيني مفتوحتين ، وفي شيء بين الوعي والنام وضمت أصابعي على الأجنان وباعدت ما بين الجفنين لأتجهما ، ورغم ذلك كله لم أستطع أن أرى أمامي بوصلة أتوجه بحسبها ، وإن بدا لي أنني كنت أنظر الى اللوحة قبيل دقيقة واحدة ، على ضوء مصباح صندوق البوصلة الدائم الذي يلقي عليها نوره ، لم يبدُ أمامي شيء سوى ظلمة سوداء لامعة تزداد ويلاً بومضات من الاحمرار ، وفي أم رأسي وجدتني أتصور أنه مهما يكن الشيء الذي أقف عليه سريعاً مندفعاً فإنه غير عامد الى ميناء أمين أمامه ، بمقدار ماهو هارب من كل الموانئ الأمانة من خلفه . وتملكني شعور حيران متببس كأنه الشعور بالموت . قَبَضَتْ يداي في تشنج على المخل الذي يوجه السكان وأنا أتخيل تخيل الملتاث أن ذلك المخل قد قلب ، بطريقتة سحرية ، رباه! ما بالي ماذا جرى لي ؟ مه! ها أنذا في تلك النومة القصيرة حولت وجهي فأصبحت أواجه مؤخرة السفينة وأصبح ظهري نحو مقدمها يواجه البوصلة ، واستدرت في لحظة في الوقت المناسب لكي أمنع السفينة من أن تطير في قلب الريح ، ولو فعلت فربما انقلبت ، ما أكبر سروري وما أشد امتناني للخلاص من الهلاس الممرور في ذلك الليل ، والنجاة من تلك الساتحة القاتلة التي كانت ستجعلنا تحت رحمة الريح!

يا ابن آدم! لا تحذق طويلاً في صفحة النار ، وإياك أن تحلم ويدك على الدقة ، لاتدرْ ظهرك للبوصلة ، تقبل أول غمزة يغمرك بها المخل الجاذب ، لاتصدق النار المصطنعة حين تجعل حمرتها كل شيء يبدو شاحباً مخيفاً ، غداً تحت ضوء الشمس الأصلية تصبح السماوات صافية ، ومن كانوا يتألقون كالشياطين في ضوء اللهب المتموج سيبرزهم الصباح في وضع آخر ، أحب وألطف . القنديل الحق - الفجر الصادق - هو تلك الشمس المجيدة الذهبية الجذلى ، وماعداها فإنه فجر كاذب .

ومع ذلك فإن الشمس لاتخفي المستنقع المشؤوم في فرجينيا ، وكامبانيا الملعونة في روما ، والصحارى المترامية وملايين الأميال من الجذب والحزن الواقعين تحت ضوء القمر . الشمس لا تخفي المحيط ، ذلك الجانب المظلم من الأرض وهو يبلغ ثلثي مساحتها ، ولذلك

فإنّ الإنسان الذي كتب عليه الفناء ، الإنسان الذي يستطعم السرور أكثر من الأسي ، ذلك الغاني ، لا يمكن أن يكون صادقاً مع ذاته - إنه غير صادق ، غير راقٍ في التطوّر . والأمر في الكتب كذلك . أصدق الرجال « رجل الأحران » ، وأصدق الكتب « سفر سليمان » ، وفولاذ الحزن الرقيق المطرق هو سفر الجامعة : « كلّ ذلك باطل » - كلّه أجمع ، إنّ هذا العالم العنيد لم يقع بعد على حكمة سليمان ، وهي حكمة غير مسيحية . ولكن من يتفادى المستشفيات والسجون ويسرع وهو يعبر المقابر ويؤثر أن يتحدث عن الأوزا لاعن جهنّم ويدعو كوبر ويونج وبسكال وروسو مساكين تعساء من المرضى وفي أثناء لهوه يحلف برباليه أنه من العقلاء ، وأنه لذلك مفراح جدل - فمثل ذلك المرء ليس هو الذي يصلح أن يجلس على أحجار القبور ويشقّ ذلك القالب الرطب المخضوضر بعمق كعمق حكمة سليمان المتأملّة التي لا يسبر غورها .

ولكنّ سليمان نفسه يقول (أمثال ٢١ ، ١٦) ، « الرجل الضال عن طريق المعرفة يسكن (أي وهو مايزال حيّاً) بين جماعة الأخيلة (يعني مجتمع الموتى) » .
لاتسلّم نفسك الى النار لئلاّ تقلّبك وتميتك مثلما فعلت بي مؤقتاً . ثمّة حكمة هي ويل ولكن ثمّة وبلاداً هو جنون ، وفي بعض الأرواح نسر (كنسركاتسكل) يستطيع أن يخوت في أشدّ المنهقات ظلاماً وأن يحلقّ ساعداً منها حتى لا يحقه البصر في مجال الشمس ، ولو أنه ظلّ في المنهق مدوماً الى الأبد ، فإنّ ذلك المنهق ، إنّما يقوم بين الجبال ، فالنسر الجبلي في أدنى هويّه أعلى من سائر الطيور التي على السهل وإن ارتفعت في الأفق محلقة .

المصباح

لو أنك هبطت من معامل التصفية في الباقوطة الى منارتها حيث ينام الحراس الذين أدوا نوبتهم لظننت لحظة ، أو كدت تظن ، أنك تقف في ضريح منور دفن فيه ملوك شرعيتون ومستشارون . هنالك يستلقي الملاحون في أقبيتهم الخشبية المثلثة الأشكال ، وكل واحد منهم كأنه صمت محفور في موضعه ، وعلى رأسه المقلس يلتمع عشرون مصباحاً . الزيت في السفن التجارية نادر لا يناله البخار وكأنه أندر من حليب الملكات . وقد كتب على ذلك البخار أن يلبس في الظلام ويأكل في الظلام ، ويتعثر في الظلام نحو فراشه أما الحوات فإنه يعيش في الضوء لأنه يفتش عن غذاء القناديل ، فهو يجعل من سريره مصباح علاء الدين ويلقي بنفسه فيه حتى أن هيكل السفينة لايزال يؤوي ضوءاً في أشد الليالي سواداً كأنها القار .

تأمل بأي حرية يأخذ الحوات ملء يده من المصابيح - وعادة لاتكون إلا زجاجات وقوارير قديمة - الى المبرد النحاسي في معامل التصفية ويملؤها هنالك مثلما تملأ أباريق الجمعة من الدن ، وهو يوقد أنتقى زيت في حالته الخام أي قبل ان يفسد ، وذلك الزيت سائل لا تعرفه المبتكرات الشمسية أو القمرية أو النجومية على البر ، عذب كأنه زبدة الريف التي تجي، في بواكير الربيع . إنه ليذهب متلمساً زيتته لكي يكون على ثقة من أنه أصيل طازج مثلما يتلمس المسافر في السهوب صيداً يتخذه عشاء .

التعبئة والتفريغ

قد قصصنا عليك كيف يرى الليوثان العظيم من رأس الصاري عن بعد سحق ، وكيف يطارد فوق المروج المائية ويذبح في وديان البحر ، وكيف يجز ، ويحتز رأسه وكيف (قياساً على الصبدأ الذي يخول الجلاذ في العصور القديمة أن يأخذ ملابس القتيل الذي قطع رأسه) تصبح عباءته المحشوة ملكاً لجلاذه ، وكيف يحكم عليه بالنزول في المراحل ، في الوقت المناسب ، وكيف يمر زيته وعظمه مثل شدرخ وميشخ وعبدنفو الى النار دون أن يصيبه أذى^(١) ، ويتبقى علي أن أجيء بالفصل الأخير لهذا الجزء من الوصف بأن أرتل - أو إن استطعت أن أغني - تلك العمليّة الرومنطيقية من تعبئة زيته في البراميل ، وحشدها في العنبر حيث يرجع الحوت مرة أخرى الى الأعماق المألوفة ، منزلقاً دون مستوى السطح كما كان يفعل من قبل ، ولكنه وأسفاه لن يبرز مرة أخرى ويرسل نفضاته أبداً!

ويؤخذ الزيت وهو ساخن كشراب البنش الساخن ويعبأ في الخزانات التي يتسع الواحد منها لستة براميل ، وبيننا تتطوح السفينة وتتأرجح يمينا ويسرة في البحر عند منتصف الليل تتسنى الخزانات الضخمة وتنقلب رأساً على عقب وأحياناً تهرب متزحلقة - في خطر الانفجار على ظهر السفينة اللزج ككثير من الأجسام المتدحرجة على السطوح المائلة في البرحى يتلقاها أحد الرجال ويوقفها عن تدحرجها ، ومن حول الأطواق تمضي المطارق دقاً دقاً مهما يكن عددها إذ كل بخار بحكم الوضع الراهن يصبح صانع براميل .

وعندما تعبأ آخر قطرة من الزيت ، بعد وقت ، ويفتر كل شيء ، تفتح المنافذ الواسعة ، وتكشف أحشاء السفينة وتلقى الخزانات لتستقر في القاع - مستقرها الأخير -

(١) إشارة الى ماورد في سفر دانيال عن هولاة الثلاثة وكيف رفضوا السجود لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر ، فأمر بهم الى الأتون فألقوا فيه فخرجوا من النار دون أن تصيبهم بأذى (لنظر الأسحاح الرابع من سفر دانيال) .

فإذا تمّ ذلك سدّت المنافذ وأغلقت كأنها صومعة قد بنيت من حولها الأسوار .
 ربّما كانت هذه الحادثة في صيد الحيتان من أبرز الحوادث في مهنة التحويت جميعاً ،
 في أحد الأيام تعجّ الألواح بجدول من الدم والزيت الناضرين ، وعلى الربعة المقدسة تكوّم
 كتل ضخمة من رؤوس الحوت دون احترام ، وتستلقي هنا وهناك خزانات ضخمة صدئة
 كأنها في ساحة مصنع للخمور ، ويصعّ الدخان المتصاعد من معامل التصفية هيكل السفينة
 بالسناج ، وينتقل البحارة وهم قد تحضّبوا بالدهن والوضر ، وتبدو السفينة وكأنها اللويثان
 العظيم نفسه ، بينا العمال يُسندرون في عملهم طينياً يصمّ الأذان .

ولكنك تتلّفت حولك بعد يوم أو يومين وترهف سمعك في السفينة نفسها ، ولولا
 القوارب ومعامل التصفية التي قد تنبتك بما كان لحلفت جهد يمينك إنك إنّما وقعت في
 سفينة تجارية وفيها رائس نظيف البزة ، مشهر النظافة . إن زيت الحوت الخام ذو قدرة فذة
 على التنظيف ولهذا السبب لا يبدو ظهر السفينة ناصعاً مثلما يبدو بعيد مايسمونه أعمال
 استخراج الزيت . ثمّ إنهم يصنعون على التوّ من رماد الفضلات الحوتية المحترقة ماء رماد
 قلوياً قوياً ، فإذا بقيت أيّ لزوجة من ظهر الحوت عالقة بالجانب فإنّ ذلك الماء يستأصلها .
 وتمضي الأيدي نشيطة على جوانب السفينة وهيكلها وتدلق عليها أسجال الماء وتعمل فيها
 المماسح فتعيدها الى سابق نظافتها ، ويزال السناج بالفرشة عن الحبال الدنيا ، وكلّ
 الأدوات العديدة التي استعملت تنظّف كذلك تنظيفاً دقيقاً وتودع في مواضعها ، ويفرك غطاء
 الفوهة الكبرى ثمّ يوضع فوق معامل التصفية وبذلك يستمر المراحل تماماً ، ويودع كلّ خزان
 بعيداً عن الأنظار ، وكلّ الروافع تلفت في زوايا خفية ، وحين تختتم هذه المهمة الحساسة
 بعون من جميع عصابة السفينة مجتمعين وفي وقت واحد ، يتوجّه البحارة الى الاغتسال
 ويغيّرون ملابسهم من قمّة الرأس حتّى أخصص القدم وأخيراً يتوجّهون الى الدكّة الطهور
 ناضرين متألّقين كأنهم عرسان برزوا لتوههم في أبهى زيّ وأجمل حلّة .

ثمّ يذرعون الألواح في خيلاء مثنى مثنى وثلاث ثلاث ويتحدّثون في مرح عن القاعات
 والطنافس والسجاد والقماش الأبيض الناعم ، ويقترحون أن يفرشوا ظهر السفينة بالبسط ،
 ويرون أنّ القمّة لابدّ أن يكون فيها مشاجب ، ويقولون لابس بشرب الشاي في ضوء القمر
 على باحة المنارة . من القمّة العارمة أن تلمح الى هؤلاء البحارة الذين يعبق بهم المسك عن
 الزيت والعظم والشحم ، إنهم لا يعرفون شيئاً عمّا تلمح اليه ، هيا اذهب وهات لنا الفوط
 والمناشف!

لكنّ تأمل . في الأعالي هنالك ، عند رؤوس الصواري الثلاثة يقف ثلاثة رجال محمّلين

في حدة لعلهم يرون مزيداً من الحيتان ، ولو أنهم أمسكوها للوثت هذا الأثاث الخشبي العتيق مرة أخرى ، وألقت على الأقل بقعة واحدة من الشحم في مكان ما ، أجل . بعد أعمال قاسية لا تفتقر ولا يعرف فيها سبات وتستمر كذلك سناً وتسعين ساعة دون انقطاع ، وما أكثرها يخطو هؤلاء الملاحون ، من القارب حيث انتفخت أرساعهم من التجذيف على خط الصيد طوال اليوم ، منتقلين الى ظهر السفينة ليحملوا السلاسل الضخمة ويرفعوا الدولاب الرافع الثقيل ، ويقطعوا ويؤربوا ، أجل والعرق ينضح منهم ، والدخان يلثمهم والنييران تلسعهم ، نييران شمس الاستواء وأتون معامل التصفية ، ثم يذهبون في أعقاب ذلك كله وينهضون بأنفسهم أخيراً لتنظيف السفينة فيجعلون منها غرفة ناصعة لابقعة فيها ، وما أكثر ما تفزع هؤلاء المساكين - وهم يزررون بناتق صدائرهم النظيفة - صيحة تقول : « ذاك هو ينفث » فيهبتون سراعاً للقاء حوت آخر ويستأنفون العمل المضني ويمضون فيه مرة أخرى .

أواه يا أصدقائي هذا شيء قاتل! ولكن هذه هي الحياة ، إذ مانكاد ، نحن الفانين ، نستخلص بعد الكد والجهد من هذا العالم الجسيم زيتة الثمين ثم ننظف أنفسنا من أوضاره في صبر مضن وتعلم كيف نميش هنا في هياكل الروح النظيفة ، مانكاد نفعل ذلك حتى يصبح بنا المنادي ، « ذاك هو ينفث! » - لقد انبشمت نفثات الشبح ، فإليه نبجر كي تكافح عالماً آخر ، وتتغلغل في الروتين القديم الذي تستدعيه حياة الشباب مرة أخرى .

آه باللتناسخ! أواه يا فيثاغورس! يامن مت منذ ألفي سنة في يونان المتألقة ، مت فاضلاً حكيماً وديعاً . لقد أبحرت معك الرحلة الأخيرة على طول ساحل بيرو ، وعلمت أنك أنا الأحمق ، أنا الغلام الساذج الفج ، كيف تفتل حبالاً!

الدبلون أو الدينار الاسباني

قبل هذا قصصت عليك كيف تعود آخاب أن يذرع الربعة خلف الدقل الأعظم ، مستديراً استدارة منتظمة عند كل طرف من الطرفين : عند صندوق الإبرة المغناطيسية والصارى الرئيس ، ولكن في غمار الأشياء الأخرى التي تستدعي أن أسردها لم أقل لك كيف تعود في بعض تلك التمشيات ، حين يكون أشد شيء استفراقاً في حاله ، أن يتوقف عند كل موقع من الموقعين بدوره ، ويشخص هنالك محققاً في ما يعرض لعينه تحديقاً غريباً ، وحين كان يقف أمام صندوق الإبرة ، وقد حدد طرفه في الإبرة ذات الرأس الدقيق في البوصلة ، كانت نظرتة تنطلق كالسهم مع الحدة الحادة التي ينطوي عليها هدفه ، فإذا استأنف سيره توقف ثانية أمام الصاري الرئيس ، وركز النظرة المحكمة على القطعة الذهبية المثبتة هناك ، وهو ما يزال يحمل مظهر التصميم النافذ إلا أنه يسوطه توقان وحشي إن لم نقل رجاء أمل .

وحين تحول ذات صباح ليمرّ بالدبلون « الدينار الاسباني » بدا وكأنه مجذوب انجذاباً طارئاً الى الأشكال والنقوش الغريبة المطبوعة عليه كأنما هو قد بدأ لأول مرة يؤول لنفسه ، على نحوٍ ملتاث مجنون ، المغزى الذي قد يكمن فيها . وفي الأشياء كلها مغزى كمين وإلا لكانت جميع الأشياء ذات قيمة هينة ، وكان العالم المستدير نفسه لا يعدو أن يكون صفراً أجوف ، لا ينفع إلا لبيع بالجملة ، كما تباع التلال حول بوسطن ، ليملا أرضاً بوراً في نهر المجرة .

كان هذا الدينار الاسباني من الذهب البكر الخالص اقتطع من جوف التلال الضخمة حيث تجري مياه كثير من الأنهار - كنهر بقطولس^(١) - شرقاً وغرباً على رمال حافلة بالتبر ،

(١) هذا النهر ذكره جيروودوت وقال إنه يحمل معه التبر في ولاية ليديا ويصب في نهر هرمس . وأصبح النهر ذهباً خالصاً - في زعم الأسطورة - حين استحم فيه ميداس . وقيل إن ثروة قارون جاءت منه .

وقد سَمَرَ وسط كل ضرب من صدأ المسامير الحديدية وزنجارة البراغي النحاسية ، إلا أنه ظلّ يحتفظ بالألوان الكيتوي لأنه كان نائياً عن أن يمسّ أو أن يدنّس بأي قدر أو نجاسة . وقد وضع بين أشدّ الملاحين فظاظة ، وكانت تمرّ به كل ساعة أخشن الأيدي ، وخلال الليالي الطوال كانت تغلّف الظلمات الكثيفة التي قد تحجب كلّ تسلّل وتلصص ، ومع ذلك فإنّ كلّ شروق كان يشهده حيث تركته شمس الأمس عند الغروب . ذلك أنه ميّز من أجل غاية محدّدة تبعث الرهبة ، ومن أجلها « كرس » وجوده . ومهما يكن البخارة زرافات ووحداناً مستهترين في نظرتهم فإنهم أولوه القداسة والاحترام إذ رأوا فيه طلّسم الحوت الأبيض ، وكانوا أحياناً يتحدثون عنه في ليالي الحراسة المضنية ويتساءلون في دهشة من نصيب من سيكون في آخر الأمر وهل يعيش من يناله لينفقه أبداً ؟

هذه العملة الذهبية الرفيعة من عملة امريكا الجنوبية إنّما هي كالميداليات التي تمثّل تدوير الشمس ، والقطع الاستوائية التي تتخذ للذكريات الهامة ، فيها أشجار الكاكاو وحيوانات الألباكا والبراكين ، قد طبعت عليها في وفرة مترفة أقرص الشمس والنجوم ، فيها مناظر الكسوف والقرون رمز الوفرة ، وأعلام كثيرة الألوان متموجة^(١) ، حتّى كأنما الذهب الغالي يكاد يستمد قيمة زائدة وألقاً إضافياً بمروره خلال دار السكّة العجيبة ، التي تحمل شاعرية اسبانية .

وأتفق أن كان الدينار الاسباني مثلاً على وفرة هذه الأمور فيه فعلى حافته المستديرة كتبت هذه الكلمات « جمهورية اكوادور : كيتو » إذن فهذا الدينار المتألّي قد جاء من بلد مغروس في نصف العالم دون خط الاستواء ، وباسمه سمي [لأنّ أكوادور تعني الاستواء] ، وسكّ في المنطقة الوسطى فوق جبال الأنديز في ذلك المناخ السرمد الذي لا يعرف خريفاً ، وفي داخل هذه الجملة الدائرية ترى شهباً بثلاث من قمم الأنديز ، إحداها يتصاعد منها لهب ، وعلى الأخرى برج ، وعلى الثالثة ديك يصيح . ويستدير فوق الجميع قوس يمثل قطاعاً من منطقة البروج مجزأة الأقسام ، وقد أعلم كلّ برج برموزه ، والشمس - وهي حجر الزاوية في المنظر - تهتمّ أن تحلّ النقطة الاستوائية في برج الميزان .

كان آخاب يقف أمام هذه القطعة النقدية الاستوائية ، دون أن تمضي وقفته غير ملحوظة من الآخرين :

« هناك دوماً شيء عجرفي في قمم الجبال والأبراج وفي سائر الأشياء الفخيمة الرفيعة ،

(١) كلّ رمز يشير إلى بلد : أشجار الكاكاو (بوليفيا) ، الألباكا (بوليفيا وبيرو) ، البراكين (جنوب بيرو وتشيلي) ، أقرص الشمس (الأرجنتين) ، النجوم (بوليفيا والاكوادور) ، الكسوف (البرازيل) ، القرون (بوليفيا وبيرو) ، الأعلام (بيرو) .

تأمل هذا ، هذه ثلاث قمم مستكبرة كأنها الشيطان ، ذلك البرج الراسخ ، ذلك هو آخاب ، وذلك البركان الثائر ، وهو آخاب ، وذلك الديك الفائز الشجاع الجسور ، ذلك هو آخاب أيضاً ، كل الثلاثة آخاب ، وهذه القطعة الذهبية المستديرة إنما هي صورة الكرة التي هي أكثر استدارة منها تلك الكرة التي تشبه مرآة الساحر في أنها تحكي لكل امرئ على حدة صورة نفسه العجيبة ، إن من سألوا العالم أن يحل لهم سر الآلام الكبرى خرجوا بقليل من جدوى ، فالعالم يعجز عن أن يفسر نفسه ، تصور هذه الشمس المحفورة على قطعة نقد تلبس وجهاً أحمر ، تأملها ، أجل ، إنها تدخل برج العواصف ، تدخل المنطقة الاستوائية ، وقبل ستة أشهر كانت تدور خارجة من منطقة أخرى استوائية في برج الحمل . من عاصفة الى عاصفة! ليكن الحال كذلك . من اللائق أن يعيش الإنسان في الآلام ويعاني عند الموت سكراته مادام يولد من بين آلام المخاض! ليكن الأمر كذلك! هذه مادة قوية يفعل فيها الحزن والأسى فعله ، ليكن الأمر - اذن - كذلك .

وتمتم استاربك لنفسه وهو يستند الى حافة السفينة ، « لاأظن أصابع حورية قد ضغطت على هذه القطعة الذهبية ، وإنما مغالب الشيطان قد تركت عليها طوابعها مذ أمس . بيد أن الرجل العجوز يقرأ كتابة بيلشاصر الذهبية^(١) ، لم تأمل هذه القطعة النقدية معانيها ، هاهو قد هبط الى أسفل فقرأ ما عليها : واد معتم بين ثلاث قمم جبارة تحتضن السماء كأنها الأقاليم الثلاثة متمخلة في رمز أرضي وام ، في وادي الموت هذا يطوقنا الله من كل ناحية ، وعلى جميع أحزاننا ماتزال شمس الحق تشرق هادياً ورجاء . فإذا أرخينا أبصارنا الى أسفل رأينا الوادي المعتم يبرز لنا ترابه المتعفن ، فإذا رفعناها الى أعلى واجهت الشمس نظراتنا في منتصف المسافة ، لتشجعنا وتهز أريحيتنا ، لكن واهماً للشمس العظمى فإنها غير ثابتة في مستقرها ولو أننا في منتصف الليل خطر لنا أن نسترق عزاء عذباً من لدنها لطال ترقبنا دون جدوى! هذه القطعة النقدية تتحدث بحكمة ولطف وصدق ولكنها تحدثني في أسى ، سأغادرها لئلا تهزني الحقيقة فتكشف زيفي .

وناجي اسطب نفسه عند معامل التصفية قانلاً : « ذلك هو المغولي العجوز ، كان يتأمل القطعة الذهبية ، وما هو استاربك ينصرف أيضاً عنها وكلاهما يحمل وجهاً أستطيع أن أقول فيه إنه قد يكون ممطوط «البوز» مطاً لا يتعدى تسع قامات . وكل ذلك من النظر الى قطعة من ذهب ، لو كانت لدي وأنا في «تلة الزنوج» أو في «ثنية كورليس» لما نظرت اليها

(١) هي : «منا منا ثقيل وفرسين» وهذا تفسير الكلام : منا : احصى الله ملكوتك وانها ، ثقيل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً ، فرسين : قست مملكتك وأعطيت لمادي وفارس (دانيال ٥ : ٢٥-٢٨) .

طويلاً قبل أن أنفثها . أف! في رأيي العاجز الضعيف أعذُ هذا شيئاً شاذاً ، لقد رأيت في رحلاتي دنائير ذهبية من قبل ، دنائير اسبانيا القديمة ، ودنائير بيرو ، ودنائير شيلي ، ودنائير بوليفيا ودنائير بوبايا^(١) ورأيت عدداً وثيراً من العملة البرتغالية الذهبية والعملة الاسبانية القديمة والعملة البرتغالية الذهبية التي تسمى « جو » وأنصاف « الجو » وأرباعه . فماذا في هذا الدبلون الاستوائي ، ماذا فيه مما يعجب الرائيين الى درجة أن يسلب ألبابهم ؟ ذلك الشيء هو الذي يسميه بودتش^(٢) في « موجزه » باسم منطقة البروج ، والتقويم في القمرة يسميه كذلك أيضاً ، سأجيه بالتقويم وسأعمل فيه يدي لأستخرج معنى من هذه الإلتواءات الغريبة ها هنا مع « أجندة » مساشوست ، مثلما سمعتهم يقولون إن الشياطين قد تستخرج بحساب دابل . هيا تبصّر ما هنالك! إشارات وعجائب ، والشمس ، الشمس بينها دوماً . ها . ها . ها هي هنا - ها هي ذي جميعاً ، جميعاً قائمة : الحمل والثور والجوزاء ، هذه هي الجوزاء نفسها . حسن . والشمس تدور بينها ، أجل ها هي ذي على القطعة النقدية تعبر أو تهتم بعبور العتبة القائمة بين منزلتين من اثنتي عشرة منزلة قائمة في حلقة واحدة ، أيها الكتاب! إنك لتكذب ، الحق أيتها الكتب أنه يجب عليك أن تعرفي حدك ، أنت تعطينا الكلمات والحقائق العارية ولكننا نحن نملؤها بالأفكار . الى هنا تبلغ تجربتي المتواضعة فيما يتصل بأجندة مساشوست وزيج بودتش وحساب دابل . إشارات وعجائب ، أليس كذلك ؟ ما أتعس أن لا يكون في الإشارات شيء عجيب ، وفي العجائب سر هام! لا بد من مفتاح للسرّ قائم في مكان ما . مهلاً ، صدقاً وحقاً جويتير لقد وجدته ، انظر أيها الدينار الإسباني إن منطقة بروجك هي حياة الإنسان في فصل واحد مستدير وسأقرأ هذا الفصل من الكتاب توّاً . تعال أيها التقويم الي ، لنبدأ . ها هو ذا الحمل ، كلب داعر يلدنا . ثم الثور ، يلزنا بقرنيه أول ما ينطح ، ثم الجوزاء ، التوأمان من فضيلة ورذيلة ، نحاول أن نبلغ الفضيلة فإذا السرطان يعترض ويجرنا الى الخلف ، وهنا - وقد تحوّل عن الفضيلة - أسد يزأر مستلقياً في الطريق - يعض عضات منكرة ويلطم ، ماكرأ ، بمخلبه ، فننجو من شره وننادي السنبلة البكر العذراء أيّ أول حب لنا ، ونترزّج ونظن أننا سنسعد وأي سعادة! وفجأة يبرز الميزان ، فيزن السعادة ، فيجدها خفيفة ناقصة ، فنستشعر الأسف لذلك ، وحين يبلغ بنا الأسف الغاية ، رباه! نطّ فجأة عندما تدغنا عقرب في القفا ، فنأخذ في معالجة الجرح ، وإذا السهام من كلّ صوب تمطرنا ، ربّ « القوس » يتسلى ، ونترزع السهام ،

(١) بوبايان ، مدينة في كولومبيا .

(٢) هو الرياضياتي الامريكى ناثانيل بودتش (١٧٧٢-١٨٢٨) نشر موجزاً في الملاحة عام ١٨٠٢ .

ونتحي جانباً فإذا بالجدي يبدو ، محدداً روقه وينقض علينا نطحاً وطعناً حتى ينكسنا رأساً على عقب ، وإذا الدلو يسكب طوفانه الغامر ويفرقنا ، فننام كي تتمكن من التدرج مع «الحوت» . في السماء العليا موعظة مكتوبة ، تخرقها الشمس كل عام وتخرج منها حياة مستبشرة ، في الأعالي هناك تدور مرحلة طروباً خلال الجهد والإضطراب ، وفي الأذاني يفعل اسطب مثلها ، « طروب » تلك هي الكلمة المعبرة ، وداعاً أيها الدينار! لكن مهلاً ها هو «الدعامة الكبرى» يجيء ، لأتسلل حول معامل التصفية وأتسمع مايقول . ها هو ذا أمامه ، سيتفوه بشيء على التو . كذا ، كذا ، ها هو ذا يبدأ :

- « لا أرى ها هنا إلا شيئاً مدوراً من ذهب ، ومن اصطاد حوتاً معيناً أصبح هذا الشيء المدور من نصيبه ، فلمَ قام من قبلي بكل هذا التأمل والتحديق ؟ نعم إنه دينار قيمته ستة عشر دولاراً ، هذا صحيح ، والسيجار يكلف سنتين اثنتين ، أي أنه يكفي لشراء تسعمائة وستين سيجاراً ، أنا لا أحب الغلايين القذرة التي يحبها اسطب وإنما أحب السيجار وها لدي منه تسعمائة وستون ، وها هو فلاسك يصد الى أعلى ليرصدها .

« هل أدعو هذا حكمة أو حماقة ، إن كانت حكمة فإن لها سمة من حماقة وإن كانت حماقة حقاً فإن لها بعض سمة من حكمة . ولكن على رسلك ، ها هو ذا الشيخ ابن جزيرة مان يظهر - ذلك الذي كان سائقاً لعربات الجنائز أعني أنه لا بد أن كان كذلك قبل أن يجتذبه البحر . ها هو ذا يتوجه نحو الدينار الذهبي . هالو! وها هو ذا يدور حول الجهة الثانية من الصاري ، ففي ذلك الجانب قد سمّرت حدوة حصان وها هو ذا يعود ثانية . ماذا يعني ذلك ؟ صه! إنه يتمم - صوت كأنه منبعث من طاحونة قهوة عتيقة بالية حدّد اذنك وتسمع! » .

- « إن كان الحوت الأبيض سيظهر للعيان فلا بد أن يكون ذلك في شهر ويوم حين تحلّ الشمس في أحد هذه الأبراج . لقد درست الأبراج وعرفت دلالاتها ، لقد علمتها قبل أربعين عاماً مضت علمتنيها الساحرة العجوز في كوبنهاجن . في أيّ برج ستحلّ الشمس ياترى ؟ فيما يشبه حذاء الحصان لأنها هنالك في مقابل الدينار الذهبي ؟ وماهي علامة حذاء الحصان ؟ الأسد هو برج حدوة الحصان - الأسد الفراس ذو الزئير . سفيتي يا سفيتي العتيقة! إن رأسي العجوز ليهتز حين يفكر فيك » .

« ها هنا الآن تفسير جديد لنص واحد لايتغير ، عالم واحد يحتوي أصنافاً متنوعة من الناس ، أليس كذلك ؟ حسنٌ مشي! ها هو ذا كويكوج - موشوم كله ، كأنما هو نفس أبراج الفلك ترى ماذا سيقول هذا المتوحش ؟ إنه لعمرى يقارن ما هو مكتوب على جسمه بما هو مكتوب على العملة ، إنه ينظر الى عظم فخذه ، يظن أن الشمس في الفخذ أو في عضلة

إذا نزعَت سرتك فماذا تكون العاقبة^(١)؟ غير إنه إن بقي هنالك كان أيضاً منظرأ بشعاً لأنك حين تسمّر بالصاري شيئاً فقد جعلت الأمور تبدو مستينسة ها! ها! يا آخاب العجوز! الحوت الأبيض! سيسمرك! فهذه شجرة سرو . والذي في بلاد تولاند قطع ذات مرة شجرة سرو ووجد فيها خاتماً فضياً ، لعلّه خاتم زواج أحد الزوج ، ولكن كيف بلغ الخاتم ذلك المكان؟ وكذلك سيقولون يوم الحشر حين يجيئون ليأخذوا هذا الصاري العتيق ويجدون ديناراً ذهبياً قد عشش فيه وحواليه محار قد اندس في اللحاء المشعث ، آه يا للذهب! الذهب الغالي الثمين! البخيل الفرّ سيفيك توأ الى مكنوزاته . صمتاً! صمتاً إن الله يتخلل العوالم ناهباً سالباً ، طباخ ياطباخ ، اطبخنا يا جنّي هاي هاي جنّي! وأسرع بصنع الكعكة! » .

(١) قارن هذا بما جاء في سفر أيوب ٤٠ : ١٦ « هوذا بهيموث... هاهي قوته لي شتيه ، ومدته في عنل بطنه » .

ساق وذراع. الباقوطة النانتوكتية تلقي بصومويل اندربي اللندنية

- « أنت أيتها السفينة هناك! هل رأيت الحوت الأبيض؟ » .

كذلك صرخ اخاب وهو يهتف مرة أخرى بسفينة ترفع علماً انجليزياً ، كان الرجل المعجوز يقف ، وقد جعل البيوق في فمه ، عند قاربه المرفوع وقد انكشفت رجله العاجية للقبطان الأجنبي الذي كان متكناً بغير مبالاة عند مقدم قاربه ، كان رجلاً غامق البشرة بديناً دمت الأخلاق جميل الطلعة يبلغ الستين أو يناهزها ، وقد ارتدى سترة واسعة تدلت عليه وقد وشحت بزخارف من قماش البحارة الأزرق وأحد أكامها خالٍ يتدلّى وراءه كأنه كم فضفاض مزخرف من عباءة يليسها .

- « هل رأيت الحوت الأبيض؟ » .

- « أترى هذه؟ » وسحبها من بين الشنايا التي تخفيها وإذا بذراع بيضاء من عظم حوت العنبر ينتهي طرفها برأس خشبي يشبه الدقماق .

- فصاح اخاب ، وقد استبد به الحرص اللهيف ، وقذف بالمجازيف القريبة منه : أعدوا قاربي! قربوا لإنزاله! » .

وفي أقل من دقيقة - ودون أن يترك قاربه الصغير - كان هو وبخارته قد نزلوا الى الماء وأصبحوا تواقاً على محاذاة السفينة الغربية . لكن صعوبة غريبة عرضت عندئذ ، فقد نسي أخاب في حومة انفعاله في تلك اللحظة أنه منذ فقد رجله لم يصعد الى سفينة في البحر إلا سفينته ، وإن ذلك كان دائماً يتمّ بوسيلة آلية فذة ميسرة مقصورة على الباقوطة ، وإن ذلك شيء لا تتوفر له الحبال والوسائل في أية سفينة أخرى في مدى لحظة . وليس من الهين الميسر لكل إنسان - إلا أولئك الذين مارسوا الأمر كل ساعة أو كادوا من أمثال الحواتين - أن يتسلقوا جانب سفينة صاعدين إليها من قارب في عرض البحر ، لأن الأمواج الهائلة ترفع القارب الى

أعلى نحو هيكل السفينة ثم تهوي به على التوالي الى أن يبلغ منتصف المسافة من الكلزون .
وإذ كان آخاب قد حرم إحدى رجليه وكانت السفينة الأجنبية - طبعاً - غير مزودة أبداً
بالوسيلة الرفيعة التي تعودها ، فإنه وجد نفسه وقد تحول في زריه الى رجل عاجز من رجال
البر ، يرمق العلو المتقلب الثاني في يأس ، ويكاد لا يدركه الرجاء أنه بالفه .

لعلني ألمحت من قبل الى أن كلَّ حادثة صغيرة مثيرة أَلَمَتْ بآخاب وكانت ناجمة -
بطريقة غير مباشرة - عن الآفة المحدودة التي أصابته فإنها كانت دوماً تستفزّه أو تأخذ
بخناقه ، ومما زاده استفزازاً في الحادث الراهن أنه رأى ضابطي السفينة الغريبة وقد انحيا
فوق جانب السفينة عند سلّم عمودي مسمر هنالك وهما يطوّحان نحوه زوجين من الحبال
الجانبية التي زخرفت بمهارة وحسن ذوق ، إذ أنهما بادئ بدء لم يبد أنهما يتصوران أن
رجلاً ذا رجل واحدة لابد أن يكون مقعداً بحيث يستعمل الدرايزون البحري الذي لديهما .

إلا أن هذا الخرق المحرج لم يستمر إلا لحظة إذ لحظ القبطان الغريب في لمحة كيف
حال الأمور فصاح : « فهمت! فهمت! توقفوا عن الرفع هنالك! اقفزوا أيها الغلمان وطوّحوا
مرفع القطع » .

ومن حسن الحظ أنهم كانوا قبل يوم أو يومين قد أجنبوا حوتاً الى سفينتهم فكانت
المرافع العظمى ماتزال منصوبة ، وكانت كلابة الشحم الجسيمة المتقوسة ماتزال مربوطة الى
طرفها وقد أصبحت نظيفة جافة ، فأنزلوها نحو آخاب في سرعة ، ففهم على التو ما هنالك ،
ودس فخذة الوحيدة في قوس الكلابة . وكان ذلك كالجلوس في كلابة المرساة أو في مشعب
شجرة تفاح ثم أعطى الأمر بالسحب ووقف ثابتاً مستمسكاً ، وفي الوقت نفسه أعان على
رفع ثقله بأن جرّ - واضعاً يداً فوق يد - أحد الأجزاء الصاعدة من المرفع وعلى التو تطوّح
بعناية الى داخل الهيكل العالي وخطّ بلطف على قمة المسحاب . وتقدّم اليه القبطان الآخر
ماداً ذراعه العاجية مرحباً في انفتاح ، فقدم آخاب رجله العاجية وسايغ بها الذراع العاجية
(كأنهما شفرتا سمكتين سيفيتين) وصاح بطريقته التي تشبه طريقة حيوان الفظ : « أجل!
أجل لتتصافح العظمتان! ذراع ورجل - ذراع لا يمكن لها أن تنسني ورجل يا عزيزي لا
يمكن لها أن تجري - أين رأيت الحوت الأبيض ؟ - منذ متى ؟ » .

فقال الرجل الإنجليزي مشيراً بذراعه العاجية نحو المشرق ناظرأعلى طولها نظرة كثية
كأنها تلسكوب : « الحوت الأبيض - هنالك رأيته ، على خط الصيد في الموسم الفائت » .
وسأله آخاب وهو ينزلق نازلاً من رأس المسحاب متكئاً على كتف الإنجليزي عند
ذلك : « وهو الذي انتزع تلك الذراع . أليس كذلك ؟ » .

- «أجل كان هو على الأقل سبباً في انتزاعها . أكذلك هو الأمر بالنسبة لتلك الرجل أيضاً؟» .

- «أسرد عليّ قصّتك . كيف حدث ذلك؟» .

فقال الإنجليزي : « كانت أوّل مرّة في حياتي أطوف فيها على خطّ الصيد وكنت حينئذٍ أجهل كلّ شيء من أمر الحوت الأبيض . وذات يوم أنزلنا قواربنا لملاحقة صواري من حيتان يبلغ أربعة أو خمسة عدداً ، وعلق قاربي بأحدها . كان فرس رهان مدرّباً ذهب يدور ويدور حتى أنّ بخارة قاربي لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً سوى أن يجلسوا متحلّقين ، وذلك أن يجعل كلّ منهم مؤخرته على الحافة الخارجية . وعلى التوّ اثبتق من قاع البحر حوت عظيم منقّص ذو رأس وحردبة في بياض اللبن وكأنّما كان جسمه كلّ مغطّى بالفضون والمناسر» .
فصاح آخاب وقد أطلق فجأة أنفاسه المحبوسة : «ذلك هو! ذلك هو!» .

- «وعلى مقربة من زعنفته اليمنى مزارق مغروسة» .

- «أجل ، أجل! هي مزارقي ، هي الحدائد التي قذفته بها» - كذلك صرخ آخاب في زهو - «ولكن خذ في حديثك!» .

فقال الإنجليزي في فكاهة طيبة : «لكن أعطني الفرصة لأكمل حديثي . أقول : ذلك الجبد المعمر ذو الرأس الأبيض والحردبة البيضاء كان يجري وقد تغشاه الزبد بين القطيع ، وأخذ ينهش الجبل المتين بحردٍ حار» .

- «أجل! فهمت يريد أن يفصمه ، لينجّي الحوت العالق به - حيلة قديمة من حيله - فأنا أعرفه حقّ المعرفة» .

فمضى القبطان ذو الذراع الواحدة يقول : «كيف حدث ذلك؟ ذلك شيء لأدريه بالضبط . ولكنه في عضّه للجبل أوهاه بأنيا به وقد أمسكه بها حيناً من الزمن ، غير أنّا لم ندرك ذلك في حينه ، فحين جررنا الجبل من بعد ، انتفضنا واثبين فجأة على حردبته بدلاً من حردبة الحوت الآخر الذي انطلق هارباً مع مهبّ الريح يخط في عشاء . ولما استبنت الأمر على حقيقته ، وأي حوت جسيم فخيم هو - أضخم ما رأيته من الحيتان وأفخمها - طوال حياتي - ياسيدي ، عزمت على أسره رغم الغضب الهائج الذي كان يبدو فيه ، وإذ ظننت أنّ الجبل المطوّح قد ينفلت أو أنّ السنّ العالقة به قد تتراجع (إذ كان لديّ عصبية من مردة الملاحين في القارب كي يجرّوا حبل التحويت) أقول : عندما رأيت ذلك كله قفزت في قارب رأس الضباط - أعني السيّد مونتتوب (بهذه المناسبة أعرف أحكما للآخر : يا قبطان - هذا هو مونتتوب يا مونتتوب ، هذا هو القبطان) ، كنت أقول : قفزت في قارب مونتتوب وهو - طال

عمرک - قد كان لصيق قاربي جنباً الى جنب عندئذٍ واختطفت أول رمح عرض وقذفت به ذلك الجذء الهرم . ولكن رباه ، حنانيك ياسيدي - وحقّ القلوب والأرواح الحية ، أيها الرجل - في اللحظة التالية ، على التوّ وجدنتني أعمى كأنني خفّاش - قد جحظت عيناى معاً - قد غشاها وأطفأ النور منهما زيد أسود - ومن خلال الزيد ينتصب ذنب الحوت عمودياً في الفضاء كأنه منارة من رخام . لاجدوى في التراجع حينئذٍ ، ولكنني بينما كنت أتلّمس في رائحة النهار وكأثماً فوقى شمس تفشي العيون ، لها لألاء كالألاء تاج مرصع بالجواهر ، أقول : بينما كنت أتلّمس الحديدية الثانية لأقذفه بها ، هبط الذنب كأنه برج ليما ، شاقاً قاربي نصفين ، تاركاً كلّ نصف منهما شظايا ، وبعد أن هبطت شطيرتا الذنب تبعتهما الحردبة البيضاء سارية من خلال الحطام كأنها تجري مكسوة بطبقة من الشظايا ، وانتفضنا جميعاً متطوحيين ومن أجل أن أتقي ضرباته المريعة ، قبضت بكلتا يديّ على قناة الرمح المنفرس فيه وتعلّقت به لحظة كأنني سمكة من سمك اليمصوص ، إلا أنّ الموجات المتدرجة دفعتني بعيداً وفي اللحظة نفسها مضى الحوت مطلقاً كبيراً الى الأمام ثمّ هبط كأنه التماعة برق ، وإذ بشعلة ذلك الزجّ الثاني الملعون تنجذب منحنية على مقربة مني فتعلق بي هنا (وعندئذٍ أمسك يده أدنى قليلاً من الكتف) - نعم ، علقت بي في هذا المكان بالضبط ، حتى لتصوّرت أنّها حملتني هابطة الى نيران الجحيم ، وفجأة ، والحمد لله الرحيم شقّت الشعلة طريقها على طول اللحم - على امتداد ذراعي كلّها - وانطلقت على مقربة من رسفي ، وإذ بي أصدع عائماً - وذلك السيّد هناك سيحكى لك بقية القصة (هذه سانحة للتعارف ، أيها القبطان هذا هو الطيب بنجر جراح السفينة ، بنجر أيها الفتى هذا هو القبطان) والآن ، بنجر أيها الفتى أكمل ما يخصك من غزل في هذا النول» .

كان الطيب الذي أشار اليه القبطان دون كلفة يقف طوال الوقت على مقربة منهم ، وليس فيه من المميزات الواضحة ما يكشف عن منزلته على ظهر السفينة ، كان وجهه بالغ الاستدارة إلا أنه كان وجهاً رزينا ، وكان يلبس صدارة أو قميصاً صوفياً حائل اللون وسروالاً مرقعاً ، وكان يقسم اللحظ بين مخرز يحمله في إحدى يديه وبين علبة دواء يضعها في الأخرى ، مرسلأ بين الحين والحين نظرة فاحصة الى العضوين العاجيين لدى القبطانين المصابين ، ولكن عندما عرفه رئيسه الى آخاب ، انحنى في أدب ، ومضى يؤدي ما أمره به قبطانه دون تردد .

بدأ الجراح يقول : « كان جرحاً مروّعاً خبيثاً ، ونصحت القبطان بומר أن يبحر بصومي

العتيقة - » .

فقاطعه القبطان ذو اليد الواحدة مخاطباً أخاب قائلاً : « صومي ترخيم صومويل ، وسفيتي اسمها صومويل أندري » .

- « أن يبحر بصومي العتيقة بعيداً نحو الشمال كي يخرج من هذا الجو الحار المتوهج على خطّ الصيد ، ففعل ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً - أنفدت كلّ طاقتي ، سهرت الى جانبه الليالي ، كنت شديد القسوة في أمر الحمية - »

فردّ صوت المريض نفسه يقول : « آه : شديد القسوة! » ثمّ غيرّ صوته فجأة وقال : « كان يشرب شراب الروم الساخن معي كلّ ليلة حتّى يعجز عن أين يرى أين يضع الأربطة ثمّ يرسلني الى السرير حوالي الثالثة صباحاً وأنا أتفتح سكرأ ، آه أيتها النجوم لقد كان يسهر معي حقّاً وكان شديد القسوة في أمر الحمية . أوه إن الدكتور بنجر رقيب لايفغل وهو قاسٍ في شؤون الحمية! (بنجر أيتها الكلب جلجل بالضحك! مالك لاتفعل ؟ أنت تعلم إنك عيار ظريف أثير) امض في حديثك أيها الفتى إنني لأؤثر أن أقتل بيدك على أن أظلّ حيّاً بيد أي امرئ سواك » .

فقال بنجر الرصين ذو المظهر الورع : « إنّ قبطاني ، كما لعلك لاحظت قبل هذا ياسيدي المحترم ، ذو ميل لأن يكون ذا دعاية أحياناً ، فهو ينسج لنا من خياله أشياء كثيرة بارعة من هذا القبيل ، ولكن اسمح لي أن أقول - en passant - كما يقول الفرنسيون - بأنني أنا نفسي أعني أنا جاك بنجر ، نسل القساوسة المبجلين - أنا ممّن يحرم الخمر على نفسه فلا يقربها ، أعني أنني لأشرب - » .

فصاح القبطان « لايشرب الماء ، إنه لايشربه أبداً ، شرب الماء يلقيه في نوبات ، الماء القراح يبعث فيه مرض الفزع من الماء ، لكن امض - امض في حديثك عن قصة الذراع » .

فقال الجراح في برود : « هذا ماكنت أريد أن أحكيه . كنت أريد أن أنوّه ياسيدي - قبل أن يقاطعني القبطان بومر بدعاياته - بأنه رغم محاولاتي المخلصة الشديدة ظلّ الجرح يتطوّر من سيء الى أسوأ ، والحق ياسيدي أنه كان جرحاً فاغراً بشعاً كأقبح ماراه جراح في حياته ، يزيد طوله على قدمين وعدة بوصات فقد قسمته بحيل الرصاص ودون تطويل أقول إنه أسود ، كنت أعرف العاقبة فجاءت كما قدرتها ، ولكن لم تكن لي يد في وضع تلك الذراع العاجية هنالك فذلك مخالف لكلّ قاعدة » - وأشار اليها بالمخرز الذي يحمله - « ذلك من صنع القبطان نفسه لامن صنعي ، فقد أمر النجار أن يصنعها ، وعند طرفها وضع تلك المطرقة لكي ينثر بها دماغ من يريد - فيما أظن - كما فعل ذات مرّات معي ، ذلك أنه

أحياناً يهيج هيجان الشياطين . هل ترى هذه النقرة هنا ياسيدي » - ورفع قبمته وحول شعره الى جنب وكشف عن نقرة مجوفة كالطاس في جمجمته ولكن ليس فيها أي أثر لجرح مهما يكن طفيفاً ولا أية علامة تدل على أنها كانت جرحاً - « لا بأس ، فالقبطان سيخبرك كيف حدثت ، فهو يعرف ذلك » .

فقال القبطان : « لا لست أعرف ، إلا أن أمه تعرف فقد ولد بها ، آه أيها الأقيمي الوقور يابنجر! هل لك مثيل أبداً في عالم المياه ؟ حين تموت يابنجر فيجب أن تموت في المخلاتات ياكلب ، يجب أن تحفظ للأجيال القادمة أيها العيار » .

- « ماذا حدث للحوت الأبيض ؟ » كذلك صاح آخاب وقد أصفى حتى تلك اللحظة فارغ الصبر لهذا الحوار الاستطراذي بين الانجليزيين .

فصاح القبطان ذو الذراع ، « آه ، حقاً ، أجل! بعد أن قمس في الأعماق غاب عن أنظارنا بعض الوقت ، والواقع أنني كما ألمعت من قبل لم أعرف أي حوت لعب علي هذه الحيلة حتى مضى زمن ما وعدت الى خط الصيد فسمعنا عن موبي ديك - كما يسميه بعضهم - وعندئذ عرفت أنه هو » .

- « هل عبرت خطاً مغره مرة أخرى ؟ » .

- « مرتين » .

- « ولكنك عجزت عن أن تضبطه » .

- « لم أرد أن أجرب ذلك . أليس في عضو واحد عبرة ؟ ما نفعي لو فقدت الذراع الأخرى ؟ وأنا أظن أن موبي ديك لا يضرس بأنيابه ، وهو يبتلع ما يلتهمه » .

فقاطعته بنجر قائلاً : « حسن إذن ، اعطه ذراعك اليسرى طمعاً لتسترد اليمنى ، هل تعرفان أيها السيدان » - وانحنى في خشوع وتقدير مقدر لكل واحد من القبطانين على حدة - « هل تعرفان أيها السيدان . إن جهاز الهضم في الحوت قد ركّبه العناية الإلهية على نحو غامض لا يدرك حتى ليستحيل عليه ان يتم هضم ذراع إنسان ؟ وهو يعرف ذلك أيضاً ، حتى أن ما تعده حقد الحوت الأبيض إنما هو قلة حيلته لأنه لا يهدف الى أن يبتلع أي عضو وإنما يريد أن يبث الرعب بالخدع ، غير أنه أحياناً كذلك المشعوذ الذي كان فيما مضى أحد من عالجتهم في سيلان ، كان يوهم الناس بأنه يبلع السكاكين ، ومرة ترك إحداها تسقط في جوفه حقيقة لا وهماً فاستقرت هنالك اثني عشر شهراً أو أكثر فسقيته مقيئاً فقذف بها قطعاً صغيرة . لاسبيل له الى أن يهضم سكيناً وأن يتمثلها في بنيته . أجل ، بومر أيها القبطان ، إن كنت متعجلاً الأمر وترغب في أن ترهن ذراعاً من أجل أن يكون لك حق دفن الأخرى دفناً

شريفاً ففي هذه الحال أنت صاحب الأمر في المسألة ، إذ الذراع ذراعك ، ما عليك إلا أن تسمح للحوت بفرصة أخرى في القريب العاجل ، وذلك كل ما هنالك » .

فقال القبطان الإنجليزي : « لا وشكراً يا بنجر ، هنيئاً له بالذراع التي أخذها مادمت لأملك أن أستردها - ولم أكن أعرفه حينئذ - ولكنني لن أجازف بالأخرى . لأريد حيتاناً أيضاً بعد اليوم ، لقد طارده مرة وذلك حسبي ، قد يكون في قتله مجد عظيم ، ذلك ما أدريه ، وفيه ملء سفينة من العنبر الثمين ولكن أصخ لي ، من الخير أن يترك في حال سبيله ، ألسنت تفتقد ذلك أيها القبطان ؟ » - ولحظ الرجل العاجية .

- « صحيح . ولكن سيظل هنالك من يطارده رغم ذلك . كان تركه في حال سبيله أولى لولا أن ذلك الحيوان اللعين شديد الإغراء والجاذبية ، كأنه جسم من المغناطيس . منذ متى رأيته آخر مرة ؟ وفي أي طريق كان يتوجه ؟ » .

فصاح بنجر وهو ينحني دائراً حول آخاب متشتماً ، على نحو غريب كأنه كلب ، « بارك اللهم روحي والعن الشيطان الرجيم - دم هذا الرجل - هاتوا ميزان الحرارة! لقد بلغ دمه درجة الغليان! نبضه يهز ألواح السفينة - سيدي! » واستخرج من جيبه مبضعاً واقترب من ذراع آخاب .

فزأر آخاب وهو يدفعه نحو حافة السفينة : « اليك عتي! هينوا القارب! فبأي وجهة مضى ؟ » .

فصاح القبطان الإنجليزي وكان السؤال موجهاً اليه ، « يارب يارحيم! ماذا دهاه ؟ أظنه كان متوجهاً شرقاً - » ثم همس يسأل فيض الله : « هل قبطانكم مجنون ؟ » .

ولكن فيض الله وضع اصبعه على شفثيه ، وانزلق عن حافة السفينة لكي يقوم على المجذاف الرئيسي في القارب ، وطوح آخاب بالمرفاع نحوه أمراً بخارة السفينة أن يقفوا على مقربة منه لإنزاله .

وبعد لحظة كان يقف في مؤخرة القارب وكان أبناء مانيلا يشبون نحو مجاذيفهم ، وناداه القبطان الانجليزي ، قطارت نداءته في الفضاء . لقد أدار آخاب ظهره للسفينة الغربية ، وصوب نظره كأنه الصوان نحو سفينته ، ووقف منتصباً حتى حاذى قاربه الباقوطة .

القارورة

لأدوّن في هذا المقام قبل أن تغيب السفينة الإنجليزية عن الأنظار أنها صدرت من لندن وأنها سميت باسم المتوفى صومويل اندربي أحد تجار تلك المدينة ومؤسس أسرة التحويت المشهورة التي تسمى «أسرة أندربي وأولاده» ، وهي أسرة لاتتخلف كثيراً في رأي حوات متواضع مثلي وراء آل تيودور وبوربون مجتمعين ، في أهميتها التاريخية . إن وثائق الصيد العديدة التي في حوزتي لاتوضح متى وجدت هذه الأسرة التحويتية الكبرى ، ولكنها في عام ١٧٧٥ جهزت أول سفن انجليزية بدأت صيد حوت العنبر بانتظام مع أنه قبل حوالي أربعة عقود من هذا التاريخ (أي منذ ١٧٢٦) كان آل كوفن وماسي البواسل من نانتوكت وفنيارد قد طاردوا ذلك الليويثان في أساطيل ضخمة مقتصرين في سيدهم على الأطلسي الشمالي والجنوبي دون أن يتعمدهما ، ولكن الوثائق تفيد أنّ أبناء نانتوكت كانوا أول الناس الذين مارسوا قذف حوت العنبر بالفولاذ المثقف ، وأنهم ظلّوا على مدى نصف قرن وحدهم من بين أبناء الكرة الأرضية هم الذين يصيدونه على هذا النحو .

وفي عام ١٧٧٨^(١) خرجت سفينة لطيفة تسمى أميليا لغاية محدّدة ، على نفقة آل اندربي النشطاء ، فدارت بجسارة حول رأس هورن ، وكانت أوّل سفينة تنزل قارب تحويت من أي نوع في البحر الجنوبي الكبير . وكانت الرحلة ماهرة مجدودة ، إذ عادت أميليا الى مرفئها وقد امتلأ عنبرها بزيت العنبر الثمين ، وسرعان ماخذت حذوها سفن أخرى انجليزية وأميركية ، فابنتحت بذلك مجالات الصيد الفسيحة في المحيط الهادي لاقتناص حوت العنبر ، ولكن آل اندربي الذين لايدركهم الإغياء والفتور لم يقنعوا بهذا العمل الجليل بل

(١) أخطأ ملغل النقل هنا والصواب ١٧٨٨ .

أنهم همّوا من جديد : صموئيل وأبناؤه - كم كان عددهم ؟ أمهم وحدها تعلم ذلك - وتحت إشرافهم المباشر ، وأظنّ أنهم تكفّلوا بقسم من النفقات - اقتنعت الحكومة البريطانية بأن ترسل السفينة راتلر - وهي حربية ذات مدفع - في رحلة تحويت للاستكشاف في البحار الجنوبية ، يقودها قبطان أصبح فيما بعد من قباطنة الأسطول ، فقامت (واسمها يعني المججلة) برحلة مججلة وأدت شيئاً ما ، ولكن ماأدته غير معروف على وجه الدقة . ولم يكن هذا هو كلّ ما هنالك . بل إنّ آل اندربي جهّزوا من أنفسهم عام ١٨١٩ سفينة تحويت للاستكشاف ، كي تذهب في جولة استطلاعية الى بحار اليابان الثانية وقد قامت تلك السفينة - وبحقّ سمّيت SYREN - بتجواب تجريبي رفيع الشأن ، وعن طريقها أصبح الناس يعرفون مجالات التحويت اليابانية الكبرى لأول مرة . وكان قبطانها في هذه الرحلة ناتوكتياً من آل كوفن .

ما أحرى آل اندربي لهذا بالتمجيد والإشادة! ولا يزال بيتهم فيما أظنّ قائماً حتى اليوم . ولكن لاريب في أنّ صموئيل جدّ هذه الأسرة قد زلقت رجله عن حبل سفينته وهو ذاهب الى البحار الجنوبية في العالم الآخر منذ عهد طويل .

وكانت السفينة التي سمّيت باسمه جديرة بذلك الشرف لأنها كانت سريعة نبيلة من كلّ وجه ، وقد ركبت فيها ذات مرّة عند منتصف الليل على مبعده من ساحل بتاغونيا ، وضربت في منارتها مزرراً لذيذاً ، كانت عصبه ظريفة وكان كل من فيها - كلّ نفس على ظهر السفينة - أخاصاً في الضراء . عاشوا حياة قصيرة وماتوا موتاً جميلاً ، وتلك العصبه التي عرفتها - بعد وقت طويل طويل من ملامسة آخاب الشيخ لألواحها بكعبه العاجي - تذكّرني بذلك الكرم السكسوني النبيل المتأمل في تلك السفينة ، نسيني راعي وتذكّرني الشيطان إن هي غابت عن ناظري أبداً . مزرراً ؟ هل قلت : شربنا مزرراً ؟ أجل وقد «مزرنا» بنسبة عشرة جالونات في الساعة . وعندما هبّت العاصفة (والجوّ كثير العواصف إزاء بتاغونيا) ودعي جميع الموجودين - من ضيوف وغيرهم - ليلفوا الأشرعة العليا كئناً قد أصبحنا متعتين سكرأ حتى كان على الواحد منا أن يطوح بالأخر عالياً في حبال الأشرعة كأنه يدفعه في أرجوحة . ويجهل منا لفنا حوافي صدانرنا في الأشرعة ، فتعلقنا هنالك ملفوفين مشبوحين في العاصف العاوي ، نذيراً يعتبر به كلّ بخار مخمور . ومهما يكن من شيء فإنّ الصواري لم تهبط على ظهر السفينة ورويداً ورويداً نزلنا زاحفين ، وقد طار السكر من رؤوسنا حتى لعدنا ندير المزر مرة أخرى ، ولكن الرذاذ الملح الشرس الذي كان ينفضّ نحو ناروزة المنارة جعلني أحسّ أنّ المزر قد خفّ حدة وتملّح طعماً حين مازجه الرذاذ .

أما لحم البقر فكان لذيذاً - كان جاسياً بعض الشيء ولكنه كان مكتنزاً حنيذاً ، قالوا إنه لحم عجل وقال بعضهم بل هو لحم ثور هجين ، ولكنني لأدري كيف كان ذلك على وجه اليقين ، وكان لديهم فطير سكري أيضاً ، صغير إلا أنه غني كروي تام الكرية لايسهل كسره . ولقد خيل لي أن المرء قد يحسن بكراته ويديرها في جوفه بعد أن يتعلمها ، وإذا انحنى كثيراً الى الأمام فربما انطلقت من جوفه كأنها كرات البليارد .والخبز وما أدراك ما الخبز؟ كان فيه ما يمنع فساد الدم وبياجيز كان الخبز يحوي الغذاء الوحيد الذي يعد لديهم طازجاً ، إلا أن المنارة لم تكن حسنة الإضاءة كثيراً ، فكان من السهل على المرء أن ينحاز الى زاوية معتمة إذا أخذ يأكله . لكن اذا اعتبرت صومويل اندربي من كوثلها حتى دفتها وقدزت أبعاد المراحل التي لدى طبأخها وعددت فيها مرجه الحي^(١) ، أقول : إن صومويل اندربي من حيث رمقتها وجدتها سفينة ظريفة : الغذاء فيها طيب وفير ، والمزر قوي لذيد ، والزلاء ظرفاء ، كل امرئ فيهم ممتاز من أخص قدمه حتى مفرق رأسه .

ولكن ليم كانت - فيما تخمن - صومويل اندربي وبعض الحواتات الانجليزية الأخرى التي أعرفها - لاكلها - سفناً مشهورة مضيافة ، تقدم لحم البقر والخبز والكأس والنادرة ولا يدركها السأم من الأكل والشرب والضحك؟ سأخبرك . إن هذا المرح الوفير في الحواتات الانجليزية مسألة تحتاج بحثاً تاريخياً ولم أكن أنا أبداً متلكناً بالبحث التاريخي في شؤون الحيطان والتحويت إن بدا ذلك أمراً مطلوباً .

إن الهولنديين والزيلنديين والدنماركيين سبقوا الإنجليز في التحويت ، ومن هذه الأمم استعار الانجليز مصطلحات كثيرة لاتزال مستعملة في حرفة الصيد ، بل استعاروا منهم عاداتهم القديمة في الإكثار من الأكل والشراب إذ أن السفن التجارية الإنجليزية تقلل عدد الملاحين اقتصاداً ، ولكن الأمر ليس كذلك في الحواتات ، وإذن فإن هذا المرح والتفتق لدى الانجليز في التحويت غير عادي وغير طبيعي وإنما هو عارض وخاص ولذلك كان لا بد له من أصل ، وقد بينت أصله في هذا المقام وسأوليه تبياناً فيما يلي .

أثناء بحثي في تواريخ الحيطان وقعت على كتاب هولندي قديم^(٢) وعرفت من رائحة المفضونة التحويتية فيه أنه لابد أن يكون عن الحواتات ، كان عنوانه «دان كويمان» فاستنتجت أنه لابد أن يكون مذكرات باللغة القيمة كتبها صانع براميل أمستردامي يعمل في الحواتة ، إذ كل حواتة لابد أن يكون فيها مثل هذا الصانع ، وقوي هذا الرأي لدي حين

(١) يعني معدته .

(٢) ها هنا يعاكي مغلط طريقة اسكورسي واحصاءاته ساخراً في هذه الفترة .

وجدته من تأليف «فتز الحداد» غير أن صديقي الدكتور زنوده وهو عالم ضليع وأستاذ للهولندية والألمانية في كلية سنا كلوز وسنت بوتس ، وقد سلمته الكتاب لترجمه وأعطيته لقاء تبعه صندوقاً من شمع حوت العنبر - هذا الدكتور زنوده نفسه ما أن ألقى نظرة على الكتاب حتى أكد لي أن «دان كوبمان» لاتعني «صانع البراميل» وإنما تعني «التاجر» . وبإيجاز أقول إن هذا الكتاب الهولندي العتيق المميّق يعالج تجارة هولنده ، وفيه - بين سائر ما فيه - خبر هام ممتع عن التحويت وفي هذا الفصل منه وعنوانه «الشحم» وجدت قائمة طويلة تحتوي على أسماء المواد التي تودع في مخازن ومخادع ١٨٠ سفينة من الحواتات الهولندية وأنا أثبت من القائمة مايلي ، حسبما ترجمها الدكتور زنوده :

- ٤٠٠ ٠٠٠ رطل من لحم البقر .
- ٦٠ ٠٠٠ رطل من لحم خنزير فريزلاند .
- ١٥٠ ٠٠٠ رطل من السمك القديد .
- ٥٥٠ ٠٠٠ رطل من البسكويت .
- ٧٢ ٠٠٠ رطل من الخبز الناعم .
- ٢٨ ٠٠٠ فركين (ربعة) من الزبدة .
- ٢٠ ٠٠٠ رطل من جبنة تكسل وليدن
- ١٤٤ ٠٠٠ رطل جبنة (لعلها أقل جودة من الجبنة السابقة) .
- ٥٥٠ أنكر من الجن (الأنكر = ١٠ جالونات) .
- ١٠٨ ٠٠٠ برميل من البيرة .

أكثر القوائم الإحصائية جاف متيبس لدى القراءة ، إلا أن هذه القائمة بخلاف ذلك حيث يفرق القارىء بين دق من أنابيب وبراميل وربعات وجداول من شراب الجن والمرح الطيبين .

في ذلك الوقت أنفقت ثلاثة أيام وأنا أحاول جاهداً أن أهضم كلّ هذه البيرة ولحم البقر والخبز فعرض لي في أثناء ذلك كثير من الأفكار العميقة التي يمكن أن تتقبل التطبيق الأفلاطوني والتجريدي ، ثمّ إنني أضفت جداول أخرى استكملتها بنفسي ، تتناول كمية السمك القديد وغيره من المواد التي يستهلكها كلّ حوات هولندي في الحواتة القديمة عند جرينلاند وسبتزبرجن ، وتبدي لي لأول وهلة أنّ كمية ما يستهلك من الزبدة وجبنة تكسل وليدن كمية مذهلة ، وعزوتها من ثمّ الى طبائعهم الدهنية - بطبيعتها - وقد زادت دهنتها بطبيعة الحرقة نفسها ، وبخاصة لمطاردتهم الحيتان في البحار القطبية المتجمدة قريباً من

سواحل منطقة الأسيكو حيث سكان تلك البلاد المرحون يشرب أحدهم نخب الآخر كؤوساً من زيت الأسماك أو الحيتان .

كذلك كمية البيرة كبيرة جداً ، أعني ١٠٨٠٠ برميل . فإذا عرفت أن التحويت في المناطق القطبية لا يمكن اجراؤه الا في الفترة القصيرة التي يسمونها صيفاً في ذلك المناخ حتى إن الرحلة التي تقوم بها إحدى الحواتات الهولندية بما في ذلك السفرة القصيرة من بحر سبتزبرجن ذهاباً وإياباً لاتتجاوز ثلاثة أشهر بكثير ، وإذا قدرت ثلاثين رجلاً لكل سفينة في اسطولهم ذي الـ ١٨٠ سفينة كان لديك ٥٤٠٠ بحار . لذلك أقول فإن كل شخص يصيبه على وجه الدقة برميلان من البيرة يصرفان له في خلال اثني عشر اسبوعاً ، هذا دون أن نحسب ما يخصه من الـ ٥٥٠ أنكر من شراب الجن . ترى هل هؤلاء الحواتون الذين تملأوا بيرة وجناً - وقد أفرطوا في السكر حسبما قد يتخيلهم المرء - هم الناس الصالحون ليقفوا عند رأس القارب ويسددوا الرماح نحو الحيتان الطائرة . قد يبدو هذا مجاوزاً للاحتمال بعض الشيء ، ولكنهم طالما سددوا إليها الرماح وأصابوها . غير أن علينا أن نذكر بأن هذا كان في أقصى الشمال حيث البيرة تناسب البيئة . أما على خط الاستواء - في المجالات الجنوبية - فإن البيرة ترمي الحوات بالنعاس إذا كان في قمة الصاري ، وتجعله نشوان وهو في قاربه ، ومثل هذا يجرّ خسارة بالغة على ناتوكت ونيوبدفورد .

لا مزيد . لقد أشبعت القول لأبين أن الحواتات الهولندية القديمة قبل قرنين أو ثلاثة قرون كانت تتفنن في الترف وإن الحواتات الانجليزية لم تغفل هذا المثل الطيب . وفي المثل : إذا كنت تطوف البحار في سفينة فارغة فاستخرج من العالم عشاءً طيباً على الأقل إن عجزت عن استخلاص ما هو خير من ذلك . بهذا تفرغ الجعبة ، وتصفّر القارورة .

ظلة في البلاد الأرسكية

قصرت أكثر اهتمامي - حتى هذا الحد ، وأنا أعالج حوت العنبر واصفاً - على أعاجيب مظهره الخارجي ، وعلى بعض الملامح الداخلية في بنيته ، وتناولت هذه الأخيرة في مواضع متفرقة وفي شيء من الاسهاب ، ولكن يخلق بي من أجل الاحاطة الشاملة والفهم المحيط المستفيض ان أفك عنه سائر الأزرار وأن أمزق معاهد جوربيه ، وان أحل أربطة ساقيه ، وأرخي الاوتار والمحاجيء في مفاصل عظامه الموغلة في بنية جسده ، وأبرزه لكم في عريه الكامل ، أعني في هيكله الذي انحسرت عنه القيود والأعلاق .

ولكن أنى لك ذلك يا اسماعيل ؟ كيف تدعي وأنت محض مجذوف في حرفة التحويت أنك تعرف شيئاً عن الاجزاء الدخيلة في الحوت ؟ هل امتطى اسطب اللوذعي الاريب مسحاب قاربك وألقى محاضرات في تشريح الحيتان ، وبغون الدولاب الرافع اتخذ أحد الاضلاع وسيلة للتوضيح والبيان ؟ أفصح عن نفسك يا اسماعيل . هل تستطيع ان تطرح على ظهر سفينتك حوتاً للفحص والاختبار مثلما يُجزى الطباخ الخنزير المشوي ؟ طبعاً لا . حتى هذا الحد كنت يا اسماعيل شاهداً موثقاً ، ولكن تدبر كيف تحتاز الميزة التي استقل بها يونان وحده ، ميزة الحديث عن الدعائم والعمد والعوارض وسنادات الجسور والاسرة ومواد التأسيس جميعاً في بنية الحوت ، وعن خوابي الشحم وغرف اللبن وحوانيت الخبز والزبدة ودكاكين الجبن في أحشائه .

وأنا اعترف انه قلما أتيج لأحد من الحواتين ، بعد يونان ، ان يتغلغل بعيداً وراء إهاب الحوت الفتى ، ومع ذلك فقد سنحت لي الفرصة لكي أشرح صورة منه مصفرة . كنت في إحدى السفن فرُفع الى ظهرها ذات مرة حوت عنبر صغير طلباً لجرابه أو كيسه لتصنع منه أعماد لشعالب الرماح وظبا الحراب ، فهل تظنني ادع هذه الفرصة تفلت من يدي دون ان

استعمل بلطني الصغيرة ومديتي ، فأفرض الختام واقرأ كل ما هو مكتوب في ذلك الخويث ؟
وأما معرفتي الدقيقة بعظام اللويثان في حال اكتمالها نمواً وضخامة فأنا مدين بتلك
المعرفة النادرة الفذة الى صديقي الراحل ترانكو ملك ترانكه احدى الجزر الارسكيدية^(١) .
ذلك أني منذ سنوات كنت في ترانكه اذ كنت تابعاً للسفينة التجارية « صبغة الجزائر »
فدعيت لقضاء جانب من عطلي الارسكيدية مع عاهل ترانكه ، في قصره البعيد المحفوف
بالنخيل في بوبلا ، وهدة عند البحر لا تبعد كثيراً عما يدعوه ملاحونا مدينة البامبو
عاصمته .

وصديقي ترانكو ربيب الملك قد وهب بين ما وهبه من صفات ظريفة حياً مكيناً لكل ما
يتصل بالفضائل البربرية فحشد في بوبلا كل الطرف النادرة التي استطاع الاقذاذ من بني قومه
ابتكارها ، وبخاصة الخشب المحفور في أشكال عجيبة والاصداف المنحوتة والحرايب المرصعة
والمجاذيف الثمينية والزوارق الشذية ، وكل هذه قد وزعت بين ما اتفق وجوده من عجائب
طبيعية تحملها الامواج حمالة العجائب وتؤديها جزية لذلك الملك على شواطئ بلاده .

ومن أبرز هذه العجائب الطبيعية حوت عنبر جسيم وجد ميتاً مطروحاً ، بعد عاصفة غاضبة
ثائرة طال بها الغضب والهباج ، وقد استند رأسه الى شجرة جوز الهند فبدت ثنيتها المقنزعة
التي تشبه الريش كأنها نفثاته المخضوضرة وحين انتزع الجسم الجسيم اخيراً من بين المواد
التي تكتنفه وهي تبلغ القامة ارتفاعاً وأصبحت العظام جافة كيبيس الشرى تحت الشمس نقل
الهيكل باعثناء الى وهدة بوبلا حيث يقيه اليوم هيكل عظيم من النخل العمّ الطوال .

أما الاضلاع فعلقت عليها أسلاب النصر ، وأما الفقارات فنقشت فيها التواريخ الارسكيدية
في خطوط غريبة ؛ وأما الجمجمة فقد وضع فيها الكهنة شمعة شذية لا تنطفئ حتى ان الرأس
المجيب ظل يرسل نفثاته البخارية بينا علق الفك الاسفل المربع من احد الاغصان ليشذب فوق
رؤوس العابدين الاتقياء كأنه السيف المفزع المعلق بشعرة فوق رأس داموقليس .

كان منظرأً عجباً : الغابة خضراء كأنها طحالب الوهدة الجليدية ، والاشجار سامقة
مستكبرة تحسن عصارته الحية ، والارض الكدود من دونها كأنها نول النساج وعليه بساط
رائع فاخر ، وعساليج الكرمة الارضية تمثل السداة واللحمة ، والازهار الحية تمثل الزخارف
والرسوم ؛ كل شيء لا يكف عن النشاط والحيوية : كل الاشجار وكل ما فيها من غصون
مشقلة ، كل الاعشاب والسرخس والحشائش ، والهواء الذي ينقل بينها الرسالات .

(١) مجموعة من الجزر عند الطرف الجنوبي من جزائر سليمان ، وليست ترانكه منها وانما هي جزيرة سفيرة على مسافة من
شاطئ شيلى .

والشمس العظيمة تبدو بين فجوات الاوراق وشيعة تنسج الخضرة التي لا يدركها حؤول . آه ايها الحائك المنهمك ، ايها الحائك الخفي! توقف ، لي اليك كلمة! الى أين يفيض هذا النسيج ، اي قصر قد يزين ؟ ما غاية هذا الكد الدائب ؟ أجب ايها الحائك . أوقف يدك! لي اليك كلمة واحدة! لا... ان المكوك يدور ، والزخارف تفيض عن النول والبساط المندفع كالجدول يظل ينزلق بعيداً . اما الرب الحائك فيمضي في حياكته ، ويصفه النسيج فلا يسمع صوتاً بشرياً ، ونحن الذين ننظر الى النول يصمنا الطنين ، ولا نسمع آلاف الاصوات التي تتحدث من خلاله إلا اذا نجونا من ربقتة ، وكذلك هي الحال في جميع المصانع المادية : فان الكلمات المنطوقة التي لا تسمع بين المغازل الدائرة هي نفسها تسمع بوضوح وراء الجدران مندفعة من خلال المنافذ المفتوحة . على هذا النحو اكتشفت الدسائس ؛ فتنبه اذن يا ابن آدم اذ ان أدق أفكارك وأخفاها في ضجيج هذا النول الكوني قد يكون مسموعاً من بعيد .

وسط هذا النول الأخضر ، نول الحياة التي لاتعرف الفتور في الغابة الارسكيدية يقع ذلك الهيكل الجسيم المعبود كسولاً مسترخياً - هو كسلان هائل ؛ ولكن بينا تلتقي السداة واللحمة المخضوضرتان اللتان لا تكفان عن التداخل والتلاقي والطنين من حوله فان ذلك الكسلان القوي يبدو وكأنه الحائك الذكي وهو نفسه ينسج حول نفسه عساليج الكرمة ، وفي كل شهر يتحل لنفسه خضرة جديدة أشد من سابقتها اخضراراً ، إلا انه لا يعدو ان يكون هيكلأ . الحياة تغلف الموت ؛ الموت ينسج الحياة ، والرب الجاهم يعمرس بالحياة الناضرة الفتية فينجان أمجاداً مجددة الشعور .

وحين زرت هذا الحوت العجيب في صحبة ترانكو سليل الملوك ورأيت الجمجمة قد جعلت مذبحاً والدخان يتصاعد من حيث تنبثق النفثات الحقيقية عجبت للملك كيف يعتبر المعبد موضعاً للفضيلة ، فضحك ، ولكن عجبني زاد حين عرفت ان الكهنة يقسمون ان نفائته المدخنة كانت أصيلة لا مصنوعة . خطوت أمام هذا الهيكل ذاهباً آيباً ، أزحت عنه عساليج النبات ، تغفلت داخل الاضلاع ، وتجولت فيه وانا أحمل كبة من خيوط القنب الارسكيدي ، وطوفت في منعطفاته الكثيرة ومساربه وعرائشه الظليلة ولكن سرعان ما نفذ الطول المرخي فعدت أنتبعه وخرجت من الفتحة التي منها دخلت فلم أر فيه شيئاً حياً ، ولم يكن هنالك شيء سوى العظام .

وقطعت قضيباً أخضر يصلح ان يتخذ مقياساً وغصت في الهيكل مرة أخرى فرآني الكهنة من شق في الجمجمة أقيس طول الضلع الأخيرة ، فصاحوا بي : « كيف تجرؤ على ان تقيس إلهنا . هذا لنا وحدنا » فقلت : « صدقتم أيها الكهنة ولكن كم تقدرون طوله إذن ؟ » وهنا

ثار بينهم جدل حاد حول الاقدام والبوصات ، فكسروا رؤوس بعضهم بعضاً بصيتهم ، ورددت الجمجمة الضخمة الصدى ، فانتهزت هذه الفرصة السعيدة وأنهيت مسرعاً قياساتي .
هذه القياسات هي ما أزع الآن ان اضعه أمام أعينكم ولكن لأقرّر هاهنا أولاً أنني في هذا الامر غير حرّ لاتفوه بأي تقدير مزعوم أشاؤه ، لان لديكم ثقات في شؤون الهياكل تستطيعون الاحتكام اليهم لتختبروا دقتي . فقد أخبرت ان في مدينة هل بانجلترا - وهي احدى موانئ التحويت في تلك البلاد - متحفاً للحيتان فيه عينات ونماذج لطيفة من الحيتان المزعقة والحيتان الاخرى . وسمعت ايضاً ان في متحف مانشستر في نيوهامبشير ما يسميه المالكون له : «العينه الوحيدة الكاملة من حوت جرينلاند او حوت النهر في الولايات المتحدة» ثم ان في مكان بيوركشير في انجلترا اسمه بيرتون كونستابل رجلاً يدعى سير كلفورد كونستابل وهو يملك هيكل حوت عنبر إلا انه ذو حجم معتدل وهو لا يبلغ بأي حال مبلغ الحوت المكتمل الذي لدى صديقي الملك ترانكو .

وفي الحالين تتشابه الاسس التي تم بموجبها أصلاً امتلاك هذين الحوتين اللذين طرحهما البحر وأخذ منهما الهيكلان . اما الملك ترانكو فقد استولى على الحوت الذي حازه لانه بحاجة اليه ، واما السير كلفورد فقد استأثر به لانه كان رب السلطة في تلك النواحي ؛ وقد فصل حوت السير كلفورد في جميع أجزائه فأصبحت تستطيع ان تفتحه وتقلقه في كل فجواته العظمية كأنه صندوق ضخم من الادراج وتمتد اضلاعه كالمروحة الضخمة وتتأرجح طوال اليوم على فكه الاسفل . وستوضع الاقفال على بعض مفاصله وأبوابه المسحورة ، وسيكون دليل الزوار ففي المستقبل رجلاً يطلق حزمة من المفاتيح على جنبه ، ويرى السير كلفورد ان يتقاضى بنسين على من يطلّ في السقيفة الهامسة في العمود الفقري ، وثلاثة بنسات على سماع الصدى في تجويف المخيخ ، وستة على المنظر الفذ الذي لا يضاهاى من جهة جبهته .

وأبعاد الهيكل التي سأخذ في تقييدها هاهنا قد نسختها حرفياً عن ذراعي اليمنى حيث كنت قد سجلتها بالوشم ، اذ لم يكن لدي في سفراتي المغامرة يومئذ اي طريقة مأمونة اخرى تكفل الاحتفاظ بهذه الاحصاءات القيمة ؛ ولكن بما أن المساحة كانت متضايقة ، وكنت أرغب في ان أبقى سائر أجزاء جسدي صفحة بيضاء لأكتب عليها قصيدة كنت أنظمها حينئذ - او على الاقل اكتبها على ماتبقى من أجزاء غير موشومة - لذلك لم أعن نفسي بتقييد البوصات ، والحق ان البوصات يجب ألا تدخل في أي مقياس مناسب يؤخذ للحوت .

قياس هيكل الحوت

أريد ان اضع بين أيديكم - في المقام الاول - تقريراً خاصاً واضحاً حول البنية الحية لهذا اللويثان الذي سأعرض عليكم هيكله في ايجاز ، فقد يكون هذا التقرير في هذا الموطن مفيداً .
حسب التقدير الدقيق الذي قمت به وبنيته - من بعض نواحيه - على قول القبطان اسكورسبي : ان اكبر حوت ائين (حوت جرينلاندا) . يبلغ ستين قدماً في الطول فانه يزن سبعين طناً ، أقول ، حسب تقديري الدقيق ان اضخم حوت عنبر يقع بين ٨٥ - ٩٠ قدماً في الطول وان محيطه في أعرض المواضع اقل قليلاً من اربعين قدماً وان مثل هذا الحوت يزن تسعين طناً على الاقل فاذا قدرت لكل طن ثلاثة عشر رجلاً فانه يرجح كثيراً بـسكان قرية كاملة مجتمعين يعدون ألفاً ومائة نسمة .

ألا ترى معي انه لا بد من وضع أدمنة كثيرة في هذا اللويثان ، كالبقرة التي تضعها تحت النير ، كي تجعله يتزحزح فيدخل في خيال اي واحد من ابناء الارض ؟ وبما انه قد سبق لي ان وضعت امامك جمجمته ووقب نفائته وفكه واسنانه وذنبه وجبهته وزعانفه واجزاء اخرى متنوعة منه فاني اكتفي هنا بأن ابين اشد ما يشير الاهتمام في الحجم العام من عظامه التي لا يعترض دونها عارض ؛ وبما ان الجمجمة الجسيمة تحتل نسبة كبيرة جداً من طول الهيكل الكلي مثلما انها اشد اجزائه تعقيداً ، وبما اني لن اكرر شيئاً عنها في هذا الفصل فلا أرينك تعجز عن حملها في ذهنك او تحت ابطك فيما نحن نذهب قدماً ، وإلا لم تستطع ان تكسب فكرة كاملة عن بنيته العامة التي سنلقي عليها النظر بعد قليل .

كان طول هيكل حوت العنبر في ترانكه ائنين وسبعين قدماً ، فاذا كسوته اللحم والاهاب وجعلته يمتد حياً كان طوله تسعين قدماً ولا بد ؛ لان هيكل الحوت يفقد حوالي خمس طوله اذا قيس ببنيته وهو حي . وتساوي جمجمته وفكه عشرين قدماً من طوله كله ،

ويبقى خمسون قدماً تمثل العمود الفقري ؛ ويتصل بهذا العمود - على طول يبلغ اقل من ثلث طوله الكلي - قصص دائري هائل من الاضلاع كانت تضم ذات مرة اعضاء الهامة .

وكننت ارى هذا الصدر ذا الحنايا العاجية وذلك الصلب الطويل الموثق به يمتد طويلاً في خط مستقيم فأرى شيئاً يشبه هيكل سفينة ضخمة قد وضعت حديثاً على الالواح ولم يصف الصنّاع من اضلاعها العارية سوى عشرين او نحوها . فأما أريبتها فما تعدو ان تكون في ذلك الحين ، خشباً طويلاً غير موصول الاواصر .

وعلى كل جهة عشرة اضلاع وأولها - اذا بدأنا العدة من جهة العنق - يبلغ ما يقرب من ستة اقدام طولاً ، والثاني اطول منه وكذلك الثالث والرابع على التوالي . حتى تبلغ ذروة الضلع الخامس أو واحداً من الاضلاع الوسطى وطول الواحد منها ثمانية اقدام ويضع بوصات ، ومن ثم تتناقص اطوال الاضلاع الباقية حتى العاشر آخرها ، وهو لا يبلغ سوى خمسة اقدام ويضع بوصات . وأما في السّمك فانها جميعاً ذات سُمك مناسب لاطوالها ، وأشدّها تقوساً الاضلاع الوسطى ، وهي تستعمل في بعض جهات الاراضي الارسية عوارض تمد فوقها الجسور للعبور فوق الجداول .

وحين تأملت هذه الاضلاع لم املك الا ان أعجب عجباً مستأنفاً من الامر الذي أبدأت فيه وأعدت في هذا الكتاب وهو ان هيكل الحوت لا يمثل شكله الكلي وهو مطبّق لحماً وشحمًا ، واكبر اضلاع الحوت الذي رأيته في ترانكه - وهو احد الاضلاع الوسطى - يشغل ذلك الجزء الذي يعد في الحوت - وهو حي - أبعد الاجزاء غوراً ؛ واعظم غور لجسم ذلك الحوت قبل ان يجرد من اهابه يبلغ ستين قدماً ، في الاقل ، بينما لا يبلغ طول الضلع المصاقب لذلك الغور إلا ثمانية اقدام او أزيد قليلاً ، فهذا الضلع لا ينقل اليينا من حقيقة الغور في ذلك الجزء من الحوت الحي إلا نصفها ، ثم ان الموضع الذي لم أر فيه الا فقاراً عارياً كان مكسواً ذات يوم بأطنان من اللحم والعضل والدم والاحشاء تزيد من ضخامته . زد على ذلك اني لم أر مكان الزعانف المستعرضة الا بضعة مفاصل مفككة ، وما رأيته في موضع الشطيرتين الراجحتين الفخمتين اللتين لاعظم فيهما شيئاً سوى فراغ مديد .

وقلت لنفسي حينئذ ، ما احقق واجهل المرء الغروقة الذي لم يتعمرس بالاسفار وهو يجرب ان يتصور هذا الحوت العجيب تصوراً شاملاً صحيحاً بالاستفراق في تأمل هيكله الميت المهزول وهو ممتد في هذه الغابة الآمنة . كلا! لا يدرك احد الحوت وهو في كامل لبوسه ادراكاً صحيحاً حياً إلا وهو في قلب الخطر الوحي ، إلا وهو دون خطر ان شطيرتيه الفاضبتين ، إلا وهو على أثباج البحر العميق المترامي .

والعمود الفقري وما ادراك ماهو! خير وضع تتأمله فيه وتقدر جسامته هو ان تكس الفقرات فيه صمداً بقوة المرفاع . عملٌ لا يتم لمحا . ولكن اذا كان في الامكان إتمامه بدا لك وكأنه سارية بومبي^(١) .

وعدد الفقرات اربعون ونيف غير موثقة في الهيكل معاً وانما تتراوى كالمقطع الحجرية العتداء في مسلة قوطية وتشكل مداмик صلبة من بناء راسخ ؛ واكبرها احدى الفقرات الوسطى ويبلغ اتساعها اقل من ثلاثة اقدام بقليل وتزيد في الارتفاع على اربعة ، واصفرها حيث يستدق العمود الفقري عند الذنب تبلغ القدمين اتساعاً وتبدو كأنها كرة بليارد بيضاء وقد قيل لي إن هناك فقرات اصفر منها ولكن استطارها بعض الجن الصغار العابثين اعني تلامذة القسيس الذين سرقوها ليلعبوا بها لعبة الأكر . وهكذا نرى ان فقار اصخم الموجودات الحية تستدق حتى تصبح في النهاية لعبة في يد طفل .

(١) طولها ٦٧ قدماً على قاعدة تبلغ ٢١ قدماً وتقع على بعد ثلاثة أرباع ميل من الاسكندرية .

الحوت في حالة تحجر

ان جسامة الحوت لتجعل منه موضوعاً غاية في الامتاع يمكن ان يمتد ويتسع ويسترسل اسهاباً واطناباً ، ولو شئت ان توجز فيه لما قدرت ، فمن حقه ان لا يكتب عنه إلا اضخم المجلدات لا لتعيد القول في الابعاد الممتدة بين مخطمه وذنبه والمسافة التي يبلغها محيطه عند وسطه وانما فكّر فحسب في تلافيف احشائه الهائلة حيث ترقد في جوفه كأنها حبال ومواصر غليظة قد تطوت والتفت في أغوار العنبر الاسفل من سفينة حربية .

وبما اني قد اخذت على عاتقي أن أدير هذا الحوت بيدي فمن الجدير بي ان اكون كفاءً بهذا العمل وان أحيط به احاطة العالم الذي احصى كل شيء فيه علماء . فلا أغفل أصفر جرثومة صنوية في دمه ، وأنشر تلافيف احشائه امام الانظار حتى آخرها . وبما اني قد وصفته في خصائصه البيئية والتشريحية ، فانه يتبقى عليّ ان الحظه من زاوية علم الآثار وأراه مستحجراً في أحافير كانت قبل عهد الطوفان . واذا انت استعملت هذه الالفاظ الفخمة - مثل الآثار والاستحجار والأحافير وما قبل الطوفان - وانت تتحدث عن مخلوق آخر سوى هذا اللويثان ، كأن يكون نملة او برغوئاً ظنّ الناس - بحق - انك تجعل من الحبة قبة ، وتنتحل تفحصاً وتضجعاً لا يجد له مسوغاً . ولكن ان كان اللويثان هو موضوع حديثك فقد اختلفت القصة . لشد ما تملأ الفبطة جوانحي وأنا أترنح نحو هذه المغامرة تحت وطأة اثقل الالفاظ في قاموس : ولأقرر في هذا الموطن انني كلما وجدت من المناسب أن أراجع قاموساً في سياق هذه المقالات فاني على الدوام استعمل طبعه ضخمة من قاموس الدكتور جونسون اشتريتها لهذه الغاية ، اقولها دون مواربة ، لان حجم ذلك اللغوي المشهور ، وهو حجم غير عادي في ضخامته ، قد أهله خير تأهيل لتصنيف قاموس يستعمله مؤلف عن الحيتان مثلي .

وكثيراً ما يسمع المرء عن كُتّاب ارتفعوا وتضخموا عن طريق موضوعهم وان كان يبدو موضوعاً عادياً مألوفاً فكيف حالي اذن وأنا أكتب عن اللويثان ؟ ان خطي ليمتد حينئذٍ لاشعورياً حتى يغدو حروفاً كبيرة كالتى تخط بها الاعلانات . أعطوني ريشة من ريش نسر الانديز اكتب بها! هاتوا لي فوهة بركان فيزوف، لأتخذها دواة! أعيّنوا ساعدي ايها الاصدقاء! اذ انني وأنا أحصر أفكارى حول هذا اللويثان محض حصر ثقفتني وتعجزني ، فيغنى عليّ من غمرتها المترامية وهي تعبّ عباً فانضاً كأنني أحاول ان أحيط بدائرة العلوم جميعاً وبكل اجيال الحيتان والناس والمستودونات في الماضي والحاضر والمستقبل ، وبكل مجالي هذا الكون الارضي الدوّار ومن خلل العلم كله ، لا أستثني من ذلك ضواحيه . ذلك هو فضل الموضوع الضخم الطليق وذلك هو الكبر الذي ينفخ به النفس فنحن نمسّد حتى نناظره حجماً ، واذا شئت ان تؤلف كتاباً جسيماً ف عليك ان تختار موضوعاً جسيماً ولكنك لن تستطيع ان تكتب مجلداً عظيماً خالداً عن البرغوث وان كان من حاولوا هذا ناساً كثيرين .

وقبل ان آخذ في موضوع الحيتان المتحجرة أقدم الوثائق التي تبنت اني عالم جيولوجي فأقرر انني في اوقات متعددة متفاوتة كنت بناءً بالحجر وحقاراً عظيماً للخنادق والقنوات والآبار وأقبية الخمر والمخادع والصحاريج من كل نوع^(١) ؛ ثم أحب - على سبيل التقدمة - ان اذكر القارىء انه بينا توجد في الطبقات الجيولوجية القديمة متحجرات وحوش انقرضت او كادت فان الآثار التالية التي استكشفت فيما يسمى « التكوينات الثلثية » تبدو كأنها صلة الوصل - او على اي حال الحلقات المتوسطة - بين المخلوقات التي وجدت قبل التاريخ والمخلوقات التي يقال ان نسلها البعيد قد دخل السفينة مع نوح . وكل الحيتان المتحجرة التي كشفت حتى اليوم تنتمي الى الفترة الثلثية وهي الاخيرة التي تسبق التكوينات السطحية ، وليس في هذه الحيتان ما يطابق بدقة اي فصيلة من الفصائل الباقية حتى يومنا هذا ، غير انها قريبة الشبه منها في مظاهر عامة قرابة تسوغ عدّها متحجرات حرثية .

وجدت متحجرات متفرقة مهشمة لحيتان قبل عهد آدم وهي شظايا من عظامها وهياكلها ، وجدت خلال السنوات الثلاثين الماضية وفي فترات متعاقبة عند قاعدة جبال الألب وفي لمبارديا وفرنسا وانجلترا وسكوتلنده وفي ولايات لويزيانا ومسيبي وألباما . ولعلّ من أغرب ما وجد منها جزءاً من جمجمة استخرج عام ١٧٧٩ من شارع دوفينيه بباريس وهو شارع قصير يكاد يفضي رأساً الى قصر التويلري ؛ وعظاماً استخرجت أثناء حفر

(١) أنفق لفل مدة أشهر من عامي ١٨٢٨ - ١٨٢٩ يدرس الهندسة والمساحة واستعان بجاء عمه ليكب وظيفته في قنال إيرى وأخفق فسافر الى ليربول على السفينة « سنت لورنس » .

أحواض السفن بمدينة أنتورب في أيام نابليون . وقد صرح كوفيه ان هذه الشظايا تنتمي الى فصيلة من فصائل اللويثان غير معروفة أبداً .

ولكن أشد الآثار الحوتية جميعاً اثاراً للدهشة والعجب هيكل ضخم يكاد ان يكون كاملاً لوحش باند وجد عام ١٨٤٢ في مزرعة القاضي كريج بولاية ألباما وقد ظنه العبيد السذج في المنطقة المجاورة الذين تملكتهم الرهبة لدى رؤيته عظام أحد الملائكة الذين هورا من السماء ، أما علماء ألباما فقالوا انه زاحف من الزواحف ضخم ودعوه باسم بسيلوساورس ولكن عيّنات من عظامه نقلت بحراً الى أون عالم التشريح الانجليزي فاذا بهذا الزاحف المزعوم حوت وان كان من فصيلة باندة ، وهذا شاهد فذ على الحقيقة التي طالما رددناها في هذا الكتاب ، أعني ان هيكل الحوت لايهيىء إلا دليلاً صغيراً على الشكل الحقيقي للحوت الحي . وأعاد أون تسميته فسماه زيوجلودون وقال في بحثه الذي ألقاه أمام الجمعية الجيولوجية اللندنية انه في جوهره من أغرب المخلوقات الغريبة ، التي طمسها من الوجود تقلبات الكرة الارضية .

وأقف بين هذه الهياكل والجماجم والانياب والفكوك والاضلاع والفقرات ، وكلها جسيم هائل ، وكلها ذات شبه جزئي للسلاسل الباقية من وحوش البحر ، إلا أنها في الوقت نفسه مشابهة باللويثانات الدارسة المنقرضة التي وجدت قبل عهد التاريخ ، تلك اللويثانات التي تمثل حدودها العليا التي تعز على العصر والاحياء . وحين أقف بينها يحملني طوفان عوداً الى تلك الحقبة العجيبة قبل ان يبدأ الزمن نفسه ، ان صح القول ، لان الزمن بدأ بظهور الانسان . ثمة يعب فوق رأسي العماء الرمادي الذي ينشره زحل وأحظى بالتعامات معتمة مرتعشة في تلك الازليات القطبية حين كانت الابراج المتراكبة من الجليد ترهص بوطأتها ما يسمى اليوم المناطق الاستوائية ولم يكن ليرى في مدى الاميال التي تمثل محيط الكون (وعددتها ٢٥ ألفاً) عرض الراحة من أرض مأهولة . يومئذ كان العالم كله عالماً للحوت ، وترك وهو ملك المخلوقات أثره على طول الخطوط الراهنة في جبال الانديز والهماليا . من ذا يستطيع ان يدل بنسب كنسب الحوت ؟ لقد أهرقت حربة آخاب دماً أبعد في العتق والقدم من دم فرعون . وأما متوشالغ فانه ليس ازاءه الا طالباً صغيراً . وانظر حولي لأصافح سام بن نوح ، ويملاً الرعب قلبي وأنا انظر الى ويلات الحوت التي لا يمكن الافصاح عنها ، ويلاته التي كان وجودها الذي لا يعرف مبتدأه قبل عهد موسى ، ويلات وجدت قبل ان يكون الزمن ولا بد ان تظل بعد ان تنطوي العصور الانسانية .

ولم يترك هذا اللويثان آثاره القبل آدمية فحسب مطبوعة على صفحات الطبيعة ، ولم

يخلف قاعدته القديمة في الجير والثرى الكلسي فحسب ، وانما نجد طوايح لا تخطئها العين دمفتها زعنفته على الالواح المصرية التي اكتسب لها قدمها طابع المتحجرات او كاد : منذ خمسين سنة استكشفت في احدى غرف الهيكل الكبير في دندره على السقف الجرانيتي خريطة للبروج منحوتة مدهونة وقد حفلت بصورة السنطور والعتقاوات والدلافن تشبه الصور العجيبة على الكرة السماوية لدى المحدثين ، وينساب بينها اللويثان القديم سابحاً كما كان يفعل في سالف الازمان . أكانت هناك سباحة في خريطة البروج قبل قرون من وضع سليمان في المهد ؟

وعلينا ان لانتناسى شاهداً آخر غريباً على قدم الحوت في كيانه العظمي التالي لعهد الطوفان كما دوته جون ليو المحترم رحالة شمال افريقية :

«وغير بعيد عن ساحل البحر يقوم لهم هيكل عوارضه وعمده مصنوعة من عظام الحوت ، اذ ان حيتاناً ذات حجوم هائلة كثيراً ما يقذف بها البحر ميتة على الساحل ويعتقد العامة ان لا حوت يستطيع ان يجاوز ذلك الهيكل دون ان يدركه الموت الوحي وذلك من سرّ قوة اودعها الله في ذلك الهيكل . وحقيقة الامر ان على جانبي الهيكل صخوراً تمتد في البحر على مدى ميلين وهي تجرح الحيتان كلما حطت فوقها . وهم يتخذون ضلع حوت ذي طول بالغ من أجل اظهار المعجزة وهذا الضلع على الارض وجانبه المحدب في أعلى ، وبذلك أصبح قنطرة لا يستطيع ان يبلغ ذروتها رجل يمتطي جملاً» . ويقول جون ليو «ان هذا الضلع كان هناك منذ مئات السنين قبل ان اراه ، ويؤكد مؤرخوهم ان نبياً بشر بظهور محمد خرج من ذلك الهيكل ، وبعضهم لايتورع عن ان يؤكد بأن النبي يونان (ذا النون) قد ألقى به الحوت عند قاعدة ذلك الهيكل» .

في هذا الهيكل الافريقي - هيكل الحوت - اتركك أيها القارئ، واذا كنت من أهالي ناتوكت وكنت حواتاً جلست هنالك تتعبد في صمت .

هل ينقص جرم الحوت؟ أتراه يندرس؟

بقدر ما يبذل الحوت من جهد منحدرأً إلنا من منابع الابدية ، يلحق بنا ان نسال : أتراه في السياق الطويل لاجياله لم يتضاءل حجماً بالنسبة لحجم أجداده أصلاً؟
ولكننا لدى البحث لانجد فحسب ان حيتان العصر الحاضر أسمى جرماً من تلك التي بقيت منها ، في صورة متحجرات ، بقايا في العصر الثلثي (اي في فترة جيولوجية متميزة قبل ان يكون الانسان) بل نجد ان الحيتان التي وجدت في الفترة المتأخرة من العصر الثلثي تفوق في حجمها الحيتان التي وجدت في الفترات الاولى من ذلك العصر .
وأضخم الحيتان التي استخرجت وهي تنتمي الى عصر ما قبل آدم حوت الباما الذي ذكرته في الفصل السابق ، وطول هيكله أقل من سبعين قدماً ، بينما قد رأينا ان المقياس يشير الى ان هيكل الحوت الحديث ذي الجرم الضخم يبلغ اثنين وسبعين قدماً ، وقد سمعت والعهدة على الحواتين أنهم صادوا حيتان عنبر بلغت مئة قدم طولاً وقت صيدها .
ولكن ان كانت الحيتان في الايام الراهنة قد زادت في الجرم على حيتان جميع الفترات الجيولوجية السابقة ألا يصح ان تكون الحيتان منذ عهد آدم حتى اليوم قد تضاءلت حجوماً؟
يقيناً لا بد من ان نقر بهذه النتيجة إن نحن صدقنا أخبار سيد مثل بليني ومؤرخي الطبيعة القدماء ، اذ يخبرنا بليني عن حيتان كانت تفترش أفدنة وهي حية ، ويحدثنا الدروفانديس عن حيتان أخرى يبلغ طول أحدها ثمانمائة قدم - كأنما هي حبال ممدودة او أنفاق ممتدة تحت نهر التيمس . بل حتى في أيام بانكس وسولاندر المؤرخين الطبيعيين المرافقين لكوك نجد عضواً دتماركياً في أكاديمية العلوم يقول ان بعض حيتان ايسلنده (من ذوات الكروش المغضنة) تبلغ ١٢٠ ياردة أي ٣٦٠ قدماً . ويقول لاسيبيد العالم الطبيعي الفرنسي في كتابه المفصل عن تاريخ الحيتان ، وفي فاتحة الكتاب نفسها ، على الصفحة

الثالثة ان الحوت الاثني يبلغ مائة متر اي ٣٢٨ قدماً ؛ وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٨٢٥ .
ولكن أصدق اي حوات مثل هذه القصص ؟ كلا ، فحوت الايام الحاضرة يبلغ في الحجم مبلغ أجداده الذين عاشوا في أيام بليني واذا قدر لي ان اذهب أبداً الى حيث يقيم بليني فاني انا الحوات (ولم يبلغ هو في ذلك مبلغني) سأتجراً وأخبره بما أعتقد . لاني لست أفهم كيف ان المومياءات المصرية التي أُلحِدت قبل آلاف السنين ، قبل ان يولد بليني نفسه ، لاتزيد لو انك قست طولها وهي في لحودها عن طول فرد من أهالي كنتوكي وهو مرتد جوربه ؛ وكيف ان الماشية وغيرها من الحيوانات المنحوتة على الألواح المصرية والاشورية القديمة حسب مقاييس الرسم النسبية التي رسمت فيها ، تبرهن بوضوح على ان ماشية سمثفيلد^(١) التي يجري التحري في نتائجها ، وتقدم لها التغذية في مذاودها ، وتعرض لنيل الجوائز ، لاتساوي فحسب ، بل تبذ في جرمها ، أسمن ما كان لدى فرعون من بقر حينئذ ؛ لست أفهم كيف يكون ذلك كذلك ثم يرجى مني ان أقرب بأن الحوت وحده من بين جميع الحيوانات قد تضائل جرمأ .

ويتبقى سؤال آخر ، سؤال كثيراً ما يثيره أبناء نانتوكت ذوو الغموض والابهام ؛ مادامت الحواتات مزودة بمراقب عند رؤوس الصواري عليها رقباء كأنما لا تخفى عليهم خافية وهي تتغلغل نافذة حتى من مضيق برنج وفي أقصى مسارب العالم المائي ومغالقه ، ومادامت آلاف الرماح والحراش تقذف على طول السواحل القارية جميعاً ؛ مادام الامر كذلك فالنقطة التي يدور حولها الجدل هي ؛ هل يظل اللويثان يتحمل هذه المطاردة الواسعة وهذه الابادة التي لاتشوبها رحمة ؟ أليس مصيره ولا بد في النهاية ان يستأصل من البحار ، وآخر حوت كأخر إنسان ينفت دخان غليونه تم يتلاشى هو نفسه في النفثة الاخيرة ؟

لنقارن بين القطعان ذوات الحرادب من الحيتان وقطعان الجاموس البري ذوات الحرادب ايضاً فماذا توحى المقارنة ؟ كانت هذه الثانية قبل ما يقل عن أربعين عاماً منتشرة في عشرات الألوف على وجه السهوب في الينوي ومسوري وتهز معارفها الحديدية وتعتقد جباهها المتجهمة التي كأنما ساطها الرعد فوق مواقع ما أصبح عوامس نهريه كثيفة السكان ، حيث يبيعك السمسمار المهذب كل بوصة من أرض بمبلغ دولار . مثل هذه المقارنة قد تهيب حجة دامغة لا نجد لها نقضاً ، اذ تدل على ان الحوت المصيد لن ينجو من مثل هذا الفناء السريع .

(١) سوق المواشي بلندن منذ عام ١١٥٠ او قبل ذلك .

ولكن علينا ان ننظر الى الامر من جميع وجوهه . حقاً إن عدد الجاموس البري في
الينوي منذ مدة قصيرة - لا تحسن ان تسمى عمراً - كان يربو على عدد الناس اليوم في
لندن ؛ وأنك لا ترى اليوم في كل تلك المنطقة ظلاً او قرناً باقياً ؛ وأن سبب هذا الاستئصال
المذهل انما هو حربة الانسان ؛ كل هذا صحيح ، غير ان طبيعة صيد الحوت المباشرة لصيد
الجاموس تحول حتماً بين الحوت ومثل هذا المصير المزمري . أربعون رجلاً في سفينة تصطاد
حوت العنبر مدة ثمانية وأربعين شهراً قد يحسبون أنهم أحسنوا صنفاً ويحمدون الله ان
عادوا الى وطنهم في النهاية وهم يحصلون زيت أربعين حوتاً . أما في أيام الصيادين الكنديين
والهنود القدماء وناصبي الاشرار من أبناء الغرب ، حين كان الغرب (الذي لاتزال الشمس
تطلع في مغربه) قفراً بكرةً فان العدد نفسه من الرجال ذوي الاحذية المقسنية ينفقون عدداً
مساوياً من الشهور ويعودون وقد ذبحوا أربعين ألفاً من الجواميس او تزيد ، لا أربعين
عدداً ، وتلك حقيقة يمكن ان تدعم عن طريق الاحصاءات ان شاء أحد ذلك .

بل انك اذا تأملت هذه الحجة على وجهها الصحيح لم تكن دليلاً يؤيد القول بالفناء
المتدرج لحوت العنبر مثلاً ، ففي السنوات السابقة (الفترة الاخيرة من القرن الماضي على
سبيل المثال) كان الحواتون يرون هذا الحوت في أصورة صغيرة بأكثر مما يرونه اليوم ،
ومن ثم لم تكن رحلاتهم تطول كما أنها كانت دارةً بخير وفير ، ذلك ان هذه الحيتان كما
لحظنا في غير هذا الموضوع سيطرت عليها فكرة عن السلامة والنجاة فهي اليوم تمخر عباب
البحار في قوافل كبيرة بحيث تقول . وقولك لا يبعد الصواب ، بأن الحيتان المفردة وأزواج
الحيتان ، والاصورة ، وفئات الايام الاولى أخذت اليوم تتجمع على شكل جيوش كثيفة
ضخمة وان كانت جيوشاً متباعدة . ذلك كل ما هنالك . ويستوي مع تلك الحجة في تضليلها
توهم من ظن أن الحيتان البلينية وقد كفت عن التردد على مجالات كانت من قبل حافلة بها
فهي إذن فصيلة آخذة بالانحدار . ذلك انها إنما طردت من أكمة بحرية الى رأس بحري ،
واذا لم يعد أحد الشواطئ، ينتعش بنفثاتها فكن على يقين من ان هناك سيفاً آخر أنأى منه
قد أصبح منذ عهد قريب مفزَعاً بذلك المنظر الغريب .

ثم ان لدى هذه الحيتان التي ذكرتها أخيراً قلعيتين ثابتتين ركينتين ستظلان ، على
وجه ما يقدره بنو الانسان من احتمالات ، عاتيتين منيعتين أبد الدهر . حين تعرضت
وديان سويسرا للهجمات تراجع السويسريون أبناء الصقيع الى جبالهم وهكذا الحيتان
البلينية ؛ اذا طاردها الصيادون من سهوب البحار الوسطى ومساربيها استطاعت ان تأوى
الى حِصْنَيْهَا القطبيين وأن تغوص تحت الحواجز والجدران الزجاجية القصوى ، وأن تبرز

بين حقول الجليد والأطواف الثلجية ، فاذا تجرم الحول وعاد اليها كانون الأول العائد
أبدأ ، تحدث كل مطاردة يقوم بها الانسان .

وكلما اصطاد الحوتون خمسين من الحيتان البلينية صادوا في مقابلها قشلوطاً عنبرياً
واحداً ، ولهذا استنتج بعض فلاسفة المنارة ان هذه الابداء قد أنقصت من كتابتها إنقاصاً
بالفأ . حقاً كان ما يصاد من هذه الحيتان ، طوال مدة ماضية ، لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً
كل عام على الساحل الشمالي الغربي من الامريكيتين وحدهما ، ولكن هناك اعتبارات تجعل
هذا الامر نفسه قليل القيمة او معدومها في اتخاذها حجة مضادة في هذه القضية .

من الطبيعي ان نتردد في تصديق كثرة الحيوانات الضخمة على ظهر الكرة الارضية ،
ولكن ماذا نقول لهارتو مؤرخ جوا حين يخبرنا ان ملك سيام اصطاد في مرة واحدة أربعماتة
فيل ، وأن الفيلة في تلك النواحي عديدة كقطعان الماشية في المناطق المعتدلة . واذا كانت
الفيلة التي مرت عليها آلاف السنين وهي تصاد - صادتها سمير اميس وبورس وهيبال
وجميع من تلاهم من ملوك الشرق - اذا كانت ماتزال باقية في أعداد كبيرة ، فان الحوت
العظيم أجدر ان يبقى رغم المطاردات ، ولا سبب يدعونا الى ان نرتاب في ذلك ، ما دام
لديه مرعى ينتشر فيه ، مرعى يساوي ضعفي آسيا كلها ومعها قارتا امريكا وأوروبا وافريقية
وهولنده الجديدة وجزر البحر مجتمعة .

ثم ان الحوت يطول به العمر كثيراً وهذا يجعلنا نقدر ان الواحد منها قد يعيش قرناً او
اكثر ، واذن ففي حقبة واحدة من الزمن ، تكون أجيال كثيرة متمايضة من الحيتان الفتية
متعاصرة ، وانا لنستطيع ان نكوّن فكرة عما تعنيه هذه الحقيقة اذا نحن تخيلنا المقابر
والجبانات والفسثقيات وهي تبعث من في بطونها أحياء من رجال ونساء وأطفال كانوا على
قيد الحياة قبل خمسة وسبعين عاماً ، وتضيف هذا الجيش العرمرم الى السكان الاحياء فوق
ظهر الارض .

لأجل هذه الامور جميعاً نعد الحوت خالداً زرافات وفصائل مهما يكن الفناء من نصيبه
افراداً ، لقد كان يجوب البحار قبل ان ينشق الماء عن القارات ، وكان ذات يوم يسبح فوق
موقع التويلري وقلعة وندسر والكرملين . ويوم عمّ الكون طوفان نوح ازدرى سفينته ؛ فاذا
غمر الطوفان العالم مرة أخرى ، كما تنفمر أراضي هولنده ، ليقتل ما فيه من جرذان فان
الحوت الخالد سيقاوم الفناء ، وسوف يرسل نفاثاته المزيدة متحدياً السماء وهو محمول على
أعلى قمة في الطوفان الاستوائي .

رجل آخاب

تلك الطريقة العجلى المتهورة التي غادر بها آخاب السفينة صومويل أندربي اللندنية كانت مصحوبة ببعض العنف اليسير الذي اصاب شخصه ، فقد نزل على مقعد المجذاف في قاربه باندفاع حتى ان رجله العاجية تلقت صدمة كادت تشظيها وعندما اصبح على ظهر سفينته ووضع رجله في الثقب المحوري دار دورة حادة وهو يلقي امرأ عاجلاً الى القائم على الدفة (كان خطؤه هو الخطأ المعتاد في انه لم ينحن بدفته انحناءً كافياً) ، عندئذ تلقت العاجة التي اوهنتها الصدمة الاولى وثياً وثياً جديداً ، ومع انها ظلت في ظاهرها سليمة قوية فان آخاب لم يعد يرى انه يمكن ان يوليها ثقته الكاملة .

والحق ان آخاب احياناً رغم تهوّه الاحمق الغالب وقلة توقيه كان يولي حال هذه الرجل الميتة التي يتحامل بجانب من جسمه فوقها عناية فائقة ، وتلك مسألة صغيرة لكنها لا تخلو من اثاره العجب ؛ فقبل وقت غير طويل من مفادرة الباقولة لميناء ناتسوكت وجد آخاب ذات ليلة منبطحاً على الارض فاقدأ وعيه . وقد انتثر عضوه العاجي من مكانه بعنف حتى انه ضرب برأسه طرف وركه وكاد يخترقه ، وبعد جهد جهيد شفي من جرحه الأليم . اما كيف حدث ذلك فذلك يعزى الى قدر مجهول لا يستطيع تفسيره ولا يمكن تصويره .

ورسخ في ذهنه الممرور يومئذ ان جميع العذاب الناجم عن ذلك الألم الراهن انما كان وليد بلية سابقة ، ويبدو انه استبان لنفسه ان كل الاحداث التعيسة تلد - بطبيعة الامر - اشباهها ، مثلما ان اشد الزواحف أذى وسماً في المستنقع وأحب الطيور المفردة في الحديقة يخلد كل منهما نوعه بالتوالد ، على نحو محتوم ، ويتم هذا التوالد في صور الخير والشر جميعاً على قدر واحد من الهناء والغبطة . بل ان آخاب قال لنفسه ؛ على قدرين متفاوتين ، اذ أن نسل الاسى يعمر اكثر من نسل الفرح ، لا اعني انني ألتح الي ما جاء في بعض حكم

التوراة اذ ورد فيها ان بعض الافراح الطبيعية لا تنجب لها اولاداً في العالم الآخر ، انما الفرح العقيم سيتلوه كل يأس جهنم ، بينا بعض التعاسات البشرية الأتمة ستكون ولوداً فتنجب الى الابد نسلأ من الحزن ، وراء القبر ؛ لا لست ألمح ابدأ الى هذه الحكمة ، انما على ذلك لايزال أمر الحزن والفرح اذا حللتها قائماً على عدم التساوي ، وقد قال آخاب لنفسه : ان أرفع المسرات الارضية تحتوي على تفاهة تافهة كامنة فيها أما احزان القلب فإن في اغوارها اهمية مفيبة ولها لدى بعض الناس رفعة ملانكية . وعلى هذا فان نتاجها اللازب لا يكذب هذا الاستنتاج الواضح . واذا شئنا ان نتبع نسب هذه التعاسات الانسانية العليا نقلنا ذلك اخيراً الى الابناء البكر المنسوبين الى الآلهة والذين جاءوا من لا أين ، حتى نقر امام وجه الشموس الجذلى التي تصنع الحدائق وأمام وجوه الاقمار المرئمة المستديرة التي تنضج الجنى ، ان الآلهة انفسهم لا يخالهم السرور الى الابد . فعلامه الميلاد الحزينة المدموغة دماً لا يطمس على جباه الناس انما هي طابع الأسي في نفوس الذين طبعوها هنالك .

ها قد أفشينا في هذا الموطن سرأ ، دون ان نتفطن لذلك ، وربما كان من الانسب لو كشفنا عنه من قبل على نحو عامد : لم مكث آخاب مختفياً قبل ان تغادر الباقوطة الميناء وبعد ان غادرت ، مدة من الزمن ، في وحدة كأنها وحدة اللاما الجليل^(١) ، ولم لاذ الى وحدة صامته في تلك الفترة بين مجمع الرخام الذي يضم الموتى ؟ ذلك أمر ظل ، مع امور اخرى تتصل بآخاب ، سرأ خفياً لدى بعضهم . اما السبب المخلتق الذي أشاعه القبطان فالج حول هذا الامر فلم يكن مقنعاً بحال وان كان كل كشف يمس الجوانب الأعمق من آخاب يعود ينصيب من الظلام المميز اكثر من الضياء الكاشف . غير ان كل شيء اتضح في النهاية او قل ان هذا الامر في الاقل انكشف ، فقد كانت تلك الحادثة المحزنة هي السبب في عزلته المؤقتة ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان العصبية التي كانت تتناقص ويقل عدد أفرادها على الشاطيء ، العصبية الذين كان لهم ، لأي سبب ، حق يبيح لهم ان يقتربوا منه اكثر من سواهم ، تلك العصبية الخوارة تلبست لها تلك الحادثة التي ذكرتها آنفاً بلبوس الرعب وذهب بهم خيالهم الى انها قد تكون من عمل الاشباح ومن دنيا الاتراح ، أما آخاب نفسه فإنه لم يقدم لما أصابه تعليلاً وان ظلّ مكدر النفس به ، ومن خلال حماسة تلك العصبية له اتفقوا فيما بينهم ما دام العلم بالامر مقصوراً عليهم ، ان يطووه في صدورهم عن الآخرين ؛ وهكذا لم يذع فوق ظهر الباقوطة إلا بعد مضي فترة غير قصيرة من الزمن .

(١) يقولون ان اللاما في بلاد التبت لا تقع عليه عين .

وليكن من كل هذا ما يكون : سواء أكان الذي تصرس - او لم يتمرس - بآخاب ابن الارض مجمع غامض محبوب في الفضاء او أسياد النار وسدنتها المنتقمون ، أقول مهما يكن من امر فان آخاب في هذا الامر المتعلق برجله لجأ الى طرق عملية - اعني انه استدعى النجار .

وحين حضر ذلك العامل بين يديه أمره ان يشرع في صنع رجل جديدة ، دون ابطاء ، وأمر ضباطه ان يراعوا انه قد زود بكل الدرر والمسامير من الفك العاجي (فك حوت العنبر) مما كانوا قد جمعوه اثناء الرحلة حتى يتتقي منها اقواها وأمتنها وأنصعها وأصفاها من العروق ، وحين تم ذلك تلقى النجار أوامر بأن ينجز صنع الرجل في تلك الليلة وان يزودها بكل مستلزماتها دون اعتماد على الادوات التي كانت مستعملة في الرجل الموثوءة الواهية . ثم أمر ان ترفع عدة الحداد من حيث تقبع في العنبر وأمر الحداد ، رغبة في الاسراع ، ان يبدأ حالاً بصنع ما يحتاج اليه من أدوات حديدية .

النجار

اتخذ لنفسك عرشاً سلطانياً وجلسة متعازمة بين أقمار زحل ، وتخيل الانسان من زاوية تجريدية سامية يتبدأ لك عجباً وجلالاً وويلاً ، ثم اعتبر بني الانسان جملة وسيدون لك في معظم الحال رعاغاً من صور مكرورة بعضها حديث وبعضها قديم . غير ان نجار الباقوطة لم يكن صورة مكرورة ، على انه متواضع لا يمكن ان يتخذ مثلاً لتجريد انساني سام ، ولذا يظهر على هذا المسرح وحده .

كان هذا النجار ككل النجارين في السفن التي تجتأب البحار ، وبخاصة من كان منهم ينتمي الى العواتات ، ذا خبرة في حرف وصناعات عديدة الى جانب حرفته ، وكان يمارسها الى حدٍ عملي في سهولة ودون تعمل ، إلا ان حرفة النجارة كانت هي الجذع القديم الذي تتفرع منه بقية الحرف اليدوية المتصلة - اتصالاً كثيراً او قليلاً - بمادة الخشب من حيث هي مادة فرعية ؛ وزيادة على الملحظ العام الذي أضفينا على نجار الباقوطة فيما تقدم نقول انه كان ينفرد في كفايته في ممارسة تلك الامور الطارئة الآلية التي تبلغ الالف عدداً ولا تحمل اسماء مميزة لها ، وهي امور تجري مراراً وتكراراً في السفينة الكبيرة حين تقضي في رحلتها ثلاث سنوات او اربعا في بحار موحشة نائية . دع عنك ذكر استعداده لانجاز الشؤون العادية من اصلاح القوارب المشقوقة والسواري المتخلعة واصلاح اشكال المجاذيف التي كلّ حدها وتركيب الكوي في ظهر السفينة وعرز الخوابير الجديدة في الالواح الجائبية وغير ذلك من المواد المختلفة المتصلة مباشرة بصنعتي ، دع ذلك كله تجد انه زيادة عليه كان ماهراً دون تردد في كل انواع الاهليات المتضاربة سواء في ذلك المفيد منها او الذي يتولد عن نزوة . وكان المسرح الذي يمثل عليه كل هذه الفصول المتعددة هو الدكة ذات الملزمات ، وهي طاولة طويلة خشنة ثقيلة مزودة بملزمات عديدة من حجوم مختلفة بعضها من حديد

وبعضها من خشب ، وهذه الدكة تظل في جميع الاوقات مربوطة بالعرض الى جانب السفينة ريثماً وثيقاً في مواجهة مؤخرة مصانع التصفية إلا حين تكون الحيتان مجنبة الى المركب .

هذا وتد للحيبال اكبر من ان يدخل بسهولة في الثقب ، فالنجار « يلزمه » بين فكي واحدة من ملزماته المعدة ابدأ وعلى التوّ يسحل منه وتبدأ اصفر . وذلك طير من طيور البر ضال ذوريش غريب فهو يتلدّد حائراً على ظهر السفينة ويؤخذ أسيراً ؛ فالنجار يصنع له قفصاً على هيئة الباغوده « المعبد الهندي » من قضبان مجردة معروقة بيضاء تتخذ من عظم الحوت الاثني تعارضها قضبان اخرى من عاج حوت العنبر . ويوهي أحد المجذفين رسفه فيطبّخ له النجار غسولاً مسكناً . ويتوق اسطب الى ان يرى على شفرة كل مجذاف لديه صور النجوم مدهونة بالزنجفر ، فيلزم النجار كل مجذاف في ملزمته الخشبية الكبيرة ويزوده في انتظام بالصور النجومية ؛ ويرغب احد البحارة في ان يعلق في أذنيه شنوفاً من عظم القرش فيثقب النجار له حجوتي أذنيه . وهذا آخر يشكو ألماً في ضرسه فيبرو النجار ملقطه ويلزم احدى يديه الى الدكة ويأمره ان يجلس هنالك ، غير ان الفتى المسكين يتوجع متلويماً متفلتاً أثناء العملية قبل ان تبلغ الختام ، أما النجار فيدير مقبض الملزم الخشبي ويومئ إليه ان يدخل فكه فيه ان شاء ان يقتلع النجار ضرسه .

وهكذا كان النجار مستعداً في جميع الامور ، وكان في أداؤها جميعاً قليل المبالاة قليل السرعة على حد سواء ؛ كان يحسب الاضراس نتفاً من العاج ، والرؤوس بكرات في قعم الصواري ، وكان يحسب الرجال انفسهم في استخفاف مساحب في سفينة ، ولكن بما أنه كان يعمل في ميدان واسع وينجز هذه المتنوعات بحيوية في المهارة فكل هذا قد يوحي بأنه كان ذا حظ فذ من الذكاء . ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة ، اذ لم يكن هذا الرجل يتميز بشيء . أكثر من بلادة بليدة مجردة من الحسن الشخصي ؛ أقول مجردة من الحسن الشخصي لانها كانت تلقي ظلها على ما لا يحصر من الاشياء المحيطة حتى لترى وكأنها جزء لا يتجزأ من البلادة العامة التي تتحققها في جميع العالم المنظور ، وهي قد تكون نشيطة دائية في أحوال لا تحصى ولكنها مطمئنة قارة أبدأ الدهر تتجاهلك حتى ولو كنت تحفر أسساً للكاتدرائيات . إلا ان هذه البلادة التي قد ترؤّع بعض ارتياع فيه تشمل ايضاً فيما يظهر قسوة قلب متشعبة في جميع الوجوهات غير انها كانت تنهرها على وجه غريب احياناً روح فكاهة كأنها العكازة عريقة شهدت ما قبل الطوفان تجيء هادرة صافرة تتخللها بين الحين والحين التماعات فضية من الفطنة ، قد تكون من قبيل تلك الفكاهة الصالحة لازجاء الوقت الواقع خلال رقابة منتصف الليل في المنارة المدببة من سفينة نوح . أكان ذلك لان هذا

النجار العجوز كان جواباً مدى الحياة فكان اهتزازة وراءه وأماماً سبباً في انه لم يجعل الطحلب يعلق به ، بل زاد فحماً عنه اي عوالق خارجية قد تكون في الاصل عالقته به ؟ كان تجريداً مجرداً ؛ عدداً صحيحاً من غير كسر ؛ ناداً عنيداً كأنه وليد ؛ يحيا دون انتماء مبيّت الى هذا العالم او العالم الآخر . وربما كدت تقول ان هذا النداد الغريب فيه يتضمن نوعاً من الغباء اذ لم يكن يبدو انه يمارس حرفه العديدة بالعقل او بالفريزة او لانه درب فيها محض تدريب او بمزيج من هذه الامور كلها ، سواء أكان مزيجاً متعادلاً او غير متعادل ، وانما كان يؤدي ما يؤديه على نحو أصم أخرس تلقائي حرفي . كان محض امرى، صناع ، اما ذهنه ، ان كان له ذهن أبداً ، فقد ترشح في عضلات أصابعه . كان شأنه شأن احدى ادوات شفيلد المبتكرة ، مفيدة كبيرة الفائدة ولا عقل لها - « متعدد في مفرد » - تتخذ ظاهر موسى الجيب المعروفة وان كانت اكثر منها انتفاخاً لا تحتوي فحسب على شفرات من جميع الصجوم وانما تحتوي ايضاً مشبات القلاووظ والبرائم والملاقط والمخارز والأقلام والمساطر ومبارد المسامير وسكاكين التخويش . فاذا أراد أسياد النجار ان يستغلوه مشباً بقلاووظ فكل ما عليهم ان يفعلوه هو ان يفتحوا ذلك الجانب منه ، واذا بالقلاووظ ثابت في موضعه . واذا شاءوا اتخاذه ملقطاً رفعوه ، من رجليه فاذا هو ملقط في ايديهم .

ولكن هذا النجار الحريف المتعدد الادوات الذي يعمل بالفتح والاعلاق لم يكن - حسبما سبق ان ألمحنا - محض آلة ذاتية الحركة . فاذا لم يكن ثمة روح منبثة فيه فقد كان فيه شيء خفي يعمل عمل الروح على نحو شاذ . ماذا كان ذلك الشيء ؟ أكان روح الزئبق او بضع قطرات من ايدرات الامونيوم ؟ ذلك ما لا احد يدريه ، غير انه كان ثمة ؛ وثمة عاش نحو ستين عاماً او تزيد . وكان مبدأ الحياة هذا الماكر المتدسس فيه الذي لا نجد له تعليلاً وتفسيراً ، ذلك المبدأ هو الذي جعله يقضي اكثر الوقت مناجياً نفسه ، إلا انه ليس إلا كالدولاب الجماد الذي يتناجي نفسه بالطينين ، او قل ان جسمه كان مأوى الحارس وكان هذا المناجي حارساً فيه فهو يتحدث طوال الوقت ليبقى مستيقظاً .

آخاب والنجار

ظهر السفينة - النوبة الاولى من الحراسة الليلية

النجار واقف امام دكته ذات الملازم وهو منهمك في يرد
 دسار عاجي من أجل الرجل على ضوء قنديلين، والديسار منبت
 في الملزسة، وتنتشر حول الطاولة شظايا من العماج وقطع
 الجلد واللباد والبراعي ومختلف الادوات من كل نوع. والى
 الامام تلوح نار الحدادة حيث القسين منكب على العمل..

المبرد يصىء، والعظمة تصىء . صلبة هي التي يجب ان تكون رقيقة ، ورقيق هو الذي
 يجب ان يكون صلباً ، كذلك بختنا نحن الذين نبرد الفكوك القديمة والظنايبب . لنجرب
 واحدة أخرى . أجل ، هذه أحسن (يعطس) هالو ، غبار العظم هذا (يعطس) ، ولكن
 (يعطس) نعم انه (يعطس) رحمة الله على روعي ان العطاس لا يدعني أتكلم ، هذا ما يجنيه
 رجل عجوز يعمل في خشب موات . إنشز شجرة حية فانك لا تصادف هذا الفبار ، اقطع
 عظمة حية فلا تجده ايضاً (يعطس) . هيا . هيا يا اسمط العجوز أعطني يدك ودعنا نأخذ
 تلك الهراوة وبرغي الازيم . سأكون مستعداً لهما في الحال . من حسن الحظ (يعطس) أننا
 لن نضع مفصل ركبة فذلك يحير بعض الشيء ، وانما نضع قصبه ساق - وهذا أمر سهل كصنع
 مساند الدوالي ، إلا أنني أحتاج ان اصقلها جيداً . المهم هو الوقت ، الوقت ، لو كان لدي
 وقت ل جعلت منه رجلاً صالحه كخير (يعطس) رجل انحتت لسيدة في قاعة . تلك الارجل
 المصنوعة من جلود الغزلان او العجول ، رأيتها في فترينات الحوانيت ولا أقارنها بها . انها
 تتشرب الماء ، انها تتشرب وتصبح سبباً في الروماتزم ولا بد من تطيبها (يعطس) بالفسول
 والماء كالأرجل الحية . قدك ؛ قبل ان أنجزها لايد ان أدعو « جنابه » وأرى ان كان الطول
 مناسباً ، لعلها أقصر من اللازم - فيما أخمن - ان كان يمتورها شيء . ها . ذلك هو الكعب!
 نحن محظوظون . ها هو قادم او لعله غيره ما في قدوم أحد من ريب .

آخاب [متقدماً] .

[خلال المنظر التالي يعتاد العطس النجارَ بين الحين والحين] .

- هلا يا صانع الأدميين!

- في الوقت المناسب جنت يا سيدي ؛ ان سمح القبطان فإني أقيس الطول ، دعني

أخذ القياس سيدي .

- تقيس طول الرجل! حسناً ؛ ليست هذه أول مرة . هيا! تنبه دع اصبعك عليها ؛ هذه

ملزمة مفحمة تلك التي لديك هنا أيها النجار ، دعني أحس قبضتها مرة . كذا . كذا . انها

لتؤذي بالقرص بعض الشيء .

- أواه يا سيدي انها تكسر العظام ، حذار! حذار!

- لا تخف انا أحب القبضة المحكمة ، أحب ان أحس شيئاً في هذا العالم الزلق يتشبث

ويقبض باحكام ، ايها الرجل . ماذا يفعل بروميثيوس هنالك - أعني الحداد - فيم هو ؟

- لا بد أنه يصنع برغي الابزيم .

- صدقت . هذه مشاركة فهو يصنع الجزء العضلي . انه يوحد شمعة حمراء قوية!

- أجل سيدي ؛ لا بد من ان تكون لديه الحرارة البيضاء من أجل هذا النوع من العمل

الدقيق .

- ها . ها . لا بد له . اظن هذا شيئاً حافلاً بالمفزي ، أعني ان الاغريقي القديم

بروميثيوس الذي صنع الناس كان حداداً ، ولا بد ، ووضع فيهم نسمة الحياة من النار لأن ما

يصنع من النار لا بد ان ينتمي الى النار ، فوجود جهنم أمر محتمل . كيف يتطاير السناج!

لا بد ان تكون هذه هي الحثالة التي صنع بروميثيوس منها الافريقيين . نجارا! حين ينتهي من

صنع الابزيم فقل له ان يصنع زوجاً من الاكتاف الفولاذية فعلى ظهر السفينة تاجر جواب

يحمل حملاً يقض الظهر .

- سيدي ؟

- أمسك عليك ؛ مادام بروميثيوس في الميدان فاني سأمر بصنع انسان كامل حسب

أنموذج مرغوب . أولاً طوله وهو في جوربه خمسون قدماً ، وأما الصدر فيسوى على نسق

نسق التيمس وللرجلين جذور تقفان عليها في مكان واحد ، والذراعان ، محيط الواحد منهما

عند الرسغ ثلاثة أقدام ، القلب أبداً . جبهة نحاسية وحوالي ربع فدان من المخ الرقيق ، ثم

دعني أنظر - أأوصي بعينين تريان الى خارج ؟ كلا وانما أضع ناروزة في يافوخه لتضيء نحو

الداخل . ويحك تلقّ الأمر وامض به!

- ترى عم يتكلم ولمن يتكلم ، أود ان أعرف ؟ أأظن واقفاً هنا ؟ (منتحياً جانباً) .
- من يصنع قبة دون كوة فانما ذلك منه عدم مبالاة في فنه المعماري لا . لا . لا . لا بد
من قنديل .

- ها . ها . ها هو . ها هما اثنان يا سيدي فأنا يكفيني واحد منهما في عملي .
- لم تزج كشاف اللصوص في وجهي يا رجل ؟ أأست تعلم ان دفع الضوء في الوجه
أسوأ من اهداء المسدسات .

- ظننتك سيدي تكلمت الى النجار .
- النجار ؟ ذلك - لكن لا - أقول : هذا عمل متقن جداً مهذب غاية في التهذيب ، ذلك
الذي تقوم به أيها النجار - او تحب ان تكون مادتك هي الصلصال .

- سيدي ؟ الصلصال ؟ تقول الصلصال يا سيدي ؟ ذلك طين ، ونحن نترك الطين لحفاري
الخنادق يا سيدي!

- يا له من فتى زنديق! مابك تعطس كثيراً ؟

- العظم مغبر يا سيدي .

- اتعظ اذن ، وحين تموت لاتدفن نفسك دون أنوف الناس الاحياء .

- سيدي ؟ اوها آه! ذلك ما أأخمنه - نعم - رياه!

- اسمع ايها النجار . لاغرابة اذا قلت لك إنك تدعو نفسك عاملاً صناعاً متقناً كأنك
عامل ، أليس كذلك ؟ طيب . اذن اذا أحسست عندما امتطي هذه الرجل التي تصنعها ان
هناك رجلاً أخرى في نفس المكان معها فهل يكون هذا ثناء على عملك ؟ وأعني بالرجل
الثانية يا نجار رجلي القديمة المفقودة ، أعني ذات اللحم والدم . ألا تستطيع ان تطرد هذا
الاحساس عني كما طرد آدم من الجنة ؟

- حقاً سيدي أخذ بصيص من الفهم يتسرب الى رأسي . نعم ، سمعت شيئاً غريباً من
هذا القبيل يا سيدي وكيف ان الرجل الذي انحطم صاريه لا يفقد الاحساس تماماً بصاريه
القديم بل يظل الصاري يخزه أحياناً . أيجوز لي ان أسأل في تواضع يا سيدي أحقاً ان الحال
كذلك ؟

- هو كذلك ايها الرجل . اسمع . ضع رجلك الحية هنا في الموضع الذي كانت فيه
رجلي . ها هنا رجل واحدة في نظر العين ولكن الروح تبصر اثنتين . حيث تحس انت
بالحياة التي تخز هناك ، تماماً ، هناك ، هناك أحس بها أنا ايضاً في أدق صورها . أهذا لفرز ؟
- بل اسميه في تواضع معضلة ، يا سيدي .

- أصخ اذن . كيف تعرف ان شيئاً حياً مفكراً لا يقف خفياً متغلغلاً بالاضبط حيث تقف أنت الآن ؟ أجل ، بل يقف هنالك رغباً عنك ؟ في أشد ساعات الوحدة اذن ألا تخشى من يسترقون السمع ؟ أمسك ، لا تتكلم . واذا كنت انا ما أزال أحس وخز رجلي المحطومة ، وان طال العهد على انفصالها عني ، فلم لا تحس أنت ايها النجار آلام جهنم النارية الى الابد ودون ان يكون لك جسم ؟ ما قولك ؟

- رباه! حقاً ، سيدي ، ان كان الامر يبلغ ذلك فلا بد من ان أعيد الحساب ، أظنني لم أحتقب منه رقماً صغيراً يا سيدي .

- اسمع ان الرؤوس التي في شكل البودنج ليس لها ان تقدم المقدمات المنطقية - كم يستغرق انجاز الرجل ؟

- لعله يحتاج ساعة يا سيدي .

- جرب غيابك في انجازها وأحضرها اليّ (يدور ذاهباً) آه أيتها الحياة . ها أنا مستكبر كأحد الارباب الاغريقية ومع هذا أراني مديوناً لهذا الغبي من أجل عظمة أقف عليها ، لمن هذا التقارض البشري الذي لا يستغني عن دفاتر الحسابات ؛ أستطيع ان اكون طليقاً كالهواء ، وها أنا مقيد في دفاتر العالم كلها . انا غني حتى لقد كنت أستطيع ان أقف نداءً لأغنى البريتوريين في مزاد الامبراطورية الرومانية (وكانت يومئذ هي العالم) ومع ذلك فأنا مدين باللحم في اللسان الذي أتشدد به ؛ وحق السماء لأحضرن بوتقة وأدخل فيها وأتلاشى حتى أحول عظمة فقارية صغيرة موجزة .

النجار [مستأنفاً عمله]

« حيلك! حيلك! اسطب خير من يعرفه ، ويقول اسطب دائماً انه طوروي^(١) . لا يقول شيئاً سوى هذه الكلمة الصغيرة الجامعة : «طوروي» . يقول اسطب فيه ؛ طوروي ؛ هو طوروي - طوروي ، طوروي ولايفتأ يدندن بها في اذن السيد استاربيك طول الوقت - سيدي هو طوروي ، طوروي ، طوروي ، طوروي جداً . وها هي رجله! أجل ، كلما فكرت فيها وجدت فيها رفيقته في الفراش! انه اتخذ عصاً من عظم فك الحوت زوجة ؛ وهذه هي رجله ، سيتقف على هذه . كيف قال ان رجلاً واحدة تقف في ثلاثة مواضع ، والمواضع الثلاثة جميعاً تقف في جهنم ، كيف كان ذلك ؟ آه . لا أعجب اذا نظر اليّ بازدراء . انا انسان غريب التفكير أحياناً ، هكذا يقولون عني ، ولكن هذا لايجي . إلا من قبيل المصادفة . ان قامة قصيرة قمينة مثل قامتي

(١) طوروي = متقلب المزاج

يجب ألا تضطلع بالخوض في المياه العميقة مع القباطنة الفارعين ذوي البنية السامقة كبنية مالك الحزين ؛ مثلي اذا نزل في الماء داعبه الماء تحت ذقنه في سرعة ، فأرسل صرخة عالية يطلب قوارب النجاة . وها هي رجل مالك الحزين ، طويلة دقيقة ، بالتأكيد! اكثر الناس لديهم رجلان تعيشان العمر كله وما ذلك الا لانهم يستعملونها في شفقة مثلما تستعمل المعجوز ذات القلب الرقيق حصاني عربتها المعجوزين المرتجفين كبراً وهزالاً . أما آخاب ، أواه ، انه سواقٌ حُطَم . طرح ساق احدي رجله الى الموت وعرقب الاخرى طول الحياة ، وها هو الآن يلبس أرجلاً عظمية يربطها بالخيوط . هالو انت يا اسمط! مذ يدك بتلك البراغي ولنتته من هذه الرجل قبل ان يجيء نافخ الصبور داعياً بصوره جميع الارجل ، أصلية كانت او مصنوعة ، مثلما يدور رجال المعاصر ليجمعوا براميل البيرة القديمة كي يملأوها مرة أخرى . أي رجل هي! تبدو وكأنها رجل حية ، قد تلاشت على الصقل فلم يبق الا لبها . سيقف عليها غداً ، وسيذرع بها المسافات . هالو! كدت أنسى قطعة الاردواز البيضوية الصغيرة أعني قطعة العاج الملساء حيث يقيد المسافات . كذا . كذا الى الازميل ، الآن ، والمبرد وورق الصنفرة!

آخاب واستاربك في القمرة

كانوا يضحون السفينة حسبما جرت العادة في الصباح التالي وها هو الزيت الذي ذهب مع الماء غير قليل . لابد ان تكون البراميل في الاسفل قد اصيبت بعطب فتسرب الزيت منها . وأبدى القوم كثيراً من الاهتمام ونزل استاربك الى القمرة لينقل هذا الخبر المزعج* . عندئذ كانت الباقوطة من الجنوب والغرب تقترب من فرموزه وجزائر باشي التي يقع بينها احد المنافذ الاستوائية المؤدية من المياه الصينية الى المحيط الهادي . فلما دخل استاربك على آخاب وجده قد نشر امامه خريطة عامة للأرخبيلات المشرقية ، وخريطة اخرى منفصلة تمثل الشواطئ الشرقية من الجزائر اليابانية - نيفون و ماتسمي و سيكوكه . وكان الرجل العجيب قد قطب جبينه وهو يتتبع طرقة القديمة ، وقد جعل رجله العاجية الجديدة الناصعة تطوق قائمة الطاولة المثبتة بالبراغي وحمل في يده مدية ذات كلاب طويل للتقليم ، وجعل ظهره نحو الباب الشارع على الممر .

وعندما سمع وقع الخطى صاح دون ان يلتفت : « من هذا! عد الى ظهر السفينة! انصرفا! »
 - « القبطان آخاب مخطئ ، هذا أنا . الزيت في العنبر يشرح متسرباً يا سيدي . علينا ان نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل لمعاينتها » .
 - « نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل ؟ أهذا ونحن نقترب من اليابان ؟

* في حواتات العنبر التي حملت ايه كمية غير قليلة من الزيت جرت المادة كل نصف اسبوع - دون اخلال - ان يمد خرطوم في العنبر ، وتبل البراميل بماء البحر ، ثم يصرّف هذا في ترات متفاوتة من بعد بمضخات السفينة ، بهذا العمل يريدون ليحفظوا البراميل متماسكة محكمة بالترطيب ، بينما يستطيع الملاحون ان يستكشفوا اي صدع خطير في هذه الشحنة الثمينة وذلك اذا تغيرت طبيعة الماء الذي يسحبونه .

نوقف السفينة أسبوعاً هنا ، لترأب مجموعة من الاطواق العتيقة ؟ » .
 - « اما ان نفعل هذا يا سيدي او نضيع زيتاً في يوم اكثر مما قد نكسبه في عام . ان ما قطعنا عشرين ألف ميل للحصول عليه يستحق الحرص يا سيدي » .
 - « صحيح ، هو كذلك ان استطننا ان نحصل عليه » .
 - « كنت أتحدث عن الزيت في العنبر يا سيدي » .
 - « وأنا لم اكن اتحدث عن هذا او افكر فيه ابداً . انصرف! دعه يرشح ، أنا نفسي ارشح . اجل رشحات في رشحات . لست فحسب مليوناً ببراميل ترشح وانما هذه البراميل الراضحة مودعة في سفينة مشقوقة . وهذه ورطة اسوأ من حال الباقوطة ايها الرجل . ولكني لا أقف لأرأب الصدع الذي في ، اذ من ذا الذي يستطيع ان يجد الصدع في الهيكل المشقل وكيف يمكن رأبه إذا وجدته في عاصف الحياة العاوي ؟ استاربك! لن أمر برفع مرافع الاثقال البرتونية » .

- « ماذا يقول اصحاب السفينة يا سيدي ؟ » .
 - « ليقفوا على شاطيء نانتوكت ويتفوقوا على صوت الزعزع بصراخهم . ماذا يهم آخاب ؟ اصحاب السفينة ، اصحاب السفينة ؟ دائماً تهرف لي يا استاربك عن هؤلاء التمساء كأن اصحابها هم ضميري . اعلم ان صاحب الشيء هو أمره الموجه . وأصخ يا هذا فان ضميري في آرينة هذه السفينة - عد الى ظهر السفينة! » .
 فقال الضابط المحمر خجلاً وهو يتقدم في القمرة بجرأة غريبة في توقيرها وحذرها حتى لكادت تبدو انها تحاول بكل وجه ان تتجنب أبسط ضروب الاعلان عن نفسها وانها ايضاً في داخل النفس لتبدو قليلة الثقة بذاتها : « رجل افضل مني قد يفرس في نفسك ما قد يستنكره - على عجل - في من هو اصفر منك سناً ، اجل ، وفي من هو اكثر منك سعادة ، يا قبطان آخاب » .

- « يا للشياطين! ابلغت بك الجرأة حد ان تنظر الي ناقداً ؟ انصرف الى ظهر السفينة! » .
 - « لا يا سيدي ، لم يحن اوان انصرافي ، ارجوك واتوسل ، وأنا أجزؤ يا سيدي - على ان امتنع عن الامثال! ألن يفهم احدنا الآخر فهماً خيراً مما كنا فيه حتى اليوم يا قبطان آخاب ؟ » .
 تناول آخاب غدارة محشوة من وقب في الصندوق ذي الكوى (وهو يشكل جزءاً في اكثر الاثاث المزودة به قمرات من يسافرون في المحيط الجنوبي) وصوبها نحو استاربك وهتف : « هناك اله واحد هو سيد الارض وقبطان واحد هو سيد الباقوطة ، عد الى ظهر السفينة! » .

لو رأيت لحظة عيني الضابط وهما تومضان وخديه الملتهين لكدت تظن انه حقاً اقتبس
وهجاً من الانبوب المصوب نحوه . ولكنه ضبط مشاعره ونهض في بعض هدوء وتوقف لحظة
وهو يغادر القمرة وقال : « لقد هجت غضبي ولم تحقرني يا سيدي ، وانا اسألك ألا تأخذ
حذرک مني لذلك ، قد تضحك ولكن ليكن آخاب علي حذر من آخاب . حذار من نفسك ايها
الشيخ » .

فتمتم آخاب حين تواری عنه استاريك : « انه يزداد شجاعة ولكنه مع ذلك يطيع . تلك
شجاعة محترزة شديدة التوقي! ما الذي قاله - ليكن آخاب علي حذر من آخاب - في كلامه
خبيء! »

ثم اتخذ الغدارة عكازاً - دون ان يشعر - واخذ يذرع القمرة الصغيرة جيئة وذهوباً
وجبينه مقطب صارم وسرعان ما اخذت الغضون الكثيفة فوق جبهته تملس فأرجع الغدارة الى
كوئتها وصعد الى ظهر السفينة .

واقترب من الضابط استاريك وقال له بصوت خفيض : « انت نعم الرفيق » ثم رفع صوته
مخاطباً البحارة وقال : « انشروا الاشرعة النبيلة العليا ، ولفوا الاشرعة العليا أماماً وخلفاً ؛
اسندوا الدعامة الساندة الكبرى ، عالوا مرافع الثقل البرتونية ، وانشلوا البراميل من العنبر
الرئيس » .

ربما كان من العبث ان نستنتج على وجه الدقة لِمَ تصرف آخاب كذلك فيما يتصل
باستاريك ؛ لعل ذلك كان ومضة من النزاهة فيه او كان سياسة ذكية بصيرة حجبت بصلف في
تلك الحادثة ادنى عرض من اعراض الكراهية المصرحة ، مهما تكن عابرة مؤقتة - نحو رأس
الضباط في سفينته . وأياً كان الامر فان اوامره نفذت ورفعت مرافع الثقل البرتونية .

كويكوج في تابوته

وعند التفتيش وجدوا ان البراميل التي أودعوها اخيراً في العنبر كانت سليمة لا عيب فيها ، وأن الصدع لا بد ان يكون بعيداً في البراميل الجوانية . ولما كان الجو هادئاً مضوا يستخرجونها موهلين وهو يوقظون البراميل الضخمة الكبيرة اللاصقة بالأرض من سباتها ، ويرسلون تلك المناجذ الجسيمة من حلقة الليل الى ضياء النهار في أعلى السفينة . وتوغلوا متممقين ، وتراءت البراميل الدنيا قديمة متهرئة مطحلبة حتى ان من كان يراها ليكاد ان يتوقع بعدها خابية حجرية في الزاوية تحتوي نقود القبطان نوح قد لصقت عليها صور من اعلانات ضخمة تحذر العالم العجوز المتصابي من الطوفان فيضيق تحذيرها سدى . ورفعوا برمياً اثر برميل مليئة بالماء والخبز ولحم البقر وقطع السواري وحزماً حديدية من الاطواق ، حتى أصبحت الربعات عند ظهر السفينة مكتظة لا يستطيع التنقل فيها ، وأصبح الهيكل الحالي دونها يردد الصدى تحت وطأة الاقدام ، كأنما يدوس المرء على رموس خاوية ، وأخذت السفينة تترنح وتتدحرج في البحر كأنها دمجانة معبأة بالهواء . وثقل رأسها حتى كانت كأنها طالب خاوي المعدة وقد حشا كل فلسفة أرسطوطاليس في رأسه . ومن حسن الحظ ان الزعزع الهوجاء لم تتم بزيارة البحارة أثناء ذلك .

في هذا الوقت نفسه أصيب كويكوج رفيقي الوثني المسكين وصديقي الحميم بحمي قربت كثيراً من النهاية التي لا تعرف نهاية .

ولابد من أن أقول هنا ان مهنة التحويت ليس فيها موظفون فخريون ، يتقاضون الأجر ولا يعملون ، بل ان الارتقاء في مناصبها والخطر توأمان لا يفترقان ، وكلما اعتليت في المنصب بذلت قسطاً أكبر من الجهد الى ان تصبح قبطاناً . وكذلك كان حال كويكوج المسكين ، فهو زراق ليس يجب عليه فحسب ان يواجه هياج الحوت الحي ولكن عليه

- حسبما رأينا من قبل - ان يمتطي ظهره وهو ميت في البحر المتضرب ، وأخيراً عليه ان يهبط في ظلمة العنبر ، وينضح العرق بمرارة طوال النهار في ذلك المحبس التحتاني ، ويستخرج بعزم أشع البراميل ويفحص تعبنتها . وأقول بإيجاز ان الزرايين بين الحواتين هم « القومة » - وكذلك يسمون .

يا لكويكوج المسكين! عندما انتزع نصف احشاء السفينة ، او قرابة ذلك ، كان حرياً بك ان تحني فوق الكوة وان تطل عليه لتراه وقد تجرد من ثيابه فلم يبقَ عليه الا التبان الصوفي ، وأخذ ذلك المتوحش الموشوم يزحف في وسط الرطوبة والزوجة كأنه سملاة خضراء بقعاء في قعر بئر . وقد دلَّ المستودع على انه كان بالنسبة لذلك الوثنى المسكين بشراً او بيتاً من الجليد . اذ رغم الحرارة الناجمة عن جهاده أصيب - وما أغرب ذلك - بقشعريرة مفرزة تحولت الى حصى ، وأخيراً وبعد عذاب دام بضعة ايام ، أضجموه في أرجوحته قريباً من عتبة باب الموت . كيف ذوى وأدركه الهزال في تلك الايام القليلة البطيئة حتى بدا وكأن ما بقي منه - عدا هيكله ووشمه - شيء ضئيل . كل شيء ما عدا هذين هزل وزاد بروز وجنتيه حدة ، أما عيناه فبدا أنهما - رغم ذلك - تستديران وتكتملان وأصبح لهما نعومة في البريق غريبة ، واذا رأيتهما وهما تنظران اليك في دعة وعمق من وسط المرض والاعياء وجدت فيهما شهادة عجيبة على تلك العافية الخالدة فيه التي لا تموت ولا يدركها الوهن . وبدت عيناه تستديران وتستديران كحلقات الابدية ، مثلما ان الدوائر في الماء تمتد وتنداح حين تصبح باهتة ضعيفة . ولقد تسلل اليك رهبة لا يمكن ان تُوصف او تُسمى ، وأنت تجلس الى جانب ذلك المتوحش الشاحب الداوي وتبصر في وجهه أشياء غريبة كالتي رأها من شهدوا موت زرادشت^(١) . ذلك ان ماهو عجيب مخيف حقاً في الانسان لم يصنع بعد في كلمات ولم يدون في كتاب . والاقتراب من الموت وهو مصوب نحو الناس جميعاً يطبع الناس جميعاً بانكشاف نهائي لا يستطيع ان ينبنا عن حقيقته إلا مؤلف يجيننا من عالم الموتى . ولنقل مرة أخرى : ان اي كلداني او اغريقي محتضر لم يملك لدى احتضاره أفكاراً أعلى وأقدس من تلك الافكار التي كنت ترى ظلالها الغريبة زاحفة فوق وجه كويكوج المسكين وهو مضطجع في سكون في أرجوحته الخطارة والبحر المتدحرج يهدده بلطف الى راحته الابدية ، وتيار المحيط الخفي يرفعه أعلى فأعلى نحو سمائه المقدورة . ولم يبقَ أحد في البحارة إلا وأدركه اليأس من شفائه . أما ما كان كويكوج نفسه

(١) نزل برق من السماء . فارتفع فيه كأنه نجم وغاب عن الانظار .

يحملة من رأي حول وضعه حيثئذ قد دلت عليه بشدة أكرومة غريبة سألها رفاقه . فقد دعا إليه أحد الرفاق في نوبة الصباح الرمادي حين كان الفجر ينبجج وأمسك بيده وقال انه حين كان في ناتوكت اتفق له ان رأى زوارق صغيرة مصنوعة من خشب أسود كخشب الحرب الكثير الذي يستعمل في وطنه ، وسأل عنه فعلم ان جميع الحواتين الذين ماتوا في ناتوكت وضعوا في تلك الزوارق السوداء نفسها وقد سره كثيراً أن يتصور نفسه مسجى في واحد منها ، فذلك أمر لم يكن مباحاً للعادة المتبعة بين بني قومه ، ذلك أنهم كانوا بعد ان يحنطوا المحارب الراحل يسجونه في زورقه ، ويتركونه ليعوم بعيداً نحو أرخبيلات النجوم ، اذ كانوا يعتقدون ان النجوم جزر ، وان بحارهم الوديعه التي لا تحدها يابسة تتداخل الامواج الكبيرة وراء جميع الأفاق المرئية ، مع السماوات الزرقاء ، ومن هذا التداخل تتكوّن الامواج الكبيرة البيضاء في نهر المجرة . وأضاف يقول : انه اقشعر وهو يتصور أنهم سيضعونه في أرجوحته حسب العادة البحرية المألوفة ، ويقذفون به كأنه شيء كرهه الى اسماك القرش التي تلتهم الموت لو عرض لها . كلا انه ليرغب في زورق كتلك الزوارق في ناتوكت ، فذلك أقرب الى طبيعته وأشكل بأمثاله ، فانه حوات وهذه الزوارق المتخذة توابيت تشبه قوارب التحويت من حيث أنها دون أريته ، وان كان هذا يعني ضلالاً في الاتجاه ، واذعاناً للريح حتى تنحدر بالزورق في خضم العصور المبهمة .

وحين علم من في مؤخرة السفينة بهذا المطلب الغريب ألقوا الأمر الى النجار على التو ليلبي ما أمر به كويكوج أياً كان فحواه مادياً ومعنوياً . وكان على ظهر السفينة خشبة عتيقة ذات سمة وثنية ولون كلون التوابيت ، قطعت في رحلة طويلة سابقة من الغابات الاصلية في جزائر لاكادي^(١) ، فأوصي النجار ان يصنع التابوت من تلك الألواح السود . وما كاد النجار يتلقى هذا الأمر حتى تناول آلة القياس ، ثم توجه بكل ما في طبيعته من استجابة سادرة الى المنارة ، وقدر مقياس كويكوج بمنتهى الدقة والضبط وهو يخط على جسمه بالطباشير ، دون اخلال ، كلما نقل آلة القياس .

وانبعث بحار لونج آيلاند يقول : « آه يا للمسكين! عليه ان يموت الآن » .
وعاد النجار الى دكته ذات الملازم ففاس عليها - اهتماماً بالاصح وطلباً لنموذج يعود اليه في عمله - طول التابوت الذي سيصنعه وتيقن ان صورة النموذج لن تنطمس حين حُرِّق حُرِّين في طرفي الدكة . وحين انتهى من ذلك أحضر اللواح والادوات وشرع يعمل .

(١) لعله يعني جزائر لاكاديف على مسافة من الساحل الجنوبي الغربي من الهند ، وقد عرفها البحارة العرب منذ عهد بعيد وسموها المانة ألف جزيرة .

وحين دق آخر مسمار في ذلك النمش وسحج غطاءه بالفارة وثبته في مكانه ، حمل التابوت - بخفة - على كتفه ، وتقدم به ، متسانلاً أترامه في ذلك الصوب على استعداد لتلقيه .

وتأدى الى سمع كويكوج صرخات الناس المستائين الذين يمازج استياءهم بعضي الدعابة ، حين أرادوا وهم على ظهر السفينة ان يبعثوا التابوت ، فأمر - مثيراً الذهول في كل نفس - ان يحضروا اليه ذلك الشيء ، على التوّ ، فلم يحرموه ما طلب ، لان بعض المحضرين من بين جميع البشر أشدهم جبوتاً وطغياناً ، وبما ان عهد تنكيدهم للاحياء لن يطول ، فان هؤلاء المساكين يجب ان يقابلوا بالهودة والتدليل .

وانحنى فوق التابوت من حافة أرجوحته وتأمله طويلاً بعين فاحصة ، ثم دعا برمحه ونزع منه القناة وجعل السنان في التابوت مع واحد من بدالات قاربه . وتلبية لرجائه أيضاً صفت قطع البسكويت حول الجوانب من داخل ، وعند الرأس وضعت زجاجة من ماء قراح ، وعند التجويف المخصص للقدمين ثبت جراب صغير من التراب المخلوط بالخشب ، وطويت قطعة من قماش الأشرعة وجعلت وسادة ، ورجاهم كويكوج ان يرفعوه ويضعوه في سريره الاخير ، ليحرب ما فيه من بواعث الراحة ان كان فيه شيء منها ؛ واضطجع هنالك بضع دقائق دون حراك ثم سأل أحدهم ان يذهب الى حقيته ويستخرج منها إلهه الصغير يوجو ثم عارض ما بين ذراعيه فوق صدره ويوجو بينهما وسألهم ان يضعوا فوقه غطاء التابوت (كان يسميه باب التابوت) ، وكان الجزء الواقع جهة الرأس من ذلك الغطاء يدور على عقب من جلد ، فأدير ، وتمدد كويكوج في تابوته لا يبدو منه شيء سوى وجهه المطمئن الهادئ . وتتم أخيراً بلغته Rarmai : (معقول - هين) ثم أشار لهم كي ينقلوه الى أرجوحته .

ولكن قبل ان يتم نقله جاء اليه ييب وكان مايزال يحوم قريباً منه في مكر - طوال ذلك الوقت - فاقترب من حيث يضطجع وأمسك بيده وهو يرسل تهنيدات رقيقة ، أما في يده الأخرى فكان يحمل طنבורه :

« أيها الجواب المسكين! أتراك لن تنتهي من تجوابك المضني؟ الى أين تمضي؟ ان حملتك التيارات الى جزائر الاتيل العذبة حيث الشواطئ لا تتبث إلا زنابق الماء فهل لك ان تؤذي لي رسالة صغيرة؟ فتش عن شخص اسمه بيب فقد منذ زمن بعيد؛ انا أظنه في تلك الجزر النائية ، اذا وجدته فطيب خاطره وطمئننه اذ انه ولايد أسيان حزين ، ذلك انه خلف طنבורه وراءه ، وأنا وجدته رج - آ - دج - دج - دج! مت يا كويكوج وسأعزف لك لحن الجناز » .

تمتم استاريك وهو يحدق من الناروزة الى ما دونه : « سمعت ان الناس في الحمى العنيفة وقد استبدت بهم الغيبوبة يتحدثون بلغات قديمة ، وحين تسبر سر الأمر يتكشف لك دائماً ان هذه اللغات القديمة كانت تحكى في طفولتهم المنسية وكانوا يسمعون بعض العلماء العلويين يتحدثون بها ؛ وأرى حسب معتقدي العميق هذا ان يبب في هذه الحلاوة الغريبة من لوثته يأتي بشواهد سماوية من جميع بيوتنا السماوية . أين تعلم ذلك ألا يكون قد تعلمه هنالك ؟ أصح . ها هوذا يستأنف حديثه على نحو اكثر غرابة وشروداً » .

- صفوا اثنين اثنين . لنحيه تحية القائد . أين رمحه . عارضوا به . رج - آ - دج - دج دج . هُزّاه! ليت لدينا ديكاً رابط الجأش يقعد على رأسه ويصيح! يموت كويكوج رابط الجأش . تأملوا هذا! يموت كويكوج رابط الجأش ، تأملوا جيداً هذا! يموت كويكوج رابط الجأش . أقول : رابط الجأش ، الجأش ، الجأش ، اما يبب القميء الحقيير فمات رعديداً . مات وهو يرتعش . هيا اجمعوا على يبب! أنصت ، اذا وجدت يبب فخير كل جزائر الاتيل انه هارب . جبان ، جبان ، جبان! قل لهم انه قفز من قارب التحويت . لن أحرك طنبوري من أجل يبب الحقيير ، لن أحييه تحية القائد اذا قدر له ان يحتضر مرة أخرى في هذا المكان . لا . لا . على كل الجبناء العار والشنار! ركبهم العار! ليفرقوا كما غرق يبب الذي قفز من قارب التحويت . العار والشنار! » .

كان كويكوج أثناء ذلك كله مغمض العينين كأنه في حلم ، وأبعد يبب عنه وأعيد الرجل المريض الى أرجوحته .

وبينا كان كويكوج قد أخذ كل أعبء للموت ، وبينا وجد ان تابوته صالح له ، ادركه الانتعاش فجأة وبدا على التوّان لا حاجة به لسندوق النجار ، وعلى الاثر قال ما محصله - حين أبدى بعضهم دهشة جذلى - ان سبب نقاهته المفاجئة هو هذا : في لحظة حرجة تذكر ان لديه على البر واجباً صغيراً تركه دون انجاز ، ولذلك غيّر رأيه في الوفاة ، وأقرّ بأنه لا يستطيع ان يموت حينئذ ، فسألوه : هل الحياة والموت من صنع ارادته المهمة ؟ فأجاب : يقيناً ؛ ولأقل بايجاز ان كويكوج كان يتصور ان المرء اذا حزم أمره على ان يظلّ حياً فان المرض لا يستطيع ان يقتله ، لا يقتله إلا حوت او عاصف او مخرب من هذا القبيل عيف عائر غيبي .

بين المتوحش والمتمدن فرق يستحق التنويه : ان المتمدن المريض قد يستغرق ستة أشهر في دور النقاهة ، اما المتوحش المريض فانه - بوجه عام - يستعيد اكثر عافيته في يوم ، وهكذا استعاد صديقي كويكوج قوته في وقت صالح ، وبعد ان جلس على الدولاب

الرافع بضعة أيام مسترخية متكاسلة (متناولاً الطعام بشهوة قوية) وثب فجأة واقفاً على قدميه وتمطى بيديه ورجليه ، ومطاً قامته وثناب قليلاً ثم قفز في رأس قاربه المعلق ، واعتقل رمحاً ، وقال انه مستعد للقتال .

وأدركته نزوة غريبة فاتخذ من تابوته سواناً أفرغ فيه ما كان في جرابه الخيشي من ثياب ونضدها هنالك . وكم من الساعات أنفقها وهو يحفر على الغطاء . جميع الصنوف الغريبة من الاشكال والرسوم ، ويبدو انه كان يحاول بطريقته الفجة ان ينسخ نماذج من الوشوم المتلوية فوق جسمه ، وكانت تلك الوشوم من صنع نبي عزّاف راحل في جزيرته ، كتب بتلك العلامات الهيروغليفية على جسمه نظرية كاملة عن السموات والارض ، ومقالةً صوفيةً عن فن بلوغ الحقيقة ، وبذا كان كويكوج في شخصه وكيانه أحجية تتطلب حلاً ، مؤلفاً عجباً في مجلد واحد ، ولكنه هو نفسه يعجز عن قراءة أسرار ذلك المؤلف ، وان كان قلبه الحيّ ينبض عند تلك الاسرار ، وكان مقدوراً لهذه الاسرار ، من ثمّ ، ان تبلى مع الرقّ الحيّ الذي رقمت عليه ، وتستعصي على الحل حتى النهاية ؛ ولعل هذه الفكرة هي التي أوحى لأخاب بتلك الهتفة الغريبة حين أشاح ببصره ذات صباح عن كويكوج بعد ان تفحصه وهو يقول : « آه يا عذاباً شيطانياً بالأمل أرسلته الآلهة » .

المحيط الهادي

حين انسابت بنا السفينة عند جزائر باشي دخلنا اخيراً في حومة المحيط الجنوبي العظيم ؛ ولولا أمور اخرى لازجيت لصديقي المميز المحيط الهادي شكراً لا يبلغه حصر لان ضراعات شبابي التي طال بي انتظارها قد استجيبت ، فذلك المحيط الوقور كان يتدحرج الى الشرق مني على مدى آلاف الفراسخ من الزرقة .

في هذا البحر سرُّ غريب عذب لا يدرك كنهه الانسان فكأن وثباته الرهيبة الرفيقة تتحدث عن روح خبيثة تحتها كتلك التموجات الاسطورية في مروج افسوس فوق قبر القديس يوحنا الانجيلي^(١) ؛ وما أنسب ما ترتفع الامواج وتهبط وتنسبط وتنحسر دون توقف فوق هذه المروج المائية والسهوب البحرية المترامية وحقول بوترز الشاسعة المنتمة الى القارات الاربع جميعاً . هنالك ملايين الاخيلة والظلال المتمازجة والاحلام الغارقة ، وحالات المشي اثناء النوم ، والنشوات ، وكل ما ندعوه حيوات وارواحاً ، هنالك تقبع جميعاً حالمة ، حالمة هادئة ، وتظل الامواج متقلبة ابدأ كالنوام في أسرتهن ، بسبب من تضربها دونها .

هذا المحيط الهادي المطمئن لو رآته مرة عين المجوسي المتأمل لظُلَّ من بعدُ البحر الذي تؤثره نفسه . فهو الذي يحرك أشد الامواه توسطاً في العالم ، وليس المحيط الهندي والاطلسي إلا ذراعين له . وهذه الموجات نفسها تغسل حواجز المرافئ التي بنيت حديثاً في مدن كاليفورنيا ، التي لم تغرسها احدث اجناس الناس الا بالأمس القريب ، وترخص حوافي البلاد الآسيوية الشاحبة التي ما تزال تحتفظ بفتنتها ، تلك البلاد الاقدم من ابراهيم

(١) اشارة الى ما كان يعتقد بعض السذج من اهالي افسوس - حسبما قمن ذلك القديس اوغسطين - من ان يوحنا لم يكن ميتاً وانما كان يتخذ قبره مطلقاً يتخذ المي سريره وان القبر كان يصعد او يهبط كما يصعد السرير ويهبط .

عهداً ؛ وبين هذا كله تعوم مجرات من جزر المرجان وأرخبيلات وطيئة مجهولة لا نهاية لها وجزائر كجزائر اليابان مستفلقة لا يستطاع ارتيادها . هكذا يطوق المحيط الهادئ المتأله المنطوي على الاسرار جسم العالم كله ويجعل جميع السواحل خليجاً واحداً له ويتبدى وكأنه قلب الارض النايض بالمد ، واذا ارتفعت فوق هذه الاسنمة الخالدة ، اتميت الى رب مفضل .
وعنا وجهك للرب بان Pan .

ولكن الخواطر عن «بان» قلما استتارت ذهن آخاب وهو واقف كتمثال من حديد في موضعه المعتاد الى جانب حبال المظنين فاستنشق بأحد وقبي منخريه - لا واعياً - المسك المعسول من جزائر باشي (وفي غاباتها العذبة عشاق دمشون يتمشون حينئذ ولابد) ، واستنشق بالثاني - واعياً - النفس المالح من البحر الذي دخل حديثاً في حومته ، البحر الذي كان الحوت الابيض البفيض يعوم ولابد فيه حينئذ . وحين انساق الرجل الشيخ على طول الامواه التي تكاد تعد نهائية وانساب نحو ارض التطواف اليابانية ، ترسخت غايته نفسها وتمكنت . والتقت شفتاه كما يلتقي حداء المَلْزَم ، وانتفخت دال عروق جبهته كأنها جداول قد طفحت ، وفي نومه نفسه انطلقت صيحته من خلال هيكل السفينة المقبيب : «الى الوراء جميعاً! ها هو الحوت الابيض ينفث دماً متخراً!» .

الحداد

أما برث الحداد العجوز القرحان الملطخ بالسواد فقد اغتتم الجو الوديع الصيفي البرود الذي ران على تلك البقاع واستعدت لمواجهة التكاليفات اللازمة المتوقعة منه بميد وقت قصير . فلم ينقل عدته المحمولة الى العنبر بعد ان انتهى من نصيبه في تسوية رجل آخاب ، وانما استبقاها على ظهر السفينة مربوطة ربطاً محكماً الى المزلاج الحلقي عند الصاري الامامي ، اذ كان الرؤساء والزراكون وأرباب القوارب لا يفتأون يستثيرونه لبؤدي لهم هذا العمل الصغير او ذاك ، فهو يغير او يصلح او يشقف اسلحتهم المتنوعة وأثاث قواربهم ، وكثيراً ما كانت تحف به حلقة من المتلهفين وكلهم ينتظر دوره من خدماته ، هذا يمسك مجرفة قارب ، وذاك رأس حربة ، وثالث يمسك مزراقاً ، ورابع حربة ، وكلهم يرقب في تملل حركته السحماء وهو دائب جامد . وعلى الرغم من ذلك كانت مطرقة هذا الشيخ مطرقة صبوراً تصرقتها ذراع صبور ، فلا تذمر ولا جزع ، ولا نكد يصدر عنه ، وانما هو صامت بطيء ، جاهم يزيد في انحناء ظهره المنكسر تحت وطأة الزمن ، ويجهد جهده كأن الجهد هو الحياة نفسها ، ووقع المطرقة الثقيل هو نبض قلبه البطيء . وكذلك كان الامر - ما أتعسه!

مشية خاصة كان يمشيها هذا الشيخ ، مظهر لطيف لكنه مؤلم فاغر في مشيته ، أثار في الملاحين في دور مبكر من الرحلة فضولاً وأذعن لإلحاف اسئلتهم الملححة في النهاية وهكذا حدث ان عرف كل واحد القصة المشينة ، قصة حظه التاعس المنكود .

في منتصف ليلة مريرة من ليالي الشتاء تأخر الحداد - ولم يكن تأخره بريئاً طاهراً - على طريق تمرّ بين قريتين . فأحس - احساساً لا تنقصه البلادة - ان الخدر المميت يستبد به ، فسمى الى مخزن مهدم يريد ان ينقض واتخذ فيه ملاذاً . فكانت نتيجة ذلك

ان فقد أطراف قدميه . وبعد هذه الفاتحة جاءت أخيراً الفصول الأربعة من السرور - مشهداً مشهداً - تم تلاها الفصل الخامس الطويل - فصل الحزن في مسرحية حياته - وان لم يختم بعد بكارثة الختام .

كان شيخاً واجه في سن تناهز الستين ذلك الشيء الذي أرجأته له الأيام من أساليب الحزن الذي يسمونه الدمار ، فقد كان صانعاً ذا مهارة مشهورة وعمل وفير ، فملك بيتاً وحديقة ، ورزق بزوجة شابة عروب في سن ابنته وبثلاثة اطفال مرحين موردي الخدود . وفي كل يوم أحد كانوا يذهبون الى كنيسة مغروسة في حديقة منظرها مجلى للعين ؛ وذات ليلة تحت جناح الظلام تسلل لصّ مستيئس ، زاده تنكره الخبيث الماكر اختفاء وتسترأ ، الى بيته السعيد وجرده من كل ما فيه . وأحد حلقة من الظلام ان يكون الحداد نفسه هو الذي هدى ذلك اللص - في جهالة - الى قلب أسرته ؛ كان هو العراف الذي يفتح القمقم^(١) ، وحين طار ذلك السداد المميت أفلت الشيطان من محبسه وطوى بيته تحت جناحه . كانت دكان الحداد - لاسباب معقولة حكيمة اقتصادية - تقع في الدور الارضي من مسكنه الا انها ذات مدخل مستقل ، وكانت الزوجة الشابة العروب الريا تنصت دائماً بقلق سعيد ولذة شديدة الى الطرقات القوية تحدثها مطرقة زوجها الشيخ ذي الذراع الفتي ، وتخافت ذبذبات المطرقة حين تمر من تحلّل الابواب والجدران فتتأدى اليها في شيء من عذوبة ، وهي في غرفة أطفالها . وهكذا كان اطفال الحداد يهددون للنوم بترنيمه حديدية يفتيها رب العمل العصبي .

اواه يا ويلاً على ويل! آه ايها الصوت لم لا تستطيع احياناً ان تجيء في أوانك؟ لو انك اخذت الحداد العجوز اليك قبل ان يحلّ به الدمار الكامل إذن لوجدت أرملة الشابة حزناً لذيذاً ، ولوجد يتاماه أباً محترماً اسطورياً يحلمون به في مقبل السنين ، وكلا الامرين كفاء بالهمّ يستطيع ان يصرعه . ولكن الموت انتزع اخاً أكبر فاضلاً كانت مسؤوليات عائلته أخرى معلقة بكده اليومي الصافر ، وترك العجوز الذي لا نفع فيه مائلاً حتى يجعله بلى الحياة الكريه اسهل لدى الجنى .

ولم نسرد القصة كلها؟ ان ضربات المطرقة في الدور الارضي اخذت تتضاءل وتخفت ، واصبحت كل ضربة في كل يوم اشد خفوتاً من آخر ضربة ، وجلست الزوجة متجمدة الاطراف عند النافذة ، وعيناها لا تسكبان دمعة ، تحديق بالثق في وجوه اطفالها الباكين ،

(١) واضح ان الصورة مأخوذة من بعض قسم ألف ليلة وليلة .

وخبا الكير وامتلا مصنع الحداد بالرماد ، وبيع البيت ، وغاصت الأم تحت العشب الطويل في
باحة الكنيسة ، ولحق بها ابناؤها مرتين ، وذهب المعجز الطريد الشريد الوحيد متلداً في
أسماله ، مصيته لا يابه بها احد ، وشيبه يهزأ بكل الضفائر التي تشبه الكتان .

ولعل الصوت هو خير عاقبة يتمناها من بلغ هذا الحد ، ولكن الموت ليس فحسب
إبحاراً في منطقة تسمى «المجهول الغريب» انه التحية الاولى لامكانات النائي المديد
والموحش والمائي وما لا ساحل له . لذلك فان العيون التي تشتاق الموت - عيون الرجال
الذين تبقى فيهم شيء من وخز الضمير ضد الانتحار - يمد لها المحيط المضياف الفاتح
ذراعيه كل مجاله لصالح مغامرات لا يدركها الخيال ، مغامرات مليئة بالمخاوف عجيبة تُعدُّ
بحياة جديدة ، وتغني لها آلاف الحوريات البحرية من قلوب المحيطات الهوادي
اللامحدودة : «تعالوا اليّ يا كسيرى القلوب ، هاهنا حياة لا يتخللها اثم من موت وسيط .
ها هنا عجائب خارقة لا يدركها الموت . تعالوا اليّ . ادفنوا انفسكم في حياة اشدّ اغفلاً
ونسياناً من الموت اذا قستموها الى عالمكم الكاره المكروه . تعالوا اليّ! ضعوا شاهد قبركم
ايضاً في باحة الكنيسة وتعالوا اليّ ، الى ان تتحد معاً!» .

أجاب روح الحداد هذه النداءات حين أصفت إليها ، شرقاً وغرباً ، عند طلوع الشمس
وعند حلول المساء ، وقالت ها انا ذا آتية! وهكذا ذهب بيرث في رحلة التحويت .

نار الحداد

كان بيرث يقف وقد تلبدت لحيته والتفأ في فوطة جاسية من جلد القرش ، قبيل انتصاف النهار ، بين النار والسندان - وهذا الثاني كان موضوعاً على وضم خشبي حديدي - ويده الواحدة تمسك رأس حربة مدسوسة في الجمر ، ويده الأخرى على الكير ، وإذا بأخاب يقبل حاملاً في يده جراباً جليدياً صغيراً في لون الصدأ ، وعندما أصبح آخاب المتقلب المزاج على مسافة قصيرة من النار توقف ، وأخيراً سحب بيرث الحديدية من النار وأخذ يطرقها على السندان ، وأخذت الكتلة الحمراء ترسل شرراً يتطاير رفوفاً متكاثفة طار بعضها حتى اقترب من آخاب .

- « أهذه فراخ المجوز كاري^(١) يا بيرث ؟ انها دائماً تطير في أترك ، طيور سانحة ميمونة ولكنها ليست كذلك لجميع الناس . انظر انها تحرق ، ولكنك تعيش بينها دون ان تلدغك » .

فأجابه بيرث وقد اتكأ لحظة فوق مطرقته : « ذلك لأنني محرق في سائر جسدي ، لقد عتوت على اللذع . ليس من السهل ان تلذع جلدأ تبلد من التحريق » .
- « طيب . طيب . كفى . ان صوتك المنقبض ليشأدى الي في هدوء ويبلغني في تعقله مهموماً مكروباً . وبما أنني لست في الفردوس ولا في رياض النعيم فأنا أجزع من كل تعاسة في الآخرين ليست مجنونة . لابد ان تصبح مجنوناً أيها الحداد ؛ قل لي لماذا لا تغدو مجنوناً ؟ كيف تطيق ما تطيقه دون ان تكون مجنوناً ؟ أما تزال السموات تمقتك فهي تحرمك الجنون ؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟ » .

(١) طيور كالسنردو يقولون ان ورودها ارهاص بجو عاصف ، وبها يشبه آخاب الشرر المتطاير .

- « كنت ألحم وأسوي رأس حرية قديمة يا سيدي فقد كانت فيه نقب وأخاديد » .
- « وهل تستطيع ان تسويه أملس مستويأ أيها الحداد بعد ان تجرّس في الشدات
واللزيات ؟ »

- « أظن ذلك يا سيدي » .
- « وأنا أظن انك لا تستطيع ان تسوي اي نقب او تحزير . أتستطيع دون اكرات منك
بصلابة المعدن يا حداد ؟ »
- « نعم يا سيدي أظنني أستطيع . أستطيع ان أسوي كل النقب والتحزيرات إلا
واحدة » .

فصرخ آخاب - وهو يقترب منفعلأ واستند بكلتا يديه فوق كتفي بيرث : « انظر هنا
اذن ، انظر هنا - هنا - أتستطيع ان تسوي نقبة كهذه يا حداد ؟ » وجرّ راحته فوق جبينه
المغضن - « اذا كنت تستطيع يا حداد ، وضعت رأسي راضيأ جدلان فوق سندانك ، وتلقيت
أثقل مطرقة لديك بين عيني . أجب! أتستطيع ان تجتلي هذه النقبة او تسوي التحزير ؟ »
- « آه يا سيدي هذه هي الواحدة . ألم اقل انني استطيع تسوية كل النقب والتحزيرات
الا واحدة ؟ »

- « صدقت يا حداد انها الواحدة التي لا تسوي . اجل يا رجل انها لا تجتلي ، صحيح
انك تراها بارزة في لحمي ولكنها قد تغلفت في عظام جمجمتي - وجمجمتي كلها غضون!
ولكن دع عنك لعب الاطفال هذا! لا تسوية لخطايف وحراب اليوم . انظر هنا! » - وأخذ
يخشخش بالجراب الجلدي كأنه مليء بالقطع الذهبية : « انا ايضاً اريد ان تصنع لي رمحاً ،
واحداً لا يستطيع الفا شيطان ان يكسروه يا بيرث ، رمحاً ينفرز في الحوت مكيناً كأنه عظم
زعنفته ، وها هي المادة » - وطرح الجراب على السندان - « تنبه ايها الحداد هذه اعقاب
مسامير جمعت من النعال الفولاذية التي تنتعلها خيول الرهان » .
- « اعقاب نعال الخيل يا سيدي ؟ اذن فإن لديك هنا يا قبطان آخاب خير مادة نعمل
فيها واشدها مراساً » .

- « اعرفها ايها الشيخ . هذه الاعقاب ستلتحم معاً كالغراء الذي يؤخذ من عظام القتلة
بعد ان تذاب . عجل! اصنع لي الرمح ، واصنع لي اولاً اثني عشر قضيباً لتكون له كعباً ، ثم
افتل وابرم وطرق هذه القضبان معاً كأنها وشائع وجدائل الكرور ، اسرع! وها انا انفخ على
النار » .

وحين خرجت القضبان الاثنا عشر اخيراً جزّتها آخاب واحداً بعد واحد ، وذلك بأن

يلفها بيده على شكل حلزوني حول وتد حديدي طويل ثقيل ، ثم ردّ الاخير منها قائلاً :
« هذا مختل! اصنعه من جديد ، يا بيرث » .

ولما انتهى بيرث من اصلاحه كان على وشك ان يبدأ ملاحمة القضبان ليجعل منها واحداً حين اوقف آخاب يده وقال انه هو نفسه سيلحم رمحه ، واخذ يطرّق الحديد على السندان في مهمات متقطعة منتظمة وبيرث يوصل اليه القضبان المتوهجة واحداً بعد آخر ، والنار التي يؤزها الكبير تطلق لهبها الشديد سعداً ، وعندئذ مرّ الرجل البارسي في صمت فأحنت رأسه للنار وكأنما هو يستنزل لعنة او بركة على هذا العمل ، فلما رفع آخاب رأسه انتحى البارسي جانباً .

وتمتم اسطب وهو ينظر من المنارة : « ماذا تصنع عصابة الشياطين هذه اذ تروغ وتتسلل هنالك ؟ هذا البارسي يشم النار كأنها ثقاب الأمن ومنه تضوع رائحتها كأنه خزان البندقية الساخن » .

واخيراً تلقت ضفيرة الكعب وقد غدت في صورة قضيب واحد آخر إحماء ، ولما ان شاء بيرث ان يسقي حديدها فدهسها وهي تهسهس في برميل الماء القريب ، انطلق البخار السامط في وجه آخاب المكب فوقها .

- « اتريد ان تعلمني بوسم يا بيرث ؟ » - واجفل متوجعاً لحظة من الألم ثم اردف :
« أكنت اذن اصنع ميسيبي بيدي ؟ » .

- « بحقك! ليس الامر كذلك ، ولكني أخشى شيئاً يا قبطان آخاب . أليس هذا الرمح من اجل الحوت الابيض ؟ » .

- « من اجل الشيطان الابيض! والآن هيا لصنع الكلابات ، عليك انت نفسك ان تصنعها يا هذا ، هذه هي الامواس التي أحلق بها - من خير الفولاذ ، خذها ، واصنع منها الكلابات حادة كوخز ابر الثلج في البحر الجليدي » .

ورمق الحداد الشيخ تلك الامواس لحظة كأنه كان يريد ان يردها فلا يستعملها .
- « خذها يا رجل لا حاجة لي اليها ، لاني لن أحلق ولن اغتذي ولن أصلي حتى - هاك - الى العمل! » .

ولما ان جعل بيرث الفولاذ أخيراً في شكل سهم وألحمه الى الكعب ، دل الفرق بين المعدنين اين ينتهي طرف الحديد ، ولما ان كان الحداد يضع الكلابات في النار ليحميها آخر مرة قبل ان يسقيها صاح بأخاب ان يدني منه برميل الماء :
- « لا . لا . لا ماء ولا سقي! أريدها من سقي الموت نفسه . انتم هناك يا طاشطيقو

وكويكوج ودغغلا ماذا ترون ايها الوثنيون ؟ هل تعطونني دماً يغطي هذا الكلاب ؟ » ورفع
في الفضاء فأجابته « أن نعم » ثلثة من الرؤوس السود أنفضت اليه ، وثقبت الجلود الوثنية في
ثلاثة مواضع ، وسقيت بالدم عندئذ كلابات الحوت الابيض .

وعوى آخاب وهو ذاهب في البحران ، والحديد يتشرب بنهم دم العماد : « انا لا
أعمدك باسم الأب وانما أعمدك باسم الشيطان! »

وجمع آخاب الأعمدة الزائدة من أسفل واختار من بينها عموداً من شجر الحيقور مايزال
لحاؤه عالقاً به ودسّ طرفه في وقب الحديدية . ثم امر بحبل جديد فحلّ وأخذت منه بضع
قامات الى الدولاب الرافع ومدّ حتى توتر كثيرا . ووطنه آخاب بقدمه حتى أز الحبل أزيز وتر
القيثار ، ثم اتحنى بلهفة فوقه ، واذا لم ير فيه فتائله متمايضة هتف : « عظيم! والآن هيا بنا
الى الاربطة المقيرة » .

حلّ الحبل من أحد طرفيه واخذت الفتائل المنشورة وضفرت جميعاً ونسجت حول ثعلبة
الرمح ، ودسّ العمود بعيداً في وقب الثعلبية ، ومن الطرف الأدنى مدّ الحبل على نصف طول
العمود ، وثبت هنالك باحكام وذلك بمداخلة الخيوط وتشابكها . وبذا انتهى ذلك أصبح
العمود والحديد والحبل - كأنها ربات القدر الثلاث - متواشجة لا تنفصم ، ومشى آخاب في
خيلاء معتقلاً بالرمح وصوت رجليه العاجية وصوت عمود الحيقور كلاهما يرن رنيناً أجوف
على كل لوح خشبي . وقبل ان يلج قمرته سمع صوت خفيض شاذ يشوبه تماجن ولكنه من
أشد الاصوات اثاراً للشفقة . آه يا بيب! ان ضحكك التاعسة وان عينك الكسلى المسهدة ،
وكل هذه الاقنعة المجونية التي تتلبس بها - كل هذه قد امتزجت امتزاجاً ذا مفزى بالمأساة
السوداء - مأساة هذه السفينة السوداوية ، وسخرت هازنة منها!

الشرك^(١)

حين تغلغلت الباقوطة مبعدة في قلب ارض التطواف اليابانية هاج بحواتيها هائج الصيد حتى كانوا يقضون في الجو الوديع الرضي اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة وثمانية عشرة وعشرين وهم في ذروة الكد ، منهمكين في قواربهم ، مجذفين باتزان او مبحرين او مطاردين للحيتان أو ، منتظرين في هدوء بروزها من الماء ، مدة ستين او سبعين دقيقة ، وان كان النجاح الذي أصابوه ضئيلاً لا يوازي جهودهم .

في مثل تلك الاوقات تحت شمس خبت حزارتها ، يعوم البحار طوال اليوم فوق اثباح مُلس بطينة المد ، ويجلس في قاربه خفياً كأنه زورق من خشب التامول ، ويمتزج امتزاجاً حميمياً بالموجات الناعمة نفسها تلك التي تبربر ازاء حافة السفين كالقطط عند احجار الموقد . هذه هي لحظات السكينة الحاملة ، اذ ينسى المرء حين يرى الجمال الهادي ، والألق في جلد المحيط ان قلب النمر ينبض في جوانحه ، ولا يذكر - الا بشق النفس - ان هذا القفاز المخملي يخفي مخلباً ضارياً .

هذه هي الاوقات التي يحس فيها الجواب وهو في قارب التحويت ، احساساً ناعماً ، بشعور بنوي واثق مطمئن نحو البحر كشعور ابناء البر نحو البر ، فيظن البحر براً مزداناً بالازاهير! اما السفينة النائية التي لا تبدو منها إلا قمم صواربها وهي تجهد قدماً ، فتتبدى وكأنها لا تمخر الامواج المتدحرجة وانما تتهادى بين الحشائش الطويلة في سهوب متموجة . كخيول المهاجرين الغربيين ، لا يظهر منها إلا آذانها المؤللة ، اما اجسامها المخفية فتخوض غمار الغضرة المذهلة .

(١) بلغ القاص لحظة حرجة تذكر فيها ما قاله في الفصل ٤٢ ، « واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صنعت من الرعب » وتذكر ان الطبيعة تتبرج وكأنها عاهرة ؛ فتوقف في هذا الفصل لحظة يتأمل هذا الظاهر قبل ان ينوص الي « منطقة الرعب » .

والوديان الطويلة البكر وسفوح التلال الوادعة الزرقاء يتسلل فوقها الصمت والطين حتى لتكاد تقسم ان تلك الخلوات ينام فيها اطفال انهكهم اللعب ، في ايار الطروب حين ذهبوا يقطفون ازاهير الغابات ، ويخالط هذا كله مزاجك الصوفي ، فاذا الواقع والوهم - وقد التقيا في منتصف الطريق - يتشابكان ويتداخلاان ويكونان كلاً واحداً لا فاصل بين جزءيه .
ومهما تكن هذه المناظر المسكنة مؤقتة عابرة فانها لم تكن تعجز عن ان تترك أثرها في آخاب ، ولكن ان كانت هذه المفاتيح الخفية الذهبية قادرة على ان تفتح خزائنه الذهبية الخفية فان انفاسه فوقها كانت تصبفها بالدنس .

ايتها المسارب المكسوة بالاعشاب! ايتها المجالي الربيعية المترامية في الروح! فيك - وان أيبسك الجذب الموات الذي يلفحك من الحياة الدنيا - فيك يستطيع الناس ان يتمرغوا كالمهاري في البرسيم الناضر عند الصباح ، ويحسون ندى الحياة البرود خالداً لديهم ، في لحظات تمرّ مرّ السحاب . يا رب ليت هذه الهدأة المباركة تدوم! غير ان وشافع الحياة المختلطة المتشابكة تنتسج لحمه وسدى ، فلكل هدأة عاصفة تعارضها . ليس في هذه الحياة تقدم دائب قدماً لا يتمهقر . فنحن لا نتقدم خلال مراحل معينة متدرجة ثم نقف الوقفة الاخيرة ، لا نفعل كذلك خلال سحر الطفولة اللاواعي ، وايمان اليفاعة التسليمي ، وشك عهد الفتاء (وهو مصيرنا جميعاً) ثم الريبة الكلبية ثم الجحود ، بحيث نقف في طمأنينة الرجولة المتأملّة التي تعبر عنها « إذا » . ولكننا كلما قطعنا هذه المراحل عدنا فيها من جديد ونظل الى الابد اطفالاً ويقفين ورجالاً وصوراً من « إذا »⁽¹⁾ . اين يقع الميناء الاخير حيث لا نزحزح المرساة من بعد ؟ في اي اثير سابح يبحر العالم الذي لا يعيا به اكثر الناس إعياءة ؟ اين يخفي والد هذا اللقيط ؟ ارواحنا كأولئك اليتامى ، ماتت أمهاتهم اللاني لم يتزوجن بعقود وهن يضعنهم : ان سرّ الأبوة قد دخل القبر ممهن ، فاذا شننا ان نتعرفه كان علينا ان نذهب هناك .

وفي ذلك اليوم نفسه اطل استاربك من حافة قاربه على البحر الذهبي نفسه وتمتم قائلاً :
« ايتها الروعة التي لا يسبر غورها ، كالتتي يراها المحب في عيني عروسه الشابة ، لا تحدثيني عن اسماك القرش المرصوة فيك كالأسنان ، ولا تحدثيني عن اساليبك في اختطاف لحوم البشر . ليطرد الايمان الواقع . ليطرد الوهم الذكري ، انا ارسل النظرة عميقة فأحتب ايماناً » .
اما اسطب فقد قفز في ذلك الضياء الذهبي نفسه كالسمكة ذات الحراشف البراقة وقال : « انا اسطب ، واسطب رجل ذو تاريخ ، ولكن اسطب في هذا الموقف يحلف انه كان دائماً محبوراً » .

(1) كلمة EI اليونانية وهي منقوشة على باب هيكل ابولون في دلفي .

الباقوطة والعزب يتلاقيان

بعد بضعة اسابيع مضت على تسوية رمح أخاب كانت المشاهد والمسموعات التي عرضت امام الريح بهيجة طروباً .

وكان ما واجهته الباقوطة مركباً نانثوكتياً اسمه «العزب» صف في العنبر آخر برميل من الزيت وأغلق المنافذ التي تكاد ان تنشق امتلاءً ، وكان في ثوب ايام الزينة يبهر ، مسروراً جذلاً وان شابه شيء من اعتداد المفرور ، بين السفن المتباعدة في مواقعها على مجالات الصيد ، قبل ان يحول قيومه عانداً الى الوطن .

وكان الرجال الثلاثة في قمم صواريه يلبسون اعلاماً طويلة من قماش ضيق احمر فوق قبعاتهم ، ومن المؤخرة تعلق قارب تحويت ، قاعه متجه الى اسفل ، اما الدقل المائل فقد شبح فيه مأسوراً الفك الأسفل الطويل من آخر حوت ذبحوه ؛ ومن الحبال والاشرعة في كل جانب كانت ترفرف اعلام وشارات ورايات ذات ألوان . اما الجوانب فقد ربط في كل قمة من قممها الثلاث المجوفة كالسلال برميلان من زيت العنبر ومن فوقها في مشعبة الصاري العلوي تبدو براميل صغيرة لطيفة تحوي ذلك السائل الثمين ايضاً . وفي القرص الواقع عند أعلى الصاري الرئيس سمر قنديل نحاسي .

وقد علمنا من بعد ان هذا المركب «العزب» احرز نجاحاً مدهشاً غاية في ذلك ، ومما زاد الامر ادهاشاً ان سواء من السفائن الاخرى العديدة قد قضت اشهرها كاملة دون ان تصيب حوتاً واحداً . وقد ألقيت منه براميل لحم البقر والخبز تخلصاً لتفصح مكاناً لما هو ائمن منها من زيت العنبر ، ليس هذا فحسب بل ان هذا المركب قايب المراكب الاخرى التي واجهها على براميل اضافية ، صفت فيه على طول ظهر المركب وأودعت في غرف القبطان والضباط . حتى المائدة في القمرة كسرت وجعلت وقوداً وأصبح الرفاق الذين يأكلون في

القمرة يتناولون طعامهم عند الطرف العريض من برميل زيت مربوط الى ارض الغرفة ليكون زينة متوسطة ؛ وقير البحارة في المنارة صناديقهم - في الواقع - وملأوها بالزيت ، وقيل على سبيل التندر ان الطباخ اتخذ لأكبر حلة لديه غطاء وملأه ، وان قيم الاغذية سداً ابريق القهوة الاضافي لديه وعبأه ، وان الزرايين غطوا ثعالب اسنتهم وملأوها ، وان كل شيء ملئ بزيت العنبر إلا جيوب سروال القبطان ، فقد ابقاها خالية ليدس فيها يديه كي يكون ذلك شاهداً ناطقاً بأنه قانع تمام القناعة .

وعندما اتجه هذا المركب الطروب ذو الجسد السميد نحو الباقوطة ذات المزاج المتقلب ، سمعنا صوتاً بربرياً من طبول ضخمة آتياً الينا من المنارة ، وعندما زاد اقترابنا منه رأينا حشداً من رجالها واقفين حول مراجل التصفية الضخمة فيها وهي مغطاة بخيش يشبه ورق البرشمان او جلد كروش السمكة السوداء ، وكلما دقت عليها قبضات البحارة احدثت زفيراً عالياً . وعلى الربعة خلف الدقل كان الضباط والزرايون يراقصون فتيات سمرارات بلون الزيتون هربن معهم من الجزائر البولونيزية بينما يهيمن على الرقصة الطروب ثلاثة من زنوج لونج آيلاند قد احتقبوا اقواس كمانات من عاج الحوت ، وهم قد تعلقوا في قارب مزخرف ، مثبت باحكام في الأعلى بين الصاري الامامي والصاري الرئيس . وفي الوقت نفسه كان آخرون من عصابة السفينة منهمكين بصخب عند مبنى معامل التصفية حيث نقلوا منها المراجل الضخمة ، ولقد يخيل اليك انهم كانوا يهدمون اسوار الباستيل اللعين فقد كانوا يرسلون صرخات وحشية عندما كانوا يلقون ما استغنوا عنه من الأجر والجص في البحر .

اما القبطان سيد هذا المشهد وصاحبه فقد وقف منتصب القامة فوق الربعة المرتفعة خلف الدقل الاعظم حتى كانت الرواية البهيجة تجري كلها تحت بصره وكأنها إنما ابتدعت طلباً لتسلية .

وأخاب ايضاً كان واقفاً على الربعة اشعث اسود تغلوه كآبة عنيدة لا تريم ، وعندما عبرت كل من السفينتين مخر أختها واحدهما تقيم افراحاً لأمر مضت واخرى تتوجس النذر من امور آتية - كان القبطانان يمثلان في شخصيهما موضع المفارقة اللافتة في ذلك المشهد .

صاح قبطان «العزب» الطروب وهو يرفع كأساً وزجاجة في الغضاء ؛ «تعالوا الينا ، تعالوا الينا!»

فصرّ آخاب بأسنانه مجيباً : «هل رأيت الحوت الابيض ؟»

فقال الآخر في دعابة ومرح : «كلا ، انما سمعت به ، ولكن لا يكن لك به اعتقاد .

تعال الى ظهر سفينتنا!»

- «انت مفرط في مرحك اللعين . أبحر . هل فقدت رجالاً ؟»
- «لم أفقد شيئاً يستأهل ذكراً - اثنين من ابناء الجزر ، ذلك كل ما فقدت ، لكن
تفضل يا رفيق القلب ، تعال الينا ، انا لا استطيع ان أنزع ذلك السهوم الاسود من جبينك
توأ . أقبل ، ألا تقبل! (هذا اوان الجدل) ، سفينتنا ممثلة مزمعة نحو الوطن» .
فتمتم آخاب : «ما اقرب الاحمق من ان يآلف ويؤلف!» ثم بصوت جهوري :«تقول ان
سفينتكم ممثلة وانها مزمعة نحو الوطن ، اذن فاعلم ان سفينتنا خالية وانها مبعدة عن
الوطن ، فاذهب في طريقك وانا في طريقي . اتم في الامام! انشروا الاشرعة وأقبلوها وجه
الريح!»

وبينا ذهبت احدى السفينتين امام النسמת جذلى مسمحة ، ناطحت الاخرى الريح
جاهمة عنيدة ، واقرقت السفينتان ، اما بحارة الباقوة فينظرون نظرات رصينة مترددة نحو
«العزب» العائد ، واما رجال «العزب» فلم يلقوا بالاً لنظرات أولئك وهم في نشوة وحبور .
وعندما كان آخاب مستنداً على أعلى الكوتلة ورمق السفينة المزمعة نحو وطنها استخرج من
جيبه قارورة من رمل ، وحول نظره من السفينة الى القارورة ، فبدا كأنما يجمع بذلك بين
متباعدين لان تلك القارورة كانت مليئة بمستخرجات من بحر نانتوكت .

الحوت المحتضر

حين ييامنا ابناء السعد المجدودون ويبحرون على مقربة منا ، نقبس لانفسنا ، وان كان القنوط يأخذ بمجامع نفوسنا من قبل ، قبساً من ذلك النسيم الهاب ، ونحس في مرح ان اشرعتنا قد انتفخت بالأمل . هذا شيء غير نادر في الحياة وذلك هو ما حدث للباقوطة ، فان ملاحيتها بعد ان قابلوا «العزب» الممرح ، رأوا الحيتان في اليوم التالي وذبحوا اربعة منها ، وذبح آخاب من الاربعة واحداً .

كانت الشمس قد طلقت ؛ وعندما قرزت الرماح جميعاً في تلك المعركة القرمزية ، طفا في بحر الغروب الجميل والسماء الجميلة اثنان : الشمس والحوت ، ثم أفلا في سكون الموت معاً ، ثم تمعجت في الافق الوردي عذوبة وكآبة ، وتصاعدت ابتهالات متسافرة متلاحمة ، حتى بدا وكأن نسيم البر الاسباني ، بعيداً صاعداً من الوديان الخضراء في جزائر مانيلا ، قد تقحمت به همته فتحول بحاراً فولى وجهه نحو البحر محملاً بتلك الابتهالات والاناشيد المسانية .

وتبددت جهامة آخاب وانبسطلت اساريه مرة اخرى ، وانما انبسطلت تمهيداً لجهامة اعنى واعمق ، وكان حينئذ قد ذهب الى المؤخرة بعيداً عن الحوت وجلس ممعناً يرقب سكراته الاخيرة من قاربه الهادي . ولحوت العنبر مشهد غريب وهو يحتضر اذ يولي رأسه وجهة الشمس ثم يلفظ أنفاسه الاخيرة ؛ ذلك المنظر الغريب في ذلك المساء الوادع المطمئن نقل الى آخاب عجباً لم يعرفه من قبل : « يدور ويدير جبهته مستقبلاً لحظة الختام ، ما ابطأه ولكن ما أحزمه وهو يحول جبهة عانية بالخشوع مبتهلة ضارعة مشفوعة بأخر ايماءات الاحتضار! هو ايضاً يعبد النار ، ياتبع الشمس الأمين الكبير الرفيع! أؤبه لك ان ترى هذه الاعين المنعمة بالود هذه المشاهد المنعمة بالود . تأمل! ها هنا وراء محبس

الماء ، خلف كل طنين تبتعثه السعادة والتعاسة في دنيا البشر ، في هذه البحار الصريحة
النزيفة حيث لا صخور تقدم ألواحاً تخط فوقها التقاليد ، حيث الامواج منذ عصور صينية
طويلة ماتزال تتقلب خرساء لا يحدثها احد ، كالنجوم التي تتلألأ فوق منابع النيجر
المجهولة ، هنا ايضاً تموت الحياة مولية وجهها شطر الشمس ، مفعمة بالايمان ؛ ولكن
أرجع البصر كرة! ما يكاد الموت يدركها حتى يلتف الموت حول الجثة فتولي وجهها وجهة
اخرى .

« آه ايها الهندوسي الاسود ، يا نصف الطبيعة ، يا من بنيت من العظام الفارقة عرشك
في مكان ما في قلب هذه البحار التي لا يكسوها اخضرار ، انت يا كافر ، ايها الملك ، وأنت
تنطق بالحقيقة اذ تحدثني في الزرع المرصر التي يعم بها الخراب والموتان ، وفي المدفن
الساكن الذي يسمى هدأة بعد جيشان . ان حوتك هذا اذ يحول رأسه المحتضر نحو الشمس
ثم يدور مرة أخرى ليحمل اليّ عبرة اي عبرة » .

« وانت يا عائق القوة الموشح الملتحم في ثلاث طاقات ، أنت ايها النفثة الطمّاحة
الموشاة بقوس قزح ، كيف يجهد المرء منا ، كيف يوالي نفثاته باطلاً باطلاً ايها الحوت
تطلب الشفاعة لدى الشمس العجلى التي تسترد الحياة ولا ترجعها بعد ؛ غير انك ايها
الجانب الاسود تهددني بايمان أشد سواداً واكثر كبرياء ، كلّ الاشياء التي تمازجت لديك
ولا يمكن حصرها تسبح دوني ؛ ترفعي انفاس اشياء كانت قبل حية ، تضوع كالهواء
فأصبحت ماء » .

« تحية لك ، تحية الى الابد ايها البحر يا من لا يجد الطائر البري راحة نفسه إلا فوق
اضطرابك الابدي . انا ابن الارض ، أرضعني البحر : السفح والوادي كفلاني غير ان الامواج
اخوتي بالرضاع » .

السهر على الحوت

ماتت الحيتان الاربعة التي ذبحت في ذلك المساء ، متباعدة ، أحدها مات نائياً ضد الريح والثاني أقرب منه ووجهة الريح ومات الثالث على محاذاة القيدوم والرابع على محاذاة الكوئلة . وجُرَّت الثلاثة الاخيرة وأجْنِبَت الى السفينة قبل حلول الليل ، اما الذي مات ضد الريح فلم يمكن الوصول اليه حتى الصباح وكان القارب الذي تولى ذبحه هو الذي سهر الى جانبه طوال الليل ، وذلك هو قارب آخاب .

وقد غرست عصا الراية قائمة في نفاثة الحوت الميت، والقنديل معلق في اعلاها يرسل للألاء مضطرباً متردداً على الظهر الاسود الصقيل ويلقي ومضات بعيدة على امواج الليل التي كانت تمس في رفق جانب الحوت العريض كأنها امواج ناعمة تتكسر على الشاطئ الصخري .

وبدا آخاب وجميع ملاحى قاربه نانمين الا البارسي الذي أقعى في مقدم القارب ، وجلس يرقب أسماك القرش وهي تتلعب كالاطياف من حول الحوت ، وتدق ألواح الصنوبر الخفيفة بذيولها ، وجرى في الفضاء صوت راعش كأنه صوت النواح بين الجنود على الذين خسفت بهم الارض وتحولوا قاراً من اشباح عامورة المذنبين الذين لم تدركهم المغفرة . وهب آخاب من نومه ، فاذا به وجهاً لوجه امام البارسي ، وكانت حلقة الليل تطوق الرجلين فيبدوان وكأنهما آخر اثنين في عالم طفى عليه الطوفان . وقال : «عاودتني الرؤيا مرة أخرى» .

- «رؤيا عربات الموت ؟ ألم اقل لك ايها الشيخ انك لن تعرف تابوتاً او عربة ؟» .
- « وهل يحتاج من يموت في البحر عربة تنقله ؟ » .
- « ولكنني قلت ، ايها الشيخ ، انك قبل ان يدركك الموت في هذه الرحلة ستري

عريتين حقاً على البحر اما الاولى فلم تصنعها أيدي بشرية واما الخشب الملموس في الثانية فلا بد انه من اشجار امريكية» .

- «اجل ، اجل . منظر غريب حقاً ، يا بارسى - ان ترى عربة والریش من فوقها عانمة على المحيط ، والموجات هي حاملة النعش . ها! مثل هذا المنظر لن نراه وشيكاً» .
- «صدق او لا تصدق . انك لن تموت الا حتى ترى هذا المنظر ، ايها الشيخ» .
- «وما ذاك الذي قلته عن نفسك؟» .

- «مع ان الامر آجلُ فيما يتصل بي ، الا اني سأكون ربينة لك ، أمضي قبلك» .
- «وحيين تمضي قبلي - ان حدث ذلك ابدأ - فاني قبل ان ألحق بك ، فلا بد من ان تظهر لي ، لتكون دليلاً لي ؟ أليس كذلك ؟ حسن ، اني أصدق كل ما تقوله يا دليلي وربيتي ؛ ما يزال علي عهدان ؛ ان أقتل موبى ديك وأن أبقى حياً بعد قتله» .

فقال البارسي وعيناه تومضان كأنهما يراعتان من نار الجباحب في الحلك ؛ «اقطع على نفسك عهداً ثالثاً ايها الشيخ ، فلن يقتلك الا القتب» .

- «تعنى حبال المشنقة^(١) . اذن فأنا خالد على البر وعلى البحر» - كذلك صاح آخاب بضحكة ساخرة - ؛ «خالد على البر وعلى البحر» .

ولاذ الرجلان بالصمت كأنهما رجل واحد ، وطلع الفجر الداكن ، ونهض الملاحون النائمون من قعر القارب ، وقبل الظهر جُرَّ الحوت الى السفينة .

(١) هنا اخفاً آخاب التقدير وظن ان القتب لا يعنى الاحبال المشنقة .

مقياس الزوايا

مع الزمن اقترب موسم الصيد على الخط ، وحين كان آخاب يصدر كل يوم من قمرته ويلقي نظرة الى اعلى كان قيم الدفة اليقظ ، يعالج محاور دولابه^(١) متباهاً ، والبحارة اللاهثون يجرون بسرعة الى حلقات الحبال ويقفون هنالك وعيونهم مصوبة على الدبلون المستمر ، وقد فرغ صبرهم في انتظار الامر بأن يوجهوا قيدوم السفينة نحو خط الاستواء . وجاء الامر في إبانه ، كان الوقت يقترب كثيراً من الظهيرة وكان آخاب وهو جالس في صدر قاربه المرفوع عالياً ، يهيم برصد الشمس - حسب عاداته اليومية - لتقدير مدى ارتفاعها . ونهار الصيف في البحار اليابانية كجدول من الألق الوضاء ، فالشمس اليابانية الحية التي لا يطرف جفنها تبدو وكأنها البؤرة المتوهجة في مجهر المحيط الزجاجي المترامي ، وتبدو السماء مصبوغة بالليلك ولا سحب هنالك ، والأفق ساحب ، وهذا العري ذو الألق الذي لا يخبو كأنما هو سناء عرش الله لا تستطيع العيون ان تحدد إليه . ومن الخير أن كان مقياس الزوايا لدى آخاب مزوداً بعدسات ملونة يستطيع من خلالها ان يبصر تلك النار الشمسية ، وبقي آخاب في جلسته لحظات ليقع على اللحظة الدقيقة التي تحل فيها الشمس في الأوج ، وهو قد جعل يراوح جسمه على حسب تقلبات السفينة ، ووضع على عينيه منظاره الذي يشبه آلات التنجيم . وبينما كان انتباهه كله مستغرقاً ، كان البارسي راکعاً دونه على ظهر السفينة ، ووجهه متجه الى أعلى كوجه آخاب ، وهو يرقب الشمس مثله ، إلا ان جفني عينيه كانا يخفيان حدقتيه بعض اخفاء ، ووجهه الغريب قد استبد به ركود ارضي . وأخذ آخاب نتيجة الرصد بعد ذلك ، وحسب بقلمه على رجليه العاجية ماذا كان ارتفاع

(١) هنا جعل للدفة دولاباً وكان قد قال في التمثل ١٦ إن لها سخلاً اتخذ من فك حوت .

الشمس في تلك اللحظة نفسها ، وعاد يتردى في غمرة حلم مدة لحظة ثم رفع رأسه الى الشمس وتمتم قائلاً : «انت يا علامة بحرية ، انت ايها الرائد القوي الرفيع ، انت تصدقيني الخبر عن موضعي في الحاضر ، ولكن أتستطيعين ان تلمحي الي تلميحا أين أكون في المستقبل ؟ او تستطيعين ان تخبري اين تعيش بعض الاشياء الاخرى سواي في هذه اللحظة ؟ أين موبى ديك ؟ لا بد من انك في هذه اللحظة تبصريه ، ان عيني لتنظران في نفس العين التي تبصره ، أجل وفي العين التي ترى الاشياء على الجانب الآخر المجهول منك ايتها الشمس ، على حد سواء . »

ثم نظر الى آلة قياس الزوايا ، ومسّ مبتدعاتها ورموزها العديدة واحداً بعد آخر ثم تفكر ثانية وتمتم : « لعبة حمقاء ! ألهية اطفال يحملها الاميرالات المستكبرون والقومودورات والقباطنة ؛ ان العالم ليباهي بك ، ويزهو بحيلتك وقوتك ، ولكن ماذا بعد كل هذا تستطيعين ان تفعلي سوى ان تعيني النقطة المسكينة الذليلة التي تكونين انت نفسك فيها على هذا الكوكب الواسع ، واليد التي تمسك بك : لا . لا شيء سوى ذلك ، ولو كان مقدار ذرة ! انك لا تستطيعين ان تنبئينا اين تكون غداً عند الظهر قطرة ماء او ذرة رمل ، ومع ذلك فانك من القحة بحيث تحقرين الشمس ! علم ! لعنت ايتها اللعبة المفرورة ! ولعنت جميع الاشياء التي توجه عيون الانسان نحو تلك السماء ، فان حيويتها الحية انما تلتفح عينيه مثلما ان هاتين العينين الشائختين يحرقهما ضوءك ايتها الشمس . ألاحظ عيني الانسان على مستوى واحد وأفق الارض بطبيعتهما ، ولم يبنتهما الله في أم رأسه كأن الله قد أراد ان يحدق في جلد سمائه . لعنت ايتها الآلة التي تقيس الزوايا ! » ثم قذف بها على ظهر السفينة : « بعد اليوم لن استبين طريقي الارضي بك ، سيهديني ويريني موقعي في البحر ، بوصلة السفينة المستوية ، والاعتماد على التقديرات التخمينية المرتجلة » . - ثم اضاف وهو نازل من القارب الى ظهر السفينة : « اجل ! كذا أدوسك انت يا شيئاً خسيماً يشير بوهن الى الاعالي ، هكذا احطمك واضربك ! »

وما ان نطق الشيخ الهائج بهذه الكلمات وما ان داس برجليه كلتيهما الحية منهما والميتة على الآلة حتى مرت على وجه البارسي الاخرس القابع دون حراك سحابتان : احداهما نصرٌ ساخر كأن المقصود بها هو آخاب والاخرى ياس قاتل كأن نفسه هي المعنية بها . ونهض دون ان يلحظه احد وانسلّ ذاهباً ، اما البحارة الذين تملكتم الرهبة لمنظر رئيسهم فانهم احتشدوا فوق أعلى المقدمة حتى صرخ آخاب وهو يذرع ظهر السفينة في اضطراب : « الى حلقات الجبال ! ارفعوا الدقة - اديروا الدعائم الساندة ! » .

وفي لحظة دارت الدعائم الساندة ، واستدارت السفينة على عقبها نصف دورة ،
 وصواريتها الثابتة الجليظة مصوبة في انتصاب على هيكلها الطويل المضلع كأنما هي ثلاثة
 فرسان - كل واحد منهم اسمه هوراتيوس^(١) - يرقصون على حصان واسع الظهر .
 وكان استاربك يقف بين رؤوس اولئك الفرسان يرقب طريق الباقوطة الصخاب ويرقب
 آخاب ايضاً حين ذهب يتمايل على ظهر السفينة .
 - « لقد جلست امام نار الفحم الكثيفة وشهدتها وهي تتوهج مفعمة بحياة اللهب
 الملتوي ورأيتها وهي تأخذ في الخمود ، وتنطفئ ، حتى تصبح رماداً أخرس! يا شيخ البحار
 هذه الحياة النارية التي فيك ما الذي يبقى منها في الختام سوى حفنة من رماد! »
 وصاح اسطب : « اجل إلا انه رماد فحم البحر - تأمل هذا يا سيد استاربك - قولي
 « فحم البحر » - لا فحماً عادياً مبتدلاً . طيب! طيب! سمعت آخاب يتمم قائلاً : « ها قد
 دس بعضهم هذه الورقات في يدي وحلف ان ألعب بها أنا ولا احد سواي » . علي اللعنة ان
 كنت يا آخاب لا تلعب لعباً سليماً ؛ عش في اللعبة حازماً ، ومت حازماً » .

(١) ثلاثة اخوة هم ابنا هوراتيوس حاربوا ضد الاخوة الكورياتيين حفاظاً على سيادة ألبا .

الشموع

أشد المناخات دفناً يرثي اضري الضواري : فنمر البنغال يقعي في حدائق الافاويه ذات الخضرة الدائمة . والسماء أشد شيء اشراقاً الا انها تحتقب اشد الصواعق فتكأ : هذه كوبا الفاتنة تعرف الاعاصير التي لم تطف ابدأ ببلاد الشمال ؛ كذلك هي الحال في هذه البحار اليابانية المتألقة ، فالبحار يواجه فيها أعنى العواصف اعني الزعزع الهوجاء «التيفون» . فهي تنبثق احياناً من ذلك الفضاء الصافي كأنها قنبلة متفجرة في مدينة مبهورة نائمة .

قبل مساء ذلك اليوم تمزقت أسرع الباقولة واضحى على الصواري العارية ان تنازل الزعزع التي ضربتها ضربة على أم رأسها ؛ وحين حل الظلام كان البحر والسماء يهدران ، والرعد يشقهما والبرق يتوهج فيهما ، ويفضح الصواري العاجزة ، والمزق ترفرف حولها من هنا وهناك ، وهي كل ما تركه لها هياج العاصفة الاول ، لتلهى به في لعبها المقبل .

وكان استاربك يقف على الربعة خلف الدقل الاعظم وهو ممسك باحدى هذه المزق ، ولدى كل لمعة برق يرفع بصره الى اعلى ليرى اية كارثة اخرى قد اصابت الادوات الضرورية هنالك . اما اسطب وفلاسك فكانا يوجهان الرجال في رفع القوارب الى اقصى علو وفي كيفية الربط بأقصى احكام ، وبدا ان جهدهم يضيع هباء ، فمع ان القوارب رفعت الى قمة الروافع فان قارب الربعة المضادة للريح (قارب أخاب) لم تكتب له النجاة فقد اندفقت امواج هائلة متضربة ضدّ جانب السفينة المترنح العالي وشقت قاعدة القارب عند المؤخرة وتركته مرة اخرى يقطر ماء كأنه غربال .

قال اسطب وهو يتأمل القارب المتصدع ، «صنعته رديئة! صنعته رديئة يا سيد استاربك ولكن لا بد للبحر ان يفعل ما يريد . انا واحد من الناس الذين لا يستطيعون منازلته . اما ترى يا سيد استاربك ان الموجة تطيل التحفز قبل ان تثب ، فهي تجري حول العالم كله ثم

تغز ، اما انا فكل مسافة التحفز التي لدي هي عرض هذه الالواح ها هنا . لكن لا بأس
بذلك ، فكله يتم في دعابة ، كذلك تقول الاغنية القديمة : (يعني)

آه ان الريح طروب
والحوت ساخر ضحوك
وذيله ناضر
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان ،

والرشاش يتطاير
وهذه اصبعه تثير زيدا
حين يتملح في العبير
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان

والرعد يشق السفين
وانما هو يتمطق
اذ يلحق اصبعه
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان

فصاح استاربك : «حسبك يا اسطب ودع الزعزع تفني وتضرب قيثارتها هاهنا في
حبالنا وأشرعتنا ، ولو انك كنت رجلاً شجاعاً للزمت الصمت» .
- «ولكني لست رجلاً شجاعاً ، ابدأ ما قلت انني رجل شجاع ، انا جبان ، وانا أغني
تشجيعاً لقلبي وانا اخبرك بالأمر يا سيد استاربك : لا شيء يوقف غنائي في هذا العالم الا ان
يقطع حلقي ، وحين يحدث ذلك فأنا اراهنك انني سأنشد تسابيح الختام» .
- «احمق! انظر من خلال عيني ان لم يكن لك عينان» .
- «مه! كيف ترى من الليلة الظلماء خيراً مما يراه سواك مهما يكن حمقه؟»

فصاح استاربك وهو يقبض على كتف اسطب ويشير بيده نحو مقياس الطقس : «افتح
عينيك! ألا ترى الريح تهب من الشرق ، اي من الجهة نفسها التي سيجري فيها آخاب من
اجل مويبي ديك؟ الجهة نفسها التي أمر بالدوران نحوها ظهر اليوم؟ تأمل قاربه هناك اين
وقع التشقق؟ في أشرعة المؤخرة ، يا رجل ، حيث تعود ان يقف ، لقد انشقت البقعة التي
يقف فيها يا رجل! والآن اقفز من حافة السفينة وتغن متلاشياً ان كان لا بد من غناء!» .

- « لا أفهمك حتى بعض الفهم ، ماذا في الريح ؟ » .

فناجى استاريك نفسه فجأة غير آبه لسؤال اسطب قائلاً : « نعم ، نعم . الدوران حول رأس الرجاء الصالح أقصر طريق الى نانوتوك ، والريح التي تدقنا بمطرقتها الآن لتشق سفينتنا يمكن لنا ان نحولها الى ريح رخاء تسوقنا الى الوطن ، هناك ضد مهب الريح ظلمة مصير اما مع مهب الريح ، فالوجهة هي الوطن - أراها تضوى، هناك ، لكن ذلك ليس من فعل البرق » .

في تلك اللحظة اثناء احدى فترات الظلمة الحالكة التي تتلو التماع البرق سمع استاريك صوتاً الى جانبه وفي اللحظة نفسها على وجه التقريب تدرجت فوق رأسه زخة من قصف الرعد .
- « من هناك ؟ » .

- « الرعد الرعاص » - قال آخاب ذلك وهو يتلمس طريقه على حافة الربعة العليا ذاهباً الى الثقب المحوري ، إلا انه فجأة وجد طريقه واضحاً أمامه على ضوء حراب مقذوفة من نار .

ومثلما ان مانعة الصواعق في برج على البر انما يراد منها ان تصرف التيار الخطر في الارض فكذلك اختها مانعة الصواعق التي تحملها بعض السفن على كل صار فانما يراد منها ان تسرب التيار نفسه في الماء ، ولكن بما ان هذا الموصل يجب ان ينزل الى عمق غير قليل حتى تتحاشى نهايته كل مساس بهيكل السفينة وبما انه زيادة على ذلك اذا ظل هنالك مجذباً على الدوام فانه يكون عرضة لكثير من الكوارث ، هذا علاوة على انه قد يتدخل تدخلاً غير قليل ببعض الحبال والاشرعة وبذلك يعيق طريق المركب في الماء كثيراً او قليلاً ، من اجل ذلك كله فان الاجزاء الدنيا من موانع الصواعق في السفينة لا تكون دائماً على ظهرها وانما هي بعامة تصنع من حلقات طويلة دقيقة لكي يتم سحبها الى أعلى في السلاسل الى خارج او القاؤها في البحر حسبما يتطلبه الموقف .

صاح استاريك للبحارة وقد استفاق فجأة بقوة البرق اللماح الذي كان قد اخذ يرسل شعله المنطلقة لتسير موقع آخاب :

« موانع الصواعق! موانع الصواعق! أهي فوق الظهر ، أنزلوها في المقدمة والمؤخرة! عجلوا! » .

فصاح آخاب : « حسبك! دعنا تتذرع بروح رياضية في هذا النزال وان كنا نحن الفريق الاضعف . اني قد اسهم في رفع موانع الصواعق على جبال الهملايا والانديز حتى أحفظ العالم كله من الخطر ، ولكن دعنا من استفلال الامتيازات لانفسنا ، دعها حيث هي يا سيدي » .

فصاح استاريك : « انظر الى أعلى ، انها شعل القديس اميليو (جسم قديس) انها جسم قديس! جسم قديس!» .

كانت كل الدعامات الساندة في السفينة قد مالت على وهج نار صفراء وكانت كل نهاية مثلثة الرؤوس في كل طرفٍ من اطراف مانعة الصواعق الثلاثة قد علقت بها ثلاث شعل بيضاء مستدقة ، وكل واحد من الصواري الطوال الثلاثة كان يلتهب في صمت في الفضاء الكبريتي وكأنها جميعاً ثلاثة رؤوس مستدقة من شموع ضخمة منصوبة امام المذبح .

« سحقاً للقارب! ليذهب! » كذلك صرخ اسطب في تلك اللحظة عندما ارتفع الماء المتلاطم تحت قاربه الصغير حتى ان حافته لطمت يده بعنف وهو يمزّ حبلأ . « سحقاً له » - ثم انزلق الى الورا على ظهر السفينة وعيناه المصعدتان تبصران الشعل . ثم على التو صاح مغيراً نغمته : « ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها! » .

في لغات البحارة كلمات مألوفة ، فهم قد يلعنون وهو في نشوة السكينة مثلما يلعنون وهو بين نواجز العاصفة ، وهم قد يصبون اللعنات من نهايات الدعامات الساندة عند الشراع الاعلى حين يكونون اشد شيء ترنحاً من بحر هائج . ولكني قلما سمعت في كل رحلاتي لعنة مترددة حين يكون اصعب الرب الملتهب قد نزل على السفينة حين تصبح كلمات بليشامر « منا منا ثقيل وفرسين » منسوجة مع الاشرعة والحبال .

وبينا كانت هذه الصفرة تلهب في الاعالي لم يسمع بين البحارة المسحورين كلام الا قليلاً ، وكان البحارة قد تجمعوا في عصابة كثيفة واقفين عند منارة السفينة وعيونهم جميعاً تلتصق في تلك الصفرة الفوسفورية الشاحبة كأنهم عقْد ناءٍ من النجوم . واذ تبدى دغة ذلك الزنجي الضخم اللامع ازاء الضياء الشبحي لاح في الطول ثلاثة امثال قامته الحقيقية ، وبدا كأنما هو السحابة السوداء التي انطلق البرق منها . واما شفتا طاشطيقو المنفرجتان فقد كشفتا عن اسنان في بياض القرش تلتصق التماعاً غريباً حتى كأنما قد مستها شعل القديس اميليو . واما وشم كويكوج فانه حين سطعت عليه الاضواء السماوية ، توهج فوق جسمه كأنه شعل شيطانية زرقاء .

وذوى رواء الصورة جميعاً حين طفت عليها الصفرة الشاحبة في الاعالي ، ومرة اخرى كانت الباقوطة وكل نفس عليها ملفعين في عباءة ، ومرت لحظة او اثنتان حين اصطدم استاريك بشخص وهو يتقدم الى الامام ، كان الشخص هو اسطب ، فقال له : « ما رأيك ايها الرجل الآن ، سمعت صيحتك ، فلم تكن نظير ما جاد في الاغنية » .

- « لا . لا . لا . لم تكن ، لقد قلت : ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها ، وانا

لأزال أرجو ان تفعل ذلك ، أتراها لا تولي الرحمة الا الوجوه العابسة ؟ أليس لديها طاقة لتقبل الضحك ، وانظر يا سيد استاربك أقول « انظر » والظلام حالك يحول دون الرؤية ، والصواب ان اقول : « اسمع » : اني اعد الشعلة التي علقت برأس الصاري علامة الحظ السعيد ، لان هذه الصواري مفروسة في عنبر سيطفح بزيت العنبر ، - فهمت ؟ - وبذا فان الزيت سيتغلغل في الصواري كمصير الحياة في الشجرة . اجل ان صوارينا الثلاثة ستصبح ثلاث شموع من زيت العنبر - ذلك هو الغال الحسن الذي رأيناه .

في تلك اللحظة رأى استاربك وجه اسطب وقد أخذ في بظه يلوح منه بصيص ، ونظر الى اعلى وصاح : « انظر! انظر! » ومرة اخرى تراءت الشعل العالية المستدقة وقد بدا في شحوبها ما لاح كأنه شيء فوق طبيعي قد تضاعف ما فيه من سمات علوية .

وصاح اسطب مرة اخرى : « أرجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها » .
وعند قاعدة الصاري الرئيس تحت الدبلون واللهب تماماً كان البارسي راکعاً امام آخاب ورأسه منحني بعيداً عنه ، بينما كان عدد من البحارة عن كشب منه ، عند الحبال المقوسة والمدلاة ، منهمكين في حفظ احد الصواري من العطب فشدهم الوهج فتلاصقوا ملتحمين ، ووقفوا معلقين كأنهم ثلث من الزنايير المخدرة تعلقت من غصن متدل من شجرة ، وبقي آخرون مفروسي الاقدام في ظهر السفينة في وقفات متنوعة مسحورة كأنهم الهياكل الجسيمة في هر كولانيوم بعضها واقف وبعضها يمد الخطو وبعضها راكض . الا ان عيونهم جميعاً كانت مصوبة الى أعلى .

فصاح آخاب : « أجل ، أجل ، يا رجال صوبوا النظر اليها ، عاينوها جيداً ، ان الشعلة البيضاء لتشير الطريق الى الحوت الابيض ، ناولوني حلقات الصاري الرئيس هناك ، انه ليسرني ان ألمس هذا النبض وادع نبضي يدق ازاءه . دم يواجه ناراً! كذا هو » .

ثم استدار وقد قبض بإحكام على آخر حلقة ووضع قدمه على البارسي وأثبت نظره الى أعلى وطرح ذراعه اليمين على امتداده الى اعلى ووقف منتصباً امام ذلك الثالوث العالي ذي الرؤوس الثلاثة من الشعل :

« آه يا روحاً صافية من نار صافية ، كنت اعبدتها ذات يوم فوق هذه البحار كما يعبدها الفارسي حتى جرقنتي في شعيرة قربانية فأنا لأزال احمل ندوبها حتى الساعة⁽¹⁾ . انا اعرفك

(1) درس احد النقاد رمز « النار » في قصة موبى ديك ففسر هذه العبارة بقوله : « كان آخاب يعبد النار أولاً لانه يرى فيها موطناً للشز على الطريقة الزرادشتية الصحيحة . اذ كان يمدحها مبدأ النور ، واذ فعل ذلك ضربته البرق فأحرقته النار ، فكان فعلها موازياً للتشويه الذي أحدثه موبى ديك... » .

الآن ، ايتها الروح الوضاعة ، وانا اعرف الآن ان عبادتك الحق تحدد ، انك لا تعطفين على الحب او الاحترام ، واما الكراهية نفسها فلا يمكنك إلا قتلها ، وكل شيء تقتلين . فاليوم لا يقف في وجهك أحمر سادر لا يعرف الخوف . في قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان ، ولكني سأظل حتى الرمق الاخير من حياتي الزلزالية انازع في هيمنتها المطلقة غير المتكاملة على نفسي . في وسط حومة اللاشخصاني المتشخص ، ها هنا تقف شخصية ، وان كانت في خير احوالها نقطة . من أين أتيت والى أين اذهب ؟ غير اني مادامت لي حياة البشر ستظل تحيا في الشخصية الملوكية وتستشعر حقوقها الملوكية . غير ان الحرب ألم والكراهية ويل . تعالي في أدنى اشكال الحب وسأركع امامك وأقبلك ، اما في اعلى صورك فتعالي محض قوة علوية ، ومع انك تسوقين اساطيل من عوالم مفعمة بمشحوناتا فهناك ذلك الذي لا يزال قليل المبالاة بك ، آه ايتها الروح الصافية ، من نارك خلقتني ، وانا مثل ابن النار البار انفسها مردودة اليك» .

[تعود خطفات البرق مكرورة مفاجئة . تقفز الشعل التسع في اتجاه طولي بحيث تصبح ثلاثة اضعاف ارتفاعها الاول . آخاب وسائر الرجال يغمضون أعينهم ، وقد غطوها براحتهم] .

«في قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان . ألم اقل كذلك ؟ وهي لم تنزع مني ، ولا انا التي هذه الحلقات الآن . انت تستطيعين ان تضربيني بالعمى ولكنني عندئذ استطع ان أتلمس طريقي . انت تستطيعين ان تهلكيني ولكنني استطع عندئذ ان اكون رماداً . خذي اليك ولاء هذه العيون البائسة وهذه الراحات المتخذة ولاء . أما انا فلا أريد ولاء . ان البرق يلتمع خلال جمجمتي ، وحدقتاي تؤلمان وتوجعان ، وذهنني المصعوق كأنه مقطوع الرأس يتدحرج على ارض سحابة . آه آه ، وان غشيني العمى فأنا اتكلم اليك ، انت ضياء ، ومع ذلك فانك تنبشقين من الظلام ، وانا ظلام انبثق من الضياء ، انبثق منك انت! قد كفت حراب البرق عن الانطلاق ، ها انا افتح عيني ، فهل أبصر ؟ هناك تلتهب الشعل ، آه ايتها الفخيمة ما اشد ما اعترز الآن بانتسابي اليك! ولكنك ليس ضياؤك إلا والذي الناري اما أمي الحلوة فلا اعرفها . آه ايتها الجائرة انك لا تعرفين كيف جنت ولذلك تقولين لم تلذك أم ؛ يقيناً انك لا تعرفين مبتدأك ومن ثم تقولين انك قديمة لا أول لك ، انا اعرف ذلك من نفسي اعرف ما لا تعرفينه من نفسك ايتها الجبارة المهيمنة . وراءك شيء لا يمتزج بغيره ايتها الروح الوضاعة ليست ابديتك إزاءه الا زمناً ، ليست قدرتك على الخلق إزاءه الا آلية ؛ من خلالك ، من خلال نفسك الملتهبة تراه عينا المحرقتان رؤية غائمة ، ايتها النار اللقيطة ، ايتها الناسكة الازلية

ان فيك لغزك الذي لا يحل ، فيك حزنك الذي لا يشركك فيه احد . ها هنا في ألم مستكبر
اجد جدي وأقرأ اسراره . اقفزي ، اقفزي الى اعلى والحسي السماء ، انا اقفز معك ، احترق
معك . ويسرني ان التحم بك ، بتحد اعبدك! »

فصاح استاريك : « القارب! القارب! انظر ما حلّ بقاربك ايها الشيخ! »

بقي رمح آخاب الذي صنعه في نار بيرث مربوطاً مربوطاً محكماً في محجأه المرني الظاهر
حتى انه نتأ بعيداً عن مقدم قارب التحويت ، ولكن البحر الذي شق قاعدته قد جعل الغمد
الجلدي المرتخي يسقط عنه ، ومن كلابة السنان الفولاذي الحاذ سطمت شعلة مستوية من
نار شاحبة ذات شعب ؛ وعندما كان الرمح الاخرس يحترق هنالك كأنه لسان حية ، قبض
استاريك على ذراع آخاب قائلاً : « الله ، الله ضدك ايها الشيخ ؛ كفّ عما اعتزمت! فهذه
رحلة منكودة الطالع ، بدايتها منكودة والاستمرار فيها منحوس ، دعني احول وجهة
السفينة ، مادام في مقدورنا ذلك ، ايها الشيخ ، ونساير الريح الرخاء نحو الوطن حتى يتاح
لنا ان نخرج في رحلة خير منها » .

وتأدى الى البحارة الذين كان قد تملكهم الفزع ما قاله استاريك فجزوا الى حيث
الحلقات ، وان لم يكن هناك شرع واحد مرفوع ، ومرت عليهم لحظة كانت افكار الضابط
المبهور فيها هي افكارهم ، فرفعوا عقائهم بصيحة تمردية - بعض التمرد ، ولكن آخاب
قذف بحلقات مواعق المقمقمة على ظهر السفينة ، واختطف الرمح المحترق وهزه
كأنه شعلة بينهم وأقسم ان يسم به اول بحار يحلّ طرف جبل ، وشلمهم منظره عن الحركة ،
وأخافهم المزراق الناري الذي يحمله فانكمشوا وتراجعوا في فزع ، وتكلم آخاب ثانية فقال :
« كل أيما نكم التي حلفتموها لصيد الحوت الابيض تلزمكم كما يلزمني يميني ، ان
اخاب الشيخ مرتبط بقسمه قلباً ونفساً وجسماً ورتتين وحياة ، وانتم كي تعرفوا لاي نعمة
يدق قلبه انظروا ها هنا ، سأطفي آخر خوف » . ونفخ نفخة واحدة على الشعلة فأطفأها .

ومثلما يهرب الناس في العاصفة التي تكتسح السهول من جوار شجرة دردار ضخمة
منفردة ، يجعلها ارتفاعها وقوتها ابعد عن السلامة ، لانها تكون بذلك هدفاً واضحاً
للمواعق ، كذلك فان كثيراً من البحارة حين سمعوا كلمات آخاب الاخيرة هربوا في هول
الفزع مبتعدين عنه .

ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الأولى في الحراسة الليلية

(آخاب جالس عند الدفة، واستاريك يقترب منه).

- « يجب ان ننزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي يا سيدي فان الرباط قد استرخى ، والرافع الأيمن قد وهى حتى كاد ينقطع فهل أنزلها يا سيدي ؟ » .
- « لا تنزل شيئاً ، اربطها ، لو كانت لدي دعائم اشرعة سماوية لأمرت برفعها الآن » .
- « سيدي ؟ بحق الاله! سيدي ؟ » .
- « طيب » .
- « المراسي تعمل يا سيدي فهل أجعلها تدخل فوق ظهر السفينة ؟ » .
- « لا تنزل شيئاً ولا تحرك شيئاً بل اربط كل شيء . الريح تعلق ولكنها لم تبلغ بعد الى هضباتي ، اسرع واهتم بالامر ، وحق الصواري والأرينات ، انه ليعدني قبطاناً أحذب مسؤولاً عن سفينة مساحة ذات دقل واحد . يريد ان ينزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي! واه يا قدور الغراء! أعلى تويجات الصواري انما صنعت لأقصى الرياح ، وتويج دماغي هذا يبحر وسط منطلق السحاب ، فهل انزله ؟ لا ينزل تويجات أدمغتهم في وقت العاصفة الا الجبناء . اي فوضى هنالك في الأعلى! لكنك احسبها فوضى رانعة لولا ان القولنج مرض مزعج ! آه ، خذ دواء! خذ دواء! » .

منتصف الليل - حوافي السفينة عند المنارة

(اسطب وفلاسك قد ركبا حوافي السفينة عند المنارة
وهما يمران أربطة اضافية فوق المراسي المعلقة هنالك).

- « لا يا اسطب ؛ تستطيع ان تدق تلك العقدة قدر ما تشاء حتى تسحقها ولكنك لن
تستطيع ان تجعلني أزدرد ما كنت تقوله قبل قليل ، ترى كم مضى عليك منذ كنت تقول
نقيضه تماماً ؟ ألم تقل ذات مرة ان اية سفينة يبحر فيها آخاب فتلك السفينة يجب ان تدفع
شيئاً اضافياً على بوليصة تأمينها ، كأنها معبأة ببراميل بارود في مؤخرتها وسناديق من
أعواد الثقاب في مقدمتها ؟ قف الآن : ألم تقل انت ذلك ؟ »

- « مليب هب انني قلته ؟ فماذا في ذلك ؟ منذ ذلك الوقت غيرت لحمي جزئياً فلم لا
أغير عقلي ؟ ثم هب ان سفينتنا معبأة ببراميل البارود في الخلف واعواد الثقاب في القيدوم
فكيف بحق الشيطان يمكن لأعواد الثقاب ان تلتقط النار في هذا الرشاش الليليل ؟ انت يا
أخي ذو شعر أحمر جميل ولكنك لا تستطيع ان تلتهب . انفض نفسك ، انت اكواريوس او
حامل الماء يا فلاسك . تستطيع ان تملأ جراراً واباريق عند ياقة معطفك ، ألا ترى اذن ان
شركات التأمين البحري قد تطلب ضمانات اضافية من اجل هذه الاخطار الاضافية ؟ ها هنا
صنابير كبرى يا فلاسك ، ولكن أصخ - مرة اخرى - وسأجيبك عن الامر الآخر . اولاً أبعد
رجلك من قمة المرساة هنا ، حتى استطيع ان أجز الحبل ، أصغ اليّ ، ما الفرق الكبير بين
الامساك بمانعة صواعق في صارٍ اثناء العاصفة والوقوف لصق صارٍ ليس فيه اية مانعة صواعق
ابداً في العاصفة ؟ ألسنت ترى ، يا ذا الرأس اليباس ، ان لا اذى يصيب الممسك بقضيب
المانعة الا اذا ضربت الصاعقة الصاري أولاً ؟ عمّ تتكلم اذن ؟ لا تجد سفينة واحدة في كل
مائة مزودة بموانع الصواعق ؛ ولم يكن آخاب ، ايها الرجل ، ولا كنا جميعاً في خطر ،

حسب رأبي المتواضع ، اكثر من الخطر الذي يتعرض له البحارة في عشرة آلاف سفينة تبحر الآن في البحار . لكن انت ايها الدعامة الكبرى ، انت ، اظنك تمنى لو ان كل فرد في الكون يمشي وقد جعل في زاوية قبعة قضيباً صغيراً يمنع الصواعق كالريشة المثبتة في قبعة ضابط الميليشيا ، ويجرجرها من خلفه كأنها حزامه . لم لا تكون عاقلاً يا فلاسك ؟ من السهل ان يكون المرء عاقلاً ، فلم لا تكون انت ؟ اي امرئ له نصف عين يستطيع ان يكون عاقلاً» .

- « لا أدري لم يا اسطب ، احياناً يجد المرء ذلك عسيراً» .

- «نعم عندما يكون المرء نقيعاً فمن العسير ان يكون متعقلاً ، هذا حق . وانا أكاد انتقم بهذا الرشاش . لا بأس ، امسك اللفة هنالك وأمرها ، يبدو لي اننا نربط هاتين المرساتين كأننا لن نستعملهما من بعد ابدأ . ان ربط هاتين المرساتين يا فلاسك يشبه من يشد امرأ كتافاً ، جاعلاً يديه وراء ظهره . وما اكبر هاتين اليدين وأكرمهما ، يقيناً . هاتان قبضتاك الحديديتان ، مش كده ؟ واي قدرة فيهما على القبض ايضاً! ليت شعري يا فلاسك هل للعالم مرساة في مكان ما ؟ ان كانت له مرساة فانها تتأرجح من حبل طويل شاذر في مبلغ طوله . دق تلك العقدة هناك وبذلك ينتهي عملنا . خير شيء يرضي النفس ، سوى النزول الى البر ، هو النزول على ظهر السفينة ، اقول : انفض حواشي صدراتي ، اتسمح ؟ شكراً لك . يسخر الناس من المعاطف الطويلة يا فلاسك ، ولكن يخيل الي ان المعطف ذا الذيل الطويل يجب ان يلبس دائماً اثناء كل العواصف في الاعالي ، فاذا كان الذيل مستدقاً الى اسفل فانه يأخذ الماء . فهمت ؟ وكذلك الامر في القبعة ذات العرف فإن العرف يا فلاسك يمثل طنف الجرن في نهاية السقف الهرمي . لا اريد بعد اليوم الصدارات البحرية الضيقة او قبعات التربولين ، سأخذ سترة فراك وقبعة محردة . كذا قررت . مرحي! ووه! هاهي قبعتي التربولين تهوي الى الماء ، رياه ، رياه كيف تكون الريح التي تهب من السماء قليلة الذوق! هذه ليلة قدرة يا فتى!»

البندقية

في خلال أعتى الصدمات التي كانت تحدثها الزعزعة كان الرجل الواقف عند مخل السكان ، المصنوع من عظم الفك ، ينطرح مترنحاً عدة مرات على ظهر السفينة بسبب حركاتها المتقطعة مع ان جبالاً واقية كانت قد ربطت بها - اذ كانت جبالها مسترخية - لانه لم يكن ثمة معدى من ان يكون المخل حراً بعض الشيء .

وفي عواصف عديدة كهذه العاصفة ، حين لا تكون السفينة إلا خذروفاً متقلباً في يد الريح ، فانه ليس من المستغرب ان ترى الابر في البوصلات ، بين فترة واخرى ، تدور وتدور ، وذلك هو ما يحدث في الباقوطة ، فان قيم الدفة لم يفته ان يلحظ عند كل صدمة تقريباً ، سرعة الدوران في الابر فوق لوحاتها ، وذلك منظر يكاد لا يلحظه اي انسان دون الاحساس بنوع من الشعور لم يألفه .

وبعد مضي بضع ساعات على انتصاف الليل خبت حدة الزعزعة كثيراً حتى ان البقايا المترجرجة من الاشرعة ، المقدم والمستأخر والعلوي الرئيس ، انفصلت عن الصواري بالجهود المضنية التي بذلها كل من ابستاريك واسطب ، واحدهما منهما في الامام والآخر في الخلف ، وذهبت تغزل بعيداً مع مهب الريح كأنها ريش طائر البطروس ، وهو الريش الذي تتلعب به الريح حين يكون ذلك الطائر الذي تقلبه العاصفة ناشراً جناحيه .

وأميلت الاشرعة الثلاثة المناظرة وطويت ، ونشر شرع مرن في المقدمة ينشر مثله عادة في العواصف ، حتى ان السفينة جرت على الماء مرة اخرى بشيء من التثبيت المتماك ، وأمر قيم الدفة بأن يوجهها ان كان التوجه ممكناً في اتجاه شرقي جنوبي شرقي ، ذلك انه خلال هيج العاصفة انما كان يوجه السفينة حسب تقلب الحال بها واذا كان يقرب السفينة من مجراها قدر الامكان ، مراقباً البوصلة في الوقت نفسه - يا لله! ما احلى هذه

العلامة! ها هي الريح تدور من المؤخرة ، اجل ان ما كان ريحاً نكباً قد اصبح ريحاً رخاء! وعلى التو أديرت الدعامات الساندة على نفمة اغنية حيوية مطلعها : « هو! الريح رخاء! او هي - هو ، تهلاً يا رجال » والبحارة يتغنون طرباً ؛ ومن عجيب ان الامل بالتغير قد زيف على التو وجه نذر الشر التي سبقتة .

وما كاد استاريك يعدل الدعامات وفق المهب - في حرد وبرم وكآبة - وكان منوطاً به ان يعلن حالاً في اية ساعة من الساعات الاربعة والعشرين عن كل تغير يحدث في شؤون ظهر السفينة ، امثالاً منه في ذلك لأوامر رئيسه ، ما كاد يفعل ذلك حتى هبط آلياً الى الطابق السفلي ليحيط آخاب علماً بتعديل الدعامات وفق المهب .

وتوقف لحظة امام غرفة رئيسه - توقفاً لا ارادياً - قبل ان يقرع الباب . كان قنديل القمره اثناء تأرجحاته الطويلة ذاهباً جائياً يلتهب تلهباً مترجرجراً ويلقي ظللاً متذبذبة على الباب المغلق^(١) - وهو باب رقيق ثبتت فيه ستائر في موضع اللوح الخشبية العليا ، وكان انسفال القمره في انعزالها يجعل الصمت المهمهم يرين في ذلك المكان وان طوق ذلك الصمت من جميع النواحي بهدير العناصر جميعاً . وانكشفت البنادق المعبأة من محاجتها ، لامعة ، منصوبة عمودياً ازاء الجدار الحاجز الامامي . كان استاريك رجلاً نزيهاً مستقيماً ولكنه لحظة ان رأى البنادق انطلقت من قلبه - على نحو غريب - خاطرة شريرة ، إلا انها كانت مختلطة بأفكار اخرى بعضها خير وبعضها لا هو الى الخير ولا هو الى الشر ، حتى انه لم يكذب يستبينها قائمة بنفسها في تلك اللحظة .

تعمت قائلاً : « كان يريد ان يرديني بالرصاص ذات مرة ؛ نعم تلك هي البندقية نفسها التي صوبها اليّ - تلك ذات الخزان المرصع - لألمسها ، لأرفعها ، من الغريب ان ارتعش وانا الذي تمرست بكثير من الحراب القاتلة . معبأة ؟ دعني افحصها . اجل ، اجل والبارود في الخزان ؛ ليس هذا امراً حسناً . أمن الافضل ان افرغها ؟ - مهلاً . سأبرأ مما انا فيه . سأمسك بها في جراءة ما دمت افكر - جئت اخبره بان الريح طيبة . كيف تكون طيبة ؟ طيبة تصلح للموت والفناء - اي هي صالحة لموبي ديك . ما من ريح طيبة الا الريح التي تصلح لذلك الحوت اللعين . هذا هو الانبوب نفسه الذي سدده اليّ ، نفسه ، هذا نفسه ، وانا امسك به ، كان يمكن ان يقتلني بالأداة التي اقبض عليها الآن بيدي . اجل ولعله يرتاح لو قتل جميع بحارته . ألا انه لا ينزل صواريه لأية عاصفة ؟ ألم يحطم مقياس الزوايا ؟ أليس

(١) قارن هذا بقنديل يونان في موعظة الاب مابل من ٧٢٠ من هذا الكتاب .

يجد طريقه في هذه البحار المليئة بالمخاطر عن طريق التقدير التخميني المرتجل المستمد من سجل الرحلة وهو سجل حافل بالخطأ؟ ألم يحلف في هذا الزرع نفسها انه لن ينصب موانع صواعق؟ ولكن أنظّل نرضى لهذا الشيخ المجنون ان يجر جميع عصبة السفينة الى هوة العدم في صحبته؟ نعم ان ذلك يجعله قاتل عمد لثلاثين رجلاً او اكثر ان لقيت هذه السفينة اذى بالغاً مميئاً . اما انها ستلقى اذى بالغاً مميئاً فان روحي تقسم ان ذلك حادث لا ريب فيه ان لم يجد آخاب من يكبح جماحه ، فاذا تمت تنحيته في هذه اللحظة فان تلك الجريمة لن تكون من صنع . ها! أترأه يتمم في نومه ؛ نعم هناك - في الداخل - انه نائم . نائم؟ اجل ولكنه ما يزال حياً ، وسيستيقظ حالاً . انا لا استطيع ان اعارضك عندما تفيق ايها الشيخ . انك لا تصيح للتعمق ، للاحتجاج ، للتوسل ؛ كل هذه امور تزدريها . الطاعة الحاسمة لاوامرك الجازمة ؛ ذلك هو كل ما تتردد به انفاك . اجل وتقول ان الرجال نذروا على انفسهم مثل نذرك ، تقول ان كل واحد فينا آخاب ، لا سمح الله العظيم! ولكن اما من مخلص آخر ، مخلص شرعي؟ نسجنه حتى نرجع الى الوطن؟ مه! أترجو ان تنتزع القوة الحية في هذا الشيخ من يديه؟ لا يجرب ذلك إلا أحمق . هب انه صفد ، عقدت من حوله كل الحبال والمواصر ، قيد بالحلقات على ارض القمرة ، عندئذ يكون أشد إفزاعاً من نمر في قفص ، انا لا استطيع ان اطيق هذا المنظر ، وربما لم استطع ان اهرب من عوانه فالراحة والنوم والعقل الرزين - جميع هذه ستفارقني عندئذ في الرحلة الطويلة المشؤومة . وماذا يتبقى بعد؟ بيننا وبين البرّ مئات الفراسخ واقرب برّ الينا اليابان التي يحرم علينا النزول فيها ، انا اقف وحدي فوق بحر منبسط وبينني وبين القانون محيطان وقارة ، أجل . اجل انه لكذلك ، أينسب ارتكاب القتل الى السماء حين تصيب بصواعقها من سيصبح قاتلاً ، وهو في سريره ، فتحرق الاغطية والجلد معاً؟ أكون قاتلاً إذأ - « وفي بطنه واستخفاء ، وهو يسترق النظر استراقاً ، وضع طرف البندقية المعبأة ازاء الباب .

« على هذا المستوى تتأرجح ارجوحة آخاب في الداخل ، ورأسه في هذه الجهة ، « كبسة » واحدة يستطيع استارك بعدها ان يعيش ليعانق زوجته وطفله مرة اخرى . آه يا ماري! ماري! بني! بني! بني! ولكن ان لم أوظفك للموت ، ايها الشيخ ، فمن يدري في اية اعماق لا قرار لها يتردى جسد استارك في هذا اليوم من الاسبوع ، مع جميع البحارة ، يارب يا عظيم! اين انت؟ أقدم؟ أقدم؟ - قد هدأت الريح وتحولت ياسيدي ، وقد طويانا الأشرعة الامامية والرئيسية العليا وعادت السفينة الى مجراها .

- « الى المؤخرة! آه يا مويي ديك اخيراً وضعت جُمع يدي على قلبك! »

كذلك كانت الاصوات التي انبعثت من فم الشيخ في نومه المتقلب بالعذاب كأن صوت استاربك قد انطق الحلم الاخرس .
واهتزت البندقية التي ماتزال مصوبة ، ازاء الباب ، كأنها ذراع سكران ، وبدا استاربك وكأنه يصارع ملاكاً ، ولكنه استدار عن الباب وردّ انبوب الموت الى كنه وغادر المكان .
- « انه في نوم عميق يا سيد اسطب ، اهبط اليه انت وأيقظه وابلغه الخبر ، انا سألقي نظرة على ظهر السفينة ، وانت تعرف ما تقول » .

الابرة

في اليوم التالي كان البحر الذي لم يخبُ هيجه تماماً يتقلب في امواج طويلة بطيئة ذات حجم هائل ويدفع الباقوطة قدماً وهو يتمطى في آثارها المقرقرة ، كأنه راحتاً مارداً مبسوطتان . وتكاثرت النسيمات القوية الصامدة حتى بدا الفضاء والهواء وكأنهما شرعانا ينتفخان انتفاخاً شديداً ، وكأن كل الكون يجيش متموجاً امام الريح . وانحجبت الشمس متلفعة في ضوء الصباح ، فلم نعد نستبينها إلا بما تنشره حولها من ضوء قوي حيث كانت اشعتها الطقانة تجع محتشدة مكدسة . وهيمنت على كل شيء زخارف كالتي يزدان بها الملوك والملكات البابليون ؛ اما البحر فكان بوتقة ذهب مذاب ، يتوثب مرسلأ نفاخاته بقوة الضوء والحرارة .

ووقف آخاب منتحياً جانباً وقد طال به الصمت المسحور ، وكلما أمالت السفينة المترجرجة دقلها المائل الامامي وجه نظره الى اشعة الشمس اللامعة التي تبعث في الامام . وكلما استقرت مطمئنة عند المؤخرة التفت الى خلف ورأى موقع الشمس عند المؤخرة . وكيف ان اشعتها الصفراء تمتزج بمخر السفينة الذي لا يتعوج ولا ينحرف .

ها ، ها ، يا سفينتي! ليستطيع المرء ان يعدك عربة الشمس . هو! هو! ايتها الامم تلقاء القيدوم أنا أت اليك بالشمس! ضعوا النير فوق اعناق الامواج التالية ، هالو! اجعلوها عربة مردفة ، ها انا اسوق البحر! .

ولكن خاطرة مناقضة كبحت جماحه فجأة فأسرع نحو الدفة وتساءل بصوت اجش :
« كيف اتجاه السفينة ؟ »

فأجاب قيم الدفة المرتاع : « شرقاً - جنوب شرق يا سيدي » . فصفعه بقبضته مجتمعة وقال : « كذاب! أنتجه شرقاً في هذه الساعة من الصباح والشمس في المؤخرة ؟ »

تحيرت لدى هذه الحقيقة كل نفس ، لان الظاهرة التي لاحظها آخاب فاتت كل من عداه فلم يفطنوا لها ، ولكن السبب في ذلك هو انها كانت حقيقة ساطعة يعشي سطوعها عين الفكر .

ودسّن آخاب رأسه بعض الشيء في صندوق الابرة فلمح البوصلتين لمحاً ، وبيطه هبطت ذراعه المرفوعة وبدا لحظة وكأنه يترنح ، ونظر استاريك الذي كان يقف وراءه ، يا للهول! كانت البوصلتان تشيران الى الشرق والباقوطة ذاهبة دون انحراف نحو الغرب .

ولكن قبل ان يتأدى النذير الاول المرعب بين البحارة هتف الشيخ في ضحكة جاسية ، « لاحت لي! لقد حدثت قبلاً ، ان رعد الليلة الماضية يا سيد استاريك قد ادار بوصلتين . هذا كل ما في الأمر ، وأنا اعتقد انك سمعت بمثل هذا من قبل » .

- « اجل ، ولكنه لم يحدث من قبل لي أبداً يا سيدي » - ذلك ما قاله الضابط الشاحب في اكتئاب ووجوم .

ولابد من ان اقرر في هذا المقام ان حوادث كهذه قد وقعت غير مرة للسفن اثناء العواصف العنيفة ، فان الطاقة المغناطيسية حسبما توجد في ابرة البحار ، هي كما يعرف الجميع ، لا تفترق في اساسها بشيء عن الكهرباء التي ترى في السماء ، ولذلك فيجب ألا يتملكنا العجب كثيراً اذا حدثت مثل هذه الامور ، وقد وقعت حوادث ، ضرب البرق فيها المركب وحطم بعض الصواري والمعدات ، فكان التأثير على الابرة احياناً انكى واشد ، إذ انعدمت منها القوة المغناطيسية حتى اصبح ما كان فيها فولاذاً ممغنطاً لا نفع فيه اكثر مما في ابرة الخيامة في يد امرأة عجوز . ثم ان الابرة في الحالين لا تستعيد من ذاتها ما تبدد من قوتها الاصيلة او اضعف ، واذا تأثرت البوصلة التي في الصندوق لقيت البقية الموجودة في السفينة مصيراً مماثلاً حتى ولو كانت بوصلة في ادنى اجزاء السفينة مودعة في الكلزون .

وقف الشيخ عامداً امام صندوق الابرة يلحظ البوصلتين المنحرفتين ، ويحدّ يده الممتدة عندهما حسب وجهة الشمس بدقة ، ولما أن رضي عن دقة التحويل للابرتين أصدر أوامره بتغيير وجهة السفينة وفق ذلك ؛ فرفعت الباحات ومرة اخرى طعنت الباقوطة بمقدمتها الباسلة وجه الريح المضادة إذ ان الريح التي ظن انها طيبة انما كانت تمازحها وحسب .

وفي الوقت نفسه لم يقل استاريك شيئاً ، مهما تكن خواطره الخفية ، وانما أصدر في هدوء الاوامر المطلوبة ، وانصاع كل من اسطب وفلاسك للاوامر بالمثل دون تدمر ، وان بدا انهما كانا حينئذ يشاركانه المشاعر نفسها الى درجة قليلة . واما الرجال

الأخرون فان خوفهم من آخاب - وان بدا بعضهم يهمهم في خفوت - كان أشد من خوفهم من الاقدار ، واما الزراقون الوثنيون فظلوا كما كانوا ابدأ من قبل غير عابئين بشي ، او اذا هم اكثرثوا فانما كان اكثرثهم مغناطيسية يطلقها قلب آخاب العاتي الذي لا يلين في قلوبهم العاتية التي لا تلين .

ومشى الرجل الشيخ مدة على ظهر السفينة في احلام متكوّرة ولكنه صادف ان زلق على كعبه العاجي ، فرأى انابيب المنظار النحاسية المحطمة ، وهي انابيب مقياس الزوايا الذي طرحه في اليوم السابق على ظهر السفينة .

« يا ناظور السماء المستكبر المسكين ، يا رائد الشمس! أمس حطمتك ، والبوصلة اليوم كانت توذّ لو تحطمني - كذا ، كذا ؛ ولكن آخاب ما يزال سيد المغناطيس المشحون . يا سيد استاريك - هات حرية دون قناة ، ومطرقة واصغر ابرة من ابر صانمي الاشرعة ، عجل » .

ربما كان الدافع الذي يملئ عليه ما يريد ان يفعله مشفوعاً ببعض دوافع صادرة عن بصيرة ، وربما كانت غايتها انعاش نفوس البحارة بصنع من مهارته الماكرة في امر مشير للمعجب كأمر البوصلتين المحولتين . ثم ان ذلك الشيخ كان يعلم حق العلم ان الابحار على هدي ابرتين مواربتين ، وان كان امراً عملياً على نحو أرعن ، فانه ليس من الامور التي يمر بها البحارة المؤمنون بالخرافة مرّ الكرام ، دون ان يحسوا بالقشعريرة ونذر الشر .

والتفت في رباطة جأش نحو البحارة حين سلمه الضابط الادوات التي طلبها : « يارجال ؛ يا رجالي لقد عكس الرعد ابر آخاب الشيخ ولكن آخاب يستطيع من هذه القطعة من الفولاذ ان يصنع ابراً ، تشير الى الوجهة الصحيحة كأبي ابر اخرى » .

تبادل البحارة بينهم نظرات مرتبكة تفيض بالدهشة الذليلة حين سمعوا هذا القول ، وترقبوا بعيون لهيفة اي سحر يبدو . اما استاريك فحوّل نظره ناحية .

هو آخاب بالمطرقة على الحربة الفولاذية فأطار رأسها بضربة ، وأعطى الضابط سائر القضيب الحديدي وأمره ان يمسه عامودياً دون ان يمس ظهر السفينة ، ثم دق الطرف الاعلى من هذا القضيب الحديدي مراراً بالمطرقة ، ووضع الابرة الكليّة مقلوبة في طرف القضيب ، ودقها دقاً خفيفاً عدة مرات ، والضابط ما يزال ممسكاً بالقضيب . ثم حركها بضع حركات غريبة - ولا احد يدري أكانت ضرورية لمغنطة الفولاذ او قصد بها ليزيد من الرهبة في نفوس بحارته - وطلب خيطاً من الكتان ، ومشى الى صندوق البوصلة فزحزح الابرتين المعكوستين واستخرجهما ، وعلق ابرة الشراع من وسطها أفقياً

فوق واحد من قرصي البوصلة . فأخذ الفولاذ في بادي، الامر يدور ويدور مهتزاً متذبذباً في طرفيه واخيراً استقر في موضعه ، وعندئذ تراجع آخاب الذي كان يرقب هذه النتيجة بامعان من جانب صندوق الابرة ، وأشار اليه بذراع ممدودة نحوه وهتف : « احكموا انتم ان كان آخاب - او ان لم يكن - سيد المغناطيس . الشمس في المشرق ، وهذه البوصلة تقسم ان ذلك صحيح! » .

وأطلوا عليها واحداً اثر آخر اذ لم يكن يستطيع ان يبدد جهلاً كجهلهم الا المعاينة بالنظر ، وانسلوا ذاهبين واحداً اثر آخر .

في نظراته النارية التي ترسل الاحتقار والانتصار كنت ترى آخاب وهو في ذروة خيلانه القتالة .

مقياس السرعة وحبل المقياس

على الرغم من طول ماعامت الباقوطة الساعية الى مصيرها خلال هذه الرحلة فإن مقياس السرعة والحبل المتصل به قلما استعملا ، وبعض السفن التجارية وكثير من سفن الحوافة ، نظراً لإعتمادها المظمن على وسائل أخرى في تحديد الموقع الذي تحلّ فيه ، وخاصة أثناء تجوالها ، تغفل رفع مقياس السرعة إغفالاً تاماً . وإن كان قباطنتها في الوقت نفسه يسجلون بانتظام على اللوحة المعهودة ، وكثيراً ما يكون عملهم هذا حفاظاً على شكليات الأمور دون أي شيء . آخر ، المساق الذي أبحرت فيه السفينة ، كما يسجلون نسبة التقدم التخميني كلّ ساعة . وكذلك جرت الحال بالنسبة للباقوطة فقد ظلت البكرة الخشبية والقرمة الخشبية ذات الزوايا المتصلة بها معلقة دون مساس مدة طويلة ، تحت الدرايزين الواقع في الحوافي الخلفية . وقد نشمت بالرطوبة من الأمطار والرشاش ، وقلصتها الشمس والرياح ، أي تضافرت كلّ العناصر لتبلي شيئاً معلقاً متبطلاً . ولكن آخاب الذي لم يتنبه لكل هذا لفتت هذه الحال نظره عندما اتفق له أن ألقى نظرة على البكرة الخشبية ، بعد مشهد المغناطيس بساعات غير كثيرة ، وتذكر أن مقياس الزوايا لم يعد له وجود ، وتذكر قسمه المحقق حول القرمة المستوية والحبل . كانت السفينة تبحر في الضباب ، والأمواج في مؤخرتها تتدحرج صخابة حين صاح : « أنتم في الأمام! ارفعوا مقياس السرعة » .

جاء اثنان من البحارة : التاهيتي ذو البشرة الذهبية وابن جزيرة مان الأشمط فقال لهما : « ليقف أحدكما عند البكرة الخشبية وأنا أسحب » .

فذهبا الى أقصى المؤخرة على الجانب الأيمن من السفينة حيث كان ظهرها بقوة الريح المواربة يكاد يتغمس في البحر المزيد المنذفع على انحراف . فأمسك الرجل ابن جزيرة مان بالبكرة الخشبية ورفعها الى أقصى ما يستطيع ممسكاً بها

من طرفي اليدين البارزتين في مغلزها الذي يلتف حوله ملف الحبل ، ووقف كذلك والقرمة ذات الزوايا معلقة مدلاة حتى اقترب منه آخاب .

وقف آخاب أمامه وكان يحلّ بخفة ثلاثين أو أربعين لفة لكي يكون منها طولاً يطرحه من فوق السفينة حين تجزأ ابن جزيرة مان الذي كان يلحظه في إمعان ويلحظ الحبل ، فتكلم قائلاً ،
- « سيدي أنا لأنتق فيه ، هذا الحبل هالك ، قد أتلفته الحرارة والرطوبة في المدى الطويل » .

- « لا بأس به أيها الشيخ فإنه سيتمسك ، هل أتلفتك أنت الحرارة والرطوبة في المدى الطويل ؟ ماتزال متمسكاً لا بأس بك ، أو ربما كان الأصوب أن أقول : إن الحياة لاتزال متمسكة تقوم بك ، ولست أنت الذي تقوم بها » .

- « أنا أمسك الملف ياسيدي . الأمر كما يقول قبطاني . ليس من الجدير بي وقد اشمطت الذوانب فوق ذهني أن أجادل ، وبخاصة أن أجادل رئيساً لن يعترف لي بالصواب » .

- « من هذا ؟ ها هنا استاذ رثا الهيئة في كلية الطبيعة الملكة المبنية من حجارة الغرانيت ، ولكن يلوح أنه نافع حتى ليتجاوز حد النفع . أين ولدت ؟ » .
- في الجزيرة الصغيرة الصخرية التي تسمى جزيرة «الانسان» (مان) يا سيدي » .
- « عظيم! إنك تستطيع أن تحرز الكون بذلك! » .
- « لأدري ياسيدي ، ولكنني ولدت هنالك » .

- « في جزيرة «الانسان» ، مش كده ؟ لو عكست القول لكان أفضل . هاهنا إنسان من «الانسان» - إنسان ولد في «الانسان» التي كانت ذات يوم مستقلة ، واليوم جردت «الانسان» من الانسان - ابتلعت ، من ابتلعها ؟ ارفع البكرة إن الحاجز الجامد الأعمى ليدع كل الرؤوس الباحثة عن جواب في النهاية . ارفعها! هكذا » .

جز مقياس السرعة وتوترت اللغائف المسترخية على عجل في حبل طويل ممتد من المؤخرة ، وعلى التوا أخذت البكرة الخشبية تدور . ثم إن مقاومة الجذب في قرمة المقياس ، وقد رفعتها الموجات المتضربة وانخفضت بها في ارتجاج ، قد جعلت بدورها الرجل العجوز الممسك بالبكرة يترنح ترنحاً غريباً .
- « تشبّت ممسكاً! » .

فرقة! إن الحبل الذي تجاوز في توثره الحد تدلى متقوساً في انحناء مديدة وغابت القرمة المسحوبة .

- « أنا حطمت مقياس الزوايا والرعد عكس الإبر ، وهذا البحر المجنون يقطع جبل مقياس السرعة ، لكن أخاب يستطيع أن يصلحه . اسحب الى هذه الناحية أيها التاهيتي ، لف أنت الحبل حول البكرة يا ابن جزيرة مان ، واسمع! قل للنجار يصنع قرمة أخرى وأنت اصلح الحبل . هيا اهتم بالأمر » .

- « ها هو ينصرف . كأن لم يحدث شيء ، في نظره ، أما أنا فإني أرى أن المحور قد انفلت من وسط العالم . اسحب . اسحب . يا تاهيتي . هذه الجبال حين ترخيها تجري سليمة وحين تلفها تأتي متقطعة وتجر ببطء . ها يبب ؟ جاء يقدم العون ، ماذا يا يبب ؟ » .

- « يبب ؟ من ذا الذي تناديه باسم يبب ؟ يبب قفز من قارب التحويت . يبب مفقود . دعني أرى إن كنت قد استخرجته من البحر أيها الصياد . إن الحبل ينجر بعسر وتثاقل . وأنا أظن أنه ممسك بطرفه ، انفضه أيها التاهيتي ، اطرحه عنك! فنحن هنا لا نسحب جبنا . هو! ها هي ذراعه تشق الماء . البلطة! البلطة! اقطعوها ، فنحن هنا لا نسحب جبنا . يا قبطاننا آخاب! سيدي! سيدي! ها هو يبب يحاول أن يعود الى ظهر السفينة » .

فأمسك به ابن جزيرة مان من ذراعه وصرخ : « اهدأ أيها الممرور المجنون ، انصرف عن الريمة خلف الدقل الأعظم » .

فتمتم آخاب وهو يقترب : « الأبله الأكبر يوتخ الأبله الأصغر ، ارفع يديك عن تلك القداسة الطاهرة! أين تقول ذهب يبب أيها الغلام ؟ » .

- « في المؤخرة يا سيدي هناك في المؤخرة! تأمل! تأمل! » .
- « ومن أنت أيها الغلام ؟ أنا لا أرى خيالي في إنساني عينيك الفارغين . رباه! هذا الإنسان شيء تتخذة الأرواح الخالدة متخلاً تنفذ منه! من أنت أيها الغلام ؟ » .

- « أنا الجراس يا سيدي ، أنشد الضالة في السفينة . دن - دن - دن! يبب! يبب! يبب! من دل على يبب فله مائة رطل من صلصال ، ارتفاعها خمسة أقدام - علامته أنه جبان - تسهل معرفته بهذه العلامة! دن - دن - دن! من رأى يبب الجبان ؟ » .

- « بعد خطّ الثلج لا يمكن أن تكون هناك قلوب . أه أيتها السماوات المتجمدة ، انظري من علّ الى ما هو هنا . أنت ولدت هذا الطفل التعس وهجرته ، أنت أيتها الفاجرة الولود . الي يا غلام! إن قرمة آخاب ستكون بيت يبب مادام آخاب حيّاً . إنك لتلمس سويداء قلبي أيها الفتى ، إنك موصلو بي بحبال منسوجة من خيوط قلبي . تعال هيا بنا نهبط الى القمر » .

فقال يبب وهو يمعن محدقاً في يد آخاب ويتحسسها : « ما هذا ؟ هذا جلد قرش

مخملي . آه لو أن يبب المسكين لمس شيئاً لطيفاً كهذا فرتما لم يذهب فقيداً! هذا يبدو لي ياسيدي مثل جبلٍ جانبي في سفينة ، شيءٍ تتعلّق به النفوس الضعيفة . آه ياسيدي ادع بيرث الحداد لكي يأتي و«يرشم» هاتين اليدين معاً ، السوداء مع البيضاء ، لأنني لن أدع هذه اليد تفلت من يدي» .

– «آه ياغلام ويدي لن تفلت من يدك إلا إذا جررت الى أهوال أسوأ من التي هنا . تعال اذن الى قمرتي . تأملوا يامن تعتقدون أن الآلهة فيها الخير كله وأن الإنسان فيه الشرّ كله . تأملوا! انظروا كيف أن الآلهة العليمة بكل شيء تسهو عن الانسان المتألم . وأن الإنسان على بلاهته وجهله بما يأتيه مليء بالأشياء العذبة من حب وشكران . تعال! اشعر أنني أشد خيلاً حين أقودك بيدك السوداء مما لو أمسكت بيد امبراطور!» .

فتمتم الأشيب ابن جزيرة مان : «ها هنا يمشي اثنان مجنونان . أحدهما مجنون بالقوة والآخر مجنون بالضعف ، ولكن ها هي نهاية الجبل البالي ، كله يقطر ماء أيضاً . يقول لي أصلحه! أظن أن من الخير لنا جميعاً أن نجد لنا حبلأً جديداً تام الجودة . سأقابل السيد اسطب في الأمر» .

عوامة الإنقاذ

أبحرت الباقوطة في اتجاه جنوبي شرقي على هدى المؤشر الفولاذي الذي طرقة آخاب .
وليس فيها ما يعين مقدار سرعتها سوى القرمة المستوية والحبل اللذين سواهما ، واستمر
بها طريقها نحو خط الإستواء . فكان قيامها برحلة طويلة خلال مياه مهجورة بحيث لا ترى
سفناً وتصبح بعد وقت غير طويل مسوقة . على انحراف - بقوة رياح تجارية لا يتغير مهبها -
على أمواج وديعة يستمر مريـر وداعتها أبداً ، كل هذه الأمور بدت وكأنها الأشياء الهادئة
الغريبة في هدونها التي تجيء ، ارهاصاً بمشهد صحاب مستئس .

وعندما اقتربت السفينة أخيراً من ضواحي مجال الصيد الإستوائية - إن صح التعبير -
وكانت في الحلقة المبهمة التي تسبق الفجر تبحر الى جانب عنقود من الجزيرات الصخرية ،
عندئذ روع حراس النوبة - وكان فلاسك يرأسهم - بصيحة وحشية منكرة ، لما تنفح به من
كأبة متحبة كأنها ندب مغمم ترسله أشباح جميع الأبرياء الذين أزهق أرواحهم هيرودس ،
حتى أنهم وحداناً وزرقة هبوا من هجعاتهم ووقفوا أو جلسوا أو اتكأوا صاغين في تصلب
كتمثال العبد الروماني المنحوت - على مدى بضع لحظات - وتلك الصيحة الغريبة الوحشية
ماتزال منهم بمسمع . أما المسيحيون أو الفريق المتمذّن بين البحارة فقالوا إنها حوريات
البحر . وانتفضت أجسامهم ارتعاداً ، وأما الزراقون الوثنيون فظلّوا ساكنين لا يدركهم فزع .
غير أن ابن جزيرة مان الأشيب - أكبر البحارة جميعاً في السن - أعلن أن الأصوات الوحشية
المثيرة التي سمعوها إنما كانت أصوات قوم حديثي الفرق في البحر .

وكان آخاب في ارجوحته في الأسفل فلم يسمع بهذا حتى طلع الفجر الداكن وصعد هو
الى ظهر السفينة ، فأفضى اليه فلاسك بالنبا مشفوعاً بتلميحات الى بعض معاني الشؤم .
فضحك ضحكة جوفاء ، وأورد التفسير التالي لذلك الأمر الغريب :

تلك الجزيرة الصخرية التي مرّت بها السفينة هي ملاذ عدد كبير من حيوان الصيل^(١) وبعض أفراد الصيل الصغار الذين فقدوا أمهاتهم أو الأمهات اللواتي تشكلن صغارهن قد اقتربن ولا بدّ من السفينة وظلمن يرافقنها معولات نانحات على نحوٍ شبيه باعوال بني الإنسان ونواحهم ، ولكن هذا التفسير كان أبلغ تأثيراً مما عداه في نفوس بعضهم لأنّ أكثر البحارة يستشعرون أحاسيس موشحة بالخرافات نحو حيوانات الصيل وذلك لم ينشأ لديهم فحسب من نعماتها المعولة حين يلم بها مصاب ، وإنما نشأ أيضاً من مظهرها الإنساني فهي ذات رؤوس مستديرة ووجوه ذكية بعض ذكاه ، حين تبرز متطلّعة من الماء عن كئيب . وكثيراً ما أخطأ الناس في البحر تحت ظروف معينة حقيقة الصيل وحسبوه آدمياً .

ولكن مخاوف البحارة أتيح لها أن تجد ما يزيّدها تأكيداً غاية في الاستصواب ، وذلك بالمصير الذي لقيه أحدهم ذلك الصباح ، فقد غادر ذلك الرجل أرجوحته عند طلوع الشمس الى قمة الصاري عند المقدمة ، أترأه لم يكن قد استكمل يقظته من النوم (لأنّ البحارة أحياناً يصعدون وهم في حال بين النوم واليقظة) ؟ أترأه كان كذلك ؟ لأحد يدري . لكن مهما يكن الأمر فإنه لم يمكث طويلاً في مجشمة حتى سمعت صيحة - صيحة وانقلاب - ونظر البحارة الى أعلى فرأوا في الفضاء شبحاً يهوي ، ونظروا الى أسفل فرأوا كومة صغيرة متموجة من الفقاقيع البيض في زرقة البحر .

وأنزلت عوامة الإنقاذ - وهي برميل نحيف طويل - من عند المؤخرة حيث تظل دائماً معلّقة في انتظار وثبة لبقّة إلا أنه لم تمتد يد للقبض عليها ، وبما أن الشمس كانت قد ضربت ذلك البرميل فقد تكمّش حتى أنه امتلأ بالماء في بطنه وتشبع خشبه اليبس بالرطوبة في كلّ مساماته ، ولذا فإن البرميل المسمّر بالدرس المطوّق بالحديد لحق بالبحار الى القعر كأنه يقدم له من نفسه وسادة حقيقية وإن كانت صلبة الملمس .

وبدا فإنّ أوّل رجل من رجال الباقوطة اعلى الصاري ليرقب الحوت الأبيض عند المجال الخاص بذلك الحوت ، ذلك الرجل ابتلعه اليم في جوفه . ولكن قلّ أن تجد أحداً تنبه لهذا في الحين ، بل أنهم في الواقع لم يأسفوا لهذه الحادثة ، أو في الأقل لم تحزنهم بكونها نذير شرّ ، فقد عدّوها تحقيقاً لشرّ كانت قد جاءت به النذر لا إيذاناً بشر سيقع في المستقبل . فصرخوا أنهم قد أدركوا سبب الصيحات الوحشية التي سمعوها في الليلة السابقة . ومرة أخرى قال ابن مان العجوز : لا .

وأصبح تدبير عوامة إنقاذ بدلاً من العوامة التي فقدت أمراً لزاماً . وولى استاريك أمر الإهتمام بذلك ، ولكنهم لم يجدو برميلاً مناسباً في خفته ، وكانت جميع الأيدي ، في اللهفة المحسومة لما بدا أنه أزمة موشكة في الرحلة ، جازعةً من أن تبذل جهداً ألا أن يكون وثيق الصلة بغايتها التصوي ، أيّاً كانت تلك الغاية . لذلك كانوا يريدون أن يتركوا مؤخرة السفينة غير مزودة بعوامة إنقاذ حين ألح كويكوج الى تابوته في إشارات وإيماءات غريبة .

فصاح استاريك مجفلاً « تابوت يتخذ عوامة إنقاذ! »

وقال اسطب : « ذلك شيء ، مستهجن في رأيي » .

وقال فلاسك : « إنه يصلح تماماً ، وهذا النجار سيسويه في يسر » .

فقال استاريك بعد توقّف سوداوي : « هاته ، ليس يصلح سواء . زوده بالحبال يانجار ،

لا تنتظر الي هكذا ، أنا أعني التابوت ، أسمعني ؟ شده بالحبال » .

فقال النجار وهو يحرك يده كأنه يحمل مطرقة : « وهل أدق غطاءه بالمسامير يا

سيدي ؟ » .

- « أجل » .

- « وهل أثير ملاقيه ياسيدي ؟ » - وحرك يده كأنه يحمل وعاء القار .

- « انصرف! ماذا لديك فيما يتصل به ؟ اصنع عوامة إنقاذ من التابوت ، ولا شيء سوى

ذلك . ياسيد اسطب ياسيد فلاسك تقدما معي » .

- « لقد انصرف ساخطاً . يستطيع أن يتحمل الكل ، أما عند الأجزاء فيحرن ويتسخط .

أنا لأحب هذا . لقد صنعت رجلاً للقبطان أخاب وهو يلبسها كما يفعل الرجل الدمث

المهذب ثم صنعت صندوق قبعات لكويكوج فرفض أن يدس رأسه فيه . أيزهّب كل تعبي

سدى في ذلك التابوت ؟ وهو يأمرني الآن أن اصنع منه عوامة إنقاذ . هذا يشبه قلب معطف

قديم فهذا يعني أنني سأجمل القفا وجهاً ، أنا لأحب هذا النوع من العمل الذي يليق

بالاسكاف . لأحبه أبداً . لأكرامة فيه . ليس هنا موضعي . تصليح الأنية يحتاج الى غلمان

السمكرية . نحن خير من هؤلاء . لأحب أن أمس بيدي إلا مهمات نظيفة بكرة رياضية قلباً

وقالباً ، أمور تبدأ بانتظام في البداية وتكون في الوسط حين تبلغ الوسط وتأتي الى النهاية

عند الختام ، لأمهمة اسكاف تكون منتهية في الوسط ، وعند البداية تكون في النهاية . إن

تكليف المرء بمهمات الاسكاف من حيل العجانز . رباه! ما أشد حب العجانز للسمكرية .

أنا أعرف عجوزاً في الخامسة والستين هربت مع سمكري شاب أصلع وهذا هو السبب الذي

كان يجعلني أمتنع من أداء أيّ عمل للعجانز المترملات «الوحدانيات» على البر حين كان

لي دكان في فنيارد ، فلعله كان يخامر رؤوسهن الشائخة «الوحدانية» أن يهريز معي . لكن هي - هو! ليس في البحر قبعات إلا قبعات الثلج . خلني أرى . أسمر الغطاء . أقيز الملاقي ثم أطلّيتها به مرة أخرى ، ثم أدقّ عليها خشباً مستعرضاً وأحكمه ثم أعلقه باللولب التناش فوق مؤخرة السفينة . هل حدث من قبل أن أجريت هذه الأمور على تابوت ؟ بعض المسنين من النجارين المؤمنين بالخرافات قد يشدون بالقيود والحبال قبل أن يقبلوا إنجاز هذه المهمة ولكني مصنوع من شوكران خشب أرستوك الأعقد . لأبالي . مقعدتي كفن وأطوف مبحراً في صينية من مقبرة لا بأس . نحن العاملين في الخشب نصنع أسرة العرسان وموائد اللعب مثلما نصنع التوابيت وعربات الموتى . نعمل بالشهر أو بالحرقة أو بالفائدة ، لانسأل من صنعنا ما مأتاها وما منتهاها . إلا إن كانت ترقياً «وتسكيجاً» ، وعندئذ نتخلى عنها إذا استطعنا . هم! سأؤذي المهمة الآن في رفق ، سيكون لدي - ياسيدي - كم واحد في السفينة ، المجموع ؟ نسيت . على أي حال ، سأعمل ثلاثين حبل إنقاذ متفرقة ، طرف كل منها معمم بعقدة كراس التركي ، طول كل منها ثلاثة أقدام ، كلّها معلقة حول التابوت . فإذا غرق هيكل السفينة فإنه يكون هناك ثلاثون شخصاً حياً يتنازعون كفنأ واحداً . منظر لاتبصره كثيراً تحت الشمس! التي أيتها المطرقة والإسفين ووعاء القار والمخرز! الى العمل! » .

ظهر السفينة

(التابوت موضوع على برميلين من براميل الحبال بين الدكة ذات الملازم والمدخل المفتوح، النجار يقبّر سلاقيه، خيط من الدرر الملوية ينحلّ ببطء من كبة كبيرة موضوعة في جيب صدرته الداخلية يأتي آخاب بطيئاً من باب القمرة ويسمع حسّ يبب وهو يتبعه).

- « ارجع يا فتى! سأرجع اليك بعد قليل . ها هو ذهب! هذه اليد لاتناسب مزاجي بأكثر مما يناسبه ذلك الغلام - جناح متوسط في كيسة! ما يجري هنا ؟ » .
- « عوامة إنقاذ ياسيدي . هذه هي أوامر السيد استاريك . آه ، انظر يا سيدي . احذر أن ترتطم بالمدخل! » .
- « شكراً أيها الرجل . إن تابوتك قريب من القبو » .
- « ما يقول سيدي ؟ يعني المدخل ؟ حقاً هو كذلك سيدي ، هو كذلك » .
- « أأنت أنت صانع الرجل ؟ انظر ألم يأت هذا الجذم من حانوتك ؟ » .
- « أعتقد أنه منه ياسيدي ، كيف حال الطوق^(١) ؟ » .
- « جيد . أأنت أيضاً حانوتياً ؟ » .
- « بلى سيدي . أنا أقمت هذا الشيء ، تابوتاً لكويكوج . ولكنهم كلّفوني الآن أن أحونه الى شيء آخر » .
- « أخبرني إذن ، أأنت أنت سافلاً لعيناً جشعاً متطفاً احتكارياً ذا ميول وثنية إذ تصنع يوماً أرجلاً ، ويوماً آخر توابيت لتلحد فيها الأرجل ثم تستخرج من هذه التوابيت نفسها عوامات إنقاذ ؟ لا مبدأ يوجهك شأنك ؛ شأن الآلهة ، فأنت كمن يزاول حرقاً كثيرة » .

(١) Ferrule يعني الطوق المعدني الذي صنعه لرجله العاجية .

- «ولكنني لم أعني بهذا شيئاً يا سيدي . أنا أفعل حسبما يعن» .

- « هذا ماتفعله الآلهة أيضاً . أصخ . ألا تترنم بالغناء ، وأنت تصنع تابوتاً ؟ يقولون إن العمالقة الطيطان كانوا يهتممون بالغناء وهم يسوون فوهات للبراكين ، وحفار القبور في «هملت» يغني والمجرفة في يده . ألم تفعل ذلك أبداً ؟ » .

- «أغني يا سيدي ؟ هل أغني ؟ أه ، إن الغناء وعدهم لدي سيان ، يا سيدي . ولكن السبب الذي جعل حفار القبور يصنع موسيقى هو أن مجرفته لم يكن فيها أية موسيقى ياسيدي . أما دقماق التقير فإنه مليء بها . أصخ له » .

- «أجل وبسبب الغطاء أصبح لديك صندوق ألحان . والذي يصنع صندوق الألحان من بين الأشياء جميعاً هو أنه ليس تحته إلا فراغ ومع ذلك فإن التابوت الذي سخي فيه جسم يرن نفس الرنين أيها النحار . هل إنفق لك أن أعنت في حمل نمش وسمعت التابوت وهو يرتطم ببوابة المقبرة عند دخولهم إليها ؟ » .

- « وحق إيماني يا سيدي لقد - » .

- « إيمان ؟ ما معنى هذا ؟ » .

- « إيماني - ياسيدي - هذه لفظة تجري على طرف اللسان - لا أكثر يا سيدي » .

- « م . م . امض في حديثك » .

- « كنت أوشك أن أقول ياسيدي إن... » .

- « أنت دودة قز ؟ أنغزل أكفانك من ذاتك ؟ انظر الى صدرك ؟ وأزح هذه الأحابيل عن الأنظار » .

- « إنه يذهب الى المؤخرة . ذلك شيء مفاجيء ، ولكن العاصف يجيء ، أيضاً فجأة في العروض الإستوائية . سمعت أن خط الإستواء يشق جزيرة ألبنارل وهي إحدى جزر جاليباجوس من وسطها . يبدو لي إن استواء ماء يشق هذا العجوز أيضاً في وسطه . فهو دائماً تحت خط الإستواء حار ناري ، صدقوني ! ها هو ينظر الى هذه الجهة . تعالي أيتها الدرر ، أسرعي ، ها هنا نذهب نحن . هذا الدقماق الخشبي هو السداد وأنا أستاذ في الكزوس الموسيقية - سداً سداً » .

[آخاب ينجي نفسه] :

« هذاك منظرًا هذا صوتًا نثار الخشب الأشمط يسدّ شجرة جوفاء . الأعمى والأخرس موضع حسد في مثل هذا الموقف . ما أرى ! هذا الشيء الموضوع على برميلين من براميل الحبال ، مملوءاً من جبال الجزر . ذلك المرء مهزج ماكر شديد الخبث . رات - تات ! هكذا

تدقّ دقائق العمر . آه لجميع الموادّ كيف إنها غير مادية! أي شيء حقيقي في الكون إلا الأفكار التي تُعجز المتأمل! ذلك هو رمز الموت الجاهم ، رمزه المخوف ، وقد أصبح إتفاقاً العلامة الموضحة للبعون والأمل في حياة محفوفة بالخطر ، عوامة إنقاذ تصنع من تابوت! يمكن الإيمان في هذا الرمز ؟ أيكون أن التابوت بمعنى من المعاني الروحية ، بعد كل ذلك . ليس إلا حافظة خلود! سأفكر في هذا الأمر . لكن لا . لقد أمعنت في البعد الى الجانب المظلم من الأرض أي جانبها الآخر فإذا الجانب النظري المضاء يبدو لي شفقاً غير يقيني . ألسنت تنتهي أيها النجار من هذا الصوت اللعين ؟ أنا أهبط الى قمرتي فلا أريد أن أرى هذا الشيء إذا عدت . بيب سيحدثني في الأمر نفسه من جديد . إنني أشرب فلسفات عجيبة منك! لا بد أن هناك قنوات مجهولة من عوالم مجهولة تفرغ تيارها فيك! » .

الباقوطة تلتقي براحيل

لاحت في اليوم التالي سفينة كبيرة اسمها « راحيل » عامدة نحو الباقوطة وقد تجمع البحارة محتشدين عند صواريتها جميعاً . وكانت الباقوطة عندئذ قد أحرزت سرعة طيبة في الماء ، ولكن لما كانت السفينة الغريبة المنشورة الأجنحة مع المهب تدنو منها ، هبطت الأشرعة المتنفخة جميعاً كأنها ماثانات فارغة انفجرت ، وهربت الحياة جميعها من الهيكل المصفوع .

تمتم المعجوز ابن جزيرة مان يقول : « أخبار سيئة . إنها تحمل أخباراً سيئة » . وقبل أن يتمكن قبطانها ، وقد وضع النفير على شفثيه ، من أن يقف في قاربه . ويخني آخاب وملء نفسه الأمل ، سمع صوت آخاب ينادي :

- « رأيتم الحوت الأبيض ؟ » .

- « أجل . أمس . هل رأيتم قارب تحويت تائهاً يتقاذفه التيار ؟ » وخنق آخاب فرحته . وأجاب عن ذلك السؤال المفاجيء بالنفي ، وكان على وشك أن ينزل الى السفينة الغريبة . حين أوقف القبطان الغريب طريق مركبه وشوهد وهو ينزل من جانبه ، وبعد بضع تجذيفات صادقة أعلق خطاف قاربه الى السلاسل الرئيسية في الباقوطة وقفز فوق ظهرها . فعرف فيه آخاب على التو أحد أبناء ناتوكت ولكن لم تجر بينهما تحية رسمية .

- « أين كان ؟ - لم يقتل ! لم يقتل ! » - كذلك صرخ آخاب وهو يدنو متقدماً - « كيف

كان ؟ » .

ومجمل الحكاية التي حكاها القبطان الغريب أن ثلاثة قوارب انهمكت ، في وقت متأخر بعض الشيء ، من بعد ظهر اليوم السابق . في مطاردة سرب من الحيتان قادها على بعد أربعة أميال أو خمسة من السفينة ، وبينما كانت في مطاردة سريعة مع المهب برزت فجأة حردبة

موبي ديك البيضاء ورأسه من الماء الأزرق ، غير بعيد في اتجاه الهبوب ، وعلى أثر ذلك أنزل القارب الرابع المعدّ - وهو قارب احتياطي - للمطاردة توتاً ، وبعد إبحار مغدّاً أمام الرياح ، بدأ وكأنّ هذا القارب الرابع - وهو أسرعها قاعدة - قد نجح في أن يشكّ الحوت ويعلقه بالحبل على الأقل ، حسبما استطاع نظر الرجل الواقف في رأس الصاري أن يستبين من الأمر ، فقد رأى القارب المتضائل المنقَط على البعد ، ثمّ أبصر دفقة عاجلة من الماء الأبيض يعلوها الحبيب ، ثمّ لم ير شيئاً آخر ، ولذا قدّر البحارة أنّ الحوت المطعون قد جرى هارباً بمطارديه الى غير وجهة ، حسبما يحدث في أغلب الأحيان . كان هناك تخوف ولكن الفزع الايجابي لم يتمكن في النفوس ، ثمّ وضعت شارات الإستعادة في مكانٍ عالٍ ، غير أنّ الظلام حلّ واضطرت السفينة أن تلتقط القوارب الثلاثة التي توغلت في الأبعاد مع المهبّ قبل أن تذهب في البحث عن الرابع الذي مضى في اتجاه مضاد تماماً ، ولذا فإنها لم تجد لزاماً عليها فحسب أن تترك هذا القارب يلاقي مصيره حتّى قريب من منتصف الليل وإنما اضطرت لتزيد بمدّها عنه في الوقت نفسه . ولما وجدت أنّ سائر البحارة أصبحوا على ظهرها في أمان حشدت أشرعتها جميعاً - الأشرعة الجانبية الخفيفة على نظائرها - وأزمنت خلف القارب المفقود ، مشعلة في مراحل التصفية ناراً جعلتها فئاراً ، ووضعت كلّ امرئ في الأعلى - بالتناوب - رقيباً . ولما أنّ قطعت مسافة غير قليلة لتدرك المكان المفترض للبحارة المفقودين ، حيث لاحوا آخر مرة ، ولما أنّ توقفت لتتنزل القوارب الاحتياطية كي تجذّف جميعاً من حولها ولم تجد شيئاً اندفعت ثانية في إبحارها ، ثمّ توقفت ، ثمّ أنزلت قواربها ، واستمرّ مريرها على ذلك حتّى تبيّح ضوء النهار ، ولكن لم يلبح من القارب المفقود أدنى لائحة .

ولما انتهى القبطان الغريب من سرد قصته ، مضى على التوّ يكشف عن غايته في النزول الى ظهر الباقوطة ، فقال إنه يرغب أن تشرك هذه السفينة مع سفينته في البحث . وذلك بأن تسيّر السفينتان في البحر أربعة أميال أو خمسة منفصلتين على خطّين متوازيين ، وبهذا ترودان أفقين بدلاً من أفق واحد .

فهمس اسطب في اذن فلاسك يقول : «أراهن على شيء ، أراهن أنّ أحد الذين في القارب المفقود قد لبس خير معطف عند هذا القبطان أو لعله أخذ ساعته ، فهو قلق يريد أن يسترجعه أو يسترجعها . من سمع أبداً بسفينتي حواته ورعتين تجوبان البحر بحثاً عن قارب تحويته في ذروة موسم التحويته ؟ مارايك يا فلاسك ؟ انظر ما أشدّ شحوبه ، شحوب حتّى في بؤبؤي مقلتيه - تأمل - لعله ليس المعطف - لا بدّ أنه...» .

- «ابني ، ابني نفسه بين المفقودين ، بحق الإله أرجوك ، استحلفك -» هنا هتف القبطان الغريب قائلاً لأخاب : «دعني أستأجر سفينتك مدة ثمانتي وأربعين ساعة - سأدفع الأجر راضياً ، وأدفع على آخر قرش - إن لم يكن هناك طريقة أخرى - ثمانتي وأربعين ساعة فقط - لا غير - لا بد لك ، آه ، لا بد لك ، ولسوف تؤذي لي هذا الصنيع» .
فصاح اسطب : «ابنه! آه إن المفقود هو ابنه! أنا أسحب ماقلته عن المعطف والساعة . ماذا يقول آخاب ؟ علينا أن ننجي ذلك الولد» .

فقال ابن جزيرة مان وكان يقف خلفهم : «لقد غرق مع البقية ليلة أمس . لقد سمعت ، أنتم جميعاً سمعتم صراخ أرواحهم» .

وتبين لنا بعد قليل ماجعل حادثة راحيل أشجى وأعلق بالأسى ، ذلك أن القبطان لم يكن له ابن وحسب في عداد بحارة القارب المفقودين وإنما كان له في الوقت نفسه ابن آخر بين بحارة القوارب الأخرى ، وقد انفصل أيضاً عن السفينة خلال الأحداث السود ، أحداث المطاردة ، حتى أن الولد الشمس ، ظل لذلك أمدأ ، وهو غارق في قرارة أشد حيرة شدة وظلماً ، ولم ينقذه من حيرته تلك إلا رئيس ضباطه ، حين هدته الغريزة الى ما تعمله سفينة التحويت عادةً في مثل هذه اللزيمات الملحة ، أعني أنها إذا وقعت بين قوارب متباعدة معرضة للتهلكة فإنها دائماً تتجه نحو إنقاذ الأغلبية . ولكن القبطان لسبب مزاجي مجهول تحاشى ذكر هذا كله ، فلم يلمح الى ابنه الآخر المفقود إلا حين اضطرتّه الى ذلك برودة آخاب ، كان ذلك الابن يافعاً في الثانية عشرة من عمره أراد والده له بكل ما في النانتوكي من حمية الحب الأبوي المؤيد ببسالة لا يدركها ريب ، أن يتمرس بأخطار المهنة وعجائبها ، فهي منذ القدم تمثل القسمة التي قسّمت لبني قومه ، النانتوكيين . وكثيراً ما يحدث أن يرسل قبطان نانتوكي ابناً ، وهو في هذه السنّ الناعمة ، بعيداً عنه في رحلة طويلة تمتد ثلاث سنين أو أربعاً على سفينة غير سفينته ، حتى لاتضعف معرفته الأولى لحرقة التحويت بهوى عارض أو توجس نابٍ أو فضل اهتمام يديه نحوه أبوه ، ومثل هذا أمر يعدّ طبيعياً في الآباء .

وكان القبطان الغريب في الوقت نفسه مايزال يتوسل أن يمنحه آخاب ما سأل ، بينما ظل آخاب واقفاً كالسندان يتلقى كل ضربة دون أن يقابلها بأدنى هزة .

قال القبطان الغريب : «لن أتزحزح حتى تقول لي : أجل ، اصنع من أجلي ماتريديني أن اصنعه من أجلك في مثل هذا الموقف ، فإن لك أنت أيضاً ابناً يا آخاب - هو طفل يتزعرع بأمان في بيته - هو ابنك في شيخوختك أيضاً - نعم ، نعم ، أراك تلين ، أرى ذلك منك ، جرياً ، عدواً ، يارجال وقفوا على أهبة كي تديروا الباحات...» .

وصاح آخاب : « حسبك! لاتمسس لفافة جبل » ، ثم أكمل في صوت نبر فيه كل لفظه في تؤذّه وأناة : « قبطان جاردنر . لن أفعل ذلك . بل إن الوقت بهذا يضيع من يدي . وداعاً ، وداعاً . لتنزل عليك بركات الله أيها الرجل ، وأرجو أن أغفر لنفسي ، غير أنه لا بد لي من الذهاب . ياسيد استاربك ، انظر ساعة البوصلة وأنذر جميع الفرباء بالرحيل بعد ثلاث دقائق من هذه اللحظة : ثم شدوا الحبال والقلوع كي تبحر السفينة مثلما كانت قبلاً » .

واستدار مسرعاً متيحاً بوجهه ، ونزل الى قمرة ، مخلفاً القبطان الغريب متصلباً مندهشاً لهذا الرفض البات المطلق الذي واجه به رجاءه الملح . ولكن جاردنر صحا من ذهوله وأسرع في صمت الى جانب السفينة ، وقد تقول أنه ارتمى ساقطاً في قاربه ولم يهبط هبوطاً ، وعاد الى سفينته .

وسرعان ماتباعدت السفينتان في مخرهما ، وحين كانت السفينة ماتزال بمرأى منا . كانت تتلذذ هنا وهناك خارجة عن مجراها عند كل بقعة سوداء في الماء مهما تكن صغيرة . وفي تلدها تدار باحاتها في هذه الوجهة وفي تلك ، وبقيت تجري شمالاً ويميناً ، أحياناً تواجه موجاً من أمامها وأحياناً تنساق أمام الموج ، بينا صواربيها وباحاتها طوال ذلك قد احتشدت بالرجال كأنها ثلاث شجرات سامقة من الكرز والأطفال معلقون لقطفه بين فروعها .

وكننت ترى بوضوح أن هذه السفينة ، وهي تتوقف وتتمزج بها طريها التاعسة ، ماتزال مجهدة تبكي ، ودمعها رشاش الماء ، كانت هي راحيل تبكي أولادها ، لأنهم لم يبقوا لها^(١) .

(١) ارميا ٣١ : ١٥ هـ هكذا قال الرب : صوت سح في الرامة . نوح بكا . مر ، راحيل تبكي أولادها . وتأبى أن تتمزى عن أولادها لأنهم ليسوا بمرجودين » .

القمره

«يتحرك آخاب ذاهباً إلى ظهر السفينة:

يمسك بيب بيده ليصطحبه».

- «يا فتى ، يا فتى ، أقول لك ، عليك ألا تتبع آخاب الآن . إن الساعة لآتية تلك التي لن يدعك آخاب فيها تفزع منه ، إلا أنه لا يريد لك أن تكون معه . فيك أيها الفتى المسكين ما أحسن أنه شفاء لدائي . هو كالدواء ، إلا أنّ دائي من أجل هذه الرحلة خير صحة أرجوها . قرّاً إذن في القمره حيث يخدمونك كأنك القبطان نفسه . أجل يافتى ، ستجلس هنا فوق كرسي المثبت بالقلاووظ ، وأنت ستكون فيه قلاووظاً ثانياً » .

- «لا . لا . لا! ليس لك جسم كامل ياسيدي . استعمل جسمي المسكين بدل رجلك المنقودة ، حسبي أن تدوس علي يا سيدي . ما أريد مزيداً ، وإنما أظنّ جزءاً منك » .

- «آه! على رغم ملايين الأخساء ، يجعلني هذا متطرف الإيمان في وفاء بني الانسان ، الذي لا يزول ولا يحول! - وهو أسود! وهو مجنون! ولكن يخيل اليّ أنه يعتربه الشفاء . فها هو يعود عاقلاً » .

- « يقولون لي يا سيدي إنّ اسطب تخلى مرة عن بيب الصغير المسكين ، الذي تلتمع عظامه الفارقة بياضاً رغم سواد بشرته ، ولكنّي لن أتخلى عنك يا سيدي كما فعل اسطب لبيب . سيدي لا بد أن أذهب معك » .

- « إذا أطنبت في الحديث معي على هذا النحو فإنّ هدف آخاب ينقلب رأساً على عقب . أقول لك لا ، ذلك لن يكون » .

- « آه ياسيدي الطيب سيدي ، سيدي! » .

- « لنن انتحبت كما تفعل فإنّي قاتلك! حذار ، فإنّ آخاب أيضاً مجنون . أصغ وسوف تسمع قدمي العاجية كثيراً على ظهر السفينة وتعلم أنّي ما زال هنا . هاأنا أغادرك . يذكّ

تصافح! تلاقيا! أنت صادق يافتي صدق المحيط حول المركز ، هكذا : حلت عليك بركة الله
أبدأ ، وإذا بلغت الأمور هذا الحد - نجاك الله أبداً وليكن ما يكون » .

ل يمضي آخاب ويتقدم بيب خطوة الى الأمام!

- « هنا وقف في هذه اللحظة . أنا أتخذ مثل هيئته - غير أنني وحدي . لو كان بيب
المسكين هنا لتحصلت ذلك ولكنه فقد . بيب! بيب! دن! دن! دن! من رأى بيب ؟ أظنه في
الأعلى ، لأجرب الباب . ماذا ؟ لا قفل ، لا مزلاج ، لا عارضة ، ثم لا يفتح . لابد أن الحلقة
الحرية . أمرني أن أمكث هنا ، أجل وقال أن هذا الكرسي المثبت بالقلاووظ لي . ها هنا .
أجلس إذن قبالة الطرنسوم في منتصف السفينة عينه وأمامي كل أرينتها وصواريخها الثلاثة .
ها هنا فيما يحدثنا ملاحونا الشيوخ يجلس أمراء البحر العظام أحياناً الى المائدة في
مراكبهم السود المزودة بـ ٧٤ مدفعاً ويتزعمون على المائدة ومن دونهم صفوف من القباطنة
والتواب . ها! ما هذه اسبليطات ؟ اسبليطات^(١) ؟ إنها تجيء محتشدة! أديروا القناني .
يسرتني أن أراك ، املأوا الكؤوس ياسادة! أي شعور غريب ينتابني حين يكون غلام أسود
مضيفاً لرجال بيض يلبسون الأشرطة الذهبية فوق معاطفهم!

سادتي هل رأيتم فتى يدعى بيب ؟ فتى زنجي قمي ، طوله خمسة أقدام ، ملامحه
كلامح الكلب التبع الذليل ، تنضح جيناً . قفز مرة من قارب تحويت . هل رأيتموه ؟ لا!
لابأس إذن ، املأوا كؤوسكم مرة أخرى أيها القباطنة ولنشرب نخب عار الجبناء جميعاً .
لأنسني أحداً ، العار والشنار لهم! ضموا قدماً على الطاولة . العار والشنار للجبناء جميعاً .
صه! في أعلى أسمع صوت عاج - اه سيدي! سيدي! يهبط قلبي حقاً حين تمشي فوقني .
ولكنني سأبقى هنا وإن كانت هذه المؤخرة ترتطم بالصخور فتنبعج ، ويجيء المحار
ليرافقني » .

(١) الأسبليطة : رمانة مفضبة فوق كتف السترة العسكرية .

القبعة

بعد هذا التجوال الأولي المديد بدا وكأن آخاب ، في الزمان والمكان الملانمين ، قد الجأ عدوه بعد أن جاب مياه التحويت الأخرى الى حظيرة بحرية كي يتسنى له ذبحه دون أن يفلت من يده . لقد وجد نفسه في نفس القبعة التي أصيب فيها بجرحه الأليمة . لقد قابل سفينة وتحذت الى قبطانها وعرف أنها أمس بالواقع التقت بمويبي ديك . لقد كانت لقاءاته التالية لمختلف السفن كلها متصافرة تدل عن طريق المفارقة على عدم المبالاة الشيطانية التي مزق بها مويبي ديك صياديه وسواء أثموا في حقه أم لم يأنموا ، لقد أخذت عيننا الرجل الشيخ تومضان بشيء تكاد النفوس الضعيفة لاتطبق رؤيته . كانت غاية آخاب ثابتة تلتصق من عل على جهامة البحارة الجاهمين وليل كآبتهم الذي لايريم ، كأنه النجم القطبي الذي لايفور وإنما يظل يرسل خلال ليالي الأشهر الستة الطوال في المنطقة المتجمدة نظرتة النفاذة المركزة المسددة . كانت غايته تهيمن عليهم حتى أن توجساتهم وشكوكهم وريبهم ومخاوفهم كانت تؤثر أن تختفي تحت أرواحهم فلا تنطلق منها سنبلة أو ورقة .

وفي هذه الفترة المرقبة تلاشى كل ميل الى الفكاهة ، طبيعية كانت أو مصطنعة ، فلم يعد اسطب يحاول أن يثير الإبتسام ، ولم يعد استاريك يحاول أن يخفت ابتسامه . كلا النقيضين من سرور وحزن ، من رجاء وخوف ، كأنما سحقا فأصبعا غباراً دقيقاً وصبا في الملاط المجبول ، حينئذ ، حول روح آخاب الحديدية كانوا كالألات يتحركون صامتين فوق ظهر السفينة وهم على رقبة من أن عين الشيخ المستبدة مسلطة عليهم .

ولكنك لو تأملتة في عمق ، وهو في إحدى ساعاته الأمينة الواثقة ، حين كان يظن أن لاعين تراه إلا عين واحدة ، لرأيت أنه بينا كانت عيننا آخاب ترهبان عيون البحارة فإن نظرة البارسي المبهمة كانت ترهب نظرة آخاب أو على الأقل تؤثر فيها أحيانا على نحو غريب .

ومثل هذا المزيد من الغرابة السارية أخذ يكتنف فيض الله النحيل ، مثل هذه الإرتعاشات المسترسلة أخذ يهزه حتى أخذ الرجال يتطلعون اليه في ارتياب ، غير مستيقنين اليقين كله أنه حقاً مصنوع من مادة الأدميين أو أنه خيال مربع ألقاه على جسم السفينة جسم كائن خفي ، وأن ذلك الخيال كان مايزال يحوم دائماً هنالك إذ لم يعرف عن فيض الله أنه ينام أو ينزل الى الطابق السفلي حتى في الليل ، إنما هو يقف دون حراك ساعات وساعات ، لا يجلس ولا يستند ، وعيناه الكئيبتان العجبتان تقولان دون إبهام : « نحن الرقيبين لانرتاح أبداً » .

ثم أن البحارة لم يعودوا يستطيعون أن يمشوا في أي وقت ليلاً كان أو نهاراً على ظهر السفينة إلا إذا كان آخاب أمامهم ، إما واقفاً في الثقب المحوري وإما ذارعاً الألواح بين طرفين لا يتجاوزهما ، وهما الصاري الرئيس والمظن ، فإن لم يكن هذا أو ذاك رأوه واقفاً في ناروزة القمر ، وقد مدّ رجله الحية فوق ظهر السفينة كأنه يريد أن يخطو وانكفأت قبعته على عينيه بقوة ، حتى أنه مهما يكن ثابتاً دون حراك ، ومهما تمرّ الليالي والأيام عليه وهو لم يضطجع في أرجوحته ، فإن البحارة لا يستطيعون أن يعلموا يقيناً لايعتوره خطأ إن كان هو حقاً يغمض عينيه أحياناً لأنهما مختلفيتان تحت تلك القبعة المنكفة أو إن كان مايزال منعماً النظر اليهم ، ثم لايهمه بعد أن يقف هذه الوقفة في الناروزة ساعة كاملة على امتدادها ، غير عابئ أن تتجمع رطوبة الليل حبات من ندى على ذلك المعطف وتلك القبعة اللذين يتلبسان سخراً منحوتاً ، فإن الثياب التي يندبها الليل تجفّفها شمس اليوم التالي دون أن يخلعها ، ويوماً إثر يوم وليلة بعد ليلة لم يعد يلمّ بالطابق السفلي ، وإنما كان يرسل في طلب أي شيء يحتاج اليه من القمر .

كان يتناول الطعام في ذلك الهواء الطلق ، اعني الوجبتين الوحيدتين : الفطور والغداء ، أما العشاء فلم يكن يمسه ، ولم يكن يشدّب لحيته وإنما نمت معشكلة متلبّدة كأنها جذور أشجار مقلوبة اقتلعت من الأرض ، ولا تزال تنمو في أسترخاء فوق قاعدة عارية وقد جفّت خضرتها في الأعالي . ومع أن حياة آخاب كلّها أصبحت رقبته واحدة مثصلة على ظهر السفينة ، ومع أن رقابة البارسي الغامضة كانت أيضاً كرقابة آخاب دون انقطاع ، فإن هذين الاثنين لم يكونا يتحدثان أحدهما للآخر إلا أن تعرض مسألة عابرة غير ذات شأن ، في فترات طويلة ، تجعل التحادث بينهما ضرورياً . كانت حلقة سحرية قوية كأنما تربط سراً بين الاثني ومع ذلك فإنهما كانا علناً في نظر البحارة المملوءين رهباً بيدوان متباعدين كأنهما قطبان ، فإذا اتفق أن تبادلوا كلمتين نهاراً ، ظلّ كلاهما في الليل أخرسين حتى فيما

يتصل بأوهى تمتمة شفوية . وأحياناً كانا يقفان أطول الساعات دون أدنى هتفة ، متباعدين تحت ضوء النجوم . أما آخاب فهو في ناروزته وأما البارسي فيقف عند الصاري الرئيس ، غير أنهما يحدقان أحدهما في الآخر بعيون نافذة ، كأن آخاب يرى في البارسي خياله ملقى أمامه ، وكأن البارسي يرى في آخاب كيانه الجسدي الذي بارحه .

غير أن آخاب ، فيما كان يفصح عن ذاته الحقّ يومياً وكلّ ساعة وفي كلّ لحظة بأوامر يلقيها الى مرؤوسيه ، آخاب بذلك كان يبدو السيد المستقل ، بينما البارسي عبده . ومع ذلك ظلّ الاثنان وكأنهما مدمجان في قرن ، يسوقهما طاغية خفي ، ويمشي الخيال النحيل منهما الى جنب الدعامة العلية ، إذ مهما يكن البارسي فإن آخاب الصلب كان كلّ دعامة وأريئة .

وعندما بزغ أول خيط من خيوط الفجر متألئناً سمع صوته الجهوري آتياً من المؤخرة : « زودوا رؤوس الصواري بالرجال! » وطوال اليوم كلّ حتى بعد المغيب وبعد الشفق يظلّ يسمع ذلك الصوت نفسه - كلّ ساعة عندما يدقّ جرس قيم الدقة - صارخاً : « ماذا ترون ؟ حدّدوا أنظاركم! حدّدوا! » .

ومضت ثلاثة أيام أو أربعة على لقاء راحيل التي كانت تنشد ولديها دون أن تظهر نفاثة واحدة ، وعندئذ بدا وكأنّ الشيخ الممرور يرتاب في أمانة ملاحيه ، أو على الأقل يرتاب فيهم ماعدا الزراقين الوثنيين ، بل أخذ يشكّ في اسطب وفلاسك وأنهما قد يغفلان عامدين المنظر الذي يسعى إليه ، ولكن إن كانت هذه الريب فيه فإنه تحاشى التعبير عنها بكلمات ، وكان ذلك من حكمته ، مهما تكن أعماله موحية بها .

فقال لنفسه : « سأكون أنا أول من يرى الحوت ، أجل إنّ آخاب سينال القطعة الذهبية! » ونسج بيديه عشّاً من جبال الأشرعة على هيئة زنبيل وأرسل يداً الى أعلى ببكرة ذات دولاب واحد ليربطها الى رأس الصاري الرئيس فتلقى طرفي الحبل المشدود الى أسفل ، وعقد أحد طرفيه بالزنبيل ، وأعدّ وتداً للطرف الآخر كي يوثقه الى اللوحة في حافة السفينة ، وما أن فعل ذلك ، والطرف الثاني مايزال في يده وهو واقف الى جانب الوتد ، حتى نظر الى ملاحيه نظرة انتقلت من واحد الى آخر ، متوقّفة طويلاً عند دغة وكويكوج وطاشطيقو متحاشية فيض الله ، ثم ركّز بصره الثابت الواثق على رأس الضباط وقال : « أمسك الحبل ياسيدي - أنا أضعه في عهدتك يا استاريك » . وبعد أن اتّخذ جلسته في الزنبيل أمر بأن يرفعوه الى مجثمه ، وكان استاريك هو الذي أمسك الحبل آخراً وبعدئذ وقف قريباً منه . وكانت إحدى يدي آخاب تقبض على الصاري الملوكي بينما نظراته مرسلّة عبر

السفينة الى مدى أميال وأميال في البحر ، أماماً وخلفاً والى هذا الجانب والى ذاك - ضمن الدائرة الواسعة المديدة التي يمكن أن يمتد إليها البصر من ذلك العلو الشاهق .

يرفع البحار الى ذلك الموضع حين يعمل بيديه في مكانٍ عالٍ يكاد يكون منعزلاً بين الجبال والأشجرة ، وربما لم يكن لديه موطن، قدم فيه ، وإنما يبقى معلقاً بالجبل . وفي مثل هذه الظروف يعهد دائماً بطرف الجبل المربوط عند ظهر السفينة الى شخص يكون دقيق المسؤولية في النظر والحراسة . ذلك أن الجبال المسترسلة تشبه تيهياً ، ولايستطيع المراقب الذي يرى القسم المنظور منها عند ظهر السفينة أن يستبين دائماً ودون خطأ علاقاتها وتشابكاتها المختلفة في الأعالي . وإذا كانت أطراف هذه الجبال عند ظهر السفينة تنحل كل دقيقة من علاقتها ، فإن من الخطر البالغ على البحار المرفوع - بطبيعة الحال - أن لاتزود الجبال بحارس دائم اليقظة ، إذ أن إهمال البحارة قد يجعله يهوي وينقض في الماء . لذا فإن ما صنعه آخاب في هذا الصدد لم يكن أمراً شاذاً ، إنما الشيء الغريب في الأمر هو أنه عهد بالحراسة الى استاريك ، ويكاد استاريك أن يكون الرجل الوحيد الذي تجرأ أبداً على مخالفته في أي شيء ، على نحو لا يقل عن الجزم البات إلا هنة يسيرة ، وهو أحد الذين كان يبدو على آخاب أنه يشك في أمانتهم في الحراسة ، لذا كان من المستغرب أن يقع اختياره على هذا الرجل نفسه ليقوم بحراسة الجبال . إذ معنى ذلك أنه وضع حياته كلها مختاراً في يدي إنسان غير موثوق فيه .

وما أن جنم آخاب في الأعالي ، وقبل أن يمضي عليه عشر دقائق ، حتى اقترب منه صقر من تلك الصقور البحرية الكاسرة ذوات المناقير الحمر التي كثيراً ماتطير على نحو مزعج حول رؤوس صواري الحوانات المزودة بالرجال ، في تلك النواحي ، صقر من تلك الطيور جاء يدوم ويصرخ حول رأس آخاب في تيه من الدورات السريعة التي لا يستطيع النظر أن يحقها ، ثم انطلق على مدى ألف قدم مستقيماً في الفضاء ثم خات متلولباً وذهب يدوم حول رأسه مرة أخرى .

وبدا كأن آخاب وهو معلق النظرة في الأفق الثاني المبهم لم يلمح هذا الطائر البري ولا كان لأي واحد آخر أن يعيره اهتماماً ، لأنه مظهر مألوف لديهم . لولا أن أقل الناس يقظة عندئذ بدا وكأنما يرى في كل منظر معنى خيباً .

وفجأة صاح البحار الصقلي الذي كان جائماً عند قمة المظيين : « قَبَعْتَا! قَبَعْتَا! قَبَعْتَا! قَبَعْتَا! » وكان يقف خلف آخاب وإن كان على صعيد أدنى ويفصل بينهما خليج عميق من فضاء .

ولكن الجناح الأسود كان قد أصبح أمام عيني الرجل الشيخ ، وأصبح المنسر الأعقف الطويل عند رأسه : وانطلق الصقر الأسود صارخاً وقد فاز بغنيمة .
حول رأس تاركوين^(١) طار صقر ثلاثاً ، نازعاً قبسته ليعيدها الى مكانها . ومن ثم أعلنت تناقيل زوجته أن تاركوين ربما أصبح ملكاً على روما ، ولكن الحادث عدّ فالأحسناً لأن القبعة أعيدت الى مكانها . أما قبعة آخاب فلم تعد أبداً ونأى بها الصقر طائراً ، ومضى بعيداً عن مقدم السفينة ، واختفى في النهاية ، وعند لحظة اختفائه رؤيت - في انبهام - هنة صغيرة سوداء ، تسقط من ذلك العلو الشاهق الى البحر .

(١) هو لقومو تاركوينوس . أصله من كورنث . غادر موطنه الأترسكي بحثاً عن ما يأتيه به الحظ في روما .

لقاء بين الباقوطة والمسرة

مضت الباقوطة ذات النظر الشزر في إبحارها ، وتوالى كزّ الأمواج والأيام . والتابوت الذي جعل عوامة إنقاذ مايزال يتأرجح بخفة ، وشوهدت سفينة أخرى أساء أصحابها اختيار الاسم حين دعوها : « المسرة » . وحين اقتربت تعلقت الأنظار جميعاً بموارضها العريضة ويسمونها « المقصن » ، فهي تعارض في بعض سفن التحويت الربعة الواقعة خلف الدقل الأعظم على ارتفاع يبلغ ثمانية أقدام أو تسعة ، وتستعمل لحمل القوارب الإحتياطية أو غير المعدة أو التي لم تعد صالحة :

وعلى مقصن السفينة الغربية شوهدت دعائم بيضاء محطمة وبضعة ألواح متفلقة كانت من قبل تسمى قارب تحويت ، ولكنّ البصر كان ينفذ من خلال ذلك الحطام فيرى ما وراءه بوضوح ، مثلما ينفذ من خلال هيكل حصان مسلوخ ناصع البياض يهتزّ بعض اهتزاز .

- « هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ » .

فأجاب القبطان الفائر الوجنتين من أعلى الكوئلة : « تأمّل! » وأشار بالنفير الى الحطام .

- « هل قتلتموه ؟ » .

- « إن الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد » - كذلك أجاب القبطان الآخر وهو

يرمق في أسف أرجوحة مدوّرة على ظهر السفينة ، كان بعض البحارة منهمكين - في صمت - يخيّطون أطرافها المجموعة .

فاختطف آخاب الحديدية التي سواها بيرث من محجأها ، وأمسك بها وهتف : « لم يصنع

بعد ، انظر أيها النانوكتي ، في هذه اليد يقبع موته! سقيتها دماً هذه الكلابات ورويتها بالبرق وأنا أحلف أنني سأثقفها ثالثة بغمسها في الموضع الحار خلف الزعنفة حيث يكون الحوت الأبيض أشدّ شيء احساساً بحياته اللعينة! » .

- «إذن حماك الله أيها الشيخ» - وأضاف مشيراً الى الأرجوحة - «هل ترى هذه . فيها
أدفن واحداً من خمسة رجال أشداء كانوا أحياء أمس . لكنهم ماتوا قبل حلول الليل . هذا
الوحيد هو الذي أدفنه أما البقية فدفنوا قبل أن يموتوا وأنت تبجر فوق قبرهم» ثم التفت الى
بخارته وقال : «أنتم مستعدون هنالك ؟ ضعوا اللوح على الحافة العليا وارفعوا الجثة . كذا .
آه» - وتقدم نحو الأرجوحة بيدين مرفوعتين وهو يقول : «يارب اجعل البعث والحياة...» .
فصاح آخاب في رجاله كأنه البرق : «شدوا الحلقات! ارفعوا الدفء!» .
ولكن الباقوطة التي أجفلت فجأة لم تكن سرعتها كافية لتتحاشي الرشاش الذي أحدثته
الجثة حين ارتطمت في الماء . لم تكن سرعتها كافية حقاً غير أن بعض الفقاعات المتطايرة
بللت هيكلها بمعموديتها الروحية .
ولما انسابت السفينة بأخاب نانية عن «المسرة» الخائرة لاحت عوامة الإنقاذ الغربية
معلقة في مؤخرة الباقوطة ، واضحة بارزة .
فانبعث صوت في مخرها محمّل بالندى : «ها . هناك! انظروا هناك يا رجال! عبثاً أيها
الغريباء تفرّون من جنازتنا الحزينة لأنكم إنّما تديرون لنا كوثلة سفينتكم كي ترونا
تابوتكم!» .

السيمفونية

كان يوماً صافياً كأنه الفولاذ زرقة ، وكان الجَلَدَان الأزرقان : الفضاء والبحر لا ينفصلان في تلك اللازوردية الشاملة ، ولكنهما يتباينان : فأما الهواء الساكن فإنه كان وضاحاً شفافاً ناعماً له وجه امرأة ، وأما البحر الصليب فإنه مسترجل تعلو فيه موجاته الطويلة القوية المتأنية كأنه صدر شمشون وهو نائم .

وهنا وهناك في الأعالي كانت تنساب أجنحة ناصعة ، أجنحة طيور صغيرة بيضاء لاشية فيها ، وتلك هي الأفكار الرقيقة التي يتمخض عنها الهواء المؤثت أما في الأعماق ، في دركات الأزرق الذي لاقرار له ، فكانت الحيتان وأسماك السيف وأسماك القرش تتدافع - جينة وذهبياً - ، وتلك هي الأفكار القوية المضطربة القتالة التي يتمخض عنها البحر المسترجل .

ومع إن هذه المفارقة كانت قائمة بينهما إذا اعتبرتهما من داخل ، فإن هذه المفارقة بينهما إنما كانت في الظلال والأخيلة إذا اعتبرتهما من خارج ، فكلا الإثنين كانا شيئاً واحداً ، ولا فرق بينهما إلا فرق مابين التذكير والتأنيث .

وفي الأعالي كانت الشمس ، كأنما هي قيصر أو ملك فخيم ، تزف الهواء الرقيق للبحر الجسور المتضرب كما تزف العروس الى زوجها . وعند طوق الأفق تنشأ حركة ناعمة مرتجفة - أكثر ماترى هنا على خط الإستواء - تدل على الثقة المدلهة النابضة ، والمخاوف الحبية التي تفتح العروس الخفية بها صدرها لتتلقى حبيبها .

ووقف أخاب الصامد في وضح الصباح وقد رفع حاجباً يشبه الخوذة المشطّاة نحو جبهة السماء التي تشبه جبهة فتاة شقراء ، وهو مقيد مبروم ، ملوى مقعد بالتجاعيد والفضون ، ثابت لايلين على شحوبه ، وعينه تتوفجان كأنهما جمرتان ماتزالان تبصان تحت رماد الدمار .

آه أيتها الطفولة الخالدة ، يابرة الكون اللازوردي ؟ أيتها المخلوقات الخفية المجنحة التي تمرح من حولنا ، أيتها الطفولة العذبة التي يمثلها الفضاء والسماء! ما كان أشد غفلتك عن الويل المعشش في نفس آخاب الشيخ! غير أنني رأيت مريم ومرتا ، حوريتان تضحك عيونهما ، تلعبان دون اكترات حول راعيها الشيخ ، وتعبشان بدائرة الخصلات المشعومة التي نبتت على حافة عربة دماغه الملتهبة .

عبر آخاب ظهر السفينة من الناروزة في بطء ، واستند على حافتها وراقب كيف يفرق خياله في الماء ويظل يفرق تحت بصره ، كلما ازداد سعيًا ليخترق الأعماق ، ولكن يبدو أن الأريج اللطيف في ذلك الهواء المسحور استطاع في النهاية أن يبند - لمدى لحظة - ذلك الشيء السرطاني في روحه . لقد استطاع ذلك الهواء المرح السعيد وتلك السماء الطروب أن يربتا عليه وأن يلاطفاه بالمداعبة . والدنيا أم دفر التي طالما كانت قاسية القلب ، أخفت قسوتها وألقت من حول عنقه الصليب ذراعيها الحاديين ، وأخذت في سرور تتنهّد فوقه كأنما تفعل ذلك فوق رأس امرئ، تستطيع أن تجد له أي قلبها عطفًا بقية العشرات ويكفل له البركات ، مهما يكن فيه من عناد وأخطاء . وانحدرت من تحت قبعة آخاب المنكفنة دمعة نزلت في البحر ، ولم يكن المحيط الهادي كله يحتوي ثراء كتلك الدمعة الصغيرة .

ورأى استاريك الرجل الشيخ ، رآه وهو يلقي ثقله مستنداً على الحافة ويبدو أنه سمع في قلبه الصادق ذلك التنهّد المديد الذي انزل من وسط السكون المحيط . وظلّ استاريك حريصاً على ألا يمس آخاب وأن لا يلفت انتباهه ، ومع ذلك فإنه اقترب ووقف هنالك .

التفت آخاب .

- « استاريك! » .

- « سيدي » .

- « آه يا استاريك هذه ريح علية علية ، وهذه السماء لطيفة وديعة . في مثل هذا اليوم - في عذوبة كهذه تماماً - طعنت أول حوت - كنت حواتاً صغيراً في الثامنة عشرة! أربعون - أربعون - أربعون سنة مضت! - مضت! أربعون سنة من التحويت المستمر الدائب! أربعون سنة من الحرمان والأخطار ومواسم العواصف! أربعون سنة على البحر القاسي الذي لا يرحم . أربعين سنة هجر آخاب البير الآمن انمطمئن ، أربعين سنة لأشن الحرب على ويلات الماء ، أجل ونعم يا استاريك ، من هذه الأربعين لم أقف على الشاطئ، ثلاثاً كاملات . حين أفكر في الحياة التي عشتها - وكيف كانت وحشة الوحدة ، كانت عزلة قبطان مشيدة مسوزة ،

لا تسمح لأية عاطفة من الأرض الخضراء أن تنسرب إليها إلا من خلال نافذة صغيرة - آه ، فيها الملل والسأم ، عبودية القيادة المتوحدة! حين أفكر في كل هذا ، ولم أكن أعرفه من قبل بهذا الوضوح وإنما كنت أخمن ما هنالك بعض التخمين . عندما أفكر كيف أني طوال أربعين عاماً عشت على طعام مملوح جاف - خير رمز للتغذية اليابسة التي عاشت عليها روحي - وعندما يكون في متناول أفقر رجل من أبناء البر فاكهة طازجة يومياً ، وهو يكره أنضر الرغفان في الكون بينما أتناول أنا البقسماط اليابس ، بعيداً أيتها المحيطات على سعتها ، بعيداً من تلك الزوجة الفتاة التي تزوجتها بعد أن تجاوزت الخمسين وسافرت في اليوم التالي الى رأس هورن ، تاركاً على مخدة الزوجية أدحية واحدة لا غير . زوجة ؟ أقول زوجة ؟ بل الأخرى أرملة وزوجها حي! أجل ، لقد أرملت تلك الفتاة المسكينة حين تزوجتها يا استاريك . ثم الجنون والحنق والغفورة في الدم والحاجب المعقود بالدخان تلك الأمور التي كانت عدة آخاب آلاف المرات لدى إنزال القوارب ، بها يطارد في هياج مزيد فريسته . أقرب الى الشيطان في حاله من الإنسان ، أجل ، أجل! ما كان أحرق آخاب على مدى أربعين عاماً - أحرق - أحرقاً معرفاً في الحمق كان آخاب المسن! لِمَ هذا الجهد في الصيد ؟ لِمَ تضنى اليد حتى تكاد تكون مشلولة على المجذاف والمزراق والحربة ؟ هل أصبح آخاب اليوم أغنى وأفضل مما كان ؟ تأمل واحكم . آه يا استاريك! أليس من القسوة - وأنا أحمل هذا العبء المضني - أن تختطف مني رجل كنت بها أقوم ؟ أزح هذا الشعر الأشيب ناحية فإنه يعشني حتى أبدوا كأنني أبكي . مثل هذه الخصلات التي اشتعلت شيئاً لم تخرج إلا من رماد! ولكن أتراني أبدو هرمأ ، هرمأ جداً يا استاريك ؟ إنني لأحسني خائراً مقوس الظهر محدودباً كأنني آدم يترنح تحت عبء القرون المتراكمة مذ أبط من الفردوس . رباه! رباه! لينفطر قلبي! لينشق رأسي! سخرية! سخرية! ياسخرية مريرة لذاعة يمثلها هذا الشعر الأبيض! هل مارست السرور الكافي حتى تجي ، أيها الشيب له ختاماً فأبدو وأشعر أنني كبرت كبيراً لا يطاق ؟ قرب! قف بقربي يا استاريك . خلّني أنظر في عين إنسان ، ذلك أفضل من التحديق في البحر أو الفضاء ، أفضل من التوجه بالنظر الى الله . وحق الأرض الخضراء . وحق الموقد المتوهج هذه هي المرأة السحرية يارجل ، فأنا أرى في عينيك زوجي وطفلي . لا . لا . إبقى على ظهر السفينة ، على ظهر السفينة! لا تنزل قاربك حتى أنزله أنا ، لا تنزله حين يأخذ آخاب الموسوم في مطاردة موبي ديك . لن تكون تلك المخاطرة من نصيبك . لا . لا . لن تفعل وأنت تحمل بيتي النائي في تلك العين!»

- « آه يا قبطاني! يا قبطاني! ياذا الروح النبيلة! ياذا القلب الكبير ، بعد هذا كله! لم

يطارد أحد تلك السمكة المقيتة! تعال معي! دعنا نهرب من هذه المياه القاتلة ، لنعد الى الوطن! إن استاريك لديه زوجة وطفل - زوجة وطفل يتمثلان في لدات شبابه ، لدات كأنهم أخوته وأخواته ، كزوجتك وطفلك يا سيدي هم اللدات الذين عرفهم العمر المتجيب التواق ذو الأحاسيس الأبوية . لنبتعد! هيا بنا نبتعد! في هذه اللحظة دعني أغير وجهة السفينة! ماأسعدنا ، ما أشد تهللنا ياقبطاني ونحن تندحرج في طريقنا لنرى ناتوكت القديمة ثانية! أظن ياسيدي أنهم في ناتوكت ينعمون بهذه الأيام الوداعة الزرقاء ، كيومنا هذا » .

- « ينعمون . ينعمون . رأيتم ، بعض أيام الصيف وقت الصباح ، عند هذا الوقت أو قريباً منه - نعم إن ابني الآن في القيلولة . ثم يصحو مرحاً ويجلس في سريه ، وتحدثه أمه عني ، عني أنا العتي المفترس ، وكيف أتى أمعنت في الإبحار ، ولكنني سأعود اليه لأرقصه » .

- « إنها ماري زوجتي ، ماري زوجتي فعلت كذلك! فقد كانت تعد أن تحمل ابني كل صباح الى الرابية لكي يرى أول ومضة من أشرعة أبيه! نعم! نعم! حسناً! قضي الأمر! إننا نتوجه الى ناتوكت! تعال ياقبطاني قدر الإنجاء ، ولنذهب . انظر! انظر! هاهو وجه الطفل يطل من النافذة! ها هي يد الطفل على الرابية! » .

ولكن آخاب أشاح بوجهه واهتر كأنه شجرة تفاح مشوفة وطرح آخر تفاحة مغبرة على الثرى .

« ماهذا ؟ أي شيء غير أرضي لا يسمي ولا يعلل هو هذا ؟ أي سيد خبيء خداع ، أي امبراطور جائر عسوف يوجهني ، حتى أنني أظل أندفع واحتشد وأزج بنفسي كل وقت مقاوماً كل مظاهر الحب والشوق الطبيعيين ، ويجعلني مستعداً لأودي دون مبالاة ما لو استأنست بشعور قلبي الطبيعي لم أجرؤ على أن أؤديه! آخاب هو آخاب ؟ أننا أم الله أم من ذا يرفع هذه الذراع ؟ ولكن إن كانت الشمس العظيمة لاتجري من نفسها وإنما هي عبد مأمور في السماء ، ولايستطيع أي كوكب أن يدور إلا أن تديره قوة خفية ، فكيف إذن ينبض هذا القلب الصغير وكيف يفكر هذا الذهن الضئيل لولا أن الله هو الذي يسبب النبض والفكر ، هو موجد الحياة لأننا . وحق السماء يارجل إننا ندار في هذا العالم كذلك الدولاب الرافع والقدر هو المخل . وطوال الوقت ، تأمل! تلك السماء الباسمة وذلك البحر الذي لايسبر له غور! انظر ، انظر ذلك البيقورا من ذا الذي أوحى اليه أن يطارد تلك السمكة الوثابة ويقبض عليها ؟ أين يذهب القتلة يارجل ؟ من ذا الذي يصدع بالحكم حين يجز القاضي نفسه الى موقف المتهم ؟ ولكن الريح وديعة لطيفة والسماء وديعة المحيا .

والنسمات تنفح كأنما هبت من مرج ناء بعيد ، كانوا يحصدون عند سفوح الأنديز يا
استاريك والحصادون نائمون بين القشّ الحديث حصاده . نائمون ؟ أجل ، مهما يكن
مانبذله من كذّ فإننا ننام في النهاية في الحقل . ننام ؟ أجل ويعلونا الصداً بين الزرع
الأخضر ، كالمناجل التي طرحت وتركت بين الأغمار والشمالات ، يا استاريكنا » .
ولكنّ اليأس ران على وجه الضابط فعدا في لون الجثة ، وانسلّ ذاهباً .
واجتاز آخاب ظهر السفينة ليطلّ عن الجانب الآخر ، غير أنه أجفل إذ رأى خيال عيينين
محددتين في الماء . كان فيض الله متكنأً دون حراك على تلك الحافة نفسها .

المطاردة - اليوم الأول

في النوبة الوسطى من الحراسة تلك الليلة حين انتقل القبطان الشيخ - حسب عادته بين الحين والحين - من الناروزة التي يستند فيها وذهب الى الثقب المحوري ، نصب وجهه فجأة بعنف ، مستنشياً هواء البحر ، كما يفعل كلب فطين على سفينة تقترب من إحدى الجزر المتأبدة . وأعلن أن ثمة حوتاً قريباً ، ولا بد . وسرعان ما أصبحت تلك الرائحة الفريدة التي يبعثها حوت العنبر الحي على المدى البعيد أحياناً ، واضحة يشملها جميع الرقباء . ولم يندهش أي بخار حين ذهب آخاب فعابن البوصلة ثم مؤشر الريح وعين بدقة منشأ الرائحة قدر المستطاع ثم أمر في سرعة أن يغير اتجاه السفينة تغييراً طفيفاً ، وأن يقصّر الشراع . وكان لهذه السياسة الماضية التي تملي تلك التحركات مايسوغها عند ابتلاج النهار ، فقد كانت ملوسة مديدة تفشي البحر أماماً على اتجاه طولي بعيد ، العلامات المصقولة كالمعدن التي يتركها انمراج التيار السريع عند مصب جدول عميق سريع .

- «زودوا المراقب بالرجال! استدعوا جميع العاملين!» .

ودق دغمة بمؤخرة ثلاث عتلات مجتمعة على ربة المنارة فنبه النائمين بدقات كأنها نفخات الصور حتى بدا وكأن الناروزة بعشرتهم منشورين ، فظهروا على التو وملابسهم في أيديهم .

صاح آخاب وقد بسط وجهه نحو السماء : «ماذا ترون؟» .
فكان الجواب الذي تأدى من علّ : «لاشيء! لاشيء! ياسيدي!» .
- «انشروا الأشرعة العليا النبيلة! والأشرعة الخفيفة الجانبية ، في الأعالي والأداني وعلى الجانبين!» .

ونشرت جميع الأشرعة فأرخت حبل الحياة الذي يستبقه لكي ينقله الى رأس الصاري

الملكى الرئيس ، وفي بضع دقائق كانوا يرفعونه الى مرقبه . ولم يبلغ إلا ثلثي الإرتفاع المطلوب وهو يحدق أمامه خلال الفراغ الأفقى بين الشراع العلوي الرئيس والشراع العلوي النبيل حتى رفع عقيرته في الفضاء بصوت كأنه صراخ النورس : « هناك ينفث! هناك ينفث! حردبة كربوة تلج! هو موبى ديك! » .

حمى الرجال على ظهر السفينة بتلك الصيحة التي ردها في الوقت نفسه الحراس الثلاثة ، فاندفعوا الى جانب الحبال والأشعة ليروا الحوت المشهور الذي طاردوه - ومازالوا - طويلاً . وبلغ آخاب عندئذ مرقبه وهو يعلو أقداماً فوق المراقب الأخرى ومن دونه طاشطيقو على رأس الصاري العلوي النبيل حتى كاد رأس هذا الرجل الهندي أن يكون على مستوى أخص آخاب . ورأى المراقبون من مرتفعهم هذا ذلك الحوت على بضعة أميال أو نحوها الى الأمام ، وكلما تقلبت الأمواج انكشفت حردبته العالية اللامعة وهو يرسل نفثاته الصامته بانتظام في الفضاء . وبدت نفثاته لأعين البحارة السذج نفس النفثات التي طالما رأوها في المحيطين الأطلسي والهندي تحت ضوء القمر .

وصرخ آخاب وهو ينادي الرجال الجائمين في مراقبهم من حوله :
- « أولم يره أحدكم من قبل ؟ » .

فقال طاشطيقو : « أكاد أكون رأيته في نفس اللحظة التي رآه فيها القبطان آخاب ياسيدي وقد صرخت عند ذلك » .

- « ليست نفس اللحظة ، كالأيست نفسها ، لا . إن القطعة الذهبية من نصيبي ، لقد حفظها القدر لي ، أنا وحدي ، لأحد فيكم كان يمكن أن يبصر الحوت قبلي . ها هو ينفث! ها هو ينفث! ها هو ينفث هناك! هناك مرة أخرى! هناك ثانية! » - كذلك صرخ في نعمات مستطيلة بطيئة رتيبة ، منغومة حسب نفثات الحوت المسترسلة المنتظمة . - « يريد أن يقمس! اطووا الأشعة الخفيفة الجانبية! أنزلوا الأشعة العلوية النبيلة . قفوا الى جانب قوارب ثلاثة . الدفة هناك! كائب الريح ، اقترب منه درجة . هكذا . ثبات يارجل ثبات! هاهما شطيرتا ذنبه! لا . لا . ليس هذا الإماء كشيئاً أسود! أكل القوارب مستعدة ؟ قزبوا قزبوا! انزلني ياسيد استاريك! أنزل ، أنزل . سريعاً . أسرع! » وانزلق خلال الفضاء هابطاً الى ظهر السفينة .
فصاح اسطب : « إنه عامد نحو المهب ياسيدي ، بعيداً عنا ، لا يمكن أن يكون قد رأى السفينة بعد » .

- « اخرس يارجل! قف عند حلقات الحبال . وجه الدفة الى تحت! شد الحبال . هزها! هزها! هكذا . أحسنت! القوارب ، القوارب! » .

انزلت كل القوارب على التو إلا قارب استاريك ، ونشرت جميع أشرعتها وأعملت جميع بدالاتها وهي تنطلق نحو المهب بخفة متمعجة ، وآخاب في الطبيعة يقود الهجوم . وضواً في عيني فيض الله الفانرتين بصيص شاحب ينتمي الى الموت ، ولوت فمه حركة شنيعة .

وأسرعت مخاطمها الخفيفة خلال الماء كأنها أصداف بحرية لاهيف لها من نوع النوظل^(١) ، ولكنها لم تكن تقرب من العدو إلا في بطن ، وعندما اقتربت منه زاد سكون البحر وانبساطه وكأنه ينشر بساطاً على الأمواج ، كأنه مرج مستو في الظهيرة ، كذلك كان يمتد في هدوء وصفاء . وعلى المدى اقترب الصياد اللاهث من فريسته التي تبدو مطمئنة حتى بدت لعينيه بوضوح حردته اللماعة المعشبة كاملة ، سارية في عرض البحر كأنها كيان منعزل عما عداه ، وهو باستمرار يوضع في حلقة دوارة من أرق الزبد الصوفي المخضوضر . ومن وراء ذلك رأى التجاعيد المتداخلة المترامية في رأسه البارز بروزاً طفيفاً ، وأمام الرأس بعيداً على تلك الأمواج الناعمة كأنها سجاد عجمي انطلق الخيال الأبيض اللماعة من جمجمته العريضة الناصعة ، في تفضنات موسيقية تصاحب الخيال مرحة لاهية ، ومن خلف تطفى المياه الزرق متداخلة في الوادي المتحرك الذي يشقه مخره المسترسل ، وعلى كلا الجانبين ترتفع نفاخات براققة وتراقص من حوله . إلا أن هذه النفاخات انمائت مرة أخرى حين مستها أصابع رفيقة ، هي أصابع مئات الطيور المرحة ترفرف في نعومة فوق البحر ، وتعود فتحلق طائرة . وبرزت من ظهر الحوت الأبيض قناة طويلة محطومة لحرية غرست فيه حديثاً كأنها سارية راية ترتفع من سفينة تجارية وحيدة الشراع ذات هيكل مدهون . وبين الحين والحين كان سرب من الطيور المحلقة ذوات الأصابع الناعمة ، تسف في طيرانها فوق الحوت كأنها ظلّه وتحط على هذه القناة وتهتز متأرجحة ، والريش الطويل في ذيولها يتموج كأنه أعلام . كان يكتنف الحوت المنساب بهجة رقيقة - وداعة من سكينه مستحكمة في خفة ، ولا كذلك جوبتر نفسه في صورة ثور أبيض مختطفاً أوروبية عنوة ، سابحاً بها وهي ممسكة بقرنيه الرشيقين . وقد أنعمت عيناه . المتوددتان الغامزتان - نظراً موارباً الى الفتاة ، وهو يتلوى عامداً في سرعة رشيقة أخذة نحو خميلة العرس في كريت ، ولا جوبتر نفسه ، ولا ذلك المتجلّي ذو الجلال العظيم ، كان يفوق الحوت الأبيض المجيد الفخيم ، وهو سابح في تأله وبها .

ومع وقع التموجات التي يشقها فإذا تركته أبعدت نائية ، كان الحوت ، على جانبيه الناعمين ، على الجانبين اللامعين ، يكسب صنوف الإغراء . فلا عجب إذا وجد بين الصيادين من جذبهم هذا الهدوء ، وأغراهم الى حد بعيد فغامروا بمهاجمته ولكنهم وجدوا بعد أن أصاب منهم مقتلاً أن السكينة إنما تخفي وراءها إحصاراً غير أنك أيها الحوت تنسرب هادئاً ، هدوءاً خلاباً معنوياً ، لكل من يرمقك أول مرة ، مهما يكن عدد الذين غررت بهم على هذا النحو وقضيت عليهم .

وهكذا مضى موبي ديك من خلل الهدأة الهادئة في البحار الإستوائية ، التي توقف بين أمواجها التصفيق بالأيدي لشدة الإنبهار ، وهو قد حجب عن الأنظار المفزعات الكاملة التي يمثلها جذعه الفاطس مخفياً إخفاءً تاماً البشاعة المخيفة التي يلتوي بها فكه ، وسرعان ما برز الجزء الأمامي منه ببطء من خلل الماء ، وعلى مدى لحظة كَوّن جسمه الرخامي كله قنطرة عالية كأنها الجسر الطبيعي في فرجينيا ، وهزّ شطيرتي ذنبه في الفضاء منذراً . لقد تجلّى الله العظيم ثم قمس واختفى عن الأنظار ، وتوقفت طيور البحر البيض مدومة . وانحرفت على أجنحتها ، وتمطت في توق فوق البركة المتموجة التي بارحها .

وعامت القوارب الثلاثة في ببطء ، وقد انتصبت مجاذيفها ، وهبطت بدالاتها ، وضلت أشرعتها وهي ترقب عودة موبي ديك الى الظهور .

« ساعة » - كذلك قال آخاب وهو واقف راسخ في مؤخرة قاربه ونظر الى ماوراء موقع الحوت نحو المسافات الزرق المبهمة والفراغ المديد الحافز في اتجاه الريح . ولم تكن إلا لحظة ، فقد عادت عيناه تدوران في محجريهما وهو يمدّهما ليمسح المجال المائي . وهبّ النسيم بروداً وأخذ البحر ينتفخ متموجاً .

وصاح طاشطيقو : « الطيور! الطيور! » .

كانت الطيور البيض كلها تطير نحو قارب آخاب في طابور هندي طويل كأنها رفوف مالك الحزين محلقة . وعندما أصبحت دونه على مسافة بضع ياردات بدأت تخفق بأجنحتها فوق الماء ، وتدور وتدور وهي ترسل صيحات البهجة والرجاء . كان بصرها أحد من نظر آخاب . فإنه لم يستطع أن يستكشف أية علامة في البحر ولكنه حين حدق وأطال التحديق في الأعماق رأى على غور بعيد بقعة بيضاء حية ليست أكبر من ابن عرس أبيض ، ترتفع في سرعة عجيبة وتكبر كلما ارتفعت ، حتى تحولت عائمة من القمر الذي لا يستطاع استجلاؤه . وعندئذ وضع فيها صفان طويلان أعوجان من أنياب بيض لامعة . كان ذلك هو فم موبي ديك المفتوح وفكه المشاوي . أما جسده الضخم المحجوب فكان ما يزال مختلطاً بعض

اختلاط بزرقه البحر ، وانفجر الفم المتلألئ. تحت القارب كأنه قبر رخامي نزع بابه . فأدار آخاب القارب جانباً بضربة مواربة من مجذافه ليحيد عن شبحه المرعب ثم نادى فيض الله . ليتبادلا مكانيهما وذهب الى مقدم القارب وأمسك بالرمح الذي صنعه بيرث وأمر بخارقه أن يمسكوا بمجاذيفهم وأن يقفوا متأهين كي يتمكنوا من العودة للوراء .

ويسبب من دورة القارب عندئذ حول محوره جعل مقدمه ، من قبيل المبادرة ، مواجهاً رأس الحوت وهو ما يزال تحت الماء ، ولكن كأنما لحظ موبى ديك هذه الخطة بذلك الذكاء الماكر الذي يعزى اليه ، فاستبدل في مواربة بمكانه مكاناً آخر ، في لحظة ، مطلقاً رأسه المقصن طولياً من تحت القارب .

واهتز القارب من أقصاه الى أقصاه وسرت الهزة لحظة في كل لوح ودعامة . والحوت مضطجع على ظهره في انحراف على نحو ما يضطجع القرش الكندام وهو يتناول مقدم القارب كله ببطء وتحسس في فمه حتى أن الفك السفلي الطويل الضيق المنشاري تلوى بارزاً في الفضاء وعلق أحد الأنياب بأحد مساند المجذاف . وكان داخل الفك المائل الى الزرقه الأبيض بياض اللؤلؤ على بعد ست بوصات من رأس آخاب ثم بلغ الى أعلى من ذلك . وفي هذا الموقف هز الحوت الأبيض ذلك الرمث الضنيل كما تهز القطة الظالمة في وداعة طريدها الفأر . ونظر فيض الله بعينين لادهشة فيهما ، وشبك ما بين ذراعيه ، غير أن الملاحين الذين في صفرة النمر كانوا ينقلبون فوق رؤوس بعضهم البعض وكلّ منهم يبادر لينال لوأذاً في أقصى المؤخرة .

وبينا كانت كلتا الحافقتين المرنتين تثبان داخلًا وخارجاً ، والحوت يداعب القارب الهالك بهذه الطريقة الشيطانية ، ولا يمكن قذفه بالرمح من المقدم ، لأن جسمه غاطس تحت القارب ، ولأن المقدم نفسه يكاد يكون داخل فكه ، وبينما توقفت القوارب الأخرى عفواً كأنها أمام أزمة سريعة يستحيل عليها مواجهتها ، عندئذ هاج آخاب لمصاغبة خصمه له مصاغبة تعذبه بوشك نجاز الأمل ، لأنها وضعته وهو حي أعزل بين الفكين اللذين يمقتهما - هاج واستبد به الحنق ، فأمسك الفك الطويل بيديه المجردتين وحاول بضراوة أن يزحزحه عن ذلك الإطباق الضاغط الكرز ، وفيما كان يجهد هذا الجهد الضائع انزلق الفك من بين يديه ، واستسلمت الحافتان الهشتان ، وانقلبتا ، وفرقتا عندما انزلق الفك كأنهما مقصان بعيداً الى الوراء ، وشقّ القارب نصفين ، ثم انطبقا في الماء في مسافة متوسطة بين الصفين العائمين . ولما أن عاما تدلت الأطراف المكسرة ، وتعلق الملاحون عند النصف الخلفي من القارب بالحافتين ، وجاهدوا ليستمسكوا بالمجاذيف حتى يربطوها الى بقية الحطام .

في تلك اللحظة التمهيدية قبل أن يتم انشقاق القارب كان آخاب أول من أدرك قصد الحوت ، وذلك لأنه رفع رأسه بحركة مأكرة فتراخت عنه قبضة آخاب وقتاً ما ، في تلك اللحظة بذل آخاب بيده آخر محاولة ليدفع القارب بعيداً عن مكدم الحوت . ولكن القارب ما عتم أن انزلق هابطاً في فم الحوت وتمايل على جانبه وهو ينزلق فحال بين قبضة آخاب وفك الحوت ، فهوى آخاب حين انحنى ليدفعه وسقط منبطحاً على وجهه فوق الماء .

أما موبي ديك الذي انسحب عن فريسته متمعجاً فقد استلقى على مسافة قصيرة وقد طعن برأسه الأبيض المستطيل عمودياً في الأمواج صعوداً ونزولاً وفي الوقت نفسه أدار ببطء جسمه المتطاوول حتى أن جبهته المغضنة الفسيحة عندما برزت - على مدى عشرين قدماً خارج الماء ، أو تزيد ، تكسرت لتقاءها الأتجاج المتعالية بكل ما فيها من أمواج مترافدة تكسراً يبهز الأبصار وهي تقذف رشاشها الراعش عالياً في الفضاء ، حقدماً واضطراباً* . كذلك أمواج «القتال» التي ترتد على أعقابها مقهورة بعض الشيء ، أثناء العاصفة تتراجع عن قاعدة «اديستون» لا شيء ، إلا لتطاول قمتها زهواً في اندفاعها المتوثب .

وسرعان ما استعاد موبي ديك وضعه الأفقي فسبح بخفة ولف حول الملاحين المتناثرين ودار ، وهو يمخض الماء في مخره الحقود ، كأنه يهيم أن ينطلق في غارة جديدة أشد من أختها فتكأ . وبدا كأنما يهيج فيه منظر القارب المتشظي جنوناً كما فعل الجريان القاني من دم العنب والتوت حين سكب أمام فيلة انطوخوس ، حسبما جاء في كتاب المكابيين . وفي الوقت نفسه كان آخاب يوشك أن يختنق في الزبد الذي أثاره ذنب الحوت الوقح . وأعجزه عجزه عن أن يسبح ، وإن استطاع أن يبقى عانماً حتى في قلب مثل تلك الدوامة ، وظهر رأس آخاب الذي أده العجز وخانه الحول كأنه نفاخة متقلبة قد تفجرها أصفر صدمة عارضة . ورمقه فيض الله من مؤخرة القارب التي تناثرت شظايا بنظرة ودیعة باردة فيها لهفة المتطلع . فأما الملاحون المتشبهون عند الطرف الآخر المتناذف فلم يستطيعوا إغاثته ، إذ كان حسبهم أن ينظروا في ما دهمهم ، فقد كان منظر الحوت الأبيض مهولاً في دورانه ، وكانت الدوائر المنداحة التي يحدثها سريعة كأنها دورة كوكب ، حتى خيل اليهم أنه سينقض عليهم أفقياً ، وأما القوارب الأخرى فإنها ، وإن لم يمسهأ أذى ، كانت تحوم عن كسب دون أن تجرؤ على التجذيف ودخول تلك الحومة ومباشرة الضرب . لنلا يكون في ذلك أمارة على الهلاك الوحي للمطروحين بين أنياب التهلكة ، أعني آخاب وسائر الملاحين ، وفي مثل هذه الحال فإنهم أيضاً لا يرجون لأنفسهم نجاة ، ولذا وقفوا يتطلعون بعيون

* هذه الحركة خاصة بحوت العنبر وتسمى «قذف الحرية» تشبيهاً لها بتسديد الحرية صعوداً وهبوطاً في التعويث حسبما تقدم الوصف (انظر الفصل : ٨٤) وبهذه الحركة يستطيع الحوت أن يرى ، خير رؤية وأفضلها ، أي شيء ، يحيط به .

متخازرة عند الحافة الخارجية من ذلك الفلك المريع الذي أصبحت نقطة المركز فيه رأس آخاب .
ومنذ البداية كان هذا كله في أثناء ذلك بمرأى من الرقباء في أعالي الصواري . فأدارت
السفينة باحاثها ، وعمدت الى ذلك المشهد ، ودنت كثيراً حتى أن آخاب ناداها قائلاً :
« ابحروا نحو... » وفي تلك اللحظة اندفع نحوه موج فاصل من لدن موبي ديك غمره حيناً .
غير أنه تخلص منه جاهداً ، واتفق أن ارتفع على سنام موجة متعالية فصاح : « ابحروا نحو
الحوت! - طرزه شلاً! » .

أشرعت مقادم الباقوطة المحددة ، وكسرت الحلقة المسحورة فحالت بين الحوت
الأبيض وضحيتيه ، وعندما ابتعد ساخطاً متبرماً سارعت القوارب مخفة الى النجدة .
جز آخاب الى قارب اسطب وعيناه اللتان تقدحان شرراً عشواءان ، والملح الأجاج
يتقرص في تجاعيده ، وقد انقطعت في جسمه أوتار القوة لطول النزاع والتوتر ، فاستسلم
بلا حول لمصير جسده وظلّ بعض الوقت مستلقياً محطماً في قعر قارب اسطب كأنه شخص
داسه قطيع من الفيلة بالأقدام . ومن أعماق أعماقه السحيقة انبعثت أنات تعجز الوصف كأنها
أصوات موحشة تنبعث من أخايد .

ولكنّ هذه الحدة في استسلامه الجسدي قصرت من عمر هذا الاستسلام العاني . ذلك
أن بعض القلوب الكبيرة أحياناً تستجمع - بلمح البصر - جميع الآلام الرقراقة المبعثرة برفق
خلال أعمار الناس الضعفاء وتكثفها في صورة غمرة عميقة من الألم ، فإذا شاءت الآلهة فإن
مثل هذه القلوب تحتقب في عمرها وحده ألم عصر كامل ، ألماً مؤلفاً من تلك المكشفات
المفاجئة ، وإن كنت ترى فيها خلاصة ألم إذا نظرت إليها في كل فرد متألم على حدة ، فهذه
الكائنات النبيلة تحتوي في نقاط مراكزها الهندسية كل محيط من محيطات النفوس الضعيفة .
قال آخاب ناهضاً بعض نهوض ، مستنداً في تضجع على ذراع واحدة محنية : «الرمح! -
هل هو سليم؟» .

فقال اسطب وهو يرفعه أمام عينيه : «أجل ياسيدي ، لأنه لم يقذف ، ذلك هو السبب» .
- «ضعه أمامي - هل فقدنا أحداً؟» .
- «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، كانت لدينا خمسة مجاذيف يا سيدي وها
هنا خمسة رجال» .

- «حسن . أعني يارجل ، أود أن أقف . كذا ، كذا ، ذاك هو! هناك! هناك! مايزال
ذاهباً في اتجاه الريح . إنه نفاثة وثابة! حطّوا أيديكم عني! إنّ النسغ الخالد عاد يجري
في عظام آخاب! انشروا الأشرعة . أحضروا المجاذيف ، الدفة!» .

إذا انشق قارب ما ، فإنّ بحارته في أغلب الأحيان ، حين يلتقطهم قارب آخر ، يعينون على التجذيف في الثاني وتستمر المطاردة بما يسمونه المجاذيف المزدوجة ، وهذا هو ما حدث حينئذٍ ، ولكن القوة المزيّدة في القارب لم تكن تساوي القوة المزيّدة في الحوت لأنه يبدو أنه « ثلث » كلّ زعنفه من زعانفه ، فقد كان حينئذٍ يسبح بسرعة تدلّ بوضوح على أن البحارة إن اندفعوا نحوه في تلك الظروف فإنّ المطاردة ستكون طويلة لانتهبي الى حدّ .

هذا إذا لم تكن نتائجها غير مرجوة . ولاستطيع أيّ عصبه من الملاحين أن تطبق مثل هذا التوتّر الطويل المستمر دون راحة ، عند المجاذيف ، طول هذه المدة المديدة ، فذلك شيء ، لا يطاق إلا في دورة قصيرة واحدة . ولذا فإنّ السفينة . كانت كما يحدث أحياناً ، هي الوسيلة المرجوة الوحيدة للإضطلاع بعقب المطاردة ، ومن ثمّ عمدت القوارب نحوها ورفعت في التوّالي معالقتها ، وكانت قد احتازت نصفي القارب المحطوم من قبل ، فرفع كلّ شيء الى جانبها ، وكومت جميع ما فيها من أشرعة في الأعالي ، ومدّت من جوانبها الأشرعة الجانبيّة الخفيفة كأنها جناحا البطروس المزدودين بمفصلين ، واشتدّت تجري في مخر مويبي ديك الذاهب في اتّجاه الريح .

وكان الرقباء في أعالي الصواري يهتفون بانتظام بأنهم رأوا نفاثة الحوت المتلألئة في فترات معروفة رتيبة فإذا قيل لأخاب أنه قمس توّاً ، عين الوقت . ثمّ أخذ يذرع ظهر السفينة ، وساعة صندوق الأبرة في يده ، فإذا انقضت آخر ثانية من الساعة المقدّرة سمع صوته يقول : « لمن القطعة الذهبية الآن ؟ هل ترونه ؟ » فإذا كان الجواب : « لا ياسيدي » أمرهم على التوّان أن يرفعوه الى مرقبه ، على هذه الحال تصرّم النهار : حيناً يكون آخاب في الأعالي جاثماً دون حراك ، وآونة يذرع الألواح قلقاً .

وحين كان يتمشّي كذلك دون أن يحدث صوتاً إلا أن يهتف بالرجال في الأعالي أو يأمرهم أن يرفعوا شراعاً الى ارتفاع أكبر ، أو ينشروه على عرضٍ أوسع - حين كان كذلك يتمشّي جيئة وذهوباً كان عند كلّ دورة يدورها وهو معتمر قبّعه المنكفنة يمرّ بقاربه المحطّم الذي كان قد أنزله على الربعة ، خلف الدقل الأعظم ، ووضع هناك مقلوباً ، مقدّمه مكسور وكوثله محطوم . وأخيراً توقّف أمامه ، وانسلّ فوق وجهه الشانخ مزيد من كآبة ، مثلما أن السماء الملبّدة بالغيوم يزحف على وجهها مزيد من أسراب جديدة من السحب في بعض الأحيان .

ورآه اسطب متوقفاً ولعله أراد دون أن يخامر الغرور أن يبدي عزمته التي لم تهن ويبقي لنفسه في ذهن قبطانه مكانة الباسل الشجاع ، فتقدّم منه ورمق القارب المحطوم وهتف : « الحمار رفض الشوكة . لقد وخزت فمه بحدة ياسيدي ، ها! ها! » .

- « أي شيء تعوزه الروح هذا الذي يضحك وهو قبالة شيء محطوم ؟ يا رجل ، يارجل! لو لم أكن أعلم أنك شجاع كالنار التي لاتعرف الخوف (ومثلها حركة آية) لأقسمت أنك جبان رعديد . يجب ألا تصدر أنة أو ضحكة أمام شيء محطوم» .

فقال استاريك وهو يدنومه : «أجل سيدي ، هذا منظر جليل ، إنه قال ، وإنه فال سيي»
- «فأل ؟ فأل ؟ - لفظة في المعجم! إذا كانت الآلهة ترى أن تحدث الإنسان دون التواء فإنها تحدثه بشرف ونزاهة صراحة دون التواء ، ولكنها لا تهز رؤوسها وتغمغم بتلميحات مبهمة كالتي ترسلها العجائز . انصرفا! أنتما قطبان متضادان في شيء واحد . . ليس استاريك إلا اسطب معكوساً ، وليس اسطب إلا استاريك معكوساً . وأنتما تمثلان جميع البشر . وآخاب يقف وحده بين ملايين الأرض المأهولة ، وليس له جيران من بشر أو آلهة! برد . برد . أرتجف! كيف ذلك ؟ أنتم في الأعالي هل ترونه ؟ اهتفوا كلما رأيتم نفثة حتى لو نفث عشر مرآت في الدقيقة!» .

كاد اليوم ينقضي ، ولاشيء ، يصدر حفيفاً سوى حواشي ثوبه الذهبي . وسرعان ماخيم الظلام أو كاد ، ولكن المراقبين بقوا في أمكتهم لايؤذن لهم .
فصاح صوت من الفضاء ، : «لانتطيع نرى النفاثة الآن ، سيدي ، الظلام حالك» .
- « كيف كانت وجهته عندما رأيتموه آخر مرة ؟ » .

- « كما كان من قبل ، سيدي ، عامداً نحو مهبّ الريح » .
- « طيب! مادام الليل قد حلّ فإنه سيتباطأ في رحلته . أنزلوا الأشرعة الملكية والعلوية النيلية من الأشرعة الجانية ياسيد استاريك ، علينا ألا نسبقه قبل الصباح ، إنه يقوم برحلة الآن ولعلّه أن يتوقّف مدة . الدفة هناك! اجعلها منصوبة تماماً أمام الريح! أنتم في الأعالي! انزلوا! ياسيد اسطب ، ابعث بديلاً الى قمة الصاري الأمامي ولاحظ أن يظلّ مزوداً بمراقب حتى الصباح » . ثم تقدّم نحو الدبلون المغروس في الصاري الرئيس وقال : « هذه القطعة الذهبية لي ، لأنني كسبتها ، ولكنني سأبقيها هنا حتى يموت الحوت الأبيض ، وأنى امرى منكم ينبىء به أولاً في اليوم الذي يقتل فيه فستكون هذه القطعة من نصيبه ، وإذا كنت أنا الذي أنبىء به في ذلك اليوم فإن عشرة أمثالها ستقسم فيما بينكم . انصرفوا! أنت القيم على ظهر السفينة ياسيدي» .

وما أن قال ذلك حتى وضع نفسه في موقع وسط داخل الناروذة وكفأ قبّعته ، ووقف هنالك حتى الفجر إلا أن ينهض بقامته أحياناً ليرى كم انقضى من الليل .

المطاردة - اليوم الثاني

عند بزوغ الصبح زودت رؤوس الصواري بحراس جدد في موعدهم وصرخ آخاب بعد أن انتظر قليلاً حتى ينتشر الضوء : « هل ترونه ؟ » .
- « لا ترى شيئاً ياسيدي » .

- « تضافروا جميعاً في نشر القلوع! إنه ليسير بأسرع مما قدّرت . انشروا الأشرعة العلوية النبيلة . أجل كان الحق أن أبقيا منشورة طوال الليل . لا بأس ، إنها الراحة قبل الإندفاع » .

لأقزر في هذا المقام أن هذه المطاردة المصابرة وراء حوت واحد ، والليل فيها يفضي الى النهار والنهار الى الليل دون توقّف ، إنّما هي شيء ، لاتعزّ نظائره في حرفة التحويت بالبحار الجنوبية ، ذلك أن بعض العباقرة العظماء بفطرتهم بين القباطنة النانتوكتيين قد أحرزوا من المهارة العجيبة ومن لقانة التجربة ومن الشقة الصامدة المرابطة ما جعلهم - إذا لحظوا الحوت محض لحظ في آخر مرة انكشف لأعينهم فيها - يتنبأون ، على نحو دقيق في ظروف معينة ، بالاتّجاه الذي سيظلّ ينحواه في سباحته فترة ما ، وهو غائب عن الأبصار ، وبمقدار السرعة المحتملة في تقدّمه أثناء ذلك . وفي هذه الأحوال يفعل الحوات بالنسبة للحوت ، وهو يرقب بوصلته ، ما يفعله الربان حين يوشك أن يختفي عن نظره ساحل يعرف سيفه حقّ المعرفة وهو يرغب في أن يعود اليه مرة أخرى ، لا في الموقع الأوّل بل في موقع اخر أبعد منه ، فهذا الربان يقف عند بوصلته ويقدر بدقة اتّجاه الرأس البادي لعينه حينئذ لكي يستيقن أنه إن عاد لزيارة الرأس المحجوب عن عينيه فإنه سيّخذ اليه مسلّكاً مسدداً لا يتحرف به يمنة أو يسرة .

كذلك هو شأن الحوات ، بعد أن يطارد الحوت ويميّزه بعلامة فارقة خلال ساعات

عديدة في ضوء النهار ، ثم يحلّ عليه الليل فينجب الحوت وراء ظلمته ، هذا الحوت يكاد يرتسم في عقله الراجح سياق مخر الحوت بدقة تحت الظلام ، كما يرتسم السيّف في ذهن الريان ، ويستوي في مهارة هذا الحوت - وهي مهارة مدهشة - النقش على الماء - أعني سياق المخر - والنقش في الحجر ، فهما لديه سيان من حيث الكفاية والغناء ، في كلّ مايراد منهما ، وإن ضرب المثل بقلّة غناء النقش على الماء . ألسنت ترى الرجال يعرفون «الحوت» الحديدي الجبار الحديث بكلّ خطوة من خطواته ويقدرّون . وساعاتهم في أيديهم . نسبة سرعته كما يقدرّ الأطباء نبض الطفل ويقولون في يسر : القطار المغادي أو القطار الرائح سيصل المكان الفلاني في الساعة الفلانية ؟ يكاد ذلك أن يكون هو عين ما يحدث لدى الصيادين من أبناء نانتوكت فإنهم في بعض الأحيان يوقّتون لحوت البحار حسب ما لحظوه من نسبة في سرعته ويقولون لأنفسهم : بعد كذا وكذا ساعة يقطع هذا الحوت مائتي ميل ، ويبلغ هذه أو تلك الدرجة العرضية أو الطولية . ولكن إن كان لهذه الحذاقة أن لا تغفل في النهاية فلا بدّ أن يظنّ البحر والرياح حليّفين للحوت . إذ ماذا تُغني الحذاقة عن ملاح سكن بحره أو واجهته الريح حين تؤكّد له أنه على بعد ثلاثة وتسعين فرسخاً وربع الفرسخ من الميناء ؟ وبعد فالحوت يستطيع أن يستخلص من هذه الحقائق أموراً دقيقة أخرى تناظرها فيما يتصل بصيد الحيتان ومطاردها .

ومضت السفينة تشقّ الماء ، مخلّفة في البحر تلمأ ، كأنها قبله مدفع طاشت فأتخذت سكة محراث فهي تشقّ الحقل المستوي أثلاماً .

وصاح اسطب : وحقّ الملح والقنّب! إن هذه الخفّة في حركة ظهر السفينة لتتسلّ في رجل المرء وتطنّ في القلب . أنا وهذه السفينة رفيقان باسلام - ها! ها! ليت أحداً يرفعني ويلقيني في الماء على ظهري ، أحلف بالبلوط الرطب أن ظهري أريئة . ها! ها! إننا نسير في طريق لايشور فيها غبار! .

- «هناك ينفث! ينفث! ينفث! أمامنا تماماً!» - تلك هي الصيحة التي أرسلها الحراس من رؤوس الصواري .

فصاح اسطب : «أجل ، أجل! عرفت ذلك - لن تنجو - انفث وفجر نفاتتك أيها الحوت! الشيطان نفسه في أترك . انفخ في بوقك حتّى تنقرّح رنتاك! أخاب سيهريق دمك مثلما الطحّان يغلّق منفذ الماء الشارع على الجدول!»

وكان اسطب يتحدث بهذا والملاحون جميعاً عن كسب ، وكان الحنق الذي أثارته المطاردة قد جاش بهم عندئذ جيشان الحبب ، كالخمر المعقّبة تبدأ صنعها من جديد . فما

كان أن أحسنَ به بمفهم قِبل من مخاوف وهواجس شاحبة لم تبقَ خفية عن الأنظار فحسب بسبب تزايد آخاب هيبة ، وإنما إنماثلت تلك المخاوف والهواجس كالأرانب المذعورة على السهوب وهي تذهب بدهاً أمام البيسون الجمّاز ، فقد اختطفّت يد القدر أرواحهم جميعاً وبالمخاطر المثيرة في اليوم السابق وعذاب الترقّب في الليلة الفائتة والطريقة العامدة العمياء السادرة المستأسدة التي ذهبت بها سفينتهم الوحشية غائصة تمرّ مرّ السحاب . بهذه الأمور جميعاً تدرجرت قلوبهم قدماً . أما الريح التي كانت تنفخ من أشرعتهم كروشاً ضخمة ، وتدفع السفينة بسواعد خفية لاتقاوم ، فقد بدت وكأنها رمز لذلك الفعّال الخفي الذي اتّخذهم عبيداً في هذا المضمار .

كانوا رجلاً واحداً لا ثلاثين ، كلّ تميّز فردي في كلّ امرئ، منهم ؛ شجاعة هذا وخوف ذاك ، إثم هذا وبراءة الآخر^(١) ، جميع هذه الأنواع امتزجت في وحدة واحدة ، ووجهت كلّها نحو الهدف المهلك الذي كان يسعى إليه سيدهم وسندهم آخاب . كانوا في ذلك شأنهم شأن سفينتهم فقد صنعت من أشياء متنافرة ؛ دخل في تركيبها الخشب من سندان وغرب وصنوبر ، والحديد والقار والقب ، وكلّ هذه تصافرت وتداخلت لتكوّن هيكلأ واحداً ملموساً ، ينطلق في طريقه مثزناً مستنداً على أريئة متوسطة طويلة توجهه أتى شاءت .

عمروا الأشرعة والحبال فديت فيها الحياة ، وأضحت رؤوس الصواري كقمم النخلات العمّ الطوال تصنع لها جمّة من سواعد وأرجل ، وكان بعضهم يتعلّق بالسارية بيد واحدة فيصل السارية الأخرى ، وهو يتأرجح متناوياً ، وآخرون جلسوا على أقصى الباحات المتأرجحة وهم يظّلون أعينهم من وهج الشمس ، كانت جميع الدعائم والسواري قد أثمرت بشراً ، وقد نضج ثمرها ، وحان أن تؤتي للقدر أكلها . يا لله! كيف مضوا يجاهدون خلال تلك الزرقة اللانهائية سميأ وراء ماقد يرددهم في هوة الأبد .

وصرخ آخاب بعد أن مضى على الهتف الأول بضع دقائق ولم يسمع هتافاً آخر : «لِمَ لاتهتفون إن كنتم ترونه ؟ إرفعوني يارجال ، لقد خدعتكم أبصاركم . ليس موبى ديك بالذي يبعث نفثة مستهجنة واحدة ثمّ يختمني » .

وقد صدق ، فإنّ الرجال في لهفتهم العافزة قد رأوا شيئاً ظنّوه نفاثة الحوت . وسرعان ما أيّدت الأحداث ذلك ، إذ ما كاد آخاب يبلغ مجثمه ، وما كاد الحبل يربط بالوتد المخصّص له على ظهر السفينة ، حتّى حرك مفتاح النغم لجوقة موسيقية جعلت الهواء

(١) في الأصل ، Guilt and guiltiness ، والكلمة الثانية يجب أن تكون Guiltless أي براءة .

يتذبذب كأنه وقع تحت طلقات بنادق مجتمعة . وسمعت هتفة ظاهرة . كأن ثلاثين بوقاً من جلد الغزال تنبعث معاً حين لاح موبى ديك - أقرب الى السفينة من النفاثة الكاذبة أي أقل من ميل الى الأمام - ، ذلك أن الحوت الأبيض لم يعلن حينئذ عن مكابته بالنفثات الهادئة المترخية . لم يعلن عنها بذلك الدفق المطمئن من تلك النافورة الخفية في رأسه . وإنما بتلك الظاهرة المدهشة التي يستونها الثوب العلوي . إذ يرتفع حوت العنبر بأقصى سرعته من أبعاد الأعماق ويمط جسمه كله في الهواء الخالص . مكديساً جبلاً من الزبد الباهر ويكشف عن موضعه على بعد سبعة أميال أو أكثر ، وتشبه أن تكون الأمواج الممزقة المحنقة التي يربتها في تلك اللحظات عرفاً له . ويكون هذا الثوب العلوي في بعض الحالات تحدياً .

وارتفعت الصيحة : « هناك يشب وثبته العلوية! هناك يشب وثبته العلوية! » وذلك حين قذف الحوت الأبيض نفسه في الفضاء كأنه سمكة سلمون ، مزهواً متحدثاً بنغمة شجاعة متطرقة . أما الرشاش الذي أثاره ، فقد شوهد فجأة في وضح الزرقة على بسط الماء ثم وهو يرتفع إزاء زرقة أشد في حاشية السماء . فتلاً وتوهج لحظة يزوغ عنه فيها البصر كأنه جبل من جليد ، وتلبث هنالك وحدة وهج الأول تتضاءل وتأفل تدريجياً . حتى تحول الى ضبابية غائمة كأنه سحابة توشك أن ترسل قطراتها في الوادي .

فصاح آخاب : « أجل . تب وثبتك الأخيرة نحو الشمس يا موبى ديك! دنت ساعتك ودنا من يدي الرمح الذي سيرديك! انزلوا! انزلوا جميعاً إلا واحداً في المقدمة . القوارب! تأهبوا! » - أغفل البحارة استخدام سلالم الحبال المملة عند القلوع وانزلقوا هابطين على ظهر السفينة كأنهم رجوم الشهب ، عن طريق الدعائم الخلفية المتفرقة وحبال الأعلام ، بينما أنزل آخاب من مرقبه في انطلاق أقل وسرعة أكثر .

ولما أن بلغ قاربه - وهو قارب احتياطي أعدت بعد ظهر اليوم الفائت - صاح : « انزلوا القوارب . السفينة في عهدتك ياسيد استارك ، ابق متحاشياً للقوارب ولكن كن قريباً منها . انزلوا قواربكم جميعاً! » .

وكانما أراد موبى ديك أن يلقي رعباً وحيماً في قلوب العصب الثلاث من الملاحين . إذ كان هذه المرة هو البادئ ، بالهجوم فقد استدار وتقدم نحوهم . وكان قارب آخاب متوسطاً . فأخذ يشجع رجاله ويخبرهم أنه سيعمد الى أخذ الحوت «رواسي» . أي أنه سيجذب عامداً نحو جبهته - وهو شيء غير شاذ في التحويت ، فمثل هذا المسلك على بعد معين يمنع الحوت من أن يرى الهجمة القادمة لأن رؤيته جانبيه لارأسية . ولكن قبل أن تبلغ القوارب الثلاثة ذلك الحد ، وفيما هي واضحة لعيني الحوت كأنها الصواري الثلاثة في السفينة ،

تمنح مويبي ديك وتلوى في سرعة هانجة وفي لمح البصر اندفع منطلقاً بين القوارب الثلاثة وفكاه فاعران وذنبه يتقلب كالسوط وهو يطلب النزال على كل جانب في معركة مفزعة غير عابئة بالحرب التي تُقذف نحوه من كل قارب ، وكأنما هو قد صمم على أن يفني كل لوح من ألواح تلك القوارب ، ولكن القوارب داورته بمهارة وظلت تدور دون توقف كأنها مهاجمون مدرّبون في ميدان ، وتروغ من طريقه وإن كان روغانها لاينأى بها عنه أكثر من عرض لوح خشبي ، أما نداءات آخاب الوحشية طوال ذلك الوقت فقد كانت تمرق كل صيحة أخرى سوى صيحة الحوت نفسه وتلقبها بدداً .

ودار الحوت دورات لم تخلف أثراً فاجتاز الحبال الثلاثة العالقة به وأعاد اجتيازها ، وعقد أجزاءها المرخاة في ألف طريقة حتى قصر مداها ، فقربت هي القوارب المتحصنة من الشفار المغروسة فيه ، وإن كان الحوت قد انتحى جانباً لمدى لحظة كأنه يستجمع لإنقراض مريع . وانتهز آخاب هذه الفرصة فأرخی مزيداً من الحبل ثم أخذ يجزّه وينخه - أملاً منه أن يفك بعض تعقيدهاته - ولكن مهيم! لقد تمّ منظر أشدّ وحشية من أنياب القرش المتراصة! ذلك أنّ الرماح والحرب التي انحلت ، بكلاياتها الشائكة وشفراتها المشحودة ، علقت بالحبل والتوت فيه وتداخلت بين تشابكاته التي جعلتها كالبريمة ، وومضت لامعة تقطر ماء ، عند خطافات المقدمة في قارب آخاب . وما كان في مقدرته أن يعمل إلا شيئاً واحداً ، فأمسك بسكين القارب ووصل بشيء من عسر دون تلك الأدوات الفولاذية ثم من ورائها ، وقبض على الحبل هنالك وجزّه وأمرّه في القارب الى الرجل القائم عند المقدمة ، ثم قطع الحبل في موضعين عند الخطافات ، وأسقط تلك الحزمة الفولاذية في البحر وربط الحبل مرة أخرى . وفي تلك اللحظة قام الحوت الأبيض بهجمة مفاجئة بين التشابكات الباقية في الحبال الأخرى ، وبهذا العمل جرّ قاربي فلاسك واسطب المتورطين دون أن يستطيعا المقاومة نحو شطيرتي ذنبه ، وضرب أحدهما بالآخر كأنهما ثفالتا قمح متدحرجتان فوق أوادي شاطيء صخري ، ثم قمس في الماء واختفى في دردور جيش الغليان ظلت فيه شظايا الشربين الشذي من القاربين المحطمين تتراقص وتدور - على مدى - كأنها شذرات من جوزة الطيب في كأس من شراب البنش يحرك بخفة .

وكان أفراد عصبتي الملاحين مايزالون يدورون في الماء سميماً وراء براميل الحبال المتقلبة والمجازيف وغيرها من أدوات العموم ، وفلاسك الصغير الجسم في انحدار يهتز صاعداً هابطاً كأنه قارورة فارغة ، مقرصاً رجليه الى أعلى لينجو من فكوك القرش المخوفة . واسطب يغني بحرقه لعلّ أحداً ينتشله ، وحبل القبطان الشيخ ، وقد انفصل ، يمكنه من

التجذيف في البركة المزبدة لينتقد من يقدر على إنقاذه ، في ذلك الجو الصاري الذي تحتشد فيه معاً آلاف المخاطر لتتجسد ملموسة ، بدا وكأن القارب الذي مايزال سليماً ، قارب آخر ، تجره نحو السماء ، أسلاك خفية ، ومن البحر عمودياً انقض الحوت الأبيض منطلقاً إنطلاقاً السهم ، فقدم بجبهته الواسعة قاعدة القارب وأرسله متدرجاً متقلباً في الفضاء حتى سقط ثانية وحافته منكسة ، وآخاب ورجاله يناضلون للخروج من تحته كأنهم حيوانات الصيل يحاولون الخروج من كهف في شاطئ بحر .

وكان أول زخم دافع للحوت قد ألقاه فوق السطح لا إرادياً فعدل من وجهته حين لامس السطح ، على مسافة سيرة من مركز الخراب الذي أحدثه ، واضطجع وهو مستدبر له لحظة يتحسس في بطنه ويتقرى بذنبه من جانب الى اخر ، وكلما لامس جلده مجداف ضال أو قطعة من خشب أو أقل شظية أو شذرة ، انحاش ذنبه متراجعاً وأخذ يلطم به البحر على الجانبين . وكأثماً أرضاه أنه أدى عمله وانتهى منه في تلك النوبة فدفع على التو خطمه المغضن خلال المحيط ، وخلفه تنسحب الجبال المعقدة ، واستمر في طريقه وجهة الريح وكأنه رحالة يمشي بخطى منتظمة رتيبة .

ومرة أخرى جاءت السفينة وقد رقت المعركة كلها - كما فعلت من قبل - مخفة للإنقاذ ، وأنزلت قارباً التقط الملاحين العائمين والبراميل والمجاديف وكل ما أمكن بلوغه والتقاطه وأمتهم على ظهرها سالمين ، أعني سلامة من الموت ، وإلا فقد كان فيهم أكتاف وأرساغ وأعقاب كلها مرضوضة ، وكدمات مزرقة وكانت هناك رماح وحراب معوجة ، وحبال معقدة لا يمكن حلها ، ومجاديف والنواح محطمة ، جميع هذه كانت هنالك ، ولكن يبدو أنه لم يصب أحد منهم بسوء مميت أو خطير ، وقد جاء آخاب متشبثاً في عناد بنصف قاربه المكسور ، كما فعل فيض الله في اليوم السابق ، وكان ذلك يهيب ، له عوامة مريحة نسبياً . بل إنه لم يصب بالإنهاك كما حدث في كارثة اليوم المنصرم .

غير أنه حين أعين على الصعود الى ظهر السفينة تركزت فيه جميع العيون ، وبدلاً من أن ينتحي جانباً ظلّ شبه معلق على كنف استاربك وكان حتى عهدئذ في طليعة من يقدمون له المساعدة . أما رجليه العاجية فقد انقصت ولم يبق منها إلا شظية محددة قصيرة .

« أجل . أجل . أجل يا استاربك ، جميل أن يثكى المرء أحياناً أياً كان هو الذي يثكى ، وليت آخاب الشيخ تذوق الإثكاء أكثر مما فعل » .

فقال النجار وكان قادماً حينئذ : « طوق الحديد لم يتحمل شدة ياسيدي ، لقد أخلصت العمل في هذه الرجل » .

وقال اسطوب في اهتمام صادق : « أرجو ألا يكون العظم قد أصيب ياسيدي » .
- « أجل! تراها وقد انتصفت شظايا يا اسطوب! تراها ؟ ولكن أخاب الشيخ لم يصب بشيء ، ولم تنكسر له عظمة واحدة وليس في ذرة من عظم تشبهني مثل هذه العظمة الميتة التي فقدتها . لا أحد ، حوتاً أبيض أو إنساناً أو شيطاناً ، يستطيع أن يكشط شيئاً من كيان أخاب الصحيح الذي تتقاصر دونه الأيدي . أيستطيع الرصاص أن يلمس ذلك القاع ، أ يستطيع سارية أن تخدش ذلك الجلد ؟ أنتم في الأعلى! ما وجهته ؟ » .
- « عامد وجهة الريح ياسيدي » .

- « عدل الدقة اذن ، احشدوا الأشربة مرة أخرى ، ياقوام السفينة ، انزلوا ماتبقى من القوارب الإحتياطية وجهزوها . اذهب ياسيد استارك واجمع ملاحى القوارب » .
- « دعني أساعدك أولاً على بلوغ الحافة ياسيدي » .
- « آه ، آه ، آه! ماأشد ماتؤلمني هذه الشظية! باللقد الملعون! كيف يكون للقطبان الذي لا تنهزم روحه رفيق جبان! » .

- « مايقول سيدي ؟ » .
- « لا أعنيك أنت يارجل ، إنما أعني جسدي . أعطني شيئاً أتوكأ عليه ، تلك الحرية المترجرجة تصلح . اجمع الرجال . يقيناً لم أره بعد ، وحق السماء هذا مستحيل! ضاع ؟ أسرع! ادعهم الي جميعاً » .
كانت الخاطرة التي ألمت بالشيخ صحيحة فعندما اجتمع الرجال لم يكن اليارسي بينهم .

وصاح اسطوب : « اليارسي! لا بد أنه علق في... » .
- « ذرعكم القيء الأسود! اركضوا جميعاً الي فوق . الي أسفل . في القمرة . في المنارة ، اعثروا عليه - لم يذهب - كلا لم يذهب! » .
ولكنهم رجعوا في سرعة ليخبروه أن اليارسي لا أثر له أبداً .
فقال اسطوب : « أجل ياسيدي علق في تشابك حبلك - أظنني رأيت مسحوباً الي أسفل » .

- « جبلي! جبلي أنا ؟ ذهب ؟ اذن ذهب ؟ ماذا تعني هذه الكلمة الهيئة ؟ أي جرس جنازة يدق فيها حتى أن أخاب الشيخ ليرتعش كأنه برج الجرس! والرمح أيضاً يتقلب فوق التابوت هنالك ، هل ترونه ؟ السنان الذي أعدته يارجال ، لقتل الحوت الأبيض - لا ، لا ، لا ، يالك من أحمق متفرح! هذه اليد قذفته! إنه في الحوت! أنتم في الأعلى! اغرسوا أعينكم

فيه ، - أسرعوا! ليذهب الجميع لإعداد القوارب - اجتمعوا المجاذيف - يازراقين! الشفارا!
الشفارا! - ارفعوا الأشرعة الملكية أعلى فأعلى - شدوا القلوع! الدفة! ثبات! ثبات من أجل
حياتكم! سأطوق الكرة الأرضية المستفيضة بالدوران عشر مرات وأغوص عامداً خلفها . إلا
إني مصمّم على قتله! » .

فصاح استاريك : « يالله! لحظة واحدة كفّ عن القول بأنك ستقتله ، لن تقتله أيها
الشيخ ، باسم المسيح حسبك ، فهذا شرّ من جنون الشيطان . طاردناه يومين ، وانشقت
قواربنا مرتين الى شطايا ، حتّى رجلك اختطفت من تحتك مرة أخرى - لقد بارحك شبحك
الشرير - كلّ الملائكة الأبرار يتألّبون لتنبهك بالندى فأيّ مزيد تريد ؟ أنظّل نطاردها هذا
الحوت القتال حتّى يفرق آخر شخص فينا ؟ أيسحبنا الى قعر البحر ؟ أيجرّنا معه الى دركات
العالم الأدنى ؟ آه آه ، إن المضي في مطاردته جحود وكفر! » .

- « استاريك! منذ عهد قريب أحسست بمشاعري تقترب منك على نحو غريب ، منذ
تلك اللحظة التي رأينا فيها أحدنا - وأنت تعرف مارأينا - في عيني الآخر . ولكن ليكن
وجهك لي في أمر هذا الحوت كراحة هذه اليد ، سطحاً لاشفة فيه ولا قسّات ، إن آخاب
سيظلّ هو آخاب الى الأبد يارجل ، هذا العمل كله مقدور على نحو لا يتبدّل ، فقد حفظناه
وتلوناه أنا وأنت قبل أن تتقلّب أمواج هذا المحيط ببلايين السنين . أحمق! أنا ساعد
الأقدار ، أنا أنتمر بأمرها ، اسمع أيها التابع المرؤوس ها أنت تطيع أوامري . - تحلقوا حولي
يارجال ، أنتم ترون شيئاً قد قطع جذعه ولم يبقَ إلا جذمه يتكوى ، على قناة حربة لينة تهتزّ ،
ويستند على قدم واحدة . ذلك هو آخاب . ذلك هو الجزء الجسدي منه ، أما روح آخاب
فإنها ذات منة قدم تمشي على منة رجل . أنا أحسن بالتوتّر وبأني جانح خال كالجبال التي
تربط فرقاطة حطمت صواريخها في العاصف ، وقد أبدوا لكم كذلك . ولكنني قبل أن أنقطع
فإنكم ستسمعون فرقة . واعلموا ، حتّى تسمعوها ، أن موّصار آخاب ما يزال موثقاً الى
هدفه . أتصدّقون أيها الرجال ما يسمّونه الفأل والطيرة ؟ اذن فجلجلوا بالضحك وصيحوا ثانياً!
الأشياء التي تهتم بالفرق ترتفع مرتين الى السطح قبل أن تفرق ، لكي تفوص الى الأبد .
كذلك هو شأن موبى ديك - عام يومين ، وغداً يومه الثالث . أجل يارجال سيبحر مرة أخرى
- لا لشيء ، إلا ليلفظ آخر نفثة . هل تحسّون أيها الرجال الشجعان أنكم شجعان ؟ » .

فصاح اسطب : « كالنار جراءة » .

وتمتم آخاب : « ومثلها آية » . ثم مضى يتمّم والرجال يذهبون الى الأمام : « الأشياء
التي تسمى فالاً وطيرة! وأمس قلت الشيء ، نفسه لستاريك حول قاربي المكسور آه! كم

أسعى بجرأة لأسكب في قلوب الآخرين ما يتشبّث متعلقاً بقلبي! البارسي . البارسي! ذهب .
ذهب ؟ وكان لابد أن يذهب قبلي ، ولكن لابد أن أراه مرة أخرى قبل أن أموت - كيف
ذلك ؟ ها هنا لغز قد يرد جميع الحقوقيين ومن ورائهم أشباح جميع القضاة خاسنين
حائرين . وهو ينقر ذهني كأنه منقار الصقر ، لكني أنا الذي يحله ولايد .
وحين حلّ الغسق كان الحوت مايزال يتّجه نحو المهبّ . ومرة أخرى خففت سرعة
الإقلاع ومرّ كل شيء ، كما مرّ في المرة الفائتة إلا أن صوت المطارق وطنين المسنّ كان
يسمع حتى يكاد ينبجج الصباح إذ كان الرجال يكذّون على ضوء القناديل في إعداد القوارب
الإحتياطية إعداداً كاملاً دقيقاً ويشحذون أسلحتهم من أجل الغد . وفي الوقت صنع النجار
لأخاب من الأريئة المنكسرة في قاربه المحطم رجلاً أخرى . أما آخاب نفسه ذو القبعة
المنكفنة فوقف ، كما وقف في الليلة الماضية ، ثابتاً داخل نطاق الناروزة ، وعينه المختبئة
المترقبة - كأنها عبّاد الشمس - قد ركّزت خلفاً على المزولة في توقّع وانتظار ، وجلس
قبالة المشرق يتطلّع متى يبرز أول خيط من الضياء .

المطاردة - اليوم الثالث

تَبَجَّ صباح اليوم الثالث جميلاً ناعشاً ومرةً أخرى انتهت نوبة الحارس الليلي الوحيد القائم عند قمة الصاري الأمامي ، وحلَّ محله جموع من رقباء النهار تعلقوا بكل صارٍ وتشبثوا بكل دعامة .

وصاح آخاب : « هل ترونه ؟ » ولكنَّ الحوت لم يكن قد لاح بعد .

- « لايجيد عن مساق مخره ، اتبعوا ذلك المخر ، الدقة هناك! تَحَبَّثْ وأنت ذاهب مثلما كنت تفعل حتَّى الآن . ما أجمل هذا اليوم! لن يشرق على العالم يوم أجمل منه حتَّى ولو خلق هذا العالم من جديد وأعدَّ بيتاً يأوى إليه الملائكة في الصيف ، وجعل هذا الصباح أوَّل يوم يستقبلهم فيه . ها هنا غذاء للفكر لو كان لدى آخاب ندحة للتفكير ، إلا أن آخاب لايفكر أبداً انه ، يشمر ، يشمر ، يشمر وحسب ، وهذا حسب الأدمي الذي قدَّر عليه الموت! أما التفكير فإنه قحة . وليس هذا إلا حقاً وميزة لله وحده ، فالتفكير برود أو هدوء أو يجب أن يكون كذلك ، وقلوبنا المسكينة تخفق ، وأدمتنا المسكينة تجاوبها بقوة في ضرباتها . ومع ذلك فقد خنيلَ التي أحياناً أن عقلي هادي . هادي . متجمد - وهذه الجمجمة المسنة تقف كإنها زجاجة تحولت محتوياتها الى ثلج وأنت تهزها . وهذا الشعر نام ، ومايزال ينمو في هذه اللحظة ، ونموه يتطلَّب حرارة ، ولكن لا ، إنه كذلك النوع المعروف من العشب الذي قد يتمو في أي مكان ، بين وهدات الجليد في جرينلاند أو في حمم فيزوف . كيف تحركه الريح! إنها لتسوطني به كقطع ممزقة من شرع مشقوق تسوِّط السفينة المتقلبة وهي به متشبَّته . ريح غادرة هبَّت ولاريب قبل اليوم خلال دهايز السجون وزناناتها وأقبية المستشفيات ، وجددت تهويتها وها هي تهبُّ الينا برينة كأنها جزر الصوف . اطردوها! إنها ملوثة . لو كنت ريحاً لما مضيت أهبَّ على هذا العالم التمس

الشرير ، إذن لرحفت الى كهف وتسللت داخلاً فيه ، ومع هذا فهذه الريح شيء ، سام بطولي! من ذا استطاع أن يغلبها ؟ في كل معركة تقوم بالضربة الفيصل المريرة ، اهجم عليها طعناً تجد نفسك بين ثناياها . ها! رعديدة هي الريح التي تضرب الأدميين العراة عرياً تاماً ثم لا تقف لتتلقى ضربة واحدة ، حتى آخاب أقوى مراساً منها ، وأسمى من مثل سلوكها . ليت الريح كانت ذات جسم ، ولكن كل الأشياء التي تكاد تزهرق الأدمي وتثير سخطه إنما هي أشياء الأجسام لها ، لأجسام لها إذا اعتبرتها موضوعاً لاحتين تعتبرها فعالة . ثمة فرق بين الحالين . فرق بالغ المكر ، بالغ الخبث! ومع ذلك فأني أقول ثانية وأقسم على ما أقول إن في الريح شيئاً كله عظمة وكله جلال . هذه الرياح التجارية الحارة ، على الأقل ، التي تهب في أثناء صفاء الجو على استقامة في وداعة قوية صامدة نشيطة ، لتتحول عن مجراها مهما تتحول تيارات البحر الدنيا وتبذل ، ومهما تتعرج الأنهار الجبارة الكبرى على اليابسة وتسرع غير مستيقنة الى أين تشجه في النهاية . وحق القطبين الخالدين! إن هذه الريح التجارية نفسها التي تسوق سفينتي ، هذه الرياح أو مايشبهها ، شيء لا يحول . مثلها اكتمالاً وقوة هو الذي يسوق سفينة روعي في وجهتها! اليه! أنتم في الأعالي! ماذا ترون ؟» .

- « لا شيء ، ياسيدي » .

- « لا شيء ، والظهر قريب! القطعة الذهبية ستجد رجلاً يستحقها! أترون الشمس! أجل أجل ، فهمت ، لقد تجاوزته في الإبحار . كيف ؟ هل تسلّم زمام المبادرة ؟ أجل إنه الآن يطاردني ، لست أنا الذي أطارده . هذا سيئ ، كنت أقدّر ذلك . أحقق! الحبال - الرماح يجرها الآن . أجل . أجل لقد تجاوزته الليلة الماضية . حولي! حولي! انزلوا جميعاً إلا أصحاب النوبة! زودوا حلقات الحبال بالرجال! » .

كانت الريح والياقوطة مبحرة تصيب ربعها فلما عكست اتجاهها أصبحت السفينة المشدودة الحبال تواجه السمات متمسقة وهي تشني الزبد في مخرها الأبيض عائدة . وتمتم استاريك لنفسه وهو يلف الجبل الجديد الرئيسي في حلقتة على الحافة : « ضد الريح يبهر سائراً الى الضم الفاغر . حمانا الله . حمانا الله . غير أن عظامي تترشح رطوبة في داخل جسمي وتبلل اللحم من داخل ، أنا لا تخامرني ريبة في أنني أعصي الله إذ أطيعه! » . وصاح آخاب وهو يقترب من زنبيل المصيص : « قرب لكي ترفعني الى أعلى ، علينا أن نواجهه حالاً » .

- « أجل ، أجل ياسيدي » . وامثل استاريك أمره توأ مرة أخرى كان آخاب يتأرجح مرتفعاً .

مضت ساعة كاملة ، طرقت كما يطرق الذهب وسحبت فإذا هي عصور . وتجرع الزمن نفسه أنفاساً طويلة من الهواء وهو في هيئة ترقب حاد ، وأخيراً رأى آخاب النفاثة ثانية على بعد ثلاث درجات من مقياس الطقس . وعلى التو سمعت ثلاث زعقات من قمم الصواري انطلقت وكانَ ألسنة اللهب هي التي نطقت بها .

- « جبهة لجبهة سأقابلك للمرة الثالثة ياموبي . أنتم يامن على ظهر السفينة ، جزوا الحبال في حلقاتها ، احشدوها في عين الريح . مايزال أبعد من أن ينزل إلينا قواربه ياسيد استاربك . الأشرعة تهتز! قفوا فوق قيم الدفة ومعكم المطرقة الكبيرة! هكذا ، هكذا . يبهر بسرعة ، وعلي أن أنزل للقاتنه . ولكن لألق نظرة هنا على البحر وأنا في الأعلى . مايزال لدي وقت كافٍ . منظر قديم هرم ومع ذلك فإنه شاب جديد . لم يتغير قلامة ظفر منذ رأيت أول مرة وأنا غلام من كيبان ناتوكت! المنظر نفسه! نفسه . سيان هو في عيني نوح وفي عيني . ثمة رذاذ ناعم مع المهب . ما أحبة هذه الوجوهات التي تذهب فيها الريح ، لا بد أنها تقود الى مكانٍ ما ، الى مكان غير هذه الأرض المبتدلة . أكثر نخلية من النخيل ، مع الهبوب! الحوت الأبيض يذهب في تلك الوجهة ، اذن فانظر ضد الريح ، تلك هي الناحية الفضلى وإن كانت أمر الناحيتين . لكن وداعاً وداعاً يا قامة الصاري القديم! ما هذا ؟ - الأخضر ؟ أجل طحالب دقيقة انتسجت في هذه الصدوع التي تمرّ فيها الحبال . مثل هذه الخضرة لا يلوت رأس آخاب! ذلك فرق ما بين هرم الإنسان وهرم المادة ، لكن أجل أيها الصاري كلانا نهزم معاً ، أمّا الهيكلان فإنهما سليمان ، أليس كذلك ياسفيتي ؟ إلا رجل مفقودة ، ذلك كل ما هنالك ، وحق السماء إن هذا الخشب الميت لخير حالاً من لحمي الحي من كل وجه ، فلا أستطيع أن أقارنه به ، لقد عرفت سفناً صنعت من أشجار ميتة عاشت عمراً أطول من أعمار رجال صنعوا من « أحياء » مادة حيوية كانت لدى آبائهم الحيويين . ما ذاك الذي قاله ؟ إنه يجب أن يذهب قبلي ، فهو ربيتي ، وإنه سيرى ثانية ؟ لكن أين ؟ أيكون لي عينان تبصران في قاع البحر إذا نزلت هذه الدركات التي لا تنتهي الى قرار ؟ وها أنا طول الليل أبحر نائياً عنه ، أيان غاص . أجل ، لقد أخبرت حقيقة مريعة عن نفسك وكثيراً من حقائق أخرى يا بارسي! ولكن ماتنبتات به لأخاب قصر عن المدى . وداعاً يا قامة الصاري ، ارقبي الحوت بعين يقظة ، مادمت غائباً . سنتحدث غداً ، لا ، بل الليلة حين يكون الحوت الأبيض ممدداً هناك مربوط الرأس والذنب . »

وألقى الأمر بالنزول وكان مايزال يتلفت حوله وهو ينزل متمكناً شاقاً الهواء الأزرق . الى ظهر السفينة .

وأُنزلت القوارب في الوقت المناسب ، وفيما كان آخاب واقفاً في كوثلة الشالوب وهو يهيم أن يضع رجله في موقع النزول ، لوح بيده للضابط الذي كان يمسك أحد حبال المرافع على ظهر السفينة وأمره أن يتوقف .

- «استاربك!» .

- «سيدي؟» .

- «لثالث مرة تبدأ سفينة روحي هذه الرحلة يا استاربك» .

- «أجل يا سيدي ، إنك أنت الذي تريد ذلك» .

- «بعض السفن تبحر في موانئها ، ومن ثم تصبح مفقودة الى الأبد يا استاربك!» .

- «صحيح ياسيدي ، تلك حقيقة مؤسفة» .

- «بعض الناس يموتون عند الجزر ، بعضهم في مياه ضحلة ، بعضهم عند طغيان

الماء . وأنا أحسن الآن كأني موجة ، كلها عرف مقنزع ، يا استاربك . أنا هرم - صافحي

أيها الرجل» . وتلاقت يدهما ، والتحمت عيونهما وكانت دموع استاربك هي الغراء الذي

دبت بها معاً . «آه يا قبطاني ، يا قبطاني! يا ذا القلب النبيل ، لا تذهب ، لا تذهب! أترى ، إن

هذا الذي يبكي أمامك رجل شجاع ، فما أشدّ عذاب الإقناع إذن!» .

فصرخ آخاب وهو ينفذ ذراع الضابط عنه : «اتزلوا القوارب! ليتأهب الملاحون!» .

وفي لمحة كان المجذفون يعملون القارب على كشب مكائب من جهة الكوثلة ، وصاح

صوت من نافذة القمرة السفلى : «القرش! القرش! سيدي ، سيدي ، ارجعوا!» .

غير أن آخاب لم يسمع شيئاً إذ كان صوته نفسه عالياً حينئذ ، وجمز القارب مبتعداً .

لكن الصوت لم يقل إلا حقاً ، إذ ماكاد القارب يبتعد عن السفينة جثى كانت أعداد

من أسماك القرش ، كأنما برزت من المياه السوداء تحت هيكل السفينة ، تنهش بحقد

شفرات المجاذيف كما اغمست في الماء ، وعلى هذا المنوال رافقت القارب بنهشاتها .

ذلك شيء ، مألوف حدوثه لقوارب التحويت في تلك البحار المحتشدة ، إذ تلحقها أسماك

القرش أحياناً ظاهرة للعيان على النحو التنبؤي الذي تحوم فيه الطيور الكاسرة فوق رايات

الكتائب الزاحفة في الشرق . ولكن هذه القرشان تراها الباقوطة منذ أن أبصرت الحوت

الأبيض أول مرة . لقد كان ملاحو آخاب همجاً صفرأ كالنمور ، ترى هل كان لحمهم أشدّ

شدئ مسكياً من أنوف القرشان ، وهو أمر يؤثر في نفوس هذه الحيوانات أحياناً كما هو

متعارف ؟ أياً كان الأمر فإنها مشت في أعقاب ذلك القارب وحده ولم تقترب من القوارب

الأخرى .

وتمتم استاريك وهو يحدق من على حافة السفينة ماداً عينيه نحو القارب المتقهقر ؛
« يا قلباً من الفولاذ الخالص! أما تستطيع أن ترنّ في جسارة عند هذا المنظر؟ تنزل قاربك
بين القرشان الفراسة وهي تبعد فاعرة الأفواه الى الصيد ، وهذا اليوم الثالث العصيب ؟ ذلك
أنه إذا مضت ثلاثة أيام في مطاردة حادة دائبة فكن على يقين أن أول يوم فيها هو الصباح
وثانيها هو الظهر وثالثها هو المساء وهو نهاية ذلك الأمر - أياً ماتكون النهاية . ربنا! ما
هذا الذي ينطلق من داخلي ويجعلني في هدأة الموت متلبساً أتوقع - مصلوباً على وشك
الإرتعاد! شؤون المستقبل تطفو أمام عيني كأنها في هينات فارغة وهياكل ، والماضي كله قد
غدا مبهماً . ماري يافتاتي ، إن صورتك قد انبهمت في الأمجاد الشاحبة من ورائي . وأنت
يابني! يبدو أنني لأرى إلا أن عينيك قد غدتا زرقاوين جذابتين . تتكشفت أغرب مشكلات
الحياة لعيني ولكن السحب تحول بيني وبينها . أنهي رحلتي آتية ؟ رجلاي يسري فيهما
الإعياء كالذي ظلّ طول يومه يمشي . تحسن قلبك - أتراه ما يزال يخفق ؟ حرك نفسك يا
استاريك - شقه نصفين ، حركه ، حركه! ارفع صوتك بالكلام! أنت يا قامة الصاري! هل ترين
يد ابني على الرابية ؟ جننت - أنتم في الأعالي! ابقوا عيونكم يقظة مفضحة على القوارب -
عائنوا الحوت جيداً هو !ثانية! اطرودوا ذلك الصقرا! ترونه! إنه ينقر - إنه يمزق دوار الرياح
- يشير الى الراية الحمراء التي ترفرف عند التويج الرئيسي - «ها! ها هو يفرز بها! أين
الرجل الشيخ الآن ؟ هل ترى هذا المنظر يا آخاب! - رعشة ، رعشة» .

لم تكن القوارب قد أبعدت كثيراً حين صدرت إشارة من قمة أحد الصواري وامتدت
ذراع تشير الى أسفل ، عرف منها آخاب أن الحوت قد قمس ، ولكنه رغبة منه في أن
يقترّب منه لدى بروزه ، ظلّ ذاهباً في طريقه منحرفاً قليلاً عن المركب ، وظلّ الملاحون
المأخوذون في صمت عميق حين كانت الموجات الرأسية تدق وتدق على مقدم القارب .
«اغرزي ، اغرزي مساميرك أيتها الأمواج حتى نهاياتها ولكنك تدقّينها في شيء لاغطاء
له ، ولن يكون لي تابوت أو عربة جناز ، لا يقتلني إلا القنب ، ها! ها!» .

وفجأة انتفخت المياه من حولهم ببطء ، في دوائر واسعة ثم ارتفعت بسرعة كأنها تنحدر
عن جوانب جبل جليدي غاطس في الماء ، ناهض بسرعة الى السطح . وسمع صوت خافت
مدمد ، ثم طنين تحتاني ، ثم حبس كل منهم أنفاسه اذ انطلق جسم مديد طولياً على
مواربة من جوف الماء ، وهو مشعث بالحبال المجرورة وقد تلّفّع في حجاب رقيق متهافت من
الضباب ، ثم سقط متمكاً في الماء .

تناثر الماء في الجو على ارتفاع ثلاثين قدماً وأومض لحظة كأنه أكداس من النوافير .

ثمّ تهاوى منكسراً في زخه من الندف المتناثر تاركاً السطح المنداح مزيداً كالحليب الطازج حول جذع الحوت الرخامي .

صاح آخاب في المجدّفين : « وسنوعو المدى ! » وانطلقت القوارب متقدمة للهجوم ولكن موبى ديك كان قد ثار ثائره بالشفرات الجديدة التي أخذت تأكل منه منذ أمس فبدا وكأنما تلبّست به مجتمعة كلّ الملائكة التي طردت من الجنة . وبدت الخطوط الواسعة من العضلات المتلاحمة المنتشرة في جبهته العريضة البيضاء تحت بشرته الشفافة وكأنها قد انعمدت معاً ، واجتاز رأسه القوارب فأخذ يتلقّب بذنبه فيما بينها ، ومرة أخرى دقّها ففرقعتها نائراً من قاربي الضابطين ما هنالك من شفرات وحراب ، ومندفعاً في جانب من الجزء العلوي من مقدّميهما غير أنه خلى قارب آخاب دون أن يحدث فيه خدشاً .

وبينا كان دغة وكويكوج يوقمان الألواح المضغوطة والحوت يسبح مبعداً عنها ، فقد دار وأبرز زعنفة كاملة حين انطلق من جانبها ، في تلك اللحظة صعدت صيحة سريعة : رؤى جسم البارسي الممزق مربوطاً في عدة مواضع الى ظهر الحوت ، إذ كان الحوت في الليلة الماضية قد لفّ حوله لفائف الحبال فقيده بها وهو يدور طاقاً فوق طاق ، وقد أصبحت مسوحة السود ممزقة إرباً إرباً وعيناه المنتفختان قد استدارتا مصوّبتين الى آخاب .

سقط الرمح من يده .

وأخذ نفساً طويلاً نحيلاً وهو يقول : « مخدوع! مخدوع! أجل يا بارسي! ها أنا أراك ثانية - أجل وأنت ريبنتي ، تتقدمني ، وهذه إذن ، هذه هي عربة الجنائز التي أنبأت بها . ولكنني أحاسبك على كلّ كلمة قلتها . أين العربة الثانية ؟ امضيا ، أيها الضابطان ، الى السفينة . هذان القاربان قد أصبحا قليلي الجدوى . أصلحاهما إن استطعتما في الوقت المناسب وارجعا اليّ ، فإذا لم تستطيعا فحسب الموت أن يستقبل آخاب . انزلوا يا رجال! أول شيء ، يقفز من هذا القارب الذي أنا فيه ، فإنني أقذفه بالمزراق . لستم أنتم رجالاً آخرين وإنما أنتم ساعداي ورجلاي ولذا أطيعوني . - أين الحوت ؟ هل قمس مرة أخرى ؟ » .

ولكن موبى ديك بدا بالغ القرب من القارب ، إذ كان يسبح ثانية الى الأمام في ثبات كأنما انتوى أن يذهب هارباً بالجة التي يحملها أو كأن موقع الجولة الأخيرة لم يكن سوى مرحلة في رحلته تحت الريح . وكان قد تجاوز السفينة التي كانت حتى هذا الوقت تبخر في اتجاه مضاد له وإن كانت قد توقفت حينئذ عن المضي في وجهتها . وبدا أنه يسبح بأقصى ما لديه من سرعة وأنه لاينوي إلا المضي في طريقه المستقيم في الماء .

وصاح استاريك : « أه! يا آخاب لايزال لديك ندحة من وقت ، حتى هذه اللحظة ، في

اليوم الثالث ، أن تكف عنه . تأمل! إن موبى ديك لا يطلبك . إنما أنت الذي تطلبه وتسمى وراءه في جنون! » .

وأطلق القارب الوحيد أسرعته مع الريح الناشئة ، فاندفع تحتها في سرعة ، بقوة المجاذيف والقلوع ، وعندما كان آخاب ينزل في النهاية على مقربة من السفينة ، مكاثباً بحيث يستبين وجه استاريك بوضوح وهو مثكى ، على الحافة ، هتف به أن يدير السفينة ، وأن يتبعه دون إسراع كثير في فترة مقدورة . وعندما نظر الى أعلى رأى طاشطيقو وكويكوج ودغة قد امتطوا القمم الثلاث في لهف ، بينما كان المجذفون يقلمون القاربين المشقوقين اللذين رفعا قبيل قليل الى جانب السفينة وهم منهمكون في إصلاحهما . وإذا أسرع رأى من خلال المجازات الجانبية لمحة خاطفة كلاً من اسطب وفلاسك وهما مستفولان على ظهر السفينة بين أكوام من الشفرات والحراب الجديدة ، وبينما كان يرى هذا كله ، بينما كان يسمع المطارق في القاربين المكسورين كانت مطارق أخرى بعيدة وكأنما تدق مسماراً في قلبه ، غير أنه تشدد مستجمعاً نشاطه . ورأى أن دوار الريح أو العلم لم يعد موجوداً في قمة الصاري الرئيس فصاح بطاشطيقو ، الذي كان لتوه قد بلغ ذلك المرقب ، لينزل فيحضر علماً آخر ومطرقة ومسامير ، لكي يسمّره الى الصاري .

وأخذت سرعة الحوت تخبو فيما يبدو فقد غدا القارب مرة أخرى قريباً منه في سرعته . وإن كانت إجفالة الحوت الأخيرة غير طويلة مثلما كانت من ذي قبل . ترى ما سرّ هذه التؤدة ؟ أكان قد أصابه اللغوب بعد ثلاثة أيام من المطاردة الدائبة ومن المقاومة التي تحدثها له المعرقات المعقدة التي يحملها أثناء السباحة ؟ أكان تباطؤه وليد خداع وخبت كامنين فيه ؟ ربما ، من يدري ؟ وفيما كان آخاب ينساب فوق الأمواج كانت القرشان الغلاظ القلوب ماتزال تراققه وهي قد لزمّت القارب في إصرار واستمرت تنهش المجاذيف الدائبة حتى أصبحت شفراتها مثلثة متدغدة ، وتكاد كلما انغمست في الماء تخلف فيه شذرات من شظايا .

- « لا تكثروا بها! هذه الأسنان إنما تهين لمجاذيفكم مساند جديدة . فكّ القرش أفضل للراحة وأثبت ظهراً من الماء الخاذل » .

- « ولكن ياسيدي في كل نهشة تصبح شفرات المجاذيف أصغر من ذي قبل » .
- تضايين وقتاً كافياً جذفوا » . ثم تمت : « من يدري إن كانت هذه القرشان تسبح لتعيد على لحم الحوت أو على لحم آخاب ؟ - لكن جذفوا! هيا ، أجل بكل حيوية ، ها نحن نقرب منه . الدقة! خذ الدقة ، دعني أمر » . - وإذا قال ذلك أعانه اثنان من المجذفين ليبلغ مقدم القارب الذي مايزال طائراً . وحين انحاز القارب الى جانب ، على طول المدى - وجري

على محاذاة زعنفة الحوت الأبيض بدا وكأن الحوت ساء عنه وعن تقدمه - وهو شيء يعترى الحوت أحياناً - وأصبح آخاب في نطاق الضباب الدخاني الطودي الذي قذفت به نفثة الحوت فأخذ يتلوى حول حردبته الضخمة الرابية «المونادنوكية»^(١). وعلى هذا الوضع كان آخاب قد أصبح منه قريباً فتعاس بجسمه ورفق ذراعيه كليهما طولاً الى أعلى التسديد . وقذف بشفرته العنيفة وبلعنته الأعنف في الحوت البغيض . ولما أن غاصت الشفرة واللعة حتى الشعلة كأنما ابتلعتهما ردغة سبخة تلوى موبى ديك من الجانبين الماء ، وكور زعنفته القريبة ، متشنجاً ، ضد مقدم القارب ، ودون أن يشقّ فيه ثقباً رماه فجأة بضربة أدارته على عقبه ولولا أن آخاب أمسك بالجزء المستعلي من الحافة متشبثاً لإنطرح في البحر مرة أخرى . غير أن ثلاثة من المجذّفين هووا في الماء ، لأنهم لم يكونوا يقدرزون اللحظة الحاسمة لهجومه ، ومن ثم لم يكونوا على استعداد لتناجها . وأتيح لاثنين منهما أن يمسكا بحافة القارب وإذا ارتفعا الى مستواه على ظهر موجة طرحا نفسيهما على ظهره مرة أخرى . أما الثالث فقد سقط عند المؤخرة بلا حول ولا قوة ، غير أنه ظل عائماً سابحاً .

وفي الوقت نفسه تقريباً ، انطلق الحوت الأبيض خلال البحر الخيَّاب بعزم قوي وخفة وحيّة ، دفعة واحدة ، فصاح آخاب بقمم الدفة ليباشر أمر الحبل ويمسكه ، وأمر الملاحين أن يدوروا في مقاعدهم وأن يجروا القارب الى هدفه . وما أن أحسن الحبل الغدار بذلك الشدّ والسحب المريين حتى فرقع في الفضاء الفارغ منقطعاً .

- « ما الذي انقطع في؟ بعض عضلاتي تتصدّع! عادت سليمة ، المجاذيف! المجاذيف! عليه ، هيا! » .

ولما سمع الحوت صوت القارب يشقّ الماء في اندفاع هائلة ، دار متحرّفاً بجهته الناصعة متحدياً ، ولكنه لمح في دورانه هيكل السفينة الأسود مقترباً ، وكأنما رأى فيها مصدر كلّ هذا التعقّب الجائر . وربما حدّث نفسه أنها عدو أكبر وأسمى فانقضّ فجأة على خطمها المقرب . وفكاه يصطكان وسط وابل ناري من الزبد .

ترنّح آخاب ولطم جبهته بيده وقال : « أصبحت أعمى ، الأيدي . مدوا أيديكم كي أتحمس طريقي . هل حلّ الليل؟ » .

فصاح المجذّفون المنكمشون : « الحوت! السفينة! » .

- « المجاذيف! المجاذيف! انحدر أيها البحر الى أعماقك كي يستطيع آخاب ، قبل أن

(١) نسبة الى جبل مونادنوك وهو منزل يشبه القبة في جنوبي نيوجامشير

تضع فرصته الى الأبد . أن ينحدر هذه المرة الأخيرة منزلقاً الى هدفه . السفينة! السفينة! اندفعوا يارجالى! ألا تريدون أن تنجوا سفينتي؟ » .

وحين دفع المجذفون عنوة خلال الأمواه المتلاطمة كالمطارق الضخمة عاط طرفا اللوحين في المقدم الذي لطمه الحوت ، وأصبح القارب المصاب مؤقتاً في لمحة أو نحوها مسجى على مستوى الأمواج تقريباً ، وملاحوه الذين غطسوا الى أنصاف الماء خانضين يحاولون جاهدين أن يسدوا الثغرة وينزحوا المياه المنصبة فيه .

وفي تلك اللحظة نفسها طلّت مطرقة طاشطيقو ، أثناء ذلك متصّبة في الفضاء ، ولفته الياة الحمراء ، بعض التفاف كأنها رداء بلاصي ثم تموجت منحسرة عنه كأنها قلبه الذي جاش منفلاً من قفصه ، أما استارك واسطب اللذان كانا دونه على الدقل المائل فقد لحظا الوحش المنقفص حالما لحظه طاشطيقو .

- « الحوت ، الحوت! ارفع الدفة! آه أيتها القوى العذبة في الهواء جميعاً ، ضمّيني اليك بقوة! لاتجملي استارك يموت إن كان لابد من أن يموت ، في نوبة إغماء تليق بالنساء . ارفعوا الدفة . أقول ، أيتها الأغبياء ، الفلك! الفلك! أهذه خاتمة صلواتي المتفجرة؟ كل ضروب الوفاء التي عرفتها طول عمري ، آه آخاب آخاب! تأمل ما صنعت . ثبات ، ياقيم الدفة . ثبات . لا . لا . ارفع الدفة مرة أخرى! إنه يدور ليلاقينا! آه إن جبهته الساخطة تنطلق نحو امرى يقول له واجبه أنه لا يستطيع أن يتخلّى عنه ، رباه! عونك ، كن الى جانبي! » .

- « لاتكن جنبي ، كن دوني أياً كنت يا من تريد أن تعين اسطب ، لأن اسطب أيضاً لايت هنا لايتحلحل . أنا أكثر في وجهك أيها الحوت العبوس! من ذا أعان اسطب أو من ذا أبقاه يقظاً سوى عينه التي لاتطرف؟ والآن يذهب اسطب المسكين لينام على حشية شديدة النعومة . ليبتها كانت محشوة بالعصي . أنا أكثر في وجهك أيها العبوس القمطرير! انظري أيتها الشمس . أيها القمر ، أيتها النجوم! أنا أدعوك أصحاب غيلة حشاشين لخير شخص ذي خيال كان أبداً ، ومع ذلك كله فأنا أقرع كأسى بكؤوسك ، فليتك تعطيني الكأس! آه ، آه ، آه ، آه! أيها الحوت العبوس ، سيتاح لك كثير من الجرع واللهمات . لِمَ لا تطير يا آخاب! أمّا أنا فأني أخلع نعلني وصدارتي استعداداً له ، ليمنت اسطب في تباته . موتاً شديد الففونة أجاجي الملوحة مع ذلك . كرز! كرز! كرز! آه يا فلاسك ليتني أنال كرزة حمراء واحدة قبل أن أموت! » .

- « كرز؟ لتنيّت فحسب أن نكون حيث ينمو الكرز . آه يا اسطب أرجو أن تكون أمي المسكينة قد تسلّمت القسط الباقي من مرّتي قبل اليوم ، فإذا لم تفعل فإنّ ما تأخذه بعد لن يزيد على بضعة مليمات ، لأن الرحلة قد انتهت » .

أطلّ جلّ البحارة من مقدم السفينة متوقفين عن العمل وقد بقيت في أيديهم المطارق وقطع الخشب والحراب والرماح دون أن ينتبهوا لإلقائها . تماماً كما بارحوا أعمالهم المختلفة ، وعيونهم المسحورة جميعها مصوبة نحو الحوت الذي كان يراوح رأسه المتوغد بالمصير من جانب الى جانب على نحوٍ غريب ، وقد أرسل أمامه وهو مندفع نطاقاً عريضاً من زبد متناثر في أشكال نصف دائرية . وفي منظره كله عقاب وانتقام وحي وحقد خالد ، ورغم كل ماقد يستطيع الانسان ابن الفناء أن يفعله ، فإن ذلك الركن البارز الصلد الأبيض من جبهته لطم المقدم اليساري من السفينة حتى ترنّحت الرجال والأخشاب ، وبعضهم سقط مكباً على وجهه ، واهتزت رؤوس الزراقيين في الأعالي فوق أعناقهم الغليظة كأنها تويجات قد سقطت من أماكنها .

وصرخ أخاب من القارب : « السفينة! عربية الموتى! - هي العربية الثانية ، خشبها لا يكون إلا أمريكياً! » .

وغاص الحوت تحت السفينة المترشرة وجرى يتأطر على طول قاعدتها ، ثم استدار وهو تحت الماء وانطلق بخفة الى السطح ثانية بعيداً عن المقدم الأيمن إلا أنه من قارب أخاب على بضع ياردات واستلقى هنالك ساكناً مطمئناً .

- « ها أنا أحوّل جسمي عن الشمس ، أنت ياطاشطيقو! دعني أسمع مطرقتك ، آه أيتها السواري الثلاث التي لاتعنو ، أنت أيتها الأرينة التي لاتصدع ، وأنت أيها الهيكل الجميل المتأله ، وأنت أيها الظهر الثابت ، أيتها الدقة المستكبرة ، أيها المخطم المصوب نحو القطب - ياسفينة مهيبة كالموت ، هل تفنين اذن ولابدت ، دون أو أكون فيك ؟ هل أحرم من آخر كبرياء حمقاء ينالها أدنى القباطنة الذين تتحطم سفنهم ؟ أه يا موتاً موحشاً يختم حياة موحشة! أحسن أن ذروة عظمتي تحل في ذروة حزني . هو ، هو! من أقصى حدودك ، انصبي الي أيتها الموجات الجريئة ، موجات حياتي الغابرة جميعاً وطاولي موجة موتي هذه المديدة المعروفة . نحوك أتدحرج أيها الحوت المبيد الذي لايجرز غلبة ، الى النهاية أصاولك مصارعاً ، من جوف الجحيم أسدد اليك الطعن . من أجل البغض أبصق عليك آخر أنفاسي . كلّ التواييت وعربيات الجنائز تنفوس في بركة واحدة! وبما أنني لن أحمل على تابوت أو عربية فلأتسحب مرقاً وأنا ما أزال أطاردك ، أيها الحوت اللعين . هكذا أبعث العربة » .

فقدف الرمح ، فندّ الحوت المصاب الى الأمام ، وجرى الحبل خلال اخدوده بسرعة مضطربة - جرى ملتويّاً . ووقف أخاب ليسويه وسواه حقاً ، ولكن اللفة علفت مارقةً حول

رقيبته . ودون نأمة ، كما يفعل خرس الأتراك حين يختمون الضحية بوتر القوس ، انطلق من القارب قبل أن يعرف الملاحون أنه ذهب . وفي اللحظة التالية ندت الأنشطة الثقبلة في طرف الحبل من البرميل الفارغ تماماً وصرعت أحد المجذفين فلطم وجه البحر واختفى في أعماقه .

وتوقف بحارة القارب المأخوذون لحظة ثم داروا : « السفينة! يارب يا عظيم أين السفينة ؟ » ومن خلل حجب وغشاوات محيرة رأوا خيالها المتلاشي يميل جانبياً ، كأنه ملقع بتلايف السراب في مضيق مسينا ، ولم يبقَ بارزاً فوق الماء ، إلا الصواري العليا بينما ظلّ الزراقون الوثنيون يرقبون البحر غاطسين وهم مستقرّون في مراقبهم العليا إمّا بقوة الهيام أو النوفاء أو القدر . وأحاطت بالقارب الوحيد دوائر منداحة ، فإذا كلّ ملاحيه وكلّ مجذاف عانم وكلّ قناة ، وكلّ ذي نسمة وغير ذي نسمة فيه ، يدورون ويدورون دورة الفلكة في دررور مائي واحد ، حمل أصغر شظية من الباقوطة وغاب بها عن الأنظار .

وعندما انصبّت الغمرات الأخيرة المتماوجة فوق رأس الهندي عند الصاري الرئيس تاركة بضع بوصات من السارية المنتصبة خارج الماء ، مع عصا الراية الطويلة المرفرفة ، التي أخذت تتموج في هدوء ، محدثة مفارقة ساخرة ، فوق الأمواج المحطمة التي تكاد تلامسها - في تلك اللحظة ارتفع ساعد أحمر ومطرقة وحلقاً خلفياً في الفضاء ، يريدان تشييت العلم وتسميره في السارية الهابطة ، وحطّ صقر سماوي تبع التويج الرئيسي زاجراً موبخاً . هابطاً من موطنه الطبيعي بين النجوم ، حطّ على الراية مزعجاً طاشطيقو هناك ، واتفق أن دسّ هذا الطائر جناحه العريض المرفرف بين المطرقة والخشبة ، وفي الوقت نفسه أحسن طاشطيقو المتوحش الفاطس من دونه بتلك الهزة الأثيرية وهو في سكرة الموت ، فأبقى مطرقة متصلة لا تريم ، وهكذا فإنّ طير السماء ذا الزعقات ، بزعاته التي تشبه نفخ الصور ، والمنقار الملكي المندفع الى أعلى ، والهيئة المستأسرة جميعاً الملفوفة في راية آخاب ، هبط مع سفينته وهي كالشيطان لاتغوص في جهنّم إلا إذا جرت معها قطعة من السماء ، اتخذتها خوذة لنفسها .

وطارت صفار الطير تزعق فوق الفوهة الفاغرة ، ثمّ تكسرت موجة بيضاء نكدة على حوافها المنحدرة ، ثمّ انهار كلّ شيء ، وانبسط كفن البحر المترامي ، متدرجاً ، مثلما كان يفعل منذ خمسة آلاف عام .

خاتمة

«ونجوت انا وحدي لأخبرك» (سفر أيوب 1: 15)

تمت الرواية . فلن يعود هذا الممثل للظهور على المسرح ؟ لأنّ واحداً ظلّ حياً بعد الدمار .
واتفق أن كنت أنا الفتى التي كتبت له الأقدار بعد اختفاء البارسي أن يحلّ محلّ القيم
في المقدمة في قارب آخاب ، حين احتلّ ذلك القيم المكان الخالي بفقدان البارسي . وهو
نفسه ذلك الملاح الذي سقط عند المؤخرة حين قذف الملاحون الثلاثة ، آخر يوم من أيام
المطاردة ، من قاربهم الخطّار . وكنت عائماً على حاشية المنظر التالي ، والمشهد كلّهُ
بمرأى منّي ، وحين بلغتني ضغط السفينة الفائضة ، وقد تبدّد بعض قوته ، كنت حينئذ
أنسحب ببطء نحو الدردور الآخذ بالإنفلاق ، وإذا وصلته كان قد تحولّ الى بركة بيضاء
مزبدة ، فدرت ودرت مشدوداً نحو تلك النفاخة السوداء التي تشبه الزر في محور تلك
الدائرة الدوّارة في بطنه . كأنّي اكسيون آخر^(١) . حتّى إذا بلغت ذلك المركز الحيوي انفجرت
النفاخة السوداء الى أعلى ، وإذا بالتابوت منفلاً بقوة مروته الدقيقة وقابليته الكبرى للعموم
ينطلق طولاً من البحر بقوة عظيمة ثمّ يهوي ثمّ يعوم الى جانبي ، وطفوت بعون ذلك التابوت
مدة يوم وليلة وعمت فوق بحر ناعم كأنه المرثية الحزينة ، وانسابت القرشان حولي دون أن
تمسني بأذى ، كأنّما وضعت على أفواها أقفالاً ، وانسابت صقور البحر من فوقني بمناقير
مغمدة . وفي اليوم التالي اقتربت منّي سفينة ، واقتربت ، وانتثلني ملاحوها أخيراً . كانت
هي « راحيل » الجوّابة الضالة ، التي وجدت ، أثناء بحثها المتردّد عن ولديها الضائعين ،
يتيماً آخر .

(١) في أساطير اليونان والرومان أن اكسيون ملك لبيطاي في تساليا عوقب على نجوره بأن أرسل الى الجحيم وربط الى دولااب ناري دائم الدوران .

ملحوظة

كل التعليقات التي رُمز إليها بعلامة كهذه * فهي مما كتبه ملثقل نفسه .
أما التعليقات المصدرة بالأرقام فهي من تقييدات المترجم .

الفهرس

5	فصل في الاستتاق	
7	مقتطفات	
23	تباشير	١
29	حقيبة من القماش	٢
33	حانة النفات	٣
47	غطاء السرير	٤
53	الفطور	٥
57	الشارع	٦
61	المعبد	٧
65	المنبر	٨
69	الموعظة	٩
79	صديق حميم	١٠
83	المنامة	١١
85	موجز سيرة	١٢
89	عربة يد	١٣
95	نانتوكت	١٤
99	الثودر	١٥
103	السنية	١٦
117	الصوم	١٧
123	علامته	١٨
127	ايليا المتنبئ	١٩
133	كل شيء على قدم وساق	٢٠
135	ركوب البحر	٢١
139	عيد ميلاد سعيد	٢٢
145	الشاطئ الآمن من الريح	٢٣
147	دفاع عن التحويت	٢٤

153	تذييل	٢٥
155	فرسان ووصفاء	٢٦
159	فرسان ووصفاء	٢٧
163	آخاب	٢٨
167	شجار	٢٩
171	الغليون	٣٠
173	ربة الأحلام	٣١
175	علم الحيتان	٣٢
189	مقطع الشحم	٣٣
193	المائدة في القمرة	٣٤
199	أعلى الدقل	٣٥
207	الربعة خلف الدقل الأعظم	٣٦
215	الغصروب	٣٧
217	غيش الظلام	٣٨
219	النوبة الأولى في الحراسة الليلية	٣٩
221	منتصف الليل عند المنارة	٤٠
229	مويي ديك	٤١
239	بياض الحوت	٤٢
247	أصح	٤٣
249	الخريطة	٤٤
255	الاقترار بيمين	٤٥
263	أوهام	٤٦
267	النجاج	٤٧
271	القوارب تنزل أول مرة	٤٨
281	الضج	٤٩
285	قارب آخاب وملاحوه - فيض الله	٥٠
289	النفائة الشبح	٥١
293	الفطرس	٥٢
295	الجمعة	٥٣
299	قصة تاونهو	٥٤

319	صور مشوهة ترسم للحيتان	٥٥
325	صور للحيتان أقل أخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحويت	٥٦
	الحيتان كما تتمثل في الألوان وفي الأسنان وفي الخشب	٥٧
329	وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم	
333	القشريات	٥٨
337	الصيدج	٥٩
341	جبل الصيد	٦٠
345	اسطب يصيد حوتاً	٦١
351	المزراق	٦٢
353	الشعبة	٦٣
355	عشاء اسطب	٦٤
363	الحوت بين ألوان الطعام	٦٥
367	مذبحة بين أسماك القرش	٦٦
369	تقطيع شحم الحوت	٦٧
371	البطانية	٦٨
375	الجنازة	٦٩
377	أبو الهول	٧٠
381	قصة السفينة يربعم	٧١
387	جبل القرد	٧٢
393	اسطب وفلاسك يصيدان واحداً من الحيتان الأثينة ثم يشتركان عنده في حديث	٧٣
399	رأس حوت العنبر - موضع مفارقة	٧٤
403	رأس الحوت الأثين - موضع مفارقة	٧٥
407	المنجنيق	٧٦
411	دن هيدلبرج الكبير	٧٧
413	حوض ودلاء	٧٨
417	جبهة كالمهوب اتساعاً	٧٩
421	لب الجوزة	٨٠
425	الباقولة تلتقي بالسفينة «المذراء»	٨١
437	ما في التحويت من شرف ومجد	٨٢
441	النظر في يونان من زاوية تاريخية	٨٣

443	قذف الحربة	٨٤
447	النافورة	٨٥
453	الذئب	٨٦
459	أسطول ضخ من الحيتان	٨٧
471	مدارس ونظارها	٨٨
475	سمكة موققة وسمكة مخلاة	٨٩
479	رؤوس أو أذنان	٩٠
483	الباقوطة تلتقي ببرعم الورد	٩١
491	العنبر الرمادي	٩٢
495	طريح بين أسواج	٩٣
499	عصر الأكر الشحمية	٩٤
503	الكازاك	٩٥
505	معامل التصفية	٩٦
511	المصباح	٩٧
513	التعبئة والتضريح	٩٨
517	الدبلون أو الدينار الإسباني	٩٩
525	ساق وذراع . الباقوطة النانتوكية تلتقي بصومويل اندربي اللندنية	١٠٠
533	القاورة	١٠١
539	ظلة في البلاد الأرسكية	١٠٢
543	قياس هيكل الحوت	١٠٣
547	الحوت في حالة تحجر	١٠٤
551	هل ينقص جرم الحوت ؟ أترأه يندرس ؟	١٠٥
555	رجل آخاب	١٠٦
559	النجار	١٠٧
563	آخاب والنجار	١٠٨
569	آخاب وإستاريك في القمر	١٠٩
573	كويكوج في تابوته	١١٠
579	المحيط الهادي	١١١
581	الحداد	١١٢
585	نار الحداد	١١٣

589	الشرك	١١٤
591	الباقوطة والعزب يتلاقيان	١١٥
595	الحوت المحتضر	١١٦
597	السهر على الحوت	١١٧
599	مقياس الزوايا	١١٨
603	الشموع	١١٩
611	ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الأولى في الحراسة الليلية	١٢٠
613	منتصف الليل - حوافي السفينة عند المنارة	١٢١
615	في الأعالي عند منتصف الليل - الرعد والبرق	١٢٢
617	البندقية	١٢٣
621	الابرة	١٢٤
625	مقياس السرعة وحبل المقياس	١٢٥
629	عوامة الانقاذ	١٢٦
633	ظهر السفينة	١٢٧
637	الباقوطة تلتقي براحيل	١٢٨
641	القمرة	١٢٩
643	القبعة	١٣٠
649	لقاء بين الباقوطة والمصرة	١٣١
651	السيمفونية	١٣٢
657	المطاردة - اليوم الأول	١٣٣
667	المطاردة - اليوم الثاني	١٣٤
677	المطاردة - اليوم الثالث	١٣٥
689	خاتمة	